

لجنة التأليف والترجمة والنشر





الجزء الأول

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

اهداء الكتاب

الى صديقى الجليل النبيل الأستاذ محمد راغب عطية بك :

أُهدى عُصارةَ ذهنى مُدَّة الحيـاة ، الى من أهدت مودّتُه الىّ أحلَى ذكرَيات الحياة ؟

المخلص

عبد العزيز البشرى

تقدمة الكتاب

بقلم شاعر القطرين و إمام أدباء العربية

الأستاذ خليل مطران

رغب إليَّ صديقى الكريم الأستاذ الكبير الشيخ عبد العزيز البشرى فى تقديم كتابه هذا ، فتفرست فيه فإذا هو لا يهزل . هلاّ فعل أيام كنت أنشئ المجلة المصرية ، ولى من قرب عهدى برياسة تحرير الأهرام بضع سنين ، ومما ينشر لى من الفصول فى المؤيد واللواء وغيرهما شهرة وذيوع صيت ، فأقدّم آنئذ للناس بوا كير فتى فارق حلقات الدرس حديثاً ، ودلّت الأُوَل من ثمرات بيانه ، على ما سيجنيه العالم العربى من قطوف أدبه وافتنانه

أما وهو اليوم أعرف من كل معرَّف بين الناطقين بالضاد فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلقد سامنى من هذا التقديم ما ليس بيسير . على أننى سأطلُع من ثنايا مباحثه إلى ذروة أرفع عليها علم أدبه ، وسأقتبس من آيات نبوغه ما أجلو به للمطالعين أمثلة من صور فضله

لقد ألهم الله الأستاذ خيراً ، فوافَى أمنيةً تجيش فى صدور محبيه والمعجَبين به بأن جمع من خطبه البارعة ، ومقالاته الرائعة ، ما تفرق فى الصحف والمجلات ، فاستوت كتاباً هو فى وقته كنز لأولى الألباب ، وسيظَل فيما يلى من الزمن ذخراً للأعقاب

و بعد ، فلم لا أقف من هذا الكتاب موقف الدليل من المتحف ، فهو فى الحق متحف حافلٌ بالمفاخر ، وكل طُرفة من طُرَفه جديرة بأن تطالَع فى تدبر وروية

على أنني سأكتفي بالإشارة المجملة إلى ما يتضمنه كل قسم ، وأتفادى من سماجة الدليل الذي يعطل بثرثرته مآخذ الذهن من التأمل الصامت فيما تقع عليه العين من روائع الفن ، وأحبّ إليه بل أجدى عليه أن يتملأها نظراً ، من أن يترواها خبراً

الباب الأول — في الأدب

ها هنا يمرّ المطالع بقلائد وفرائد من خطب وفصول في الأدب لا يخرج يتيمها ، ولا يحكم صوغها وتنظيمها إلا قلم البشري ولسان البشري ، تحركهما نفس كبيرة الهم ، بعيدة المرامي ، قلقة في مهابّ الأهواء ومثارات المنازع ، فيّاضة بحب مصر ، وإيثار العربية الفصحى لها لغة ، تتجنّب التحقيقات العلمية ، والتعاريف المنطقية ، وإن تبتغي إلا اقتناع المتأدبين من طريق الباعث الغريزي فيهم ، ومن طريق إخبارهم بما يجري عند الأمم الغربية الراقية من مثل ما عندهم ، بأن البيان يجب أصلا أن يكون عربياً سليما في اللفظ والأسلوب والاصطلاح ، وأن يتكيف مع سلامته ومراعاته لتلك الأصول ، فينطبع بطابع الفطرة المصرية التي لها ما تتخيره خاصة من تلك اللغة وتلك الأصول . فإذا أحيط البيان بهذا النطاق وصين من تسرب العُجمة إليه ، فلا مانع يمنع من كل ابتكار وتجديد ، على ألاّ يعدو حدوده ولا يمسّ الخصيصة القومية في جوهرها

يقول في الأدب بعد أن أمسك عن تعريفه ، وبعد أن أهاب مراراً بأعلام البيان وأئمة المتأدبين أن يعرّفوه أو يدلّوا على مواضع التعريفات الصحيحة له ، فلم تَدلّ أقلامهم بجواب :

« وعلى كل حال ، فإن الأدب إذا لم يضبطه تعريف جامع مانع ، فإن موضوعه واضح في مظاهره ، وفي الغايات التي يَطلبها ويتطاول إليها . فما من أحد إلا يرى أن أبلغ مظاهر الأدب في نفض الأحساس الكامنة ، والعواطف الجائشة ،

وتصوير ما يعتلج فى أطواء النفس من ألوان الانفعالات بعبارات موسيقية تتدسّس إلى نفس السامع ، فتثير منها كلّ ما يثور فى نفس الشاعر أو الكاتب . ولا شك عندى فى أن هذا أبلغُ مظاهر الأدب وأجلُّ غاياته »

ويقول فى فِقرة أخرى يصف بها الأدب المصرى القائم :

« وعلى الجملة إنك لو تصفحت هذا الأدب المصرى القائم ، لرأيته موزَّعاً بين حياة فى الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الإسلام ، وبين حياة فى بغداد أو الأندَلس ، فيما يلى ذلك العصر ، وبين حياة فى لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو . ولكن أين هذا الأديب الذى يعيش فى مصر ويصوِّر عواطفه المصرية التى يُلهِمها ما ينبغى أن يلهم المصرى من عواطف وإحساس ؟ »

ثم يعود فيفصل بعض الشىء ما أراده بالأدب العربى القومى ، وما أبلغ الكلام الذى أوحى إليه فى هذا الغرض . ومنه قوله :

« إذن لا مفر لنا من أن نلتمس أدبنا القومىّ ، ولا يكون هذا الأدب إلا عربىّ الشكل والصورة ، مصرىَّ الجوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نبعث الأدب العربى القديم ، وننثل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروَّى منها بالقدر الذى يَفسَح فى ملكاتنا ، ويقوّم ألسنتنا ، ويطبعنا على صحيح البيان . فإذا أرسلنا الأقلام فى موضوع يتصل بالآداب ، بوجه خاصّ ، أطلقنا القولَ فى صيغة عربية لا شك فيها ، على ألاّ نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج فى نفوسنا ، ويتصل بإحساسنا . ونصور بها ما نجد مما يلهمه كل ما يحيط بنا ، وما يعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدمت لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آدابِ الغرب ، وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقْلِ ما يتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب . وهذا أمر لا شك فيه ولا غَناء لنا عنه ، فإن ذلِك مما

يهذب من ثقافتنا ، ويَفسَح فى ملكاتنا ، ويُرهف من حِسّنا ، ويهدينا إلى كثير من الأغراض التى تَشتعبها آدابُ الغرب فى هذا العصر . والواقع أننا تهدّينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهـد من قبل ، أو أنها مما عالجه سلفنا ولم يكن حظهم منه جليلاً . ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبى لا يُجدى علينا ، ولا يؤدى الغرض المقسوم بمطالعته والإصابة منـه إلا إذا هذبناه وسوّينا من خلقه ولوّنّا من صورته حتى يتّسق لطباعنا ، ويوائم مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا ، كما ينبغى أن نجهد الجهد كله فى تجليته فى نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد ، فلا نحس فيه شيئاً من نبوّ ولا نشوز . وبهذا نزيد فى ثروة الأدب العربى ، ونرفع من شأنه درجات على درجات »

هذا هو الهدف الأكبر فيما رمى إليه الأستاذ بمختلف مباحثـه القيمة فى الأدب : ما تناول منها الموضوع فى لبابه أو جال به جولاته فى النقـد والشعر . ومَن مرّ بالقلائد التى نظمها فى هذه الفصول كلها والفرائد التى رصعها بها لم يفارقها إلا بقلب مشتاق ، ولب يستظهر بالذكرى على ألم الفراق

الباب الثانى — فى الوصف

هذا الجناح من المتحف فيه العجب العجاب : أتنظر بعين البدوى إلى تلك الآلة العجيبة « الراديو » فترى هيئتها كما يراها وتَدهش من مفاعيلها مثل ما دَهش منه ؟ أتشهد المؤلف قبل أن يركب الطيارة وحين ركبها ، وبعد أن تدلّى منها وصار إلى مأمن ، وأعاد ذكراها فى نفسه مروّعاً حين رآها فى السماء قافلة ، وهو يجالس بعضَ صحبه على شاطئ البحر بالإسكندرية ؟

أتتفرس فى رسم المؤلف حين يهتف هاتف من أصدقائه بسنّه وقد تشرّف على الخمسين ، وتقرأ فى ذلك الرسم كلّ ما تراءى عليه من الأحساس المتلوّنة التى تسكن أمثالها جوانح كل حىّ ؟ ولكن من فيهم يستطيع جلاءها كما جلا ؟

أيروعك شكله وهو صحيح معافى ؟ غير أنه لا يشعر بأنه مجتمع الشمل ، ولا يسكن إلى ما هو فيه ، وكلما اطّلع على ساعة من ساع الزمان رآه مشغولاً بالانحدار إلى التى تليها . فعلى محياه يرتسم سؤال : « إلى أين ؟ إلى أين ؟ » وسؤال آخر : « ألاَ من قَرار ؟ » على أن إجابته عن هذا السؤال هى إجابة الإنسانيــة كلها ، أجل ، ولكنها إجابتها بأفصح ما يتسنّى لنفس أن تعبر به تعبيراً خلاّباً بديعا عن أسرار حيرتها الدائمة !

أتنظر إليه فى رسم آخر وهو يمق ما يوحيه إليه الجمـال ، فتمر بك الألواح العجيبة من بزوغ شمس واستوائها على عرش ملكها تصـدر توقيعاتها فى حياة هذا العالم ، ومشيها بعد ذلك متثاقلة إلى خِدرها ، لتتوارى عن العيون خلف سترها

ثم من طلوع القمر « يبدو لك أول الشهر خيطاً دقيقاً ، ويبدو فى ثانيه كحاجب الأشيب ، ويستوى بعده قوساً ، ولا يزال ينمو ويُدرِك حتى يستوى بدراً كاملا » . فهو فى كل حالاته أولئك « ما حضر إلا أهنأ وهدى ، وما غاب إلا أضل وأشق »

ثم من روض أريض « قد انسرح بانه ، وفرعت فروعه ، وبسقت أغصانه ، وزكت أوراقه ، ورف بوحى النسيم نبته وجَلجَل اصطفاقه » الخ ، فأنت مفتتن بما يطالعك به أبدع وشى فى أبرع ديباجة

هذه أمثلة من طرف هذا الجناح ، ولكن أبت العبقرية إلا أن تختم سلسلتها بقصة جعـل الأستاذ عنوانها لفظة « حياء » ، وماذا أذهب به وأغرب فى سرد ما سرد من وقائعها ، وفى صدق تصويره لصاحبها بحسه ومعناه ، وفى مختلف أطواره

وفى إحكام السياق إلى أن أطفى من الرسوب فى أبعد قرارة من النفس معنى من أدق معانى الحياء . ولقد قال فى استهلال تلك القصة :

« وحين أترجم لموضوع اليوم بكلمة (قصة) لا أعنى الرواية ولا ما يشبه الرواية ، فإننى لا أشيع فيها خيالا ، ولا أخترع لها أبطالا ، ولا أخلق مفاجئات ، ولا أبتكر مواقف ، ولا أمدّ لها مغزى يصيب غرضاً ، ولا أعالج تحليل نفس أو فكرة ، لأننى لا أجيد هذا الضرب من البيان ولا أحذقه ، بل إننى لم أحاوله طول حياتى الكتابية ، و إنما أقص حادثة وقعت بسمعى و بصرى ، فإن هى أصابت غرضاً أو اتصل بها مغزى ، فذلك من صُنعها نفسها ، لا فضل لى من ذلك فى كثير ولا قليل »

وهاهنا لى استدراك على الأستاذ أبديه لزائر المتحف أو مطالع هذا الكتاب ! لو أن شيخنا (بالفضل لا بالسن) الأستاذ البشرى ابتدع هذه القصة استخلاصاً من الوقائع التى تجرى كلّ يوم بأسماعنا وأبصارنا كما يفعل منشئو الروايات ، ولم تكن مما شهده على حد ما ذكر ، لكان من أبرع القصاصين الذين عرفناهم . الله الله فى دقة الوصف ، واستشفاف ألطف ما يتحرك به الحس فى أطواء النفس ، الله الله فى روعة الأسلوب وصفاء العبارة ، و بلاغة تمهيد الفواتيح للخواتيم

على أنه لا يَزيدك بياناً على مقدرة الأستاذ فى قصصه مثل وقوفك على تراجمه وهى ضرب آخر منه ، وقد جلا بعضَ مأثوراتها فى كلامه على المرحوم شوقى ، وفى تراجمه التى أفرد لها الباب الثالث

الباب الثالث — فى التراجم

هذا القسم لا يَعرض لك فيه المؤلف إلا ثلاث صور : رشدى باشا — الشيخ على يوسف — محمد المويلحى . ولكنها ثلاث لا تقوم بها محتويات متحف مهما

كثرت وغلت ، على أنك تستشعر من البدء إلى النهاية فى هذه التراجم أن محرك العبقرية فيها إنما كان الوفاء ، وفى مثل هـذا يتجلى بأبهج الصور جلال التآزر بين القلب والعقل

فى هذه التراجم الثلاث ، حدّث الأستاذ واستفاض فى الحديث ، عن ثلاثة من أكابر رجالات مصر ، عرفهم حق المعرفة ، وتروّى حوادثهم شاهداً أو آخذاً عن ثقات ، وعلّق من نوادرهم أعلاقاً فيها من النفائس ما يضمن الخلود

خذ من بعض ذلك إحدى الصور التى صور بها رشدى باشا ، قال : « ولقد حدثت أحداث الإسكندرية فى مايو سـنة ١٩٢١ . ورشدى مع عدلى فى لندن يفاوضان كيرزن فى المسألة المصرية ، وكانت السلطة العسكرية قد ملكت الأمر كله عن الحكومة المصرية ، وتولت هى التحقيق بقوة الأحكام العرفية التى كانت مبسوطة يومئذ على البلاد . فلما انتهت المفاوضات إلى الكلام فى حماية الأجانب ، وعارض المفاوضون المصريون فى أن يكون هذا إلى انجلترا ، دفع اللورد كيرزن إليهم بتحقيق السلطة العسكرية فى حوادث الاسكندرية ، وما دمغ المصريين ظلماً بألوان الوحشية ، وما أضاف إليهم من أمور تقشعر منها الجلود ، فتناول رشدى باشا هذا التحقيق ويداه صفر من كل شيء . لأن التحقيق كما قلت لك ، استقلت به السلطة العسكرية ، فأبت على رشدى عزيمته . وأبت عليه وطنيته . وأبت عليه عبقريته إلا أن يُكِبّ ليلته كلها على هذا التحقيق ، والله يعلم ماذا بذل من مخه ، والله يعلم ماذا هراق من ذكائه حتى اتّسق له فى الصباح تقرير يعصف بهذا التحقيق عصفاً ، ويشهده على نفسه بالبُطل ، وشدة الحَمل على المصريين ، ثم مضى به إلى لورد كيرزن فألقاه إليه ، وما إن قرأه حتى سأل أن يتقاصّ الطرفان ، وكذلك أخلت حوادث الاسكندرية وجه الطريق »

ثم خذ صورة للمرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، تجده بها حيًّا

ناطقاً ، وتستطلع طلع الحقيقة فيه محلَّلة تحليلا يعرف مكانه من الدقة من عرف ذلك الكاتب القدير الذى تصرف فى اليسير من مادة اللغة بأحسن مما يتصرف غيره فى الكثير ، فأحدث من بالغ الأثر فى نفوس قارئيه ما تنطق به هذه الشهادة له من أديب لا يشق له غبار فى معرفة اللغة كالأستاذ صاحب هذا الكتاب . قال :

« وفى هذا المقام يجدر بى أن أنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة وتفقهه فى أساليبها ، و بصره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، إلى حسن ذوق ورهافة حسّ ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، و يصورها أبدع تصوير ، بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جداً ، إلى شدة نفْس الكاتب وقوة روحه ، فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنىّ بتقصّى منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأقلام ، ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكره ، تأبى إلا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعا . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى ، وهو غريب عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها ، أبينَ مثال على هذا الذى نقول . ولقد يَعجب القارئ أشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدى باشا ، وكان رجلا قلّ أن تطَّرد على لسانه ثلاثُ كلمات عربية متواليات ، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى مايتخاذل من دونه جهدأعيان البيان !

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم فى الأزهر وقرأ طَرَفاً من كتب الأدب ، واستظهر صدراً من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها — إلا أنه لم يكن مديناً فى بيانه لشىء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة روحه وسطوة نفسه . و إنك لتقرأ له المقال يخلبك و يروعك ، وتشعر أن أحداً

لم ينته فى البيان منتهاه ، ثم تُقبل على صيَغه تفتشها وتفرّها ، فلا تكاد تقع على شىء من هذا النظم الذى يتكافه صدور الكتاب ، و بهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلو باً ، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوى نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه النـاس من منازع البلاغات »

ثم إليك صورة للمرحوم محمد المويلحى ، أعجب ما فيها إبانتها عن سرّ فلسفته الخاصة فى حمله على نفسه وصبره على مضض الأيام ، موفقاً فى ذلك بين مذهبه الفكرى وسيرته العقلية فى الحياة . قال الأستاذ :

« ومن أهم ما يَلفت النظر فى خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمُر المرء من متعارف الناس ومصطلحهم فى عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ، بل لقد كان له نظره الخاص فى الأشياء ، وكان له حكمه الخاص عليها ، وهو إنمـا يأخذ نفسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالى أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجى . ولو كان مما انعقد عليه إجماع الناس ، و إذا كنت قد نعتّه (بالفيلسوف) فإنما أعنى هذه الصفةَ فيه ؛ فإننى لم أكد أرى رجلاً لاءم كلَّ الملاءمة بين رأيه فى أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذَ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لى من خَلَّة هذا الرجل بحكم ملابستى له السنين الطوال »

إلى هنا انتهيت بك أيها القارئ الكريم من الطواف عاجلاً بأقسام المتحف ، وليس بذاهب عنى أنى لم أزدك شيئاً على ما يعطيك عامةُ الأدلاّء فى المتاحف من الإرشاد الساذَج الناقص ، إلى مواضع مختلفة من مواقع الجمال والجلال

فانصرِف الآن موفقاً إلى ترو ية نفسك من اللذائذ الذهنية التى توحيها إليك — بلا وساطة — مطالعةُ ما فى هذا الكتاب من الآيات الفنية ؟

خليل مطران

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلَّى الله تعالى وسلَّم على سيّدنا محمد خاتم النبيِّين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَن اهتدى بهُداهم إلى يوم الدِّين

وبعد ، فما كنتُ أُقدِّر فى يوم من الأيام أن يَستوى من بعض هذا الذى أُرسله فى الصحف الدائرة الحينَ بعد الحين كتابٌ مجموع . وإنَّ عادةً لى لزمتنى من يوم ضَبطتُ القلمَ ألاَّ أُحرِص على حفظ شىء من آثاره المنشورة فى هذه الصحف . فإذا وقع لى شىء من ذلك أسرعتُ إلى إتلافه تمزيقاً أو تحريقا

وسبيل هذه العادة إلىَّ أننى أولَ ما عالجتُ الكتابة وتعلَّقتُ بصنعة القلم ، كنتُ أُدرك تمامَ الإدراك أننى ناشئٌ لا أُجيد البيان ، فإذا كانت لى طبيعةٌ فلن تتهيأ لى الإجادةُ إلاَّ بعد شدة معاناة وطول تمرين . وظللت على هذا دهراً وأنا فى ارتقاب الأحسن مما يَثبُت للأنظار لأحفظَه وأدَّخره للجمع ثم الطبع ، فلا أراه قد تهيأ لى ؛ فلا أبرح أُهمل كلَّ ما يَنتضِح به القلم ، ولا أُبقى منه على كثير ولا قليل

وظَلتُ كلما اطَّرد بى الزمن أشعر بأن المَدَى بينى وبين الكمال الذى أَنشُد يَطول ولا يَقصُر ، وأن الغاية التى أُطلب تبعُد على الأيام ولا تَقرُب . حتى لقد جَعلَت نفسى تَبرَم وتَضِيق كلما وقع لى عَفواً شىء من تلك الآثار . ثم لقد أصبحت تَعفِيتُها وإتلافُ ما يقع ليدى منها عادةً من تلك العاد التى تتصل بالفِطَر والطِّباع .

حتى لو قد خَرج المقالُ فأزهانى به شيطانُ الفتنة بالنفس ، وهَتَف به الصَّحابُ وغيرُ الصَّحاب ، فإنه لا يتعذَّر منى على ذلك المصير

وكثيراً ما استحثّنى صُدقائى على أن أُسوِّىَ من تلك الرسائل مجموعاتٍ أطبعها وأنشرها للناس ، فإذا اعتلُّوا على عذرى بأن هذا الذى أصنَع مما لا أراه يرتقى إلى هذا المكان ، رحتُ أجاريهم بظاهرٍ من القول . وفى التعليق على مشيئة الله تعالى عن الكذب مُنتَدَح

ولقد ظل هذا شأنى إلى أن لحقتنى فى صدر هذا العام شكاةٌ ألزمت جنبى الفراشَ ثلاثة أشهر تعلَّقتُ فيها بين الموت والحياة . ولعل جانبَ الموت عندى كان أرجح ، وحجتَه كانت بحالى أسْطى . وهنا بان لى أننى كنت حقَّ مخدوعٍ فى ذلك التأميل ، شأنَ المرء فى جميع أمانىّ الحياة

إذن لم أبلغ ذلك الكمال ، ولست بدانٍ منه ولو وُصلَت بالأجل آجال ، وما أنا بظافر بغير ما كان لى بحال ، فالطمع فيما وراءه من بعض المُحال

وإذن فهذا قَسمى من صنعة القلم ، وما بات للتأميل من بعد ذاك مآب ، وهيهات أن يُدرك المشيبُ ما انقطع دونَه جُهد الشباب !

وكذلك ألحَّت علىَّ الرغبةُ فى أن أستعرض آثارَ هذا القلم ، ففى استعراضها استعراض لما يصحّ أن يُدعَى بالحياة . ولعله قد وقع لسمعك ذلك المثل الشائع : (إن التاجر إذا أفلَس رجع إلى دفاتره القديمة) ، على أننى إذا شاركت ذلك التاجر ، فى هذا الحظ العاثر ، فقد زاد حظى عليه فِقدان تلك الدفاتر !

لم يبق بدٌّ من أن أذكى النسَّاخَ فى المكتبات العامّة ، فرجعوا إلىّ بكثير جمعتُ منه هذا الجزء ينتظم أبواباً ثلاثة : الأدب ، والوصف ، والتراجم . وسيتلوه إن شاء الله آخر فى الفن والفنانين ، والأفاكيه ، والمراثى

على أننى و إن لم أحرِّف رأياً سَلَف لى أو أُعدِّل فى فكرة ، و إن عَدَلتُ فى الواقع عنها ، حفظاً لحق التاريخ علىّ ؛ إلاّ أننى لقد عُدت بشىء من الصقل والتسوية فى بعض العبارات ، واستدراك ما عسى أن تكون قد فوّتت العَجلةُ مما يستقيم به نظمُ الكلام

كذلك لقد ضبطتُ بالشَّكل كلّ ما يَشيع الخطأ فى النطق به على ألسنة الكثير من الناس ، وشرحتُ ما عسى أن يُخطئهم من مفردات اللغة عليه ، تيسيراً للناشئين من المتأدِّبين

وعلى شدة العناية بالتصحيح لقد تسرّب بعضُ الخطأ إلى بعض اللفظ ، ولكن وجه الصواب فيه مما لا يُعيِي على الأفهام

* * *

و بعد ، فوالذى نفسى بيده لو كنت أعلم بظهر الغيب أن أستاذى إمامَ البيان وشاعرَ القطرين سيَصفنى بما وصف ، ما سألتُه ما سألت . ولكنه أبى إلا أن ينظر إلىّ نظر الأستاذ إلى تلميذه الخاصّ فلا يرى إلاّ حسناً . وحبذا لو كان قد جَمع عزمَه ، وحمل على نفسه ، وخرج قليلاً عن عطفه ، فبصّرنى مساقطَ عيوبى ، فما أحوجَنى إلى أديب عالم نزيه يبصّرنى هذه العيوب . ومَن أولى بهذا من أستاذى مُطران ؟

و إذا كان قد أخذنى بأنى لم أتقدم إليه بما تقدمت وأنا فتى ناشئ وهو يُخرج (المجلة المصرية) و يجول قلمه فى كبريات الصحف كلّ مجال ، فليعلم وصل الله فى حياته النافعة أننى ما برحت أنظر إليه اليوم بتلك العين التى كنتُ أنظر إليه بها فى تلك الأيام ؟

عبد العزيز البشرى

الباب الاول

فى الأدب

تطور الأدب العربى

وموضعه بمصر اليوم*

سيداتى ، سادتى :

وأخيراً فهذا نادى القلَم ، يَجمع فى مصر أيضاً بين رجال القلَم . ولقد يتداخَلُ بعضَ الناسِ العَجَبُ من أن آخرَ من يفكّر من أرباب المِهن فى التعارف والاتّصال والتعاون فى أسباب المِهنة هم أصحابُ القلم !

والواقع أن الأمرَ ، لو جاز به النظر ، لايَبعث على كثير ولا قليل من العَجب . فان رجالَ القلَم هم ، من صَدْر الزمان ، المتعارفون المتواصلون المتعاونون ، وإن تراخت بينهم الدّيار ، يلتقون كلّ حين فى حَلَق الدرس ، وعلى متون الصحف ، وفى بطون الكتب . يلتقون لا بصُوَرهم وأشباحهم ، بل بعقولهم وأرواحهم . فاذا كان تعَارفُ غيركم وتعاونُهم أثراً لاجتماعهم واتّصالهم . فانما يكون اجتماعُكم أنتم

* خطاب ألقاه الكاتب فى أول اجتماع لنادى القلم (١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣) ونشر بجريدتى الاهرام والسياسة فى صبيحة اليوم التالى

أثراً لتعارُفكم وتعاوُنكم . فاتصالُكم اليومَ ، على تفرُّق أصنافكم وألسنتكم وأهوائكم ، إنما هو مِن تسجيل الأمر الواقع لا أكثر ولا أقل

وهذا هو الاجتماعُ الذى لا تقوَى على تصديعه يد الزمان !

سيداتى ، سادتى :

لم تكن ثمار الفكر مِلكَ أمة ، ولا خِلْصا لوطن ، ولا حُكرةً لخلق من الناس . أفرأيتم كيف اجتمع لنادى القلم ، فى كل هذا اليُسر ، مع المصريين أصنافٌ شتَّى من الغربيين ؟ وكيف استوت السيداتُ فى مجالسهن أثناءَ الرجال ؟ بل كيف تَوافَى له مَن عسى ألاَّ يجمع بينهم من مذاهب الحياة إلا صَنعةُ القلم ؟ أفرأيتم إذن صِلَةً أوثق من هذه الصلة ، ورحماً أبرّ من هذه الرَّحم ؟

* * *

بعد هذا ، لقد أقبلتُ على نفسى أُسائلها : لماذا آثرنى بعض إخوانى بالدعوة إلى إلقاء أول كلمة فى أول اجتماع لنادى القلم ؟ ولماذا كلما زدتُهم اعتذاراً زادونى إلحاحاً حتى لم أجد لى من المطاوَعة ، بظَهر الغيب ، مَفيضاً ؟

لقد أقبلتُ على نفسى أسائلها . وكلما استصعَبَتْ وتعذَّرتْ علىّ فى الجواب زدتُها كذلك إلحاحاً حتى طاوعتنى هى الأُخرى . فاذا الجواب الذى استراح إليه فكرى أن العادة جَرَت بأنه إذا انتظَمت مواكب الجيش تقدَّم الأحدثون ، فالذين من فوقهم درجة ، وهكذا حتى يخلص آخر صفّ للقادة العظام . ومالى وللعسكرية وقد سَلختُ فى منصب القضاء دهراً . وآداب القضاء تَجرى بأن يُبدأ باستخراج الرأى من أحدث الجالسين جميعاً

إلى هذا المعنى استراحت نفسى ، وعلى هذا الاعتبار تقدمتُ إلى إلقاء أول كلمة فى هذا الاجتماع الكريم

ولستُ ، بالضرورة ، أعنى بالحداثة الحداثةَ فى السن ، و إلا لكنت من آخر مَن يتكلم فيكم جميعاً !

سيداتى ، سادتى :

كان حتماً علىّ بعد ذلك أن أختار موضوع حديثى إليكم ، ففكّرت ثم فكّرت ، فلم يهدنى تفكيرى ، على طول الترديد ، إلاّ أن أُلِمّ إلمامةً يسيرةً بتطوّر الأدب العربىّ وموضعه فى مصر اليوم . فلعلى بهذا أجلو منه صورةً واضحةً بعضَ الوضوح على مَن عسى ألاّ يكون قد عُنِىَ بمطالعته من إخواننا السادة الغربيين

وقبل أن أسترسل إلى هذا الغرض أبادر فأقرر أننى مؤمن كل الإيمان بأن الأدب ما كان فى يوم من الأيام ، ولعله لا يكون فى يوم من الأيام ، فناً محدود الأطراف . ثابتَ الأبواب ، مُرْسَخَ القضايا ، ينتهى من التأصيل والتقعيد إلى كمال معيّن ، أو شبه كمال معيّن ، شأنَ الفنون الموصولة بالعقل ، أو بالطبيعة ، أو بالواقع . فلا يدخل على قضاياها التغييرُ إلاّ بحدَثٍ عظيم من نحو استكشاف مجهول خَفِى فى الزمان على أنظار العلماء . بل إن الأدب لَعَرَضٌ يتكيّف و يتلوّن طوعاً لعقلية كل قوم ، وتاريخهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، والجوّ الذى يعيشون فيه ، وأسبابهم الخاصة ، ومبلغ شعورهم بالجمال ، بل وبصوَر هذا الجمال أيضاً

فالأدب الحقّ لكل قوم هو ما يكافئ عقليّتهم ، ويُرضى أذواقَهم ، و يواتيهم فى سائر أسباب الحياة

وعلى هذا ، لقد يكون من العَبث أن نطلُب للعامة من سكان الصعيد الأعلى مثلاً ، وهم شركاؤنا فى الجنس واللغة ، الأدبَ الذى يتروّاه و يَمتَع به المتعلِّمون فى كَبِد الحضر . وأن ننعَى عليهم تخلُّفهم فى هذا . و إن عَبَثاً كبيراً أن يُراد تنعيمُهم وتلذيذُهم بمثل أدب الجاحظ والأغانى ، و بما انتَضَحت به قرائحُ أئمة البيان وقادة الفكر فى الشرق والغرب ، ولو تُرجم إلى لغاتهم ، وأُدِّىَ إليهم فى لهجاتهم

سيداتى ، سادتى :

لقد كان لسلفنا العرب فى جاهليتهم أدبٌ قوىٌ جداً يُكافئ بداوتهم وشدةَ طباعهم ، وقوة غرائزهم ، وصفاء نفوسهم . أدبٌ يُواتى كلّ أسبابهم فى الحياة من الحرب والغزو والطّرد ، والتفاخر بالكرم والإيثار ، والتكاثرِ بالأهل والعشيرة ، وقوة الغزل ، ودقةِ الوصف لكل ما يتناوله حسُّهم . والوقوف بالديار ، ومسائلة النُّؤْى والأحجار

فلما فتح الاسلامُ عليهم من أقطار الأرض جعلَت أشعارُهم وسائرُ آدابهم تتلوّن بلَون الحضارةِ التى لا بَسوها ، والحياةِ التى أَخَذوا فى تذوّقها . حتى إذا بلغوا من العِلم حظاً ، واطّردت بهم الحضارة الواسعة فى عهد العباسيين . كان الأدبُ العربىّ شيئاً آخر ، شيئاً يُواتى مطالبَ عقولهم ، و يتَوافَق لأحلامهم وأذواقهم فى أسبابهم الحديثة

ومثل هذا يقال فى أدب الأندلس . فان صوَره ما برحت تُدارج شأنهم فى حَضارتهم ، فتترَف بترَفهم ، وتَلين بلين عيشهم . حتى كاد الأدب يصاب فيهم بالتزايل والاسترخاء . وحتى ولّدوا فى الشعر فنوناً لتؤدّى من الأغراض اللّيّنة الرّخوة ما عسى أن تثقُل عليه أوزان الشعر !

ومصر أيضاً ، لقد كان لها من عهد شيوع العربية أدبٌ يكافئ عيشَها فى كل عصر . على أنه و إن كان أدبها فى مبتدَإ الأمر لا يكاد يختلف عنه فى قاعدة الخلافة ؛ لأن الأدب العربى إنما كان فيها شِبه عارِية ، لا يكاد يعالجه إلاّ مَن انحدروا إليها من الأقطار العربية ؛ ولكنه على تَطاوِل الزمن جعل يتأقلم . وما برح يَطّرد فى هذا حتى أصبح يحمل الطابع المصرى الخالص ، حتى إن العديد الأكبر ممن هبَطوا مصر من العلماء والشعراء والكتاب فى أواسط القَرن السابع الهجرى ،

عَقِب سقوط بَغدادَ فى أيدى التتار ، لم يستطيعوا أن يُحيلوا لونَ الأدب المصرىّ ؛ بل لقد طبعهم وأنسالَهم بطبعه على الزمان !

سيداتى ، سادتى :

لقد امتُحِن الشعر العربىّ من العصر العباسى الأول بدخول شىء من الصنعة عليه . وكانت هذه الصنعة أولَ الأمر تعتريه فى رِفق ولين . وكان أكثر ما يتغشّاه من ألوان البديع الطِّبَاق والتقسيم والتجنيس . ومهما يكن من شىء فان الاحتفال للصنعة فى الشعر مما يفترّ فى الترجمة عن صادق الحسّ . وكلما أمعن الشاعر فى الاحتفال للصنعة ازداد ، بالضرورة ، التراخى بينه و بين نَفْسه

ثم ما برح يطّرد هـذا الصنيعُ ويَشيع فى الشعر العربى ، إلى أن يطلع فى العصر العباسى الثانى فيلسوفُ الأدباء قاطبةً وأعنى به أبا العَلاء المَعرّى . يطلع بديوان كامل ، ديوان تضمَّن أجلَّ ما تنزّل عليه من الحكمة ، ينتظم جميعَ أبياته لونٌ واحدٌ من البديع ، وهو لزوم ما لا يَلزَم من إجراء القافية على حرفين أو أكثر !

ولقد شاعت هـذه المحنة وتغلغلت لا فى الشعر وحدَه ، بل فى الشعر والنثر جميعاً . وكان لمصر منها حظُّها العظيم

وليس يتّسع هـذا المَقام للحديث فى أصحاب البديعيات من الشعراء . ولا فى القاضى الفاضل وتلاميذه من الكتاب . وكلُّ ما أستطيع أن أردَه الآن ، فى هذا الباب ، أن الأدب كله أصبح عبـداً للصنعة ، يَرتصِد للنكتة البديعية ، ولا يزال يَتحرّف باللفظ لاصابتها واقعةً ما وقعَت بعد هذا مرامى الكلام . حتى لقد ترون الشاعر يَعقِد فى قصيدته القافيةَ على حرف عزيز كالثاء مثلاً ، دلاًّ ومكاثرة ، فيستخرج القوافى أولاً . ثم ما يزال يَجدّ و يجهَد فى تجنيد الألفاظ لها ، وقَسْر الكلام عليها ، حتى يصيبها عن طواعية أو استكراه !

وعلى الرغم من أن مصر قد استوفت قِسطها من هـذا اللون من الأدب ، فقد بقى فيها الشعر والنثر كلاهما يحملان طابعها الخاصّ : حلاوة فى اللفظ ، ورقة فى الغَزَل ، ودقة فى وصف مشاهد الطبيعة

سيداتى ، سادتى :

لقد كَرَثَ الحكمُ التركىُّ مصرَ فى كل شىء : فى العلم ، وفى الفن ، وفى الأخلاق ، وفى الصناعة ، وفى التجارة ، وفى سائر وسائل العيش ، فأصبح من الطبيعى أن يتلوّن الأدب ، على الزمن ، بلون هذه الحياة . ولو قد ظلّ مع هـــذا على شأنه الأول من القوة وسعة التصرّف لمـا كان أدباً مِصرياً ، ولا كان مما يَتّسِق لأذواق المصريين !

ضَعُفت مَلكةُ العربية ، وشاعت التركيةُ على الألسُن ، بل على بعض الأقلام . واستأثرت بجميع الأسباب الديوانية . ودار الشعر فى أضيق الأغراض من المديح والرثاء والغزَل المتكلَّف المصنوع . ونحو هذا ممـا لا غَناء فيه لمطالب العقل القوى ، ولا لحاجات النفس الكريمة . وقد هزَلت المعانى ، وتزايلت التراكيب . وقلت العنايةُ باصطفاء اللفظ الشريف

وما بَرِح شأنُ الأدب على هذا حتى كان الفتحُ الفرنسى فى مُؤْخِرات القرن الثامنَ عَشَر . وتنظَّرَت بعضُ أسباب الحضارة الغربية لخاصّة المصريين . ثم أقبلت النهَضاتُ التى بَعثَها محمد على دِراكاً فى العلوم والصناعات ، وخاصّة من هذه ومن هذه ما كان بسبب من المطالب العسكرية

ولا يذهب عنكم أنه لم يكن من الرأى أن يَلتفت هذا المصلحُ العظيمُ ، بادئَ الأمر ، إلى الآداب فى حين أنه بسبيل استنقاذ البلاد من براثن الحكم التركى من جهة ، واستخلاصها من لَهَوات المماليك الذين أسرفوا فى استنزاف دمائها ، وشدة اعتصارها بالأيدى . وضَغْمها بحِداد الأنياب من الجهة الأخرى . فان هـذا ممـا

لا سداد للأدب ولا للفلسفة ولا للفن الجميل فيه ! إنما أمره كلّه إلى القوة المادية . فهذا لعمرى هو المَقام الذى يجب أن يُخفِت فيه عَزيفُ المدفع صوتَ الشاعر ، وتَزُمَّ فيه يدُ الجُندىّ بنانَ الموسيقى والمصوِّر جميعاً

سيداتى ، سادتى :

لسائل أن يعترضنى بهذا السؤال : لقد زعمتَ أن الأدب عَرَضٌ يَلحَق حالَ كل أمة فى عقليَّتها وأسباب حضارتها . فما بالُ الأدب ظلّ على شأنه طَوال عهد محمد على إلى صَدْر كبير من عهد إسماعيل ، مع أن البلاد قد تحوّلت حالُها بما أصابت من الفن وما حصَّلت من العلم الحديث ؟

وإننى لأُجيب سائلى بأن عقليّات الأمم لا تتحوّل بمثل هذه السرعة ، مهما يجدّ المصلحون أمثالُ محمد على فى الإسراع بأخذ عُنُق من أبناء البلاد بالعلم الحديث . إلى أن المتعلمين من بنى مصر يومئذ كانوا فى شغل دائم بالوسائل المادية التى كان يريد القائمُ أن يَخُط بها مُلكَه . إلى أن التركية كانت ما تزال شائعةً على الألسُن ، منتضِحةً على الأقلام . إلى أن مثل هذا العَرَض ، أعنى به الأدب ، لا يُواتى مَعروضَه من الساعة الأولى ، بل لابد من مَرّ الزمن حتى يَثبُت الطابع الحديث للعقليّة العامّة فى موضعه

على أننى أزعم ، بعد ذلك ، أن الأدب فى هذه الفَترة إذا لم يكن دارَج الحضارةَ الحديثةَ فقد لَمَحَها وأصاب منها فى بعض الحين

سيداتى ، سادتى :

أدركَت مصرُ فى عصر إسماعيل حظاً محموداً من الحَضارة . فشاعت فيها العلوم ، واستوثق الاتصال بينها و بين بلاد الغرب التى كثُر رُوَّادها من المصريين . وانحدَر العديدُ الأكبر من الغربيين إلى هذه البلاد سُيَّاحاً ومستوطنين . كما

نزحت إليها طائفةٌ من أعيان الأدباء والكتاب السوريين

بهذا و بهذا و بذلك جعلت الثقافةُ العامّةُ تتلوّن بلون جديد . وجعلت الأقلامُ تَستشرف ، بقدر ّما ، إلى أسباب الحَضارة الحديثة . ولا يفوتكم أن المطالب العسكرية فى ذلك الحين لم تُصبح مما يستغرق همّ القائم . بل لقد انبسط منه فضلٌ كبير للآداب والفنون . وكان أول من انبعث فى هذين البابين الصحافةُ الشّعبيةُ والتمثيل

ولقد انبعث ، طَوعاً لهذه الحال ، جماعةٌ من مشيخة العلماء فى طلب أدبٍ خيرٍ مما عانَوا من أدب ، فكان أول ما طلبوا مجفُوّات كتب الأدب القديم . واستخرجوا دواوين الفحول من متقدمى الشعراء . وجعلوا يتروّون هذا الأدب الجزْل ويُروّونه تلاميذَهم بالدرس والمحاضرة ، و بمجلة روضة المدارس التى كانت مجالاً لأبرع الأقلام فى ذلك العهد . فاستقامت المَلَكات ، وصَفَت الطبائع ، ورَهُفت الأذواق . وجرت فُصَح العربية ناصحةً على بعض الأقلام من أمثال المرحومَين إبراهيم المويلحى و إبراهيم اللقانى من الكتاب ، وعبد الله فكرى ومحمود سامى البارودى من الشعراء

إذن لقد جاد الشعر وجاد النثر . أو لقد جادا على ألسن نَفَر من الشعراء ومن الكتاب . وأشرقت ديباجة البيان وجرى ماء العربية صفواً . على أن النظم والنثر و إن اشتركا فى هذا المعنى ، إلاّ أن النثر كان أوسعَ فى فنون البيان تصرُّفاً ، كما كان أسبقَ إلى الاصابة من المعانى التى يَقتضيها عيشُ الحضارة الحديث

ولقد اطّردت هذه النهضةُ البيانيةُ فى مصر ؛ ولكنها لم تَجر كلُّها فى مذهب واحد ، ولم تجتمع على الاتجاه فى سَمْت معيّن . بل لقد كان شأنُها شأنَ القنبلة تنفجر فتتطاير شَظاياها إلى اليمين و إلى الشمال و إلى وراء و إلى قدّام ! فَخلْقٌ من أدبائنا لم يسلِّموا قطّ بأن الأدب شىء يَعدو شعرَ امرئ القَيس ، وعَيشَ امرئ

القَيس . فان هم تطاولوا إلى الفَرَزدَق وجرير فمن بعض التطوّل والإحسان : المركب الناقة ، والمأكل سَنام البعير (كهُدَّابِ الدِّمَقْس المُفَتَّلِ) ، والمَوْرِد النّبْع أو القَلِيب ، والأرض المَوْماة ، والمنزل الخَيش أو الشَّعر . وملتقَى الأحبة سِقط اللوَى . أما اللفظ فالمنتقَى المتخَل من كل ما ندّ عن الطباع ، ونَشز على الأسماع ! ! !

وقام بإزاء هؤلاء جماعةٌ من شبابنا قد استهلكهم الأدبُ الغربى ، فلا يرون أدباً إلا ما قال شكسبير و بيرون وأضرابهما . وأدَّوا إلينا طريفاً من هذا النظم فى لغة ليس منها عربى إلا مفردات الألفاظ ، ألفاظ يكاد المرء يَشهد ما بينها و بين ما قُسِرت عليه من المعانى من التصافُع بالأيدى والتراكل بالأرجل . ولولا ما يرتبطها من مثل قَيد الحديد لطار كلٌّ منها إلى ُعشه . فخرج لنا من ألوان التعابير ما لا ُيرضى الذوقَ الشرقىّ ، ولا يستريح إليه الطبع العربىّ !

وجعل كذلك جماعةٌ ممن تعلموا فى بلاد الغرب ، بنوع خاصّ ، يعالجون فى العربيــة إصابةَ المعانى الطريفة التى لامسها حسّهم . وهدتهم إليهــا أسبابُ تفكيرهم . فعجَزت اللغة ، أو عجَز ، على الصحيح عِلمهم باللغة عن حق أدائها . فخرج لهم الكلام إما غامضاً مبهما ، و إما عاميًّا أو ما يدنو من العامىّ

و بقى كتاب و بقى شعراء على ما تحدّر إليهم عن آبائهم من صور الأدب : ضيق فى الأغراض ، و إسفاف فى المعانى ، وفُسولة فى الألفاظ !

وارتصَد لهؤلاء وأولئك أعناقٌ من النَّقَدة . خلص بعضهم لوجه اللغة ، و بعضهم تجرّد فى الطريف ، و إن شئنا قلنا فى الغريب من المعانى . أولئك لا يرون فى شوقى ولا فى حافظ شاعرا ، ولا فى المويلحى ولا فى الشيخ على يوسف كاتبا ! وكيف ذلك ؟ ذلك بأنه قال : أثّر عليه ، والصواب أثّر فيه . وقال : غير مرة ، والصواب أكثر من مرة ! وهؤلاء لا يؤمنون بشاعرية البارودى لأنه لم يَقع فى

كل شعره على الشَّفق الباكى ، ولم يتحدّث قطّ عن الموت اللّازَوَرْدِى !

على أنه من الانصاف أن نقرر أن النقد كان له أثره فى تقويم الألسن وتحرّى الفصيح من جهة . ثم كان له أثره الحى ، بعد لأْى ، فى الاحتفال للمعانى وتعمُّد الإصابة من جهة أخرى

سيداتى ، سادتى :

كذلك كانت حالنا من ثلاثين سنة خَلَت . بعضنا يريد أن يُرضى العقلَ المحض ، وبعضنا لا يتجرّد إلاّ فى إرضاء اللفظ المحض ، وبعضنا خلَبته آداب الغرب ، وفتنته تشبيهات شعرائه وكتابه ، فهو يتصيدها واقعةً حيث وقعت من ذوق الشرق ومن لغة العرب

كنا إذن من أمر الأدب فى بَلبَلة أو فى شبه بلبلة . وما لنا لا نكون كذلك ونحن حقٌّ مختلفين على ماهية الأدب ، مختلفين على ما يَنبغى أن يؤديه الأدب ؟

ولكن الأستاذ الأعظم ، وأعنى به الزمن ، قد أنشأ يُلقى علينا من دروسه البليغة ما يقصِّر كلّ يوم من مَدَى الفُرقة ، ويوثّق من أسباب الأُلفة ، حتى اتفقنا ، أو بتنا على شَرَف من الاتفاق على أن الأدب إنما هو أولاً الأداةُ الجميلةُ لمواتاة مطالب العقل والحسّ والعاطفة جميعا . وتأدية كل شعورنا بما نلمس من أسباب الحضارة القائمة ؛ على أن يُترجِم عن هذا كله لسانٌ عربى ناصح لا وَحشة فيه ولا استعجام

ولا شك فى أن مظهر هذا الخير أجمعه هو الصحافة ، فللصحافة بهذا الفضل نَدين

ومن الواقع الذى لا تَلحقه الرِّيَب أن العربية القديمة زاخرةٌ بكنوز البلاغة فى جميع ألوان المعانى : فلقد مثّلَت فأبدعَت فى التمثيل ، وصوّرت فأوفت على الغاية من دِقة التصوير . ولَكَمْ تَرجَمت عن أعمق ما تَدَسَّى فى النفْس ، وعبّرت عن أشفّ

ما يترقرق به الحسّ . ولكن لا تَنسَوا أنه ليس من العدل أن نُجشِّم هذه اللغةَ أن تَرتَصِد ، بظَهر الغَيب ، لإصابة كل ما عسى أن يَجدّ من الأسباب بعد ألف عام !

إذن لقد أصبح مُهِمّنا الأعظم اليومَ هو استثمار تلكم الثروة الواسعة فى تجلية شعورنا ، والترجمة عن عواطفنا ، والتعبير عن كل ما يلامس حِسَّنا نحن فيما جَلَّ ودَقَّ من أسباب هذه الحياة . و بهذا نَصِل ماضينا بحاضرنا ، و بهذا نُدرك ما ينبغى لنا لا من أدب عربى فحسب ، بل من أدب قومى يُطلِق عليه التاريخ : (أدب مصر) . وهذا هو الجهد الجبار الذى يعانيه رجالات الأدب فى مصر اليوم . وكثيرٌ منهم ماثلون فى هذا المجلس الكريم

ولكى أكون متَّسقاً مع نفسى أقرر أننا لا نحاول أن نخلُق لنا أدباً مصنوعاً : بل اننا نتقرَّى هذا الأدبَ الذى يواتى عقليتنا . ويُشا كل إحساسنا ، ويُرضى أذواقَنا فى هذا العصر الذى نعيش فيه . فنحن بهذا إنما نَرُوض الأدب على حكم الطبع ، ولا نَرُوض الطبعَ على حكم الآداب

* * *

ولست أختم هذا الكلامَ دون أن أُلِمّ بمسألة كانت فى هذه الأثناء . ولعلها مابرحت ، من شُغل الأدباء ، وهى مسألة (التجديد) :

هنالك معركة مستحِرَّة بين التجديد وأنصاره ، و بين القديم وأوليائه . وأرجو أن تصدّقونى إذا ادعيت بين أيديكم أننى إلى هذه الساعة لم أتبيّن وجهَ الخلاف الحقِّ بين المتناضلين . على أننى أرجو أن نتفق فى القريب على أن الأدب أيضاً كائن حىّ يجب أن يَشِبّ و ينمو و يتطاول إلى ما قُدّر له من كمال ، على ألا تتنكّر صورته ولا يخرج عن شخصه

* * *

سيداتى ، سادتى :

قدّمت لكم أننا أبناءَ العرب قد تعارفنا بعد تناكُر ، وتلاقينا بعد تهاجُر ، واجتمعنا بعد فُرقة ، وتآلفنا بعد طول وَحشة . على أننا لم نَقنَع بهذا ، فلقد كان لاستيثاق الصِّلات بيننا و بين الغرب أثرُه فى شدة إقبالنا على أدبه وترَوِّينا منه ، وطبع كل ما يَسوغ طبعه على غِرار أدبنا ، حتى ليمكن لهذا العصر أن يسجِّل ما أصبنا سواء فى وسائل النقد أو فى طرائق التفكير . و إنّ تعاوُن رجال العلم فى بلادنا اليوم مع إخوانهم من الغربيين لَعلَى هذا من بعض الدليل

و إننى لأرجو ، بفضل أدبائنا العِظام وقوة جهودهم ، أن يَفسَح الأدبُ العربى لنفسه المكان الكريمَ بين سائر الآداب العالية ، لا ليَدُلّ على نفسه فحسب ؛ بل ليُساهم ، بحظٍّ كبير فى حركة الفكر ، وفى تنعيم الذوق الانسانى فى العالم المتحضِّر كله

حيرة الأدب المصرى ! *

قبل أن أخوض فى هذا الحديث الذى يستشرف له القلم اليوم أقرر ، ولعلى أفعل للمرة العاشرة ، أننى بالذات — على كُثر ما قرأت للمتقدمين والمحدَثين — لم أقع للأدب على تعريف جامع مانع ، على تعبير أصحاب المنطق . ولا أدرى إن كان الفرنج قد عرَّفوا الأدب على هـذا أم لم يعرِّفوه ؟ فاذا تحدثتُ عن الأدب ، فاننى إنمـا أتحدث عن الأدب الذى ألمحه . وهو الذى خرج فى لسان العرب

ومهما يكن من شىء ، فاننى بالذات لم أقَع ، كما قلت . على تعريف يجمع حدودَ الأدب ، ويدفع عنه ما ليس منــه . . . ولقد أهبت مراراً بأعلام البيان وأئمة المتأدبين أن يعرِّفوا لنا الأدب أو يدلّونا على مواضع التعريفات الصحيحة له ، فأمسكوا ولم تَتدَلَّ أقلامهم بجواب !

وعلى كل حال ، فان الأدب إذا لم يضبطه تعريف جامع مانع . فان موضوعه واضح فى مظاهره ، وفى الغايات التى يطلبها ويتطاول إليها . فمـا من أحد إلاَّ يرى أن أبلغَ مظاهر الأدب فى نفض الأحساس الكامنة ، والعواطف الجائشة ، وتصوير ما يعتلج فى أطواء النفس من ألوان الانفعالات بعبارات موســيقية تتدسَّس إلى نفس السامع فتثير منها كل ما يثور فى نفس الشاعر أو الكاتب ، ولا شك عندى فى أن هذا أبلغ مظاهر الأدب وأجل غاياته

وأخرج من هذا إلى أن الطبيعة البشرية وإن كانت ، على وجه عام ، واحدةً

* نشرت بمجلة المعرفة فى عدد فبراير سنة ١٩٣٢

فى الناس ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، إلا أن لكل أناس على ظهر الأرض أخلاقهم وصفاتهم ، وأسلوب تفكيرهم ، وتصورهم للأشياء ، وتقديرهم لها ، ثم أذواقهم ، وألوان عواطفهم وما يثيرها من فنون العوامل

ذلك بأن لكل قوم أصلهم وتاريخهم ، ورُقعة بلادهم ، ومناظر أرضهم وسمائهم ، وما دَرَجوا عليه من أخلاق مطبوعة ، وعادات موروثة ، وأحداث مأثورة ، وغير ذلك مما يطبع كل أمة على غِرار خاصّ ، ويجلّيها فى شخصية تغاير ما عداها من شخصيات الأمم الأخرى . وما من فكرة تتحرك فى العقل ، أو عاطفة تعتلج فى النفس ، أو خيال يحلّق فى الذهن ، إلا وهو مستمد من حقيقة واقعة أدركها الإنسان باحدى حواسه الخمس . أما أن يَختلق الذهن ما لا يتكىء على حقيقة واقعة ، فذلك ضرب من المستحيل . وإذا بهرك أن الخيال لقد يخلُق من الصور ما لم تقع عليه عين أو تتصل به أذن ، فاعلم أنه ملفّق لا أكثر ولا أقل : ملفّق كلّ ما يجلو من الصُّوَر من أجزاء يرجع كل منها إلى حقيقة يقع عليها الحسّ

وبعد ، فانما نحن فى تفكيرنا وتصوُّرنا وما يحوك فى أنفسنا من ألوان العواطف ، وما تتعلّق به أذهاننا من فنون الأخْيِلة ، إنما نترجم عن تاريخنا ، وعاداتنا ، وبيئتنا ، ومناظر بلادنا ، وغير أولئك من العناصر التى طبعتنا أمةً واحدة . هذا هو الشأن الذى ينبغى أن يكون لكل أمة ، وعلى هذا ينبغى أن يكون الأدب فى كل أمة

وإنك — على تقارب اللغات الغربية وتكافئ أصحابها فى المدنية ، وتوافى بعضها لبعض فى أسباب الحضارة — إنك مع هذا لَتسمع بالأدب الفرنسى ، والأدب الانجليزى ، والأدب الألمانى ، والأدب الروسى ، وغير ذلك ، كما تسمع بالأدب العربى : ذلك بأن العلوم والصناعات وما إليها ، أمور يمكن أن تتقارَضها الأمم . أما الأذواق وخَلَجات النفوس ونزَوات العواطف ، فما لا يقع عليه التقارض

والإعارة ، و إن جاز لأمة أن تقلّد أخرى وتحذو حذوها فى طريقة الأداء وأساليب الاستقراء والتحليل ، وليس معنى ذلك تحويل الأذواق أو تلوين العواطف !

* * *

نعود بعد كل ذلك إلى أدبنا — نحن المصريين — ونُقْبِل على أنفسنا بهذا السؤال : هل ما نتحرك فيــه من الأدب اليوم يؤدِّى حقاً مطالبَ الأدب التى سلف عليها الكلام ؟ و بعبارة أخرى : هل الأدب الذى نعالجه اليوم مؤدٍّ حقَّ الأداء لما يَعتلِج فى نفوسنا من العواطف ، وما يَجيش فيها من فنون الإحساس ؟ أو بعبارة ثالثة : هل نحن نترجم اليوم بهذا الأدب عما ينبغى أن يُمليه علينا تاريخنا وطبيعتنا ، وأخلاقنا ، وعاداتنا ، ومناظر بلادنا ، وما جاز بنا من أحداث ؟ وعلى الجملة هل نترجم حقاً عما تقتضينا جميعُ أسبابنا فى الحياة ؟

لا شك فى أن أول ما يخطر على القلب فى سبيل الإجابة عن هذا السؤال ، أو هذه الأسئلة ، هو استعراض مظاهر الأدب القائم اليوم ، وتَقرِّى صوَره وألوانه ، وتحرِّى مطالبه وغاياته ، لنعرف أين يقع من مطالب الأدب التى تقدم فيها القول

والواقع أنه مهما تختلف لهجات المتعاصرين من الأدباء فى أية أمة من الأمم ، وتتغاير أساليبهم فى فنون البيان : شعراً كان أو نثراً ، فانك — ولا ريب — واجدٌ لمجموعهم طابعاً خاصاً يدل على عصرهم ، و يميزهم عن غيرهم ، بحيث يتهيأ للناقد الخبير أن يستدل من نفس البيان على العصر الذى انتضح فيه دون أن يُرفَد بأيه إشارة إليه . ولـكنك ، مع هذا ، لا تستطيع أن تجد اليوم هذا الطابع للأدب فى مصر ، وتستطيع أن تزعم مثل هـذا عن الأدب فى الشام . ونقصر الكلام على الأدب المصرى ففيه سُقنا الحديث

عندنا شعراء عظام ، وكذلك عندنا كتاب عظام ، على أنك حين تبلو آثارَهم ، وتقلب النظر فى ألوان بلاغتهم لا تصدِّق ، لولا أنك تعيش فيهم ، أنه يجمعهم عصر

واحد فى أمة واحدة ! وليس هذا التبلبل مقصوراً على أساليب البيان ونسج الكلام والملاءمة بين الألفاظ ، بل إنه ليتعدَّى هذا إلى الأغراض والمطالب ، وطريقة نفض العواطف الباطنة ، وبزل النزَوات الكامنة

هذا شاعر فحل لايرى الشعر يجود ، بل لا يرى فيه شعراً البتة إلا إذا خرج فى كلام جزل ، وتحرّى الإتيان فيه بغريب اللفظ وشامسه[(١)]، وحسبه من المطالب الوقوف بالديار ، والبكاء على النُّؤْى والأُحجار ، والتشبيب بهند ودعد ، والهُتاف برَضْوَى وسَلع ، وطلع بك على مضارب القِباب ، وما أجنَّت من عاتكة والرباب ، ووصف لك النياق وما صنع بها الوجيف فى الموامى حتى أتت أنقاضاً على أنقاض !

وهذا شاعر لا يرى الشعر إلا أن يكون الكلام جزلاً سهلاً ، متين الرصف ، متلاحم الأجزاء ، مُشرِق الديباجة ، واقعة أغراضه ومعانيه بعد ذلك حيث وقعت !

وهذا شاعر يَعتصِر ذهنه ، ويكدّ عصبه فى تصيّد معنى جديد ، والوقوع على تشبيه طريف الخ

وهـــذا كاتب أجلّ همه تجويد العبارة وصقلها ، وتلقّط ما جالت به أقلام السابقين من الألفاظ المشرقة والجمل النيِّرة لا يسوقها إلى معانٍ قائمة فى نفسه ، وإنما يسوقها لنفسها ، ولو استكرَه المعانى عليها استكراهاً !

وهذا أديب لا يراك حقيقاً بالبقاء فى هذا العالم إذا زلّ بك القلم فقلت « أثّر عليـه » ولم تقل « أثّر فيه » أو قلت « الشماعة » ولم تقل « المشجب » أو قلت « غير مرة » ولم تقل « أكثر من مرة » الخ الخ — لا يراك كفؤاً للحياة بَلْهَ حمل القلم ، ولو لم يتعلّق بغبارك فى العلم والأدب والبيان أحد !

وهؤلاء كتاب ، وجُلُّهم من ساداتنا أصحاب التجديد ، لا يعجبهم كاتب عربى ، ولا فكر شرقى ، ولا شىء مما يتصل بأسبابنا باعتبارنا مصريى البيئة

(١) الشامس : النافر المتمنع

عربي اللغة . ذلك بأنهم قرأوا شكسبير ، و بيرون ، وما كولى ، ودنتى ، وفلان وفلان من تلك الأسماء التى تسكُبها أقلامهم فى آذاننا كل يوم . ولقد يطلُعون علينا بألوان من البيان لا نُدركها لأنها لا تتصل منا بسبب ، ولقد يريدوننا على اتخاذ نماذج لألوان من البيان لا نفهمها ولا نستطيع فهمها ولا تذوقها ، فضلاً عن أن نَصنعها ونجوِّدها ، لأن طبيعتنا غير طبيعة أصحابها ، و بيئتنا غير بيئتهم ، ولساننا غير لسانهم ، وكل شيء فينا مغاير لكل شيء فيهم !

وعلى الجملة ، فانك لو تصفَّحت هذا الأدب المصرى القائم ، لرأيته موزَّعاً بين حياة فى الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الإسلام ، و بين حياة فى بغداد أو الأندلس ، فيما يلى ذلك العصر ، و بين حياة فى لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو . ولكن أين هذا الأديب الذى يعيش فى مصر و يصوِّر عواطفه المصرية التى يُلهمها ما ينبغى أن يلهم المصرى من عواطف و إحساس ؟

الواقع أن الأدب المصرى من هذا فى أشد الحيرة والاضطراب . على أنه لا ينبغى لنا أن نبتئس بهذا ولا أن يشتد ضيقنا به ، فان من الواقع المحسوس أيضاً أن أساليب أصحاب البيان جعلت تتقارب رويداً رويداً ، كما جعلت منازع تفكيرهم تتصل شيئاً فشيئاً . ولا شك فى أن الفضل فى هذا يرجع إلى قوة انتشار الثقافة العامّة وتعاظم وسائلها فى هذين السنين

الأدب الحاد *

من الواقع الذى لا يَتطاوَل إليه الشكُّ أن مصر تَنبعث الآن فى نهضة قوية فى كثير من أسباب الحياة ، وفى صدرها الثقافة بوجه عامّ ، والأدب على وجه خاصّ

لم يُصبح الأدبُ مجرَّدَ فضل من الكلام لا يكاد يُطلَب به شىء . ولم يَبق للأدب مُضطرَبٌ فى تلك الأغراض الهزيلة التى كان يَضطرب فيها الأجيالَ التى تقدَّمتنا من العصر التركى إلى خمسين سنة خَلَت . ولم يُمسِ جهدُ الأديب متجرّداً فى طلب المحسّنات البديعية واستكراهها على الكلام ، بَلْهَ تسوية الكلام لمجرّد إصابة تلك المحسّنات فحسب . لا ! لا ! لقد عَزَّ الأدب فى هذا العصر ، واستحصد مُلكه ، وعظم شأنه بما ارتَصد لتجلية الفكر ، وأداء مطالب العقل ، والتسلية عن النفس وتلذيذها بكل جميل و بكل بديع

وفى الغاية ، لقد جعل الأدب يَتبسَّط من يمينه ومن شماله حتى كاد يَستغرق ، بجهد أعلام البيان ، جميعَ الأسباب الدائرة بين الناس . فاذا تقاصر الأدب العربىّ اليومَ عن توفّى شىء من الأشياء ، فانه لبالغه فى القريب بعون من الله و بتظاهر جهود الأدباء

على أن ما من حقه أن يَلفت النظر فى هذه النهضة البيانية — ولا أحسب ذلك مما دقّ على أفهام الكثير من جمهرة المتأدبين فى مصر — أن الأدب العربى ، فى جميع ألوانه وصوره ، قد أُصيب فى هذه السنينَ بنَوبة عصبية قل أن تفارقه أو ترِقَّ عليه ، و إن كانت هذه النوبة أثقلَ على أقلام الكتاب منها على أقلام الشعراء

* نشرت فى مجلة الهلال التى صدرت فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٣

وبعد ، فأنت خبيرٌ بأن لكل مقام من مقامات الكلام بياناً يَحسُن به ولا يَحسُن بغيره ولا يَحسُن هو فى غيره . فهذا الباب لا يَصلُح إلا بسَطْوة القول وحدَّة القلم . وهذا الباب لا يجوز أداؤه إلا فى لِين لفظ ورِفق تعبير . وهذا الباب لا يُحمَد الكلام فيه إلا بالاجتماع لتجويد الصياغة وإحكام النسج ، والإصابة من فنون البديع بما لا يستهلك الغرضَ أو يُسيء إلى المعانى . وهذا الباب لقد يَرذُل فيه مثلُ هذا ويعاب كلَّ العيب . فان من يَستنفِر قومَه للجهاد ذِياداً عن شرفهم ودِفاعاً عن حريمهم ، لا كَمن يصف مجلس لهو فى روضة مِعطار ، قد لَعِب النسيم بأغصانها ، وغرَّد الهَزارُ على أفنانها . وإن مثل ذلك اللعب باللفظ واعتماد نكات البديع لسمِج كلَّ السمَج بالمرء يرثى ولده ، ويَصف ما أجدّ له الأسى من ألوان البرَح ، وما أحدث الثُّكل فى كَبِده من صُدوع ومن قُرَح

هذا إلى أنك فى الباب الواحد لقد تقول فى هذا الموضع كلاماً لا يَجمُل بك أن تقوله فى موضع آخرَ منه . فان من يزِلّ لسانه بالكلمة العوراء فى صديقه ، ليس كَمَنْ يسعَى فى إردائه أو الإصابة من شرفه مثلا . فهذا يقال فى عتابه أو هجائه كلام . وهذا يوجَّه عليه كلامٌ آخر

وبعد ، فليست بنا حاجة إلى التقصِّى وطلب الصوَر المختلفة لمقامات الكلام ؛ فذلك من القضايا المفروغ منها . ولقد أجمل الأقدمون هذا المعنى فقالوا : « لكل مَقام مقال »

ونَرجع الحديثَ ، بعد هذا ، إلى ما سُقنا له الكلام :

أسلفنا أن الأدب العربى ، فى جميع ألوانه وصوره ، قد أُصيب فى هذه السنينَ بنَوبة عصبية قلّ أن تُفارقه أو ترِقّ عليه . وحسبك أن تُقلِّبَ النظرَ فى الصحف السياسية مثلا ، فلا ترى إلاّ عُنفاً ولا ترى إلا حَدًّا ، وخاصةً فى مقام الجدَل الحِزْبى . وإذا لم يكن فى كل هذا الباب ما يَجوز أن يَجرى القلم فيه هيناً رفيقاً لأن

موضع النزاع هيّن رفيق . أفكلُّ مواضع الخلاف ، على كثرتها وتفرّق مذاهبها ، حقيقٌ بأن يصل العنفُ فيه إلى أقصى مَداه ، و ينتهى إلى غاية منتهاه ؟

اللهم إن من البديه أن التهمة ، إذا كانت هنالك تُهم ، من المَقولات بالتشكيك ، على تعبير أصحاب المنطق . وهى فى باب السياسة تنتهى بخيانة الوطن (والعياذ بالله) ، وتبدأ بالتفريط اليسير فى اليسير من الحقوق العامّة . و بين هذين الحدّين مراتبُ كثيرة . ولكننا تعوّدنا أن نَسِم كلّ هذا بمِيسَم واحد ، ونطبعه بطابع واحد ، ونُجرى القولَ فيه بدرجة سواء !

ومالى وللسياسة وكتّابها ، فذلك شىء قد نترْتُ منه يدى من زمان بعيد . ولا والله ما قصدتُ — وأنا أُصيبُ من هذا المعنى — صحفاً بأعيانها ، ولا تَمثّل لى كاتبٌ بشخصه ، فلقد أضحت هذه الخَلة من عموم البلوَى ، على تعبير جماعة الفقهاء

ولقد تزعم أننا فى كِفاح سياسىّ عنيف ، ومن شأن هذا الكفاح أن يُرهِفَ الأعصاب ، ويُحِدّ الأقلام ، ويُثير فى النفس أعنَف الشهوة إلى الخَصم والفَلْج — لقد تزعم هذا ، ولقد أستريح إلى هذا الزعم معك ؛ فانترك السياسةَ ولنترك السّاسةَ يَمضون لطِيّاتهم راشدين . ولنتحوّل إلى غير هذا من مقامات البيان التى لا شأن لها بالسياسة ولا شأن للسياسة بها : سَرِّح نظركَ فى أى جدل دينى أو علمى أو فنى ، فانك لا تُصيب إلا عُنفاً و إلا حدّةً فى منازع الجدل والحِوَار !

ثم تعالَ نطالع المسرحَ المصرى ، فاننا لا نكاد نسمع منه إلا هَدّة الهَدم ، ولا نشاهد فيه إلا مَسيل الدماء وتسعُّر النيران . هكذا يؤلف الكاتبُ المسرحى غالبا ، وهكذا يَختار المترجِمُ للمسرح المصرى من فنون (الروايات) !

وهنالك شباب ناشئون يُعالجون وضعَ (الروايات) القصصية . أفرأيت فيها ، فى الكثرة الكثيرة ، إلا المآسى ، و إلا أعنفَ المآسى وأحدّها من ثكْل الولد ، وموت الخطيب ، وفِرَار العروس ، وخراب الدور العامرة ؟ فاذا كان هناك هوًى •

وصَبابةٌ ، فخذ ما شئت من أقسى المعانى وأشدّها ، ومن أعنف الصوَر وأحدّها .
وعلى الجملة ، فأنت لا تكاد ترَى فى صوَر أدبنا المختلفة إلاّ مظاهرَ تلك العصبية التى غَشيَتنا جميعاً فى هذه السنين !

وإنى لأذكر أننى دُعيت لتقدير الدرجات فى بعض الامتحانات الخاصّة فى مادّة الإنشاء . وكان الموضوع المطروح على الممتحَنين لا تَستدعى طبيعتهُ جدلاً ولا اجتماعاً للقهر والفَلْج . فاذا كان ولابد ففى ليّن القول ورفيقه كفاية وغَناء . ولكن لم يرُعنى إلاّ أن أرى الكاتبين جميعاً قد أشَبُّوا حرباً وتمثّلوا وجاهَهم عدوًّا . وسَرعان ماضَريَت نفوسُهم وثارت حفائظهم . فاستحالت الأقلامُ فى أيديهم قَناً خَطِّية راحوا يشُقّون الصفوفَ بها شقًّا ، ويدُقون بها أصْلاب الأقران دَقًّا . وما برحوا فى كرّ وفرّ ، وَمَدّ وجَزر ؛ وهل جاءك حديثُ الطّرْف الأغرّ ؟ ثم تمّ لهم النصر والغَلَب . ومضى هذا فى تعقّب من فرّ وطلب من هرب ، وتجرّد هذا فى استخلاص السّبْى واستصفاء السلَب ! ! !

ولقد نَبهتُ إلى هـذا تنبيهاً قويا فى تقريرى الذى رفعتهُ إلى وزارة المعارف يومئذ . وعلمتُ بعـدُ من كبير فى الوزارة أن الرأى قد اجتمع على لفت أساتيذ الإنشاء فى المدارس إلى ذلك

* * *

ولست أكتُم القارىءَ أن هـذه الحالَ لابد عائدةٌ على الأدب العربىّ بأبلغ الأخطار . ومن هذه الأخطار حرمانُ المتعلّقين بالأدب الاستمتاعَ بكثير من الفنون التى لا تستريح إلاّ إلى الدَّعَة والرِّفق واللِّين ، كالوصف ، والتحليل ، والكشف والتفكيه ، وألوان المداعبات . ولا تنس ، وراء ذلك ، تلك المغازى البعيدة الرائعة التى يَشُكّها الكاتب اللبق النافذ القلم ، فى سَراحٍ ورَواح[1] : حتى ليخيّل للقارىء

(١) يقال : فعل الشىء فى سراح ورواح أى فى سهولة

أنه لم يَطلبها ولم يتعمدّها و إنمـا هى التى سقطت إلى الطِّرس من عَفو القدَر !

ومن هـــذه الأَخطار الذهابُ بملَـكة الوزن والتقدير ، ووضع كل شيء فى نِصَابه ، ومكافأته على قَدر ما يخرج من حسابه . فان الثائر المهتاج لا يصلح لتقدير شيء ، ولا يَصح حكمه على شيء . ومن هنا يتبين كيف تُسىء هذه الحالُ إلى كثير من قضايا العلوم والآداب والفنون . كما تُسىء إلى غيرها من الأسباب الدائرة بين الناس !

ومن هذه الأَخطار أننا أصبحنا لا نَشرَع القلمَ إلا إذا كنا غِضابا ، فاذا أَعوَزَنا الغضب زَرَزْنا على أعصابنا ، وتـكلّفنا إرهافَها و إزكاءها لتعتصر آخرَ ما فيها من جهد ، وتصول بكل ما تملك من سَطْوة . وهـذا إلى أنه ممـا يُخبِّث من نفس الـكاتب والقارىء بطول التـكرار والمعاوَدَة ، فانه ممـا يَهدّ منهما ، و يُسرع بالاختلال إلى أعصابهما جميعاً !

و بعد . فانه إذا كانت الغايةُ من ذلك الارهاف والاعناف شدةَ التأثير فى نفس القارىء والسَّطوة بكل مشاعره ، فان ذلك قد يأخذ فيه أولَ الأمر هـذا المَأخذ و يبلغ منه غاية المَدَى . على أنه بعد ذلك لا يزال — بحكم التكرار وطول المراجعة — يعتاده و يَتألّفه ، حتى إذا تطاول الزمن تبلَّد على ذلك العُنف حسُّه ، فلا يُثير فيه كامناً ، ولا يحرك منه ساكناً . فيصبح مَثَله مَثَل من تَعنى بعضُ المخدِّرات فى مبتدإ الأمر نَفْسه ، وتُزكى حِسَّهُ ، وتُخضر ذهنه ، و تَطير بفكره وخياله كل مطير . ثم ما يزال يتخاذل هـذا الأثر عنه و يتزايل فيه حتى يتفقد حالَه المعتادة وطبيعتَه المفطورة ، فلا يجد بعضها إلاّ فى هذا الذى تعوّد . ولقد يدركه العجز كله مع هذا فلا يعود يجد من أصل طبيعته ومفطور قوته شيئاً البتة !

أفرأيت كيف تَجنى الحدّة حتى على نفسها وعلى الغاية التى تُحمَد هى فيها ؟

ثم إنك لقد تَظفَر باسالة الشُّئون ، وتقريح الجفون ، وتـكريش الجلود ،

وتصديع الكبود ، حين تشهد الناسَ طفلاً فرّق الترامُ أجزاءه ، أو شاباً هَوَى فى النيل بعروسه ، أو عجوزاً فقدت ولدَها وحيدَها بعد مَصرَع زوجها . أو بَنِيَّةً حافلةً بالسكان تستعر فيها النار ولا يجد من فيها من الشَّيخَة والطِّفل الصغار مَهرَبا . وغير ذلك مما يقع كل يوم من ويلات الدنيا وأرزائها

تستطيع أنت وأستطيع أنا ويستطيع كلُّ إنسان أن يبلغ هذا بهذا . ولكن أيّ فن فيه ؟ وأية كفاية لا يُبلَغ إلاّ بها ؟ . . اللهم إن كان مثلُ هذا الضرب مما يَحتاج إلى الموهبة والإصابة ، فكلُّ الناس فيهما بمنزلة سَوَاء ! وهيهات بعد ذلك التفريقُ بين الكاتبين فى المقدار . ولا يذهب عنك فى هذا الباب أن أجود الطعام وأرداه يستويان ما أَهَلْتَ الملح أو غَمرْتَ فى الخردل ونحوه من الحرِّيفات !

* * *

فألى شباب المتأدبين أُوجّه هذه الكلمة (العصبيّة) . وأرجو أن يُمعِنوا النظرَ فيها . فاذا صحت عندهم راضوا النفوسَ على الوداعة والتطامن . والرجوع إلى الطبع . ومن البلية أن يرتاض المرء ليعود إلى طبعه ويَرجع إلى أصل فطرته . فقد قالوا : إن العادة طبيعة ثانية . وإنما توجهت بهذا الخطاب إلى الشباب لأنهم عَتَاد الحاضر وهم ذخيرة المستقبل ، وهم الأقدرون على منازعة العادة . واللهُ يَهدينا ويهديهم إلى سواء السبيل

القصص

فى الأدب العربى*

أخذ العربُ عن اليونان فلسفتَهم وحكمتَهم ، كما نقلوا عنهم إلى العربية علوماً شتى كالطبّ والنجوم وغيرها ؛ ولكنهم لم يأخذوا عنهم فنّ القَصَص ، وخاصّةً القَصَص التمثيلى (الروايات المسرحية) . ولا أدرى أكان ذلك يرجع إلى اعتبار دينىّ ، وكراهة الشرع والطبع العربىّ أيضاً أن تَسنَح امرأةٌ لجمهرة النّظّارة تُمثّل عاشقة أو معشوقة ؟ أم يرجع إلى أن العرب فى مطلع حضارتهم كانوا ككل الأمم الناشئة تُعنى أول ما تُعنى بالضروريات ، حتى إذا أصابت منها حظًّا محموداً لفتت بعضَ سعيها للكماليات ؟

وهنا أرجو ألاّ تَنسى أن العرب إنما عُنوا بنقل فلسفة اليونان ومنطقهم إلى لغتهم لغرض دينى ، فلقد وصلوهما بالعقائد ، وأقاموا عليهما علمَ الكلام (التوحيد) . والدين كما لا يذهب عنك من أخصّ الضروريات

أم أن انصراف العرب عن ذلك الفن يرجع إلى أن الحياة الاجتماعية لم تكن قد استقرّت عندهم استقراراً يدعو الأذهان إلى التغلغل فى تحليل حياة الفرد والجماعة والخروج بفكرة عامة تجلو على الجمهور رواية قصصية أو تمثيلية . أم أنه يرجع إلى بعض هذه الأسباب دون بعض ، أم يرجع إليها جميعاً ؟ ومهما يكن من شىء فذلك الذى وقع والسلام

على أن العرب كانوا إذا عالجوا القصة لم يَعدُوا إثبات شى وقع ، أو شىء

* نشرت بجريدة المساء فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٠

يتخيلون وقوعه . فكان حظهم فى هذا الفن ضئيلاً لأن شيئاً من ذلك لم يتعرض لتحليل ناحية من حياة المجتمَع ، والخروج بفكرة عامّة ، هى فى الواقع معقِد القصة والغاية من وضعها

ولقد نزل القرآن الكريم فجاء بكثير من قصص الأمم الغابرة ، وبيَّن كيف فُتنوا وكيف ضَلوا ، وأتى على من بعث فيهم من المرسلين ، ومن آمنوا بهم ومن كفروا برسالاتهم ، وما أعدّ الله لأولئك وكيف صنع بهؤلاء

والقرآن كتاب الله تعالى لا تخييل فيه ولا اختراع ، ولا خَلق لحوادث لم تقع ، ولا تَجلِيَة لأناسِيّ لم يكونوا ، تصويراً لفكرة ، واستدراجاً لفهم الجمهور بوسائل التلفيق والتخييل . إنما هو القول الحق يَرْوى به الكتابُ العزيزُ ماوقع للسالفين للعبرة والادّكار

ولقد بَقيت القصة مقصورة ، فى الجملة ، على الشعر . ولكن بالقدر الذى أسلفناه عليك . حتى إذا كان عهد الدولة العباسية ، التفت الناس للقصص ، وترجم ابن المقفع (كَليلة ودِمنة) ، وترجم غيره كتاب (هَزار أفسانه) ألف خرافة ، وهو الذى قالوا إنه أصل كتاب (ألف ليلة وليلة)

وعلى ذكر كتاب (ألف ليلة وليلة) أقول لك إن أبسط نظرة فيه تعرّفك أنه لم يُكتب بقلم واحد ، ولم يؤلَّف فى زمان واحد ، ولا فى مكان واحد . فانه لقد يعلو فى أغراضه ومعانيه وعباراته علوّاً كبيراً فى بعض المواضع ، وإنه لَيُسِفّ فى ذلك إلى غاية الإسفاف فى مواضع أُخر . وإنه ليحدِّثك حديثَ شاهد العِيان عن بَغداد فى أزهى أيامها ، كما يحدثك حديث شاهد العِيان عن القاهرة فى أظلم عهودها الخ . كما أنك تجد هذا الكتاب فى العربية غيرَه فى التركية ، وتجده فى كلتيهما غيرَه فى الفارسية

ولست هنا بصدد البحث فى كتاب (ألف ليلة وليلة) وكيف نَجم ، وكيف تألَّف . ولعلّى إن تجرّدت فى هذا البحث لا أَبلغ منه مَدى ؛ وإنما هى كلمةٌ

اطّردبها القلم . ومن حقنا أن نعود بعدها إلى ما نحن بسبيله

ولقد أخرج الجاحظُ كتابَ (الحيوان) ، بحث فيه طبائع الحيوانات وعاداتها ، وعقَد المناظراتِ الكثيرةَ بين أصحابها . والجاحظ رجل واسع العلم ، شديد التمكن من النفس ، قوى الحجة ، يملك من ناصية البيان ما لا أحسب أن قد ملكه بعده كثير . فهو لا يزال يُمهّد على لسان هذا للرأى ، ويَفلَج بالحجة ، ويبعث بالشاهد فى عَقِب الشاهد ، ويضرب المثل بعد المثل ، حتى يأخذ عليك مخانق الطرق ، فلا تجد بعدها مَحيصاً من الإذعان والتسليم . ثم يبعث لك الطرَف الآخر ، فما يزال يدافع تلك الحجج ، وينقض ما قام بين يديك من الأدلة والشواهد ، ثم ما يزال يَبريها ويَفريها حتى تَستحيل هباءً يتفرّق فى الهواء . ثم يردّك إلى مكانك الأول ، ثم يعود بك إلى الثانى . ويَظَل يرجّحك بين الرأيين المختلفين بقوة حجته ، وسلاطة بيانه . حتى إذا قدّر أنه دوّخك وأرضى شهوته باذلال ذهنك ، رحمك فَعدَل بك إلى حديث آخر !

ولقد عَرَض الجاحظ فى كتاب (الحيوان) لمسائل من العلم ومن الحكمة ، وحلّل شيئاً من الطباع والأخلاق . بل لعله بالتكنية الغامضة والتورية البعيدة قد مسّ أشياء تتصل بحياة المجتمَع . ولكن لا تنس ، مع هذا ، أنه لا الجاحظ ولا ابن المقفع ، ولا من نحا نحوَهما عَرَض لاصطناع القصة على النحو الذى كان يعرفه قدماء اليونان ونعرفه نحن اليوم . وكل ما طلبوه من هذا فيما أَخرجوا من الكتب لا يَعدو أن يكون حِكَماً منثورة ، وعِظاتٍ جزئيةً لا ينتظمها سبب ، ولا يَجمع بينها نسب . أما القصةُ بمعنى اختراع الأشخاص ، وتمهيد المكان ، وابتكار الحوادث ، وخَلق الوقائع ، ونفض الصفات على ممثليها ، على أن يتّجه كل ذلك إلى غاية واحدة ، ويدرُج إلى غرض معيّن ، فذلك ما لم يُعنَ به العرب ولم يتوجّهوا إليه

ولـكن لا ينبغى لنا أن نُغفل ، فى هذا الباب ، أمراً آخر له أثرُه وله خَطرُه : ذلك أن العرب ، وخاصةً فى عصر الدولة العباسية ، قد عُنُوا بلَون من القصص ، وهو الحكايات القصيرة يُضيفونها إلى بعض الناس لتشهيرهم والعبث بهم ، أو لمجرد التفكيه والترفيه بما يَتندَّرون به عليهم . وهذه الأقاصيص و إن عرَضت فى بعض الأحيان لتحليل جانب فى نفس إنسانية ، فان ذلك لا يترامَى إلى الغرض الذى تجتمع له القصة على ما كان يعرفه لها قدماء اليونان ونعرفه لها نحن اليوم

وعلى هذا كتابُ (البخلاء) للجاحظ . ولا أظن أن الجاحظ كان صادقاً فى أكثر ما روَى عن بخلائه . ولعله إن صدق فى أصل بعضٍ فقد غلا فيه غلوًّا كبيرا ! وعلى كل حال ، لقد كان الرجل فى تصويره وتخييله ، وتشبيهه وتمثيله ، بارعاً تامّ البراعة ، رائعاً بالغ الروعة !

وهناك غير أحاديث (البخلاء) أحاديثُ فيها عجب وفتنة ، ما أحسب أكثرها إلاّ قد اختُرعت اختراعاً لا لشىء إلاّ للتشهير والعبث ، أو لمجرد التفكيه و إدخال السرور على نفوس الناس . ولعلى أُوفَّق يوماً إلى أن أعرِض طائفة منها للقارىء الـكريم

وعلى أىّ حال فان أثر هذا اللون من القصص لا يجاوز التسليةَ والتفريج عن النفوس بالإتيان بالعجيب يتعاظم الأحلام

على هذا فهم العربُ القصــة ، وعلى هذا اتخذوها . فنشأ القصّاص تُعدُّ لهم الحَلَق ليحدّثوا الناسَ عن أبطال الحرب ، وعن أبطال الجود ، وعن أبطال الغرام ، وعن غير أولئك من الأبطال . وتجمّعت أحاديثُ (ألف ليلة وليـلة) ، و برزت قصة (عنترة) ، ووُضع كتاب (قصص الأنبياء) ، وخرج كتاب (بدائع الزهور ، فى وقائع الدهور) ، و كتاب (سيف بن ذى يزن) . ثم استرسلت العامية فى مصطفى منظومها ومنثورها فى سيرة أبى زيد الهلالى وأصحابه ، واحتفَلت الاحتفالَ كله لذكر

وقائعهم ومَغازيهم وفُتوحهم ، وما يكون منهم ، إذا استحَرّ القتال ، وتداعى الأبطال للنزال ، فترى الواحد منهم يَقُطّ الأعناق عشرين وثلاثين بضربة من السيف واحدة ! . . . الخ

ولا زال الشعراء (وليسامحنا شوقى وحافظ ومطران و إخوانهم فى هذا التعبير فانه الشائع فى السواد) . ما زال هؤلاء (الشعراء) يتخذون لهم مجالس عالية فى بعض المقاهى البلدية ليقُصُّوا على العامّة سيرة أبى زيد وأصحابه فى ترتيل وتنغيم يوقّعونه فى لباقة ولطف أداء على (ربباتهم) . ولأولئك العامّة بهم ما شاء الله من افتتان ، ولهم ما شاء الله من التطريب على تلك الألحان !

على أن تأليف الحكايات فى العربية و إجراءها مجرَى الخيال لم ينقطع فى زمن من الأزمان . ولعل أبرز ما ظهر من ذلك أثناء هذه النهضة الحديثة كتاب (عَلَم الدين) للمرحوم على مبارك باشا ، و (حديث عيسى بن هشام) لمحمد بك المويلحى ، و (حديث موسى بن عصام) لأبيه ابراهيم بك ، عليهما رحمة الله . وما قام على ترجمته المرحوم عثمان بك جلال

ومنْ أوائل من وَضعوا القصة فى مصر ، بالمعنى المعروف ، أحمد شوقى بك (النضيرة بنت الضيزن) ، وأحمد حافظ بك عوض (رواية اليتيم) . ولقد تَرجم المترجمون مع هذا فى هذا العصر من قصص الغرب ما لا يُحصى كثرة

وأما القَصص التمثيلى (الروايات المسرحية) فأول عهد العربية بها هذا العصرُ الحديث . وقد بدأَت بالترجمة من لغات الغرب . وأولُ من عالج هـذا فى الأمم العربية إخواننا السوريون ، لأنهم أولُ من عالج التمثيل المسرحى فى أبناء العرب . وأولُ ما شَهِدت مصرُ التمثيلَ المسرحى ، وكان ذلك فى عصر اسماعيل ، شَهِدتْه من فِرَقهم التى هَبَطت مصرَ من ذلك العهد واحدة بعد أخرى . على أن تخلُّفنا فى هذا الباب عنهم يرجع إلى أسباب لا محل لذكرها فى هذا المقام

و إذا كانت مادَّة التمثيل إلى هذا الوقت هى ما يُترجَم إلى العربية من لغات الغرْب ، فان كثيراً من أبناء العرَب عالجوا بعد ذلك الوضعَ والتأليف ، وكان من أسبقهم إلى هذا الشيخ نجيب الحداد و إسماعيل بك عاصم

ولقد كثر فى هذا الوقت الذى نعيش فيه واضعو القصص التمثيلية ؛ على أنها فى جوهرها وغاياتها ومغازيها وسائر أسبابها لم تبلغ مبلَغَ الروايات الغربية

وأخيراً تقدم أميرُ الشعراء أحمد شوقى بك فنظم روايتين (كليو بترا وعنترة) فأوفَى الشعرُ فيهما على الغاية

وكلتا القصتين تاريخية إذا رمت إلى غرض فلا شأن لنا به ، ولا دخل لعيشنا الحاضر فيه !

وهنا ينبغى لنا ألاَّ نُغفِل أن مؤلفى روايات الريحانى والكسار ومن ينحُون نحوهما فى أسلوبهما التمثيلى يَعرضون لنواح من الحياة المصرية ، ولكن على سبيل التهكم عليها والزِّراية بها ، فى أساليب رشيقة طلية طلباً لإضحاك النظارة والتسلية عنهم ؛ فاذا كان لشىء منها مَغزًى بعد ذلك فهو مَغزًى ضئيل لايتَّسق لما نخوض إليه من جِسام المطالب . هذا إلى أنها كلها تُفرَغ فى لغة عامية بحت ، فهى ليست من الأدب الذى نَعنيه فى كثير ولا قليل

و بعد ، أفلا يمكن أن يَستشرف الأملُ إلى أن يخرُج فينا مؤلِّفون مسرحيون يُضارعون كتَّاب الغرب فى سَبك رواياتهم ، و إمعانهم فى التحليل بطريق التخييل والتمثيل ، و إصابة الأغراض البعيدة وتجليتها على النَّظَّارة بطريق التلويح لا بالمواجهة والتصريح ؟ فذلك الأشحذُ للأذهان ، وذلك الأبلغُ موقِعاً من النفوس . بحيث يكون موضوع هذه الروايات مصرياً بحتاً يُصيب من عاداتنا ، و يحلل جوانب من حياتنا ، و يَهدينا فى بعض أسبابنا السبيل

ألا ليس ذلك على الله بعزيز ! .

خيال الشاعر

بين الطبع والصنعة *

لعلّ من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يتكئ أكثر ما يتكئ في فنّه على الخيَال . أما العالِم فوجهه كله إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسبية . نعم لقد يكون هذا من فضول الكلام إذا قُرِّر لذاته . ولكنه يَرتفع عن هذا الموضع إذا سيق لتوجيه بعض القضايا التى قد تَدِق على كثير أو على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذى نعالجه اليوم من هذا الطِّراز

وبعد ، فاذا كان شعر الشاعر إنما يتكئ أكثر ما يتكئ على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما يَغْلُ ، ومهما يحلّق ويرتفع ، ومهما يَستحدِث ويخترع ، ومهما يلوِّن من الألوان ، ويُشكِّل من الأشكال — فانه مُستمدٌّ فى تصرّفه جميعه من الحقائق الواقعة . مبتدئ لا بد منها ، منتهٍ لا مفرّ فى الغاية إليها . فمن الحقائق الواقعة مادّته ، وهى مُستعارُه فى كل ما سوّى وفى كل ما صوّر وشكَّل ولوّن

وذلك بأن الانسان مهما يُرزق من شدة العقل ويُؤتَ من قوة الخيَال ، لا يستطيع أن يتصوَّر شيئاً لم يقع عليه حِسُّه . وكيف له بهذا والحسُّ وحدَه هو السبيل لا سبيل غيره إلى إدراك الانسان ، وإلى إدراك الحيوان . فدُنيا الحيوان هى ما يُحيط به ويَشهده فى مُضطرَبه لا أكثر ؛ ودُنيا الانسان فى الواقع ، هى ما يَرى وما يَسمع ، وما يُدرِك من الحقائق بسائر الحواسّ الأخرى ، وليس يعدو العلمُ من طريق القراءة حاسَّتى السمع والبصر ، بل إن هذا الانسان نفسَه لو قد كُفَّ من أول مولده

---

* نشرت فى مجلة الرسالة فى يوم أول اكتوبر سنة ١٩٣٤

فى محبس لما قدّر أن دنياه شيء غير ما هو فيه ، وما يتصل من الأسباب بما هو فيه ، ولقد يَعمِد ذهنُه إلى التقصّى ، ولقد يتبسّط فى القياس ، ولقد يذهب فى إدراك مالم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد ، ولكنه فى النهاية لن يقع على جديد لايتصل بمحيطه ، ولا يرتبط بأسبابه[1]

***

لك الحق بعد هذا الكلام أن توجّه هذا السؤال : إذا كان الخيال لا يمكن أن يعدو الواقعَ الذى يُدركه الحسّ . فما الفرق بينه و بين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أَخيِلة الشعراء و بين حقائق العلماء ؟

لقد تُوجَّه بادىء الرأى هذا السؤال ، على أنك لو فكّرت وتدبرت لبان لك الفرقُ بينهما دون جُهد فى التفكير والتدبير : فالعالِم إنما يَطلب الحقيقةَ كما هى ، سواء أكان ذلك بأخذها كما قررها مقرروها ، أو باستظهارها أو باستكشافها ، أو بنحو ذلك من وسائل إصابتها والتهدّى إليها . أما الخيال فانه يَعمِد إلى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، و يأخذها بالتشكيل والتلوين ، حتى تَستوى له منها صورةٌ توائِم فى قوتها وروعتها وتناسقها حظاً مسوّيها من قوة التخييل ، وجَودة الصنعة ، ودقة الذوق ؛ والعكس فى العكس

فقد بان لك أن الصورة المتخيَّلة مهما يَغْلُ فيها صاحبها ويُطرِف ، ومهما يُبعِد بها عما طالعه الفكر ، فانها مشكَّلة من حقيقة واقعة ، أو ملفّقة من حقائق واقعة . ولست أُصيب مثلاً لتوضيح هذا الكلام أحسنَ مما أجراه أصحابُ المنطق من التمثيل للممكن العقلى (المستحيل الوقوعى) بقيام جَبل من الذهب ، وتموّج بحر من الزئبق . فذلك و إن كان غير واقع بالفعل ، إلا أنه مما يمكن إيقاعه فى الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجبل موجود والذهب موجود . والبحر كائن والزئبق كائن . وكلٌّ

(١) سبق للكاتب أن ألم بهذا المعنى إلماماً يسيراً فى بعض ما كتب من الرسائل

سعى الخيال فى تجْلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدِن لذلك الجِرم ، فيكون جبَلُ الذهب ، ويكون بحرُ الزئبق

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر ، فى الجملة ، مُعطٍ ، أما العالم ، فى الجملة ، فآخذ : الشاعر يَبتكر ويَستحدِث بقلب الحقائق والتلفيق بينها ، وإفراغها فى غير صوَرها ، وتلوينها بغير ألوانها . أما العالم فأبلغ جهده فى تلقّى الحقائق . فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما انكشف له فيها من الآثار ، وما جُلِىَ عليه من مَكنون الأسرار

* * *

ولقد علمتَ أن الشاعر إنما يتكىء فى فنه أكثر ما يتكىء على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثر النقَدة إلى أنه ليس شعراً ذلك الكلامُ الذى يجرى فى الحقائق المجرَّدة ، وإن كان مقفًّى موزوناً . ولقد عرفتَ أثر الخيال فى تلفيق الحقائق وتزييفها ، وطبعها على غير صوَرها الواقعة . لهذا نَفَى الله تعالى أن يكون كتابه الحكيم شِعراً ، ونفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) . (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبِينٌ) يردُّ جلّ مجدُه بهذا وبغيره دعوى الكفار أن القرآن شِعر ، على معنى أنه من تلفيق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم أنه سِحر ، والسحر ما يوارى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صور تمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) . (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) . إنما الكتابُ كلُّه حق وصدق ومنطِق صحيح (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . (إِنْ هُوَ إِلاَ ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبِينٌ) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله المعْلِمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة

* * *

ومن البديه أن الشعراء لا يُطلِقون أَخيلتهم فى فنون المعانى لمجرد العبث بقلب

الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغايةُ كلُّ الغاية أن تجلو عليك هذه الأخْيِلةُ صوراً طريفة بديعة لهذا الذى أدركْتَه من الواقع ، أو تترجم لك عما يَدِق عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسُط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصَّرت فيه واقبضت دون حَبكه وتسويته ، ونحو هذا مما يُرهف الحسّ ، ويمتع النفس بمطالعة صورة من صور الجمال الفنى فى أىّ وضع من أوضاعه ، وعلى أى شكل من أشكاله

ولا شك فى أن أبدع هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحسّ ، وأجملها موقعاً من النفس ، هى أدقها حَبكاً ، وأحكمها سبكاً ، حتى إذا طالعتَها التبست عليك بالحقيقة أو إنها لتكاد . وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء فى قوة التخيل ، ورَهافة الحسّ ، ودقة الصياغة ، وبراعة الأداء

وفى هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير إلى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذبَ الشعر أكذبُه . وهذا كلام صحيح إذا اتّجه على أن أعذب الشعر ما كان من نَسج الأخيلة لا ماوقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحوّلنا بالنظر إلى ناحية أخرى من نواحى هذا الموضوع لرأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولسنا نَعنى بالصدق هنا المطابقةَ للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وإنما نريد به الصدقَ فى الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر فى الواقع هو الذى ينفُض عليك ما يَعتلج فى نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه فى إدراكه للأشياء

ولا يذهب عنك أننا نحن سوادَ الناس تَعرِض لنا الأشياء فندركها ، فى الغالب ، كما هى ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا . وهذا الإدراك لا يتعدّى ظاهر الصور ، أما الشاعر ، وأعنى به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرة نافذة فى مَطاوى كثير من الأشياء ، تُسلكها دقة حسّه ، وهنا يتقدّم خياله السرىّ فيسوّى منها صورة جميلة

بارعة . فاذا واتته قدرة النظم ، فأدّاها كما أدركها ، وجلاها كما تمثلت له ، خرجت على حظ من الاحسان والأجمال يوائم حظه من قوة الخيال ، ودقة الذوق ، وحسن الأداء

والشعر الذى تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذى يروعك ، ويَصقُل حسك ، وقد يَغمِز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفعك به إلى نفسه ، فأشهدك مالم تكن تَشهد ، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، وبعث عاطفتك فحلَّقت فى عالم الرُّوح كل محلَّق ، وترقرقت فى سَرحات الجمال كل مترَقرَق

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، فى هذه الحالة ، وإن كانت خيالاً فى خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودقة صُنعها تشبه عندك الصور الواقعة ؛ بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لها فى نفسك هذا الأثر . وهى نفسها قد تمثَّلت لأدراك الشاعر واضحة سوية ، فى غير تعسر ولا تعمُّل ، فنفَثَها فى الشعر عليك كما تراءت لذهنه ، وتمثَّلت لحسه

أرجو أن يكون قد صح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أكذبه

الصناعة الشعرية

ولست أعنى بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال . فانه إذا كانت الصناعات البديعية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر العربى إساءة بالغة ، فان الصنعة الخيالية لقد كانت فى الأساءة أشد وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدَّى لقرض الشعر ، على العموم ، لا يشعر شيئاً ولا ينفُذ حسه إلى شىء . فيبعث خياله من مَجثَمه ، ويستكرهه استكراهاً على أن يصنع له صورة شعرية ، فيمشى متعثراً هاهنا وهاهنا فى الارتصاد لما عسى أن يَسنَح له من المعانى واقعة حيث وقعت . حتى إذا لاح له شَبَحُها شكَّها ولو لم يتبين شخصها . ثم جعل يعالجها بالترويض

والتذليل ، ويضيف إليها ما ظنه من جنسها ، أو ما حَسبه مما يلابسها . ويطبع من هـذه الأمشاج صورةً شعرية (والسلام) ، صورةً لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوّقها ، ولا من يقرؤه شعر بالإلف لها ، أو ذكا حسه بها

وهذا الخيال المصنوع المتعمَّل المجهود به ليس من الشعر فى كثير ، وهذا على أرفق تعبير . بل إنه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد فى بسائط المصنوعات . بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة ، تخفى مَعارفُ وجهها على ناظمها ، فكيف بقارئيه ؟ وعلى عينى أن أقول إن شيئاً من هذا يقع فى بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام !

ودعنا من الحديث الآن حتى نفرُغ من شأن القديم . وخبرنى بعيشك أى شىء هذا الذى ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل !

لو لم تكن نيةُ الجوزاء خدمتَه لمَا رأيتَ عليها عِقدَ مُنتطِق

وقول الآخر فى هذا الباب أيضاً :

لم تحكِ نائلكَ السحابُ وإنما حُمَّت به فَصبيبُها الرُّحَضاء(١)

اللهم أفكان من السائغ فى العقل أو فى الذوق أو فى الخيال أن نظرة الشاعر للجوزاء تحيط بها دِقاق النجوم لم تلهمه إلا أنها إنما تمنطقت لتقوم على خدمة ممدوحه ؟

وهل كان من السائغ أن نظرة ثانى الشاعرين فى السحاب وهى تهمِى ، لم تُشعِره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته ، فأخذتها الحمَّى ، فلم يكن ما تسُح به إلاَّ من عَرَقها !

اللهم اشهد أن هذا وهذا كلام بارد مليخ(٢) ، وهذا وهذا من الخيال الفَسْل(٣) السخيف !

---

(١) يقال رُحِض المحموم : أخذته رُحَضَاءُ الحمَّى ، وهى عَرَقها (٢) أى فاسد وضعيف

(٣) الفَسْل : بفتح الفاء وسكون السين : الضعيف الذى لا خير فيه

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع فى قرض الشعر ، فى الجملة ، إلى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبْع له ولا شاعرية فيه ، فهو يتصيّد الخيال تصيّداً ويصنعه صنعاً ، ليجىء بنحو ما يجىء به الشعراء ، وإما للرّغبة فى شدة المبالغة ، والايفاء على الغاية من المديح ونحوه ، فيُسفّ الشاعر ويسخف ، ويأتى بمثل هذا الهذيان الذى أتى به ذانك الشاعران . إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح ، ولا لخيال واضح صريح . والحمد لله الذى عفّى علىّ كثير من هذا الأدب فى العصر الذى نعيش فيه

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زُهَير بن أبى سُلمىَ فى مدح هَرِم بن سِنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غلا فى ذلك أشد الغُلوّ ، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة

قد أُحدث المبتغون الخير من هَرِم والسالكون إلى أبوابه طُرُقا

من يَلقَ يوماً على عَلاَّته هَرِما يَلق السماحة منه والندى خُلُقا

وذلك لأن ممدوحه كان جواداً حقاً ، وأنه هو تأثر بشدة جوده حقاً ، وهو إلى هذا شاعر فحل ، خِصْب الذهن سرىّ الخيال ، فلم يَتعمَّل ولم يَتعسّف ، بل لقد انتضح شعره بالصورة التى جادت بها شاعريته فجاءت ، على إمعانها فى الغُلوّ ، سائغة مسبوكة لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ، وبين الخيال المصنوع

* * *

ولقد عَرَض ذكر الذوق فى بعض هذا الحديث . وللذوق محلّه غير المنكور فى الشعر وفى غير الشعر . ولقد كان ينبغى أن نفصّل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام . فلنرجىء هذا إلى مقال آخر

فى النقد الأدبى

لا أزعُم إننى استوَيتُ اليوم إلى مكتبى وهذا الموضوع الذى أتقدم للحديث فيه واضح المعارف فى رأسى ، مجتمعُ الأقطار بيِّن الحدود ؛ إنما هى خواطر تتطاير من هنا ومن هناك فى هـذا الباب ، وسأحاول بجهدى نَظمَها ، فاذا اتّسق منها موضوعٌ واضح الشخص ، مستوِىَ المعارف ، و إلا فليأخذها القارئ على أنهـا خواطر نِثار

على أنه لم يبعثنى على إرسال القلم فيما لم يدرَكْ بعدُ فى نفسى ولم يتّسق لى من أجزائه خَلق سوىّ إلاَّ ما هالنى من حال النقد الأدبى فى هذه الأيام . فهذا النقد ، مع الأسف العظيم ، لا يجرى أكثره الآن على حكم الغرض المقسوم له من استعراض الـكلام ، وطول تصفّحه ، وامتحان الرأى والذوق له لإمازة جيّده من رديئه . والدلالة على هذا والاشارة إلى هذا ، مع الأبانة عن وجوه التعليل . ولا أقول مع سَوق البرهان و إقامة الدليل ، فان مَردّ هـذا ، فى الأكثر ، إلى تقدير الذوق ، شأن جميع الفنون الجميلة . وقضايا هذه الفنون ليس ممـا يثبُتُ ، فى الغالب ، على القياس المنطقىّ فى أىّ شكل من الأشكال

وأنت خبير بمـا يكون للنقد إذا وقع على جِهته من الأثر البعيد فى تصفيَة الآداب ، والاطّراد بها فى سبل التقدم إلى ما شاء الله ، وهذا يكون بتبصير المنشئين بمواطن الأجادة ومواطن الضعف فيما يُخرِجُون من الآثار ، ليأخذوا أنفسهم بتحرّى ما ذهب النقد السليم إلى أنه الخير . كما يكون بتفتيح أذواق القارئين و إرهاف حسّهم حتى يَفطُنوا إلى دقائق الصنعة ، ويَستجْلوا مواضع الحسن فى الـكلام

فتجتمع لهم بهذا خِلال : منها العلم بفن نقد الكلام ، والقدرة على تمييز جيّده من رديئه ، وطيّبه من خبيثه . ومنها جلاء الذوق و إرهاف الحسّ ، ولا شك أن استمتاع من يتهيأ له هذا والتذاذه بروائع الفن لا يمكن أن يُدرِكَ بعضَه من لاحظّ له فى شيء من ذلك إذا صح أن يكون لمثل هذا بالفنّ الجميل متاع !

وللنقد فوق هـذا مزية أخرى لا ينبغى أن تسقط من الحساب : ذلك بأنَّ قيام النَقَدة وارتصادهم لمـا تَنتَضِح به قرائح المتأدبين من شأنه أن يُدخل الحذرَ على هؤلاء ، فلا يتكئوا فى شأنهم على البَهرج يزيفونه للجمهرة تزييفاً ، بل إنهم ليجتمعون للتجويد ، ويشمّرون فى تحرّى الإصابة والإحسان ما واتى جهدَهم الاحسان ، إن لم يكن للظفَر بالثناء الرفيع يَذهب به الصيت والذكْر ، فللسلامة على التهْجين وسوء المقال

ولقد شهدنا فى عصرنا هذا من كبار الأدباء من لا يجلو على الجمهور شيئاً من أدبه إلاَّ بعد أن يَعرضه على عُنُق من النَّقَدة فما أجازوه منه أمضاه ، وما استدركوه عليه استدركه بالتسوية والتغيير والاصلاح . وما يفعل أحدهم ذلك لأنه ضعيف الرأى فى نفسه ، ولا لأنه لم يذهب بأثره إلى غاية الاعجاب . و إنمـا هو الخوف من النقـد ، والشهوة إلى استخراج الثناء ممن لهم فى إذكاء شهرة الأديب ورفع صيته أثر كبير أو صغير !

ولا شك أن هذه الخَلة فى بعض أصحاب الأدب مَعيبَة بمقدار ما هى ضارّة . أما وجه العيب فيها فبما تدل على تخاذل الطبع ، و إظهار الناس على عـدم الثقة بالنفس . وأما وجه الضرر فلأن خير أدب الأديب ما يصدُر عن نفسه ويُتَرجِم عن حسّه ، بحيث يكون صورة صادقةً له هو ، لا لمِزْج منه ومن سواه من الأدباء !

ولا أحبّ أن أُغفل فى هـذا المقام شيئاً له خطره الشديد : ذلك أن الناقد مهما تبلغ دقته ونفوذ نظره ونزاهته عن كل هوى ، لا يُكفل له التوفيق على الدوام ،

فلقد يكون الرأى فى كثير من الأحوال فى جنب المنشىء الأديب لافى جانبه . هذا إلى أن موهبة الشاعر أو الكاتب أو الفنان على العموم ، لقد تنزع نزعة مستحدثة طريفة تنشز على مستوى العُرف الفنىّ القائم ، فلا تلقى أولَ الأمر من الأذواق إلاّ انكاراً . فردُّ الفنان عن هذا إلى ما شاع به العُرف وانعقد عليه الذوق العام ، صدّ للعبقرية عن سبيلها الذى لو قد تهيأ لها أن تطّرد فيه لجاز أن تَستحدِث فى الفن أعظم الأحداث ، شأن جميع الفورات التى هى فى الواقع شرع جديد لنظام جديد فى أى سبب من أسباب الحياة . على أن هذا العيب وهذا الضرّ لا يرجعان إلى النقد ولا إلى النقَدة ، وإنما يرجعان إلى طبائع هؤلاء الفنانين

ومهما يكن من شىء فاننى إنما أردت أن أبيّن خطر النقد على كل حال

* * *

والنقد ، ولا شك ، قديم يقوم بقيام الفنون فى كل زمان وفى كل مكان ، فان الفنان مهما يبلغ من صغوه لفنّه ، وصدق هواه إليه ، ومهما يجد فى ذلك من اللذة والاستمتاع ، فان لذته واستمتاعه إنما يكونان أتمّ وأوفى إذا ظَفِر من الناس ، وخاصة من أصحاب البصائر ، بحسن الرأى وجلالة التقدير . وأحسب أن الفنان الذى لا يدخل فى حسابه هـذا وما زال معه عقله لم يُخلق بعدُ فى الزمان . وما دام الحديث فى النقد الأدبى فلنقصر الكلام على أهل الأدب ، وإن كان الفنانون جميعاً فى ذلك أشباه

وإذا قلت لك إن النقد قديم ، فاعلم أن احتفال الشعراء والكتاب للنقد ، وجهدهم فى استخراج رضا النقَدة ، واستدراج ألسنتهم بالثناء عليهم والهُتاف بآثارهم كذلك قديم . وإن من يتصفح تاريخ الشعر والشعراء من مطلع الدولة الأموية ، وتاريخ النثر والنثّار من يوم احتفل أهل البيان للنثر الفنى فى عصر الدولة العباسية ، لا يتداخله أىّ ريب فى هذا الكلام

نعم لقد كان الأدباء ، والشعراء منهم خاصة ، يصانعون النقاد ، و يعملون جاهدين على الزلفَى إليهم ابتغاء المنزلة فيهم ، و إيثارهم بألوان التبجيل والتكريم . وكثير منهم من كان يعرض شعره عليهم لامتحانه واختباره قبل طرحه على سائر الناس . إن لم يكن لحسن الظن بادراك ملَكاتهم . وحدة إحساسهم ورهافة أذواقهم ، فلأطلاق ألسنتهم فيهم بحسن المقال ، و إلاَّ فكيف للفنّان بانطلاق الذكر وذهاب الصيت عند الجمهور وليس له ، فى العادة ، وسيلة إلى هذا إلا تقدير هؤلاء ؟

و إنى لأذهب فى تقدير النقد ، والأبانة عن خطر النَقَدة إلى ماهو أبعد من هذا من جليل الآثار . فان أثر هذا إذا اتصل بشهرة الشاعر أو الكاتب والذهاب بصيته ، فان هذا الذى أرمى إليه هو جدوى النقد على الفن ، و إن شئت تعبيرا أدقّ وأدلّ على بُعد الأثر ، قات فى بناء الفن نفسه وتأصيل أصوله . وتقعيد قواعده . وتفصيل فصوله . وحسبك فى هذا الباب أن تعرف أن علوم البلاغة ما كانت لتكون لولا نَقَدة الكلام ، إذ الواقع أن قواعد هذه العلوم . فى الجملة ، وأعنى علوم البلاغة ، إنما انعقدت بتقصّى ما أُثِر عن نَقَدة الكلام فى الأجيال المتعاقبة من الكشف عما يُضمر هذا البيت أو هذه الجملة من معنى كريم . والدلالة على ماجلى فيه من نسج متلاحم ومن لفظ نيّر شريف . ومن التفْطين كذلك إلى ما يقع من فسولة معنًى، واستكراه لفظ . وتزايل تركيب ، ونحو ذلك . فعلى هذا التقصّى قامت علومُ البلاغة ، على الجملة ؛ بل لا حرج علينا إذا زعمنا أنها مَدينة فى قيامها لنقد الناقدين ، ولعلّ بلوغنا هذا المعنى الذى استدرج إليه تداعى الكلام من غير سابق نيَّة من أسعد الفُرص الذى تهيئ لنا أن نصارح بأن هذه . علوم البلاغة ، على شأنها الذى انعقدت عليه منذ الأجيال الطوال ، لم يصبح لها من الأثر ، سواء فى تحرى ألوان البلاغات أو فى إجراء مقاييس النقد ، كثير من الغَناء . فالبلاغة لم تكن قط

فى إصابة معنى مأثور ، ولا فى نظام لفظ موروث ، ولا فى استِنان أُسلوب معيّن من أساليب البيان . و إنها لم تكن كذلك فى يوم من الأيام ، و إنها لن تكون كذلك فى يوم من الأيام . على أن هذا شىء قد وقع على سبيل الاستطراد ، فلندعه إلى حديث خاصّ فانه لقد يحتاج إلى كلام طويل

* * *

و بعد . فهذا موضع النقد من الأدب . وهذا أثره فيه من قديم الزمان . ولا يذهب عنك أن هذا النقد . إذا استثنيت ما يتصل منه باللغة أو بقوانين النحو والصرف . إنما مرجعه فى الكثير الغالب إلى سعة الخبرة بالأمور على وجه عام ، و إلى شدة الفطنة . وصفاء الذهن . ورهافة الحس . وكمال الذوق ، بحيث يتهيأ للناقد من النفوذ فى باطن الكلام . والتفطن إلى دقائقه واستظهار مافيه من حسن أو من مكنون عيب ما يعيا عنه أكثر الناس . ذلك كان مُتكأ النقد ومصدر وحيه ، لا ضابط له وراء ذلك من قانون ، ولا من نظام مسنون

بل إنه لكثيراً ما كان النقد يجرى مجرى النكتة و يأخذ مأخذها فى الكلام . أعنى أنه لقد يكون أثراً للمحة الخاطفة من الذهن ما تعتمد على أصل ثابت من التعليل والتوجيه . وكثيراً ما كان يُتعسَّف فى هذه النكتة أيضاً رغبة فى التشهير واحتيالا على إسقاط الكلام . و إن من يتتبع كتب الأدب العربى ليقع له من هذا الشىء الكثير

ولعل مما بعث على هذا وحمل النقدَة عليه أن النقد إنما كان يوجَّه على كل بيت فى القصيدة استقلالا قلّ أن يُسلك فى عبارة نقدية بيتان أو أبيات . وذلك راجع إلى طبيعة الشعر العربى من عدم اعتبار القصيدة ، فى الغالب ، وحدة ماثلة الشخص ، واضحة الصورة مستوية الخَلق . ينزل البيت فيها منزلةَ الجزء من الكلّ ، والعضو من الكائن الحىّ لا يتشخّص إلا بمجموعة الأعضاء

بعد هذا الاستطراد اليسير نرجع إلى الحديث فى أثر النقد فى توجيه الآداب :
و إذا كان للنقد مع هذا ، ومع هذا كله ، هذا الأثرُ البعيد فى حياة الأدب العربى ، فكيف كان يكون شأنُه اليوم فى ذلك ، وقد أصبح للنقد مناهجُ واضحة ، وطرق معبَّدة ، وحدود مرسومة ، وأصبح يُتكأ فى كثير من وسائله على قضايا العلم ، و إن لم يزل للذوق فيه أثرُه البعيد ؟ وعلى الجملة لقد أصبح النقد الأدبى فنا من أرفع الفنون فى هذا العصر الحديث

أقول كيف كان يكون شأنُ الأدب العربى اليومَ لو جرت الطرق على أزلالها وأخذ جمهرة نقادنا أنفسَهم جاهدين بمذاهب النقد الحديث . على أن يكونوا فى نقدهم نزهاء مخلصين . وعلى ألاّ يُجروا أساليب النقد الغربية كما هى على كل ما يخرج لهم من آثار أدبنا العربى ، فذلك إلى ما فيه من عسف وعنت ، ففيه أذًى للأدب كبير ، فان مما لاشك فيه أننا نفارق القوم فى كثير : نفارقهم فى العَقليّات ، وفى الأخلاق والعادات ، وفى التاريخ والبيئة ، وفى النظام الأدبى . كما نفارقهم فى الأذواق . ولايذهب عنا أن الأذواق هى مستمَدّ الفنون على وجه عامّ

لقد لاح لك ما يكون للنقد ، إذا سار على هذا النهج . من عظيم الجَدوَى على أدبنا العربى بانتخاله وتصفيته ، ودفعه فى طريق الكمال حتى يُوفى بجهد الناقدين على الغاية لو كان للكمال حدٌّ مقسوم : فهل نحن الآن فاعلون ؟

فوضى النقد الأدبى

الواقع أن الأمر ليس كذلك مع الأسف الشديد : هذا هو الواقع الذى يَشرَكنى فى تقريره كثير . ويَشرَكنى فى الايمان به الجميع . و إن جحَده من تميل بهم الأهواء عن قَصد السبيل !

الواقع أن النقد عندنا أصبح فوضى ما تفتأ تَستفحِل وتَستحصِد ، حتى بات

يخشى أن يضلّ الناشئين عن كل أدب صحيح ، إذا لم يأتِ بالفعل على كل أدب صحيح

و إننى لأتقدّم إلى تقرير هذا الواقع المرّ وتبيينه لأنى امرؤ لا أنتمى والحمد لله لشيعة ، ولا أتصل بحزب من هذه الأحزاب الأدبية القائمة فى البلاد الآن . ولا يستطيع زاعم أن يزعم أنى دَعوت لنفسى أو دَعوتُ لأحد من الأدباء فى يوم من الأيام

وعِلّة هذا . فى تقديرى . تعود إلى السُّعار الذى لحق كثيراً من متأدبى هذا العصر إلى طلب الشهرة ونباهة الذكر من أخصر طريق . وليس فى هـذه الطرق أخصر ولا أيسر من التهويش وصبّ المديح جزافاً . وهَيْل الثناء و إضفاء النعوت و إفراغ الألقاب بغير حساب !

والأديب لا يستطيع أن يصطلع لنفسه بهذا وحده . مهما يجدّ و يسرف فى انتحال الأسماء والألقاب يضيف إليها ما تفضّل به فى نعت نفسه من سابغ المقال . بل لا بدّ له فى بلوغ الشأو و إدراك الغاية من الاستعانة بغيره على مُهِمّه . وكلما كثر هؤلاء الأنصار والأعوان . هان . بالضرورة . إحراز الشهرة فى أقرب آن . وهؤلاء الأعوان لا ينهضون لهـذه الخدمة بغير ثمن عينى . أى بدون أن يبدهم صاحبنا المديح ويُقارِضهم الثناء . ومن هنا كان للأدب عندنا فى هذه الأيام أحزاب وشِيَع هى أشبه ما تكون بالشركات المساهمة يساهم فيها الجميع فتعود جدواها على الجميع !

ولقد دعا هـذا بالضرورة إلى التنافس والتبارى بين هذه الأحزاب والشِّيَع الأدبية . وهـذه الهيئات أو الشركات رأس مالها قائم على الكلام . فهى إنما تتنافس وتتبارى بالكلام . وهـذا الكلام عبارة عما شئت من غلوّ و إسراف فى إراقة الثناء من كل منها على كل أثر يصدُر عن أىّ كان من المنتمين إليها ، والارتصاد

بلاذع النقد لما يَظهر من أثر كلٍّ خارج عليها ، وهكذا دِيست حرمةُ الأدب ، وعُفِر وجه النقد الكريم بالتراب !

ليس يَعنى الأدبَ كثيراً أن يُغمَط أديب بعضَ حقه ، أو أن يغمط حقه كله . ولا يَعنيه كثيراً أن يُفرَغ على متأدب من النعوت والألقاب ما لا يرتفع إلى بعضه كلُّ قدره . ليس هذا مما يَعنى الأدبَ فى ذاته كثيراً . و إنما الذى يَعنيه و يُجهده ويُعنّيه هو فِقدان المقاييس الأدبيـة التى هى المرجع الصحيح أو القريب من الصحيح فى تقويم حظوظ الآداب

هذا شعر خالد ! وهذه شاعرية جبّارة ! وهذا المعنى من وحى السماء ! وهذا فلان يؤدى رسالة الأدب إلى العالم الخ . يالطيف ! يالطيف !

مهلاً رويداً أيها الناس ، فلقد والله ابتذلتم النعوت وأرخصتم الألقاب . ومالها لا تَرخُص ولا يلحقها أشد الوَكس . وقد أصبحت لا تدل فى أكثر الأحيان الا على كل تافه وكل هزيل !

نعم ، لقد خرجت هذه الألفاظ عن معانيها الموضوعة لها . فالألفاظ تخرج عن معانيها بالاستعمال حتى تصبح حقائق عُرفيّة . بل حقائق لغوية بطول صرفها إلى معانى جُدُد . كذلك سنة اللغة من قديم الزمان ! ولقـد تبحثون غداً عن ألفاظ تؤدّى هذه المعانى على حقائقها وتجلو صورها المتمثّلة فى صدور الناس فلا تَخرجون من هذا بكثير ولا قليل !

* * *

و بعد فلقد تَجود بعض القرائح بالشعر الخالد ، ولقد تصل الشاعرية إلى مرتبة الجبَروت . ولقد يكون فينا اليوم ، ولقد ينجم فينا غداً من يستحق بنبوغه وارتفاع مواهبه شيئاً من هـــذه النعوت والألقاب ، فكيف ندعوه ؟ و بماذا ندل على موضعه ؟ وما الذى نميزه به من سائر المشتغلين بالآداب ؟

ثم إذا كانت هـذه الألقاب والنعوت الضخمة التى لا يَنضَحها الزمان على الأفراد فى الأمم الأخرى إلاّ فى الحِقَب الطوال — إذا كانت هذه النعوت والألقاب مما لا ينقطع عنـدنا وَبْله المِدرار ، لا فى الليل ولا فى النهار . فترى ما الذى يبعث الهمم ويَشحَذ العزائم فى إنضاج الملكات ، وتربية ما عسى أن يكون مطوياً من المَوهبات فى بعض النفوس . والمطلبُ يسير . وأضخم الألقاب معروضة بأبخس الأثمان فى أكسد الأسواق ؟

لقد يُحتجّ علىّ بأن فى مصر عُنقاً من مَشيَخة الآداب ، وأن فيها كذلك فريقاً من شباب الأدباء ، وهؤلاء وأولئك يأخذون أنفسَهم فى باب النقد الأدبىّ بما شئت من دقة ومن نفوذ ومن إنصاف ؟ . وهذا حق لا ريب فيه . ولكن لا تنس أن هؤلاء لقد غَمرت آثارَهم الكثْرةُ الكثيرة بما تتهافت به كل يوم من النقد الفَسْل المُغْرِض الشهوان . وبهذا يفوت الأدبَ نقدُ الفاضلين الأكْفاء النزهاء

وإذا اجتمع علينا إلى فِقدان موازين النقد الأدبى إهدار رأى كل ذى رأى ، وتهاون قدر كل ذى قدر ، وإضلال الناشئين فى بيداء مَجهَل ، فذلك الخِذلان من الله والعياذ بالله !

أسأل الله تعالى أن يتولانا بهدايته . إنه على كل شىء قدير

فى الأدب

١ — بين القديم والجديد*

لقد كان يَتداخلنى العَجَب كلما رأيتُ أن المتقدّمين من أهل العلم والأدب إجماعٌ على تقديم شعراء الجاهلية عامّةً على الشعراء المولدين عامّةً . ولم يقع لى فيما طالعتُه من كتب الأدب ونقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، مفاضَلةً بين شاعرين أحدهما جاهلى والآخر مولد . إنما تُعقد الموازنة بين شاعرين وَقعا فى الجاهلية أو بين شاعرين نَجَما فى الاسلام . ولقد يعود هـذا إلى الايمان بأن من حقّ شعر العرب أن يرتفع عن أن يقايَس بشعر غيرهم من المولدين

ولقد قرأتُ شعر امرئ القيس والنابغة والأعشَى ومن إليهم من المتقدمين ، وقرأت شعر بَشّار وأبى نواس والبُحترى ومن إليهم من المتأخرين . فأجد هؤلاء من نضارة الشعر ، ونصاحة القول ، وحلاوة التعبير ، وسَعة الخيال ، ودقة الأداء ، والتصرف فى فنون الكلام ما لا يَشيع فى كلام أولئك ، وإنما تتاقطه من دواوينهم تلقُّطاً . فكيف لا يقوم فى شريعة الأدباء ، أحدٌ من أولئك بأحد من هؤلاء ؟

لقد تَداخَلنى العجب من هـذا حتى ظننت أنى اهتديت إلى سببه وعلته : ذلك أن القوم قدروا هذا الشعر صناعة عربية مَنجَمها طبائع العرب وما تجرى به سجاياهم . فاذا تقدَّم غيرهم لقرض الشعر فهو مقلد لهم ومتشبه بهم ومحتذ لمثالهم . وهو لا يتوسل إليه بطبع ، ولا يجرى فيه على عِرق . إنما هو متكلّف متصنّع . وليس يكون للمقلّد مهما يوفِ على الاتقان شأن المبتدِع ، ولا للمتكلّف مهما يعظم

---

* نشرت فى (السياسة) ضمن (ليالى رمضان) سنة ١٩٢٥

خطره شأو مَن يَنضح بالفطرة ويجود بالطبع

ولقد جرى الشعراء المحدثون أنفسهم على هـذا وسَلَّموا به . فكان الشاعر يخرج فى صَدْر شبابه الى البادية فيقيم الحول أو الأحوال ليحذق اللغة ويحفظ الغريب . ويتروَّى أراجيز العرب وأشعارهم . ويتعرَّف أحوالهم وأخبارهم . ويُلِمّ بكل أسبابهم وفنون تصورهم وتخييلهم . ويُعنَى العناية كلها بأسماء إبلهم وأوصافها وكيف يُنيخونها . وكيف يَبعثونها . وكيف يضربون أكبادها . وكيف يسوسون أولادها . وكيف يُرعونها الأكلاء . وكيف يوردونها موارد الماء . وكيف يكون العلَلَ والنَهَل . وكيف يكون الخمس والسدس . وغير هذا مما تحتفل به أحاديثهم وتسير به أشعارهم . حتى إذا رجعوا إلى الحضرة فقرضوا الشعر لمدح أو ذم أو هوى أو وصف أو غير هذا من مطالب الكلام . ذكروا الأبل وكيف حَدَوها . وكيف قادوها بأشطانها . وكيف ركوها فى أعطانها . وأطالوا فى وصف مشيها بين وَخدوخَبَب . وتزيد وَرَسيم . وغير هذا من هيآتها وحركاتها وأوصافها مما تجده فى صدور أشعارهم . وإنما كان منهم هذا التكلّف كله ليتشبهوا بالعرب . وليحكوا بأشعارهم ما استطاعوا شعر العرب . إذ كان مقدراً أن البلاغة فنُّهم . وأن الشعر الأصيل ما قرضوا هم وما نظموا . وهذا رُؤبة وهذا العَجَّاج الراجزان : لقد عاشا فى دولة بنى أمية وأدركا حضرة دِمَشق . وأصابا كثيراً أو قليلاً من مناعم تلك الحضارة . ومع هـذا فإنى أعوذ لى ولك بالله تعالى من أراجيزهما . وحسبك أن تنشر بين يديك واحدة منها فتعرض كل كلمة منها على معجم اللغـة ، حتى إذا واتتك وتوافت لك بحل طلاسمها ، وجَلَت عليك مستغلق معانيها ، رأيت ذلك البلاء كله (كما قال بعض شيوخنا) لم يعـدُ وصفَ أتانة أو بعير قعود . أو هَمْلَجة بِرذَون . ولا يمكن ألاَّ يكون رُؤْبة والعجَّاج قد رأيا شيئاً فى دِمَشق حقيقاً بالوصف . ولا يمكن ألا يكون حسبهما قد وقع على معنى يحرك القريض . ولكنهما

لقد شُغِفا بالتبريز ، وظنا أن لن يتهيَّأ لهما ذلك إلاَّ إذا قالا وأسرفا ، على طريقة العرب ، وحبسا قولهما على أسباب عيش البادية وتصرّف أهلها وخيالهم

وهذا أبو نواس أفرأيت أحلى منه قولاً أو أبدع شعراً ، أو أدق وصفاً ، أو أقدر تصرفاً فى فنون الأغراض ، أو أشد استمتاعاً بكل وسائل الرفاهية فى صميم دولة بنى العباس ؟ أو إرفاداً للأدب بوصف كل ما وقع للشاعر من جليل الأمر وحقيره ؟ ومُستملَحه ومقبوحه ؟ حتى لقد كان الصدق فى الفن والحرص على دقة الوصف يتدليان به أحياناً إلى العامى المبتذَل من القول والمسترخِى الساقط من الكلام ، حتى يجلِّى عليك الصورة كلها وينفُض على نفسك الحديث أجمعه . لم يَلِته بترك هنة أو إشارة لقد يُفسدها أن تؤدَّى باللفظ الشريف — أفرأيت أن هذا كله إنما كان يتكلّف التبدِّى تكلفاً ويصطنع الغريب اصطناعاً حين يقول :

إليك ابنَ مُستَنِّ البِطَاحِ رَمَتْ بنا مُقَابَلَةٌ بين الجديل وَشَدْقَمِ
مَهَارَى إذا أشْرعْنَ حَرَّ مَفَازَةٍ كَرَعْنَ جميعاً فى إناءٍ مُقسَّمِ
نَفَخْنَ اللُّغَامَ الجَعْدَ ثم ضربنَه على كلِّ خَيْشُومٍ نبيل المُخَطَّمِ
حَدَابيرُ مَاينفكُّ من حيث بَرَّكَتْ دَمٌ من أظَلٍّ أودمٌ من مُخَدَّمِ

ويقول كذلك يصف ناقة له وتلعاب ذنبها :

ولقد تجوبُ بى الفَلاةَ إذا صَامَ النهارُ وقالت العُفُرُ
شَدَنيَّةٌ رَعَتِ الحِمَى فأتَتْ مِلءَ الجِبَالِ كأنَّها قَصْرُ
تَثْنِى على الحاذَيْنِ ذَا خُصَلٍ تَعْمَالُهُ الشَزْرَانُ وَالخَطْرُ
أمَّا إذَا رَفَعتْهُ شَامِذَةً فَتَقولُ رَنَّقَ فوقَها نَسْرُ
أمَّا إذَا وَضَعَتْهُ عَارِضَةً فتقولُ أُرْخِىَ فوْقَها سِتْرُ

ولا تفوتنك قصيدته الطويلة السابغة التى مطلعها (وَبَلدةٍ فيها زَوَر) وما أحسب

أديباً فى أى عصر من العصور الاسلامية قد تفهّمها واستوضح معانيها بغير كَدّ ومطاولة وتقليب فى معاجم اللغة وطول تنقيب !

وهـــذا أبو نواس الذى يقول مالا أستطيع أن أحدّثك به فى صحيفة سيارة ضناً بالأدب العام ، والمتأدبون يقرأونه فى مواطنه من تراجم أبى نواس ودواوين أشعاره . وكله سهل ليّن يقع فيه كما حدثتك العامىّ والمبتذَل والساقط من الكلام !

و إنمـا كان أبو نواس يجرى فى هذا على السجيَّة المرسَلة . فيصف الأشياء كما ينبغى أن توصف . و يُطلِق القول كما يَجب أن يُطلَق . و إنمـا كان فى تلك يتطبّع و يتكلَّف ليشاكل العربَ حرصاً على معنى الشاعرية عند الناس ، وليظفَر برضى أمثال أبى عُبيدة من حفَّاظ لغة العرب . وليبعثهم على الاحتجاج بكلامه . وتلك المنزلةُ كانت فى الأدب تُجدَع دونها الأنوف وتُقَطُّ الأعناق

على أن الحياة متحركةٌ غيرُ جامدة . والشعرُ لا يَعدو أن يكون وصفاً لأمر واقع . أو خيالاً ملفقاً من أمر واقع . أو إحساساً يَستمدُّ كلَّ أسبابه من الأمر الواقع . فلم يكن فى طَوق الشعر أن يَعشَى عن كل هـذه الحضارة الواسعة التى تبسّطت فيها دولتا بنى أُميّة و بنى العباس . وأن يظَلَّ حَبساً على ما جال فيه شعراء الجاهلية ، على ما أسلفته عليك . بل لقد مشى الشعرُ طَبَقاً مع الحياة . فتناول كلَّ ما أخرجَته الحضارة . فافتَنَّ فى وصف القصور وريشها وآنيتها ، وجوارى البحر ووصف هوَاديها وقوَادمها ، وأزهار الروض وأنواره . ولـكم جال فى وصف الخمر والطَّرد . وقال حتى قال فى العلم نفسه . وتناول من ألوان المعانى والترجمة عن فنون الاحساس ما جاشت به كلُّ تلك الأسباب

الواقع أن حيـاة الدولة العربيّة تطوّرت فتطوّرت معها لغتها وأدبها وشعرُها أيضاً ، ولم يكن إلى غير هذا من سبيل . إلاَّ أنها على عُظم هذا التطوّر لم تتنكَّر لهجَاتُها ولا نَشزَت عليها أساليبها ، بل ظلّت على الدهر عربيّةً لها كل مشخِّصات

غة العرب ومميِّزات حياتها . وكان شأنُها فى هـذا شأنَ جميع الـكائنات الحيّة ، تزيد بمـا يدخل عليها من جديد ، وتنقص بمـا يخرج عنها من قديم . إلا أنها تَظَلّ بشكلها هى هى ، لأن هيكلها وصِفَتها العامّة ومقومات حياتها الخاصة ما زالت هى هى

ولقد خرجت الدولة العربيّة من بداوة مطلَقة إلى حضارة مطلَقة ، وتبدّلت فى كل شىء عيشاً بعيش ، فدارجتها لغتُها البدوية ، وواتت حضارتَها العريضة بكل مطالبها فى غير رجَّة ولا مطاولة ولا عُنف . والفضل فى ذلك يرجع إلى قوة اللغة وسَعَتها ، وإلى حرص أصحاب اللسان وشعرائهم ، على وجه خاص ، على أن يشاكلوا العربَ فى منطقهم ولَهَجَاتهم ومنازع كلامهم . وإذا قلتُ العربية فلست أعنى مفرداتها فحسب . فلقد تقرأ الـكلام لا يقع فيه إلاَّ عربىٌّ صحيح ، وهو مع هـذا ليس من العربيَّة فى كثير ولا قليل . وسنَعرِض لهذا المعنى فى كلامنا عن الجديد إن شاء الله

ولقد ظلّ الشعراء دهراً طويلاً ، على تقلُّبهم فى فنون الحضارة ، وافتنانهم فى ذكر أسبابها ، ووصفهم لمناعمها ، وهُتافهم بمـا جلّ ودَقّ من مُستحدَثاتها ، يجولون بالشعر أيضاً مَجالَ أهل البادية فى أسلوب عيشهم وسائر أسبابهم . ولقد يكون هـذا ضرباً من التكلّف كما ذكرت لك . ولـكن الذى لم يدخله التكلف ولم تَلْحقه الصنعة أن هؤلاء الشعراء من المحدَثين إنمـا كانوا يتصورون ، بوجه عامّ ، كما كان يتصور العرب ، ويذوقون مَذاقهم ، وينزعون فى مذاهب النظر والحسّ منازعهم . وليس هـذا بعجيب لأنهم أبناؤهم ومواليهم ، وأبناء جيرتهم ، الناشئون فى دولتهم . ولهذا ترى أن الذّوق الشعرى العامّ واحدٌ فى العهدين ؛ وإن اختلف فيهما بالصنعة وإرسال الطبع ، وبخشونة عيش البداوة وضيق مجاله ، واتساع حياة الحضارة ولين أسبابها

ولقد جاء المتنبي . والمتنبي من أخل من حذقوا لغة العرب وحصّلوا غريبَها ، وممن خرجوا إلى البادية ليتعلّموا لغة الأعراب ومنازع بلاغاتهم وطُرُوق عَيشهم . فهو من هذه الناحية غيرُ مُتَّهَم . لقد طالما أخذ إخذهم وجرى على سنتهم . ولكنّ للرجل عقلاً عبقرياً لقد يسمو به عن هذا الأُفُق ويحلّق به فوقَ هـذا المستوى ، فيدرك أشياء على غير ما أدركوا ، ويتصوّر أشياء على غير ما تصوروا ، فينحطّ بها إلى الشعر

ولقد يَشعرُ بعقله لا بوجدانه ، فيجرى كلامه على منطق الفلسفة لا على منطق الشعر . ولقد يجازف فى إصابة المعنى الذى ارتصد له بأحكام البلاغة ؛ بل لقد ينشَز على قوانين اللغة نفسها ما يبالى فى كثير ولا قليل !

أتعرف موقع هذا من آراء علماء الأدب ونَقَدة الشعر ؟

لقد قال بعضهم فى غير تردّد ولا تحبُّس : إن المتنبي ليس بشاعر ألبتة !

وما كان هـذا إنكاراً منهم لفضل المتنبي ولا جحوداً لخطَره . ولكن لأن ما جاء به ليس من جنس ما يقوله الشعراء رعيةً لقوانين الأدب ، ومشاكلةً لمنازع لهجات العرب

* * *

ولقد أطلت الحديث هـذه الليلة . وهذا الموضوع الذى نعالجه يحتج إلى حديث بعد حديث . ولعلّنا نوفَّق غداً إلى عاية الكلام إن شاء الله !

— ٢ —

انتهى الحديث أمس بنا إلى أن قوماً من نَقَدة الشعر قالوا إن المتنبي على جَلَالَة مَحَلِّه ، لم يكن شاعراً ألبتَّة . ولقد تجد لأبي الطيب فى بعض شعره من حسن النسج وقوة التعبير وسطوة الكلام ما تجده فى شعر أبى تمام ، وهذا فى نحو قوله

مثلاً إذ يصف الأسدَ وما كان من تَعفير سيف الدولة له بسوطه :

وَرْدٌ إذا وَرَد البُحيرةَ شاربًا وَرَدَ الفراتَ زئيرُه والنِّيلا

متخضِّبٌ بدَم الفَوَارِس لابسٌ فى غِيلِه من لُبدَتَيهِ غِيلا

ما قُوبِلَتْ عيناه إلاَّ ظُنَّتا نَارَ الثَّرَى تحتَ الفَريق حُلولا

يَطَأُ الثَّرَى مترفِّقاً من تِيهه فكأنَّه آسٍ يجُسّ عَليلا

أَلْقَى فريسَتَه وبَرْبَرَ دُونَهَا وقَرُبتَ قُرْباً خالَه تَطفيلا

فتَشَابَهَ الْخُلْقَان فى إقدامهِ وتَخَالَفَا فى بَذْلِكَ المأكُولا

أَمُعَفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسوْطه لِمَن ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقولا ؟

ولقد كان المتنبى يَرِق فيقول فى مثل ديباجة البُحْتُرى ، حتى لتحسبه ينظم من زَهر الرَّوض أو من نسيم السَّحَر :

حَبِبْتكَ قلبى قبلَ حبِّك من نَأى وقد كان غدَّاراً فكُن أنتَ وافيَا

• • •

يا أختَ مُعتنِق الفوارس فى الوغَى لأخوكِ ثَمَّ أَرَقُّ منكِ وأرْحَمُ

وغير هذا وغير هذا تجده فى شعر أبى الطَّيِّب . ولكنه من القليل أقلّ . أما سائر شعره فمن نَظم العقل لا من نَظم القلب ، ومذهبُه إلى صحة الفكر لا صحة الدِّيباجة

ولقد حدثتك أمس أن للرجل عقلاً عَبقرياً لقد يسمو به عن هذا الأفق ويُحلِّق به فوق هذا المستوَى فيُدرك أشياء على غير ما يَجرى فى تصوُّر جَمهَرة الناس ، فيَنحطّ بها إلى الشعر ضغطاً فى غير تزويق . وعلى هذا لا تقوى على احتمالها مثل ديباجة البُحترى ، وهى كما وصفَها بعضُ أصحابنا من « الدنتلاَّ » فتتمزَّق من دونها تمزيقا . بل لقد تضطرب بجانبها قوانين البلاغة ، ولقد تنشز عن الذوق العامّ

ولقد أرى أن الموضوع الذى نعالجه بهذه الأحاديث (القديم والجديد) لم يَنجم اليومَ ولا فى هذا الجيل ، وإنما نَجَمَ مع شعر المتنبى من قرابة ألف عام

على أن هذه المسألة لا يتهيأ حلُّها قبل الاتفاق على جواب هذه المسألة : ما الأدب ؟ ثم ما الشعر ؟

ولو قد تهيأت لنا معرفة حدّهما والاتفاق على تعريفهما لما تعذَّر علينا حَسْمُ النّزاع فى هذا الموضوع الذى نعالجه اليوم

ولا أزعم أنى وقفت للأدب ولا للشعر على تعريف وَقَع عليه اتفاق الأدباء كلِّهم أو أكثرهم فى أىّ عصر من العصور . ولا أزعم أنى أستطيع أن أحدّ كلاً منهما بالتعريف الجامع المانع : فذلك منِّى فَوق الغرور . ولو قد تقدَّمت له لصادرت أحد الفريقين على المطلوب . لأن القضاء فى هذا تَسلُّف للقضاء فى ذاك

ولكن هذا كلّه لا يعنى أننا لا نَلمَح وجهَ الخلاف . ولو بصفة عامّة . بين أنصار القديم وأشياع الجديد . فقد نَمَحه على الأقلّ من الخلاف بين من قالوا إن المتنبى أكبرُ شاعر . وبين من ذهبوا إلى أن المتنبى ليس بشاعر ألبتة

ولقد نستطيع أن نصوّر هذا الخلاف ولا نحدده . ولقد نصورّه بأن الشعر عند قوم لا ينبغى أن يتجاوز لهجةَ العرب وما كانت تستريح إليه أذواقهم ، وبحيث لا يَعْدو لغتهم وقوانين بلاغتهم . ويرى الآخرون أن الشعر كما هو مَظهرُ الشعور ينبغى أن يكون مظهرَ حاجات العقل والفكر معاً . فليس من حقّ الديباجة ولا من حق الأسلوب المتخيَّر ولا من حق الذوق العربى أن نعترضها فى هذا السبيل

وكذلك حدث فى الأدب عندنا : أهو مسألة عربية لغوية ؟ أم هو المسألة الجامعة لكل مطالب العقل والتصوّر والخيال ؟ مهما تنحرف عبارتنا فى تصوير هذه المطالب عن أسلوب اللغة ولهجاتها وديباجتها المرتَضاة ؟

والذى يُعظِم فى أثر هذا الخلاف أن اللغة العربية قد رَكَدت قروناً عديدةً انقبض

فيها أهلُها عن تقليبها و إجالتها فيما تُجِدُّ الأيامُ من فنون المعانى . وفى هذه المدَّة لقد انبعَث الغَرب وتحركت فيه علومٌ كثيرةٌ وفنون ، وسَطَعت من أُفقه فى العالم مدنيَّةٌ جليلة تناولت كلَّ أسباب الحياة . ثم هبَبْنا نحن الآخرين من نومتنا الطويلة ، ونحن فى تثاؤ بنا وفَرك عيوننا ، نبعث أَيمانَنا فاذا لغةٌ عظيمةٌ راكدةٌ فى الشرق من عدَّة قرون . ونبعث شَمائلنا فاذا حَضَارةٌ هائلة شَبَّت فى الغرب من بضعة قرون . ولا بدّ لنا لنأخذَ فى أسباب العلم والفنّ والقوة ، ولنجارىَ هــذا العـالم فى حَضَارته ، من أن نطابق بين قديم الشرق وجديد الغرب ، ونعمَل على الملاءمة بينهما . وما كان ليتّسق لنا هذا ، إذا هو اتّسق ، بمثل هذه السرعة التى يقدرها منا كثير ، فالمطلبُ ، فى الواقع ، حقٌّ عسير

ولقد بدأ اتصالُنا الحديث بالغرب فى عهد منقذ مصر محمد على الـكبير ، إذ أراد أن يَبعث العلمَ الحديثَ فى هذه البلاد ، فجاء له إلى مصر بمعلّمين ، وأَشخَص إليه من مصر متعلّمين . ومن ثَمّ تُرجمت عن لغاته كتبٌ فى مختلف العلوم والفنون لتُدرَس فى معاهد مصر بلغة البلاد . فجاءت مَزْجاً من العامّية والعربيّة والتركيّة والأفرنجيّة المعرَّبة ، ولم يكن إلى غير هذا من سبيل

ثم جاء اسماعيل وبَعَث الحركةَ العلميةَ فتُرجمَت كذلك كتبٌ لم تُوَاتِها اللغةُ العربيّةُ ، ولم يكن من سبيل إلى أن تواتيَها بكل مطالب هذه الحضارة

وأُنشئَت لعهده مدرسةُ دار العلوم ، وقام على تعهُّدها المرحوم على مبارك باشا ، وأَتى لهـا بالأفذاذ من أقطاب اللغة العربية ، مثل الشيخ حسين المرصفى ، فروَّوا طَلَبتها أدبَ العرب ، ولقَّنوهم مُتخيَّر شعرهم وفنونَ بلاغاتهم . فخرج منهم ناظورةُ العلماء فى اللغة والأدب العربىّ فى هذه البلاد ؛ وكانوا مُثار نهضتها الجديدة فى هذا الباب

إلاّ أن هـذه النهضة ، مع شىء من الأسف كثير ، كانت عربيةً خالصة ،

فلم تتصل بالعلم الغربيّ الذي هو يَنبوع حضارتنا الجديدة ، ولم تلائم بينه وبين اللغة العربية في كثير

وإني لأستطيع أن أقول إن العلم بقيَ أيضاً في ناحية ، وبقيت اللغة في ناحية أخرى . وظل الأدب عندنا يجول في حفظ المعلّقات السَّبْع ، ولاميّة العَرَب . وقصيدة ابن زُرَيق ، و (أفاطمُ لو شهدتِ ببَطن خَبْتٍ) ، وفي رواية حادثة طَسْم وجَدِيس ، وحرب داحِس والغَبْراء ، وحرب الفِجَار ؛ وحفظ صَدْرٍ من مقامات بديع الزّمان وأبي محمد الحريري ، ونحو هذا وهذا . ويعيش أدبُنا بهذا دهراً !

ثم جاءنا الشّنقيطي ، وجاءنا اليازِجي ، وجعلا يَتسقّطان الأدباء والكُتّابَ والشعراءَ فيما يَقع لهم مما لا يَجرى على قوانين الصَّرف ، ولا تقرُّه معجَماتُ اللغة ؛ ودعت هذه الحركةُ الجديدةُ إلى أن يَشيع في الناس كتاب (دُرَّة الغَوّاص في أوهَام الخَوَاصّ) للحريري ، وكتاب (لغة الجرائد) لليازجي ، يَستظهرها المتأدّبون ، ويَرتصِدون للكُتّاب والشعراء يأخذون عليهم كلَّ سبيل . فاذا قال كاتب « أثّر عليه » فلأمّه الهبَل ، إذ هي أثَّر فيه . وإذا قال شاعر « طبيعى » فما أجهلَه وما أقصَر علمَه فان النسبة إلى « الطبيعة » طَبَعى لا طبيعى . ويخرج ذاك غيرَ كاتب مُطلقاً ، وهذا غير شاعر ألبَتّة ، وهل يكون شاعراً أو كاتباً من يُسِفّ هذا الإسفاف ويَسقُط كل هذا السقوط ؟

أما اللغة التي تُواتِي حاجات العلم وحَضارة العَصر ، فلم يكن لها أي حظ في تلك النهضة ، إذا صح هذا التعبير ، إذا استثنينا جمعيةً أو مؤتمراً لغويًّا عَقَده السيد توفيق البَكْرى في داره ، ودعا إليه أئمةَ اللغة والبيان ، فتمخّض عن عَشْر كلمات عربية تَصلح للتعبير عن أغراض حديثة : فوقع من نصيب (التليفون) المسرّة . ومن حظ (البسكليت) الدّرّاجة ؛ ومنها ما أخذ الأدباء به ومنها ما أهملوا .

ولست أُخفيك أن حاجة العلم والفنّ قد امتدَّت من ذلك التاريخ وحدَه إلى عشرة آلاف كلمة أو تزيد !

والعَجب العاجب مع كل هذه العناية باللغة أن القائمين بالنهضة فى ذلك العهد لم يعُنَوا حتى بأساليب اللغة ولهجتها وذَوقها . بل لقد حَبَسوا كلَّ عنايتهم على مفرداتها . وقد قلت لك أمس : « إنى إذا قلت العربيـةَ فلست أَعنى مفرداتِها فحسب ، فلقد تقرأ الكلام لا يقع فيه إلاّ عربىٌّ صحيحٌ ، وهو مع هذا ليس من العربية فى كثير ولا قليل »

وتقدمت نهضتنا اللغوية حقًّا ، كما تحركت رغبتنا فى العلم حقًّا . فعَكَف ناسٌ على اللغة يحفظوا مفرداتِها ، وفَتحوا أذواقهم للهجاتها وأساليبها ؛ كما عَكَف ناسٌ على علم الغريب ، فاطلعوا عليه واستَشرفوا اله ، ورغبوا رغبة صادقة فى أن يَرجعوا به إلى قومهم ، ويُلَقُّوه مَعشَرَهم فى لغتهم إذ اللغة ، أو إذ علمُهم باللغة ، أو إذ هما معاً لا يَستطيعان أن يُواتِيا كلَّ أغراض العلم ، وإذ العلم لا يَرضَى أن يذلَّل لأساليب اللغة أو إلى الأساليب التى لا يَستريح إلا إليها المتَصدُّون لحفظ اللغة ، فعندنا قوم يُحبون أن يُخضِعوا العلمَ للُّغة ، وعندنا آخرون يُريدون أن يُخضِعوا اللُّغةَ للعلم . وهذا أصل الخلاف ومَنجَم الشقاق

ولقد تَبسَّطَ بىَ الكلام إلى الحد الذى لم أكن أقدره إذ وعدتك أمس بأنى مُوفٍ على غايتى فى حديث اليوم ، فانتظرنى إلى غد . واعذرنى إذ أُطيل عليك هذا الحديث

— ٣ —

ذهب عنى وأنا أَعرِض عليك فى مقال أمس تلك الصُّوَر التى اضطرب فيها الأدبُ العربىُّ فى هـذا العهد الحديث ، أن أُلمَّ بصورة كان لها أثر فى نهضتنا

الأدبية ، ولا يزال لها فيها أثرٌ غيرُ ضئيل . فلقد أخذ شبابٌ من أذكياء شبابنا بحظٍ من لغات الغرب وتروَّوا أدبَه واستظهروا من شعر شعرائه ، وجاشت نفوسُهم بكثير من معانيهم وأخيلتهم ، وفنون استعارتهم وتشبيههم ؛ وكان لهم كذلك حظٌ غيرُ قليل من أدب العرب ، واستظهار كثير مما نَضَحت به قرائح شعراء الصدر الأول ؛ ولقد حفَزوا عزائمَهم ليَصلوا أدبَ الشرق بأدب الغرب ، أو ليجلُوا في ديباجة البُحتُرى ما قال شكسبير . فنظموا كذلك وترسَّلوا . ولكن كان هذا المَرامُ فوق مَناط الطبيعة . فخرج كلامٌ لا ترضى عنه أساليب العربية . ولا تستريح إليه أذواق المتأدبين

على أن أُولِى هذه النهضة أنفسهم قد فطَنوا إلى ما فى هذه الوثبة الهائلة من شديد الخطر على لغة العرب . إذ أنها لا تستبقى منها إلا ألفاظاً تُحشَر إلى ألفاظ . أما رَونقها وأما بَهجةُ أُسلوبها فقد كاد يُدركهما العَفاء . فرجَعوا إلى اللغة يبعثونها فى رفق وفى لين . ولا يحمّونها من بلاغة الغرب إلاّ ما كان أشبهَ بذوقها . وإلا ما صقلوه بصقالها ؛ فدار فى أساليبها لا نائياً عنها ولا مُتعصّياً

على أن هذا النوع من البيان قد تسرّب إلى المراسح وإلى بعض الآثار المترَجمة أو المنشَأة ، فلا زلنا نسمع ونقرأ « الموت البنفسجى — وضوء القمر الطّرى — والصخرة المدمدِمة — والزهرة الفيلسوفة — واضطراب الشيطان فى نسيج عنكبوته » ! ! !

ونعود بعد هذا إلى ما كنا بسبيله : ولقد قرأت رسالة صديقى الدكتور هيكل فى صحيفة الأدب التى خرجت بها السياسة أمس و بين فيها رأيه فى القديم والحديث ؛ و إنى لأُوافقه على كل ما قاله فى جملته وتفصيله . وأُعلن فوق هذا إعجابى بدقّته واعتداله وصحة حكمه

و إذا كان المقام يَحتمل مزيداً على ما كتَب فلى بعض التفصيل

ولقد عرفتَ أن عنـدنا أنصاراً للقديم وأنصاراً للجديد . أما أولئك فالذين يَرَون بوجه عامّ أن الأدب مسألةُ غربية لغوية ، فما جاءنا عن العرَب وما انتهى إلينا من بلاغة الصـدْر الأول والذين يَلُونهم إلى عهد انقباض اللغة هو الأدبُ لا غيره . وأما هؤلاء فلا يَرَون إلاَّ أن الأدب هو الوَفَاء بحاجة العقل والفـكر والتصوّر والشعور ، وأن اللغةَ وأساليبَها ليست إلا أداة لهـا وظَرفا . وثمرةُ هذا الخلاف تَظهر ، كما حدَّثْتُكَ أمس ، فى أنه إذا لم تَتَوافَ اللغةُ لـكلّ تلك الحاجات فأيهما ينبغى أن يَخْضَع للآخر ؟

ونحن حين نتحدَّثُ عن أنصار القديم وأنصار الجديد نَبَرُ الحقيقةَ ونظلم الواقع إذا نحن نظمنا كلَّ فريق فى صفٍّ واحد . فإن أنصار القديم يبتـدئون بقوم لم يتَّصل لأدبهم حسٌّ بحَضَارة القرن العشرين ، وينتهون بقوم قد اتَّصل شعورهم بكل ما حولهم . وإنك لتراهم يَستشرفون لـكل ما يلامِسُهم من فنون الحضارة وحاجات العقل والتصوّر فى هذا العصر ، ويشكُونه بالترجمة والتعبير ما استطاعوا بشرط ألاّ يَنبوِ عنه الذوق العربى ولا تَشْمُس عليه أساليب الـكلام . وأما الآخرون فينتهون بطائفة لعلها لا تَلمَح شيئاً من بهاء هذه اللغة ورَونقها ، ولا ترى لديباجتها وأسلوبها حقًّا ولا كرامة . وأولئك الذين لا يقع لكلامهم من العربية إلاّ مفرداتُها . ولـكن بيانهم نفسه ليس من العربية فى شىء أبدا !

ولعلّه لا يَشُـق على الفريقين أن يُسقطا ذينك الطرفين من حساب هذا الخلاف فيدَعاَ أولئك مزمَّلين بشَمَلاتهم ، ظاعنين على عِيسِهم ، حتى إذا «وَخَدَت» بهم يوماً فى شارع عِماد الدين صدمها « المترو » صدمة جعلتها وجعلتهم « أَنْقَاضًا على أَنْقَاض » ، ويَدَعا هؤلاء فى رَطاناتهم وعُجمتهم ، فإلى المالطِية غايتُهم وبئس المصير !

وبعد أن يَنفُض الطرفان أيديهم من تراب أولئك وهؤلاء لا يبقى إلاَّ قومٌ تفقّهوا فى لغة قومهم ، وحَذَقوا أساليبَها ، وهم مع هذا دائمو الاستشراف لما تطالع

به الحضارة الحديثة من علمٍ وفنّ ، حِرَاصٌ على أن يَشْكُوه بلغتهم ويَنتظِموه ما استطاعوا فى أساليبها النّصاح . وقوم حَذَقوا العلم والفن يحبّون أن يجلوهما على قومهم بلغة العرب ؛ فهم دائمو البحث والتّقرّى علّهم يَعثرون بين مُحكَم صِيَغها وروائع تعبيراتها على ما يمكنهم من أن يحمّلوه رسالة العلم الحديث

وهذا هو الواقع والحمد لله . وإن من حقّنا أن نَغتبط كلّ الاغتباط بهذه النّهضة الكريمة ، نهضة العلم والفنّ الحديث ، تحاولها نهضة اللغة والأدب القديم . ولن يخرجا من هذه الحرب إلاّ إلى الصُّلح والسلام . ولن يُفضىَ بينهما هذا الخلاف إلاّ إلى الوِفَاق والوِئام

سيقول فلانٌ من أنصار الجديد إنى لَيَعتلِج فى نفسى معنًى لا أستطيع أن أنفضه فى ديباجة عربية صحيحة . وسيُبادِره فلانٌ من أنصار القديم بأن هذا أو قريباً منه لقد وقع فى تعبير المتقدّمين فها كه . وبهذا يحيا الأدب وتحيا اللغة معاً

* * *

لم يَبق من مواطن الأشكال إلاّ ما لم يُعِن فيه القديم على الوفاء بأداء الجديد ، ولا شك أن أكثر هذا أو كلّه من مستحدَثات العلوم والفنون . وكيف الحيلةُ فى هذا ، وما عسى أن يَرى فيه أنصار القديم ؟ أيَرون أن يَلينوا بقديم لغتهم حتى يتّسع له ؟ أم يَرَون أن يُذادَ جُملةً ويُدافَع ألبتَّة حتى لا يقع للعربية ما يُفسد كرائمَ مفرداتها ويذهب بأساليبها النّصاح ؟ وكذلك تُكتَب الفُرقة بين العلم والعربيّة إلى غاية الزمان !

وتلك مسألة لا يَحُلها إلاّ الزمن . وسيكون الفوزُ فيها للأنفع على كل حال[1] على أن الحياة مُتحرِّكة والمعانى تُستَحدَث فى كل يوم . ولا بدّ للعلماء

---

(١) كتب هذا الموضوع قبل إنشاء المجمع الملكى للغة العربية ، وقبل أن يقرر ما قرر فى هذا الباب

والأدباء من أن يقولوا ، وهم يقولون فعلاً ، وهم يؤدُّون أغراضَهم بما يتهيأ لكلٍّ منهم من فنون الكلام . وهنا لا يسعنى إلا أن أذكر بالخير كلِّه أنصارَ القديم ، فلولا غيْرتُهم وحرصُهم على لغتهم ، واستظهارُهم لبدائعها ، وتعقُّبُهم لكل مُنحرف عن قوانينها ناشز على أساليبها لعفَّت اللغةُ وتبلبلت الألسنُ وتشعَّبت اللهجات ، وأضحى هذا التُّراث الجليل أثراً من الآثار ، وبخاصة فى هذا العصر الذى هجمت فيه حضارةُ الغرب على أهل الشرق من كل مكان

ومهما يكن من شىء فان من أفحش الظلم أن يتدلّى أنصارُ الجديد بمعانيهم فى ألفاظ وصيغ لا تستقيم لِلُّغة إذا كان فى فصيح العربية ما يُغنى فى أدائها كاملة غير مَوتورة ، وأحسب أن هذا موضع اتفاق بين الفريقين . وأرى أن حركتنا فى هذا الباب مرضية ، بقدر مّا ، إن لم تكن كاملة . فاللغويّون يَعرِضون ، والأدباء يستظهرون ، والمترجمون يتحرَّون ؛ ولغتنا كل يوم تتبسَّط لتناول مختلف الأغراض

أما ذلك الاشكال الذى أسلفتُ الكلام فيه فكأنى بصديقى الدكتور هيكل قد فطَن إلى أنه لا يمكن أن يُحل بجهد الجماعات . فلقد جرَّبت مصر لهذا الغرض نفسه جمعية بعد جمعية ، وبلَت مؤتمراً بعد مؤتمر ، فلم تَظفَر اللغة منها كلها إلا بخِذلان . فالتفتَ بالأمل إلى جهد النوابغ الأفذاذ . وفى الحق اننا مدينون بكل نهضاتنا ، والأدبية منها بوجه خاص ، لجهد أولئك النوابغ الأفذاذ

وقد ردّ الدكتور هيكل سببَ انصداع المتأدبين إلى أنصار قديم وأنصار حديث إلى أن « مثل هذا الخلاف يرجع إلى قيام طائفتين اختلف تهذيبُ كل منهما واختلفت ثقافتها عن الأخرى ، فتعذَّر عليهما التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والأدب . ولن يزال هذا الخلاف ما بقى الاختلاف بين الطائفتين فى التهذيب والثقافة ، وما بقيت الأمة فى علمها وأدبها كَلاًّ على سواها وعالةً على غيرها » اه

وهذا كلام صحيح . و إن من يُمن الطالع أنه فى الوقت الذى تدور فيه هذه المناقشة تأخذ وزارةُ معارفنا أُهبتها لأنشاء جامعة تضم إلى كليَّاتها العظيمة كليّةً للآداب خاصة . ولا شك فى أنها ستُروِّى طلبتَها آداباً من آداب أمم الشرق والغرب ، ولكن مِلاك الأدب فيها ومادّته وأساسه لن تكون بالطَّبع غيرَ العربية . فليطمئنّ صديقى فلن نلبث طويلاً إن شاء الله حتى نظفرَ بأدبنا القومىّ ، فلا نكون عيالاً على غيرنا . وحتى تتقارب مذاهب أنظارنا باتحاد ثقافتنا ، فلا يرى بين ناشئتنا الجديدة — على الأقل — مايرى بيننا نحن من فرقة فى قضية الأدب وانصداع فلننظر المستقبلَ فى غِبطة وأمل وارتياح

رسالة الأدب !

من الصِّيَغ التى يَكثُر دَوَرانها هذه الأيامَ على أقلام المتحدّثين فى الفنون (رسالة الأدب أو الفن) و (رسالة الأديب أو الفنَّان) . تَشيع هذه الصيغة فى حديث المتحدّثين فى أسباب الفنون ، ويكثر دورانها على أقلام المتعلّقين بالآداب منهم خاصة ، شأن كثير من الصِّيَغ والكلمات التى يَعتمدها بعضُ الظاهرين من الكتّاب لأداء بعض المعانى الطَّريفة يَستحدثونها فى العربية استحداثا . وهذا فى القليل النادر ، أو يُترجمون بها عن تعبيرات إفرنجية ، وهذا فى الكثير الغالب . وسَرعان ما تَنتضِح بها الأقلام ، حتى لقد تَنتظِمها أقلامُ نشء المتأدبين من غير حساب ، إلى أن تملَّ بكثرة الابتذال ، وإلى أن تفقِد معناها بطول تذريتها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ! وإنك ما تكاد اليوم تشقّ صحيفةً من الصحف حتى تأخذ عينيك من جميع أقطارِها كلمةٌ من هذه الكلمات الدائرة من نحو (القَدَر الساخر) ، أو (يا لَسخرية الأقدار) . و (رسالة الأدب) أو (رسالة الأديب) وغير ذلك مما تراه فاشياً فى رسائل بعض المتأدبين فى هذه الأيام ، حتى يكاد يَشيع فيك الاعتقادُ بأن هذه الكلمات أو تلك الصِّيَغ المستطرَفة هى مادَّة المقال ومِلاكه ، والغرض المقسوم بنظمه والتّشمير فى وضعه وإنشائه . وإن طلبت تعبيراً أبلغ دقَّةً وصراحة ، قلت إنك لا تخرج من النظر فى بعض هذا إلا بالشعور بأن الكاتب لا يَعنى من حديثه شيئاً ، وأنه لم يجتمع لتأليف مقاله ليؤدِّىَ غرضاً لأنه لا يتراءى له غرض ، وأن كلما يُريد من الأمر وما يملِك ، أن يُزجى طائفةً من الصيَغ والكلمات الطَّريفة التى أثَرها عن بعض مشهورى الكتّاب !

هذا غرضٌ يدلُّك بنفسه على مَنجَمه ، ويهديك ، فى غير عسر ، إلى جوهر علَّته . وهى لا تعدو ، فى الغاية ، إرخاصَ الأدب وتيسيرَ انتحاله لمن شاء من أهون سبيل . وليس أَدَلَّ على هذا ولا أبلغَ فى الاحتجاج له من شيوع هـذه الكلمة التى اتخذناها موضوعا لهذا المقال ، أعنى (رسالة الأدب) ، وكثرةَ دَورانها على الأقلام !

* * *

و بعد ، فهل للأدب ، أو للفن على جهة العموم ، رسالة ؟ وما رسالته التى يحمِّلها الأدباءَ أو الفنَّانين ؟

هذه كلمة فيما أعلم جديدة ، أعنى أنها لم تقع لى فى كل ما قرأت للمتقدِّمين . فاذا كانت مما سبقت به الأقلام ولكنها لم توافقنى فى كل ما أَرسلتُ فيه النظر ، فان علمى بها على ذلك هو الجديد

ومهما يكن من شىء ، فانه ما خَفَق معنى هـذه الكلمة فى ذهنى إلا راعنى وتعاظمنى فأسرعت إلى ردِّه عنه وتوجيه القول فيه على لَغو الحديث ، وأحلته إلى ذلك الضَّرب الشائع من الألفاظ فى هذه الأيام لا يَضبط معنى من المعانى . ولكنه يُبذَر فيه على الطِّرس بذراً قصداً إلى محضِ التزيُّد والإطراف

وقبل أن يَهولك منى هذا الكلام و يروعك ، أرجو أن تُطيل النظر والتدبير فى معنى (رسالة العلم أو الفن) ، وقولهم : (إن فلاناً أدَّى رسالة الأدب أَوالفن) . فانك إذا نزلت من فورك على الحقائق اللغوية ، استحال عندك أن يكون لشىء من الأدب أو الفن أو ما يجرى مجراهما رسالة يحمِّلها الناس أو غيرَ الناس . إنما يُبرد البُرُد و يبعث الرسل من له عقل و إرادة ورأىٌ فى تصريف الأمور ، وليس للأدب ولا لسائر الفنون حظٌّ من هذا ، بالضرورة ، كثير ولا قليل !

لم يبق إلا أن تَعُوذ بالتجوُّز باللفظ والانحراف به عن أصل موضوعه ، وتصير به إلى المعنى الأشكل بمراد البلغاء ما دامت علائق المعانى تأذن لك بهذا التجوُّز

والانحراف ، وهنا يَتمثَّل لك الفن فى صورة العاقل المريد القادر على التدبير والتصريف . وتَتمثَّل له رسالةٌ يتقدَّم إلى الفنان بتبليغها إلى من يشاء أو إلى ما يشاء من العالَمين . وأنت خبيرٌ بأنه ليس للفن ولا لغيره من هذه لسان يُترجِمُ به عما يريغ من فنون الأغراض . فكيف الحيلة فى أن يتقدم إلى الرسل بتبليغ ما شاء من الرِّسالات ؟

اللهم إن له من أسباب البيان ، ما هو أفصحُ وأبينُ من تعبير اللِّسان . بل إن له على رُسله من السلطان ما لا يُقاس به سلطان ، إن له تلك السَّطوة الساطية التى تُكرِه الفنان إكراهاً وتُرغمه إرغاماً على أن يؤدى رسالتَه لا يستطيع لأمره معصية ولا يجد منه سبيلاً إلى الفرار !

لقد تَعتلِج الصور الرائعة فى نفس الفنّان ، ولقد تزدحم فى صدره وتَقوى وتشتدّ فى طلب المفيض والمتنفَّس ، ولا تزال كذلك حتى تتفصّد عنه ما يكاد يجد فى حقنها حيلة أو يكون له فى تفصُّدها خيار ، فهو فى شأنها منفعل أشبه منه بفاعل ، إذا صح تعبير أصحاب الفلسفة فى مثل هذا المقام . هذه رسالة الفنّ ، وكذلك يؤديها الفنّان !

ليست رسالةُ الفنون إذن شيئاً من تلك الأشياء التى تتعلق بها إرادة المرء حراً تامَّ الاختيار ، يوردها إذا أراد ، ويُصدِرها حيثما شاء ، ولكنها كما زعمت لك قوةٌ قاهرةٌ لا يكاد يكون له بمَورِدها ولا بمَصدرِها يدان . بل إنه بمجرد أداة لتصرُّفها لأشبه منه بفاعل متأنِّق مختار . ولولا أنه إنسان يمشى ويريد ويتصرّف فيما يتصرف فيه الأَناسِىُّ لحق أن يضاف فى هذا الباب إلى خَلق من ذلك الخلق الذى يصدر عنه كثير من أسباب اللذة والمتاع ، لا إرادة له فى شىء منها ولا تدبير ! بل لقد يَصدُر عنه من ذلك ما يَصدُر ماله فِطنةٌ إليه ولا شعور به ولا إحساس ! وليت شعرى هل يدرى الهزَار بما يصنع ، ساعةَ يَشدو ويَسجَع ،

وليت شعرى هل تجتمع له نية وأرب ، فى أن يُشيع ترجيعُه فى نفوس الخالين اللذّةَ والطرب ، أم أراد بتغريده وشدوه ، ما يُذكى من لوعة الصب ويَهيج من وجده وشَدوه ؟ وهذه الزهرةُ أتحسبها قد أشرقت لتتبهّج لعين الناظر ، وتنفست بالشذَا لتنفث السحر فى أنف العاطر[1] ؟ وقل مثل هذا فى البدر إذا تألّق ، وفى الغدير إذا ترَقرق . فإذا صَدَرت عنها روائع الآثار ، فما كان لشىء منها هوى فيه ولا خيار

ومما يتصل بهــذا المعنى ما زعمتُه فى بعض مقامات الكلام[2] من أن من الشعراء ، وأعنى بهم بالضرورة من يستحقون هذا الاسم ، من تتخطى شاعريتهم أفْق مداركهم ؛ فتراهم يصيبون من المعانى مالا تتعلق به ، فى العادة ، أذهانُهم ، حتى لو راجعتَهم فى بعضها ، وقد آبوا إلى أنفسهم ، لاحتاجوا فى تفهمها إلى مطاولة وجهد فى الاستخبار !

ذلك بأنهم لم يصنعوا مثل ذلك الشعر صنعاً ، ولو جاءت روعته من التشمير فى التجويد والافتنان ، ولـكنه فيض يفاض على الشاعر من عالم الغيب فيتحرّك به لسانُه ، أو تجرى به على الطِّرس بنانُه ، لا أقول نزل به جبريله ، ولـكن وسوس به شيطانه !

ولعلّ هـذا المعنى يفسر لنا ما كان يزعم العرب من أن لـكل شاعرٍ شيطاناً يُلهمه الشعرَ و يفيض به عليه ، كأنه حين تعاظمهم أن يقع للشاعر من فُنونِ المعانى ما لا يتسق ، فى العادة ، لفكره ، ولا يتعلق به ذهنه ، راحوا يلتمسون المصدَر من عالم الغيب ويَصلونه بما وراء آفاق الحس ، ففرضوا لـكل شاعرٍ شيطاناً يُسدى

---

(١) العاطر : المحب للعطر

(٢) راجع ما كتبناه عن المرحوم شوقى بك فى كتاب « المرآة » وفى هذا الـكتاب

بدائعَ الكلم إليه ، ويفيض بروائع الحكم عليه ! والله أعلم !

* * *

وبعد ، فليس هناك شك فى أن زعم العرب ذاك خرافة من الخرافة . ثم لقد ترانا من ناحية أخرى قد غلونا فى توجيه كلمة (رسالة الفن) على المعنى الذى وجهنا ، وأن أمرها أرفق من ذلك وأهون . وليكنْ لك ، فى هذا ، من التقدير ما تحب ، على ألا تبالغَ فى إرهاق الأفهام ، ولا تغلو فى النشوزِ على ذوق الكلام . فانك مهما تجهدْ فى الأمر وتتلطف فى الاحتيال له لواجدٌ للفن رسالة يريد ، على أية صورةٍ من الصور ، وبأية كيفية من الكيفيات تبليغَها للناس أو على الأقل لمن يجرى منهم على عِرق فى ذلك الفن . وأن هذا الفَن قد اصطفى من بين أهله فلاناً ليبلِّغَ رسالتهُ ففعل

ليكن لك ما تريد من تصوير الكيفية التى يحمِّل بها الفَنُّ أولئك المصطفَين رسالته ، ويقتضيهم أداءها إلى من بُعثوا فيهم من العالمين — فانك على ألْيَنِ تقدير لتجد الخطْب جليلاً كلَّ جليل !

* * *

رسالة الفن ! هذه لعمرى كلمةٌ إذا كان لها مدلول يتصل بالواقع . فمدلولها على كل حال غالٍ ثمين . تالله ما كانت رسالة الفن ، إذا حق أن يكون للفن رسالة . بالشيء المرتَخَصِ المبتذَلِ فى الأسواق يشتريه من شاء بأوكس الأثمان ، ولا هو باللَّقى[1] على عِذارَى الطريق يتناوله من شاء ويطرحه فى حيثما أراد !

رسالة الفن ! كلمة كبيرةٌ سواء أجرت على معنى استحداث الأحداث فيه ، أم على معنى إيتائه بجليل مطالبه ، أم تجليته فى أبرع صورة وأروعها — ليس مدلولها الجِد على أى معنى من هذه المعانى وجَّهته ، بالذى فى يد المتناول ولا بالذى

---

(١) اللقى بفتح اللام والقاف الشيء اللقى المطروح

على طرف الثُّمام[1] كما يقولون ، إنما هو شىء شامس[2] عصىّ لا يَذِل ولا يسلَس إلا لمن آثره الله تعالى بالمواهب العظام

هنا يخيَّل إلى القارىء الجادّ الذى لا يعرف أن الألفاظ قد تعبث وأن الصيغ قد تعربد أن مصر قد استوى لها فى هذا العصر آلافٌ من العبقريين الذين اصطفتهم الفنونُ لأداء رسالتها فأدّوها على خير الوجوه ، وما للقارىء الجادّ ، أو على الصحيح القارىء الذى يقدر الجدَّ فى جمهرة الكاتبين . لا يرى على هذا أن مصر كما تُخرج الحَبَّ وتجودُ بالقطن ، أصبحت كذلك تُخْرِج . ولكن عفواً بلا بَذر ولا سَقْى ولا تعهُّد ، آلافَ العبقريين الذين يحملون إلى العالم رسالاتِ الفنون . وكيف لا يرى هذا وهو لا يبسُط بين يديه صحيفةً إلا زحم نظرَه أسماء الحشد الحاشد من هؤلاء الموهوبين الذين يشتعبون أقطارَ البلاد حاملين بريدَ الفنون إلى أصحاب الفنون : على أنك لو اطَّلعت على كثير من هذه الصحف المنزّلة على أولئك الرسل : بل لو قد اطَّلعت على أكثرها الكثير لما شككتَ فى أن الألفاظ قد انحرفت عن معانيها بقدر كبير ، حتى أننَّا لو اطَّردنا فى إجالة مثل هذه الصيغ سنُصبح بعد قليل من الزمن فى أشد الحاجة إلى نقض معجماتنا اللغوية لنقيم من جديد كلَّ لفظ بازاء معناه الطَّريف ، وإلاَّ اضطربت الأفهام . واختلَّ ميزان الكلام

لقد قلت فى بعض هذا المقال إن العلةَ فى هذا لا تعدو فى الغاية إرخاصَ الأدب . ولقد تعلم أن هذا الأدب قد تيسَّر انتحالُه لمن شاء ، وحسبُ المرء فى تقلُّده أن يَتكثَّر فى المقال بطائفة من تلك الألفاظ والصيغ الطريفة الدائرة . وما دام هذا سبيلَ المرء إلى ادِّعاء الأدب وانتحاله ، فلاشك على هذا القياس فى أن

---

(١) الثمام بضم الثاء : نبت ضعيف لا يطول ، كلمة تقال للشىء اليسير الذى لا يتطلب الحصول عليه أى جهد

(٢) الشامس : الممتنع الأبى

الترق إلى مقام العبقرية وحمل رسالة الأدب يُغنى فيه أن يَطبع كلاماً منثوراً أو منظوماً يذهب به إلى أىّ غرض أو لا يذهب به إلى غرضٍ ألبتة . وله بعد هذا أن يُضفى عليه ما شاء من النعوت والألقاب ، وأن يستحيل فى طرفة عين من حَمَلة رسالات الفنون والآداب

فاللهم إذا كان هذا هكذا ، وهو كذلك مع الأسف العظيم ، فويلٌ للآداب وويلٌ للفنون فى هذه البلاد*

---

* نشر هذا المقال ومقال (فى النقد الأدبى) فى مجلة الهلال

كيف نبعث الأدب*
وكيف نتروّاه؟

— ١ —

عرض وجلاء تاريخ :

لا شكّ فى أن من أهمّ نهضاتنا التى نتواثبُ فيها الآنَ ومن أبرزها نهضةَ الآداب : فلقد زاد عددُ المُقْبلين على الأدب العربىّ والذين يُعالجونه فى هذا العصر بقَدْرٍ عظيم ، كما أُعليَت مكانته ، وأَبْعدت أغراضُه ، وتلوّنت فنونُه . و بعد أن كان يَضطرِب فى أضيق مُضطرب ، ويَتقلّب فى أفسل المعانى . ولا يستشرف إلاّ للضّئيل التّافه من الغايات : من المديح الوضيع الذليل ، ومن الغَزَل المصنوع المتكلّف ، ومن فخر مكذوب لا يَمُتُّ إلى مَفاخر العصر بسبب . ومن وَصفٍ مُفترًى على الطبيعة . فلا هو ممـا يَنتظمُ الواقع ، ولا هو ممـا يَخلَع عليـه الخيالُ الصّناعُ صورةَ الواقع . ومن هَجوٍ تُتلقّط فيه المعايبُ والمقاذِر من هنا ومن هنا لتُعفَر بها وجوهُ النـاس عَفراً . ونحو ذلك ممـا كان يجول فيه الأدب فى الجيـل الماضى ، على وجه عامّ ، وتتجرّد فى طلبه والتشمير له جمهرَةُ المتأدّبين . على أنه لم يكن له أىُّ حظٍّ من وجدان ولا من جَيَشان عاطفة ، وكيف له بهـذا وهو لم يَذْكُ له حِسّ ، ولم يَخفِق به قَلب . و إنمـا أمرُه إلى حركة آلية لا تـكاد تعدو فى مَذهَبها تلك الحركةَ التى تَنبعث بها الصّناعاتُ اليدَوية . إلى أنَّ تلك المعانى ،

* نشرت فى مجلة الرسالة العدد ٩٠

إذا صدق أن مثل ذلك مما تُطلق عليه كلمةُ المعانى ، لقد كانت ، فى الكثير الغالب ، تجلَى فى صُوَر مُترهّلة متزايلة ، لا يقوّى بناءها أو يشدّ مَتنها شىء من جزالة اللفظ ومَتانة الرّصف ، وتلاحُم النسج ، ولا يَجتمع لتزيينها وتبهيجها شىء من حُسن الصياغة و إشراق الدّيباجَة وجمال النظام !

ولقد قيَّدتُ هذا (بالكثير الغالب) لأن ذلك الجيلَ الماضى لم يَخْلُ من كتّاب ومن شعراء أغلوا حظّ الأدب ، ففسَحوا فى أغراضه ، وأَبعدوا فى مطالبه ، وحلَّقوا بمعانيه ، وأبدَعوا فى البيان ، فاتسق لجلالة المعانى شرفُ اللفظ ، و براعةُ النظم ، و إحكامُ النسج . وكذلك استوى من المنظوم والمنثور كليهما كلامٌ يترَقرق ماؤُه ، ويَتألّق سَناؤُه . ورحم الله إبراهيم المويلحى و إبراهيم اللقانى وأضرابهما فى الكتّاب ، ومحمود سامى البارودى و إسماعيل صبرى فى الشعراء ، فقد هَدَوا إلى حُسن البيان السبيل

* * *

و إذا كان الأدب يَتمثّل لأُدباء هذا الجيل فى صورة أبدعَ وأروعَ من الصورة التى كان يَتمثل فيها لسلَفهم القريب ، كما أدركوا هم أن له مهماتٍ أوسعَ أُفقاً وأبعدَ مَدًى من تلك التى كان يدور فيها فى ذلك العهد ، حتى لقد أصبح يتقلب فى جُلَّى أسباب الحياة ، بل لقد تجاوز أو كاد يتجاوز أُفُقَ الكماليات البَحت إلى موطن الضرورات فى الحياة الاجتماعية — إذا كان المتأدبون قد أصبحوا يُحِلّون الأدبَ هذا الموضع ، ويَتمثلونه على هذه الصورة ، فذلك لأنهم طالعوا أدبَ الغرب ورأوا ما يتصرّف فيه من مختلف الفنون ، وما يتجرّد له من جسام المطالب

لقد أصبح الأدب وسيلةً من وسائل تنعيم النفس وتلذيذها بما يجلو عليها من صُورِ الجمال ، و بما يُرهف من الحسّ حتى يتفطنَ من ألوان المعانى إلى كل دقيق و إلى كل بديع ، كذلك لقد تبسَّط الأدبُ واسترسلت آثاره إلى كثير من

الأسباب العامة ، على ما تقدمت الإشارةُ إليه ، فعظم بذلك أمره ، وجلّ فى عَيش الحضارة خَطبه ، وكذلك أضحى للبارعين من أهله فى الغرب من الشأن ما لا يكاد يوصَل به شان

ولقد زعمتُ لك أن الذى بعث تقديرَ أبناء العربية للأدب هذا المبعث ما جُلى عليهم من أدب الغرب وما طالعوا من بعيد آثاره فى شتى الأسباب ، فراح كثيرون منهم يتأثرونه ، ويتصرّفون بالبيان فى مثل ما يتصرّف فيه من مختلف الفنون . على أن كثيرين من هؤلاء الكثيرين قد انقطع جهدُهم دون هذه الغاية فلم يظفَروا من الأمر بجليل . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أنهم ، فى غالب الأحيان ، إنما يَنقُلون إلى العربية ما يتهيأ لهم نقله من آداب الغرب على الصورة التى يستوى فيها لأهله ، لا يحاولون ، أو لعلَّهم يعجزون إذا هم حاولوا ، أن يَطبَعوه على ما يألفه الخيال الشرقىّ ، ويستريح إليه الذوقُ العربىّ ، وتسلَسُ له بلاغات العرب !

ولقد يكون هذا من أثر الافتتان بأدب الغرب ، والتجرّد فى محاكاته وتقليده من جهة ، وقلة المحصول من فقه العربية ورقةِ الزاد من ألوان بلاغاتها من جهة أخرى

وبعد ، فما نحسب أن هناك من يُنكر على الأدب العربىّ جليلَ خطره فى عهد الجاهلية وفى قيام الدولة العربية فى الشرق والغرب ، وأنه كان ، فى الجملة ، يؤدى من مطالب الحياة ما يؤديه الأدب الغربىُّ اليوم ، وأقول (فى الجملة) لأن الأدبَ قد تشعبتْ فى هذا العصر فنونُه ، وتطاولت آثاره إلى كثير لم يلتفت إليه فى الزمان القديم ، ولعله لو ظلت دولةُ العرب قائمة ، وظلت حضارتهم فى اطِّرادها ، ما تقاصر اليومَ عن شأو الأدب الغربىّ ، بل لعله كان يسبقه إلى كثير ! ولو قد عُنِى النَّشء من متأدِّبينا بدراسة هذا الأدب ، وخاضوا فى أمهات كتبه ، وأطالوا تسريح النظر فيما أُثر من روائعه ، لرجعوا إلى نفوسهم بأنه أدبٌ عظيم كلُّ عظيم ، أدبٌ يمتع حقًّا وينعّم الروح حقًّا بما ينفُض من عاطفةٍ معتلجة ، ويصوِّر من دقيق حسّ ،

ويتدسَّس إلى ما استكن فى مطاوى الضمير ، إلى ما أصاب من المعانى البارعة ، وما تعلق به من الأَخيلة الرائعة ، وما تصرّف فيه من كل دقيق وجليل فى جميع الأسباب الدائرة بين الناس . ما ترك جليلاً من الأمر ولا دقيقاً إلاّ مَسَّه وعَرض له وعالجه بالتصْوير والتلوين ، وكلّ أولئك يصيبه فى مصطفى لفظ ، ومحكم نسج ، وبارع نظم ، ودقة أداء ، وحلاوة تعبير !

على أنّ الأدبَ العربى ، مع هذا ، لقد طالما جال فى بعض الأسباب العامة وساهم فى الأحداث السياسيَّة والقوميةِ والمذهبية بقدر غير يسير ؛ ومهما يكن من شىء فهو أدبٌ واسع الغنى ، رفيع الدرجة ؛ بل إنه لَمِنْ أغنى الآداب التى قامت فى العالم ومن أعلاها مكاناً

والواقع أنه قد انقبض بانقباض الدُّوَل العربية وضَعُف بضعفها ، فجعلت تضيق أغراضُه ، وتتواضعُ معانيه ، ويجفُّ ماؤه ، ويتجلجل بناؤه ، حتى صار إلى ما صار إليه وظل عاكفاً عليه ، إلى ما قبيل نصف قرن من الزمان

ولا يذهب عنك أنه فى فَترة انقباضه الطويلة قد انبعثت فى الغرب حَضارةٌ جديدةٌ جعلت ، على الزمن ، تَنبسِط وتتناول وسائلَ الحياة دِراكاً حتى بلغتْ شأواً بعيداً . ومما ينبغى أن يُلتفتَ إليه أشد الالتفات فى هذا المقام ، أن هذه الحضارة أوْلَتْ أجلّ عنايتها للشئون المادية ، فكان حظُّ العلوم الطبيعية والكيميائية منها عظيما ، فاستُكشِفت أشياء كثيرة ، واختُرعت أشياء كثيرة ، حتى كاد الانسان لا يتناول شأناً من شئون الحياة إلا بسبب طريف . وبذلك كثُرت الآلات المادية كثرةً تفوق حدود الوصف ، وهى تطّرد فى الزيادة كل يوم ، إذِ اللغةُ العربيَّةُ جاثمةٌ فى أُفحوصِها لا تمتدّ بالتعريف عن هذا ، إذا هى امتدّت ، إلا إلى قليل ، بل إلى أقلّ من القليل

ولقد كان من آثار فقر العربية فى هذا الباب أنها حتى بعد نهضتها الأخيرة

لزمَت فى بيانها دائرة الأدبيات لا تصيب من المحَسَّات المادية ، إن هى أصابت ، إلا فى حرَج وفى عسر شديد ! وكيف لها بهذا وليس لها به عهد قريب ولا بعيد ؟!

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون ، فقد بعثت النهضةُ العلميةُ فى عهد محمد على الكبير رفاعةَ وأصحابه إلى أن يَنفُضوا قديم العربية لعلهم يجدون بين مفرداتها وما أُثِر فى كتبها من المصطلَحَات العلمية والفنية ما يَدلُّون به على ما استوى لهم من جديد فى العلوم والفنون ، فاذا أصابوا هذا وإلا عمَدوا إلى الوسائل الأخرى من النحت والاشتقاق والتعريب . وإذا كان قد اجتمع لهم فيما نَقلوا إلى العربية من علوم الغرب وفنونه صدرٌ محمود ، فان ذلك أصبح لا غَناء فيه ولا سداد له بعد إذ فترت تلك النهضةُ وخبت جَذوتها بعد ذهاب مُذكيها المرحوم محمد على الكبير ، بينا تطَّرد العلوم والفنون فى تبسُّطها حتى لتخرج على العالم كل يوم بجديد . وهذه الحاجة الملحة : والتى يشتدّ إلحاحُها ويتضاعف كلما تراخت الأيام ، لقد كانت تبعث جماعات الفضلاء الفينة بعد الفينة إلى تأليف الجمعيات للبحث والنظر فى تحريك لغة العَرب حتى تستطيعَ أن تتوافى لمطالب الحضارة الحديثة . على أنه لم يُقدر لها النجاح لأسباب لا محل لذكرها فى هذا المقام . فلم يَبق بدٌّ من أن تضطلع وزارةُ المعارف بالأمر ، وبعد لأيٍ قام (المجمع الملكى للغة العربية) ، نسأل الله تعالى أن يمدَّه بروحه ، ويعينه على مهمه جليل المشقة جليل الآثار ، وأن يهديه إلى أقوم سبيل !

* * *

لقد استطرد القلم من حديث الأدب إلى حديث اللغة ، ومانه لا يفعل واللغة مادته وملاكه . وإذا كان أجلّ همه إلى المعنويات فليس له عن هذه المادّة غَناء ، بل لقد تكون وسيلتَه وأداتَه حتى فى التعبير عن أخفى العواطف وأدق خلجات النفوس ، على أن أهم ما يَعنينا من هذا البحث إنما هو حَيرة الأدباء ، أو على تعبير

أضبط ، حَيرة بعض من يعانون الأدبَ فى هذا العصر ، وذلك أن فى مأثور العربية أدباً غنيا سريا ، واتى سلفنا العظيم بمطالب الشعور ومطالب الحضارة جميعاً . على أننا نعيش الآنَ فى حَضارةٍ غير حَضارتهم ، ونُعالج من وسائل الحياة غيرَ ماعالجوا ، ثم إنه مهما تطبعنا الوراثةُ على طبعهم ، وتنضَح علينا من أذواقهم وشعورهم وغير ذلك من خلالهم ، فان مما لا شك فيه أن لتَطاوُل الزمن ، وتغيُّر البِيئات ، وتلوّن الحضارات ، وما يجوز بالأقوام من عظيمات الأحداث أثراً لقد يكون بعيداً فى كل أولئك . وأنت خبيرٌ بأن الأدبَ الحق إنما يتكيّف بما هو كائن ، ويُترجم عما هو واقع[1] . ومن هذا تجد كل أدب حىّ متحرِّكٍ فى تطور مستمر طوعا لتطور العوامل والأسباب . ولست تلتمس دليلا على أن الأدب العربى إنما كان كذلك فى حياته القوية بخير من أن تستعرض شأنه فى الجاهلية ، وتقلبه فى جميع الدول العربية فى العصور الاسلامية ، فلن تخرج من هذا إلا بأنه قد تأثر فى كل عصر وفى كل بِيئة بقدر ما تغير على القوم من مظاهر الحياة

ومعنى هذا الكلام أن الأدب العربىّ ، فى أى عصر من عصوره الخالية ، مهما يجلّ قَدرُه ، وتعظم ثروته ، لايمكن أن يُغنينا الآنَ فى كثير من مطالب الحياة إذا نحن اتخذناه على حاله ، ولم نَعدُ ما كان من صُوَرِه وأشكاله . و إلا فقد سألنا الطبيعةَ شَططاً . فهيهات للساكن الجاثم أن يَلحق المتحرك السائر

وهنالك أدبٌ غربىّ دارجَ الحضارةَ الحديثةَ وسايرها خطوة خطوة ، واتّسع لكل مطالبها ، وواتاها بجميع حاجاتها فى غير مشقة ولا عناء ، ولا يذهب عنك أننا إنما نتأثر الغرب فى ثقافته وعلومه وفنونه وسائر وسائله ، وهذه سبيلنا إلى ما نَستشرف له من التقدم ومشاكلةِ الأقوياء ، ولكن هذا الأدب الغربىّ الذى

---

(١) قد يحاكى الشاعر أو الكاتب لأمر ما ، أدب السابقين ، وقد يعمد إلى تصوير عواطفهم وخلجات نفوسهم حتى كأنه يجدها ويشعر بها على نحو ما شعروا ، وأكثر ما يقع ذلك فى الأدب القصصى ، على أن الاديب فى هذا مستعير لا أكثر

نُقبل على محاكاته فيما نُقبل عليه من آثار القوم ، لا يَتّسق فى بعض صوره لشأننا ، ولا تستريح إليه أذواقُنا ، بل إنه قد لا يَستوى فى تصوُّراتنا ، ولا يجدى علينا فى كثير ، أضفْ إلى هذا عجز بعض نقَلَته سواء فى شعره أو فى نثره ، وقلة محصولهم من العربيــة ، واضطرارهم بحكم ذلك إلى إخراجه ، مترجمين كانوا أم محاكين ومقلّدين ، فى صورٍ بيانية شائهة الخَلْق ، ناشزة على الطبع ، لا تحَسّ إلا مليخةً باردة فى مَذَاق الكلام !

وبعد ، فان مما لا يَتقبَّل النزاع أنه لابد لنا من أدبٍ قوىّ سرىّ يواتى جميع حاجاتنا ، ويساير ثقافتنا القائمة ، ويَتوافى لهذه الحضارة التى نعيش فيها ، بحيث تَطمئن به طباعنا ، وتستريح إليه أذواقنا ، شأن كل أدب حىّ فى هذا العالم ، ولعل من أشد الفضول أن نقول إن هذا الأدب لا يمكن إلا أن يكون عربياً . ولكن كيف الحيلةُ فى ذلك ؟

ذلك ما نعالجُه فى مقال آخر إن شاء الله تعالى . فلقد طال هذا الحديث

— ٢ —

أين أدبنا الصريح ؟ :

لقد تعرف أن الأدبَ الحقّ لكلّ أمّةٍ هو الذى يُشاكل حَضارتَها ، ويكافئ ثقافتَها ، ويُواتيها فى جميع أسبابها ، ويُترجمُ فى صِدقٍ ويُسرٍ عن عواطفها ، وينفُض ما يَعتلج فى الصُّدور من ألوان الشعور والأحساس . ولقد تعرِف أن الأمم كما تختلف فى ألوانها وفى ألسنتها وفى أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فانها تختلف كذلك فى شعورها وفى أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف فى أفراد الأمّة الواحدة هــذه العواطفُ بالقوة والضعف ، والرقة والجفاء ، وغير ذلك من وجوه

الاختلاف ، فانها ترجعُ إلى أصل واحد ، وتَندرِجُ تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق . وذلك لأنها أثر من آثار الإرث ، والبِيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردّد عليه النظر من صُوَر الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظّ الأمة منها أثرَه البعيدَ أو القريبَ فى هذا الباب

ومهما يكن من شىء فان لون العواطف الشائع فى كل أمة ليس بالشىء الذى يُستعار استعارةً ، ولا بالذى تتناقله الأمم كما تتناقل العلومَ وفنونَ الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيتَ أن أبلغَ عناصره مما لا يُدرَك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلاّ حُكم الطبيعة وما من حُكم الطبيعة مَناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، فى غير حاجة إلى أن نَبعث الأدلة على أن ما يُترجِم عن عواطف قوم ويُصوّر من حسّهم الباطن قد لا يؤدّى هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خَلْق من الناس لقد ينشُز على أذواق مَعشرٍ آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذّوقُ كلاهما فى معنى من المعانى ، وحينئذ يَصدقُ البيان

وعلى هذا فانه مهما نُسرِف فى مطالعة أدب الغَرْب والتروِّى منه ، ومهما نجهَدْ فى محاكاته وتقليده ، فانه لن يكون لنا أدباً فى يوم من الأيّام ، اللهم إلاّ أن تنقلب أوضاعُ الطبيعة ، فان الأمم لا تُطبَع على غِرار الآداب ، بل إن الآدابَ لَهِىَ التى تُطبَع على غِرار الأُمم !

لقد نكون فى حاجة ولقد تكون هذه الحاجةُ شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل ما يتهيّأ نقله إلينا منها فى لسان العَرَب . ولكن ليس معنى هذا أن نتّخِذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمتَ ، عَبَثٌ لا يُغنى ولا يفيد !

* * *

والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مستعربين نعيش فى مصر ، مأخوذين بثقافتها القائمة ، موصولين بتاريخها القديم . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يُوحِي به إلينا تاريخُنا العربىّ من ناحية ، وتاريخنا المصرىّ من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذى تُلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتُنا وثقافتُنا ، ويسوّيه لنفوسنا العيشُ فى وادى النيل . إننا نلتمس هذا الأدبَ الذى يَفيض بما تجيش به عواطفنا ، ويصدُق فى الترجمة عما يَعتلج فى نفوسنا ، ويصوِّر دخائلَ حسّنا أكمل تصوير ، ويعبّر عنها أدق تعبير . وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدبَ القومىّ فلا نُصيب أثَرَه إلاَّ قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين !

اللهم إن فينا أدباء جَرَوا من العربيّة على عِرق ، وأحرزوا صَدْراً من بديع صِيَغِها ، وتفتَّحت نفوسهم لمنازع بلاغاتها ، واستظهروا الكثيرَ من روائعها فيما نظم متقدّمو شعرائها وما أرسل المجَلُّون من كتابها . على أنَّ أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاصّ ، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفُض ما يُحسّ هو وما يشعُر ، وإنما تراه يُترجم عما كان يجده السلَفُ الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كلَّ هَمِّه إلى المحاكاة والتقليد ليخرُج شعرُه عربياً لا شكّ فيه . وهؤلاء يتناقصُ عديدهم على الزمان حتى أشفَى فَنُّهم على الزوال

وهناك شبابٌ لم يَبْلُغوا حظًّا مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظًّا منها لم يُعنَ بها ولم يَكترثْ لها ، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب فجعوا يحاكونه ويترسّمون آثارَه ، فيَستحدِثون أخْيِلةً لم تَتَراءَ لأحلامهم ، ويُسوُّون صوراً لم تتمثَّلْ لخواطرهم ، ويُريقون عواطفَ لم تَتَرقرق فى نفوسهم ، ويَفصِدون أحاسيس لم تجِش قطُّ فى صدورهم . وتراهم يَستكرِهون هذه الأمشاجَ من المعانى على نظام ليس فيه من العربيَّة إلاَّ مفردات الألفاظ ، يُشدُّ بعضُها إلى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافرِها وتناكرها بحيث لو أُطلِقَت من إسارها لتطايرت إلى الشرق

والغرب ما يُلوى شيء منها على شيء ! . فيخرج من هذا ومن هذا كلامٌ لا يستوى للطبع ، ولا يستريح إليه الذوق ، ولا يَخفُّ للتعلّق به الخيال ! وكيف له بشيء من هـذا ولم ينتضح به طبع ، ولا رهُف له حسّ ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبعث إليه من نفسه خيال ! . فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال !

بل إن هناك شباباً لم يحذِقوا شيئاً من لغاتِ الغَرب ، ولم يَظهَروا فيها على شيء من آداب القوم ، ولـكن لقد تعاظمتهم صَنْعة أولئك فراحوا هم الآخرون يُشاكلونها ويَحذُون جاهدين حَذوَها ليُضافوا هم كذلك إلى جمهرة (المجدِّدين) وما التَّجديد فى شِرعةِ أكثر هؤلاء إلاَّ الإتيان بالغريب الشامس فى نظمه وفى صُوَره وأخيلته ومعانيه ! . وإذا كان هذا اللَّونُ من البيان مما يصح أن يَنتسب إلى أىّ أَدب من الآداب ، فانه مما لا يَصلُح لنا على أىّ حال !

وإن مما يضاعف الإساءةَ ويَزيد فى الألم أن يُقبِل الناشئون من طلبة المدارس على هـذا اللَّغو فيتخذوا منه نماذج يحتذونها إذا شَمَّروا للبيان ، ولن يُجشِّمهم التَّجويدُ والبراعةُ فيه جليلاً من جهد ولا مشقة ، لأن قَسْرأىّ معنى على أىّ لفظ ، وتسوية الخيال فى أيَّـة صُورة ، ليس مما يُعيي جهدَ المرء ولا مما يعتريه بالمشاقّ. ومن هنا يَشيع أرخص الآداب ، أو أنه يُنذر بالشيوع فى هذه البلاد ! . ولو قد تُركَ فى مذهبه هذا لطغَى أشدَّ الطُّغيان ما تُغنِي فى صدِّه جهودُ الأعلام من الأدباء . وحينئذٍ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدبٍ أو تعيش بهذا الأدب المنكَّر الشائه الذى لا نَسبَ له مدة طويلةً من الزمان !

الأدب القومى :

إذن لا مفرَّ لنا من أن نلتمسَ أدبَنا القومىَّ ، ولا يكون هذا الأدبُ إلاَّ عربىَّ الشكل والصورة ، مصرىَّ الجَوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نَبعَث

الأدبَ العربيَّ القديم ، وننثُل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروَّى منها بالقدر الذى يَفسَح فى مَلَكاتنا ، ويقوّم ألسنتنا ، ويَطبَعنا على صحيح البيان . فاذا أرسلنا الأقلامَ فى موضوع يتَّصل بالآداب ، بوجه خاصّ . أطلقنا القولَ فى صيغة عربيَّةٍ لا شك فيها ، على ألاَّ نَطالب بها إلاَّ الترجمةَ عما يختلج فى نفوسنا ، ويتّصل باحساسنا ، ونصوِّر بها ما نَجد مما يُلهمه كلُّ ما يُحيط بنا ، وما يَعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدَّمتُ لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جدًّا إلى مطالعة آداب الغَرْب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقلِ ما يَتهيَّأ نقله إلينا منها فى لسان العَرَب . وهذا أمرٌ لا شكّ فيه ولا غَنَاء لنا عنه . فان ذلك مما يهذِّب من ثقافتنا ، ويَفسَح فى مَلَكاتنا ، ويُرهف من حِسّنا . ويَهدينا إلى كثير من الأغراض التى تَشتَعبها آدابُ الغرب فى هذا العصر . والواقع أننا تهدَّينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهدٌ من قَبل ، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظُّهم منه جليلا . ومن أظهر هذه الفنون القصَص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث !

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبىّ لا يُجدى علينا ، ولا يؤدِّى الغرضَ المقسومَ بمطالعته والإصابة منه إلا إذا هذّبناه وسوّينا من خَلْقه ولوّنّا من صورته حتى يتّسق لطباعنا ، ويُوائمَ مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا ، كما ينبغى أن نجهد الجهد كله فى تجليته فى نظام من البلاغة العربية محكمِ التنضيد ، فلا نحسّ فيه شيئاً من نُبوّ ولا نشوز . وبهذا نزيد فى ثروة الأدب العربىّ ، ونرفع من شأنه درجاتٍ على درجات

وليس هذا الذى نرجوه لأدبنا بِدْعا فى شريعة الآداب سواء فى جديد الزمن أو فى قديمه ، فلقد كان الأدباء وما بَرِحوا إلى اليوم يَعتمدون الفكرةَ البديعةَ ،

والمعنى السامى ، والخَيالَ الطريفَ المنسجم ، يُصيبونه فى لُغًى أجنبية ، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم ، ويروضونه لأساليب لُغاهم حتى يجلوه فيها من غير عُسر ولا استكراه ، وإن تصرُّف المتقدمين من أقطاب البيان العربىّ فيما شكَوا من ألوان المعانى فى اللغات الأجنبية لِمن أصدق الدليل على صحة هذا الكلام . وهل رأيت إلى ابن المقفَّع لو لم يَجئك أنه تَرجم كتابَه (كليلة ودِمنة) عن إحدى اللغات الهندية ، أفكان يَتسرَّح بك الشك فى أنه عربىّ الأصل والمَنجم ، عربىّ الحِلية والنسب ؟ اللهم إن تسوية المترجِم لما ينقُل إلى لغته ، وطبعه على ما يواتى أحلامَ معشره ، ويسوغ فى أذواقهم ، وينزع منازع بلاغاتهم ، ليس مما يَقدَح فى كفايته بل إنه لما يرفع من قدره ويُغلى من تصرّفه . وكيف لا وهذا القرآنُ الحكيم لقد حدّثنا عن عشراتٍ من الأمم ، كانوا ينطِقون فى الأعجمية لغات متفرقة ، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، فما أدّاها إلا فى أعلا العربية الخالصة ، بل فى العربية البالغةِ حدّ الإعجاز ، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة ، وهل وراءَ بيان الكتاب العزيز بيان ؟ !

وصَفْوةُ القول أنه لا يَعيبُ اللغةَ أو يَغُضّ من شأنها أن تُصيب من بلاغات غيرها على أن تُسيغه وتَهضِمه وتسوّيه حتى ينتظمَ فى سلكها ، ويتّصل بخَلْقها ، ويُوسِّع فى مادّتها ، ويُضاعف ثروتَها ، لا أن يُقسَرَ عليها قَسْراً ويُستكرَهَ لها استكراهاً ، فينكر صورتَها ويشوّه من خَلْقها على ما نَرى من صُنع كثيرٍ يُعربِدون فى الأدب العربىّ باسم (التجديد) فى هذه السنين !

كيف نعلم الأدب :

ولا شك فى أن اليَنبوعَ الأولَ الذى يَرِدُه النَّشْءُ ليَنهَلوا من فنون العربية ويَترَوَّوْا آدابَها ويَستشعِروا بلاغاتِها ، وينبعثوا لترسُّمها إذا هم أَقبلوا على البيان ،

هو معاهد التعليم على وجه عام . فاذا هى جدّت فى مهمها وأخذت مَنْ بينَ يديها من التلاميذ بمـا يَنبغى أن يُؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين ، كان لنا فى هذا الباب كلُّ ما نريد

و إذا كان الأدبُ كسائر الفنون إنمـا يَبرَع المرء فيه بالاستعداد الفِطرى مع الكَلَف به وشدّة الإقبال عليه وطول التمرين فيه بأكثر مما يحرز بالتعليم والتّلقين ، فان مما لا يَعتريه الريبُ أن للأستاذ ، وخاصةً فى ابتداء العهد بالطلب ، أثراً بعيداً فى تعليم أُصول الفنّ وبيان حدوده ، وإعلام طريقه بين يدى الطالب ، وتهذيبه بطول التعهّد ، وتوسيع مَلَكاته بألوان الملاحظة ، وإسلاس الإجادة له بفنون التدريب والتمرين . ولعمرى لو قد أخذ الأساتيذُ تلاميذَهم بهذا الاسلوب فى تعليم الأدب العربىّ لأحبُّوه وكَلِفوا به وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعتـه فى أوقات فراغهم ، وإمتاع النفس بتسريح النَّظر فى بدائعه . وكذلك تُصبح مطالعةُ الأدب رياضةً يُطلب بها التَّرفيه والاستجمام إذا لحِق الكدّ ، وأجهدت المطاولةُ فى طلب العلم . وسَرعان ما تستقيمُ الطباعُ ، وتُدرِك المَلَكات ، ويَجرى صادق البيان فى الأَعراق مَجرى الدماء !

أما إذا خُصِب التلاميـذ بالقواعد جافةً لا يَترقرَق فيها ماء البيان صافياً ، وقَنِـع الأساتذة بأن يُلقوا إليهم قطعاً من الشّعر أو النّثر ليحفظوها دون أن يُوصَل بين نفوسهم وبين ما تَحوى من ناصح البلاغة ، فقد استثقلوا الدرس وكرِهوه وبَرِموا به ، وتجرّعوه تجرّعا إشفاقا من العقوبة أو من التخاف إذا كان الامتحان ! وإنى لأكره أن أقول إن إقبال كثرة التلاميذ على هذا الأدب الرخيص الذى يَخرُج فى العامية حيناً ، وفى تلك العربية المنكَّرة الشائهة أحياناً ؛ وتهافتهم عليه ، وافتتانهم به ، وأخذ الأقلام بمحاكاته وترسُّمه ، إنما هو أثرٌ من آثار ذلك البَرَم والاستثقال لدروس العربية وآدابها فى معاهدنا المصرية !

والآن فالرأى فى قيام أدبنا القومى وفى بَعث لغة الكتاب العزيز إلى أساتيذ المدارس ، وإلى وزارة المعارف ، فلننظر ما هم فاعلون !

عثرة ورجاء :

بقيَت هنالك مسألةٌ لا يَجمُل بنا أن نختِمَ هذا المقال دون أن نَعرِض لها بشىء من البيان : يقولون إن اللغة العربيـة فقيرة ، أو إنها أصبحت فقيرة بحيث لا تستطيع أن تؤدِّىَ بعض مطالب الحياة فى هذا العصر إلاَّ فى شدَّة عُسر وحَرَج ، ولا تستطيع أن تؤدىَ بعضَها أبداً . وهذا كلامٌ ، على أنه لا يخلو من الحق ، فانه لا يخلو من الإسراف إلى حدٍّ بعيد . إذ الواقع أن اللغة العربيَّة غنيَّة سخيَّة بالكثير مما يُواتى مطالب العاطفة ، ويُصوّر نوازعَ الشعور أحسن تصوير . فلقد بلغ المتقدِّمون من شعراء العربيَّة فى هذا الباب ما لا أحسب أن قد بَرَعهم فيه كثيرٌ من أصحاب البيان فى اللغات الأخرى . ولو قد نَفَضَ متكلِّفو الأدب دواوينَ أولئك الشعراء وفَرُّوا ما أَجنَّت من قصائد ومقطوعات لخَرَج لهم من ذلك ما يُبلِّغهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف والتعبير عن خفيّات الحسّ والشعور . وهذا ، لو علمت ، أجلُّ مطالب الأدب فى جميع اللغات . وحبَّذا لو أكثر الأساتيذُ من عَرض هذه الأشعار على تلاميذهم ، وتقدَّموا إليهم الفَينة بعد الفَينة بالحديث ، فى الموضوعات الإنشائية ، عن الحسّ والعاطفة فى مختلف الأسباب ، واستدركوا عليهم ما عسى أن يكون قد أخطأهم فى ذلك من ناصح البيان

على أن هناك عَقَبةً أخرى تحتاج إلى جهد فى التذليـل ، وهى أنه فى ركود لغة العرب بانقباض حَضارتهم ، عُقِد ما لا يكاد يَحصُره العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية ، واستُحْدِثت أشياء كثيرة جدًّا فى جميع وسائل الحياة ، سواء منها الضروريَّات والكماليَّات . ولا شك فى أن إصابةَ هذه الأشياء فى لغاتها إفسادٌ للعربية

واستهلاكٌ لها . كما أنه لا معنى للالتفات عنها إلاّ الإعراض عن هـذه الحَضارة العريضة ، بل الإعراض عن أكثر ما نجدُه وما نعالجه فى هذه الحياة . وهذه العَقَبة تقوم الآن على تذليلها جهودُ أفاضل الأدباء من جهة ، والمجمع الملكى للغة العربية من جهة أخرى ، بالغوص عمَّا يدل على ذلك فى مجفوّ العربية سواء بأصل الوضع أو بالطرق الفنّيّة الأخرى

ولقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن ننبّهَ حضرات رجال هذا المجمع إلى أن الاكتفاء بإثبات مايتّسق لهم من هذه المصطلَحات والألفاظ فى معجم جامع أو نشرها فى كراساتٍ دورية ليس مما يُجدى كثيراً فى إصابة الغرض المقسوم . فلقد ثبت ، بحكم التَّجربة ، أن أبلغَ الوسائل فى شيوع الألفاظ والصـيَغ المستحدَثة أو المبعُوثة من جاثم اللغة ، وكثرة دَورانها على الأَلْسُن والأقلام ، هى استعمال كبار الشعراء والكتّاب لها ، وترديدها فيما تجليه الصحف السائرة لهم من الآثار . فحَبَذا لو سعى إلى هذا أولياء اللغة ، وخاصّـة فيما يتّصل ، مما يستظهرون بالفنون والآداب

نسأل الله تعالى أن يهدىَ الجميعَ سواء السبيل

في رثاء صبري *

مَضى المغفور له إسماعيل باشا صبري إلى جوار ربّه كما مَضى قَبلَه وكما يَمضي بَعدَه كلُّ مَن يَتكلَّفُ شِعراً أو يُعالج فنًّا أو يُشارك في عِلم . وعَقَدوا له يوماً للرِّثاء كما عَقَدوا وكما يَعقدون لأولئك كلِّهم ، ودَعَوا للقَريض شوقي وحافظاً ومُطران والهرّاوي وعبد المطّلب كما يَدْعونهم للقَريض في كلِّ ذاهب . وشمَّر شوقي وحافظٌ ومُطران وعبدُ المطلب والهرّاوي للشِّعر كما شمَّروا لغير إسماعيل صبري . ولقد قالوا في صبري كما قالوا في الناس كلهم : إن وجهَه آلَقُ من البدر ، وإن راحتَه أندَى من البَحر ، وإن شمائلَه أزكَى من الزَّهر ، وإن عَبقريَّته أبقَى على الدهر من الدهر !

ولقد قالوا مثلَ هذا كلِّه فيمن خَفُّوا لرثائهم ممَّن لا نحبّ أن نَزْدري أقدارَهم ، أو نتهاونَ أَخطارَهم ، أو نذُمّ أشعارَهم . ولكنهم على كل حالٍ لم يَبلُغوا كثيراً ولا قليلاً ممَّا بَلَغ إسماعيل باشا صبري جلالةَ نَفْس ، ولا عظَمةَ خُلُق ، ولا فصاحةَ شِعر ، ولا فتحاً في الأدب هذا الفتح !

لقد أخرَج الأوَّلون « الموازين » ليقدُروا خفيفَ الأجرام وثقيلَها ، وصَنَعوا « المكاييل » ليَعرفوا كثيرَ الحبوب وقليلَها ، وضَبطوا « المقاييس » ليُحدِّدوا قصيرَ الأَمدية وطويلَها . ونحن إلى الآن لم نوفَّق إلى ذلك « الميزان » الذي يضبط لنا المقال ، إذا تَصدَّينا يوماً لقَدر أقدار الرجال !

سنُطوَى نحن وسيُطوَى مَن بَعدَنا ، وسيخلُفُ من بعد أولئك خلف

---

* نشرت في « السياسة » سنة ١٩٢٣ في ضمن (ليالي رمضان)

لم يَتّصلوا بمجالسنا ، ولم يَتروّوا شيئاً مِمَّا يَجرِى على أَلسنتنا . فاذا أحبَّ هؤلاء أن يَعرِفوا مِقدارَ حُكمنا على كل رجُل من رجالنا صاروا ، ولا مَحالةَ ، إلى ما نحن مُثبتوه فى صحائفنا . ولكأنّى أنظر إلى هؤلاء الخلف وقد شاع فيهم العجب ، ومَلك الدهَش عليهم كلَّ مَذهب ، لأن وَصْفَنا لكل علمائنا واحد ، ونَعْتَنا لكل أُدبائنا واحد ، وقَدْرنا لكل شعرائنا واحد ؛ حتى لأحسبهم يحسَبون أنه كانت لدينا مطبعةٌ لكبار الرجال ، فمهما تتكرَّر نُسَخها فان صورتَها كلها واحدة !

لقد يَطمَع الرجل الحُسان فى ثواب التاريخ أكثر مما يَطمع فى ثواب دُنياه . فياوَيحَ « العَبقريّة » ويا وَيحَ الإحسان من حكم التاريخ إذا كان الناسُ جميعاً سيُجلَوْن غداً فى صورة سواء !!!

شوقى . . . !

بمناسبة ذكراه الثانية*

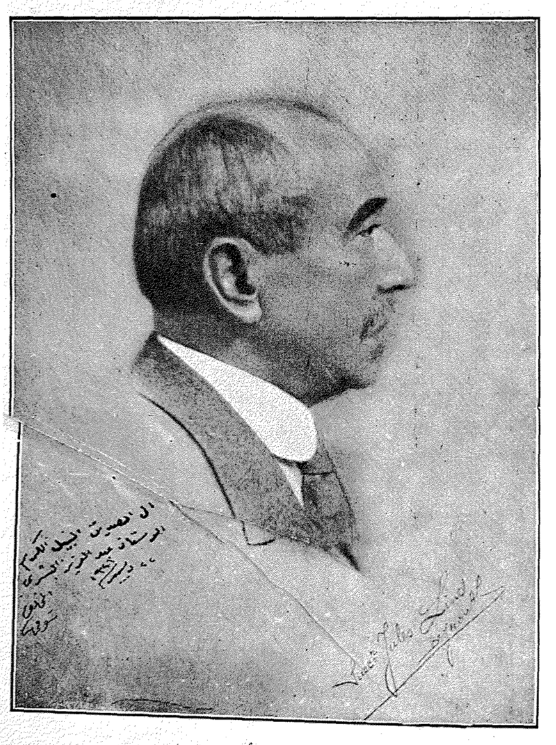
لقد خَرج فى هذه الدنيا شعراء ما أحسب أحداً منهم كان يستطيع ألاّ يكون شاعراً . لقد تتّصل الشاعرية بالطبع والجِبِلّة . وليس بِمَلْك المرء أن يخرج عن جبلّته وطبعه . ولست أجد مثلاً أضربه لهذا الطراز من الشعراء أبلغ من أبى نواس فى الغابرين ، وأحمد شوقى فى المحَدَثين . وأغلب اعتقادى أن الشاعر من هؤلاء حين ينزل عليه الشعر لا يقدرُ على صرْفه عنه أو حبس لسانه أو قلمه عن الجريان به إلا برياضة ومطاولة وجهد

هؤلاء يَطلبهم الشعر أكثر مما يطلبونه ، ويتغشّاهم البيان أكثر مما يرتصدون له ، ويتجرّدون فى إصابته

وبحسبك أن تطالع دواوين شوقى — والحديثُ فيه اليوم — لتعلم أنه لو كان رُزق أعظم حظ من العزم والقوة والجبروت ، ما كان ليقوَى على كتم شاعريته الفائضة الجيّاشة . وهيهات للسدّ بالغاً ما بلغ من المتانة والمناعة أن يكفّ النيل عن جريانه ، وأن يَكبح إذا طغَى من طغيانه !

تقرأ شعر شوقى ، فتتعاظمك هذه الكثرة الكثيرة من فاخر الشعر وبارع الصنعة ورائع البيان . ويذهب العَجب بك كل مذهب ، وتروح تتساءل : أية قوة بدنية هذه التى احتملت كلّ هذا المجهود الفكرى ؟ وكيف تهيأ لهذا الرجل أن يعيش ما عاش ! . . .

* نشرت فى مجلة (الرسالة) فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤



أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقى بك

والواقع الذى لايتداخله الشك أن شوقى لم يكن على حظ كبير من صحة البدن ، بل لقد تستطيع أن تقول إنه كان رجلاً مضعوفاً مختلّ الأعصاب من أول نشأته . فاذا طَلبتَ السرّ فى شأنه ، فالسر كله فى أنه لم يكن يجهد فى قرض الشعر ، لأنه لايكلَفه[1] ولا يتعمّل كما قلت لك ، فى طلبه ، ولا يُرهف فى ذاك حساً ولا يَحُدّ عصباً ، إنمـا هو الينبوع ينبثق فيجرى المـاء دفقا ما يحتاج إلى متح ماتح

نعم ، لقد كانت تـكاليف الحياة تَقتضى شوقى كما تَقتضى غيرَه أن يستفتح الشعر و يبعثه فى مديح ، أو رثاء ، أو تهنئة ، أو فى غير ذلك من الأسباب الخاصةِ أو العامة التى لا يرى بداً من القول فيها . على أنه لا يكاد يُقبل على صناعة الشعر فيما طلبه . حتى تتحرك شاعريته ، فتجرّه عما هو بسبيله جراً ، وتملى عليه هى ماتشاء أكثر ممـا يملى عليها هو ما يريد . ولست أطلب فى هذا دليلاً أبلغ من أن شوقى لم يمدح أحداً قدر ما مدح سمو الخديو السابق . على أنه حين جرّد تلك القصائد من ذلك المديح ليُدخلها فى ديوانه ، ظلت سويّة قويّة رائعةً بمـا فيها من رقيق غزل ، أو من بارع وصف ، ومن بالغ حكمة وجليل مَثل ، كأن لم تفقد شيئاً ، ولم يُعوزها شىء ! . .

إذن كان شوقى شاعراً مطبوعاً أتم طبع ، سرياً أجزل السَّرَاء ، موفقاً إلى أبعد غايات التوفيق

تصرف فى فنون الشعر كلها فمـا ضعف قط فى واحد منها ، بل قلّ أن يتعلق بغباره فى أى باب من أبواب القصيد شاعر ، اللهم خلا الهجاء ، فلم يُؤثَر عنه فيه بيت واحد . ولعل ذلك يعود ، كما قلت فى (مرآته) ، إلى لطف نفسه ، وأنَفته من أن يُشهِّر النـاسَ و يطلب معايبهم ، أو لعله يعود إلى الخوف والورع من أن يزيد فى ثورة خصومه به ، أو لعله فطن إلى أن الزمان سيعفِّى على هـذا

---

(١) يقال كلف الأمر : حمله على مشقة

الضرب الحقير من الشعر . وما أحسبه لو عالجه إلا موفياً فيه على الغاية والاحسان . على أن الله تعالى كان ألطف به من أن يدليه فى هذا الهوان

وإذا كان عجباً من كثير من الشعراء أن يكون حظهم من البراعة فى فنون الشعر بدرجة سواء — فان هذا من شوقى وأمثال شوقى غيرُ عجيب . فالرجل ، كما زعمت لك ، لا يملك من شاعريته أكثر مما تملكه شاعريته . وما إن اجتمع لقول الشعر ، ومضى يُجيل الفكر ويُطير الخيال ، إلا ملكته تلك الشاعرية عن نفسه ، وراحت تجوده بالهاتن الحنّان من وحى القريض . فان أصابت ما احتفل له ، وإلا ففى فنون المعانى الآفاقُ العِراض . وأرجوك أن تراجع شعر شوقى فى كل ما يتورَّط فيه الشاعر ، ولا ينبعثُ له من نفسه لو كان أمره كله إليه ، لتزداد إيماناً بما أقول

وأرجوك ألا تحسبنى غالياً ولا متزَيداً إذا زعمت لك أن شعر شوقى كان فى بعض الأحيان ، بل فى كثير من الأحيان ، يَتخطّى إدراكه العادى . أعنى أنه لقد كان يُصيب ألواناً من المعانى لو أنك راجعته فيها غَداةَ نظمها لاحتاج فى فهمها إلى فكر وتدبير ! . ولقد وقع لى أكثر من مرة أن راجعته فى بعض شعره أرى أنه قد مسّ فيه معنى رفيعاً جداً ، ولكن اللفظ أقصر من أن يطوله بواضح البيان ، وإنى لَأُضمر ما ألمح ، وأحياناً ما كان يلمح غيرى ، فاذا هو بادئ الرأى كقارئه متحير متردد ، وإذا هو فى فهم مرامى الكلام فى حاجة إلى جس وإلى استخبار ![1] وأريد أن أقول لك إن هـذا الرجل لقد كان يفاض عليه ساعة وحى الشعر ما لم يكن لفكره فى الحساب . ولقد ذكرت هذا من بضعة أيام لنفر من الأدباء ممن كانت لهم صلة بشوقى ، فأكد لى بعضهم أنه وقع له مثله مع هذا أمير الشعراء

---

(١) أشار الكاتب إلى هذه الحلة من شوقى فى (المرآة) التى جلاها له فى « السياسة » الأسبوعية

صنعة شوقى :

و إذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يعد من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولا ، فان واتى اللفظ ولان ونَصَع وأشرق . و إلا فلأمّ هذا اللفظ الهَبَل !

لم يكن شوقى إذن يَكلَف بالديباجة . ولا يجهد فى تسوية اللفظ وصقله ، ولكنه مع هذا لقد يجىء بالعجب العاجب ! بل لقد استحدَث شوقى فى العربية صيَغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الاشراق . وأحسب أن قوة المعانى هى التى أرادته على هذا ودفعته إليه دفعاً

ولقد كان مما يعدّ على شوقى أنه يكثر من الغريب فى شعره ، حتى لقد كان يُضطر هو إلى تذييل ما يُفشى من قصائده فى الصحف بالشرح والتفسير ، ولا أحسب هذا سائغاً فى العصر الذى نعيش فيه . بل إنى لأزعم أن محصول شوقى من متن اللغة لم يكن يُواتى هذا القدْر الذى يُشعره استكثارُه من الغريب فى قصيده ، فلقد كنت تسأله معنى الكلمة المفردةِ تكون قد خَلت فى بعض شعره ، فاذا هو لا يدريه فى بعض الأحايين . و إننى لأرجح أن الرجل لم يكن يَعمِد بهذا إلى التكثُّر بسعة العلم ، ووفرة المحصول من اللغة ، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعانى مالا يتيسر له أداؤه باللفظ الشائع ، كما كان يطيل أحياناً كثيرة فى القصائد إطالة يحتاج معها إلى الكدّ فى التماس القوافى . فكان يضطر فى هذا وفى هذا إلى التماس الألفاظ من القواميس ينتزعها انتزاعا

التجديد والمجددون :

وهنا أحب أن أقول شيئاً يسيراً فى التجديد والمجددين ، و إننى أوجه هذا الكلام بنوع خاص إلى الناشئين من المتأدبين

إذا كان من آيات الحياة فى الكائنات تطوُّرُها ونموُّها وتجدُّدها . فالأدب ولا شك من هذه الكائنات التى لا تُكتب لها الحياة إلا على التطوُّر والنمو والتجديد ، وإلا كان ميتاً أو أشلَّ على أيسر الحالين

ولكننى أحب أن ألفت فى هذا المقام إلى مسألة قد تدِق عن أفهام الكثير أو القليل . وتلك أن هناك فرقاً بين التربية والتجديد ، وبين المسخ والتغيير . ولست أجد مثلا أسوقُه فى هذا الباب خيراً من حياة الطفل وحياة النبات . كلاهما ينمو ويربو ، وكلاهما يطول ويزكو ، حتى يبلغ الحدَّ المقسوم لكماله ؛ وقد تتغيرُ بعض معارفه ، وقد تَحُول بعض أعراضه ، ولكنه فى الغاية هو هو لا شيء آخر ، فحسَنٌ الوليد ، هو حسنٌ الطفل ، هو حسنٌ الفتى ، وهو حسن الشاب ، هو حسن الكهل ، وهو حسن الشيخ ؛ وتلك الفسيلة الصغيرة ، هى هذه النخلة الباسقة ، كلٌّ نمَا وَرَبَا بما دخل عليه من الغذاء ، وما اختلف عليه من الشمس والهواء

لقد أصاب كل منهما ما أصاب من أسباب التربية والأزكاء ، فاحتجز منها ما واءمه وما تعلقت به حاجته ، ونَفى عنه مالا خير له فيه ومالا حاجة به إليه ، ثم أساغ ما أمسك وهضَمه ، فاستحال دماً يجرى فى عِرقه ، ويزيد فى خَلقه

ولاشك فى أن لأدبنا العربى عناصر ، وله مقوّمات ، وله شخصية بارزة معينة ، فمن شاء فيه تجديداً — ومن الواجب الحتْم على القادرين أن يجددوا — فليتقدم ، ولكن من هذه السبيل

ولا تنسَوا أن من أهم هذه المقومات ، إن لم يكن أهمها جميعاً هو صحة العربية وتحرّى فُصَحها ، فمن تهاوَن هذا وتجاوزه ، فليس ما يصنع من الأدب فى شيء أبداً . ومما يتصل بهذا المعنى ما لعلّى لا أخطىء إذا دعوته تقاليد العربية ؛ فللعربية كسائر اللغات القوية تقاليدها المأثورة على الزمان

وهنالك مقومان آخران لهما خطرهما العظيم ، ألا وهما التخييل والذوق العام ،

ولا أحسبك تنكر أن لكل أمة ذوقها الخاصَّ بها في كثير من أسباب الحياة ، ولقد تشارك غيرَها من الأمم في بعض هذا ، ولقد تفارقها في بعض فراقا شديداً أو يسيراً

أما التخييل فقد قلت لك في مقال مضى إن خيال المرء مهما حلّق وعلا ، ومهما أسرف وغلا ، فهو لا يمكن أن يخرج عن كونه مجرد تلفيق من الحقائق المُحَسة الواقعة ، وأنت بعدُ خبيرٌ بأن أصدق خيال وأروعه ، وأن أحكم تشبيه وأطبعه ، هو ما اشتقه الشاعر مما يحيط به وبقارئه . ويقع لأسماعهما ولأبصارهما جميعاً ، وإلا نبا عن السمع ، ونَشَز على الطبع . ولو كان بالغاً غاية الغاية في بيئةٍ أخرى

نعم ، لقد يَشهد الشاعر من مجالي الطبيعة مالم يَشهد عامّةُ قومه . ولقد يظهر على كثير مما انتضحت به بلاغات أئمة البيان في الأمم الأخرى . ولقد يتذوق هذا في لُغاهم ، ويتأثر به إلى حد بعيد ، ولقد يرى أن ينقل ما يطول من ذلك إلى معشره بإخراجه في لغتهم لينعّمهم ويلذذهم ويرهف حسهم ، ويفتق في أذهانهم ، ويَفسَح في أدبهم بإدخال جديد عليه ، وإضافة بديع من الآداب الأخرى إليه . فإن له من ذلك مايحب ، على أن يصوغه في صحيح لغته ، ويطبَعه على غرار أدبه ، ويحتال على تسوية خَلقه ، حتى يصبح تام المَشابه بما ألِفَ قومه . حتى لا يُحسوا فيه غرْبة ، ولا يشعروا منه بوحشة ، فإذا وفق الأديب إلى هذا وأجاده وأحكمه فهو المجدد التام

شوقي امام المجددين :

ولقد ضرب شوقي في الأرض كثيراً ، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها مالم تتهيأ رؤيته لكثير . وقرأ في الفرنسية لأئمة البيان في الغرب مالا يكاد يملكه الأحصاء . ولقد أساغ ما استعار ، وجرى في أعراقه طلَقاً ، واستطاعت شاعريته

الفخمة أن تجلوَ منه ما شاء أن يجلو عربياً خالصاً لا شك فيه ؛ وهـذه دواوينه تزخر بهذا البدع زخراً

فاللهم إن كان التجديد ما ذكرنا ، فشوقى إمامُ المجددين فى هذا العصر غير مُدافع . أما إن كان التجديد هو المسخ ، واستحداث صورٍ شائهة ، واستكراه ألوان من المعانى لا تَمُت إلينا بسبب ، على صيغ لا هى بالعربية ولا هى بالأعجمية ، فاللهم اشهد أن شوقى ليس مجدداً بل ليس شاعراً أبداً

* * *

ولقد جال شوقى بشعره فى كل غرض ، وقصد كل قصد ، وأصاب من كل معنى ، وطال نفَسه فى أكثر قصيده إلى ما لم يَطلْه كثير من أنفاس الشعراء ، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسَفّ ، ولا فُسلت أخيلته ، ولا شاهت معانيه ، بل لقد يأتى أكثر ما يأتى بالجوهرى الرائع من حرّ الكلام

وليس شوقى بالذى يُستدَل على مكانه بالبيت أو البيتين فى القصيدة ، أو بالقصيدة والقصيدتين فى الديوان ، بل إذا طلبت عليه دليلا فهذه دواوينه ، شُقّ منها ما تشاء ، وقَعْ منها على ما تريد لك المصادفة ، فلن تصيب إلا أرفع الشعر وأفخر الكلام

* * *

وبعد ، فلقد مات شوقى ، وانحسمت جميع أسبابه من الدنيا ، وفرَغ من مودّات الناس ومن عداواتهم ، وأصبح شعره حبساً على التاريخ ؛ فمن كان يرى حقاً أن شوقى لم يبلغ هذه المنزلة ، أو أنه لم يبلغ بعضها ، أو أنه لم يكن شاعراً ألبتة ، فهذا له رأيه ، وعليه تَبِعته . ولا حيلة لنا ولا لغيرنا فيه . وأما من يقدُر شوقى حق قدره ، فينزله هذه المنزلة أو ما هو أقرب إليها ، فمن واجب الذمة أن يشيد بقدره ، ويدل على جلالة محله ، لا قضاء لحق الانصاف وحدَه ، ولا أداء لشكر النعمة

فحسب ، فلقد كان شوقى نعمة عظمى أسبغها الله على أبناء العربية جميعاً ، بل لاستدراج نَشء المتأدبين إلى استظهار شعره ، و إنهالهم من أدبه ، واتخاذه النموذج المحتذَى إذا اجتمع أحدهم للبيان

هذا واجب الذمة للحق وللبيان جيعاً . وخاصة بعد هـذا التبلبل الذى لا أحسب أن البيان العربى شَهِد مثله فى أى عصر من عصور التاريخ ، وحسبى هذا ، فما أحب أن أقذف بنفسى فى هذه الحرب الناشبة من أنصار قديم وأصحاب جديد !

شوقى أيضاً

وعلى ذِكر المرحوم شوقى بك نثبت هنا هذه القطعة مما ألقاه الكاتب فى (الراديو) فى الذكرى الثانية لوفاته و إن كانت بغير هذا الباب أشْكل :

سيداتى ، سادتى :

فى مثل هـذا اليوم من عامَين مضَيا أذَّن مُؤذِّنٌ أن البُلبلَ قد سكَت بعدَ طول سجعه وتَغريده ، وأن الزَّهر قد ذَبُلَ بعد إشراقه وتَوريده . وأن النجمَ قد هَوَى فلم يَعُد يَتألَّق ، وأن الغَدير قد غاض وهَيهاتَ له بعدَ الآن أن يَترَقرق !

مات شوقى ، ولو كان شوقى كسائر الناس ما كان لموته جليلُ خطر . ولرُبَّ رجل يموت فلا يُفرِّق المجموعُ بين موته وحياته . ولـكن موت شوقى شىء آخر : أرأيت إلى النهر إذا يَبِس ، و إلى المطَر حين يَحتبس ؟ ووارَحمتا للسارِينَ إذَا لَحِق النجمَ الغروب ، وقد تشعَّبت الطُّرقُ واختلَفت رؤوسُ الدروب !

لقد كان شوقى نعمةً من النعم العامَّة التى تفضَّل اللهُ بها على هذه البلاد ، بل التى تفضَّل بها على أبناء العربيةِ جمعاء . فموته من المصائب العامَّة التى يُحسّ خطَرها

كلُّ امرئ يَقدُر رَوعةَ الفكر ، ويَحتَفل لأبهَى صور الجمال

ولو أن الله تعالى بعث الشعورَ فى مظاهر هذه الطبيعة وأقدرَها على النُّطق ، لشارَك فى إحياء ذكرَى شوقى البحرُ الخِضَمّ ، والجبَلُ الأَشمّ ، والفَلَكُ الدائر ، والنجمُ المُختلجُ الحائر . والعُودُ إذا أورَق ، والزهرُ إذا نَوّر وأَشرَق . ولاجتمعت لمأتَمه كلُّ سَجُوع من بَنات الهَديل ، يُقِمن عليه المناحاتِ بأحدِّ البكاء وأَحرِّ العَويل . فلقد طالمَا أَضحَك وسَرَّى ، ولقد طالما أَطرب وأَشجَى . ولكم جَلاَ من صُوَر الطبيعة فأَجاد وأَحكم ، وأَنطقَ الصخرَ فى مرسخه لو كان الصخرُ يتكلَّم ، ولكم لاغَى الطيرَ غاديةً ورائحة ، ولكم لاعبَ الغِزلانَ شاردةً وسانحة . ولكم داعب الغصنَ حتى تَثَنىَّ خَصرُه ، وغازل الزَّهر حتى تَنفَّس بهواه أرجُه وعِطره

شوقى لم يمت ، ومثلُ شوقى لا يموتُ أبداً ، بل إنه ليَزدادُ حياةً على تطاول الأَجيال . هذا شوقى حيٌّ أَقوى الحيـاة فى بَيانهِ القوىّ ، وسيظَلّ هذا البيانُ المَشرَعَ العذبَ النَّميرَ يَنهلُ منه بنو العروبة ما قدِّرت للعربية فى هذه الدنيا حياة

الباب الثانى

فى الوصف

الرديو*

كما يصفه أعرابى قادم من البادية

سيداتى سادتى :

تفضَّلت شركة مركونى فدعتنى لأتحدَّث إليكم أحاديثَ شتَّى فى أوقاتٍ متفرِّقة . و إنى على ما تداخلنى من الزَّهو بهذا التَّشريف ، لقد تعاظمنى الأمرُ وهالنى . فليس من اليسير على مثلى أن يقف بينَ يدَى هذا المِذْياع (أعنى الميكروفون) فيُخاطبَ آلافَ الآلاف من أصناف الناس فى شُعَب الأرض ، بينهم العالِم والأديب ، وفيهم الكاتب والشاعر والناقد . وسيدات هنالك لا ينقصن فى هذه المقامات علماً وفضلاً وأدبا

لقد تعاظَمَتنى هذه الدعوةُ فتعذَّرتُ باديءَ الرأيِ على إجابتها ، ولكننى دُفعتُ بعد هذا إليها من أولياء مَشُورتى دَفْعا

إذن لقد حَقَّ القول ، ولكن ماذا أقول وكيف أتحدَّث ؟

---

* محاضرة ألقاها الكاتب من محطة الاذاعة الحكومية فى حفلة افتتاحها ، وكان ذلك فى يوم ٢ يونيه سنة ١٩٣٤

خَلَوْتُ إلى نفسى لأختارَ أولَ حديث لى فى هذه المحطّة ، وجعلتُ أتصفّح وُجوهَ الموضوعات . على أنه كلما سنَح لى واحدٌ منها ، حال بينى و بينه همّى وشُغلُ نفسى بما يكون من موقفى فى (الرديو) ؛ وكفَّ ذلك الشغلُ ذِهنى عن أىّ تفكير فى غيره وعن أىِّ تدبير . نعم ، لقد مَلك ذلك علىَّ ذِهنى من جميع أقطاره . . . إذن فلأرسِل حديثى فى (الرديو) ولأقصِر عليه الحديث

الرديو

سيداتى ، سادتى :

لعله قد هَجَس فى نفوسكم جميعاً أو فى نفوس كثيرٍ منكم هذا السؤال : ترى لو أن مُخترِعا عظيما كالسنيور مَركونى كان قد طالع سَلفنا الأقدمين بهذا (الرديو) فماذا كانوا يظنُّون ، وكيف كانوا يقولون ؟

أما أنا ، بالذات ، فقد غُمّ علىّ الأمر ، وتقسَّمت ذِهنىَ ألوانُ الفروض ، ولكننى لم أستقِرَّ منها على واضحٍ صريح ، فضلاً عن حقٍّ يقين !

ولكن ، ولكن للمصادَفات ، المصادَفات وحدها فى كثير من الأحيان آثاراً تُعْيِي على أشد عقل ، وأعظم جُهد ، وأحكم تدبير ، بل إن للمصادَفات ، المصادفات وحدَها ، فى كثير من الأحيان ، الفضلَ الأولَ فيما هَدِى إليه أعلامُ الناس من اختراعٍ عظيم ، وما وَقَفوا عليه من استكشاف جليل !

هذه المصادفات ، أو على الأصحّ هذا القَدَر ، لقد ساقنى يوماً ، وكان ذلك من نحو عامين ، إلى زيارة صديق جمع الله له إلى النعمة والترَف ، حِليةَ الظَّرف والذكاء . وما إن كدتُ أطالعه بالسلام ويتلقّانى بالتحيّة ، حتى قال لى : إنى سأُريك الساعةَ شيئاً عجبا لعلّه لم يخطر لك على قلبٍ أبداً ! قلت هاتِ ما عندَك . فتقدّم إلى خادمه بأن يدعو الشيخَ عَدلان . وما لبثنا غيرَ قليل حتى أقبل علينا

شيخٌ من الأعراب أسمر اللون شديد السُمرة ، خفيف اللحم ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردّد . أملَى عليّ شكله الستين ، ثم علمت أنه قد أطلّ على الثمانين . وهو مع هذا مُستوى القامة حتى كأنّ قامته الرمحُ المُثقّف . فحيّا بتحيّة الإسلام ، فرددنا التحيّةَ بالتحيّة

وأقبل عليّ صاحبي يعرّف لى الرجُلَ قال : إنه من إحدى بوادى نجد ، وهو يتنخّس فى الدواب[1] على أنه لم تهيّأ له رؤية الحضَر من قبل ، بل لقد كان يُرسِل على إبله وخيله إلى مصر وغير مصر ولده و بعضَ مَعشره . ثم بَدا له أن يَفِد معهم هذا العامَ ليشهد عَيْش الحضَر قبل أن يُدركه الأجل . ووافق مَقدَمه حاجتى إلى بعض الجياد . وسألته أن يُقيم عندى ما أقام فى مصر لما رأيتُ من ظَرفه وخفّة رُوحه ولطف حديثه وحُسن بَديهته

ولقد بَعَثتُ (الرديو) ذاتَ عَشيّة فى حضرته ، فرتاع وشُده ، وذهب الرُّعب بلبّه كلّ مَذهب . ثم اطمأنّ صاحبى فترةً قصيرةً وقال : وعلى الشيخ عدلانَ أن يَقُص بقية الحديث . والتفتَ إلى الرجل وسأله أن يتكلم ، فتعذّر وتمنّع . فعَزم عليه إلّا تكلّم فأكرم الضيف وأومأ إلىّ

تنحنح الرجل وسَعَل سُعالاً رفيقاً ، ثم أنشأ يتحدّث فى لهجة بَدوية كثيراً ما كان يَلتوى عليّ فيها اللفظُ فيُسوّيه لى بعضُ مَن حَضر

سيداتى ، سادتى :

الآنَ أَنقُل إليكم حديثَ ذلكم الأعرابىّ بعد أن عَلقته وقيّدته بقدر ما واتانى الجُهد . فان كنتُ قد عالجته بعضَ العلاج ففى شىء من الصِّياغة بتقويم مالا يستقيم فى آذاننا من لهجة أولئكم الأعراب ، قال :

دعانى صاحبُك ذاتَ عَشيّة إلى أن أصعَد إليه ، فلما استوَينا فى مجلسنا من

---

(١) يتنخس فى الدواب : يتاجر فيها

إحدى الغُرَف أومأ إلى رُكنها ، فحوّلتُ بصرى فاذا دُمْيةٌ[1] من خشب بُتِر ساقاها فأقعدوها على مِنضَدة[2] . لها أنف صغير ، ولها أُذنان دقيقتان . وقد توسّط ما دونَ الجبين عينٌ لهـا ، واعجباهُ ، واحدة . تمزّقت حَدَقتُها فتناثرَت فى بياضها تناثُرَ أكارِع النمل ، على صَفحة الرمل . ولها فم ، يا حفيظ ! قد استهلكَ نصفَ وجهها ، سَجَّوْه بديباجة من حرير ، وليتهم سدُّوا عليه مسامير من حديد ! وما أَحسب والله هـذه الدُّميةَ إلاَّ صُنِعت على صورة الجنّ لم تُطبَع على صورة الانسان !

ثم قام صاحبُك إليها فعَركَ أُذنَها ، وسَرعان ما احمرَّت حَدَقتُها فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم ! ثم سمِعتُ لها حَسيساً[3] ما لبث أن استحال زَمزَمةً وهمهَمة[4]. فخلتُ والله أن الأرض قد زُلزِلتْ علىّ . وأَحسستُ قلبى يتمشّى من الرَّوع فى صدرى حتى يَصُكَّ حَنْجَرتى . فجمعتُ ثوبى للهرب . فَجذَب صاحبُك فضلَ رِدائى ، ولو قد أطلقنى ما أصبتُ المهرب ، فلقد تخاذَلَت عنّى ساقاى . وأظلَم ما بينى و بين وجه الطَّريق . وجعلتُ أَلتمس آيةَ الكرسىّ أستعصِم بها من هذا الشيطان ، فأذهبَها الرعبُ عنى . وكأنى لم أَحفَظ منها فى دهرى الأَطوَل كلمة واحدة ! ولما رأى صاحبى ما بى قال لى : خَفِّض عليك يا شيخ ! قلت : وهذا العِفريت ! قال : لن يَنالك منه مكروهٌ إن شاء الله . فلقد قيَّدوا ساقَه ، وشَدُّوا وَثاقه ، فما يجد له من إساره فَكاكا ، ولا يَستطيع فى مَحبِسه حَراكا . قلت : أَفَيسجُن سُليمان المَرَدةَ فى قَماقمَ من نُحاس أو من ذهب ، وأنتم لا تبالون أن

---

(١) الدمية بضم الدال وسكون الميم : الصورة المزينة ، والمراد بها هنا التمثال

(٢) المنضدة بكسر الميم : شىء له أربع قوائم يوضع عليه بعض متاع البيت (الترابيزة)

(٣) الحسيس : الصوت الخفى

(٤) الزمزمة ضجيج الرعد وصوت النار فى الوقود — والهمهمة بفتح الهاءين : همهم الرعد سمع له دوى

تَسجُنوها فى جَماجمَ من خَشَب؟ . . . فانثنَى عنى إلى الدُّمْية فعَرَكَ أُذنَها الثانية ، فسَرعان ما سكن هَديرُها ، وبَطَل زئيرُها : وإذا العِفريتُ يتحدَّث فى لِين صوت واطمئنان نَبرَة كما يتحدّث عُرَفاءُ القوم[1] إذا اجتمع لهم فى المَيِّنات القوم . وإذا هو يَنطِق بالحِكمة بَعد الحِكمة ، ويُرسِل العِبرَة فى عقِب العِبرَة . فأفرخ ذلك من رَوْعى[2] حتى كادت تَرتدّ إلىَّ نَفْسى . ووالذى نفسى بيده لوكان حديثُ هذا العِفريت مما يُطعَم لكان أحْلَى من الْجلاَّب . أو لوكان مما يُبصَر لكان أصفى من العَسْجَد المُذاب[3] !

على أن صاحبَك لم يَلبثه حتى يأتى على غاية حديثه . فلقد قام إلى دُمْيته فعَرَكَ هذه المرّةَ أنفَها . فجعلت عينُها تدور فى مَحجِرها . ثم تركَها فاستقرّت . ولم يَرُعنى إلاّ أن أسمَع من جوفها عزيفَ عود . وصوتَ مِزمار كأنما يَنفخ فيه داوود . وهما يتعطّفان على نَقْر دَفّ أحسبهم قد علّقوا فيه صنوجاً دِقاقاً[4] . ووالله لقد حَسُن إيقاعُه وحَلاَ نَبْره . كأنما وُكل إلى طُوَيس[5] نَقْره . وسمعتُ مَعازف أُخرى جَعلتْ تَتنغَّم وتَترنَّم ، حتى خِلتُها من جَودة الايقاعَ تَتكلَّم . فشاع فىَّ الطرَب ، بقدر ما تداخلنى من الدهَش والعَجب !

ثم ارتفَع صوتٌ لولا البَيانُ لقلتُ سَجع كَنار . أو شَدْو هَزار . ولقد راح يشتدّ ثم يَلين فيَشِفّ ، ويُحلِّق ثم يَهبِط ويُسِفّ . وآناً يطَّرد ويَستوى . ثم إذا به يَنثنِى ويَلتوِى . ويَسترسِل ثم يَتعرَّج ويَتعطَّف . ويَتقدّم ثم يَنحاز ويتحرّف ،

---

(١) عريف القوم المتقدم فيهم

(٢) أفرخ روعه : أذهب عنه فزعه

(٣) العسجد بفتح العين والجيم : الذهب

(٤) الصنوج جمع صنج بفتح الصاد وسكون النون : المراد بها هنا الصفائح الصغار التى تجعل فى إطار الدف الصغير المعروف فى مصر (بالرق)

(٥) طويس بصيغة التصغير ، ولد فى صدر الاسلام وكان من أحذق الناس نقراً على الدف

والـكَبِدُ تتياسَر معه وتَتيامن ، والقلبُ يتطايَرُ ثم يَتجمّع ويَتطامَن . والنفسْ يَرتفِع كلما ارتفَع ، ويَقع معه حيثما وقع !

وما بَرِح العِفريت فى شَدْوه وتَسجيعه ، وترديده وترجيعه ، حتى ذهب الطرب بى كلَّ مذهب وغَلب علىّ ، ولم أَقوَ على شَقّ ثوبى فجعلتُ أَلدِم صدرى . وليت شعرى أفأَمَسى هـذا العِفريتُ يَرُدّ على المسامع ، صَنعةَ إسحاق وغِناء ابن جامع ؟ (١)

وما فَرَغ العِفريت من غِنائه حتى أنشأ يقصّ علينا أحدثَ الأحداث فى قواصى الأرض وأدانيها : صينها وهِندِها ، وشِيزِها وسِندِها . وعِراقها وحجازها ، ونجدها وأَهوازها . ومصرها وسودانها . فقلت لصاحبك : وكيف للجنّى بهذا وهو قَيد أَسْره ورَهنُ مَحبِسه ؟ فقال : إنمـا يُوَسوِس له بهذه الأَنباء إخوانُه من المَرَدة والشياطين . قلت : الأَمر لا بدّ أن يكون هكذا !

سيداتى ، سادتى :

لقد تعاظَمَنى أنـ أَدَع الرجلَ سادراً فى ضَلّته فقلتْ له اسمع يا أخا العرب ! والله لقد كَذَبك وهمُك وما صَـدَقك صاحبى ! . فنظر إلىّ الرجل نظرةَ المأخوذ ، وعلّق نَفَسه وفَغَرَ فاه . ثم قال لى فى لهفة وَدَهَش : وكيف ذلك يا ابن أخى جُعِلتْ فداءك ؟ قلتُ إن الذى رأيتَ إنمـا هو من صُنع مَرَدَة الإنس لا من صُنع مَرَدَة الجنّ ! . . . ورُحتُ أُبيِّن له حقيقةَ (الراديو) على قدر ما يتعلّق منه بعلمى ويتّسع له فهمه . وطَفِقتُ أَضرب له ما حَضَرنى من الأمثال ، والرجلُ بين مصدّق ومكذّب . فلما أَعيانى أمرُه دعوتُ (بالراديو) وأظهرته على خَلفه ، ليرى بعينه ما فى جَوفه . فلما قَطَع اليقينُ عنده عَلائقَ الشكّ ، زَفَر زَفرةً طويلة ، ثم تَمثّل بيت البُحترى فى وصف إيوان كِسرَى :

---

(١) إسحاق الموصلى وابن جامع : كلاهما من أحذق المغنين فى عصر الدولة العباسية

لَيْسَ يُدرَى أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ سَكَنُوهُ ، أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ

* * *

وليس هذا بأول بدوىّ بهرته أسبابُ الحضارة فأشاع فيها الظنون ! فلقد قرأتُ مثلَ هذا عن أعرابىٍّ لعلَّه انحدر إلى بَغدادَ فى عهـد العباسيين ، وأقول (لعلّه) لأن عهدى بهذه القصَّة عهدٌ طويل

سيداتى ، سادتى :

أفرأيتم أن المصادَفة ، المصادَفةَ وحدها ، هى التى هَيَّأَتْ لى الحديثَ إليكم الليلة ؟

وبعد . فاذا كان العَجَب لم يأخذ فينا بعضَ ما أخذ فى ذلك الأعرابىّ حين طلع علينا هذا (الرديو) أولَ مَطلعه . فذلك لأننا نعيش فى حضارة ممدودة الرُّوَاق ، مبسوطة الآفاق . وقد جازت بنا ألوانٌ من المختَرَعات لم تكن تَخطُر على القلب : فوقَ أن المجموعةَ قد أحرزت ، على الأقلّ . أطرافاً من علوم الحياة تُسلِس لنا فى هذا وأشباهِه وجوهَ الفهم والتعليل . إلى أن الأخبار تتقـدّم عادةً بخروج هذه المختَرَعات وشيوعها . فيُطامِن ذلك من الانبهار بها . ولو لم نُصِب شيئاً من هذا لكُنا وذلكم الأعرابىّ فى تصوُّر (الرديو) بمنزلةٍ سَوَاء !

ولقد يكون أبناء هذا العصر قد دخلهم شىء من العَجب أو الدهَش يومَ أضاءت لهم الكهرُباء ، ويومَ تَغَنَّى لهم الحاكى (أعنى الفونُغراف) ، ويومَ حلَّقت فوق رءوسهم الطائرات ، ويوم غنَّاهم (الرديو) وخَطَبَهم وحدَّثهم . ولكن الطِّفل الذين دَرَجوا وهذه الأشياء قائمةٌ لم يَلحَقهم منها ، إن لحِقهم ، إلاّ يسيرٌ من العَجب . بل لقد يحسُّونها من إحدى البَسائط فى وسائل الحياة . وهكذا كلما زكا العلمُ وَرَبا ، واطردت الحضارةُ ببنى الإنسان !

من مزايا (الرديو) :

سيداتي ، سادتي :

دعونا الآن من العَجب والدهَش في حديث (الرديو) ، فلم يَبقَ لهذا موضعٌ الآن . وصدَق المثل : إذا عُرف السبب بَطَلَ العَجب . حتى إذا لم يُعرَف للأمر سببٌ فان ذلكم الانفعالَ لَيَسكُن وحدَه بالإلف وطول الاعتياد . ومن حق (الرديو) عليَّ بعدَ ذلك ، وهو وَسيلتي إليكم الآن ، أن أتحدَّث عن شيء من آثاره ؛ ولكنني لن أتحدَّثَ إلاَّ يسيرا :

كان للأصوات ، على العموم ، مَدًى تنتهي إليه ، وهذا المَدَى يَختلف بُعداً وقُرْباً باختلاف الأصوات من جهة ، والأَسماع من جهة أخرى قوةً وضعفا . كما يَختلف باختلاف الجوّ ضوضاء وجَلَبة ، أو هَدْأةً وسُكونا . وعلى أيّ حال فان هذا المَدَى لم يكن يتجاوز الصَّدْرَ في رقم المئات من الاميال . كما يكون من هَزِيم الرُّعود وعَزيف المدافع مثلاً . فلما كان البَرْق (أعني التلغراف) تهيَّأ له أن يَحمِلَ نَقرَ النّاقر إلى آلاف الأَميال . فلما كانت المسرّة (أعني التليفون) سافرتْ أحاديثُ الناسِ كذلك مُبينةً واضحةَ اللفظ . على أنه لا يتهيّأ الاستماعْ إليها إلاَّ لواحدٍ أو لآحاد

وَيأذَن الله باللاَّسلكي وقِوامهُ ، كما تعلمون ، إشاعةُ الأَصوات في الأَثير . ولِمَنْ شاء بهذه الأَداة التي بين أيديكم الآن ، استَمع في حدود المسافة التي يَبلغها جُهدُ المَصْدَر ، وهو المحطةُ التي تتولّى الإذاعةَ من جهة ، وجُهد الأَداة التي تتلقّاها من جهة أخرى

بهذا أصبح أثرُ (الرديو) في باب الإذاعة أشبهَ ما يكون بأثر المطبعة . غير أن ذلك يَتَّصل بالآذان ، وهذا يتعلّق بالأعيان ، والجامعُ بينهما واحدٌ على كل حال ! فكلاهما يَستخرِج من الشيء المحدود ما لا يَحصُره عدٌّ . ولا يُحيط به حَدٌّ !

فمهما يُفسَح بين يدى الخطيب أو المغنّي ، ومهما يُؤتَ أحدهما من قوة الصوت

وجهارته ، فانه ليس ببالغٍ من الأسماع إلا بضعةَ الآلاف على أوسع تقدير .
أمّا (الرديو) فيستطيع أن يُبلِّغ آذان الملايين فى شِعاب الأرض المختلفة دونَ مطاولة جهد ولا تجشُّم عَناء !

سيداتى ، سادتى :

ليس (الرديو) أداةَ لهوٍ فحسب : على أن شأنَه فى هذا الباب جليل . ومن الفضول أن أُحدّثكم عن شىء تَستمتِعون به وتَطرَبون عليه أكثر لياليكم إذا لم يكن فى لياليكم جميعاً . ولكننى أَلفتكم إلى شىء واحد : ذلكم بأن هذا (الرديو) قد اعتَمدَ ناحيةً من نواحى (الأَرستقراطية) ، وإن شئتم قلتم ناحيةً من نواحى الأَثَرة الإنسانيَّة فحطَّمها تحطيماً . ولقد أدركتُ العصرَ الذى لم يكن يُؤذَن فيه لصُغرى الطبقات . بل لبعض وُسطاها فى سمع المرحوم عبده الحمولى وأضرابه إلاَّ بخَوض المَشقَّات واقتحام الأهوال . فلقد كان يقف بأبواب السُّرادِقات فى أعراس عِليَة القومِ غِلاظُ الجُند فى أيديهم غلاظُ الهِرَاوات[1] فما يتهيَّأ لمستمع مسكين أن يَدنو لينشُر أذنَه إلاَّ إذا مُشِق[2] بالعَصَا العَشْر والعشرين . وهو يَصيح فى ظاهر السُّرادِق آهٍ آه . ووالله ما أدرى أيتأوَّه الرجلُ من لذَّة النَّغَم ، أم من حُرقة الأَلم ؟

والآنَ ، و بفضل هذا (الرديو) تيسَّر لكل إنسان أن يَسمع أعلامَ المُغنِّيَات وأقطاب المغنِّين فى أقطار الأرض . وهو وادعٌ فى كِسر بيته . فاذا أعوزه (الرديو) استَمع فى المَقهَى ، و إلاَّ فعلى ظهر الطَّوار متَّسعٌ للجميع !

سيداتى ، سادتى :

قلت لكم إن (الرديو) ليس أداة لهو فحسب . والواقع أنه كذلك وَسيلةٌ نافذةٌ أبلغَ النُّفوذ لبثِّ العلوم والفنون والآداب ، ونشر ألوان الثَّقافات على العموم ،

---

(١) الهراوة بكسر الهاء : العصا الضخمة

(٢) مشقه : ضربه

وكل أولئك من شأنه أن يرفع من مستوَى الجماهير ، حتى لَيُزيل كثيراً من الفروق الثّقافيّة بين الطبقات

هذا إلى أنهم لو تجاوزوا به المُدُنَ إلى القُرى لرَفَّهوا الفلاّحينَ المساكين وسَلّوا عنهم ، وخففّوا من آثار كَدّهم فى يومهم الأطوَل . إلى ما يُغذّون به من ألوان التعليم والتّثقيف ، والإرشاد إلى كل ما هو نافعٌ فيما يَتّصل بصحّتهم ، وزروعهم ، وتربية بنيهم ، وتدبير أموالهم ، وغير ذلك من أسبابهم . وموافاتهم بما يَعنيهم من أنباء بلادهم وسائر بلاد العالم

ولا تَنسَوا بَعدَ ذلك أن (الرديو) سيكون من العوامل البعيدة الأَثَر فى التقريب بين الثقافات العالَمية ، وتقارُض بعض الفنون بين الأُمم المختلفة من غير عُسر ولا تجشُّم عناء

ولقد كنا وما زلنا ، فى الموسيقى بوجه خاصّ ، نأخذ ولا نُعطِى . و إنى لأرجو أن يُضاعف أولو الشأن من قوّة هذه المحطة العظيمة حتى يَتكافأْ الأخذُ والعَطاء بفضل حُذّاق الموسيقيين المصريين ، فلا نعيش عِيالاً على غيرنا أبد الآبدين !

* * *

هنالك مزيةٌ أُخرى جَليلةٌ (للرديو) اسمحوا لى بأن أفخَر وأتتايه بأننى — بفضل الله — أولُ من استكشفها ، وما كان لِيُفكّرَ فيها من قَبْلى إنسان : إن المغنّى إذا جلس للناس فَنَشَز عليه النغَم ، والخطيبَ إذا تَراءى للجماهير فأخطأه التوفيقُ والتَوت عليه الكلام ، كان شأنُه بين حالَين أحلاهُما مُرّ ، وأيسرُهما عُسر : فإمّا أن يَنفَضّوا عنه بسلام ، و إمّا أن يَثبُتوا فيسمعوه موجعات الكلام . أما وهو قائم بين يدى المذياع ، فانه لا يَرى ما يُصنَع له ولا يَسمع ما يُقال فيه . وعلى هــذا فاننى أُسامحكم يا سادتى من كل قلبى فى كلّ ما قلتم الليلةَ وفى كلّ ما صَنعتم . وأسأل اللهَ المغفرةَ لى ولكم !

فى الطيارة

بين ألمــاظة والدخيلة*

لقد كان بينى و بين صديق وأستاذى المرحوم محمد بك المو يلحى اتفاقٌ وثيقٌ على أن السيارة لم تصبح بعدُ مركبا عاديًا سائغاً يجوز للناس أن يتخذوه فى سَرَاحٍ وَرَواح[1] آمنين . فاذا كنتَ ترى فى ملاعب (البهلوان) من يمشى على السلك الأرفع ، ومن يصارع الوعْل . ومن يعفِّر الليثَ الخادِر بالسوط . فَصِلْ ركوبَ السيارة بهذا . فان كنتَ بطلاً فتقدم إليها فى غير حاجة ، و إلا تكن فلا يَضطرك إليها إلاّ الضرورةُ المُلحَّة من طول مَدًى وضيق وقت ، وخوف فَوت ونحو هذا . والضرورات ، كما قالوا ، تُبيح المحظورات . وقَضَى المو يلحى رحمه الله على هذا : و بَقيتُ بعدَه هــذه السنواتِ الثلاث حافظاً لعهده ، قائمـا على مِيثاقه . ولست أدرى بعدَ إذ ترقرق فى عالَم الأرواح ألا يزال ثابتاً على رأيه ؟ أم تكشَّف له من مكنون الحقائق ماحَرَفه عنه ؟ ومهما يكن من شىء فسنلتقى فى يوم قريب أو بعيد ، وحينئذ يتهيّأ لنا أن نُعيد النظر فى ذلك الاتفاق ؟

هذا رأيى ، إلى أن أموت على الأقلّ ، فى اتخاذ السيارة : على أننى لا أفتأ أتخذها على علمى بأن جانب التلف فيها يَغلِب جانبَ السلامة . ولــكنها كما زعمتُ الضرورة . و إننى لأُخاطر من شاء على مايشاء ، مما يَدخل فى طوق ، إن كان أحدٌ رآنى قط أقرأ فى السيارة جريدة ، أو أنقُد دراهم ، أو أُلقى بالا إلى حديث

---

* نشرت بجريدة الاهرام فى عدديها الصادرين فى غاية يوليو وأول أغسطس سنة ١٩٣٢

(١) فى سراح ورواح : فى سهولة

رَديف ؛ بل إن شأنى معه إذا هو أقبل بالحديث علىَّ لكشأن القائل :

وأُطيلُ لحظَ مُحدِّثى لِيرَى أَنْ قد فَهِمْتُ وعندكم عَقلى

وكيف لى بهذا وأنا فى أعظَمِ شُغل من رَجَفان القلب وضَرَبانه . ومن عين شائعةٍ بين يَدَى السائق والترام المُقبِل من هنا ، والسيَّارة المنطلقة كالسهم من هنا . وهذا الغلام الذى يَحجل بين يدى العَجَل من هنا . وهذا الحافى راكب الدرَّاجة يَعترض السيَّارةَ فى تمام سُرعتها ، فيلوِّح لسائقها بيسراه ليَتلبَّث حتى يقطع هو (بسلامته) الطريق ، وغير هذا من ألوان العذاب الأليم والبلاء المُحيق ! ! !

أما السَّاقَةُ فوالله ما أدرى ما حظُّ أكثرهم الكثير فى أن يَطيروا بك على أديم الأرض طَيراً . وإنى لأسأل الرجلَ منهم أن يتريَّث فلا يسمع . وإذا فعل طَوعا لرجائى أو لزجرى فلثانية أو اثنتين ، ثم عاد أَجْرَى وأسرعَ مما كان . وإنى لأقول له : يا سيدى لستُ مستعجلاً أمراً . والله ما أنا ذاهب لإطفاء حريق ، ولا لإنقاذ غريق . صدِّقنى والله ما أنا ماضٍ لقيادة الجيش فى المعركة الحاسمة ، ولا أنا مدعوٌّ لتأليف الوزارة . ولا لشراء (النمرة) الرابحة فى سباق الدَّربى . كل هذا ولا حياةَ لمن تنادى !

ولقد قلت لسوَّاقٍ مرَّةً ، وقد عنَّانى فى هذا الباب أمرُه : أتعلم يا سيدى أنك باسراعك هذا ستُفقِدنى مائةَ جنيه كاملة ! فقال لى وكيف هذا ؟ قلت : إنى خاطرتُ صديقاً على أن من يَسبِق منا يَدفع لصاحبه مائة ! فأشفق على مالى ، وليته لم يفعل . فلقد أقبل علىَّ وولَّى الطريقَ قَفاه ، وجعل يُلقى علىَّ محاضراتٍ شيِّقةً فى مَضارّ المراهنات !

وآخر ، لقد أسرع بى ، وأننى راغم ، إسراعا مُرعباً ، فسكتُّ وأسلمتُ أمرى لله . وبعد لأْىٍ ، إذ افترقَت مسالكُ السبل ، التفت إلىّ وقال : أين البيت ؟

قلتُ : أَجادٌّ أنت فى أنك ذاهبٌ بى إلى البيت ؟ قال : طبعاً ! قلت والله يا أخى لَحَسِبتُ أنك عدَلت بى إلى قرافة المجاورين !

* * *

هذا حديثى مع السيارة . وهذه علاقتى بها ، لعنة الله عليها . أما الطيّارة . كان الله لرا كبيها ، فلم يَلحَقنى ولن يلحَقنى منها بعون الله أىُّ أذى . وكيف هـا بذاك ؟ ولو قد دُعيتُ إلى ركوبها على أن تُحلّق بى إلى موطن إجابة الدعوة ، أو تتقرّى بى مَسقِطَ الغُنْم من ليلة القَدْر . فيكون لى ما شاء الله من العافية فى النفس والولد ، وطول العمر ، وسَعة الرزق . ونفوذ الكلمة . وبَسطة السلطان . لآثرت ما أنا فيه من الجهد على كل تلك العافية !

إذَن فأمر هذه الطيّارة مفروغٌ منه عندى إلى غاية الزمان إن شاء الله . فإن بدا لولدى أو لحَفَدَتى . إن كان يكون لى حَفَدة . فليفعلوا فلهم زمانهم !

ولكنَّ هناك قدَراً نُرغمه ولا نرغمه ، ويلجمنا ولا نحكمه[1] . وإنه ليدَعنا نصوّر ونفكّر . ونُدبّر ونُقدّر ، وهو منا ضاحكٌ وبنا مستهزىء ! وإنا لنريد اليمين ، فإذا هو يَطرحنا إلى الشمال . وإنا لنطلُب قُدّام ، فإذا هو يَركُننا[2] إلى وراء . وكيف لنا بالفِرار ، والهاربُ إنما يتقلّب فى يد الطالب ؟ !

صدّقنى ياسيدى إذا أكّدت لك أن العلم كله ليَضيق بشأنى ، وأن مركونى والمرحوم إديسون ، والعالم اينشتين وأضرابهم من فحول العلماء والمستكشفين لأعجز جميعاً عن أن يَهتدوا إلى (نظرية) تَطيير هذا الكاتب . ألا فليبذلوا الجهد فما هو أجدَى : من إحالة الحصَى ذهباً ، والهواء حطباً ، ومن إطالة العمر إن استطاعوا ، ومدافعة الموت إن أطاقوا ، والاصطلاء بالثلج ، والابتراد بالنار ، والمشى على أديم

---

(١) نحكمه بمعنى نلجمه

(٢) ركله : ضربه برجل واحدة

الطَّيف ، واستخراج القرّ من وَقْدَة الصَّيف . ليُعالجوا ما طاب لهم من هـذا ، وليَعدِلوا عن ذاك فقد جفّت عنه الأقلامُ وطويت من دونه الصُحف !

ولقـد حدثتُك عن القدَر ، فانظر بعد هذا كيف يَصنع القَدَر :

لى صديقٌ من شياطين الانس لا تُعْجِزُه وسيلة ، ولا تُعْيِي عليه حيلة . لاأدرى أىّ رصفائه من شياطين الجن زيَّن له أن يُطيّرنى أنا ! والعياذ بالله تعالى . سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ! و إليك الحديث :

من بضع ليالٍ غَشِيتُ سامِرَ الأصدقاء ، وما إن كدتُ أستوى فى مجلسى حتى ابتدرنى صديقى الأديب الظريف الأستاذ حسنى نجيب بهذا الكلام : يافلان ! نسافر معاً فى الطيارة إلى الاسكندرية ! فلم يَعدُ الأمرُ عندى أن يكون من إحدى مُزحاته . على أنه كرَّر هذا وأعاده ، وأعاده وكرره . حتى لم يبقَ فيـه فضلٌ لنكتة . فقلت له : ويلك ! أجادّ أنت ؟ فقال : إى والله لا أقول إلاَّ جِدا . وستكون نزهة جميلة تَظَل تذكرها على الأيام . وجعل يُبدئ ويُعيد فى هـذا ودَمى يَغلى فى عروق والغيظُ يذهب بى كلَّ مَذهب حتى كدتُ أخرج من جِلْدى . فقلت له : ما الذى أصابك وَيْحك ! أُسافر فى طيارة ؟ لعمرى لو أمكنتنى من خزائن ركفلر ومن سلطان موسولينى ما فعلت ! فقال فى جِدّ وتصميم : بل تسافر !

ولما رأيتُه قد أطال فى هذا وأفرط قلت : لن أُسافر ألبتةَ . فان كان لك من الحول والسلطان ما تستكرهنى به على هذا السفَر فاصنع ما أنت صانع ! وأمسكتُ بعـد ذلك عن مراجعته ، فلم يسكُت ، بل جعل يَدخُل بنا فى تفاصيل السفر ، ويقترح ألوانَ الثياب التى آخذُ والتى أدَع ! والفندق الذى نَتدلىَّ فيه عند مهبِطنا الاسكندرية ! و . . و . . و ، حتى أضجرنى وأبرمنى وطيّر لُبى كلَّ مُطيَّر . فقمت عن المجلس وأنا لا أكاد أرى ما بين يدىَّ غيظاً وحَنَقا . ولم يَفُتْه أن يُشيّعنى بالتعجُّل

في إعداد العدّة واتخاذ الأهبة لأن الوقت قد أزف ! فعدت إلى بيتي وقد جعلتُ على نفسي ألاّ أغشى سامر القوم إلاّ بعد أن يسافر حسني (على الطائر الميمون) !

لم يَرُعني في ضُحى اليوم الثاني إلا أن يسألني حسني في (التليفون) عما إذا كنتُ قد فرَغت من إعداد العُدة للرحلة الجوية (يا فتاح يا عليم) ! وأسأله أن يَكُفَّ عني فلا يَكُفّ ، وأستحلفه أن يدعَني فلا يعطِف ولا يرِقّ . وفي المَساء عاود المسألةَ في (التليفون) أيضاً . وجعلتُ أجادله جدال المَغيظ المُهتاج . فلا يكرِثه ذلك ولا يلويه

وهنا تكلم القدَر فسكت المقدور ، وتزايل الحذَر فوقع المحذور

تَقِفون والفَلَكُ المحرِّكُ دائرٌ وتُقَدِّرون فتضحكُ الأَقْـدار

فلقد أطلَق عليَّ القدَر من كِنانة الغيب ما قصَفَ عزمي قصْفا . ونسف كل تصميمي نَسفا . فلقد كان ولداي الأكبران بنَجوة مني يستمعان هـذا الحِوارَ ولا أراهما . فما إن أطبقتُ فم (التليفون) حتى تقدما وهتفا معاً :

إذا كنت يا أبتاه تخاف الطيارةَ فنحن نركبها بدلاً منك ! ! ! فقلت : لقد قتلتماني أيُّها الشقيَّان كما قتل خادمُ المتنبِّي مولاه ، سامحكما الله وعفا عنكما . وطلبتُ الأستاذ حسني من فوري وسألْتُه عن ساعة قيام الطائرة وغير هذا من بعض التفصيل ، وسَرعان ما دَعا إلى (التليفون) صديقي المفضال الأستاذ لطفي محمود السكرتير العام لبنك مصر . وهذا أقبل عليَّ بالهناء ، فقد كان بين السَّفْر الكرام . وتبيّن لي بعدُ أنه كان أبلغَ المؤتمرين بي أثرا ! وهكذا يكون رجالُ المال ، صَنَع اللهُ لهم !

كان ذلك عَشيَّةَ الأربعاء ، والسفر مُصبَح الجمعة ؛ فيا لها من ستٍّ وثلاثين ساعةً في انتظار البلاء ! ! !

جعل الرُّعبُ يَشيع في نفسي ، والفَزَعُ يغمِزُ على قلبي ، وأتلفَت بالخاطر

فى كل مَطرح فلا يَقع إلاّ على وَيل . أمّا الرجاء فى السلامة فقد سَكَن صياحُه ، وانطفأ مِصباحه

يا ربّاه ! كل يوم وفى كل ساعة تُحلِّق الطيارات حتى تكاد تَحُكُّ قرنَ الشمس وتصكّ وجه القمر ، فتغدو سالمة ، وتعود غانمة . فلماذا لا يَجرى القَدَرُ إلاّ على طيارتى أنا ؟ ! لم تُسعِدنى كلُّ هذه الأمثالِ ولو بمَزْقة من ظلّ الرجاء . وأخيراً تهدَّيتُ إلى حلّ ظهر لى بادئَ الرأى مُحكَما بديعا . ذلك بأنه إذا كان ولا بدّ من سَقطة ، فأقصى جُهدها ألفُ متر ، فماذا علىّ لو أدَّيتُها مقدما ، فأتسلّفَ السلامة فى تلك الرحلة (العزيزة !) وما علىّ إلاّ أن أثبَ من سريرى إلى الأرض ألفاً وخَمَسمائة مرة زيادة فى الاحتياط . وبذلك تبرى الذِّمة من الآن

وفيما أنا أتهيَّأ لهذا تنبهت فجاءةً إلى أن (بنك) الطيران لم يُدخل بعدُ فى أعماله نظامَ المعاملة بالتقسيط ! ! ! فسُقِطَ فى يدى وتركتُ الوهمَ يَسْرِى بين حنايا الضُّلوع مَسراه ، وفوَّضتُ أمرىَ كلَّه إلى الله ، فبِيَده البَسطُ والقَبض ، وعن أمره الرَّفع والخَفض ؛ ولا بُدَّ مما ليس منه بدّ

ويَطول علىّ الانتظارُ من مساء الأربعاء إلى صبح الجمعة (والوقوع فى البلاء خيرٌ من انتظاره) كما يقولون . وكان يُسلِّى عنى الفَينةَ بعد الفَينة (تليفونات) أتلقَّاها من أصحابى سائلين عن الخبر كأنه حدَث فى البلد حدَث ، وأجيبهم بالتأكيد ، وهم بين مصدّق وبين مكذّب ، وبين مشجّع وبين مخذّل : وتتطارحُ المفاكهاتُ من هنا ومن هنا . وكلها حوْلَ أن عبدَ العزيز يَطير !

على أنّها الأيامُ قد صِرْنَ كلُّها عجائبَ حتى ليسَ فيها عجائبُ

* * *

يوم الطيران

وأهبُّ من نومى فى بعض الساعة الخامسة من صباح يوم الجمعة . وجَعَلتْ ظِلالُ الأحلام تتقلّص رويداً رويداً ، والذاكرةُ تنصقل رويداً رويداً . وجَعَلتْ الذكَريات تتوارد تباعاً ، وإذا من بينها أننى بَعدَ ثلاث ساعات أطير ! . ورحت أجُسّ أطواءَ نفسى ، وأتقرّى مداخلَ حِسّى ، فاذا أنا كلٌّ وادعٍ وكلٌّ مطمئنّ ومَضَيت أبحث عن الوهم فلا أجده ، وأتحسسُ الفزَعَ فى منابته فلا أُصيبه ! فلو وفدا علىّ ولو ساعة ! فقد أَلِفتهما وطال الإلف ، وحالفتهما فاستوثق بيننا الحِلف . وإنى فى هذا لحقيق بقول المتنبى :

خُلِقتُ أَلوفاً لو رجعتُ إلى الصبا ‎ ‎ ‎ ‎ لفارقتُ شيبى مُوجَعَ القلب باكيا

ونَهضتُ خفيفاً فأصلحتُ من شأنى وزَرَمتُ متاعى . ورأيت أنه مازال بين يدىَّ من فَضل الوقت ما يتّسع لرياضة الصباح ، وهى تَستهلِكُ الساعةَ وبعضَ الساعة . وطَلَع علىّ حسنى لمَوْعده ، فمَضَينا ، على اسم الله ، إلى المطار . وهو طولَ الطريق يزيِّن لى هـــذه الرّحلةَ ويُبهّجها لنفسى . ومابه ، شهِد اللهُ ، إلاَّ الخوفُ من أن يُفلِتَه صيدُه . فهو إنمـا يُلقى الحبَّ للطائر ، ويَتراءى بالحَمَل لِيَّث الخادر !

ولَمّا رأيتهُ قد أسرف فى هذا أقبلتُ عليه وقلت له : يا سيدى : دُونَ هذا ويَنفَق الحمار ! خفِّض عليك ، فانى طائر طائر طائر ! سواء أكانت الرحلةُ جميلةً أم زفتاً وقطراناً . وسواء وصلنا سالمين إلى الاسكندرية أم صرنا إلى الدار الآخرة . فالمسألة أصبحتْ مسألةَ كرامة ، لا أُضحكَ اللهُ أولادى منى ، ولا عَبَث بسيرتى أصحابى . فرأيته يُعالج حَقْنَ الغيظ ، ويَجهد فى هذا جهداً شديداً ، لأننى توسمت فيه من أول ما دعانى لهذه الداهية أمراً ، فبيننا ثأرٌ قديم

وأمسكنا كلانا عن الحديث حتى بَلغنا المطار ، وهناك استقبلَنا الشابّ الكفء الجليل القَدْر ، والفاضل ابن الفاضل الأستاذ كمال علوى المدير العام لشركة مصر للطيران . ورفعونا أولاً إلى الميزان ، فخرجتْ ، والعصا فى يدى ، بخمسة وخمسين كيلو ، والحمد لله على القِلّة ، فهى كثيراً ما تُخفّف من كُلفة وتَعصِم من ذِلّة

ثم مَضَوا بنا إلى الطيارة . وكانت أولَ طيارة رأيتها فى حياتى من كَثَب ، فَصَفّوا الرّكب بجوارها ، والتقط المديرُ بيده صورَتهم الشمسية . ثم دُعينا إلى الصعود ، وأجلسونى وحسنى أيضاً فى الصف الأول مما يَلى مجلس السائق ؛ وجلس فى الصف الثانى الأستاذان لطفى محمود ، وكمال علوى ، ومن ورائهما ثلاثة من الانجليز . وبَقِى فى الطيارة مكانٌ واحدٌ خالياً

وأطلق السائقُ التيّار فدار المحرّك برهة تزيد على الدقيقة ، والطيارةُ ثابتةٌ فى موضِعها . ثم بَعثها فزحفَتْ على الأرض زَحفاً رفيقاً ، ثم استحال جَرْياً ، وظلت تدور على اليَبَس . ولما طال ذلك منها قلت لصاحبى : لعلّنا نبلغ الإسكندرية على هذه الحال بَراً ؟ أفتراها إذن سيارةً أفرغوا عليها هيكلَ طيارة ؟ فضحك صاحبى وقال : أىّ أرض ؟ لأنت والله على جنَاح الريح . فالتفتُّ وحقّقتُ النظرَ فاذا أنا حقاً قد صرت بين الأرض والسماء من حيث لم أشعر !

ولقد كان يُخيَّل إلىّ أن الطيارة ثابتة فى موضعها من الجوّ ، لولا أنى كلما تشرّفتُ من النافذة رأيت البيوت تَصغُر وتَدِقّ ، حتى إذا جُزنا بحيِّنا فى حلمية الزيتون بانت لى المنازلُ فى أحجام الرِّجام ، ففسد علىّ كلُّ ما أعددت لملاعبة أولادى ، وقد واعدونى أن يطالعونا من سَطْح الدار

ونسِيت أن أقول لك إننى حينما دُعيت إلى ظهور (١) الطيّارة تفقّدت شيئاً مهمّاً لى جدّاً ، وخاصة فى هـذه الرحلة ، فلم أجده ، وكيف لى باصابة مالم يكن ،

---

(١) ركوب

ووجدان مالم يَخرُج بعد إلى الوجود . ذلك بأنى تعوّدت إذا ركبت القطار أو السيارة أن أقرأ حزب البر ، فاذا علوت السفينَ قرأت حزب البحر . فمن لى اليوم بحزب الهواء ؟ لقد اشتدَّ وجدى لهـذا وكَظَّ الهمُّ صدرى حتى كاد يُفرِّق أضلاعى !

يا قوم لا أسألكم أن تَصنَعوا لنا سيارةً تَنهب الأرض نهباً ، ولا طيارةً تَطوِى الجوَّ طيًا ، فلقد وفَّر الغربُ عليكم هذا وكفاكم المَؤُونةَ فيه ، ولكننى أسألكم أن تُؤَلِّفوا لنا حزباً للهواء ، نستعصم ببركته كلما عَرَجت[1] بنا الطيارة إلى السماء ! ! !

شعور

فاذا طلبت شعورى من ساعة استَويتُ إلى مجلسى فى الطيارة ، فذلك مما يُعيى تصويرُه على القَلم : خَطْرة خوف ووهَل[2] مرّت كإيماضة البرق ، أو كما قال البُحترى : (خَطْرة البرق بَدَا ثم اضمحَلّ) . وسرعان ما أحسستُ لوناً من شُرود فى الذِّهن يسيرٍ لم يقطع ما بينى و بين ما حولى ، فانى لأَرى الأرض ، وأُفرِّق بين أخضرها و يابسها ، مساكنها وخَلائها . وأرَى التُّرَع فى اختلاجها وتأوُّدها[3] . فاذا أَقبل علىَّ أحدٌ بالحديث تَفهَّمت ما يقول ، على أن ذلك كان يجشّمنى شيئاً من حدٍّ[4] الذّهن . ولقد أُجيب عما أُسأل عنه فى غير تَتَعتُع ، إلاّ أننى كنت أُوجز القولَ ولا أُطيل لأن ذهنى لم يكن أكثرُه بِمَاكى ؛ فان شيئاً قويا لَيُنازعنى نِزاعاً عليه !

فاذا عدت إلى نفسى ، فردَدْت طَرفى إلى جوف الطيارة ، أو أَغمضتُ عينى ،

(١) ارتفعت (٢) الوهل : الفزع
(٣) تأودها : انحناؤها (٤) حد السكين : شحذها

وانقطع ما بيني و بين سـواى ، لا أعود أشعر بشيء ، أو أنني أشعر شعوراً غامضاً مُبهماً ، لا هو بالخوف ولا هو بالأَمن ، ولا هو بالرَّجاء ولا باليأس ، ولا هو بالسرور ولا بالحزن ، ولا هو بالتفكير فى النفس أو الولد أو أى شيء من تلك الأسباب التى كنتُ من قبلُ أُقدِّر دَوَرانَ الفِكر فيها ، ونزوعَ الهمِّ كلِّه إليها . بل إننى ، فى هذه الحال ، لا أُفكِّر فى أننى على جَناح الرِّيح . وعلى الجملة لقد كان شعورى فى تلك الساعة أشـبهَ ما يكون بشعور الرجُل تهيَّأَ للنوم ولمَّا يزل على جَناحِ السِّنة . هذا شعورى أدَّيته إليك بقدر ما واتانى القلم

و يتركنى صحبى على هذا فترةً لا أدرى إن كانت طويلة أو قصيرة إلى أن بعثنى حسنى ، حسنى أيضاً ، بحديث (الغراب) ، فعرفتُ أن كِنانة الخبيث ما برحت حافلةً بالسِّهام ؛ وكان السهمُ هذه المرةَ أمضاها ظُبَةً [١] وأصلبها مَكْسِرا . فاسمع يا سـيدى لا أسمعك الله حديث (الغراب) ، وخاصَّةً إذا كنتَ معلَّقاً بين التراب والسَّحاب :

يا غراب !

(فلان) الغراب ، وهذا لقبُه ، وهو يَتكسَّب من الترسُّل [٢] فى القهوة التى نجلس إليها . ولقـد عُقد الشؤمْ كلُّه والنحس أجمعه بغرّته (السوداء) . حتى لو قلت له يا غراب علىّ بكوب ماء ، لم يَلبث أن يعود إليك بأن شركة الميـاه قد أفلست ، فهدَّمت أبنيتَها ، وسدّت أقنيتَها ، و باعت عُددَها وآلاتها ، (خُردة) وتحمَّلت عن هذه البلاد بسلام ! ولقـد تقول له يا غراب ! اطلب دارى فى (التليفون) واسأل هل زارنى أحد ؟ فيعود إليك بأنه لم يَزُرك إلاَّ مُحضِران وثلاثةٌ من الغُرَماء ، وصاحب البيت فى طلب الكِراء !

---

(١) ظبة السهم حده (٢) أى أنه يرسل فى قضاء حاجات الناس لقاء أجر

— فهل طلبنى أحد فى (التليفون) يا غراب ؟

— لم يطلبك يا سيدى إلاّ النيابة ، والقصر العينى ، والاسعاف !

— إذن فامض إلى جريدة الأهرام ، و إليك (نمرة) جلوس ولدى ، واسأل هل نجح فى امتحان الشهادة الابتدائية ؟

— سقط ياسيدى ، وأغلبُ الظن أن ليس له مُلحَق !

— أرجوك يا غراب أن تراجعَ لى هذه (النمرة) فى كشف سباق الدَّربى

— يا خسارة يا سيدى ! لقـد كان بينها و بين (النمرة) التى ربحت الجائزةَ الكبرى رقمٌ واحد !

وهكذا ، (أينما يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ) . صَدَقَ اللهُ العظيم

وأنا رجل شـديد التطيُّر ، يزعجنى ما دون (نفحات) الغراب بنسبة $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ ، وأصحابى يعرِفون شدَّة ذُعرى من هذا الغراب ، و يتقصَّون حوادثى التى لا تنقضى معه

على أن من أشدّ ما يُدهشنى حتى يكاد يذهب بلُبِّى ولعٌ فى هـذا الغراب شديدٌ بألاَّ يأذن لوجهه الـكريم بمفارقة طرفى لحظة واحدة ولو جلست ثمت عشر ساعات متواليات ، اللهم إلا أن تكون القوة القاهرة . فأَنَّى جلستُ وقف بإزائى ، و إنى لاحوِّل طرفى إلى الشرق فسَرعان ما يُشرِّق وجهُ الغراب ، فأردّه إلى الغرب فيُغرِّب ، وأتحوَّل من ناحية إلى ناحية . فيتمثَّل لطَرفى فى أقل من الثانية . ولما حزَبنى هذا الأمرُ رُحت أطلب الفداء ، وألتمس البُرءَ من هذا الداء ، فدعوت به وقلت له : يا غراب ! هل تَقبلنى (مشتركاً) عنـدكَ ؟ فقال : وكيف ذاكَ ؟ قلت : بألاَّ تَرينى وجهَك فى مقابل (اشتراك) شهرى قدره كذا . وعلى هذا تمَّ الاتفاق . و إن بلائى من (قومبانية) المياه وأختها (قومبانية) النور لأَهوَنُ من ويلى من الغراب ، فهاتان لقد تُنسِئان إذا تأخرت عن الدفع اليومين أو الثلاثة ، ثم

يحبس الماء ، أو يُقطَع تيار الكهرباء . أما (قومبانية) الغراب فالبِدارَ بارسال (الاشتراك) البِدار ، و إلاّ أَطلقتْ عليك التيَّار ، من غير سابقة تنبيه ولا إنذار ! ! !

* * *

وبعد إذ تشرفت بتقديم هذه الشخصيَّة الفذّة إلى حضرات القراء ، لم يرُعني وأنا فى تلك الغفلة اللَّينة إلاَّ أن يَهتِف حسنى بأعلى صوته : يا غراب ! وكان بيننا و بين الأرض ما يُنيِّف على ستمائة متر فقط ؛ فمقياسُ الطيارة أمامى . والتفتَ إلىَّ وقال : ألاَ تعرف أنى جئت بالغراب ودسَسْتُه فى مؤخر الطيارة ، وسيثب إلينا الآن ، وهذا الكرسى الخالى له ؟ فقلت : أتجِدُّ يرحمك الله ؟ قال : بل يرحمك أنت ! وأطلقَها الخبيثُ فى تشفٍّ وشماتة ، ونَهَضَ يجيء بالغراب . ووالذى نفسى بيده ما شككتُ قطُّ فى أنه قد فعَل ، فصاحبى حاذق مدبّر فاجر ! فجمعت شملى ، وحَدَدت شجاعتى ، وقلت فى أتمّ وَدَاعة واطمئنان : اسمع يا هذا ! إن كنتَ فعلتَ فقد والله أحسنتَ كلَّ الإحسان ، لأننى إن بلغتُ سالمًا فقد نجوت من الغراب والطيّارة معاً ؛ ومَن نجا من هذين فقد أمِنَ أحداثَ الزمان فى طول الزمان . و إن هلكتُ ، وكل امرئ هالك ، فقد أنقذتُ العالم من الغراب . فأنا إذن مُخَلِّص هذا الزمان . وهذا مَقَام تتقطَّع دونه علائقُ الآمال ! فضحك حتى تبادر دمعُه ، وعرفتُ أنَّ حقده علىَّ لم يَبلغ هذا المَدَى ، و إن كنتُ لا أُخفى القارئ أن مجرَّد ذِكر الغراب ، ونحن على هذه الحال ، خَطَرٌ لا يتهاونُ شأنَه إلا المخاطرون

بعد هذا تركنى وكفانى عَبَثَه ، فرجعتُ إلى نفسى فاذا كُلّى حاضر : إدراك تامّ ، وشعور وافٍ ، ونفس وادعة ، وعصَب مطمئن ، وطَرْف أُوَجهه حيث أشاء فيعود إلىَّ بألوان الصُّوَر كاملةً واضحة . وكأنَّ الفزَع من رؤية الغراب ، ذهب بالفزَع من ركوب الطيارة . وهكذا تداوينا من الفزَع بالفزَع . وصح فينا قول الأعشى :

(وأُخرَى تداويتُ منها بها)

وقول أبى نواس : (وداونى بالتى كانت هى الداء)

وتلك عندى يدٌ للغراب لا أنساها له على تطاول الأيام !

على أن شيئاً واحداً حيَّر حِسِّى ، وأدخل علىَّ الشكَّ فى صحة إدراكى : ذلك بأننى ما شعرتُ قطّ بأن الطيارة هى التى تسير ؛ بل إننى لا أراها إلاّ ثابتة لا يتحرّك منها إلاّ المحرّك . ولكننى أنظر إلى المقياس فاذا هو يُحدِّث أَنها تجرى فى سرعة سبعين ومائة كيلو متر فى الساعة . ثم ثمانين ومائة . ثم تسعين ومائة ! . ثم أُرْخى نظرى إلى الأرض فاذا هى التى تدور فى اتجاهنا . ولكن فى تثاقل وشدّة هَوَادة ، حتى يخيِّل إلىّ أن ما نقطعه منها أو ما تقطعه هى منا لا يُدرِك كيلو واحداً فى الساعة !

ثم عَلَونا وعَلَونا فأشار صاحبى إلى قطار من قُطُر السكة الحديد ، فاذا هو فى لطف جِرمه ودِقَّة حَجمه لا يَكبرُ هذه القُطُرَ التى يتلعَّب بها أبناؤنا الصِّغار !

أمّا الأرضُ فكان مرآها عَجبا من العَجَب : هذه رقاعٌ سُندُسيَّة خضراء ، لا تزيد مساحتها على متر فى متر . يَفرِق بينها فراغٌ داكن طَويلٌ فى مِثل عَرض الأصبع . هذه هى التُّرَع ، أو السكك الرئيسية ، وتلك هى (الغيطان) . وكلَّما أمعنَّا فى الارتفاع ازدادت هذه كلها دِقَّةً ولُطفا ، حتى لقد خيِّل إلىَّ فى بعض الوقت أننا إنما نتشرّف على خريطة جغرافية كبيرة ، لا على هذه الأرض ، ذات الطول والعَرض !

ولقد جُزنا بالنيل مرَّتَين ، ولقد أذكر أنه بانت لنا جزيرة صغيرة فى وَسَطه . وحَسبت أننى أستطيع أن أتناولها من الشاطئ بخطوة واحدة ، وأتناول الشاطئ الآخر بالأخرى ! . إيهِ ! ما أصغرَ هذه الأرضَ فى عيوننا ، وما أهوَنَها على أنفسنا نحن معشرَ سكان السماء ! !

ما أحلَى منظرَ هذه الأرض وما أبدَعه من عِند السماء ! هي رُقعَة شِطْرَنج جميلة ، إلا أنه لا يُمِلُّكَ منها اتّساقُ التقسيم ولا تشابه الأجزاء ، ولا هي تقتصر في تلوّنها على البياض والسواد : هذه رُقعة خضراء مربعة ، وهذه أُخرى تستوى في مثلَّث غير مستوى السُّوق ، وهـذه رُقعة مستطيلة تحسبها فُرشت (بپركيه) جديد لم تمَسّه بعـدُ يد الصَّقال ، وهـذا إطار جميل يَعتدِل ثم يتثنّى ، ويَستقيم ثم يتلوّى

وما بِرحنا في شُغُل من تقليب النَّظر في هـذه الطَّبيعة ، وكأَننا جالسون في أحد رَوَاشن الدور ، تجوز من دوننا مظاهر الابتهاج والسرور !

ولعلك الآن مستشرف إلى مطالعة شعورى في هذه الساعة . و إنى لمبادِيك ، غير متزَيِّد ولا غال : كنتُ أستمتع بمثل نعيم الجنة لم يَلقَنى في طريقها موت ، ولم يُعنِّنى في سبيلها حساب !

و إن شئتَ وصفاً يَتّصل بأحاسيس هذه الدنيا ، فليس عندى ما أجلو عليك من فُنون التَّشبيه إلاّ أن أُحيلك على الحُلم اللَّذيذ في النوم المطمئن الهنىء ، تتوافى لك فيه أسباب المنى وما في يديك منها كثير ولا قليل !

ثم دخلنا في الصحراء ، وكلها شيء واحدٌ لا يَرجع إليك طولُ النظر فيه إلاّ بالضَّجر والملال ، فجعلنا نتشاغل بالحديث و بالقراءة بعض الحين . وعاد حسنى ، وحسنى دائمـا ، فقال لى : أتحبّ أن أُشير على السائق بأن يعمل (شوية شَقلَباظ !) فتتمتَّع بهذا اللَّون من الطيَران قبل النزول ؟ فشخصتُ إلى الأستاذ علوى ، وفى عينىّ مالا يخفَى من سؤال وضراعة . فتَجمَّع في كرسيّه ، وقال في جِدٍّ لا أثر فيه للعبَث : لـكُما يا صاحبىّ أن تمزَحا ما طاب لـكما المُزاح ، و إنى لأدخل معكما في بعض هذا كيفما شئتما ، ولـكن لا سبيل إلى مُزاح مع طيارة ولا مع طيار !

فتحوّلتُ إلى الشق ، وقد قُلِّمتْ أظافره ، وقات له فى لهجة الظاهر[1] المنتصر : (طيّب انبطّ بَقَهْ) ! ! !

وتراءت لنا من بعيد صَفْحةُ البحر ، فتداخلنى كثيرٌ من الهمّ معه يسير من الفَزَع . أمّا الهمُّ فلأن هـذه الرحلة البديعة قد آذنت بانتهاء . وأما الفزع فلِماَ كنتُ أعلم من أن الطيارة تترجّح فى مَهبِطها حتى لَتَستوى فى بعض الحين على جنبها . وعلى هذا تمكّنتُ فى مجلسى وشَدَدتُ بيدى على حافّة كرسىِّ حسنى ، ولبثتُ أنتظر . وأنشأَت الطيارة تتدلّى ، ولولا أننى أرى عقرب المقياس يتـدلى ما شعرت أن الطيارة تتهابط . ومال علىّ حسنى وقال : لا يَرُعـك أن الطيارة ستَميل ميلاً شديداً عند مهبِطها ، وهذا ما لا بدّ منه لنزولهـا . فقلت : فَلْتَمِلْ كيف شاءت ، فليس بيننا و بين الأرض إلاّ مائة متر أو دُون . وحدثتك أننى كنت قد جَمعتُ شَملى للتحرُّف لهذا الميل ، على أنه لم يرعنى ، وأنا فى فَتْرة هذا الانتظار إلا أن يَهتِف بنا من الرَّكب هاتف : أن تفضلوا ! وأنظر فاذا نحن على الأرض ، و إذا البابُ يُفتح ، و إذا الرَّكْبُ يتدلَّى ! ! !

وتسألنى فى النهاية ، كم مرةً أطلقتَ نظرَك إلى يد السائق ؟ فأقسم لك أننى ما أرخَيتُ إليه طَرْفى قطُّ ولا مرةً واحدة . ولمـاذا أفعل ؟ والطريق مُعبّدة ، ليس على عِذارها طِوار ، ولا عَمَد للترام ، ولا (مزلقان) لسكة حديد . ولا نحن على سِيف نهر ، ولا بمقترَب سيارة يقودها بعض (الوارثين) . وليس على سكتنا غِلمانٌ لا يحلو لهم الحجَلانُ إلاّ فى بُهْرَة الطريق ، ولا (دُغفٌ) لا تطيب له قراءة الجريدة إلاّ وهو ساعٍ على قدميه فى الساعة الخامسة من يوم الأحد فى وسط ملتقى شارع فؤاد بشارع عماد الدين . ولا ، ولا ، من هذا البلاء الذى يأخـذ جميعَ المذاهب على ركاب السيارات

---

(١) الظاهر هنا بمعنى الغالب

نعم ، لقد رَجفَت بنا الطيارةُ أثناءَ الطريق بضع رَجَفَات لا تزيد فى مُدَّتها ، ولا فى خفقانها على اختلاجة الجَفْن ، بحيث لو كان المرء مشغولاً بحديث أو قراءة ، فانه لا يشعر بها أو لايكاد . وقيل لى : إن هذه إنما تجىء عند اختلاف المناطق كالخروج من اليابسة إلى الماء ، أو الدخول من أحدهما إلى الصَّحراء ، على أن الطيارة لو ارتفعت فوق ما ارتفعنا قليلاً لما كانت هذه الخَلَجات لعلوِّها على تيارات الهواء

ولست أكتمُ سيدى القارئَ أننى ذُعِرت فى هذه الرِّحلة ذُعراً شديداً كاد يَجىء على نفسى : ذلك بأننا بعد أن وصلنا بسلامة الله ، أخذنا من فَوْرنا سيارةً إلى النزُل ، فلبثنا هناك إلى ما بعَد الظهر ، ثم بدا لنا أن نتغدَّى فى مطعم الشاطى . وما كدنا نصل إلى رأس السلَّم حتى أشار لى صديقى حسنى إلى ناحية السماء ، فاذا طيارةٌ تُحلِّق فى الجوّ . وقال لى إنها التى كنا فيها ، وهى الآن فى مَقفَلها إلى القاهرة . فقلت له : وقد اصطكَّت ركبتاى من الذُّعر والوَهَل ! أفكنا على هذا الارتفاع ؟ قال : بل لقد كنا فى بعض الطريق على ثلاثة أضعافه ! ولقد والله أحسست أن قلبى يَمشى فى صدرى حتى بلغ حَنجرَتى فجعل يتخلَّج فيها تخلجاً (لا يَرتقى صَدَراً عنها ولا يَرِدُ) . فلما عاد ريقى فجرى فى مجاريه قلت له : أفَجُنِنتُ أنا حتى أُجازف فى مثل هذا ؟ ! والله لئن كان حدث لى حَدَثٌ فى هذه الرحلة ، ما سَمعت لك مرّة واحدةً ، ولا ركبت معك بعدها طيارة أبداً

على أننا قد وصلنا بحمد الله تعالى سالمين ، فلَحَى الله أنفسَ الجبناء

مجدولين*

أخى السيد الجليل :

هل لك إلى أن تُعيرنى قلمَك ساعةً واحدةً فأصفَ به تلك (الروايةَ) الرائعة التى أدّيتها إلى أبناء العرب ، فانه ليس حقيقاً بوصف براعة « مجدولين » إلاّ معرّب « مجدولين » !

قرأتُ كتباً وأقاصيصَ لأعيان الكتّاب والمؤلفين متقدّميهم ومن تأخّر منهم وليس شىء منها يَقلّ عن « مجدولين » غرابةَ حوادث ، وقوةَ خَيال ، وصحةَ معان ، ونصاحةَ أُسلوب ، ورشاقةَ لفظ ، وصفاءَ ديباجة ، فلم تثِر من شجونى ، ولم تَنَل من شُئونى بعضَ ما نالت (روايتُك) . فعَمرَكَ اللهَ كيف صَنعتَ حتى برَعْتَ هؤلاء جميعاً ، و بلغتَ من نفوس القارئين ما تثلّمت دونَه كل أولئك الأقلام ؟!

إنى محدثُك الحديثَ وأنت به أَخبر ! لقد كان ظنّ كثير باللغة أنها لاتَنبسطُ إلاّ لمـا يَتحرّك فى أذهانهم ، وما تجول به أَفكارُهم ، وما تناله حواسُّهم . وحسبهم بهذا القَدْر الذى تستقيم به أمورُهم ، وتنتظِم به معايشُهم ، وتتّسق لهم به أسبابُ اجتماعهم فى هذه الحياة

أما تلك المعانى التى تَعتلج فى قرارات النفوس ، وتترَقرَق فى أطواء القلوب ،

---

* كان الكاتب القدير المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى قد صقل رواية « مجدولين » المترجمة عن الفرنسية ، وجلاها فى عربية بديعة ، فنشر الكاتب هذا التقريظ فى جريدة الأهرام فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٧

وتَضطرِم فى حنايا الضلوع ، فهيهاتَ أن يَنتظِمها الكلام ، أو تَشكَّها أَسَلاتُ الأَقلام !

تلك المعانى التى يَبعثُها فى نفس الفتَى مَرْآى الشمس إذا برزَت من خِدرها ، والوردة إذا خرجَت من كُمّها ، والبدر إذا تألّق فى كَبِد السَّماء ، والآل إذا تَرقرق على مَتن الصحراء ، والبرق إذا لَمَع ، والسَّحاب إذا هَمَع ، والحمام إذا سَجَع ، والعَبير إذا سَطَع ، والزَّهر إذا طَلَّه الندَى ، فأقبل النسيمُ يَحمِل إليك منه عَرفَ الشَّذا ، والجوزاء إذا تبدَّت فى عِقد مؤتلِف النظام ، والحسناء إذا افترَّت عن مِثل حَبِّ الغَمام — وما إلى هذا من ألوان المعانى وفنون الاحساس التى يُدركها أولئك الذين صَفَت طباعُهم ، ورَهُفت مشاعرهم ، سواء فى حال عشقهم وصَبوتهم ، وفى سعادتهم أو فى شِقوتهم ، وفى مَراحهم ولهوهم ، أو فى حزنهم وشَجوهم

لقد عَيَّت لُغةُ الناس بأداء كل ذلك وانخَذَلت دونه ، وتقدَّم للتعبير عنه ماتراه من فُتور النَّظرة ، وانهمار العَبْرة ، وانعقاد مابين العينين ، وانبساط الأسارير ، وتَرَبُّد الوجه ، واحمرار الوَجْنة ، وانتِقاع اللَّون ، وما تَسمعه من نَفثَة مصدور ، وأنَّة مَهجور ، وآهة عان ، وزَفرة غَيران . ومثل هذا مما يدعوه أصحاب المنطق بالدلالة الطبيعية

هذا ظنُّ الناس باللغة ؛ وبخاصَّة لغة العرب ، حتى أَخرجتَ لهم « مجدولين » فاذا قلمٌ لم يتعذّر عليه معنى ، ولا تَحرَّج عليه مَذهب من مذاهب الكلام ؛ وكأنى به وهو يتدسّس فى القلوب تدسُّساً ، فلا يزال يَتلطَّف حتى يبلغ منها مجامع الاحساس . فما طَلَب فى صميمها معنًى إلا أصابه ، ولا أَراغَ فى قَرارها عاطفةً إلا شكَّها ، ثم استلَّها فجَلاها فى « مجدولين » ، بلسان عربىّ مبين !

فاذا بَهرتْ قرَّاءك « مجدولين » فلأنهم يسمعون فيها أحاديثَ عواطفهم ،

ويَرون فى أثناء سطورها عُصارةَ قُلوبهم ؛ فما يدرى أَحدُهم إذا اطَّرَدَ فى قراءتها أَهو فى حديث نفسه أم أنه يتلو قَصَص غيره فى كِتاب ؟ !

ذاك ، أيها السيد ، سِرُّ رَوعتى و إعجابى . ولئن سَقَطت إلى الكتاب هَناتٌ قليلةٌ لا تَطمئنّ إليها قوانين اللغة ، فحسبك أنك أَتيتَ فيها بما قُطِّت دونه أناملُ كثير من الكتّاب ، على تطاول الأزمان والأحقاب ! !

إنى أُهنئك يا أخى وأُهنئ هذه الأُمّة . فلقد كانت « مجدولين » فتحاً جديداً للغة العرب

افلاس* !

لا أكذب القراء الخبر ، فلقد اجتمعتُ اليومَ لأكتب (حديث رمضان) فاذا بى مفلس لا أصيبُ زادا ، ولا أجد لشأنى عُدّةً ولا عتادا . ولست أعنى الافلاسَ من المال ، فهذا شيء قد أزمن وطال ثواؤه حتى نزل منّا ، والحمد لله ، منازل العادة ، بحيث لو فارقنا لالتمسناه وتفقّدناه ، ووجدنا له من الشوق والحنين ، مالا يجد فى وحدته مالك الحزين[1] . ورحمة الله على المتنبى حين يقول :

خُلقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبَا   لفارقتُ شَيبى موجَعَ القَلبِ باكيا !

وبهذا ارتقينا ، بفضل الله تعالى ، عن مرتبة الرياضة على الصبر ، إلى مقابلة المكروه بالحمد والشكر . فبتنا خيراً من كُثَيِّر عَزّةَ حين يقول :

فقلتُ لها يا عَزُّ كلُّ مصيبةٍ   إذا وُطِّنَت يوماً لها النفسُ ذلّتِ

فليس الافلاسُ المَعنىُّ إذن إفلاسَ مال ، ولكنه إفلاسُ مقال !

* * *

لقد فَضَحنى النهار ، وعلىّ أن أكتب (للجهاد) حديث رمضان . وأنبعث إلى مكتبى فأستوى له ، وأَبْسُط القرطاسَ بين يدىّ ، وأَشْرَعُ اليراع ثم أهوى به ، فاذا هو يتعصّى علىّ ويركبُ رأسَه ، ويَشرُد تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، ما يُكفّ له جماحٌ ولا يُطامَن مِن نفار !

يا ويلتا ! ماذا أكتب (للجهاد) اليومَ وكيف أقول ؟ . اللهم لا شيء !

---

* نشرت فى جريدة الجهاد الصادرة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ، فى يوميات تحت عنوان (أحاديث رمضان)

(١) مالك الحزين : طائر بحرى

أترى الأرض كلها قد أقفرت من موضوع يكتب كاتبٌ فيه ، ولو بالاصابة من أطرافه ومسّ حوافيه ؟ اللهم لا !

و إنى لأبسُط العزمَ وأشدُّه ، وأُذكى الذهنَ وأحدّه . وأَمُدّ الفكرَ وأُثنيه ، وأنشره ثم أَطويه . وأتصعَّد به إلى السماء ، ثم أَغوصُ به فى جَوف الدأماء[1] ، فلا يُجدينى ولا قَطرةَ ماء !

ثم إنى لأَرمى بالقلم وأتطاير عن مكتبى ، وأنفِر إلى حديقتى الصغيرة فأتفقّد أشجارَها ، وأتوسّم أزهارَها . وأُهرول من هاهنا ومن هاهنا ، لعل خاطراً يعترينى فأصيبَ به كلاماً . فان ظفِرت ، بعد هـذا بشىء ، فظفَر القابض على المِزقة من الفىء[2] !

ثم أعود فأستوى إلى مكتبى فأستنْدِى ذهنى فلا يَندَى ، وأرُوضه على القول فلا يطيع ولا يَرضَى . وأستبينُه فلا يُبين ، وأستعطفه فلا يَرقّ ولا يلين . وأستمنحه فلا يَمنَح ، وأستعطيه فلا يُعطى ولا يَنفح . و إنى لأَهزّ القلمَ هِزّة الكَمىّ[3] ساعةَ يَخرج للنِّزال ، ويَبرز لقِراع الأبطال . فاذا هو يتعايا فى يدى ويتثاقل ، و إذا هو يتراخى و يتزايل . و إذا بى أراه قد تفَلّل من غير حرب ، وتثلّم من غير طعن ولا ضرب !

ويلى عليك وويلى منك يا هذا القلم !

هـذا ميزان النهار قد اعتدل ، وهذا البريد يتهيأ للسفَر . فان لم أرسل على جَنَاحه حديثى (للجهاد) فبأىّ وجه أطالع القرّاء من غَدِى ؟ . إذن فلأبعث بهـذه الشكوى العاجلة ، لعل فى معشر القارئين من يَعذِر الكاتبَ إذا وَنَى أو قصَّر ، ويرثى له إذا تعاصى عليه البيانُ وتعذّر !

---

(١) الدأماء : البحر (٢) المزقة من الفىء : القطعة من الظل

(٣) الكمى : الشجاع أو لابس السلاح

الشباب المولّى !

هذه هى المرةُ الثانيةُ التى يهتِف فيها (فلان) بسنّى ، ويزعم أننى أتشرّف الآن على الخمسين ، إذا لم أكن قد جزتها بقليل ! وترى ما خيرُه فى أن يُبادينى بهذا ويُؤكّده ويُلحّ فيه . وأنا أنفيه جاهداً فلا يُصدّق ، وأردّه عنه فلا يرتدّ ، وأزجرُه فلا يزدجر ! وتالله ماأراه يطالب بهذا إلاّ غيظى وإحناقى باظهارى وإظهار الناس على أننى قد علَت بى السنّ ، وأننى أنشاتُ أُمعِن فى الشيخوخة المُضنية للأجسام ، والداعية للأسقام ، والمهرولة بالأحياء إلى الموت الزؤام !

اللهم إنه لَسمِجٌ به أن يَطلب لى هذا ويَتمنّاه على الله ، ثم لا يَستحى أن يصارحنى بهذه المُنية ويُصارح بها النّاس ، على حين أننى شَهِد اللهُ ، ما أسلفتُ إليه إساءةً ولا تناولتُه قط بمكروه !

سبحان الله ! ما أعظمَ كدَرَ النفوس ، وأشدّ اضطِغان القلوب حتى على من هو غيرُ حقِيق منها إلاّ بالعطف والإيثار !

وبعد ، أفأرانى حقًّا قد بلغتُ الخمسين ؟ هذه الخمسون التى لا يَبلُغها المرء إلاّ إذا جاز مستمهلاً بأيّام الشباب ، حتى تطويه السّنون عنه طىّ السجلّ للكتاب . وهيهات للمرء أن يَأْسَى عليه بعد أن نَهَل من مَعين اللذات وكَرَع ، ومَرِع فى طيّبات العَيش ورتَع ، ووآتَى النفسَ بكلّ مناها ، وأبلغ مطالب الصَّبوةِ غاية مَدَاها . ويا طالما طاب مَراحه وأُنسُه ، وسَطَعت فى أُفق السَّعادة شمسُه . ويا طالما اشتدّ لهوُه وقَصفُه [1] ، وتقلّب فى ألوان المتَاع عِطفُه . لا تكدّرُ الهمومُ من صَفْوه ،

---

(١) القصف : الاقامة فى الأكل والشرب واللهو

ولا تَشغَله متاعب الحياة عن متاعه ولهوه . مُخلَصةً لداعيات الصِّبا نفسُه ، لايُعنِّيه يومُه ولا يعنِيه غَدُه ولا أمسُه . حتى إذا استوفى حظَّه من مُتَع الشَّباب ، وشبِع منها و بَشِم بها ؛ انصرف عنها زاهداً فيها كارهاً لها . وأقبل على ما هو الأَخلَق بالحكمة ، والأَشْبَه بكمال الرجال . وأصبح يَتمثَّل بقول الشاعر :

و بلغت ما بلغ امرؤٌ بشَبابِه   فاذا عُصارَةُ كلٍّ ذاكَ أثامُ

* * *

وكيف أكون قد بلَغتُ الخمسينَ ولمَّا أبلغ من آثار هذا الشباب شيئاً ؟ ولم أُصِبْ بعدُ من مُتَعِه كثيراً ولا قليلا ؟

اللهم إننى ما برِحت أستشرِف لهذه الأيام التى طالما تمثَّلت لأَحْلام الفتوَّة جميلةً جمالَ صَفحة البدر ، ناضرةً نَضرةَ الوَرد قد طلَّه القَطر . هذه الأيام الحُلوة اللذيذة التى طالما تراءى لى بها المستقبَل ، فأتعزَّى بقرب لقائها عما أجد فى حاضرى من همٍّ وأسَى ، ومن وَجد وشَجَى

اللهم إننى ما زلتْ فى انتظار أيام الشَّباب التى لا يفتأ يُوسوِس فى صدرى بها الأمل ، فأشعُر لها بشَوق لا يَعدِله شوق ، وأجد فى قلبى حنيناً إليها لا يُشْبهه حَنين . وهل تكون هذه الأيامُ كلُّها بين أيام العمر إلاَّ رَوضةً قد يَنعت أثمارُها ، وضحكت أزهارُها ، وأشرقت أنوارُها[1] ، وتعطَّفت فى أرضها الجداول ، وسجَعت على أيكها البلابل ، ومشَى فى خلالها النسيم ، يحمِل من الورد عاطر التحية وأزكى التسليم . فتنحنى الغُصون إجلالاً لوُفوده ، و إكراماً لوُرُوده !

هكذا الشبابُ المنتَظَر ، مَراحٌ لا يَلحَقه ضَجَر ، وصفوٌ لا يَشُوبه كدَر ،

---

(١) النور بفتح النون وسكون الواو : الزهر أو الأبيض منه

ودَعَةٌ لا تُروِّعها الغِيَر ، ونَفسٌ قد وُضِعت عنها الأعباء والآصار(١) ، فتكاد من الخِفَّة تَطير فى اقتناص المُنَى كلَّ مَطَار !

لقد طال بى انتظارُك ياهذه الأيام ، فليتَ شعرى متى تَحقَّقُ الآمال وتَصدُق الأحلام ؟

أنت آتيةٌ أيامَ الشباب لا رَيب فيكِ ، و إننى ما زِلت فى الانتظار ! . . . .

* * *

مالى أجد غمزاً على كبِدِى ، وأكاد أُحِسُّ بأن شُعبةً قد انخلَعت من قلبى ، وأن ذِهْنى تَطايرَ عنى كلما لاح شَبح الخمسين . فلقد بلغتُ الخمسين ، وارحمتاه ، حقّاً ! . . .

لا تأسَىْ يا نفسُ ولا يَتعاظمنَّك الأمر . فاننى إن كنتُ قد بلغتُ الخمسين عدَداً ، فاننى لم أَعلُ بها قط سنّاً . وكيف تعلو بى السنُّ وأنا لمَّا أزَل فى انتظار الشباب الذى لم أَخُضْه بعدُ ولم ألْهُ به لهوَ من يَخوض الشّباب ؟

لا ! لا ! ليست المسألةُ مسألةَ عَدَد فى السنين ، وليست الحياةُ مساحةً تقَاسُ بدورة الفَلَك . فلتَعُدَّ علىَّ السِّنُون ما شاءت أن تَعُدَّ ما دمتُ ، فى الواقع ، لم أزَلْ فَتِيَّ الرُّوح مستشرفاً لعهد الشباب ! وليس من سُنَن الطبيعة أن يَسبِق الجِدةَ القِدَم ، ويَتقدَّم على الشباب الهَرَم !

إذن فأنا لمَّا أزَلْ على شَرَف الشّباب الغَضِّ وأنْفُ هذه الخمسين العَدَدِية راغم !

لقد بلغت الخمسين حقًّا ، ولكنها ليست تلك الخمسين التى كان يَتمثَّل لنا الناسُ فيها شيوخاً قد شاب قَذَالُهم ، وابيَضَّت لِحَاهُم ، وتَكَرَّشَت وجوهُهم ،

---

(١) الآصار جمع إصر بتثبيت الهمزة : الثقيل

وترهَّلَت لحومُهم ، وتجَلْجَلتْ أسنانهم ، وفترَتْ حِدَّةُ عيونهم ، وضعُفت قوةُ مُتونهم ، وثقُلت آذانُهم ، وكلَّت أذهانهم . فاذا تحدَّث أحدُهم جعلَ يَعصِر ذاكرته عصراً ، وإذا مَشَى فكأنما يَحمِل على ظَهره وَقراً [١]

لقد بلغتُ الخمسين عَدَداً ، ولكنَّنى لم أتقدَّم بها فى السِّنّ كما يَتقدَّم سائرُ الناس . وكيف تَعلى سنِّى حتى تُدخلَنى فى الشيخوخة على حين أنى لو قد استعرضتُها وفَررت عنها [٢] من يوم تفطَّنتُ إلى الحياة ما زادت فى الواقع على عشر ، وهذا على أسخَى تقدير . فأين ياتُرى سائرُ هذه السنين ؟ اللهم إنى لأبحث عنها وأُجهِد ذاكرتى فى طلبها سويَّةً فلا أَجدها . فليس من العَدل أن تسقط من مُدَّة العمر هذه السنون ! وإن ظُلماً دونه كلُّ ظُلم أن نُجرى حسابَ الأعمار فى هذه الدنيا على دَورة الأيام !

وليت شعرى ما الدليل على أنى قد بلغتُ هـذه الخمسين لو أننى عِشت فى بَداوة لا تُتعقَّب فيها السّنون ؟

إذن لم أُصبح بعدُ شيخاً ولتَعُدّ علىَّ الأيامُ ما تشاء !

* * *

ولكنَّنى مع هذا أرى الشّيبَ يَصيح فى رَأسى ، فكيف لعمرى لحِقنى قَبل الشباب المَشيب ؟ !

لا تأسَىْ يا نفس ولا تُشفِقى من بياض الشعر ، فلكم رأيتُ فتياناً باكَر رءوسَهم هذا النُّصولُ وعجِل إليها . فما كان بياضُ الشّعر يا نفسُ دليلاً على المشيب !

---

(١) الوقر بفتح الواو وسكون القاف : الحمل الثقيل
(٢) فر عن الشىء : بحث عنه

ومع هذا ففى الصّبغ إصلاح لخطأ الطبيعة ، وتصحيح لما تَدَّعى على بعض النَّاس من كذب وزُور !

هـذا كلامٌ صحيح . ولـكن مالى أُحسّ فى عينىّ فُتوراً ، وأجد فى نَظَرى قُصوراً ، حتى أصبحت لا أتبيّن الشُّخوص إلاّ بمقدار ، ولا أستطيع القراءةَ إلا بمعونة المِنظار ؟

لاشكَّ أن هـذا من مَرَض طارئ ، أو من عَرَض مُفاجئ . وما كان جَهدُ العيون وتقاصُر الأنظار ، دليلاً على انطواء الشباب والطَّعن فى الأَعمار !

وهذا أيضاً كلامٌ صحيح . ولـكن ما بالى أرى ثِقَلاً فى سمعى لقد يُفوِّت علىَّ فى المجلس بعضَ الحديث . ولقد تُرعشُ يدى فى بعض الحين فما تكاد تستطيع ضبط اليراع !

وهذا كذلك ليس أمارةً على فَوت الشّباب ، إن هو ، كما قال الطبيب ، إلا من تَعب الأَعصاب !

فما بالى أجـد أسنانى قد شاعت فى أصولها الآلام ، وتَجلجلت كلُّها فما تَثبُت واحدةٌ منها إلاّ لهشِّ الطعام ؟

لقد حدثنى الطبيب أن هذا إنما اعترانى من أثَر (السكَّر) الذى كشف عنه (التحليل) ، وهـذا (السكَّر) ، والحمد لله ، ليس صادراً عن عِلَّةٍ لازِبة[1] ؛ ولـكنه عارض لا يَلبَث أن يزول بأَرفَق العِلاج ؛ على أنه كاشفنى بأن الخيرَ كلَّ الخير فى خلعها جميعها والتعويض عنها بأسنان مصنوعة لا تَحقِن فى اللثة أذًى ولا تَبعثُ ألمـاً ؛ فوق أنه يَسهُل تخليلها وغَسلها ، ويَسلَس جَلوُها وصقلُها ، وإن شئت كسوتَها بالعسجد ، وإن شئت تركتها كالدرّ المنضَّد ، وماذا علىّ فى هذا

(١) لازبة : ثابتة غير مفارقة

والـكَواعبُ الحِسانُ فى الغرب يُبادرن إلى خلع أسنانهن فى غير شَكَاة[1] بل لمحض التبهُّج بالأسنان المصنوعة ، فلنعجّل بخلعها قبل أن نَقرَع سنّ النَّدَم ، إذا ألحّت العلةُ وأعضَل السَّقم !

إذن فانى مازلتُ فى انتظار الشباب . ولا يجوز أن نُلقى لهذه الأعراض بالاً أو نُدْخلها فى الحساب !

* * *

ولـكن ما بالى أصبحتُ لا أَشتهى الطعام . ولا أكاد أقوَى على هَضم خفيفه فضلاً عن غليظه إلاَّ إذا استعنتُ على ذلك بألوان العقاقير : هذا فى أثناء الطعام ، وهذا عند المنام ، وهـذه الحبَّة ، يجب أن تُبلع بعد الوَجبة . وهذا الذَّرور مما يُسهِّل الصفراء ، ويرفّه عن الـكبد ويُنظِّف الأمعاء . وهذا لـكَيْتَ وكَيْت . وهذا لذَيْتَ وذَيت !

سبحان الله ! وماذا يَضيرُك ذلك مادام يُعينك على شأنك . ويَصرف عنك الأذَى ، ويُقيمك فى العافية . والعقاقيرُ ميسورةٌ فى كل مكان ، ولا يَستهلك تناوُلها وقتاً ، ولا يَقتضيك مَشَقَّة ولا جُهداً ! . والدواء مما لا يستغنى عنه كبيرٌ ولا صغير . ولا قوىٌ ولا ضعيف !

ثم مالى إذا مَشَيت أَحسَسْت فى جسمى تَزَايلا ، وفى ساقىَّ تَخَاذُلا . وكأنى أَحمل رجلى وليست هى التى تحملنى ، وسَرعان ما يُجهَد بى وما مَشَيتُ طويلاً ، ولا حملتُ عِبئاً ثقيلاً !

ثم إننى بتُّ لا أقوَى على رُطُوبة الليل فى العَراء ، وما إن تبدَّيتُ لها ساعة حتى أصبح فى أسوإ حال ، ويعترينى من الأَوْصاب ألوانٌ وأشكال !

---

(١) الشكاة بفتح الشين : العلة

وهذا وذلك لا بأس عليك منهما إذا أخَذتَ نفْسَك بشىء من رِياضة البَدَن واستِنشاق الهواء النَّقىّ فى الشّمس السَّاطعة ، فاذا كان الليل أثقلتَ الدِّثار ، واعتكفتَ فى الدار . فلا ينالُك سَقَم ، ولا يعتريك ألم !

فمالى أمسَيتُ لا أنام إلاَّ غِرارا[1] وأرانى أهُبُّ على أخفّ طَرقَة ، وأخفَت خَنْقة ؟

وما خَيرك فى أن يَثقُل نَومُك ، ويُستهلَك فى الغَفلة عن الدنيا يَومُك ؟ والنَّوم ، كما علِمتَ ، حاجة يَضطرّ إليها تَعَب الأجسام . فمن العَبَث أن نتفقّد الحاجة إذا لم نجدها ولم تلجئنا إليها الضّرورات ! . ورَحِم اللهُ الشاعرَ الذى يقول : « إنّ تَحتَ التُّرابِ نوماً طَويلاً » !

* * *

وهكذا ما شكوتُ عِلّةً إلا أصاب الأملُ لها تعليلا ، وهوّن علىّ خَطبَها و إن كان الخطبُ فيها جليلا ! وأنا أُصدِّقه وأُطاوعه ، وأدفعه ولا أُدافعه . ومالى لا أفعل وهو لا يُمنِّينى بحُلم من الأحلام ، و إنما يَتراءى لى بحقّ على الأيام . والحقُّ لا بدّ واصلٌ و إن طال بُطْؤه ، والدّهر لا مَحالةَ إلى الحق عادل و إن كثر خِطْئُه[2]

إذن فلننتظِر ، ومن صَبَر فقد ظَفِر !

* * *

ثم إنى لأقومُ إلى المِرآة فأحقِّق النظر ، فلا يَروعنى إلاَّ أن أرى وجهى قد تَغضَّن ، وجبينى قد تَكرَّش ، وأجد فى شفَتى تَهدُّلا ، وفى عُنقى تَرهُّلا . أما عَيناىَ فقد بَدَتا لى كعينى دُمْيَة قد نَصَلتا فلا أثر فيهما لما يُشبه بَريقَ الحياة !

---

(١) النوم الغرار بكسر الغين : القليل

(٢) الخطء بكسر الخاء : الأثم والخطأ

و إنى فى هذه اللحظة لا ستنجد ذلك الذى طالما وَاسانى وهوَّن علىَّ ما أجد ، فاذا هو يتثاقل عنى ، و إذا أوصابى وعللى تتداعى وتتجمّع لذهنى رويداً رويداً حتى تَستَوِى كلها فى خَلْق واحد

رباه ! ما هذا كلُّه ؟ أليس هــذا كلّ ما كنّا نتمثّـله فى الشيخ إذا ضَرَبته الخمسون ؟

وما إن كاد يستوى لى هذا الخاطر المشئوم حتى أحسَستُ أن نَفْسى تَطير شَعاعا[1] ، وأن قلبى يتمشّى فى صدرى . وأن كَبِدى تسيل مَسَالا . وأن ذِهنى قد تَفرّق عنى فمـا أستطيع له جمعا ! . . . و إنى لأَستلقِى على فِراشى وأتحامل لأَجمَع بَعضى على بَعضى . وأصطاد ما نَدّ عنى من فكرى . فمـا خَرج لى من كل ما جمعتُ إلاّ أننى الشيخُ صاحب الخمسين حقاً ، وأنها قد صَنَعت بى كلّ ماتَصنَع بسائر الناس !

إذَن فقد وَلّى الشباب . فمـا له من رَجعةٍ ولا له من مآب !

أرأيتَ إلى التاجر يُقـدِّر مُوَاتاةَ السُّوق و يطاول الأَيام فى انتظار الغِنى و إقبال الدنيا . و بينا هو فى هذا حق سعيد بالثقة به والاطمئنان إليه ، و إذا السُّوق تَرجُف رَجفتها . و إذا نظرةٌ واحدةٌ فى دَفتَره تؤْذِنه بأن قد أفلَس : فقد ضاع السَّبَد واللَّبَد[2] ، وأنه لن يَشقَى فى الحياة شَقاءه أحد !

* * *

ياويلتاه ! أكذلك يَذهب الشبابُ قَبلَ أن يَجىء ، ويدبر قَبل أن يُقْبل ، ويُوَدِّع قَبل أن يسلِّم ؟

---

(١) يقال : طارت نفسه شعاعا بفتح الشين ، أى تبددت من الخوف ونحوه

(٢) يقال : أضاع فلان السبد واللبد بفتح الباء فيهما : لم يبق له شىء

يا عَجبا للهلال يَغشاه المِحاق ولمّا يَبلغ التّمام : وللورد يَلحَقه الذُّبول ولمّا تتفتح عنه الأَكمام !

يا عجَبا للشمس تُشمِّر للغروب والرجوع ، ساعــةَ يُؤَذِّن مَشرِقها بالبزوغ والطلوع !

ويارَحمتاه للرَّوض إذا ذَبُلت فى مَطلع الرَّبيع أزهارُه ، وجَفّت قبل النُّضج ثِمارُه ، وسكنَ من الشَّجَر اصطِفَاقُه ، وتساقطت أوراقه ، وسكَنَ النسيمُ ، وكان العهدُ به أن يَتنسَّم ، وسكت العندَليبُ ، وكان الظنُّ به أن يَشْدو ويَتنغّم !

أهكذا يكون نَقضُ العهود وخُلفُ الوعود ، أهكذا تَشحُّ السماء بعد طول ما مَنّت بالبُروق والرُّعود ؟ !

فأين هذا الشبابُ وهو حقٌّ لا حُلمٌ من الأحلام ، ولا وهمٌ من الأوهام ؟ وليت شعرى كيف ذَوَى ، ومتى انطوَى ، وما زلتُ فى انتظار وفوده ، وترقّب وروده ، طوعاً لمطَّرد وُعوده ؟

نترقَّب شباباً فاذا هو هَرَم ، وجِدَّةً فاذا هى قِدَم ، وصِحّةً فاذا هى سَقَم ، ووجوداً فاذا هو عَـدَم ! تالله إن علمتُ قطُّ أن التِّبرَ يَحُور تُراباً ، وأن المـاء يَستحيل سَرابا !

* * *

هـذا الدهرُ ما زال يَعِدنا ويُمنّينا الأمانىّ ، وكلما تنجَّزنا فى السعادة وعداً أنظرَنا إلى غد ، فاذا صِرنا إلى هذا الغد قال أليس موعدكم الغَد ؟ . ونحن نتابعه كمن يتابع ظِلَّه : فلا هو بلاحقه ولا هو عن لِحاقه ببعيد . وكذلك تنقضى الأيامُ بعد الأيام ، وتنطوى الأعوام بعد الأعوام ، ثم لا يَروعنا إلاّ أن نتفقّد هـذا (الغَد) الذى طالمـا انتظرناه ، فاذا هو قد مَضَى فى (الأمس) الذى استدبرناه !

فهذا الشبابُ الذى يَتحدّثون عنه لا قِيام له إلا فى التصوُّر والتَّخييل ، لأنه إما

شىء تجىء به الأيام ، أوشىء قد خَلَت به الأيّام . أمَّا أنَّ له سَرحةً يَتفيّأ الانسانُ فى ظِلالها ، وفسْحة يَطمئن بينَ غُداها وآصالِها⁽¹⁾ ، بحيث يَستشعِر الثّباتَ والاستِقرار ، فذلك مالا يكون فى مَنهَج الأعمار !

نعم . لقد يُصيب الانسان كثيراً أو قليلا مما يُدعَى بسعادات الحياة . ولكن هَيهاتَ أن يَصفُو له شىء منها إلاّ كَدِرا . فان الزمانَ أحرصُ من أن يُصْفى العَيش لانسان . وإنه فى هذه السبيل ليُسلِّط عليه . ولو من وَساوس نفسه ، ما يَصرِفه عن متاعِ الحياة وهو فى متناوَل يده ورَهنْ مُراده . فاذا أعوَزه هذا وَسوَس له بالتأميل فيما هو أجلُّ مما تيسَّر له من النعيم وأعظم ، فَشغَله عن حاضره بقابله . وصَرَفه عن عاجله بآجله . وهكذا تتصرَّم الأعمار . فى الارتقاب والانتظار ! . . . .

آمنت يا دنيا أنك سارقةٌ ماكرةٌ فاجرة . تمكُرين بالناس وتخدَعينهم على أعمارهم حتى تنشليها منهم نَشْلا . ولا والله ما يُعينك على فجورك هذا إلاّ غَفْلةُ الناس ! ! ! . .

* * *

وبعد ، فلعلّك عرَفتَ لماذا يُخادِع المرء الناسَ على سِنّه . بل إنه لَيُخادِع عليها نَفسه . ولعله فى هذا حَقٌّ معذور . فلقد طالما وَصَل المستَقبَل بسعادات وارتبَطه بها ، حتى ما يَستطيع تصوُّرَه بغيرها ولا تمثُّله متجرِّداً منها . فكلّما مرَّ عليه يومٌ لا تُواتيه تلك السعادات لا يراه مما يَنبغى أن يُحسب فى مُدّة العمر ، ولا مما يجوز أن يُعَدَّ عليه فيه ! فهذه علة تَعَظُّمه لدخوله فى السِّن واستثقاله لتذكيره إيّاه

اللهم إننا لَنتهاوَن شأنَ الذُّبابة ، ونستحقر هذه الحياةَ التى تَحياها . ولو قد

---

(١) الغدى جمع غدوة بضم الغين : أول النهار . والآصال جمع أصيل : آخر النهار

تفطنَّا إلى الحق الواقع لعرفنا أنها أسعدُ منَّا عَيشاً وأنعمُ حالاً لأنها لا تَشتغِل إلاّ بالحاضر وهو الحقُّ المُحَسُّ الذى يُذاق ويُستشعَر حقاً ، فلا يتفرّق حِسُّها بين الأسَى على ما فات فى سالف الأيام ، وبين التعلُّق فى المستقبَل بكواذب المُنى فى كواذب الأحلام !

فيالله ما أخَسَّ حياةً تنتهى بالانسان إلى التُّراب ، وهو لا يَتَذوّق منها بعضَ ما ينال هذا الذباب !

وإذا كان لنا معشَرَ الناس أن نَأْسَى على شىء فى هذه الحياة الدنيا ، فليكن أَسانا على أننا ننفقها فى الأَسَى على ماقد فات ، وطول التأميل فيما هو آت . وهكذا نجوز بالدنيا فلا نستشعر منها إلا آلاما ، ولا نذوق إلا مُنًى وأوهاماً ، وصَنَع الله لهذا الشاعر فى كَذِبه على كذب الآمال :

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أعذبَ المُنى وإلاّ فقد عِشنا بها زمناً رَغْدا

الى أيه ؟ الى أيه ؟

ألاَ من قَرار ؟!...*

لستُ أدرى لعمرى فِيمَ أنا الآن ! تالله ما أرانى فى شىء أبداً لأَننى لا أشعُر بأننى مُجتمع الشَّمل بهذا (الآن) ! ولا أرانى شعرت بهذا قط فى طول الحياة !

ما اطَّلعتْ على ساعة من ساع الزمن إلاَّ رأيْتنى مشغولاً عنها بالانحدار إلى التى تَليها . ولا صِرتُ إلى يومٍ من الأَيام إلاَّ أحسَستُ أن همِّى إلى ماوراءه . ولا أفضَيتُ إلى سَنَة من السِّنين إلاّ كان بالى إلى ما بعدها وشُغلى كان به . فأنا من يوم طالعتُ هـذه الدُّنيا لا أجدنى إلاّ على سَفَر دائم لا لُبثَةَ فيه ولا هَوَادة ، ولا مُناخ لراحةٍ ولا لزاد : سَيرٌ فى النهار مغذّ . وسُرى فى الليل حثيث !

اللهم إنى لأَبتغِى القَرارَ فى هـذه الدنيا ولو ساعةً واحدةً أستريح فيها إلى نفسى وأشعُر بالسكون معها والاطمئنان !

اللهم إنى لأَبغى أن أجدنى فى مساحة من الزَّمن . ولو ضاق ما بين حدَّيها فأستشعر السكون ، وأفرق بين ما كان و بين ما يكون . وأستطيع فى كل أثناء هذا الزمان ، أن أعرف فِيمَ أنا الآن !

ولـكن كيفَ لى بهذا ومن ورائى ذلك السَّائق الخفىُّ المرير[1] ما يَلُوح لى مَجثَم[2] إلاَّ بَعثَنى منه ، ولا يَتَراءى لى مَثوًى إلاَّ أزعجَنى بسوطه عنه . فأنا بين

* هذه الـكلمة من مذكرات الـكاتب الذى أثبتها فى سـنة ١٩٢٣ ، وقد جعلناها فى هذا الموضع لاتصال معناها بالموضوع المتقدم

(١) المرير : القوى الشديد (٢) مجثم الطائر : مبركه

يديه دائم الجرى لا أحطُّ رَحْلاً من سِفار ، ولا أطمئن على طول المَدَى إلى قَرار

وإنى لأَرى أننى أنا الذى يمرُّ بالأيَّام وليست الأيامُ هى التى تمرّ بى ، وأننى أنا الذى يَطوى السنين وليست السنون هى التى تَطوينى . وإنى لأجد أن شأنى مع الزمن لـكشأن المسافر فى القِطار ، يُخيَّل إليه أنه ثابتٌ فى موضعه وأن ما يجوز به من الأعلام والشُّخوص إنمـا هو الذى يجرى على خلاف . وعلى هذا لو أُذِن لى فى الوقوف ولو لحظة واحدةً لاستشعَرتُ القَرار فى الدنيا وأحسستُ هـذا الذى يدعونه (الآن) ! . ولـكنى برغمى السَّائرُ المغِذ لا يُنيخُ راحِلةً ولا يُحط رَحلا ، فاذا لم أنعم بالاطمئنان إلى الزمان فلا ملامَة على الزمان !

تُرى ما حاجتى ، أو ما حاجةُ هذا السائق الخفىّ الذى لا يَنِى عن دفعى دائماً إلى الأمام — تُرى ما حاجَتُه إلى أن أحسُو العمرَ حسوا ، فمـا كنت فى ساعة من الدهر إلاَّ استَشرفتُ لمـا بَعدها . ولا طلَع علىَّ يومٌ من أيام العمر إلاَّ تشوَّفتُ إلى غَده . ولا دخَلَت علىَّ سَنةٌ إلاَّ تعجَّلتُ السَّنةَ التى من وَرَائها ، حتى لو تهيَّأَ لى أن تُجمعَ أَيَّامُ عمرى فى سجلّ واحد لأسرعتُ إلى تقليب صَفَحاته حتى آتى من فورى على آخرها ، وفى آخرها لو علمت آخرُ العهد بالحياة !

تُرى ما خَيرى أَو ماخَيرُ هذا السائق المريرِ فى أَلاَّ يَدَعنى أَطمئنّ فى هـذه الدنيا لشىء أو أَستريح فيها إلى حال : وما إن اشتقتُ إلى شىء فطالعَتنى منه البداية ، إلاَّ شغَلنى عنها الاستشراف إلى النهاية . وما إن هَفَت نفسى إلى أمر فهَممتُ بالإصابة من بواكيره ، إلاَّ صَرَفنى عنها التشوُّف إلى غاياته ومآخيره . وما حَصَل فى يدى شىء مما تقدَّمتْ به المُنَى وجَدّ فى طلبه المسعَى إلاَّ أَسرَع إلى نفسى الزُّهد فيه والتَّطاول بالمُنى إلى سواه ! فانا من الدنيا ومن ساعاتها كالـكُرَة بين مَهَرَة اللُّعباء . تَظَلّ تتقاذفها الأيدى ولا تَستقِرّ فى مَوضع أبدا !

تُرى ما حاجتى إلى تعجل الساعات فى الأيام ، و إلى تعجل الأيام فى السنين ؟ وتُرى أَية غاية أُريد أن أَبلغها بهذا السفَر السريع ؟

تالله إنى لفى حاجة إلى من يَهدينى إلى ما أبغى بهذا وما أُريد !

أَترانى أَطلب طَىَّ الحياة وأنا كسائر الناس حقٌ حَريص على هـذه الحياة ؟ والله إن « هذا محالٌ فى القياس بديع »[1]

إذن فما هذه الشَّهوةُ المُلحَّة إلى فَناء الأيام . وهـذه الشَّهوةُ المُلحَّة إلى بَقاء الأيَّام ؟

***

و بعد . فما أرانى فى هـذه الحياة غيرَ قصَّة خَياليَّة أنا مُمثِّلها وأنا فى الوقت نفسه شاهدُها . فما إن جدّ لى منها منظَر إلاَّ تاقت نفسى لما بعدَه . ولا حلَّ منها فَصل إلاَّ تعجَّلتُ غايته والتحوُّل إلى ما وراءه

وكذلك أفتأ أطلب النهاية حثيثاً حتى تُختَم (الرِّواية) . ولن تُختَم إلاَّ بتلك المأساة التى تنتهى بها جميعُ أقاصيص الحياة . غير « ان الرِّوايةَ لم تتمَّ فُصُولاً » ![2]

---

(١) هـذا عجز بيت لمحمود الوراق الشاعر المتصوف . وصدره : « تعصى الاله وأنت تظهر حبه »

(٢) هذا عجز بيت لأحمد شوقى بك

لا صحة إلا فى المرض ! . . . *

لستُ أدرى لماذا لا نتذوَّق صحةَ الأبدان ولا نَستشعِرها مادُمنا فيها ؟ أترى لأنها شىء سَلبىّ لا يُذاق ولا يُحَسّ ؟ أَم لأنها كسائر نعم الحياة قلَّ أن يَقدِر المتقلّبُ فيها قدرَها ، أو يُعظِم المتمكنُ منها خَطرَها ؟ أم أن ما تُجدّ الأيامُ من أشغال الدنيا وهمومها ومطالبها مِمَّا يحول بين المرء و بين تذوّق الصحّة والالتذاذ بالعافية ؟

اللهم إننى لا أَقطَع فى هذا بشىء من وجوه التَّعليل البتَّة . ولكن الذى أقطع به ولا أرانى أتحوّل عنه أن الإنسان لا يَرَى أن هناك نعمةً أَجلَّ وأعظمَ من نعمة العافية يوم يَضربه المرض و يَسلبه السَّقام هذه العافية . بل إن بحسبه أن يَرى امرءًا مُعافًى فى بدنه ليقدّر له من الشعور بالسَّعادة والإحساس باللّذة ما لا يَتعلَّق به وصفُ واصف ، ولا يَتصوّر مَبلَغه إلاّ هؤلاء الأَصحَّاء !

لقد كنتُ فى العافية فما قَدرتُ لها قطّ قَدراً إلاَّ إذا ذكرتُ المرضَ وأوزارَه . و إنى لأكره بالطبع أن يتداخلنى السَّقم . و ينتابنى الوجع والأَلم : وأن يكفَّنى هذا عن وِلاية عملى ، ويُثقِل[1] بشأنى أهلى وولدى . و يحول بينى و بين الإصابة من متاع الدنيا إذا كان فى الدنيا متاع !

ومهما يكن من شىء فاننى ما رجوتُ العافيةَ لذاتها . وكيف لى برجاء ما لا أُحِسّ ولا أشعر ؟ و إنما أرجو ألاَّ أُبتلَى بالأسقام والعلل . فاذا لم أذكر المرض فهيهاتَ أن يَجرى ذكرُ الصحَّة لى على بال !

* * *

---

* نشرت فى مجلة « المصور » فى أبريل سنة ١٩٣٥

(١) أثقله : حمله حملا ثقيلا

ثم إنى ذاتَ صباح لاحسَّ وجعاً فى بطنى ، فلا أُوجِّه الأمرَ باديءَ الرأى إلاَّ على أن أحشائى مغِصَة من أثر بَرد أو من فَعلة طعام تجهَّمت له الأمعاء فلم يجد له من خلالها لُطف مَسَاغ . فاحتَميتُ على عادتى وتَحرَّمتُ الطَّعام ، أرجو أن يزول عنى مغصى إذا انقضى النهار

ويذهب النهار ويُقبل الليل فاذا المَغصُ مقيمٌ على غمزِه ما يَبرح ولا يَريم . ثم يكون الغدُ فاذا هذا الغمزُ فى الحَشا يَستَحيل وَخزا . فأطَالَ على تحرُّمى واحتمائى . وجعلت أختلف على ألوان الوصفات تَبتَغى مثل ما أنا فيه . ولكن الألم يزيد على هذا ولا ينقص ، وينبسط فى بطنى ولا يَنقبض !

وتجوز بى على ذلك بضعة أيام لا يَكرُثنى الأمرُ ولا أراه حقيقاً بالاعتداد به والاحتفال له . حتى إذا رأيتُ أن الألم قد طالت مدَّته . واشتدت وَقدته ، لم أرَ بدًّا من العياذ بالطبِّ بعد أن أعيا علىَّ ما تعوَّدت الاستراحةَ به من ألوان العلاج . ولكن لقد أخطأ الطبيبَ شخصُ الداء . فسَرعان ما استفحلت العِلَّةُ وتمرَّدت المِعَى على الدواء . فما أولاها على التمرّد إلاّ عقابا ، ولا أصلاها على الإباء إلاَّ تألماً وعذابا !

وبعد أسابيع عِراض نهُرها طوال لياليها يَنحسر الشكّ عن داء عُقام [1] ، وعلَّة لا يرتقى إلى خَطَرها كثير من الأسقام

وهنا أرجو أن يُصدِّقنى القارئ إذا زعمتُ أن الوقوع على حقيقة المرض ومَبلغ خطره لم يَتَعاظَمنى ولم يُدخل على نفسى الذُّعر بقَدر ما يَتصوَّر . فان كان قد مَسَّنى شىء من هذا فلعله قد ذهب به أو خفَّف من وقعه استراحتى إلى حقيقة شأنى بعدَ تلك الحيرة الطويلة المملَّة العنيفة . وإذا عُرف الداء ، سهُل كما قالوا الدواء . وإذا وقع فى التقدير أن علَّتى مما لا يُرجَى منه الشفاء . إذن فقد

(١) داء عقام : لا يرجى منه شفاء

بلغتُ حدَّ اليأس ، واليأسُ كما قالوا إحدى الراحتين !

إذن لم يكن كلُّ همّى إلى علّتى ، فلقد استهلكه دونَها همّى بما يُعنّينى من الأوجاع والآلام . وإن قُصارَى جُهد المرض أن يُردينى ، وأهوِن بها من غاية . فلكَم والله ابتغيتُ هذا الرَّدى فلم يُسعدنى به المِقدار !

* * *

إذا كان الصباحُ الباكر كنتُ كما يكون الناس ، فاذا ارتفعت الشمسُ قليلاً عن الأُفق شعرتُ بغَمزَات لِطاف على جنبى الأيمن ، ثم أراها تَثقُل رويداً رويدا . وهذا أذان النفير العامّ ، يدعو إلى أحشائى جَمهَرة الأَوجاع والبُرَح والآلام . فما هى إلاّ دقائقُ معـدودةٌ حتى أُحسّ أن كل ما فى الأرض من مُدًى مسنونة قد اجتمعت علىّ تُقطِّع أحشائى ، وأن كل ما فى الدنيا من رماح ومزاريق قد تظاهرت على الطعن الدِّراك فى أمعائى ما يُفَلُّ لها حَدّ ، ولا يَكلُّ للطاعنين من دونها زَنْد . وأن نيران جَهنَّم كلَّها قد كوِّرت وضُغِطت بقُدْرة القادر وقذفَت فى بَطنى قذفاً حتى أكاد من وَقدة الآلام أسمع لها حسيسا ! وكلَّما ارتقبت الفرج بتقطُّع الأمعاء وتفرُّقها ، وتمزُّعها وتحرُّقها ، وأن الموت لا محالة آت . فذلك مما لا قيام للحياة معه ولا ثبات . فاذا آلامى جديدة لا تَبلَى على كلّ أولئك الأحداث . كأَن يد القُدْرة تُسرع إلى جمع ما يتفرّق ، ووصل ما يَتمزَّق ، حتى لا ينتهى لى عذاب ، ولا ينقضى ما أُعانى من الحُرَق والأوصاب . ونعوذ بالله من عذاب أهل جَهنَّم الذين قال الله تعالى فيهم : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا العَذَاب » ! اللهم لقد ذقتُ هذا العذابَ فى هذه الدار ، فأقِلْنى فى الآخرة بفضلك من عذاب النار !

ولا تزال البُرَح والآلامُ تَفرى الفَرِىَّ فى أَحشائى بلا هَوادة ولا فترة ولا سكنة أبدا . وليت شعرى كيف لا يُدرِكها التعبُ والإعياء ، على طول ما تبلى فىَّ هذا البلاء ؟!

و إنى لا أزال كذلك حتى تختطفنى الغفوة فأغفو دقائق . ثم تتخاذل عنى فتلقينى ثانية لما كنتُ فيه من العذاب الشديد . وهكذا كان دأْبى عامّة الليل وعامّة النهار

* * *

ثم إنى لأتجلّد للألم وأتصبّر فلا آذن لحلقى أن يتنفَّس بالآهة أو بالأنَّة . وأ كظِم وَجَعى فلا أُترجِم عنه بمـا يُترجِم به عن الأوجاع عامّة المُرضاء : وأظلّ على هذا دهرا . ثم إذا هذا التصبُّر يتقلَّص رويداً رويدا . وإذا بى أئنّ لو كنت خالياً . ثم إذا بى أئنّ وأتأوّه وأنا بين الناس !

ثم إننى رجلٌ أعهدُ فىَّ شِماس الطَّبع وعِصيان الدَّمع . فهذا المرض يَأبى إلاّ أن يذلِّل ذلك الطبع . ويُذِلّ هذا الدمع ! وهكذا أُسلِّم للمرض أنَفتى كما يُسلِّم الشجاعُ الكَمِىّ سلاحَه لخَصمه . ويَنزِل الغَلَب على حكمه . ما به رضًى بهذا ولا ارتياح ، ولـكنها لقد جرت به الأقدار !

* * *

و إننى لأرجو الطبيب وأخشاه . وأُحبه وأرهَبه فى وقت معاً . كأنه قد أصبح لى أباً وكأننى قد ارتدَدت بين يديه غُلاما ! ولقد يأمرنى الأمرَ فيما يتَّصل بعلاجى وما يطاب به سلامتى ، فأَعصيه فى سرٍّ منه فى بعض ما أمَر ، وأُخالفه إلى بعض ما نَهَى . فإذا ما سألنى عذتُ بالمعاريض فِراراً من الـكذب الصريح ، وهذه من إحدى ذِلاَّت المرض أذلّه الله !

وما إن أَبصرت إنساناً من أهلى أو عوّدى حتى خدمى إلاّ تخيلتُ أنه يستطيع أن يَدفع عنى بعضَ ما بى ، ويُخفِّف بعضَ ما أجد ، ولولا الحياء لاستجديتُه العافيةَ استجداء ، فشأنى كان كشأن الغريق يصارع الموجَ أكثرَ ما يُصارعه بالتأميل فى نَجدَة من على الشطّ من الناس ! وتلك أُخرى للمرض أخزاه الله !

* * *

هؤلاء الأصحاء الأجسام ، وليكونوا من أولئك الباعة المترفقين بأبدانهم[١] ، وليكونوا من كناسى الشوارع ؛ بل ليكونوا ممن ضمنتهم السجون فى أفظع الجرائم . يالله ما أسعدهم جميعاً وما أنعم حالهم . إنهم ليكادون يطيرون طيراً بما يجدون من لذة العافية فى الأبدان ! من لى بيوم واحد أو بساعة واحدة أراجع فيها العافيةَ وأنعم بها فلا آسى بعدها على شىء أبدا !

مالكم يا أهلَ العافية لا تطربون ولا تمرحون ولا تطولون الجبالَ الشامخةَ من تتايه ومراح ؟ إنه ليخيَّل إلىَّ أنكم تجاهدون فى كظم أفراحكم أشدَّ الجهاد ! فلو خلعتم علىَّ شيئاً مما تجدون من العافية ؟ إذن لرأيتم أنه لا يتَّسع لمَرَاحى كلُّ ما بينَ الأرض والسماء !

الصَّحة ، الصَّحة وحدَها ففيها عن كل عرَض غَناء

ما عَزَبت عن الإنسان نعمةٌ من نعم الدنيا إلاَّ اقتصر حسُّه على ألم فقدانها والحِرمان منها . أما فقدُ الصحة فإنه يُشعر الحِرمانَ من كلِّ شىء : وقد صدق من قال : « يا أهل العافية لا تستقلُّوا النِّعم ! »

أستغفر الله ! بل إن فِقدان الصحّة لم يزهّد فى أنعم الحياة . وإنى لأذكر ، وأنا فى مرضتى هذه . أنه ما عرَضَتْ لى مُنيةٌ من المُنى التى طالما هفت نفسى إليها وسألتُ الله فيها جاهدا . إلاَّ دقَّت فى عينى وهانت على نفسى ، حتى لأرانى فى تشهِّيها والاحتفال لها إنما كنتُ سخيفاً كلَّ سخيف !

هذا جرحى قد اندمل . وها أنا ذا أمشى وئيداً إلى العافية . وإنى لأشتهى بعضَ الطعام ولكن هيهات أن ينولنى الطبيب . فآه ! هذا اللون ما أحسنَه وأسوَغه وأحلا مذاقه ، وما أنعمَ الآكليه وأسعدَهم ! فلو رجعتُ إلى العافية لكسرتُ عليه عشر وجباتٍ مُتتابعات !

---

(١) المراد بهم الباعة المتجولون

هذه الرُّقعة من القاهرة أو من غير القاهرة ما أجملها وما أبدعها ، وما أبهى خططها وأحلى موقعها ! لئن رُددتُ إلى العافية لأتخذنَّ منها مُنتجعى ومثابى ، ومَذهبى فى غدوِّى ومآبى !

وهذا كَيتَ وهذا كَيت . مما يُصاب بـ (لعلّ) وما يُصاد بـ (ليت) . ما دام فى مِصباح هذه الحياة زَيت !

* * *

ويشاء الله تعالى بعد هذا البلاء كله أن أصِحَّ وأسلَم . ويعود إلىَّ ما كان لى من العافية . وإنى لأستعرض ذلك الذى كنت أشتهيه وأُنظره للعافيــة ، فاذا النفسُ منصرفةٌ عنه زاهدةٌ فيه . ولا تراه يستحق من هموم الشهوة كثيراً ولا قليلا

هأناذا أعود إلى العافيــة فأعود إلى ألاَّ أذوق طعمها . ولا أشعر بها إلاَّ وهماً . ولا أجد فيها من أسباب النعيم بعض ما يقدِّره العليلُ للأصحاء . أفترانى أرجو دواء السَّقم . لأستديم الشعور بما فى العافية من النِّعَم ؟ إذن فيالها نِعمةً لا يَقوم وجودُها إلاَّ فى عدَمِه ! . وصــدق من قال : « الصحة تاجٌ على رؤوس الأصحاء . لا يراه إلاَّ المرضى » ورحم الله القائل : « وبضدها تتميَّزُ الأشياء »

وعلى هذا أسأل اللهَ ألاَّ يُشعِركم هــذه النعمةَ يا معشر القرَّاء . إنه تعالى سميع الدُّعاء

عبرة *

جَلَستُ ليلةَ أمس إلى بعض صُدقائى وجعلنا نَسمُرُ فقَصّ واحدٌ منهم علينا القِصَّة الآتية قال :

كان لى صَديق ، وكان رحمه الله عَذبَ الرُّوح ، سَلِس النَّفْس ، قوىَّ العاطفة ، مُتسعِّر الذَّكاء ، حُلوَ الحديث ، حاضِر الفُكاهة . وكأنه قطعةٌ ناضرة من الغِبطة وحلاوة الأمَل

ولقد أحبَّ الحياةَ وغلاَ فى حبها . وأبغَض الموت وأسرَف فى بُغضه . وسَبيلُ الموت . فى العَادَة . هو المرض . فكان إذا ذُكِر المرضُ طار قلبُه فرَقاً من ذكر الموت !

وكيف يتقى المرضَ ويَتَحامى أسبابه ؟ لقد جاء بطبيب والتزَمه بياضَ نهاره وسوادَ ليله . فلا يَهبُّ من فِراشه إلاَّ إذا أمره بالهُبوب . ولا يَطمئنّ إلى مَضجَعه إلاَّ إذا أذِنه بالاطمئنان . ولا يخرُج من داره لطَلِبَةٍ أو انفرجة إلاّ إذا أشار عليه بالخروج . ولا يبدّل ثوبه أو يَخُفّ لحيته أو يَتروّى بجرعة الماء إلاّ إذا أوحَى إليه الطبيب . فإذا استَويا إلى المائدة وقرّبت ألوانُ الطّعام تحرّم أو يقول له الطبيب أصِب من هذا اللّون وأقلِل . ونَل من هذا وأكثر . و بقى عليك لتسيغ هذه اللقمة ستُّ مَضغات . و بقىَ عليك لتزلق هذه المُزعة (١) إحدى عَشرة !

وجاء بكتب الحكمة ، وطَلَب المجلات الطبية ما يَخرج منها فى العربية وما يخرج

* نشرت فى السياسة ضمن (ليالى رمضان) سنة ١٩٢٥

(١) المزعة من اللحم : القطعة

فى الفرنسية . وجعلَ يديم النظرَ فيها والأكبابَ على تفُّهم مباحثها ، وماقاله العلماء فى اتقّاء الأمراض وعلاجها ، وما لوَّح به المستكشفون من إمكان التوصل إلى مدافعة الموت وإطالة الحياة . ولكنه لقد يصافح إنساناً وقد يَمَسّ آنية أو يَلمس ثوباً ، فسرْعانَ ما يَفزَع إلى ألوان المطهِّرات : هذا يَغسِل به يديه ، وهذا يضمّخ[1] به ثوبه . وهذا للمَضمَضة ، وهذا للاستنشاق !

ولكنه يتنفَّس ولا غَنَاء له عن أن يتنفس . وقد يَجرّ نَفَسه نسمةً مؤذِيةً بما تحمل من (المكروبات) . فهو دائبٌ على تَجرُّع الأدوية : هذا لتطهير الحلق . وهذا لتنقية الرئتين . وهذا لتنظيف المُصران[2] الدّقاق . وهذا لترويق الكَبد والكُليْتَين !

ولكن قلبه يضرب . ومن آية الحياة أن يضرب القلب . أفأمِنَ بين ساعة وأختها أن تَختلَّ ضرَباتُ قلبه فتكون نَفْسه[3] فى إحدى جمحاته ؟ فتراه طَوال يومه مكبًّا على كُرسوع يُسراه بيَنان يُمناه . و (ساعته) فى حجره ليَعُدَّ ما تدور عليه كل (دقيقة) من ضربات قلبه : لقد استوت سبعين والحمد لله ! لقد ازدادت إلى تسعين فواحرّ قلباه ! لقد تدلَّت إلى ستين . وذلك فتور وانحلال . لقد هبَطت إلى سبع وخمسين . وذلك من نذُر التلاشى والانحلال ! الأطباء ! . . الأطباء ! . علىّ (بكنصلتو) يَنتظِم فلاناً وفلاناً وفلاناً من كبار الأَطباء ! . . .

ويدور البحث والفَحص والتقليب والتَّسمُّع والجسّ والتحليل . فيَخرُج من هــذا كله أن الأمر لا يعدو فُتوراً فى أعضاء الجسم يذهب بفنجان قهوة أو بجُرعة شاى !

---

(١) ضمخه بالعطر : نضحه
(٢) المصران جمع مصير . أما المصارين فجمع الجمع
(٣) تكون نفسه أى يكون موته

وسرعان ما ينبعث فى صاحبى نشاطه ، وتعود إليه نَضَارته وفتاء قوته . وقد يَستقيل حديثَ المرض هُنَيهةً فيأخذ فى حديث الناس ، و يتبسّط إلى الصحاب بالنادرة اللّطيفة ، و يحاضرهم بالمُلحة الطّريفة . وما يزال هذا شأنه حتى يَرميه بأُبه بزائر . فاذا سَقَط لسانه بأن فلاناً قد مات ، تربّد وَجهُه ، و تتعتَع لسانه ، وتزايل هيكله فى مجلسه ، وتاهت حَدَقتاه فى محاجرها . وشدَّ نَفْسه شداً ثم تهافت بها على الزائر يسأله : وهل مَرِض هذا فلانٌ وهل شَكا ؟ وماذا كانت عِلّته ؟ ومتى ابتَدأت شَكاته ؟ وما الذى كان يَظْهر عليه من أعراض الداء ؟ وهل كان يُحسّ وجعاً ؟ وفى أىّ موضع كان يَستشعِر الألم ؟ وما صِفَةُ الدّواء الذى كان يَتناوله ؟ ومَن الطبيبُ الذى كان يعالجه ؟ وهل فحص عن قلبه ؟ وهل كان يَعُدّ ضرباته ؟ الخ ! . . .

ثم إنك لتشعُر أن قد نَشِبت فى نفس المسكين معركةٌ هائلةٌ بين الرجاء فى الحياة وتوقّع الموت كما مات هذا فلان ! فيكون الفوزُ فى صدْر هذه المعركة للأوّل ، إذ تراه قد شَدّ متنَه وأقبل يُحدّثك فى قوة وحماسة عن صحّة قلبه وسلامة سائر جَوَارحه ، وأنّ جَمهَرة الأَطباء قد أكّدوا له ذلك وأقاموا عليه أبلغ البراهين وأدمغ الحجج ؛ حتى لقد صحّ لهم أن قلبه من السّلامة بحيث لا يقع مثله إلاّ فى كل ثلاثة آلاف قلب لا يَسلَم واحدٌ منها على علّة !

ثم تكون له فترةٌ يُقبل فيها على جَسّ نَبْضه ، ثم تراه قد دخل فى الغَشْيَة ولحِقه الذّهول ، فزاغت عيناه ، وتقلّصت شفتاه ، وأرعَشت يداه ، وجعل يَطفو ويرسُب فى كرسيّه ؛ وأومأ فتطاير الخَدَمُ يَطلبون الأطباء من كلّ مكان !

وكذلك قَضَى العمرَ إلى غايته مشغولاً عن مُتَع الحياة ومطالب الحياة بشدة الحِرص على الحياة !

وقد مَرِض حقًا وأَلَحَت عليــه العلَّة وأَيس منه أُساته ، وجاءنى أنه لا يُعْدَّ يومين ، فأسرعتُ إلى عيادته وأنا أرجو ألاَّ يكون قد اطَّلع على حقيقة علّته فيموت قبل أن يموت !

وجلستُ إليه فاذا هو يفطُن إلى خَطْبه . وهو يشعر بأنه لن يَطوِى على ظهر الأرض يوماً حتى يَطويه بَطنُها طيًا . أفرأيته من الموت كان مذعوراً منخلع القلب مُستَطار اللُّب ؟

كلاَّ والله ! فانى لقد رأيته وهو يَستقبِل الموتَ هادئَ الشعر . وادعَ النَّفْس . يتجمّع ليتحدّث فى هذه الأسباب الدائرة بينَ الناس ، حتى يَخذُله لسانه ، وتتخلّف عنه قواه . فيرخِى جَفنيه ويَدخل فى مثل السِّنة ؛ ثم ينتبه وعلى شفته ابتسامةٌ عَذبة أعرفها له وهو فى صَدر الشَّباب . وقد يحاول أن يَدور بلسانه فى مُلحَة أو نادرة مُستطرَفة فيَعيِى عليه الكلام . فيحاول أن يتعلَّق إلى شأنه بشىء بينَ الضحك والابتسام . ثم يعود إلى إغفاءته فى غِبطةٍ ودَعَة وارتياح

وظَلَّ هذا شأنَه حتى دخَلَ فى الحَشْرجة وفارقَ هذه الدنيا ورحمه الله !

قال محدّثنا : أفرأيتم كيف كان رِفْقُ الطبيعة بالانسان ؟

ليس من سبيل إلى تَوَقى غِيَرَ الدَّهر والعِصمة من كوارثه : والناسُ ما عاشوا فى هذه الدنيا أهدافٌ للمصائب ، وأَغراضٌ للنوائب . وهم أبداً مُهتمُّون بها دائبوا الجزَع منها . وإنما يكون إشفاقهم من رَزَايا الدهر وجَزَعهم على قَدر قُربهم منها أو بُعدهم عنها . كذلك يتفاوت ما يَتداخَل نفوسَهم من الوَجْد والفَرَق بتفاوتهم فى قوّة القلب ومتانة الأعصاب وثبات الايمان

وعلى كل حال ، فانه ما من مُصيبة فى الأرض إلاَّ كان مَوقعُها أهونَ وأخفَّ

من توقعها . وهذا كما قلت من رِفق الطبيعة بالانسان ، وإن فى حديث صاحبى الذى قَصَصتُه عليكم لَعِبرة

فقال بعض الحضور : وعلى هـذا صحَّ المثلُ العامىُّ القائل : « الوقوع فى البلاء ولا انتظاره » !

فبادره آخرُ بالمثل العربىّ : « الناس من خَوف الذلّ فى الذلّ » !

وتمثَّل ثالثٌ بقول كُثَيِّر :

فقلتُ لهـا يا عَزُّ كلُّ مُصيبَةٍ إذَا وُطِّنَتْ يوماً لهَا النَّفسُ ذَلَّتِ

وجعل رابعٌ يردِّد قولَ الشاعر :

لا أَستقيلُ زَمانى عَثرةً أبداً ماشَاءَ فَلْيأْتِ إن الشُّهدَ كالصَّاب[1]

وتفرَّق عند هـذا مجلسُ الاخوان ، فَعزَمتُ لأُسامِرَنَّ به قراءَ « ليالى رمضان »

---

(١) الصاب : شجر مر

فى الجمال*

لا أعرض لتعريف الجمال ، لأننى عاجز عن تعريفه . وما الحاجة إلى ذلك وهو حاضرٌ فى كل نفس ، مَوصولٌ بكل حسّ ، يَستشعِره الانسان كما يَستشعِره الحيوان ؟

والجمال يَتجلَّى فى الانسان ، وفى الحيَوَان ، وفى النَّبات ، وفى الماء ، وفى كَواكِب السَّماء ، وفى الجبل الأشمّ ، وفى الصَّخر الأَصمّ ؛ بل إنه لَيَتَجَلَّى على مَتن الصَّحراء الموحشة ، ما تَبِضُّ(١) من الماء بقَطرة ، ولا تتفرَّج من النبات عن زَهرة . فالجمال ماثل فى كل خَلْق من خَلْق الله لو تفقَّده المتأملون !

وفى كل شيء له آيةٌ　　تدل على أنّه الواحدُ

و إذا كان القَدَر قد جرَى على أهل هذه الأرض بألوان المشاقّ والمتاعب ، وأنواع الرّزايا والمصائب ؛ فقد سوّى اللهُ الجمالَ فى كل شىء و يسّره لكل طالب ، وهيّأه لكل حاسّة ، حتى إذا حزَب(٢) الناسَ الأمرُ تفرّجوا(٣) بالجمال ، وإذا اعتراهم المكروه عاذوا به ، فكان لهم فيه خيرُ العزاء ، وكان لهم منه نِعْم الجزاء

هـذه الشمس تصحو بِسُحْرة(٤) من رُقادها ، وتتثاءب وتمطَّى ، وتأخذ زينتَها لتطلُع على الأرض ، وهى لا تتبدَّى للأُفُق قبل أن تُرسِل من أشعَّتها رُسلاً خِفافاً يكشِفون لها وجه الطريق ، حتى إذا رأوا أن جيوشَ الظلام تَركب مناكبه ، وتَسُدّ مسالكه ، فتحيَّروا بينها ولم يجدوا لها مَدْفَعا ، استنجدوها فأَنجدتهم من

---

* نشرت بجريدة السياسة التى صدرت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠

(١) بض الماء سال قليلا قليلا　　(٢) حزبه الويل والغم أصابه واشتد عليه

(٣) تفرج الرجل من الكرب : تخلص منه

(٤) السحرة بالضم : ماقبل انصداع الفجر

أَشعَّتها بِرُسل ، ويقوم النِّزَال ، ويَستحِرُّ القتال . وكلما قدِم من ضَوء النهار مَدَد انقبضت أجنحةُ الليل ، وكلما أقبلت من جيوش الشمس نجدة ، انحازت بين يديها جيوش الظّلام ، حتى إذا هى شمَّرت ذيلَها وولَّت ، وكُسى أديمُ الأرض بذلك الضَّوء الليِّن الرقيق ، بدا من الشمس حاجب لعلها تستوثق به من أمن الطريق ، ثم جعلت تتثاقل فى مطلعها وتتجنَّى ، وتتهادَى فى مشرقها وتتأنَّى ، والطيورُ تلاغيها بترجيعها وشَدْوها ، والدوابُّ تحيِّيها بوثبها وعَدْوِها ، إلى أن تركب فى فُلْكها ، وتَستوى على عرش مُلكها ، ولا تزال عامّة نهارها تُصدر توقيعاتها فى حياة هذا العالَم : فياضَوء أَنِر للخَلق سبلهم حتى يستطيعوا أن يَسعَوا فى مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله ، ويا أرض أنضجى بَذْرك ليزكُوَ زرعُه ، ويَبسُق[١] فرعُه ، ويطيب للآكلين ثمرُه وينعُه[٢] ؛ ويا سُحب جودى بالأمطار ، لتُخصِبَ الأودية وتحتفَل بالعذْب السائغ الأنهار

ولا تزال فى جهدها ونَصَبها حتى تعلوَ بها السن . فتترقرق صُفرة الأصيل . فى ذلك الخد الأَسيل[٣] ، ويُبدَّل جلالُ الشيخوخة من رونق الشباب ، وتُصرَف نَضْرةُ اللّجين بالعسجَد المُذاب . وماذا تراه يُجدى فى نضارة السن ، أو يغنى عن بَضاضة الإهاب ؟

ثم تمشى متثاقلة إلى خِدرها ، لتتوارى عن العُيون خلفَ سِترها . وهى تعتمد من شُعاعها على عكازة ، كأنها شيخة أجهدها طول السُّرى فى مفازة ، حتى إذا حاذت الأفق ، جعلت تتدلّى وراءه رويداً رويداً ، كأنها تتزوَّد ليومها من العالم بآخر نظرة ، أو لتنفُث من شعاعها المهزول ما أجنَّت على الصِّبا من لوعة وحسرة ، حتى يَغشاها الذبول ، ويدركها الأُفول ، مُخلِّفة وراءها فلولاً من جيشها الأحمر ،

---

(١) بسق الزرع : طال (٢) الينع الذى طاب وأدرك من الثمر

(٣) الأسيل : المستوى الأملس

ما تفتأ تجتاحُها جيوش الظلام . وكذلك الأيام دُوَل ، وسبحان من تفرّد بالدوام !

* * *

وهذا القمر يَبدو لك أولَ الشهر خيطاً دقيقاً ، ثم يبدو لك فى ثانيه كحاجب الأشْيَب ، ثم يستوى قوساً ، والنجوم تحُفُّ به وتدلِّله . وتسهر عليه فى سُقمه وتعالّه . ولله دَرُّ ابن المعتز إذ يُشبِّه الهلال بقوله :

انظُرْ إلى حُسنِ هِلاَلٍ بَدَا ... يَهتِكُ من أنوارِه الحِنْدِسا[1]

كمِنْجَلٍ قد صِيغَ من فِضَّةٍ ... يَحْصِدُ من زَهرِ الدُّجَى نَرجِسا

وقوله :

أهْلاً بفِطْرٍ قد أنافَ هِلالُه ... الآن فاغْدُ على المُدامِ وَبكِّرِ

وانظُرْ إليه كزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ ... قد أثْقَلَتْه حُمُولَةٌ من عنْبَرِ

ولا يزال ينمو ويُدرِك حتى يستوى بدراً كاملا ، والنجوم حافّة من حَوْله . منها الثابت ومنها الرجراج . ومنها ما أثبتته الهيبة ، ومنها ما أذْبَه الوجدُ فهو دائم الاختلاج . وكيف لا تحتفل النجومُ لابن الشمس ووليّ عهدها . وحارس ليلها . وقائد جندِها فى بُعْدِها ؟

والقمر فى أول مولِده . وفى طفولته . وفى فُتُوَّته . وشبب سِنّه . وفى شيخوخته وهَرَمه . رفيقُ النفس . رقيق الطبع . كريم الجوهر . حُلو الشمائل . ما حضر إلا أغْنا وهدى . وما غاب إلا أضَلَّ وأشْقى . وما تأَبَّى إلا كسا الأرضَ بُرداً من لُجَيْن . إذا أنكرته اليد فهيهات أن تنكره العَيْن !

* * *

وهذا الرّوضُ الأريض : لقد انْسرَح بانه ، وفرَعت[2] فروعه . وبَسَقت

(١) الحندس بكسر الحاء والدال : ظلام (٢) فرع الشىء : طال

أغصانُه . وزكت أوراقُه ، ورف [١] بوحى النسيم نَبتُه ، وجلجَل اصطفاقه ، وأشرقت أنوارُه ، وتطلعت من أكمامها أزهارُه . فعاجلها الندى ، وانتثر من قَطره بين طياتها مثلُ عيون الدُّبى [٢] . والجداولُ من دونها تَتعطَّف وتمايل ، والبلابلُ على أفنانها تَتشادى وتَتزاجل [٣]

وهكذا ، فانك واجدٌ الجمالَ فى الكثير مما جلَت الطبيعة ، وفى الكثير مما جالت به يدُ الإنسان

* * *

على أن الناسَ ليسُوا على حظٍّ سواء فى الشعور بالجمال ومبلغ إصابة اللذة منه ، كما أن مظاهرَ الجمال المختلفةَ ليست عند الناس بدرجة سواء : فمن الناس من لا يروعه إلاّ منظَر البحر قد اشتد التجاجهُ [٤] ، وتدافعت أمواجه ؛ ومنهم من لا يَبهَره إلاَّ الزَّهر قد اختلفت ألوانُه ، ورُصِّعت به بَانُه ، وسطَعت بالعبير أردانُه . ولله در ابن المعتز حين يقول :

وعلى الأرضِ اخضرَارٌ واحمرَارٌ واصفرَار
فكأنَّ الروضَ وَشْىٌ بالغَت فيه التِّجار
نَقْشه آسٌ ونِسْرِ ينٌ وَوَرْدٌ وبَهَار

ومن الناس من لا تخلِبُه إلاَّ الموسيقَى ، فهى تُريه من آى الجمال بأذْنه . مالا يستطيع أن يشهَد بعينه ، وهى تُشفّه حتى يحسبَ نفْسَه صفحةً من الماء ، وتُرقه حتى يخالهَا قطعة من الهواء ، وتُخففُه حتى يُحلِّق فى جوِّ السماء . وما هو أنَّ حَلْقاً صَلْصَل أو أن وَتَرًا تَنغَّم ، ولكنَّ نفساً صبَتْ وقلباً تكلَّم !

* * *

(١) الرفيف : صوت النبت إذا طاف به النسيم
(٢) الدبى بضم الدال المشددة وفتح الباء : الجراد
(٣) الزجل : صوت الحمام (٤) التجاج البحر : اضطرابه

ولقد قلت لك إن الناسَ ليسوا على حظٍّ سواء فى إدراك الجمال ومَبلغ إصابة اللّذة منه ، والواقع أنهم فى هذا متفاوتون كلّ التفاوت : فمنهم من يسمو فيه إلى حدّ الافتتان والانبهار ، ومنهم من يُسِفُّ إلى حدّ جمود الحسّ وصَمَم الشُعور . وبين هذين الحدَّين مراتب بعضُها فوق بعض

هذا وليست نعمةُ الشعور بالجمال مقصورةً على إصابة اللّذة وتنعيم النفس ، واستراحتها من العَناء ، وتفرُّجها من ألوان الهموم ، بل إن لها وراء ذلك أثراً بعيداً فى ترقيق الحسّ ، وتهذيب النفس ، والطامَنَة من جِماحها ، ورياضتها على العَطف والرَّحمة وحبّ الخير ، كما أن لها أثراً بعيداً فى تهذيب المدارك ، وتعويدها دقّةَ الملاحظة ، وشدة التفطّنِ لما يُعيي على كثير من الناس

وإدراك الجمال ، مهما يجفَّ الطبع . يمكن أن يُكتسب بالتنبيه وترديد الملاحظة ، ولفت الشعور باظهار الأعجاب والافتتان ، حتى إذا أومض فى نفس الناشئ برقُه ، نبَض له عِرقُه ، فأقبل على التماسه ، فاذا أصابه جعل يتأملُه ، ويُجَرِّدُ له الحاسّةَ التى تُدركه . ولا يزال هذا دأبَه وَكَدْه حتى تَستوى له مَلكة إدراك الجمال . وله منها بعد ذلك ما شاء اللهُ من اللّذة ومن تهذيب النفس أيضاً

* * *

ولقد كان أكثرنا ، نحن المصريين ، إلى زمن قريب ، لا يُعنَى بهذه الملَكةَ ولا يَحتفل لها ، بل إن بعضنا لقد كان يَعُد تنقد كثيرٍ من مظاهر الجمال ضرباً من العبَث ، بل ضرباً من الفُتون

وإن أنسَ لا أنسَ أنى من نحوِ خمسَ عشرةَ سنةً كنت أُساير بعضَ كِبار الأعيان فى بعض الرياض ؛ فلَمَحَ على عِذار الطريق وَردة كُمَيتة[1] ، فسَرعان ما أهْوَى إليها بيده ، فغطّى رأسها ببعض راحته ، وزرّ أصابعه على أصلها ، وما

(١) بضم الكاف وفتح الميم المشوبة حمرتها بالسواد

زال يَشدُّ عليها حتى فرّق شملها ، وجعل يُحدِّثنى وهو يعرُك ورقَها بيديه ، حتى إذا فراها و براها ألقَى بعظامها على جانب الطريق ، ولا والله ما ألقى عليها أثناء هذا الصِّيال نظرةً واحدة ، حتى خُيِّل إلىَّ أن بينَ الرجل و بين هـذه الوردة المسكينة وتْرًا قديماً ! ! !

وأعرف رجلا من الأغنياء المتعلِّمين المترَفين أيضاً ، ماخلت داره من سيَّارة أو اثنتين أَو ثلاث لحاجاته وحاجات أولاده ، أفتدرى كيف يقضى هـذا الغنىُّ المتعلمُ المترَف كلَّ أوقات فراغه ؟

صدِّقْنى إذا قلت لك إنه يَقضيها فى مقهًى يحاذيه (موقف) مركبات يَسطع فى الجوّ من رَجيع خَيلها ما يَسطَع . وهو جاثم على النَّرْد (الطاولة) ما يَريم ولا يَتحاحَل ، ولا يَملّ ولا يَضجَر . إن علمتُ قطّ أنه عدَل بسيارته يوماً إلى الجزيرة ليمتِّع الطَّرفَ بجمال مناظرها ، و يريحَ[1] الأنف بشذا أزاهرها . أو أنه صَعِد إلى أصل الأهرام ، ليجمع إلى الروعة بفخامة البناء ، التمتعَ بطيب الهواء !

ولستُ ، بالضرورة ، أسوق هذين مثلاً لجميع المصريين . وعلى كل حال ، فان نهضتَنا الجليلة تناولت فيما تناولت فنونَ الجمال . فاقد وثبت الأمةُ معاضدَتها ، وانبعثت الحكومةُ لمساعدتها . وتظاهرت اذمم من كل جانب على تربية الأذواق و إرهاف المشاعر . فمن تشييد المعاهد للفنون الجميلة على اختلاف ألوانها ، إلى إنشاء متاحفَ جديدة ، وزيادة العناية بالمتاحف القديمة ، إلى الاكثار من إقامة المعارض لمُفتَنّ الصُّوَر ، وأخرى لمبتَدع الزَّهَر . يَتبارى فيهـا المتبارون ، ويتسابق إليها المتسابقون . وسيكون لهذا كله أثره فى تربية الأذواق ، وفى تهذيب الأخلاق . فان من البَطَر على فَضل الله ألّا يُقبل الناسُ على إمتاع النفوس بهذه النعمة العظيمة التى لا تـكلِّف الناسَ من المـال أو الجهد ، إن هى كلفتهم ، إلاّ يسيرًا !

---

(١) أراحه الرائحة : جعله يشمها

قصة*

حياء!

وفَتًى يَشربُ المُدامةَ بالما ... لِ ويَمشى يَرُومُ مالا يُرَامْ
تركته الصَّهباء يرنو بعَينٍ ... نَامَ إنسانُها وليست تَنامُ
جُنَّ من شَرْبَةٍ تُعلُّ بأخرى ... وَبكى حينَ ثارَ فيه المُدامُ
كانَ لى صَاحباً فأوْدَى به الدهـ ... ـرُ وفارقتُه عليه السلامُ

وحينَ أُترجمُ لموضوعِ اليومِ بكلمة (قصَّة) لا أعنى الروايةَ ولا ما يشبه الرواية : فإننى لا أُشيع فيها خيالاً . ولا أخترع لها أبطالاً . ولا أخْلُق مفاجئات ، ولا أبتكر مواقف . ولا أمُدُّ لها مغزًى يصيب غرضاً . ولا أُعالج تحليلَ نفس أو فكرة . لأننى لا أُجيد هذا الضرب من البيان ولا أحذقه . بل إننى لم أُحاوله طول حياتى الكتابية . وإنما أقصّ حادثة وقعت بسمعى وبصرى ، فإن هى أصابت غَرَضاً أو اتصل بها مغزًى . فذلك من صنعها نفسها ، لا فضل لى من ذلك فى كثير ولا قليل

كان لى صاحب شابّ نشأ فى الحَسَب . وتقلّب فى شىء من النعمة ، وأصاب حظًّا من العلم . وكان يَكلَف كلَفاً شديداً بالأدب . فلا يخلو بنفسه إلاَّ أكبَّ على ديوان شِعر لواحد من متقدمى الشعراء . فإذا سقط على كلام جيّد رائع جعل يترنّم به . وإذا وقع له فى نثر النُّثَّار أو فى خُطَب الخُطَباء كلامٌ بليغٌ راح يُشيعُ

* نشرت فى جريدة السياسة فى يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠

فيه نفْسَه ويُقلّب به لسانَه . وكان رحمه الله إلى هذا عَذبَ الرُّوح ، جمَّ التواضع ، حاضرَ البديهة ، حُلو الحديث . ولكنه مع هذا كله كان شديد الحياء حتى لَترى فيه خَفَرَ الفتاة الكَعاب ، يتحامى مجالسَ الناس ولا يتهافت عليها . فاذا قضَت عليه الأسبابُ بأن يَدخُل فى غمارهم عقد الحياء لسانَه . وملَك عليه بيانَه

وكان عَصَبىَّ المِزاج يُثيره التافهُ من الأمر فيغضَب ، ولكن الغضب لا يَصل من نفسه إلى أبعدَ من السَّطح ، فهو كالغدير تُثير صفحتَه العاصفةُ ، ولكن باطنه كله سهلٌ وادعٌ رفيق

ولقد جرى عليه القدَر فعَلِق فتاةً يصل أهلَها بأهله بعضُ السبب . وكانت حُلوةً نجلاء العينين ، لها فمٌ دقيق بديع ، إذا افترّ افترّ عن مثل حَبِّ الغَمام ، أو عن عِقد من الدرّ بديع النِّظام ، مُدمْلَجة الجسم ، ممشوقة القدّ ، مُشرِقة الوجه ، حتى لتحسب أنّ وجنَتَيها تجُول فيهما الشمس . وكانت إلى هذا مَرِحة لعوباً تكادُ من خفَّة الرُّوح ومن شدة المَرَاح تطير

وهو يَرتصِد لها فى مَغداها ومَراحها ، ولربّما استهلَك فى ذلك يومَه الأَطول ، حتى إذا جازت به أسبَل عينيه ، أو لَفَت النظرَ إلى شىء آخرَ من الخجَل والاستحياء !

ولقد حدثنى أنه جاز فى رُفقة من صحبه ببيتها صباحَ يوم ، فاذا هى فى ثياب التفضُّل تقطِف من الحديقة أزهاراً . فلما رأتهم توارت منهم فى بعض الشَّجر . قال : فتشجّعتُ وأرسلتُ نظرى ، فاذا غصنٌ تتدلّى منه وردةٌ لم يَرَ الراؤون شبهاً لها فى الزمان !

* * *

وأخذ فيه الهوى ، وألحَّت عليه الصبابة ، ولحِقه من الوله عليها ما نقرأ مثلَه فى الكتب فلا نصدّقه

ويشاء اللهُ أن تدعوَ أهلَها بعضُ أسبابهم إلى التحوُّل عن القاهرة ، فتحوّلوا وامتلخوا معهم قلبَ صاحبي المسكين . فكيف حيلتهُ ؟ وكيف له بتعليل ما يَغمز على كبده من هوًى وصبابة ، لم يجد المسكينُ حيلةً إلا أن يَفزَع إلى الشَّراب ، فكان يَصطبح[1] ويَغتبِق[2] ، ويسكَر ما تهيأ له السكرُ في الليل أو في النهار . فاذا زجره عن هذا زاجرٌ ، أو وعظه واعظ تمثَّل بقول الشاعر :

فأَصبحتُ أَلْحِي السكْرَ وَالسكْرُ مُحْسِنٌ ... أَلَا رُبَّ إِحْسانٍ عليَّ ثقيـــل

وكان إذا جمعه المجلسُ ، حتى المجلس الطَّليُّ الظريف ، استوحش واستشعر الوَحْدَة ، فتسلَّل وانتبذ بنفسه ناحية ليأنسَ باستحضار هواه . فكان في هـذا يُذكِّرني قول الشاعر العربيّ يصف لِبنتهِ ما يجد من فراق أهله :

إذا عَنّ ذِكْرُهمُو لم يَنَم ... أبوكِ وأوحَشَ في المجلسِ

ويُذكِّرني قول الآخر (ولعله مجنون ليلى) :

وأَخرُج من بينِ الجلوسِ لعلَّني ... أُحدِّثُ عنكِ النفسَ في السِّرِّ خاليَا

وإني لأَستَغْشِي وَما بيَ نَعْسةٌ ... لعـلَّ خَيالاً منكِ يَلْقَى خَيَاليا

وقلتُ له مرةً في ذلك فقال : اسمع يا فلان ! لقد خلَصت حياتي كلُّها لها ؛ وتجرَّدَت نفسي فيها ، وانقطعت حواسّي إليها ، وأصبحتْ هي جميع مادّتي وعناصر وجودي ؛ فكيف تريدني على ألاّ أشتغل بها أو أحتبس على التفكير فيها ؟ والله يا فلان ! إني لأراها طول يقظتي كما أراها طول نومي . فانني ما رأيتُ دُرَّة قطُّ إلاّ حَسبتُ أنَّها انتُزِعَت من ثغرها ، ولا أبصرتُ مِرآةً قطّ إلا ظننتُ أنها استُعيرت من صدرها ، ولا طالعتُ وردةً ناضِرةً إلاَّ خِلْتُ أنها قُطِفَتْ من خدِّها ، ولا

---

(١) اصطبح : شرب في الصباح ، والاسم منه الصبوح بفتح الصاد

(٢) اغتبق : شرب في المساء ، والاسم منه الغبوق بفتح الغين

تمثَّلَ إليَّ غُصْنٌ من البان إلاّ أحضرَني صورةَ قدّها . ولا سَطَع لي عبيرٌ إلاّ شعرت أنه من شذاها ، ولا فَصَحني نورٌ إلاّ قدّرت أنّه من إشراق مُحيَّاها . ولا سمعتُ شَدْوَ القُمريّ إلاّ سمعتها تتكلّم وتلغو ، ولا طاف بي النسيمُ إلا تمثلتها تلعب وتلهو . ولا طلعت الشمس إلا رأيتها فيها ، ولا استتمّ البدرُ إلاّ خلتُها تعلو على الدنيا كِبراً وتيهاً . وإني لأرفع بصري إلى السماء فأرى لها هَودجاً في موكب السحاب ، وأخرُج إلى الفلاة فاذا هي التي يترقرق بها السَّراب . فهي سعدي وهي نحسي ، وهي نعيمي وهي بُؤسي . وهي لذّتي وألمي ، وهي صحّتي وسَقَمي . وهي نعمتي و بلائي ، وهي حياتي وفَنائي . ثم أقبل عليّ وقال لي في خوف و وَرَع : فما حاجتُكم إلى أن تقطعوا ما بيني و بين نفسي ؟ !

* * *

ولقد ظلّ صاحبي على شأنه قَرابةَ عشر السنين . وانتهى إليه في بعضها أن الفتاة زُفَّت إلى بعل ، وكانت هنالك ، في ظنه ، عَواثير تحول دون خِطبتها له وتزويجها منه ، فاجتمع عليه ألمُ الصبابة وألمُ الغَيْرة معاً . واستوحش المسكينُ وآثر الوَحدة ، وألحَّ على الشَّراب ، وأكثرَ من الخروج إلى الفَلَوات . ولعله لم يكن يُطالع بكل مَداخِله إنساناً قَدرَ ما كان يطالعني ، ثِقَةً منه بأيثاري له ، وفرط محبَّته ، وكتمان مَستُوره . وكان رحمه الله إذا عَرَض الخاطرُ في هذا يتمثّل بقول جميل :

أموتُ وألْقَى اللهَ يا بُثْنُ لم أبُحْ ... بحبِّكِ والمُسْتَخْبِرون كثيرُ

* * *

عشر سنين ! وعشر سنين على مثل هذا لكثير : رِقَّة نفس ، ودِقَّة حسّ ، وتسعُّر ذكاء ، وغرام بالغ ، وشدة وَلَه ، وانقطاع وطول مهاجرة ، و (أرَقٌ دائم وحزن طويل) ، ويأسٌ فاره وأملٌ هزيل . والخمر ! الخمر فوق ذلك ، تهيج في

نفسه وتُعربد ، وتُسرف فى عمره وتبدّد . ورسل الموت تَتوالى ، ونُذُر الطّب تَتدارك وتتتالى . وماذا يَعنى صاحبَنا من كل أولئك ؟ . أليس يعيش لها ؟ فخيرله أن يموت فيها !

ولقد ضربه المرضُ بذات الجَنْب فما برِح يَرِقّ وينحُف ، ويهزُل ويضعُف : ولكنه إذا تحدّث عنها خِلتَ أن أرماقَ نفسه قد تجمّعت كلُّها فى لسانه ، فترى منه فى ذاك أقوى القوّة ، وتَشهد منه أفتَى الفُتُوّة !

ويدعونى إليه ذاتَ يوم فوافقتُه ، فاذا هو مُشرق الوجه مَرِح النفس . لولا المرضُ يُثقله لما وسعته الدنيا طرباً ومَراحاً . فأقبلتُ عليه بالهَناَء على مَدْخَل العافية . وسألتُه الخبرَ ، فضحك ضحكة طويلة مزّقها عليه السُعال . فلما سكن وتطامن قال : احزُر ؟ فقلت : لا أحزُر إلا أن يكون جاءك خَبرٌ من عند صاحبتك . فقال : إى والله ، فلقد جاءتنى جاريةٌ تقول لى : إن فلانة قد عادت إلى القاهرة واستقرّت فيها ، وهى تدعوك إلى زيارتها لتسألك فى بعض شأنها . وإنها لفى انتظارك الآن لو تهيأ ذلك لك ، وإلا ففى غدٍ أو بعد غد . فخففْتُ من فَوْرى مع الجارية . ولقد والله ودِدْت لو أستَحيل فى طريقى إليها حمامة ، أو أنتفضَ نَعامة ، حتى أستمتع برؤيتها الوقتَ كلَّه فلا تزاحمنى على هذا المتاع مسافةُ الطريق

وتلقّتنى مَرِحة فى جِدّ وتوقُّر ، وسلّمتُ عليها فى أدبٍ وتحشُّم . واتخذَتْ لها مَقعــداً لا هو بالقريب منى ، ولا هو بالبعيد عنى . وتحدّثنا ساعةً فى مثل أحاديث الناس ، وجَعلتْ تَقُصّ علىّ بعضَ ما لَقِيَت فى تلك السـنين ، وهى لا تَفْتأ الفَينة بعد الفَينة تسألنى عن شأنى وما تغيَّر بعدها من أسبابى ، فأجرُّ لها الجواب جرًّا لأننى إنما كنتُ مشغولاً عنها بها ! . ثم أفضَت إلىّ بمسألتها ، وزعمت لى أنها فكّرَت فلم تَرَ لها مُسعِداً فيها غيرى لِما بين أهلَينا من وثيق

الصِّلة ، إلاَّ أن يكون عليَّ في الأمر غَضاضةٌ أو أن تَلحَقني فيه مَشقّة ، وأنا أحلِف لها بكل مُؤثِّمة من الأَيمان أنه ليس هناك أَيّة غَضاضة ولا أيّة مَشقّة ، وأنها في تحرُّجها جِدُّ مبالِغة ، ثم استأذنتُها وانصرفت

فقلت له : وهل منعك الحياء أيضاً من أن تُبَادِيَها بحبّك ؟ فقال : كلا ! فلم يَعُد للحياء عليَّ من سبيل ؛ ولكنني كرِهتُ أن أفعلَ لكيلا أُتَّهَم عندها وعند نفسي بأنني أَقتضيها على مَسعاتي لها أجراً . قلتُ : فماذا صَنَعْت ؟ قال : سعيتُ لها مسعًى صغيراً ردَّ اللهُ به حقَّها عليها . ولقد تعاظمَها الأمرُ فأرسلتْ إليّ جاريتَهَا تشكرني وتستزيرني . قلت : فماذا أنت صانع ؟ قال : سأظَلّ أياماً أُخَرَ أتقلّب على مثل جَمر الغَضَى ، وأُعاني من الشوق واللَّوعة ما أُعاني حتى تتراخَى الأيام بتلك المسألة ؛ وحينئذ أزورها وأسكب بين يديها كلّ غرامي وولهي ، فلم يبق فيّ فضلٌ لصبر ولا كتمان . وودَّعته على أن يُطالعني بما سيكون من أمره معها

***

وفي أصيل يوم صافي الأديم ، عليل النسيم ، أرسل من يدعو بي إليه ، فوافيتُه فاذا هو أنحل من الطَّيف ، وأرقّ من سحابة الصَّيف . فما إن رأيته قطّ ، واحسرتاه ، متداعياً متهدماً كما رأيتُه في ذلك اليوم ، على أنني رأيت في عينيه بريقاً حديداً ، وعلى شفتيه الذابلتين ابتسامة تَشِفُّ عما وراءها من حُرقة ألم ، وشدة أسًى ونَدَم . فقلت له مالك ؟ فقال : لقد زرتُها اليوم ولم أُلبِثها ، بل اقتحمتُ عليها ، وجَثوت بين يديها ، وبَثثتُها ما أُعاني فيها من الهوى ، وما أجد من حُرَق اللَّوعةِ ومن بُرَح الجوَى ، فعرَاها أولَ الأمر شيء من الذهول ، وجعلتْ تُدير فيّ نظراً حائراً . وظلّت على هذا بُرهة . فلما عادت إليها نفسُها سألتني عن مَبدأ هذا الحب وكيف نجَم ، فرحتُ أقصّ عليها حديثي من أوله إلى آخره . فجعلتْ تَعجَب لأمري في ذُعر وندم ، وتسألني لماذا لم أُصارحها بهواي كلّ هذا الزمان

الطويل ؟ ولماذا سِمتُ نفسى كل هـذا العذاب ، والخطبُ لو قد باديتُها بحبى ، وعزمى على التقدم لخطبتها كان أيسرَ وأهون ، لأنها لم يكن يُعجزها أن تروض الصعاب ، وتذلّل العقاب [١] ، واندفعتْ تبكى وتنشج ، واندفعتُ أنا أبكى وأستعبر ، حتى بلغنا من البكاء غايتنا ، ولكلٍّ سائلة قَرَار . وأخذَت بيـدى وأجلستنى إلى جانبها ، وأنشأت تمسح ما انهلّ من الدموع على خدى ، وتُمِرّ يدها ليّنةً رفيقةً على كتِفى كأنها تدلّل طِفلا

ثم أقبلتْ علىّ تعاتبنى على أن أخّرت مكاشفتَها بهواى حتى تولّى الصِّبا ، وجفّت أنوار الرُّبى ، وآذن البدرُ بالافول ، وأشرفت الوردةُ على الذبول ، وأوشك أن يحزُن [٢] أُملود [٣] الإهاب ، وأن يَسكن ما كان يتحيَّر فى الخـدود من ماء الشباب . أفكلٌّ هذا يصنع الحياء ؟ ألاَ بُعداً لهذا الحياء !

قلت لها دعينى من هـذا ، فوالله ما أراكِ الآن إلاّ كما كنتُ أراكِ فتاةً مَرِحة لَعوباً تثبين فى حديقة بيتك ، تجمعين الأزهار ، وتارةً تُلاغين الأطيار . وهل تحسبين أن الأيام أبقت منى على عين تنظر جديداً ، أو عاطفةٍ يُشِبُّها حديث ؟ إنمـا أنظر إليك بتلك العـين ، وأُشِبّ لك تلك العاطفة ، وهما اللتان ادّخرتهما للحياة من ذلك العهد البعيد ، ولو كانت لى عينٌ تنظر كما تنظر عيونُ الناس ، وعاطفةٌ تَهُبُّ كما تهُبُّ عواطف الناس ، ورأيتك اليوم أَحْلَى وأنضرَ مما كنتِ ، لانصرف حُبى عنك ، لأن هواى إنما يكون إلى غيرك . فهلمَّ بنا نسافرْ معاً إلى الماضى تبعثين له حسنَك ، وأبعث له قلبى . فعلى هـذا المـاضى نَعيش ما قُدِّرَت لنا الحياة

ثم كانت زَفَراتٌ تنفّس بها الحَشَى ، وترجم بها القلبُ عن كل ما أعيا على اللسان !

---

(١) العقاب : بفتح العين جمع عقبة

(٢) حزن المكان بضم الزاى : غلظ فصار حزنا بفتح الحاء (٣) الأملود : الناعم اللين

ولا أدرى أأحبَّته من تلك الساعة كما أحبّها دهرَه الأطولَ ؟ أم أنها أسعدته بالبكاء رحمة به وشفقة عليه ؟ !

* * *

وألحّت العلةُ على صاحبى وأثقلته فى فِراشه ، فلم يرَ صاحبتَه بعـدها أبداً . وكنتُ أعوده فى كل يوم . فلما تراءت له المنيَّة قال لى ذاتَ يوم : أنت أصدقُ أصدقائى وأحفظُهم لعهدى ، وأكتمُهم لسرّى ، فهل لك فى يدٍ تُسديها إلىّ ؟ فقلت له : فدَتك نفسى فَمُرْ ، وأنا لك فيما دون الدِّين والعِرض طائع . قال : فانى حين عَلِقتُ فلانةَ وصدَّنى الحيـاء عن مكاشفتها بهواى كنت أفيض بمذكرات أصف فيها بعضَ ما أجد لها من الصَّبابة . فهل لك أن تحفظها عندك ولا تنشرها للناس ، إن نشرتها ، إلاّ بعد أن ينطوِى خبرى وخـبرُها ، ويَمَّحى أثرى وأثرُها ؛ فمـا أُحب أن يَعرِف ، على الزمان ، غيرُك من أنا ومن هى ، فلَنا من حكم العادة ومن حكم بيوتنا ما يكفُّنا عن هـذا ، فعاهدته على ذلك . فمدَّ المسكينُ يدَه الرقيقةَ الناحلةَ واستخرج من تحت الوِسادة رِزْمة دفع بها إلىّ ، بعد أن كرَّر الوصيةَ تـكرير الواثق لا المستريب

وقَضى بعدَ أيام ، ولـكم سالت لمصرَعهِ كبود ، ولـكم لُطمت فى رُزئه خدود ، ولـكم شُقّت عليه جُيوب ، ولـكم تفطَّرت له قلوب !

* * *

وشخصتُ فى ضُحَى يوم من الأيام إلى قبر صديقى لأزوره ، فاذا عليه وردٌ ناضر وريحانٌ جَنىّ ، فسألتُ سادِن القبور عمن جاء بهذا ؟ فقال لى : إن سيدة تنتاب هذا القبر حيناً بعد حين ، فتنثُر عليه الرياحين والزهور ، وتظل ساعة تبكى حتى تَستعبِر ثم تنصرف . فسألته أن يَصفها لى فعرفتُ أنهـا صاحبته ؛ رحمة الله عليهما جميعاً

عدو صميم ، أم ولى حميم ؟ ... *

تلقَّيت هذا الكتاب من حضرة الكاتب الأديب صاحب الامضاء ، و إنى مُثبته بنصّه فى « المصوَّر » من غير تغيير ولا اختصار :

حضرة .....

(فلان) لقد حيَّر نى وأقلق فيه مَنطِق وأزعج تفكيرى ، وأفسد علىّ حسّى ، فما عُدتُ أدرى ما إذا كنتُ أُحبّه أعظمَ الحب ، أو أبغضه أشد البغض ، ولا أعلم إن كنت أكبره غاية الاكبار ، أو أننى لا أُجِنُّ له إلاّ أبلغَ الازدراء والاحتقار . فانى والله لا أعرف إن كان هو أصدقَ أصدقائى ، أو كان هو أعدى أعدائى . إنه لأحدُ هذين على أىّ حال . أمّا أنه ليس هذا ولا هذا فذلك المحالُ كلُّ المحال !

إنه يَحفَظ غَيبى ، ولا يأذن لأىّ كان بأن يبسط فىَّ لسانَه بمقال سوء ، ولو جشّمه ذِيادُه عنى فى غيبتى ما جشّمه ، مافى ذلك شك ولا إلى جُحوده سبيل !

و إنى لقد يعترينى المرض ، ولقد يحزُبنى من أمر الدنيا حازب ، وتعترينى الأيامُ ببعض المكروه ، فيكون هو أولَ من يطلُع علىّ ، ويَستطِب لدائى ، ويتفقّد علاجى ، ويَستوثِق من مواظبتى على دوائى ، ويكون هو أشد الناس اهتماماً بمواساتى ، وأعظمهم اجتهاداً فى تسليتى والتّسرية عنى ، ولا يزال هذا شأنه حتى أَصِحّ وأَبرأ ، وتعود إلىّ طُمأنينتى ، ويُذهب الله عنى ما أجد من وجد وأسى ، مافى ذلك شك ، ولا إلى جُحوده سبيل !

---

* نشرت بمجلة « المصور » فى شهر مايو سنة ١٩٣٥

ولقد تَرِقّ حالى ، ويُلحّ العُسر علىّ ، فما إن يكد يَعرف هذا ، ولو من طريق التفرُّس ، فليس من خُلق التّشكّى ، حتى يجمع هَمَّه ويركب رأسَه ، لا يَسكن ولا يفتُر ولا يَهمُد له سعىٌ ، أو يصيب لى عملاً كريماً يُجرى علىّ ما أعُود به على شَملى ، ولقد يفعل هذا على غير علمى وفى سرّ منّى . ولقد يغلو فى أن يَكتمُنى سعيَه لكيلا يَجرح شعورى ، أو يُحرّج نفسى بما يَجهَد فى شأنى . مافى ذلك شكّ ولا إلى جُحوده سبيل !

ولقد يَنتهى إليه أن خَلقاً من الناس يَأتمرون بى ، فاذا لم يَستطع أن يكُفَّ بادىء الرأى كيدَهم ، ويَدفع عنى أذاهم من حيث لا أعلم ، باداني بأمرهم ، وحذّرنى مكرَهم ، وقد كنت على شَرَف الوقوع فى حِبالتهم ، فينجّينى الله تعالى به من كيد عظيم . مافى ذلك شكّ ولا إلى جُحوده سبيل !

وإنى لقد أُخطىء الرأى ، ولقد يُضلّنى الهوَى عن سبيل الحكمة فى بعض الأمر ، حتى يكاد هذا يُزلِقنى إلى ما تُكرَه عواقبه ، فيزعجنى بكل الوسائل عنه ، ويردنى ، برغمى ، مُعافًى منه . مافى ذلك شك ولا إلى جُحوده سبيل !

وإنى لا أذكر أنى غبتُ عنه قط إلا تفقّدنى ، وجعل يتعاهَدنى فى جميع مظانّى ، ويَقصُّنى جاهداً حتى يُصيبنى ، ولو كنت فى قَواصى الأرض ، ليجالسنى ويَقضى أجلّ الوقت معى . مافى ذلك شك ولا إلى جحوده سبيل !

ولا أذكر أنه تهيّأَت له قط نُزهةٌ جميلة ، أو مجلسُ غِناء وتَطريب ، أو نحو هذا مما يُنعِّم النفسَ ويُلذّذها إلاّ أسرَع فدعانى إليه وآثرنى به ، وألحّ علىّ فى حضوره ، وقد يَستكرِهنى ، إذا تعذّرتُ عليه فى ذلك استكراهاً . مافى ذلك شكٌّ ولا إلى جحوده سبيل !

ومهما يكن من شىء فانه فى كل هذا الذى ذكرتُ لك يُؤثرنى ، فيما أعلم ، أشدَّ الايثار ، و يعقِد فى عُنق من المِنن مالا تَسخو به إلاّ أنفُس أصدق الأصدقاء وأَصفَى الأولياء ، حتى إننى لأتمثَّل فى شأنه هذا معى بقول الشاعر :

فأصبحتُ يلقانى الزمانُ لأجله   باكرام مولودٍ وإعظام والد

* * *

على أنه قد ذَهَبَ عنى أن أذكر لك فى صدر هذا الكلام الصفاتِ البارزةَ صديقى أو عدوِّى هـذا (فلان) . ولـكن الفُرصة لمّا تزل حاضرةً ؛ والحمد لله إلى الآن :

هو رجل فى أَعقاب الشباب ، انحدر من أُسرة إن لم يُمدَّ لها فى غنى عريض ، فانها تَجرى على عِرق من الفضل والـكرم ، ومن النُّبل والشمَم . وهو بعدُ على حظٍّ غير قليل من العقل والذكاء والعلم والثقافة جميعاً ، حاضر البديهة ، حسن الرأى فى الجملة ، يُجيد الحـديث ويَحذِق النـكتة ، وقد يَبرَع فى إدارة مجلس السمَر ، وهو وإن لم يكن أديباً فانه يَتذوّق الأدب ، مرهَف الأعصاب ، لقـد يُثيرُه التافهُ من الأمر ، وتارةً يُسرِف فى الحَمل على النفس ليصبّرها على مكروه عظيم لِرأى يراه هو ولـكن يَكتُمه الناس . ولقد تجد فيه أحياناً أدباً جمًّا وظرفاً عظيما . ولقد ترى فيـه حيناً عُنْجُهِيَّةً شديدةً وسَلاطةً لا تطمئنّ إلى الصبر عليها رواسخُ الجبال !

ثم إنه لرجل مَرِح فى غالب شأنه يَطرَب على الغِناء ، ويَتبسَّط فى مجلس الأُنس واللهو ، ولا يُعلّق يدَه عن الأنفاق على أسباب التنعيم والتسلية والترفيه

* * *

بعد هذا أرجوك ياسيدى أن تسمع كيف يَصنع لى هذا الولىُّ الحميم ، أو هذا العدوُّ الصميم :

إننى ما غَشيت قط مجلساً هو فيه إلاَّ تغيَّر وجهه ، وحال لونه ، وتقَلَّصت شفته ، و بان الغيظ والحَنق عليه ، فاذا حيَّيتُ تثاقل فى ردّ التحية ، وجعل يتكلَّف مصافحتى تكلُّفاً حتى كأنما يَضطلع بعِبء ثقيل ، بل لقد يبتدرنى من القول بما أكره ، فأنطلق من فورى مُغضَباً مَغِيظاً ، وأنا أستشعر اغتباطه بهذا واستراحته له !

ولقد يَضمّنى به المجلس ومعنا من الصَّحب من يعرف أننى أحبهم وأوثرهم وأتّقى غضبَهم ، فلا يزال يُغريهم بى ، ويَغرس الحفيظةَ علىَّ فى صدورهم بما يَدَّعى علىّ من قول منكَر قلتهُ فيهم ، أو سعْىٍ خبيث سعيتُه لكيدهم و إيصال الأذى إليهم . فاذا حاولتُ البراءة إليهم مما اتَّهمنى زاد فى لَجاجه ، وألحّ فى احتجاجه ، وربما عزز قوله باليمين يُرسلها غَموساً غير متحرِّج ولا متأثم . ولقد يجيئنى بمن يَشهد الزورَ بين أيديهم علىَّ ليُبطل حجتى ، ويُحق التهمةَ علىّ ، فيفسد بينى و بين صَحبى

ولقد يرانى أنقُد بعض السلَع فيأبى هو إلاّ أن يَختار لى لأنه أعرف بجيّدها ورديئها ، فلا يَسعنى إلاَّ أن أنزل على رأيه راضياً أو كارهاً . فاذا تقدَّمتُ لمساومة البائع فى الثمن ، أسرع فدفعنى وتولّى هذا عنى . فاذا خلَصتُ بالسلعة وعرضتها على أصحاب الخبرة بانَ أننى قد اشتريت أردأ الأشياء بأغلى الأثمان !

ولقد يُزيّن لى المخاطرةَ على سباق الخيل ، ويؤكد لى فى قوة وشدة ثقة أنه يعلم علم اليقين أن الرابح فى الشوط الأول هو الجواد الفلانى ، وأن الرابح فى الثانى هو الجواد الفلانى وهكذا . ولا يزال بى حتى يَستخرج منى طوعا أو كرهاً من

المـال ما يَثقل علىّ ويُبهظنى ليَعقِد لى رِهاناً على بضعة جياد معاً (پارولى) ممنّيا نفسى بربح المئات من الدنانير . فاذا كان آخرُ النهار ، لم يَظهر جواد منها ولو تفقّدته بألف منظار . وأعلم أنه خالفنى فى خَطَره هو إلى غيرها من الجياد ، وإنمـا آثرنى أنا بما خسرانه مكفول ، والرِّبح فيه ألبتةَ غير مأمول !

ولقد يعلم أننى هيأتُ لنفسى بعضَ المتاع أتفرّج به وأسلّى عن نفسى ، فلا يفتأ يَتنسّم الأخبار ، ويترسّم الآثار ، حتى إذا تمّ له الوقوفُ على كل شىء ، جعـل يُعمل الحيلة ، ويتوسّـل إلى إفساد الأمر بكل وسيلة ، فيدُس علىَّ من يزعم أنه من قِبَل الصَّحب ، وأنهم قد أجّلوا جلستهم لطارئ طرأ ، وحادث فجأ ، ولقـد يدُسّه عليهم على أنه رسولى إليهم ليبلغهم عنى مثلَ ذلك . فاذا تعذّر ذلك عليه وكُشفت لى ولصحبى حيلتُه ، وظهرت دسيسته ، استَحدَث لى من الأسـباب ما ينغّص عيشى ، ويكدّر صفوى ، ويبدّل سرورى قلقاً وغماً !

وإنه ليعلَم أننى أخاف ركوب السيارة فلا أتّخذها إلا مُضطراً . فاذا ركبتها تفرّقت نفسى بين يديها لعلها تَصدِم أو لعلها تصدَم ، فتُهشِّم أو تَتَهشَّم ، وأن لسانى لا يفتُر عن سؤال السواق الهوْن والرِّفق فى المسير طَوالَ الطريق ، وإنه كذلك ليعلَم أنه ما من حَدَث من أَحـداث الدنيا يُزعجنى عنَ نَومة الظَّهيرة ، وخاصّةً فى أيام الصَّيف . ومع هذا فلقد يَقتحم علىَّ غرفةَ نومى ، وقد تعوّدت أن أنام وحدى ، ويكون ذلك منه فى بعض الساعة الثالثة بعد الظهر فى يوم من أيام شهر يوليو مثلا . وإنه ليَبعثنى من نومى وما علَلتُ منه ولا نَهلْت . فأهبُّ منزعجاً مبهوتاً مكدوداً لَقِس النفس موزَّع الفـكر . فاذا بى أراه واقفاً بسريرى فأسأله الخبرَ فى رَوعة وفزَع ؛ فيسألنى أن أُسرع فى وضع ثيابى لأننا مسافران من فَوْرنا فى السيارة إلى پور سعيد فى أمر جَلَل لا يخبّرنى خبرَه إلاّ إذا بَلَغنا سالمين !

بور سعيد ! بور سعيد ! وفى هذه الساعة ! وفى السَّيارة !

و إنه لَيُسرف فى الالحاح علىَّ بدعوى شدة حاجته إلى أن أكون معه فى هذه الطَّلبة و إلاَّ تأخَّرَت حاجتُه العاجلةُ إذا لم يفسُد الأمر كله ، فاذا اعتللتُ عليه ، وأظهرتُ شيئاً من البَرَم بهذه الرّحلة الشاقَّة الخطرة ، أقبل علىَّ فى مثل صورة المتوسّل يذكّرنى الوُدَّ القديمَ والصحبةَ الطويلة ، وهو و إن كان يتعفَّف عن أن يذكرَ سوابقَ يده عندى ، و يتعالى عن أن يمتنَّ بها و يتطوّل ، فاننى فى هذا المقام لَأذكرها وحدى من غير حاجة إلى مَن يذكّرنى . ولا شكَّ أن هذا أَوقعُ فى النفس وأبعثُ لداعية المرُوءة . وعلى هذا لا يسعنى إلاَّ مطاوعتُه . ولقد أتكلَّف الاغتباطَ بهذه الرحلة الجميلة !

ولقد يتفضَّل المولَى جلّ وعلا فَيصَل فى الأعمار حتى نبلغ مدينةَ الأسماعيلية ولم نُكلِّم كَلْماً ؛ فاسترحنا فيها ساعةً ، ثم واصلنا المسير فصرنا على ذلك الصراط المتلوّى المتأوِّد الذى لا يطَّرد فى استقامته عشرة أمتار سويّا . وقناةُ السويس عن أيمانا ، والتُّرعةُ الاسماعيليةُ عن شمائلنا ، والسيارة تَسلُكُ ما بينهما مَسلكَ الخيط من سَمّ الأبرة . فاذا كنا على هذا أومأ إلى سائقه الجبار فأطلق للسيارة العِنان ووخزَها وخزاً عَنيفاً ، فطارت كلَّ مَطار ، ما تَخشى بأسَ الأرض ولا ترهَب سَطوةَ البِحار ، وليس على يميننا إلاَّ غرَق ، ولا على يسارنا إلاَّ غرَق ، أما من قُدَّام ، فليس إلاَّ الصِّدامُ والموتُ الزؤام ، وللسيارة زفير وشهيق ، وصهيل كصهيل الجواد العتيق ! و إنَّ بصرى لَيزيغ ، و إن قلبى ليرقُص فى جوفى فأراه يَغمِز جنبى مرَّة ، ويَصُكُّ حَنجرَتى مرَّة ، و إذا استطعتُ أن أجمع نفسى فسألتُه الرفق ، أومأ إلى السائق ليزيد إذا كان فى قوة السيارة فضلٌ لمزيد

وأقول له ذاتَ يوم ، ونحن على هذه الحال : إذا كان بك أن تُهلكنى ، وتعجِّل اليُتمَ لبَنِىّ ، فما حاجتُك إلى أن تَهلِك أنت وتُعجِّل اليُتمَ لبنيك ؟ فأجابنى من فَوره بقول الشاعر ، وقد أخذ التنمُّر والشهوة إلى افتراس العدوّ من خَلقه كلَّ مَأْخذ :

« فاقتلونى ومالِكاً واقتلوا مالِكاً معى » !

* * *

هذا يا سيدى بعضُ ما يَلحَقنى من كيده وشرّه ، وذلك بعضُ ما يَنالنى من عَطفه و برّه ، أفلا خبَّرتنى إن كان هذا الرجل لى أعدَى الأعداء ، أو أصدقَ الأصدقاء ؟

إننى فى انتظار جوابك على مثل جمر الغَضى . والسلام عليك ورحمة الله

المخلص

م . . . .

* * *

(تحرير المصوَّر) يظهر لى يا سيدى أنك رجلٌ طيِّب بَلغتَ من الطيبة غاية لا يُستحبّ لك منها المزيد ! أمّا صاحبك فيخيَّل إلىّ أنه ليس بالرجل المفطور على الشرّ ، ولا بالذى يَبتغى لك الأذى والكيد لاضطِغان عليك ، وعداوة يَحملها لك ، بل إنه لقد تشتد شهوتُه إلى مداعبتك حتى بما قد يكون مَظِنَّة الخطر عليك وعليه معاً . والشهواتُ لو علمتَ فُنون . و إنى لأَكاد أَقطَع بأنه يحبك ويُؤثرك . ولا تنس فى النهاية أن الحبَّ بلاء كما يقولون . أسأل الله لى ولك العافية

عبد العزيز البشرى

أولادنا !*

تسألني يا سيّدى فى كتابك أن أصِفَ لك حُبَّ الولد ، وما مَبلَغه ، ومن أىِّ نحو هو ، وهل يَستوى فيه صِغارُهم وكبارُهم ، وذكورُهم وإناثهم ؟ وهل صدق ذلك الذى قيل له أىُّ بنيك أحبُّ إليك ؟ فقال : صغيرُهم حتى يَكبر ، وغائبُهم حتى يحضُر ، ومَريضُهم حتى يَبْرَأ ؟

وتُرى هل تختَلِف محبةُ الولد باختلافهم فى الصِّفات من الجمال والقبح ، والنَّجابة والغَباء ، وحسن الخلُق وسوء الطبع ، والنَّشاط والكسل ، والنَّجاح والخيبة ؛ ونحو ذلك مما تختلف فيه الصِّفاتُ وتتغايرُ الطِّباع ؟

وتسألني يا سيّدى أن أوضّح لك شيئاً تَبهَّم عليك فى أمر الولد : ذلك بأن حبَّهم لا شك فيه ؛ بل إن هذا الحبَّ من الأشياء الموصولة بالطَّبع والغَريزة . ومع هـذا فانك لتَرَى أكثرَ الآباء إن لم ترهم جميعاً يتمنَّون لو أنهم لم يكونوا قد رُزقوا أولادا ! فكيف يَستقيم الجمعُ بين هذا الحبّ كلِّه للولد ، و بين هذا الضِّيق كلِّه بالولد ؟ أليس من أعجب العَجب أن يَضيق الإنسانُ بأحبّ الأشياء إليه ، ويَبرَم بأشدّ ما يَكلَف به فى الدنيا ، ويتمنى أن لو لم يكن بعد ما قد كان ؟

ثم تعود فتلحّ علىَّ فى أن أُصوِّر لك هذا اللونَ من الحبّ تصويراً صادقاً واضحاً حتى تشعُر بأن لك أولاداً تحسُّ حبَّهم وتتذوّقه كما يحسّه و يتذوّقه الآباء !

* * *

أما بعد ، فلقد سألتنى شَططاً وجشّمتنى عَسيرا ؛ بل ما أراك تُجشّمنى من الأمر إلا مُحالا ! فكيف لى بأن أَصِفَ لك ما لم يقَع قطّ عليه حسُّك ، وأن أجلو على

---

* نشرت بمجلة الهلال فى عدد شهر يونية سنة ١٩٣٥

نفسك من ألوان العواطف ما لا صِلةَ لها به ولا سبب . و إن مَثَلك فى هذا لـكَمَثل من يَستوصف طعمَ الـكُمَّثرَى ، أو لونَ البَنفسَج ، أو نغمةَ العِراق ، أو رائحـةَ الياسَمِين ليُدركها إدراكَ من قد طَعِم أو رأى أو شَمَّ أو سمِع ! اللهم إن هذا الذى تُجشِّمنى يا سيدى ليس فى طَوقى ولا فى طَوق اللّغة ؛ فان هذه المعانىَ التى لا تُدْرَكُ إلاَّ بالحسّ ، لا يُمكن أن يُغنِى فى تذوّقها الوصف

بل إننى و إياك لقد نشترك فى الشعور بمعنى من هذه المعانى ، ولقد تَترقرَق فى نفوسنا بإزائه عاطفةٌ واحدة ، ومع ذلك يُعيِي علينا كِلَينا البيانُ فى جَلوها والترجمة عنها . فاذا بدا لأحدنا فى أىّ وقت أن يذكرها لصاحبه لم يَزد على أن يُشير إليه بأن يَبعثها فى نفسه و يَستحضِرها استحضارا . وتلك لغةُ الإحساس

اللهم إن جُهد اللغة فى هذا الباب أن تقرّب هذه المعانى ، لمن لم يَسبِق له أن يُحسَّها و يُلابسها ، بفُنون التشبيه والتَّمثيل : كأن يقال إن طَعمَ كذا شبيهٌ بطَعم كذا ، أو إنه بين الحُلو والحامض مثلا ؛ و إن عبير هذه الزهرة شبيهٌ بعبير ذلك النوع من الزهر لولا أنه أشدّ أو ألطف مثلا . وكل ما يمكن أن يُعطِى هذا ، مهما يعلُ بيانُ الواصف ومهما يَدِقّ و ينفُذ ، إنما هو صورة تقريبيَّة . أمَّا أن ينفُضه بالبيان على الحسّ حتى كأنما يُذاق حقًّا فذلك مِمَّا يوصَل بالمحال !

وأنت ترى أنه لا سبيل حتى إلى جَلو هذه الصورة التقريبيّة الناقصة لشىء من هذه المعانى إلاّ بردِّها إلى شىء سبق أن وَقَع عليه الحسّ ولابَسه الشعور

* * *

على هذا سأتحدَّث إليك ، يا سيّدى ، عن حبّ الولد . سأتحدّث إليك وأنا واثقٌ أتمَّ الثقة بأننى عاجزٌ أشدَّ العجز عن أن أنفُض عليك كثيراً من هـذا الشعور الذى تنطِف به كبدى فيَشيع فى جميع نفسى . ولقد تعلم أن كلمةَ الحبّ تَنطوِى على ألوان من الحسّ كثيرة قد تقترب اقترابا شديداً ، وقد تفترق افتراقاً

شديداً . ومهما يكن من هـذا الافتراق وذلك الاقتراب ، فان للحبّ فى كل موضوع كيفاً خاصًّا وشعوراً مستقلاً لا يَشرَكه فيه سواه . فللحياة حبّ ، وللجمال حبّ ، وللذّات حبّ ، وهكذا ، على أنك تحسّ لهذا الضرب من الجمـال غيرَ ما تُحسّه لذلك الضّرب من الجمال ، وتَشعُر لهذا اللون من اللّذة غيرَ ما تشعُر لذلك اللون . إذن فاعلم أن حبّ الولد غيرُ أولئك جميعاً

حبُّ الولد غيرُ حبّ الزوج ، وغيرُ حبّ الوالدَين ، وغـيرُ حبّ الأخوة وأبنائهم ؛ هو حبّ له طعم لا تذَوقه فى شىء من كل أولئك . هو مَزْجٌ من الرحمة والحنان ، ومن السعادة والجمال ، ومن الطرب والشجَى ، ومن الطُّمأنينة والقلَق ، ومن الاثرَة والإيثار ، ومن الخوف والرَّجاء . هو مَزْجٌ من هذا كله مختلِط ، يَموج بعضُه فى بعض ، فيخرُج له ذلك الطعمُ الخاصّ الذى لا يكون إلا بمجموع هذه المعانى ، وإن كان أظهر عناصره الرحمة والحنان

لعلك يا سيدى قرأتَ قول الشاعر العربى :

وإنمـا أولادُنا بيننـــا أكبادُنا تمشى على الأَرضِ

لعلك قرأتَ هذا البيتَ مرّةً ومرّة ، ولو قد قرأتَه ألفَ مرّة ما خَرَج لنفسك منه شىء مما يُحسّ له صاحب الأولاد !

نعم ، هؤلاء هم أكبادنا ، ما غابوا عنا إلاّ شعرنا بنقص فى نفوسـنا ، بل بأحسنِ مافى نفوسنا حتى يُردُّوا علينا ؛ بل إنه ما اجتمع بهم شملُنا إلاّ شعرنا بأنهم قِطَع قد فَصَلَت عن نفوسنا ، ولو قد تهيأ لنا أن نحسوها حَسواً لِنملأ بها هذا الفراغَ الذى نُحسُّه فيها لفعلنا !

ابنى معناه أنا ، ولست أريد (بأنا) كُلّى ، بل إنما أريد به عُصارةَ مافىّ من عَطف ورحمة ، وأمل وشعور بأسعد السعادة وأجمل الجمال ! ليس لحمُ ابنى ولا دمُه

وعظمُه إلاَّ هيكلا لكل هذا ، بل ليس إلاَّ رَمزاً ، بل ليس إلاَّ هذه المعانىَ قد تجسَّدت فسوِّيت على صورة الانسان ، بل إنى أكاد لا أراه إلا تلك المعانىَ مُترقرِقةً لم تُمسِكها صورةُ الانسان !

* * *

هذا ولدى الصغيرُ يَلعب بين يدىَّ ، فسَرعان ما أنسى سِنِّى وأطرح كلَّ همّى ، بل سَرعان ما أخرُج عن نفسى ، فلا أرانى إلاَّ قد رُدِدتُ طفلاً يتمثَّل فى خَلقه ، فانا الذى يَلعب ويعبَث ، وأنا الذى يُسرّ ويَغتبِط بهذا اللعِب والعبَث ، حتى إذا تعرّض لمكروهٍ فى بعض جَريِه ووثبه ، ودفعِه وجذبِه ، ثبتُ إلى نفسى فكَفَفتُ المكروه عنه ، ثم رُدِدت من فورى إلى ما كنتُ فيه !

وإذا كان قد جاءك أن أعظَم العظماء فى هـذا العالَم قد خَرجوا فى ملاعبة أبنائهم عمَّا ينبغى لهم من الجِدّ والتوقّر ؛ بل لقد يبلغُون فى هذا أشدَّ ما يَبلغ الصِّبيان من ألوان العبث ، فاعلم أنهم لايتكلَّفون هذا تكلّفاً لمجرد إدخال السُرور عليهم ؛ بل إنهم لكثيراً ما يَرون أنفسهم فى بنيهم فيستشعِرون هذه الحداثةَ ، ولا يَجدون حَرَجاً من أن يَصنَعوا ما يَصنع الأحداث ؛ بل إنهم ليَجدون فى هذا لذّةً لا تَعدِلها لذّة ومَراحاً دونَه كلُّ مَراح !

وإذا كان قد جاءك أن أعظمَ العظماء فى هذا العالم قد اتّخذوا من أَنفسهم مطايا لصِغارهم فأركبوهم ظهورَهم لا يرَون بهذا بأساً ولا يَجدون فيه حَرَجا . فاعلم أنهم وقد عجَزوا عن أن يَردُّوا كبودَهم إلى مواضعها بين ضلوعهم ، فسواء عليهم أَوَضعوها على الصدور أم وضعوها على الظهور !

ولقد ترى الرجلَ يُؤْثِر ولدَه على نفسه بالحَلوَى والفاكهة مثلا ، فلا تظنَّنَّ أنه إنما يَفعل هذا لمجرّد تفكيهه وتلذيذه ؛ بل إن نفسه هو لتتذوّقها بهذا أحلى

متذوَّق ، وتُسيغها أحسن مَساغ ، بما لا يُقاس به احتلابُها بالشفاه ، وتقليبُها فى الأفواه

* * *

هأنذا أُقبّل ولدى ، و إنى لأَجد لقُبلته من اللَّذة ما لا أجده لشىء من لذائذ الدنيا . هى لذَّةٌ فيها شدَّة وفيها رِفق ، وفيها عُنف وفيها لِين ، وفيها حَرٌّ وفيها بَرد . وفيها وراءَ ذلك حلاوةٌ لا يتعلَّق بها وصفُ الواصفين . أرأيتَ هذا الذى ألَحَّ عليه الظمأُ فى اليوم القائظ حتى استحال الظمأ فى حَلقه أُوارا ، ثم أَقبل على الشَّبِم الزُّلال فجعل يعُبُّ منه عبًّا حتى ينقَع غُلَّته نَقعا ؟ اللهم إنى لأَجد فى تقبيل ولدى أشدَّ من هذا وأحلَى وأرْوَح ، لولا أن اللذّة فيه لا تَنقضى ، والغُلّة إليه لا تَنقَع ، على كثرة العَبّ وعلى توالى الرَّشيف !

و إذا كان الماء يَروِى أُوارَ الجسم ، فان هذه القُبلةَ إنما ترِوى أُوارَ النفس . وشتانَ بينَ هذا وهذا فى مذهب الشُّعور !

هذه قُبلةٌ تتظاهر الحواسُّ كلّها على إصابتها و إدراكها ، وتتجمّع النفسُ من جميع أقطارها لتَشهدَها وتلتذَّ بها فلا يَبقَى شىء منها غائباً عنها ولا مُخطئاً لها ؛ حتى لتشعُرنَّ بأن هذه النفس تتقطَّر كلُّها على وجهه ولا يبقى منها إلاَّ رَمقٌ هو الذى يُشعِرك ما أنتَ فيه من اللذّة ومن النّعيم !

و إننى لأَسمع صوتَ ولدى الصغير فى لَغوه أو فى كلامه أو فى ضحكه ، فيُشيع فىَّ من الطرب ما لا يُشيع أَندَى الاصوات ، ولا نَغَم عُود فى يد أحذق الضار بين ! بل إنى لأجد منه ما يجد الشَّجرُ إذا نزل عليه الماء فاهتزَّ العود وضحك الزَّهَر !

ولقد تخبُث نفسى بما يشبّ فيها من الغيظ والاضطغان حتى أُحسّها تكاد تمزّق تمزّقا . فما إن أرى ولدى ، وأنا على هذه الحال ، إلاّ رأيتُها قد تطامنَت وسمَحَت حتى توشك أن تَصير نارُها إلى خُمود !

وإن أشدَّ الناس جُبناً وفَرَقاً لَيرَى ولدَه فى خَطَرٍ أو مُستهدِفاً لخطَر ، فلا تَراه إلاَّ يَنصبُّ لاستنقاذه انصباباً ما يبالى ما يُصيبُه ، بل ما يبالى أهلَكَ معه أم هلَك دونَه !

* * *

وهذا ولدى يَمرَض فهذه كبِدى تَسيل مَسَالا . وها أناذا أُجنّ ولـكننى لا أُغفَل عن المكروه غَفلةَ المجانين ، ولا أجد ما يجدون من رضى بحالهم وارتياح . وهذا حسّى يَضطرب اضطراباً شديداً بين الرحمة والألم ، والحَنان والخوف ، والاشفاق والجزَع . وإن وراءَ هذا كله لَشيئاً هائلاً بَشِعاً يتراءى لى شَبَحُه من بعيد ، فأُغمض عينى دونَه حتى لا أراه ولا أتبينّه . بل إنى إذا خلوتُ إلى نفسى لأَطلبُه وأتفقّدُه ، فاذا تمثَّل لى بكيتُ حتى استعبَرت ، فأجد لهذا البكاء راحةً مِمّا يَغمِز على كبدى ويحرّق صدرى تحريقا . بل إنى لأتمنّى على الله أن يَنقُلَ ما به إلىّ ، فإذا كان ثمتَ حدثٌ لا بدّ من أن يَجرى به القدَر ، وددت جاهداً مخلِصاً لو أننى أكون أسبقَ الاثنين

وإنى لَأذكر فى هذا المقام أننى احتَسبتُ ولداً لى كان وحيدا ، فجُنّ جنونى وفَعل بى الأَسَى الأفاعيل . وقد انتهى إلى أبى رحمةُ الله عليه بعضُ ما أَصنع أو بعضُ ما يَصنع الوجدُ بى ، فدعا بى وقال لى : بلغنى أن الجزع قد بلغ منك إلى أنك تفعل كيت وكيت . أفلا آثرتَ الاحتمالَ وتجمّلتَ بالصبر على هذا كما احتملتُ أنا وكما صبَرت ؟ فسكتّ لأننى لم أُصِب قولاً أقوله . فأقبلَ علىَّ رحمه الله وأخذ يدىّ كِلتيهما فى يديه وقال : اسمع يا ولدى ، إذا كنتَ قد حزِنت لموت فلان مرّة فلقد حزِنتُ لموته مرّتين ! فرفعتُ وجهى إليه وقلت له فى شىء من الدّعة والرِّفق يخالطهما كثيرٌ من الدهَش : وكيف هذا ؟ فقال فى لَوعة شعرتُ بما يُعانى

فى مجاهدتها : لأنه إذا كان ابنَك مرّة فانه ابنى مرّتين ! ورأيتُ الدمعَ يترقرق فى عينيه ولكنه لا يَأذَن له فى أن يتجاوز المَحجِرين . ووالله لقد سرّى هذا الكلامُ عنى كثيراً إذ قد علمتُ أننى فى هذه المصيبة صاحبُ أضعف السّهمين !

وإن تَعجَب لشىء فاعجب لهذا الإنسان الأَثِر الشّديد الأَثَرة ، الحريص على الحياة أبلغَ الحرص ، والكَلِف بها أشد الكَلَف ، والذى يوَدّ لو يمتدّ عمرُه إلى ما وراء أعمار الناس جميعا . هذا الإنسان يَفرَق أشدَّ الفرَق من أن يتقدّمه إلى الفَناء ولدُه . وإن اللذّةَ كلَّها والسعادةَ جميعَها لتتمثَّل له فى تصوّره أن ولده سيعلّله إذا شكا ، ويقلّبه إذا مَرض ، ويُغمض جفنيه إذا مات ، ويُسوّى عليه الترابَ بعد أن يُفضَى به إلى لَحده !

* * *

ثم إنك تسألنى ما إذا كان حظُّ الأبناء من حبّ أبيهم واحداً ، وأنهم كلّهم فيه بمنزلة سَواء . أم أنه يختلف باختلافهم بالصِّغَر والكِبر ، والذُّكورة والأُنوثة . فاعلم ، ياسيدى ، أنك على إغراقك فى حبّ أبنائك جميعاً ، وشمولهم بلون من الحبّ لا يَشرَكه فى مَذَاقه سواه ، فانك واجدٌ لحبّ كلٍّ منهم كذلك شعوراً خاصًّا لايَشرَكه فيه غيرُه ولا يُزاحمه عليه سواه . فحبّهم أشبهُ بالجنس عند أصحاب المنطق تحتَه أنواع . وإنك لتُصيب من التُّفاح ومن الكُمّثرَى ومن العِنب والتين وغيرها من ألوان الفاكهة فتلتذّها كلَّها فكلّها حُلو لذيذ ؛ على أن ما تجده لهذا من الطَّعم غير ما تجده لذاك ، ولله شوقى بك رحمةُ الله عليه حين يقول فى وصف الخمر :

حمراء أو صفراء إنَّ كريمَها كالغِيدِ ، كلُّ مليحةٍ بمَذَاقِ

والواقعُ أن الانسانَ لو قد حدَّ حِسَّه ، وأَرهَف شعورَه ، وراح يَتدسَّس فى

أعماق ضميره ليتفقَّد حقيقةَ هذا الاختلاف ويتعرَّف وجهه ، لرأى أن مادةَ هذا الحبّ واحدةٌ وجوهرَه غير مختلف ، ولكن سنَّ كلِّ ولد ، وظروفَه وأسبابَه وجنسَه تتناول صورةَ حبّه بالتشكيل والتَّلوين

ولقد زعمتُ لك فى بعض هذا الكلام أن حبَّ الولد مَزْجٌ من عواطفَ كثيرة أَسطعُها الرحمةُ والحَنان . فاذا كان الوليد فى المهد فانك لا تكاد تجد له إلاّ هاتين العاطفتين . فاذا تقدّمَت به الأيام حتى دَرَج وجعل يَنطِق ببعض اللفظ ، أُضيف إلى هاتين شىء من الأُنس به والطَّرب له . فاذا تقدّمَت به الأيامُ فجعل يَثب ويلعب ، ويقلّد فى بعض الأقوال ، ازداد بك هذا الأُنسُ وهذا الطرب ، وأحسستَ إلى ذلك جديداً ، هو أن هذا الغلامَ أصبح يشغَلُ من لهوك صدراً عظيما مالك منه بُدّ ولا لك عنه غَناء . فاذا تقدَّمَت به السنونَ حتى استوى للتربية والتعليم ، دخَل على كل أولئك شىء من الايثار له باجماله بالطاعة والنجابة وحسن الأَدب مع الناس ، وشىء من التأميل الرَّفيق فى أن يكون فى مستقبل شأنه من الناجحين . وكلما اطَّردَت به السنّ رَبت هذه العاطفة له واشتدّت حتى تكاد تَغمرُ سائرَ ما تجد له من الأحاسيس . فاذا اغترَب أو مرِض أو أصابه مكروه من المكروه ، عادت تانك الخَلّتان إلى سُطوعهما حتى لا يكاد يُشعر له إلاّ بالرَّحمة والحَنان ، لأن شأنه فى ذلك أَولَى بالرَّحمة والحَنان !

أرجو أن تكون قد فهمت الآنَ حقَّ الفهم الوجهَ فى قول ذلك الذى زعم أن أحبَّ بنيه إليه صغيرُهم حتى يَكبَر ، وغائبُهم حتى يَحضُر ، ومريضُهم حتى يَبرَأ . ولعلك كذلك تكون قد استخرجتَ من كلامى أنّ أسطعَ العناصر فى حب البنات إنما هو الرحمةُ والعطف والاشفاق ، لأنهن ضعيفاتٌ ما لهنَّ بِعراكِ الأيّام يَدان

* * *

ثم إنك تسألنى عما إذا كان يختلف حبّ الولد باختلافهم فى الصفات من الجمال والقبح ، والنَّجابة والغَباء ، وحسن الأدب ، وسوء الخُلق ، والنشاط والكسل ، والنَّجاح والخيبة ، وغير ذلك من الصفات

لعلّه قد وقع لك يا سيدى فى بعض ما تقرأ جوابُ ذلك الاعرابىّ الذى قيل له : ما بلغ من حبّك لفلانة فقال : « والله إنى لأَرى القمرَ على جِدارها أحسنَ منه على جُدران الناس ! »

لقد ترى أن هذا الأَعرابىَّ كذَب أشد الكذب ، لأن القمر على جدار صاحبته كالقمر على جُدران سائر الناس . ولقد تراه صادقاً أتمّ الصّدق لأنه يَرَى القمرَ على جدار صاحبته أحسنَ منه على جدران سائر الناس . وكذلك الولد فانك لاتكاد ترى فيهم إلاّ جميلا . أو على الأقل إنك لاتكاد تلمَح عيوبَهم سواءاً كانت خِلقية أم نَفسيَّة إلاَّ بعد شىء من التأمّل والتفكير . أما ما دُمت تُرسل النظرَ فيهم عَفواً بلا تعمّل ، فانهم عندك أحسنُ الأولاد ، ذلك بأنك إنما تنظر إلى كبِدك ، أو على الصحيح إنما تنظر إلى نفْسك . وأنت خبيرٌ بأن المرءَ قلَّ أن يتفطّن إلى عُيوبه ، ولو قد تفطّن إلى شىء منها فان أمره لا يَتعاظَمه كما يتعاظَمهُ مِثلُه فى غيره من الناس . وكذلك ترى الرجلَ لا يُنكر من بنيه بعضَ ما يُنكر من غيرهم من الأبناء ، إذ كان يَقدِر هؤلاء بالعقل والفكر . أما أولاده فانما يَقدِرهم بالعاطفة والهوى ما يكاد يُلابسهما تفكيرٌ ولا تدبير

نعم ، لقد يكون فى الولد عيبٌ خِلقىٌّ واضح . ولقد يُصاب بالآفة من شأنها أن تُثقِله عن السّعى فى الحياة . ولقد يبلُغ من انحراف الطبع وفساد الخلق وسوء الأدب أقصَى الغايات والعياذُ بالله . فان موقعَ ذلك من نفس أبيه ، وحظّه من التقدير عنده أضعف من قَدره فى الواقع ومن قَدره عند الناس ، وإن ذلك

لِيَسوءه بالضرورة ، وقد يكدّر عليه عيشه ، وقد يَهيجه و يثير على الولد سخطه ، قد يبلغ ذلك به كلّ هذا ، ولكنه لا يحُطّ من حبّه لولده و إيثاره له على أيّ حال . بل إن ذلك منه لدليلٌ على هذا الحبّ والإيثار . فما ساءه ولا كدّر عيشَه ولا أحنقه ولا أسخَطه إلاّ الرحمة له ، والشفقة به ، والأسى على أنه لم يكن من أسعد النّاس أو أنه لا يكون أسعدَ النّاس

بل إن الوالد لقد يَتمنَّى الموتَ لولده فى بعض الحِين ، لا بغضاً له ولا اضطغاناً عليه ، ولكن رحمةً به وشفقةً مما يَجنى عليه سوء أَخلاقه حيثُ لا رَجاء فيه لخير ولا لصلاح ؛ فشأنُه فى هذا شأنُ من تَضربُ العلة أعزَّ الناس عنده وأكرمَهم عليه ، العلةُ المعنِّيةُ الشديدة الإلحاح بآلامها و بُرَحها ، والتى لا يعرف الطبّ لها شِفاء ، ولا منها نَجاء . و إنه ليَتعجَّل له الموتَ رقَّةً له و إيثاراً له بالاستراحة مما يُعانى من هذا العذاب الشّديد ، على حين أنه أشدُّ الناس لموته جزَعا ، وأعظمُهم منه ورَعا و إشفاقا !

* * *

وأخيراً أراك تسألنى كيف يَستقيم الجمع بين حبّ الولد إلى هذا الحدّ وتَمنِّى أكثر الناس لو لم يكن الولدُ بعد أن قد كان ؟

ولستُ أشكّ ، يا سيدى ، فى أنك إذْ كنت تصوغ هذا السؤالَ قد قدرت الفرقَ الواسعَ بين تَمَنّى أن لو لم يكن الولد ، وتمنِّى هُلْكه بعد أن قد كان . فاعلم إذن أنه ما يُشَبُّه لهذه المُنيَة إلا غلوُّه فى حبه والرّقة له والشفقة به مما يَلقَى أو مما عسى أن يَلقى فى هذه الحياة من علل وأَسقام ، ومن بُرَح ومن آلام . على أنه وقد خرج إلى الدنيا فلا يكون له من أبيه إلاّ ما جلوتُ عليك بعضَه فى هذا الحديث ، فلقد تعاصى علىّ أَجَلُّه

* * *

وبعد ، فما أرانى بعد هذا كلّه بلغتُك ما تحبّ ولا جليلاً مما تحبّ ، بل إنى لأخشى ألاّ أكون قد بلغتُك شيئاً أبداً ! على أنى أدلّك على من يَستطيع أن يَصف لك ما استوصفتَ فى أوضح صورة وأدقّ تعبير ، حتى يَتهيأ لك أن تتذوّق حبّ الولد فى جميع صوَره وأشكاله . وليس يُجشّمك طلبُ هذا إلاّ أن تُسرع فَتبنِي عسى أن تُرزَق أولاداً . فهؤلاء الأولادُ وحدَهم هم الذين يستطيعون أن يُجيبوك إلى ماسألتَ أبرعَ إجابة . ويصوّروا لك هذا الحبَّ أصدقَ تصوير !

هو ... *

لا يَشغَل من هـذا الفَضاء حيِّزاً كبيراً ، فانه دَقيقُ الجرم ، لطيفُ الحجم ، يُخيَّل إليك أنه لا يُثبته لمهَبّ الهواء إلاّ رُجحانُ عقله ورسوخُ عزمه ، وإلاَّ فلو قد خُلِّيَ ، على هذا ، بينه وبين خِفّة روحه ورِقّة شمائله ، لاستحال معه نَسَمَةً من النسم

مهما يَكرُثه(١) من الأمر وتَشط به صائلاتُ الفِكْر ، فانه لا يطالعك إلاَّ بوجه مَبسوط لا أثر لعُقدة فيه ، بل لقد يُقبِل عليك فوقَ ذلك بالحديث الفَكه ليُؤنسك ويُذهب وحشتَك ، ويُفرخ رَوعك إذا كنتَ غيرَ كُفء لمجلسه . بل لقد يَستدرجك إلى الحديث ويُملِي لك فيه(٢) ، ويُحسن الإصغاء إليه ، ويُظهر الاحتفالَ له ، مهما يكن سخيفاً يجرى فى تافه الموضوعات ، بحيث يُشعرك أنك تَنضَح على سمعه جديداً عليه يفيده علمه به ، حتى لتغلُونّ فى هـذا الشُّعور ، فما تفارق مجلسَه إلاَّ وقد خِلتَ أنك أسلفتَ إليه بحديثك يداً !

متواضعٌ شديدُ التَّواضع لا يُضيف فضلاً لنفسه ، ولا يَدُلّ على أثر لفضل . بل إنه لشديد الاجتهاد فى أن يتمثّل لك فى صورة آحاد الناس . ولقد يُجيد سَبكَ هذا حتى يَجوز أمرُه عليك فتحسب حقّاً أنه مثلُ سائر الناس . فاذا كان الحديثُ فى علم أو فى أدب أو فى فنّ أو فى استجلاء وجه الرأى فى العظيمات ، فهنا لا يَستطيع

---

* هذه القطعة من مذكرات الكاتب فى سنة ١٩٢٦

(١) يقال كرث الغم فلاناً وأكرثه : اشتد عليه وبلغ منه المشقة

(٢) يقال أملى البعيرَ وأملى له : أرخى له ووسع فى قيده . والمراد هنا تيسير الحديث للمتحدث

أن يكتُمك نَفْسه . فهيهات لامرئ أن يكفَّ ما تجرى به الأقدار ، على أن عبقريَّته إذا فَضَحته برغمه وكَشَفت عن حقيقة شأنه ، فانه لا يَبرح يُواريها بشدة التواضع والرِّفق فى مضارب الحجة لكيلا يروعَك عُظم خطئك ، ولايهولنك مَدَى ما بينك و بين الصواب . وما إن تراه يقول لمحدِّثه أخطأتَ أو عدوتَ الرأى ، بل لقد يُدارجه فى بعض القضيّة ، ثم يلوّح له بالرأى فى حواشى القول تلويحاً ، حتى إذا شامه عدَل إلى طريقه وكأنه تَهدَّى إليه من تلقاء نفسه ما قاده إليه أَحد . ووالله لكأن أبا تمَّام كان يَعنيه هو بظهر الغيب حين قال :

جَمُّ التَّوَاضُعِ والدُّنيا بسُؤدَده ... تَكادُ تَهتزُّ من أَطرافِها صَلَفَا

أخذ نفسه بأَعلى قواعد الأخلاق ، فلا يَصدُر إلاَّ عنها فى كلّ سَعيه ، يستوى فى ذلك الدقيقُ والجليل من عامّة شأنه . وإنك لتراه إلى هذا شديدَ التجمُّل للناس عظيمَ التصبُّر على مكروههم . فلا يَجبَه إنساناً بكلمة السُّوء ، ولا يُعيِّره عيبَه ، ولا يَعنُف فى العتاب ، إن هو عاتب ، على مَساءة لحِقَته ، بل لقد يَصوغ هذا فى الكلمات الخِفاف اللِّطاف تمضى هيِّنةً رفيقةً ما تُثير أَذًى ولا تُسيل جُرحا . وإنه حتى لَيفعل هذا وهو مُستَحْيٍ غاضُّ البصر ، كأنه هو الذى أساء ، وأنه هو الذى يَعتذر !

رَزَقه اللهُ عِفَّةَ النفْس وعفَّةَ اللسان وعفةَ الرأى معاً . فلا يَحدِر طرْفَه إلى ما ليس له ، ولا يَستكثِر نعمةً دخَلت على إنسان مهما يَجل قَدرها ويَدِقَّ قَدره ، ولم تُحصَ عليه قطّ كلمةُ سوء رَمَى بها غائباً . ولقد يَجيئُه أن فلاناً هَتَف به بما لا يُحبّ ، فلا يَزيد على أن يَتقبَّض وجهُه ، وتَتقلَّص شَفته ، ويُومئ بالأسف إيماءةً خفيفة دقيقة ، ويعود سريعاً إلى طُمأنينة نفسه واستراحة عصَبه ، وهذا إذا كان من يَلمزه ممن يَعنى شأنُهم . وإلاَّ فلا يكون منه شىء أبداً !

وأمَّا عفةُ رأيه وتفكيره ، فان هوًى أو شهوة ، أو طمعاً فى نفع ، أو مصانعة لذى سلطان ، أو تعلقاً بالفَلْج[١] ، وقهر الخصم إذا استُكره على الجدَل ولم يكن له منه بُدّ — اللهم إنه لا يمكن لشىء من هذا ولا لغيره أن يَغُضَّ من عفة تفكيره ونزاهة رأيه ، كأنما يتعاظمُه أن يسطو بهذه الحجة القارحة ، التى آثره الله بها ، على الحق . على حين أن الأكرمَ لها والأجدرَ بها أن يُسلِّطها على الباطل فتكسّرَه تكسيرا ، وكأنى به يَأبَى إلاَّ أن يُحصِّن هذه النعمةَ الجليلةَ على الزوال إذا هو بَطِرها فأنفَق منها فى غير إظهار الحق ، وفى غير ما يرضى الله !

***

ضَخمُ العقل والذَّكاء ، ضَخمُ العلم والتفكير . يَنال بالنَّظرة الأولى مالا يَنال غيرُه إلاَّ بشدّة الجهد والمُطاولة ، وطول التفكر والتدبير ، بل لقد يُدرك بهذه النظرة مالا يُدركه غيره إلا بقائد ودليل . فهو رجل كأنه قد سَفَرت له وجوهُ الحقائق ، وبَذَلت لعينيه ذات السرائر ، ونَفَضَت بين يديه ما أَجنَّت فى أطواء الضمائر . فما يَغيب عن لحظِه خافيها ، بل لقد أضحى أدق نَظَريِّها[٢] لعلمه بَديها ، وكأن المتنبى قد عناه بلحظ الغيب حين قال :

ومَن خُلقَت عيناك بين جُفونه أصاب الحدُورَ السهلَ فى المرتقَى الصّعب

فاذا جاءك ، بعد هذا ، أنه أدقُّ النَّاس تفكيرًا ، وأعمقُهم بحثاً ، وأكثرهم إصابة ، فلا يَروعنَّك مع هذا أنه أكثرُهم إنتاجا وأوفرهم آثارا . فقد رأيتَ أن عبقريتَه لا تَعيا بشىء ، ولا تَجهَد فى الطلب بطول الاستقراء والاستخبار . وما

---

(١) الفلج : الغلبة على الخصم

(٢) النظرى فى عرف علماء المنطق ما يحتاج إلى نظر واستدلال ، أما البديهى فهو الذى لا يحتاج فى إدراكه إلى ذلك من ذلك

حاجتُه إلى هذا وقد راض الله تعالى لذهنه الحقائقَ و يسّرها له ، حتى لكأنها هى التى تتزاحم لديه ، وتتهافت عليه ؟

* * *

كريم الطبع ، سَمْح النفس ، عالى الهمّة . ما عاذ إنسانٌ بجاهه إلا أعاذه ما دام أهلا للبرّ والعَطف ، و إنه ليُسأَلُ المعروفَ فيعد وعداً فاتراً متحيّرًا بين الأسباب والعلل ، فتنصرف عنه وقد يئست اليأسَ كلَّه من برّه بك وسعيه لك ، ثم لا يروعك إلاّ أن تعلم من غيره أنه لم يُبق فى قَوس الهمّة والجِد فى السعى مَنزعا ، حتى يصل شأنَك أو يقطع برده القَدَر . يفعل هـذا وهو حريص أشد الحرص على كتمانه عنك ، حتى لا يثقل عليك بالشعور بالمنة لطول ما جَهد لك وأبلَى فى شأنك . ولقد تتقدم إليه لتشكره ، وقد تَعتِب عليه إسرافَه فى بذل جهده فيعاجلك بصرف الحديث إلى شىء آخر . فاذا أَلححتَ فيما كنتَ فيه وأبيت إلاّ ترديداً له ، هوّن الخَطب عليك وأكد لك أن أمرك لم يُجشمه من الجهد كثيراً ولا قليلا ! يقول هـذا مقالَ الواثق المطمئن الذى لا يتكلّف شيئاً فى إخفاء يده وانكار فضله !

* * *

هـذا (هو) وتالله ما يمنعنى من التصريح عن اسمه إلا اتقاء غضبه ؛ فتلك لعمرى التى لاهَوَادة لغَضْبته فيهـا ولا إسجاح[1] . على أننى غنىٌّ عن أن أُسمى الشمسَ ليعرِف الناسُ أَنها الشمس

ألا ذلك فَضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يَشَاء ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم .

---

(١) أسجح : أحسن العفو



شاعر الجمال المرحوم اسماعيل باشا صبري

اسماعيل صبرى *

رَحم اللهُ إسماعيل ، وعوّضنا من أدبه الحُلو حسنَ العِوض

لقد كان مودِّعُ الأمس قطعةً شعريةً نَظَمَتها الطبيعة ، فأجادت فيها أيّمَا إجادة ، وأبدَعت أيّمَا إبداع !

جادت به الطبيعةُ كما تجود بالزَّهرة المُونِقة ، والنَّسمَة اللّيِّنة ، والجَدول العذب النمير !

ما حسِبتُ قطّ أن صبرى تَكلَّف الشِّعر يوماً أو شمَّر له ، أو جلس يَتصَيَّد للقريض فنونَ المعانى ، ويتخيَّر لها مُشرِقات الألفاظ :

هذه الوردةُ تنفُث العِطْر . وهذا الغَمامُ يَجود بالقَطْر . وهذا صَبرى ينطق بالشعر !

هذه القَمَارى يُطربُك تنغيمها وتغريدُها ، وهذه بناتُ الهديل (١) يَشجيك سجعُها وترديدها . أفرأيتَ واحدةً منها تكلَّفت الغِناء ، أو أراغت (٢) به التَّطريبَ والإشجاء . أو عَمَدت إلى تقليب حَلقها فى ضروب اللحن وأشكاله ، من خفيف أهزاجه وثقيل أرماله ؟

* * *

كنت أصحبُه ، رحمةُ الله عليه ، نتمشَّى فى أقطار الجزيرة ، ننعَم برياضها وجداولها ، ونَتفرَّج بين أدواحِها وخمائلها . حتى إذا امتلأت عينُه من نَضير أنوارها ، وأنفُه من عَبير أزهارها ، وأُذنُه من هَدير أطيارها ، انطلق هو الآخر

---

* نشرت فى جريدة السياسة بعنوان (ليالى رمضان) فى مايو سنة ١٩٢٣ عقب وفاة المرحوم اسماعيل باشا صبرى . وقد زاد فيها الكاتب فى مجموعته بعد ذلك

(١) بنات الهديل : الحمام (٢) أراغ الشيء : أراده وطلبه

يَتغنَّى بالبيتين أو الثلاثة من الشِّعر ، وهنالك تَتَشابه علىَّ صنعةُ الطبيعة وصنعةُ الشاعر ، فما أدرى أأرى زَهراً من الشِّعر ، أم أسمَع شِعراً من الزَّهر . وكذلك كان يَنظم الشِّعرَ إسماعيل !

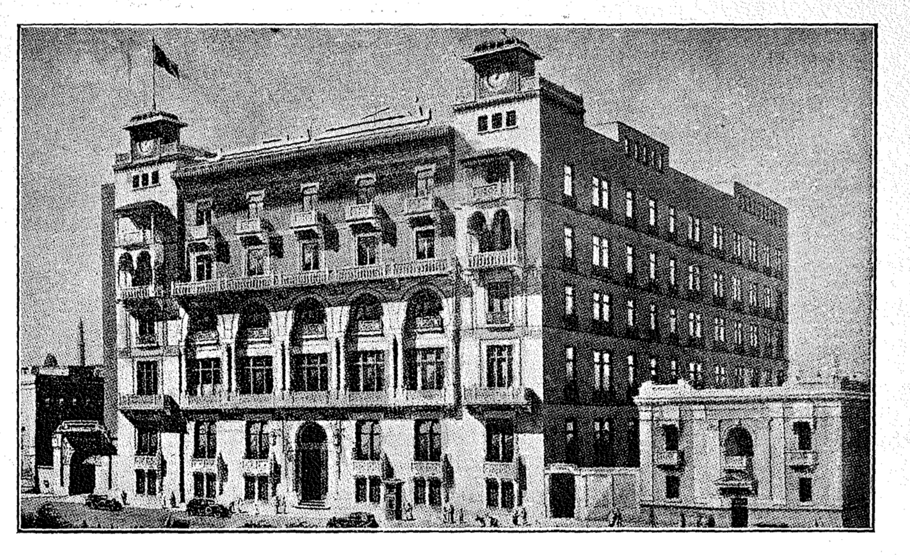
ينفُض عليك إسماعيلُ هذا الشِّعر فلا ترى أنه جاءك بجديد عليك ، وإنما جاءك بشىء متَّصل بحسّك ، قائم فى قَرارة نفسك . وهو لا يَعتريك به من مَخارج سمعك ، وإنّما يعتَريك بهِ من مَداخل طبعك . حتى ليخيّل إليك أنك أنت صاحبُ هـذا القول دونَه . فاذا كان له فى الأَمر فَضل ففى أنه عَرَف كيف يتدسَّس إلى أطوء قلبك ، فيجلو عليك ما أعْيا تَصويرُه على بيانك

اللهم إن جُهْد شعر الشَّاعر أن يحرّك فى الناس ألوانَ العواطف ، أمّا شِعر هذا الرجل فانه فى ذاته عواطف تَعتلج فى السُّطور ، كما تَعتلج العواطف فى الصدور ، وإنه لَيُشعِرك بما يَجول فيه من رِقَّة ورحمة ، وبُرحة هَوى ، وحُرقة جَوى ، حتى ليكاد يُريك دَمعة الثاكل ، ويُسمعك أنَّة المجروح !

فيالله ! ما أروعَ هذا الذى يَقبِض بيده على العواطف المترقرِقة فى الصدور ، ثم يَصوغها شعراً يقرؤه الناس !

* * *

وبعد ، فاذا تسلّل شعرُ صبرى إلى حَبَّـــة قلبك ، وملك عليك مَنَازعَ نفسك ، وأشعرَك من صُوَر الجمـالِ مالا يُشعرك كلامُ الناس ، فلا تقل أجاد صبرى ، ولـكن قل تبارك اللهُ أحسنُ الخالقين !



واجهة بنك مصر بالقاهرة

بنك مصر *

لا أحاول فى هذا المقال ، وهَيهاتَ لى ، أن أجلوَ عليك صورةً كاملةً لتلك البَنِيَّة العزيزة التى أقامها (بنك مصر) فى شارع عِماد الدِّين لتكون مثوًى له ، ولما يَرفِده من الشركات فى القاهرة . وكيف للُغة بأن تتناول مالم يَجْرِ على مثال ، ولا وقعت عليه العيونُ ولا تعلّق به الخيال ؟

ولقد كنا نقرأ أقاصيص (ألف ليلة وليلة) وما افتَنَّت فيه من الأَخْيِلة فى وصف مجالس الملوك إنسِهم وجِنِّهم ، وكنا نقرأ ما جاءت به السِيَر من حديث قصر غُمدان ، و إيوان كِسرَى أنو شروان ، وما حوى الخَوَرنَق والسَّدِير ، وما أبدعَ الفاطميونَ فى القصر الكبير والقصر الصغير — كنا نقرأ هذا فلا نَمثَّل إلاّ رُكاماً من الذهب والفِضّة واليواقيت واللآلئ وغيرها من ثمين الجوهر . ثم يُقبل البناؤون فيدُوفون(١) هذا بهذا بعد أن يُعالجوه بالطيب والعنبر ، و بالمسك الأَذفر(٢) ، حتى إذا عَلِكت(٣) هذه الطينة ، رَفعوا منها قصراً ذا شرفات وكُوًى ومقاصير و إيوانات وأَبْهاء !

هذا الذى تَنفُضُه عليك أخيلَةُ القُصَّاص من صفة القصور الدائرة ، فى الأَعصُر الغابرة . فاذا أنت انبعثتَ من النوم ، وشخَصت على قدميك ، لا على جناحى خيالك ، إلى تلك البَنِيَّة التى أقامها (بنك مصر) ، فسَرعان ما تتفقّد نفسَك ،

* كان الكاتب قد دعى لمشاهدة هذا البناء عقب الفراغ منه ، فكتب له هذا الوصف وأرسله فى جريدة السياسة فى ٦ يونيه سنة ١٩٢٧

(١) دافه : أذابه فى الماء وخلطه (٢) الذى اشتدت رائحته (٣) صارت لزجة

وتَجُسّ مواقع حسِّك ، لتعرف أَهَبَبْتَ من النَّوم أم عَقَد جَفْنَكَ المنام ، وكان حقًّا ما تَرَى أم كان حُلماً من الأَحلام !

لم تَقُم فى هذا البناء كله لَبِنَةٌ واحدةٌ من الذهب ولا أُخرى من الفضة ، ولا رُصِّعت جُدُره بشىء من الدرّ ولا من اللؤلؤ . ولا ضُمِّخت[1] حوائطه بالعنبر ، ولا تدلّت من سقوفه معاليقُ الجوهر ، على أنه يملؤك من رَوعة وجمال ، لم تَستشعرها دَهرَكَ فى حقيقة ولا خيال . إنما هو المال والعلم والذَّوق ، تَظاهرَ ثلاثتُها على إخراج هذا البِدع كله . وما شاء الله كان

دَعْك من ظاهر هذا البناء ، فلقد تجِد له فى البَنِيَّات أشباها ؛ على أنه أوفَى على الغاية من الفَخامة والإحسان . وخُذ بنا فى جَوفه ، فهناكَ يَنفغِر الفم ، ويتحير النظر ، ويَتعلّق النفَس ، ويَزيغ اللُّب فى هذه الفتنة

يستقبلك من الباب مِصراعان عظيمان طُبِعا من الصُّفْر ، قد جالت فيهما أمهرُ الأيدى بأدق النَّقش وأحسن التزيين ، فتراه كله قائماً على أشكال هندسية بديعة مفرّغة فى مَتْن المصراع تفريغا . فاذا جُزته وصِرتَ إلى المدخل فرفعتَ النظر إلى حوائطه كاد ينزلق عليها ، لشدة ملوستها ، انزلاقا ؛ فقد كسيَت بالمرمر الأَملد من الصَّبْح[2] واللؤلؤانى ، تمشَّى فى صفحتها جداول دقيقة من الخضرة ، حتى إنها لتُمثِّل لك عروساً صَقلَت عارضها حتى تم إشراقُه ، وشفَّ جِلدُه فبانت من دونه أعراقه

وتجد بين يديك سُلَّماً أىّ سُلَّم ! لقد اقتلعه (بنك مصر) صخَراً من جبال أُسوان من ذلك (الجرانيت) الأحمر الصُّلْب الذى تراه فى تماثيل قدماء المصريين ؛ ثم بَعَث به إلى ألمانيا فنُحِت وسُوِّى دَرَجاً عظيما مؤطَّراً بأبدع النقوش

---

(١) ضَمَّخ ثوبه بالطيب : نضحه به

(٢) الصبح بفتح الصاد وسكون الباء : لون يضرب إلى الحمرة

بنك مصر بالقاهرة — صالة البنك

فاذا أنت ارتفعتَ على هذا السُّلَّم حتى غايتِه ، فأنت فى بَهْوٍ عظيم يَترامَى فيه النظر . فيكون أول ما ينطق به اللسان : ما شاء الله كان ! وأول ما يجول به الخاطر الندامة على أن ليس لك فى كل جارحةٍ عين ، ففى كل شِبْر بدع ، وفى كل فِتر إحسان ! وهيهات أن تَحُطَّ بصرَك على موضع فى سقف هذا البَهْو ، أو فى أرضه أو فى جُدُره أو عَمَده وكل ما قام فيه ، فهان عليك أن تحوِّله عنه من جمال ومن إبداع !

وقد سُقِفَت حواشى البهو الأربع بسقوف تَعتمِد على جُدره من جهة ، وعلى عَمَد من المرمر الأصفر مربّعةٍ من الجهة الأخرى . وأما بُهرَته[1] فقد ارتفع سقفُها إلى مَدَى الطابق الثانى . وهذا السقف كله مؤلَّف من قِطع مربّعة من البلَّور افتنَّت فيها أيدى الصُّناع بمختلف الأشكال فى مختلف الألوان . فخرج من هذا الاختلاف ، أحسن الاتِّساق وأحكم الائتلاف . فاذا رفعتَ النظر إليها خُيِّل إليك أنك فى يوم عُرسٍ تبارت فيه الكواعبُ الحِسان ، من كل مكحولة العين وكل مخضوبة البنان

وإن كنت قد غَشِيتَ دارَ الآثار العربية فاقتطفتَ نظرةً من تلك القناديل الزجاجية التى خلّفها الفن الفاطمى . فانك ولاشك ستتخيَّل أن هذه القناديل قد صيغت من الجوهر قُرطاً ، وأُرسلت فى هذا السقف حِلية ونُظِمت فيه سِمطا

وأما تلك السُّقوف التى قامت على حواشى البهو ، فقد قسموها مربَّعاتٍ أيضاً ، بحيث يتناهى عَرَض كل مربَّع إلى مدى ما بين العمودين ، وأجرَوها كلَّها على الطراز العربى ، فحدِّث ما شئت بلسان الذوق الجديد عن جمال الفن القديم . فبعد أن أبدعت الصُّناع فى حفرها وتكريشها طوعاً للأَشكال الهندسية

(١) البهرة من الزمان والمكان : وسطه

المقسومة لها ، عادت عليها تُكَفِّتها بالفضة ، وتموِّهُها بالذهب ، وتُشَجِّرها بأزهى الألوان ، من أخضر ناضر وأصفر فاقع وأحمر قان

والعجب أن لكل رُقعة من رِقاع تلك السقوف رسماً خاصًّا ، تجرى فيه ألوانٌ خاصة ، فى أشكال خاصة ، وكلها مع هذا عربىٌّ لا تدرى أيها أجملُ وأحسن ، وأيها أبدع وأفتَن . فلا يسعك أن تنصرف عنها إلا وأنت تردد قول شوقى :

حمراءأوصفراءإنَّ كريمَها   كالغيدِ كلُّ مليحَةٍ بمذاق

وقد فُصِل بين حواشى البَهو و بين بُهرَته بحِجاز قائم على مُسامَتة تلك العمَد يرتفع إلى نصف القامة ، ليقوم عمال المصرِف من خلفه على قضاء حاجات الناس دونَ أن يُداخلوهم . وهذا الحِجاز كله قد اتخذوه من المرمر الأبيض ، نُحِت على صورة أَنصاف دوائر بارزة متجاورة ، تقوم أطرافها على سُوق من المرمر الأسود . وقد بُسطَت عليها مناضدُ صفيقة من المرمر الأصفر ، مُدَّت فى داخل حواشى البهو مِهاداً لأسباب عمال المصرِف ، ومتكَأً لأَذْرِعة المتمثِّلين إليهم من الناس .

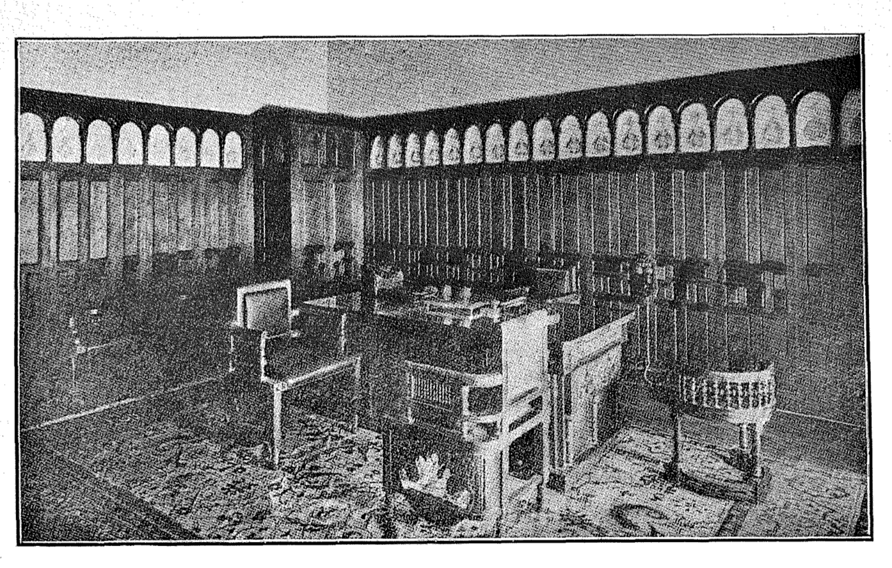
ومن فوق هذا السقف طابقٌ آخرُ له ما للأول من دقة فنّ وروعة جمال . وهو يُشرف على بُهرة الإيوان من أقطارها الأربعة . وترى من فوق كل عمود من تلك العمَد المربّعة التى حدَّثتك عنها عموداً أسطوانياً قد أَحسنت يدُ النحات فى قاعدته وهامته أيَّما إحسان ، وأفتنَّت فى نقشها أيَّما افتنان

أما أرض الإيوان فاذا لم يحدثك أحد أنها من الرخام ، فقد خلتها فُرِشت بجلود الصِّلال[1] أو بالوشى الصَّنْعانى نُمنِم بمثل أكارع النِّمال . أو أنها لَوحٌ كُفِّتَ بالذهب ، أو كأس علاها الحبَب[2] !

---

(١) الصلال جمع صل بكسر الصاد وهو الحية

(٢) الحبب بفتح الحاء والباء : الفقاقيع التى تعلو الماء أو الخمر



بنك مصر بالقاهرة — غرفة أحد حضرات مديرى البنك

وقد انتهى إلىّ أنهم جاءوا لها بقِطَع الرخام من إيطاليا وألمانيا وأمريكا حتى يَتِمّ لهم ما قدّروا لها من جمال يتحيّر فيه الطّرْف ، و بِدع يعزّ على كل وصف

وهناك غُرفٌ ومقاصير ، وهناك دهاليز وسَلالم ، وهناك فُرُشٌ ممهودة ، وأرائكُ ممدودة ، وثُريّاتٌ منضودة . وهناك طُرَفٌ وتُحَف ، وأشياء وأشياء إذا وعتها الأفهام ، فهيهاتَ أن تتعلّق بوصفها الأقلام

والعجيب أنك واجدٌ فى كل رُقعة لوناً من الحسن يخالف ما تجد فى أُختها ، ونوعاً من الفنّ غير ما ترى فى التى تَليها : على أنك واجدٌ بينها كلِّها أوثقَ الاتصال وأحكم الاتِّساق . وكذلك شاءت عبقريةُ الفنّان العظيم الأستاذ أنطوان لاشاك بك[1] أن تُلحِّن فى هذه البَنيَّة دَوراً موسيقياً بارعاً ، مهما يتنوّع فى ضروبه و يتلوّن فى أنغامه ، فكلّها مؤتلفٌ فى قراره مُتّسق فى قوامه

* * *

هذا ما واتانى به القلم فى مدخل هذا البناء الجديد و بَهوه العظيم . أما باقى تفصيلاته ، ووصف سائر طبقاته ، فإنى أدع هـذا لغيرى ، فقد جُهِد بى وجَفّ فى يدى القلم

---

(١) هو المهندس المقتدر الذى وضع تصميم بناء البنك ، وأشرف على العمارة ، كما تولى أمر الزخرفة

الباب الثالث

فى التراجم

رشدى باشا *

لست أحاول فى مثل هذه العُجالة أن أجلو على القارئ الكريم صورة كاملة لرشدى باشا ، أو أن أترجم لهُ ترجمةً وافية تكافئ عظمتهُ العظيمة ، فإن من فتنة الدّعوى أن تظن أن مثل حسين رشدى كله يجتمع فى مقالة أو فى مقالات ، إنما هو من أولئك الأفذاذ المعدودين — إن لم يكن فى العالم كلهِ ففى الشرق على الأقلّ — فما أخلقَ رشدى بأن يتجرد لبحثهِ وتحقيق عبقريتهِ نفر من علماء النفس والتاريخ ، وإذن لخرجوا منهُ كلّ يوم بعظيم

سأتحدث فى هذا المقال عن رشدى لاحديث باحث محلل يردُّ غرائزه القوية إلى مناجمها من قضايا علم النفس ، ويصل كل ناحية من نواحيه بأترابها فى عظماء الناس ، ولكننى أروِى عنه حوادثَ متفرقةً شهدتُها كلَّها بنفسى أو تروّيتها عن الثقات الذين لا يترقرق الشكّ حول خبرهم ، ولربما عرضت لبعضها بشىء من التحليل ، على أننى فى ذاك أتحرّى أن أجمع كلّ حادثة إلى أختها ، وأضمّ كل واقعة إلى مايشابهها ، حتى يمكن أن يَتسِق من هذه الأمشاج هيكلٌ لرشدى باشا إذا كان ضئيلاً فهو صادق على كل حال

---

* نشرت فى مجلة المقتطف (مايو سنة ١٩٢٨)



المرحوم حسين رشدى باشا

نشأته :

رشدى باشا ، على أنهُ نشأ فى الحسب لأنهُ ابن محمود باشا بن دبُّوس أُوغلى ، أو طَبُّوزْ زاده الكبير ، إلاَّ أنهُ لم يَنجُم فى الغنى ولم يَتقلَّبْ فى صَدْر شبابهِ فى النعمة التى يتقلب فيها من تَسلسَلوا من مثل بيتهِ . ولقد شَخَصتُ إليه يوماً مع المرحوم والدى لزيارتهِ وهو رئيس وزارة فجعل يتحدّث بنعمة الله عليه ، وكان مما قال : إنهُ كان طالباً فى باريس فمات والدهُ المرحوم محمود باشا دبوس أُوغلى ، وإذا كلُّ ما تركه لبنيه الخمسةِ (ثلاثة أولاد وبنتين) ستمائة (بنتو) خرج حسين منها بمائة وخمسين كانت هى كل مادتهِ لطلب العلم وللعيش الجاهد فى باريس . فانظر كيف عانى هذا الشّابّ فى صدر العمرِ ، وكيف كافح الشّهوة والأيامَ ليعيش فى باريس بمائة وخمسين (بنتو) لا يَرفِدها إلاَّ نصيب كمصَّة الوَشَل[1] فى وقف دبوس أُوغلى الكبير . ويَصبرِ على هذا العيش ويروض النفسَ لهُ فى طُمأْنينة ورضا حتى يَظفرَ (بالدكتوراه) ويسبِق فى الامتحان لداته جميعاً !

ولقد كان رشدى باشا لعوباً طروباً ، فكان يمضى عامَهُ الأَطول فى لهو الشَّبابِ وفى عبث الشباب ، قل أن يَحتجِز[2] لمذاكرة الدروس ومراجعة الأساتيذ ، حتى إذا كان بينهُ وبينَ أوان الامتحان شهران مضى إلى الحلاَّق فسألهُ أن يَحلِق رأسهُ كلَّهُ بالموسَى لكيلا يَجْرُؤَ على أن يتدلّى بعدها فى الشوارع أو يَغشَى الملاهى العامّةَ . وانقبض هذين الشَّهرين فى غرفتهِ مُكبًّا على الدرس جاهداً فيهِ ، حتى إذا تمثل إلى ممتحنيهِ لم يقنع بأن يكون طالباً ناجحاً فحسب ، بل لقد تعمَّد مُطاولتَهم والولوغَ بالتَّفنيد فى قضاياهم ، وانتهى بهم أو انتهوا بهِ إلى الحكم بأن هذا التلميذ

---

(١) الوشل بفتح الواو والشين : الماء القليل

(٢) احتجز : اجتمع

غيرُ ما خبروا من التلاميذ ، وأن هذا الذكاء غيرُ ما عرفوا من الذكاء !

فقد خرج لنا من هذا أن رشدى من يوم تدلّى إلى الدنيا تدلّى إليها بخَلّتين لا يد فيهما لتعليم ولا تدريب . إنما هما من صنعة الله الذى يقول للشىء : كن فيكون ، وهما : العزم الجبار ، والذكاء العجيب !

ذكاؤه وفطنته :

لقد كان هذا الرجل إلى يوم قُبِض إلى رضوان الله متسعِّرَ الذهن ، ملتهب الذكاء ، ولعله كان أذكى من نَبَهوا من المصريين جميعاً ، وكان حادّ الفطنة مُرهَف الحس . ولقد كنت تطرح عليهِ القضية تحتاج إلى تسريح النظر وإجالة الفكر ، وترتيب مقدمات القياس بحيث تتمكن كل واحدة منها فى موضعها المقسوم حتى يَتهيّأ تحلُّب النتيجة المنطقية ، وكل هذا يحتاج إلى جهد ، وكل هذا يحتاج إلى بَسطة فى الزمن ومطاولة فى التفكر والتدبير ، ولكن رشدى كان ينحطّ بك إلى النتيجة الصحيحة السليمة قبل أن تُتمّ لفظَك وتَفرُغَ من قولك

ولقد مضيت يوماً أتفرّج فى الجمعية التشريعية ، وكان رشدى ، على ما أذكر ، وزيراً للحقانية ، وطُرِح على الجمعية مشروعُ قانون وضعتهُ الحكومة لرَدم البرك ، وكان الكلام فى جزاء من يتخلف من الأَهْلين عن رَدم بركة تَدخل فى مِلكهِ ، وفى أن الحكومة فى هذه الحال تَردِمها بالقوة عنه ، وترجع بوجوه النفقات عليهِ ، فانبعث المرحوم عبد اللطيف المكباتى بك وقال : فإذا كان للحكومة بركة فتعذَّرَت على رَدمها فحينئذٍ يحق للأَهلين أيضاً . . . . فلم يَدَعْهُ رشدى يُتم تشريعهُ ، بل لقد وثب من مجلسهِ وثبةً عنيفة وصاح ملء لهاته هــذه ثَورة ! . . . . فانتفض المجلس كلهُ انتفاضةً عنيفة واحتجّ على الوزير ، واقتضاهُ (أن يسحب) هذه الكلمة ، كلمة الثورة (فسحبها) وهو ، ولا ريب ، يعلم أن قولهُ الحق ، وأن القوم

لم يَلحَقوهُ ، أو أدركوهُ ، ولـكن لم يريدوا أن يسجِّل على جمعيتهم أنها تطلب الثورة ، (فسحبها !) ولست أشك فى أنهُ فعل مصانعة لسكينة القوم ، وإلاَّ فأَيةُ ثورة أشنعُ وأخبثُ من أن الحـكومة إذا وَنَتْ فى عملٍ من أعمالها نفـذ الأَهلون ذلك بالقوة عليها ، ورجَعوا عليها بما بَذَلوا فى ذلك من النفقات ؟ ! !

الواقع أن رشدى باشا كان رجلاً حديد الفطنة ، فلم تكن فطنتهُ بأية حاجة إلى أن تَتَسكَّع على مقدّمات القياس فَتجُسَّ كلاً منها ، حتى إذا استوثقت من سلامتهِ أقرَّته فى موضعه ، ثم خلصت بعـد كل هذا إلى النتيجة فاستخرجتها فى هوادة ومطمئن أناة ، بل لقد كان يمر بذهنهِ على هذا كله مرّ البرق الخاطف ، فيقبض على النتيجة الصحيحة فى أسرع من ردّ الطرف ، إذ أنت تحسبهُ يذكو ذكاء القرود ، لا يَلمَح فى طريقه أو لا يُعنَى ، فى طريقه إلى النتيجة ، بوجوه الأسباب والعلل ، فى حين قد لَمَحَهَا جميعاً وعُنِىَ بها جميعاً ، وبلغ المَدَى بذلك الذهن (الاكسبريس) الذى لا يقف على صغار المحطات ، على أنهُ حتماً يجوز بها فى سبيله جميعاً

ولعل هذه حدَّةُ الذهن ، ولعل هذه صَولةُ العقل فى حسين رشدى قد حطَّت من شأنه عند كثير من أولئك الذين لم تَهَبْهم الطبيعةُ ما وهبتهُ فكانوا أعجز من أن يطيروا فى الفهم مطاره ، إذ هو بعدُ رجـل عصبىٌّ جائش سريع لَمَّاع الذهن ، تقاولهُ فى الأمر فيقذفك بحجتهِ على نحو ما يصل هو ، ويدعك لذهنك المطمئن المعتاد ، فلا يسعك ، وأنت بعض معذورٍ ، إلا أن تظن بالرجل عبثاً ، هذا إذا لم تـكن رزين الذهن فتحسب أن الرجل قد خَرِف وأهْتَرَ !!![1]

---

(١) أهتر الرجل بصيغة البناء للفاعل : فقد عقله من الـكبر أو الحزن أو المرض

عبقرية :

لقد كان رشدى باشا عبقريا بقدر ما يمكن أن تَأذَن به هذه الكلمة ، ولقد سلف عليك أنه كان فى صدر أيامه شابًا لعوبًا يُعطِى شبابَه مَدَى أَشَره ، فلم يكن كلُّ ما تهيأ لرشدى من العلم الفحل فى القانون ، بمختلف فنونه ، ابنَ التعليم ولا طول المراجعة وحفظ القضايا المرسومة ، إنما كان ابنَ الاستعداد ، ابنَ العبقرية ، وفى النهاية ابنَ تلك اللطيفة الرُّوحانية التى يهبها الله المتخيَّرين من عباده ، فندركها فيهم لا نملك لها تعليلاً ، ولا نستطيع لسببها تأويلاً . كان رشدى فى هذا البلد مَلِكَ القانون غيرَ مدافَع ، سلّم له بهذا سعد ، وهو من تعرف شدةَ عقل ، وكفايةً لا يترامى إليها حدّ . وسلّم له بها عدلى ، وعدلى إذا ذكر أَحضرك المثل الأعلى لسلامة الفهم والبصر بالأمور ، والرأى النّصيح تَتقطّع من دونه جهود التفكير . وسلّم له بهذا ثروت . وإذا قلت ثروت قلت كل بليغ فى الفضل وكل عظيم ، وسلم له بها من يَلِى هؤلاء علماً و بصيرة وجلالة محل وشدة خطر ، إذ رشدى ، فى الحق ، لم يقرأ أكثر مما قرأ غيرُه ، ولم يتوفّر أبلغ من سواه على الدَّرس والتحصيل . وما شاء الله كان !

ولقد أذكر أنه فى إحدى جلسات لجنة الدستور ، وكنت من سكرتيريها ، اقترح أحد الأعضاء مبدأً دستوريا لا يحضرنى موضوعه الآن ، فصدَّه رشدى فى عنف وقال : إن هذا مبدأ غير مستقيم ، ولا يمكن أن يؤذَن به فى قواعد دستور ، فقال ذلك العضو ، وهو من الأذكياء المتفقّهين ؛ ولكنه قد أُخذ به فى دستور كذا ، وسَمَّى دولة لعلها من تلك الدولات التى انصدعت عن روسيا ووضعت دساتيرها بعد إذ ضرب الفالج رشدى وصرفه عن درس القوانين . فأكَّد رشدى أنه وإن لم يرَ ذلك الدستورَ إلا أنه يقرر أن ما زعمه العُضو لا يمكن أن يكون !

وتحاجًا ساعة ، ثم انتهيا إلى أن يأتى العُضو من غده بنسخة ذلك الدستور . ولكنه في اليوم الثانى إنما جاء معتذراً بأنه بعد إذ راجع المادة أدرك أن العجلة زلت به أولَ الأمر عن تفهم الكلام . وهكذا كان مخ رشدى نيراً سليماً مطبوعا على القانون وللقانون ، صادق الحكم فيما قرأ وما لم يقرأ من أحكامه ومبادئه

قوة حجة :

كان رشدى باشا من أشد خلق الله حجة وأمضاهم قولاً ، يحكم له بهذا كل من أُوتى فطنة يلمح بها ما يتراءى لذهنه أثناء التدليل من فنون الأسباب والعلل ، على أنه قد اجتمع عليه إلى تلك الحالة « العصبية » ضعفُ المادة فى لغة العرب ، فلم يكن لبيانه إذا تكلم بهذه اللغة أو كتب من الوضوح ما يتوافى لجلالة معانيه ، ويواتى براعة تدليله . ولكنه برغم هذا كان إذا كتب ارتفعت قوة معانيه بعباراته العربية حتى يجيء منها أحياناً بالرائع الجزل الذى لا يتهيأ لمن له مثل حظه القليل من لغة العرب والتفقه فى أدبها

وإنى لأذكر أنه اختلف يوماً مع بعض المصْطَفَيْن الأعلام من أعضاء لجنة الدستور على مسألة ، لا محل لإيرادها الآن ، فذهب إلى رأى أزعجهم ، وبعثهم بالإنكار والاحتجاج ، وكلما سألهم أن يَصبروا حتى يُدلى إليهم بحجته ، صاحوا فى وجهه ودافعوه بغليظ الكلام . وأخيراً وثب من مجلسه وأهاب بهم بأعلى ما اتسعت له لهاته : « ياحضرات السادة : استمعوا لى حتى أفرُغ من حجتى ، ثم فندوها بكل ما عندكم من حجة ودليل » ثم اطمأن قليلا وعاد فقال فى رفق ولين إلقاء : « ولكنكم لن تستطيعوا » ! فسكت القوم وتكلم رشدى ثم تكلم ، فما هو والله إلا أن راح يلعب بالألباب لعباً ، وما هو إلا أن راح يستعرض كلَّ أدلتهم وما حَصَّلوا من حجج فيشد وَثاقها ، ثم يلقيها بين يديه واحدة بعد واحدة ، والقوم

ذاهلون عن مصيرهم بما تداخلهم من العجب ومن الطرب ، حتى إذا ذابت آيتهم تحتَ لسانهِ كما يذوب الثّلج فى اليوم القائظ ، أقبل على معارضيه فى تُؤدة واطمئنان وقال لهم : إذن فتكلموا ، فما هى إلا رؤوس مُنغَضة وأفواه مَفغُورة ، ثم تصفيق يرتفع إلى السماء من إعجاب ومن افتتان !!!

ولقد حدثت أحداث الإسكندرية فى مايو سنة ١٩٢١ ورشدى مع عدلى فى لندن يفاوضان كيرزن فى المسألة المصرية . وكانت السلطة العسكرية قد مَلَكت الأمر كلَّهُ عن الحكومة المصرية ، وتولت هى التحقيق بقوة الأحكام العرفية التى كانت مبسوطة يومئذٍ على البلاد . فلما انتهت المفاوضات إلى الكلام فى حماية الأجانب ، وعارض المفاوضون المصريون فى أن يكون هذا إلى انجلترا ، دفع اللورد كيرزن إليهم بتحقيق السلطة العسكرية فى حوادث الإسكندرية ، وما دمغ المصريين ظلماً بألوان الوحشية ، وما أضاف إليهم من أُمور تقشعر منها الجلود . فتناول رشدى باشا هذا التحقيق ويداه صِفْر من كل شىء ، لأن التحقيق كما قلت لك ، استقلت به السلطة العسكرية ، فأبَتْ على رشدى عزيمته ، وأبَتْ عليه وطنيته ، وأبَتْ عليه عبقريتهُ إلا أن يُكِب ليلتهُ كلَّها على هذا التحقيق ، والله يعلم ماذا بذل من مخهِ ، والله يعلم ماذا هراق من ذكائهِ حتى اتّسق له فى الصباح تقرير يَعصف بهذا التحقيق عصفاً ، ويشهده على نفسهِ بالبُطل ، وشدة الحمل على المصريين ، ثم مضى به إلى لورد كيرزن فألقاه إليهِ ، وما إن قرأهُ حتى سأل أن يَتقاصَّ الطرفان . وكذلك أَخْلَت حوادثُ الإسكندرية الطريق !

نعم ، لا يعرف أحدٌ ما بذل رشدى ليلتئذ من عزم وذكاء ليدفع عن وطنه كلَّ هذا البلاء ، ولكنّ كثيرين يعلمون أنه بذل الصّحة ، أو على الصحيح بذل الحياة ، لأنه لم يدُر عليه يوم أو يومان حتى ضربهُ الفالج فأبطلهُ حيناً ، ثم أتى فى النهاية على حياتهِ العزيزة الغالية

شجاعة :

ولقد كان رشدى رجلاً شجاعا كل الشُّجاع ، يَجهر بكلّ ما يعتقد ، واقعاً كلامه حيث وقع ، لا يبالى فى ذاك شيئاً ولا يبالى فيه أحداً ؛ و إن امرأً كرشدى قوى العزم ، عظيم النزاهة ، وافر الإخلاص ، شديد التمكّن من النفس ، لا يجد أيةَ حاجة لأن يرائى الناس أو يماريهم و يتحرّف لهم ، بل هو كلُّ حقيقٍ بأن يُعِدَّ كتفه لاحتمال كل ما يحمله سعيُه من التَّبِعات

ولست أريد أن أعرض لشأنه فى أعقاب سنة ١٩١٤ فذلك ، كما أشار رئيس مجلس النواب ووكيل مجلس الشيوخ فى تأبينِه ، من حق المستقبَل يحكم فيه بعد أن يطالع ما طاف به من الظروف وما اتّكأ عليه من الأسانيد . إلا أننى فى هذا الباب لا أنسى أن رشدى كان شجاعا فى احتمال تَبِعة ما وقع على يديه وكان له ، بالطبع ، رأى فيه إن خيراً و إن شرًّا ، وهو على أنه ، كما علمت ، قد راجع الكثيرين من أصدقائه فى الأمر فأقروهُ وأجازوهُ ، إلا أن شجاعته أبت عليه فى مَعرِض الجِدال أن يشرك معهُ فى تَبِعة الأمر أحداً ، بل لقد مضى بها وحدَه محتسباً إنصافه عند التاريخ وحدَه

لقد تعلم أنه سيَّر سفينة الحكم طَوَال مدة الحرب ، ولقد تعلم ما حاق بمصر أيامَ الحرب من هَول وشدة ، ولقد تعلم ما كان للسلطة العسكرية من صَولة وقوة ، وغداً ستعلم ما كان لرشدى باشا من مواقف يَكفّ بها العادِيات عن المصريين لا يقفها إلا الرَّجل الشجاع

وجاءت الهدنة العامة ، وأعد الجبار السر برونيات عدته لالتهام مصر ، وأخرَج مشروعه الذى يَسلّ به الحكم من أيدى المصريين سلاًّ . وخاف الناس وانقبضوا فى أكسار دورهم من خوف ورهبة ، و برز له رشدى بتقريره الوطنى الخالد على

وجـه الدهر ، وسَرعان ما كسَّره به تـكسيراً ، وكان ذلك أول أذان بالفورة المصرية ، حتى إذا تعذر عليـه الانجليز ودَلُّوا بقوتهم ، أضرَب ، وهو رئيس الوزارة ، عن الحكم أشهراً ، فـكان صنيعه حُذوَة للموظَّفين فأضربوا جميعاً ، وكان إضرابهم أبلغ مظهر للنهضة المصرية . ولقد سمعتُ منه رحمه الله أن الحبال قد فُتِلت لرقبته مرتين ، فما أبَه ولا بالى في سبيل وطنه ، وكذلك يكون الرجـل النَّدب الشجاع

ومما يُذكر له في هذا الباب أنه كان في مفاوضات سنة ١٩٢١ وجرى الكلام في الاحتلال الانجليزى ، وأصرَّ المفاوضون المصريون على طلب الجلاء . فقال لهم اللورد كرزن في شيء من التهكم : وإذا سحبنا عسكرنا من بلادكم ألا يجوز أن تحتلها اليونان في اليوم الثانى ؟! فانتفض رشدى انتفاضة شديدة وأجابه من فوره : لا تنس يا لورد أن أسلافك حين حاولوا غزو مصر ألقاهم هؤلاء المصريون في البحر وكان ذلك بقيادة جدى أنا ! (يريد رحمه الله موقعة رشيد) فوجم اللورد كرزن ووجم الحاضرون جميعاً . وبعد سكوت طويل أو قصير صرف اللورد الحديثَ إلى شأن آخر !

نزاهته :

تقلَّب رشدى في مناصب الحكم حتى صارت إليه رياسةُ الوزارة ، وحتى طَرَح القَدرُ بين يديه يوماً أمرَ مصر كلها . وكان طَوَال زمن الحرب كل شيء ، في الجهة المصرية على الأقل ؛ فما التمس قط لنفسه ولا لأحـد ممن يلوذون به مَغنماً من أىّ نوع كان ، وعزيز علىّ أن أنوّه بشرف رشدى وأن أشيد بنُبل نفسه ، فإن مثله لَأَجلّ من أن تلحق ذمتَه التهم . ولقد وافقتهُ مرة في مكتب المرحوم أحمد الأزهرى بك من كبار موظفى مصلحة الأملاك ، وهو يسأله في تأجيل دين عليه

للمصلحة ، ذهب عنى قدره بالضبط ، على أنه على كل حال يضطرب بين الستمائة جنيــه والثمانمائة ، ثم التفت إلى بعض الحاضرين وقال فى مرارة أردفها بضحكة مصنوعة : يقولون إنى بعتُ مصر بثلاثة ملايين ، فهلا دفعوا منها لمصلحة الأملاك هذا المبلغ وأخذوا لأنفسهم الباقى ؟

عطفه وبره :

كان رشــدى نبيلَ الإحساس ، بالغاً من طيبة القلب مبلغاً لا يكاد يلحقه فيهِ إنسان . فما أصاب عانياً أو مُدنَفاً أو امرأ تغير له الزمن إلاَّ أحس بأنه هو المسئول عما ضربتهُ به الأيام . وكثيراً ما تنتضح عينا هذا الرجل الشجاع بالدمع إذا رأى مكلوماً فى جسمه ، أو ممتحَناً فى أسباب حياته . أما ماله وأما جاهه العريض فذلك كله نهب مقسم بين العافين من الناس . ولو كان رشــدى باشا يملك كلَّ مافى الدنيا من مال لخرج عنــهُ لطالبيهِ فى سماحة وارتياح . ولقد تقسم وقتَه ، فى أخريات سنيه ، بين أن يفرق على الناس كل ما احتوتهُ محفظتهُ ، وبين أن يطوف بهم الدواوينَ يشفع لهم فى قضاء الحاجات . ولقد أسرف فى هــذا حتى ابتُذلت شفاعته أو كادت تُبتذل عند الحكام لشدة إفراطهِ فى الرجاء ، على جلالة محلهِ لديهم وسموّ قدره عندهم ، وحتى خرج من الدنيا صِفراً إلا من الشرف ، وإلا من أعلَى الذكرى لأعلَى الرجال

وبعد فلقد خسرت مصر من غير شك بموت رشدى باشا مجموعةً من المواهب جليلة غاليــة ، وإذا كانت الأيام تُنجب لنا رجلاً فى علمهِ ، أو فى عبقريتهِ ، أو فى شجاعته ، أو فى وطنيتهِ ، أو فى طيبة قلبهِ ، أوفى نُبل أخلاقهِ ، أو فى كرم يده . فهيهاتَ أن تنجب رجلاً جمع معاً كل هذه الخلال كما جمعها فقيدنا العظيم ، وإن لم يكن ذلك على الله بعسير

الشيخ على يوسف*

فى يوم ٢٥ اكتوبر من سنة ١٩١٣ والقلوب واجفة ، والأبصار زائغة ، ومَصاير الأمور تَتواثَب للأوهام فى صوَر مبهَمة غامضة ، تَضطرِب بين اليأس كلّه و بين الرجاء كلّه ، والناس يتساءلون متهامسين من الخوف ومن الوَرَع : تُرى ماذا عسى أن يكون قَسْم مُصرَ من هذه الحرب العامّة ، وماذا كَتبَت لها الأقدار ، فى صَفْحتى الليل والنهار ؟

فى ذلك اليوم من تلك الأيام السَّوداء ، مات رجل ليس كِمثْله فى مصر كثير ، رجل إذا أحبه ناس أشد الحبّ ، فلأنه قوةٌ كبيرةٌ فى مصر . و إذا كرِهه ناس أشد الـكُره ، فلأنه قوةٌ كبيرةٌ فى مصر ، فالشيخ على يوسف ، على تفرُّق الأهواء فيه ، كان قوةً هائلةً فى هذه البلاد يحسب الناسُ جميعاً لها كلَّ حساب

ولقد كنت من الذين أبغضوا الشيخَ علياً أبعدَ البُغض ، ثم كنت من الذين يحبونه أغلى الحبّ ، ولا والله ما رأيته فى حَالَىْ بُغضى وحبى له إلاّ رجلاً عظيماً !

مات الشيخ على يوسف فى ذلك اليوم فما قامت الدنيا لموته كما كان ينبغى أن تقوم ، ولا قَعَدَت الدنيا لموته كما كان ينبغى أن تَقعُد ؛ بل لقد شُيِّع ودُفن كما يُشيَّع و يُدفن أوساط الناس ، وكأن الناس لم يُشَيِّعوا فيه مفخرة من مفاخر مصر ، ولا أودَعوا الضريحَ كنزاً من كنوزها الثِّمان !

لا أقول إنه الإهمال السَّيِّء ، ولكن أقول إنه الظرف السَّيِّء ، ولا أُريد المزيد

والآن تَسأل الشبابَ المثقَّفين المتعلمين عن الشيخ على يوسف ، وكيف كان

* نشرت فى مجلة الرسالة فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٣٤



الصحفى الجليل المرحوم الشيخ على يوسف

خطبه فى البلاد من إحدى وعشرين سنة فقط ، فترى أقلهم من لا يعرف عنه كثيراً ، وترى أكثرهم من لا يعرف عنه كثيراً ولا قليلاً !

أهكذا ، وبهذه السرعة السريعة ، تختفى سيَر الرجال عندنا كما تختفى الصُّوَر إذا ساد الظلام ، أو كما تختفى أشباح الرُّؤَى ساعة الهُبوب من المنام ؟

وإننى لأضيف الوزرَ فى هذا أيضاً على الظروف . والحمد لله الذى جعل لنا من هذه (الظروف) تُكأة نعتمد عليها كلما غَشِيَتْنا غاشِيةٌ من الإهمال ، أو طاف بنا طائف من سيء الأعمال !

***

ولقد قُلِّد الشيخ على مَنصِب مشيخة السجادة الوفائية ، فاستحق بهذا أن يُسمَّى السيد علياً ؛ وقلده الخليفة العثمانى الرتبة الأولى من الصِّنف الثانى ، فاستحق بذاك أن يُدعى على بك أو على باشا يوسف ؛ ولكننى لا أعبِّر عنه إلاّ بالشيخ على يوسف . هذا الاسم الذى طالما رنَّ فى الآذان ، وتجاوبت به الأصداء من كل مكان : الشيخ على يوسف ! الشيخ على يوسف ! وحسبه بهذا لقباً ، بعد ما اعتز بنفسه حسباً ، وكرُم بالرسول الأعظم نسباً

كان الشيخ على يوسف رجلاً عِصامياً بأوفَى معانى الكلمة . نجَم فى (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا ، فى أُسرة إذا كَرُم أصلُها فقد رقَّت حالها . ولا تنس أن المال هو كلّ شيء فى هذا الزمان . وتعلَّم القراءةَ والكتابةَ فى كتَّاب القَرية ، وحفِظَ القرآنَ الكريم . ثم انحدر إلى بنى عدىّ من أعمال مديرية أسيوط . فطلب العلم هناك على الشيخ حسن الهوارى . ثم قَدِم الأزهر فطلب العلم فيه بِضعَ سنين

وإلى هنا كانت حياة الشيخ على حياة عاديّةً بحتةً ، فلم يَزِد خَطبه على مجاور مغمور فى ذلك الخِضرِم الزاخر بآلاف المجاورين

وتَستشرِف نفسُ الفتى للأَدب . والأدبُ فى ذلك الوقت أن تقول شعراً مقفًّى موزوناً . فإذا أعوَزَكَ العَروض ، وعُمِّيتْ عليك أوزان الشعر ، فحسبك أن يكون المِصراع فى طول المِصراع . فإن زاد الكَلِم ففى تصغير الكتابة وتدقيق الحروف متّسَعٌ للجميع . وعلى شرط أن تتغزّل . فتتغزّل كلما طَلَبْتَ مديحاً ، وتتغزّل كلما أردتَ رثاء ، وتتغزّل كلما ابتغَيْتَ هِجاء . وكانت هذه ، وخاصة فى البِيئة الأزهرية ، أهمَّ فنون الشعر ، إن لم تكن جميع فنون الشعر

وعلى هـذا قرضَ الشعرَ المجاورُ على يوسف ، فذهب له به بين المجاورين صِيتٌ وذِكر

ولقد كان الأدب يُحمد من المجاور عند أشياخه إلاّ أن يُسرِف فيه ويجرّد له صدراً كبيراً من وقته ، فإنهم كانوا يكرهون ذلك منه ، لأنه فى الواقع يشغله ، بقدرٍ مّا ، ، عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار ، ويَرَون هذا منه آية على (عدم الفتوح) والعياذ بالله ! وحسبه فى العام قصيدة يَمدح بها شيخَه يوم يختم الكتاب ، وقصيدة أو اثنتان يرثى بهما من يموت من عِلْية العلماء

وأسرف الشيخ علىّ فى قرض الشعر ، فمدَحَ وَرَثَى ، وتغزّل (بالطبع) وهَجَا ، حتى اتّسق له من هذا النظم ما جَمعه بعدُ فى ديوان كامل ، وبهذا أصبح مجاوراً ممتازاً وإن حقّ عليه القول ، وتراءى له شَبح الهَول !

إذن أصبح الشيخ مجاوراً ممتازاً بين المجاورين بالأدب ، أو إن شئت قلت : لقد أدركَتْه ، من الناحية الأزهريّة ، حرفةُ الأدب

ولقد دعاه هذا إلى الاختلاف إلى مجالس الأُدباء ، ومساهرتهم ومسامرتهم والتروِّى عنهم ، ثم إلى غِشْيان دور بعض العِلْية ممن كانوا يجلسون لأهل العلم والفضل والأدب ، فيتحاضرون ويتذاكرون . وأقبل الشيخُ علىَ هـذا الشأن بقدر ما أدبر عن الكدِّ فى دروس الأزهر . ثم جعل يُرسل المقالات المنثورةَ فى

الصحف والمجلات التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وكان يكتب أولَ الأمر على طِراز الكاتبين فى عصره : مقدمات طويلة تُمهِّد بين يدى كل موضوع ولو لم تدْعُ إليها حاجة الكلام ، واحتفال للمحسِّنات البديعيَّة تُستكرَه استكراهاً ، ولو استهلَكَت الغرضَ المطلوب

على أن من حسن حظ الشيخ علىّ أنه ابتدأ فى معالجة الكتابة فى الوقت الذى انبعثت فيـــه تلك النهضة البيانية الفاخرة ، تلك النهضة التى نفخ ضِرامَها بالإرشاد والتنبيه السيدُ جمالُ الدِّين الأفغانى ، وبالفعل من الإنشاء والتعليم والتأليف الشيخُ حسين المرصفى ، وللشيخ علىّ طبيعةٌ ، وفيه فطنة قوية ، فجعل يدرِّب قلمه ويروضه على إرسال البيان سهلاً جزلاً خالياً من الاعتساف ، متطلِّقاً من تكاليف البديع

وفى هذا المقام يجدر بى أن أُنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال إلى تمكّن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقّهه فى أساليبها ، وبَصَره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصَدْر صالح من بلاغات بُلغَائها ، إلى حسن ذَوق ورَهافة حسّ ، بحيث يَتهيَّأ له أن يَصوغ فكرتَه أنوَر صياغة ، ويُصوِّرها أبدع تصوير . بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جداً ، إلى شدة نفْس الكاتب وقوة رُوحه . فقد لا يكون الرجل وافرَ المحصول من متن اللغة ، ولا هو على حظٍّ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمُغْنِىّ بتقصّى منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطَّع دونه علائق الأقلام . ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكرته ، تأبى إلا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعاً . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى ، وهو غريب عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها ، أَبْيَنَ مثال على هذا الذى نقول . ولقـد يَعجَبُ القارىء أشدَّ العَجَب إذا زعمتُ له أن المرحوم

حسين رشدى باشا ، وكان رجلاً قلّ أن تطّرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان!

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم فى الأزهر ، وقرأ طَرَفاً من كتب الأدب ، واستظهر صَدْراً من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها — إلاّ أنه لم يكن مديناً فى بيانه لشىء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة رُوحه وسَطوة نفسه . وإنك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك ، وتشعر أن أحداً لم ينته فى البيان منتهاه . ثم تُقبل على صِيَغه تفتّشها وتَفِرُّها ، فلا تكاد تقع على شىء من هــذا النظم الذى يتكلّفه صدور الكتّاب . وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً ، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوىّ نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات

ولندع الآنَ بيان الشيخ على وأثره ، فلذلك موضع آخر من هذا الحديث . ونعود إلى تاريخ الرجل فنقول : إنه ما كاد يستوى له ذلك القَدْر من الأدب حتى أنشأ مَجلة دعاها (الآداب) . وهى وإن لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى المجلات الأدبية القائمة الآن ، إلاّ أنها كانت شيئاً مذكوراً بالقياس إلى المجلات التى كانت قائمة فى ذلك العهد ، وخاصةً بعد إذ عفّى الزمن على مجلة رَوْضة المدارس التى كان يقوم على تحريرها وإجالة الأقلام بروائع البيان فيها صدور العلماء والشعراء والكتّاب

المؤيد :

وإذا قلت « المؤيد » قلت شَطْر من تاريخ مصر محتفل بالأحداث العِظام

راع أهل الرأى فى مصر أن ليس لهــذه الأمة ، أعنى للمسلمين وهم كثرتُها الكثيرة ، صحيفة تتحدّث عنها وتُدلى بحاجاتها ، وتُترجِم عن أمانيها ، وتَذُود عن حقوقها وكرامتها . وإن أمة ليس لها فى هذا الزمان صحيفة ، لهى أمة لا تحسّ لنفسها

وجوداً . ولقد قوىَ الشعورُ بشدة الحاجة إلى صحيفة وطنية إسلامية بعد إذ صدر المقطَّم صحيفةً تُظاهر الاحتلالَ الانجليزى ، وتروِّج للسياسة الانجليزية فى هذه البلاد ، وتدفع فى صَدر الأمانى القومية ما اعترضتْ تلك السياسةَ فى يوم من الأيام . وهنا يتقدم الشيخ علىٌّ مع صاحب له يُدعَى الشيخ أحمد ماضى ، فينشئان جريدة (المؤيد) يومية سياسية وطنية إسلامية . ثم لا يلبث الشريكان أن يختلفا ، ولا يخرج أحدهما عن الشركة إلاّ على مال ، والمالُ فى يد الشيخ علىٍّ أقلّ من القليل . وهنا تحركت أريحَيَّة بعض كبار المصريين فأدَّوا المالَ عن الشيخ إلى صاحبه . وهكذا خلص المؤيد للشيخ على يوسف . وكان للمرحوم سعد باشا زغلول فى هذا سعىٌ مشكور

وأذكر أنه لما أتَى رحمه الله بمطبعة جديدة من طراز (الروتاتيف) وعَقد لذلك حفلاً جامعاً فى إدارة (المؤيد) خطب فى الجمع فأتى فى سيرة المؤيد على هذه الحادثة ، ونوّه بفضل سعد بك زغلول (المستشار بمحكمة الاستئناف) الذى أَبَى أن يسمع هذه الخُطبةَ إلاّ واقفاً

وجرى المؤيدُ طلَقاً ، والله يعلم كم عانى الشيخ علىٌّ فى إخراجه فرداً لا مُسعِد له من معين أو من مال . الحقُّ أن الرجل لقد جاهد فى هذا جهاد الجبابرة ، وعانَى عَناءً لو صوّره القلم على حقيقته لظنه الناس من إحدى القِصَص التى تمثّلها أخيلة الكتاب . وهكذا لم يَمض زمن طويل حتى جنى ثمرة الصبر العجيب (إنَّ الله مع الصَّابرين) صدق الله العظيم

مَضى (المؤيد) يحرره الشيخ على يوسف ، ويَرفِده بالمقالات البارعة أعيانُ أهل الرأى والعلم والأدب فى البلاد من أمثال المرحومِينَ : الشيخ محمد عبده ، وسعد بك زغلول ، وقاسم بك أمين ، وفتحى بك زغلول ، وحفنى بك ناصف ،

وكثير غيرهم من أصحاب البيان . وكانوا يُسِرُّون أسماءهم فى الأحاديث السياسية ، بوجه خاصّ ، فذلك مما لا تأذن به المناصب الحكومية بحال . وكذلك أضحى المؤيدُ مجالاً لأفحل الأقلام وأنضج الآراء . بل لقد أضحى المدرسةَ التى تخرّج عليها من شَهِدوا الجيلَ الماضى من أعلام البيان

ويسير المؤيد . ويَذهب صيتُه لا فى مصر ولا فى العالم العربىّ فحسب ، بل فى العالم الإسلامىّ كلِّه . فلقد أصبح لسانَه المعبّر أفصح تعبير عن حقيقة حاله ، والمترجمَ أنصح ترجمة عن آلامه وآماله ، ومتحدّثَ أخبار المسلمين وراويها ، ومُلتقَى أفكارهم فى قَواصِى الأرض وأدانيها

لا يَرحلُ الناسُ إلاّ نحو حُجْرتِه كالبيتِ يفضى إليه ملتقى السبُل

وحسبنا هذا القدرُ الآن فى المؤيد وفى صاحب المؤيَّد ؛ وسنعاود الحديث فيه إن شاء الله تعالى عسى أن نُوفّيه بعضَ حقّه إن لم نُوَفّه كلّ حقّه . رحمة الله عليه

٢ — الشيخ على يوسف

ليس بالطَّويل البائن ولا بالقصير المتردِّد . على أنه كان إلى الطول . يظهر فى مرأى العين نحيلاً هزيلاً ، ولكنه كان مُكتنِز اللحم ، مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجبهة ، أزرق العينين ، طويل الهُدْبين ، كثيراً ما ترى له فى إطراقه نظرة غريبة ساجية . ضيّق الفم ، على أن فى شفتيه الحمراوين شيئاً من الغِلَظ ، تعلوه صُفرة ما أحسبها من أثر مرض . وشعر لحيته الدقيقة المتّسقة يميل إلى الشُّقرة ، رفيق الصوت ليّنه إذا تحدث ، فإذا رفع صوته ضمر بعض الضمور ، وتسلّخ بعض التسلّخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التى تَصلح للخَطابة

وكان بعدُ رجلاً شديد العقل ، قوىّ النفس ، حديد العزم ، وافر الشجاعة ،

لا تتعاظمه قوةُ خَصم بالغةً ما بلغت قوةُ ذلك الخَصم و بأسه ، و إذا تحدَّاه متحدٍ ركب رأسه فى نِضاله لا يبالى أين يقع المصير ، وصحَّ فيه قول الشاعر :

إذا همَّ ألقَى بين عينيـهِ عزمَهَ ونـكَّب عن ذِكرالعواقِب جانبا

وأذكر أننى مضيتُ إليه مرّة فى صَحب لى من خُلصانه ، وسألناه أن يترفّق بالمؤيد ، فلقد تظاهر عليه خصومُه ، وألّبوا الجمهرةَ عليه ، وأذكَوا عليـه حماسة الشّباب فى رأى له قد لا يُحسِن فهمَه العامةُ ، ولا يستريح إليه طُمُوح الشّباب . فأَصغَى إلينا وأحسن الإصغاء ، وترك كلَّ واحد منا يقول ما عنده ، حتى إذا انتهينا ونحن على الظن بأنه نازلٌ عند رأينا ، عادِلٌ إلى ما سألنا ، فإذا هو يرتجّ فى مجاسه ارتجاجة عنيفة ، و يقول فى قوة وفى عزم حديد : « والله لا يعنينى أن يكون الناسُ جميعاً فى صفّ واحد ، وأنا والحق الذى أعتقده بإزائهم فى صف واحـد » ! . وتركناه ونحن نرى منحَدَر المؤيد بطغيان الخصومة يوماً بعد يوم !

ولقد كان الشيخ علىٌّ ، رحمة الله عليه ، رجلاً متمكناً من نفسه حقاً ، ولقد كان مما يُشاع عنه ، ولعل خصومه هم مَبعَث هذه الإشاعة ، أنه كان يقول : أنا لا أُبالى أن أخسرَ هذا البلد ، فى إمكانى أن أعود فأكسبَه بثلاث مقالات .. !

ولقد عاشرتُ الرجل ما عاشرتُه ، واستمكن ما بيننا من الودّ والإلف إلى الحدّ الذى يبعثنى على الاعتقاد بأنه ما كان يخفى عنى شـيئاً حتى من نجوى نفسه فى الأسباب العامة . وشهد اللهُ ما سمعت منه قط هذا الكلام ، ولا أية عبارة أُخرى يمكن أن تؤدى معناه

ولـكن مع هذا لقد كان هذا هو الواقع ، أَعنى الواقع من حاله لا من مقاله : فإننى لا أعرف رجلاً سياسياً عظيماً كان أقلَّ الناس أَنصاراً وأكثرهم خصوماً كما كان الشيخ على يوسف . وخصومُه على كثرتهم ، لقد كانوا من جميع الطبقات ،

وكانوا من جميع الهيئات ، وإنهم لَيحيطون به إحاطة الطَّوق من كل جانب ، وكلهم عاملٌ على إسقاطه ، جاهدٌ ما امتدّ به الجهد فى هدم المؤيد ، مُذْكٍ عليه الأقلامَ والألسنَ من كل ناحية ، تدمُغه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها فى غير هَوادة ولا إشفاق ، والمؤيد يتقلّص بين أيدى القارئين و يتقلّص حتى يُظَن أنه قد تشرّف على العفاء . ثم إذا الشيخُ يَتجمَّع ، و إذا هو يَشرَع القلم شَرعَ الرُّمح الرُّدَيْنىّ ، و إذا هو يطعن الطعنةَ البِكرَ ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فلا يُصيب إلاّ الكُلَى والمفاصل . و إذا هؤلاء الخصومُ يتطايرون عنه تطاير الشّعْراء عن ظهر البعير إذا انتفَض ، و إذا المؤيد يرِنّ فى البلد رنينهُ ، بعد ما تردد تأَوُّهه وطال أنينُه !

وقد عرفتَ أن الشيخ على يوسف كان مبغَّضاً إلى الكثرة فى البلاد . و إن هذا البغض ليرجع ، فى الأكثر ، إلى أسباب صناعية : منها المنافسات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولىّ الأمر ، ومنها أنه كان هنالك رجالٌ أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر ، كان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر ، ولربما ظاهروا المعتَمد البريطانىّ أحياناً فى عدائه للقصر . فهم ، بالضرورة ، يَنقِمون من كل رجل توَافيَه للقصر ، وخاصَّةً إذا كان رجلاً كالشيخ على يوسف جبار العقل ، جبار القلم

أَرأيت كيف كان هذا الرجل محاطاً من جميع أقطاره بنطاق من العداوات المختلفة ، بل التى يَصطرِع التناقضُ أحياناً بين أسباب بعضها و بين أسباب بعض ؟ على أن إذكاء بُغض الشباب والعامة للرجل من جهة ، وبُغض بعض الخاصَّة له من جهة أُخرى ، إنما كان يسلكه له خصومه من أحد طريقى الضعف فيه ، إن صحَّ هذا التعبير . أولهما أنه كان معتدلاً لا يرى العُنفَ سبيلاً إلى استرداد حقوق البلاد ؛ بل إن هذا العُنف لقد يُردِيها فى أخطار لم تكن لها فى الحساب ، وكان طوعاً لهذا يرى ألاّ يتحدَّث على الشئون العامة إلاّ الشيوخ الناضجون المجربون ،

وهذا وهذا ، ولا شك ، مما لا يُرضى الشباب المشتعل حماساً لحقِّ الوطن . ولا تَنسَ أن العامة من وراءِ هؤلاء

أما السبب الثانى فلُصوقه بالقصر ، وشدة توافيه له ، ومظاهرته له على الدوام . وأظن أن هذا مَقام لا تحمد فيه إطالة الكلام

مع هذا كله ففى يوم الجُلَّى ، يوم تَحدُث الأَحداث القومية ، يَنفُض الناسُ قلوبَهم حتى يتساقط عنها كلُّ ما عَاق بها من الحِقد على الشيخ على يوسف ، ويُتْلِعون أعناقَهم نحوَ المؤيد ، شاخصةً أبصارُهم ، مُرهفةً آذانُهم ، معلّقةً فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسُهم . فإذا النِّمِر الجبار يثب على فريسته من عُدوان العادين وَثبتَه ، فلا يزال يوسِعها تمزيقاً بِمخلبه ، وضَغماً بأنْيُبه ، حتى ما يدعها إلاّ (أعظُماً وجلوداً)

نعم ، لقد كان يقول الشيخ على فيَروى كلَّ غُلَّة ، ويَشفِى كلَّ عِلَّة ، ويعلو بسطوة قلمه حتى ما ينتهى منتهاه فى ذاك أحد . والناس طراً لهذه النصرة بين مهلّل و بين مكبّر ! . هذه كانت قدرةُ الشيخ القادرة ، وهــذه كانت قوته العبقرية النادرة . وهذه مقالاته فى أعقاب حادثة دِنْشواى ما برحت تَرِنُّ فى آذان من قرأوها إلى الآن

و إنى لأذكر له حادثاً طريفاً فى هذا الباب :

فشت الفاشيةُ ، لا أعادها الله ، بين المسلمين و إخوانهم الأقباط عقِب مَصرَع المرحوم بطرس باشا غالى ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ ، على ما أذكر ، وعَقَد الأقباطُ مؤتمراً مِلّياً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمونَ بمؤتمرٍ مثلِه فى القاهرة ، وأفضَوا برياسته إلى أكبر رجل فى البلاد يومئذ ، وهو المرحوم مصطفى رياض باشا . واختار القائمون على هذا المؤتمر مَثوًى لاجتماعه مَلعب مصر الجديدة ، ومضى الناس

أفواجاً فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالاتُ البلد لم يتخلّف منهم إلاّ من انقطع به العذر . وتصدّر الحفلَ رياض باشا . وتعاقب الخطباء كابراً بعد كابر . فَأَبْلوا فى المقال أيما بلاء ، وأبدعوا فى الخطاب أيما إبداع

حتى إذا كانت النوبة على الشيخ علىّ أذكى بعضُ شُبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بهو الملعب طائفةً من الفِتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القوم ألاّ يصفّقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يُظهروا أيةَ إشارة تدل على الاستحسان . فوعدهم أكثرُ الناس بهذا ، وأصرّوا عليه مخلصين لما تَنطوِى صدورهم من حقد عليه ومن بغضاء

ويَنبعِث الشيخُ يخطب ، وهو كما قدمتُ لك غيرُ خطيب . أستغفر الله ، بل لقد انبعث يتلو مقالته فى أوراق بين يديه ، وأنت حقُّ خبيرٍ بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضعَ دقائق حتى أُخِذَ الناسُ عن نفوسهم ، ونَسُوا ما عاهدوا أولئك الفتيانَ وعاهدوا أنفسَهم عليه . فبرَوا من التصفيق أكُفَّهم ، وشقَّقوا بالصياح حناجرهم تشقيقاً ، فكنتَ تسمَع من هُتافهم مثلَ الرعد القاصف ، وترى من اضطرابهم وتموّجهم فعل الريح بالأغصان فى اليوم العاصف ! وكان من أشدهم سَعَراً من كلام الرجل هم أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على ألاّ يَلقَوا خطابه إلاّ بالجمود والإعراض

وجُهِد بالرجل ، فتعاورَ التلاوةَ عنه كلٌّ من أستاذنا إبراهيم بك الهلباوى ، والمرحوم أحمد بك عبد اللطيف المحامى الأشهر ، وأنت كذلك خبيرٌ بأثر خُطبة يتلوها فى الساعة غيرُ منشئها ، ما أرخى إليها من قبلُ نظراً . ومع هذا فما برحت تزداد الفَورةُ ويشتدّ بالقوم الفتون !

ولقد أذكر أنه بعد إذ فُرِغ من خِطاب الشيخ وافقتُ فى طريقى صديقاً لى

من شبان الحزب الوطنى ، وهو الآن من أعلام أهل الفضل الذين يتولَّون مَنصِباً جليلاً فى السلك القضائى ؛ وكان يومئـذ مسرفاً غالياً فى التشيّع لمبادئ حزبه ، مفرطاً فى بغض الشيخ ، شـديد الحمل عليه ؛ ورأيته يضرب كفاً بكف ، فسألته ما به ؟ فأومأ إلى مكان الشيخ من مِنصَّة الخطابة وقال : (على حِس الخطبة دى ، يقعد ابن الـ... يخون فى البلد ثلاث سنين أُخَر) !

ولا زلتُ كلما لَقيتُ صاحبى أذكّره هـذه الحكاية ، فيضحك فى غَيظ لا أدرى إن كان من تذكيرى له بهذه القصة ، أم أنه ما تزال فى صدره بقية من هذا الضِّغن القديم ؟ ! الله أعلم !

***

ولقد عرفتَ أن الشيخ على يوسف كان رجلاً مكافحاً ، بل إن قلمه لم يكن يجود فى شىء مِثلما كان يجود فى الكفاح ، ولم تكن سياسة الاحتلال فى مصر تخشى سَطوةَ قلمٍ قدرَ ما تخشى قلمَ هـذا الرجل ، فإنه كان فوق كفايته البيانية ، وما آتاه الله من شدة العارضة ، والتمكن من نواصى جلائل المعانى ، لا يُهروِل إذا هَرول فى الصغائر ، ولا يَطعَن إذا طَعَن إلاَّ فى الصميم

ولا أحب أن أتجاوز هذا المعنى فى الرجل قبل أن أَدلّ على خَلة من خـلاله فى كفاحه : ذلك بأنه كان يَعتمِد أضعفَ النِّقاط فى خَصمه فيتجمّع لها ، ثم يثب عليها بكل قوته ، ولا يبرح يطعنه منها دراكا ، حتى يدوخ رأسه ، ويذهله عن سائر أسلحته ، إذا كانت له أسلحة أخرى تجهَّز بها لذلك النضال

وكان فى كتابته سريعاً جداً ، حتى لتحسبنه ويده تجول فى القرطاس عازفاً على قانون لا مسطِّراً بيراع ، وتراه كلما فرغ من وجه الرُّقعه من الإضمامة دفع بها إلى من يُفضى بها إلى المطبعة . وهكذا حتى يأتى على غاية المقال ، لا يَتتعتع ، ولا

يَتحبَّس ، ولا يحتاج إلى مراجعة شيء مما أسلف ، ومع هذا تجد المقال سويًّا غاية فى الحَبك وتناسق الأطراف !

ومن العجب العاجب فى أمره أنه كثيراً ما كان يكتب والغرفة محتفلة بالزوّار وأصحاب الحاجات ، يرفعون أصواتهم بفنون الأحاديث والجدَل ، بل لقد يأخذ معهم فى بعض ماهم فيه وهو ماضٍ لشأنه لا يَشغَله هذا عنه كثيراً ولا قليلاً !

الشيخ على الصحفى :

ولقد كان رحمه الله ، صحفياً بأجمع معانى الكلمة ، يكتب المقال الرئيسى كلّ يوم بيده ، ويراجع كلّ ما يُدلى به إليه الكتّاب من المقالات ، ويَفُضّ البريد بنفسه ، فما رآه كُفئاً للنشرِ أَذِن فى نشره ، وقد يحذف بعضَ المقال ويُبقى على بعض . فإذا تهيَّأت الجريدة للطبع،وراجعها المصححون تناولها فقرأها من أولها إلى آخرها ، يصحّح ما عسى أن يكون قد فات القومَ تصحيحُه ، ويتثبّت من ألاّ يكون قد دُسّ على الجريدة شيء مما يكره ، أو يكون قد سَقط إليها فى سِرٍّ منه إعلانٌ عن خمر أو غيره من المناكر

وكان على جلالة محله ، وكثرة المخبرين لديه ، يطوف بنفسه كلّ يوم بأكثر الدواوين فى تنسُّم الأخبار يَستخرجها بلطف حيلته من النُّظَّار (الوزراء) أو من المستشارين الانجليز فمن دُونهم من عيون الموظفين

وهكذا استطاع الشيخ علىّ بكفايته وحدّ عزمه ، أن يجعل من المؤيد أعظم جريدة فى مصر ، برغم كل ما كان يعتريها من الكيد ، بل أعظم جريدة فى العالم العربى كله

من أخلاق الشيخ علي :

وقبل أن أختم الحديث فى الشيخ على يوسف أرى لزاماً أن أشير إلى فضيلتين من فضائله البارزة بروزاً عظيما : أولاهما أنه كان خَيِّرًا مطبوعا ، ما رأيتـه سُئل الخيرَ قط يستطيعه إلاّ فعله مهما يكن فيـه من عَنَت ومن إرهاق ، وإنه ليفعل مغتبطاً راضياً هاشًا حتى ليكاد يلتمس السّائليه الخيرَ التماساً ، وحتى ليكاد يصدق فيـه قول الشاعر : (كأنَّكَ تُعطيهِ الذى أنتَ سائلُه) . وإنى لأعرف أنه كان يُجَرِّد صَدراً من يومه فى السعى لحاجات الناس ابتغاءَ رضوان الله ، هذه واحدة . أما الثانية فشدة وفائه . ولقد عرفتَ صلة الرجل بالقصر ، ومبلغ ضعفه له . ولقد يتغير ولىُّ الأمر يومئذ على رجل من صُدْقانه ، أو ممن أسلفوا له يداً ، فتتناهشهم الأقلامُ من كل جانب ، اللهم إلا المؤيد ، فإنه الذى لا يُطلِق مقالةَ السوء فيه أبداً ، وحسبك دليلاً فى هذا الباب شدة توافيه للمرحومِينَ الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، ورياض باشا ، وغيرهم كثير ، فإن كان قد مسّ بعضَهم كما مسّ رياض باشا عقب خطبته المشهورة ، فلقد كان عذرُه واضحاً ، وأىّ وطنى يُطيق أن يسمع الإشادة بفضل المعتمَد البريطانى على حساب كرامة أمير البلاد ! على أنه فيما مسّه لقد كان به أرفقَ الكاتبين

***

فإن زعمت بعد هـذا أنه كانت فى الرجل هَنة أو كانت فيه هَنات ، فمن ذا الذى سلِمَ على العيوب كلها ، و (كَفَى المرءَ نُبلاً أن تُعدّ مَعايبُه) . وحسب الشيخ علىّ أنه كان بمجموعة مزاياه ومواهبه مفخرةً من مفاخر هـذه البلاد التى لا يَسخو بمثلها الزمان ، و (إنَّ الزَّمانَ بمثلهِ لَبخيلُ)

رحمه الله رحمة واسعة ، وعزَّانا عنه نحن القادريه قَدرَه ، أحسن العزاء ؟

محمد بك المويلحى *

قبل أن أتحدَّث عن هذا الرجل الذى يجب أن يتحدَّث عنه مدوِّنو تاريخ الأدب العربىّ فى العصر الحديث — قبل هذا أحب أن أقول فى هذا الباب شيئاً عاماً . ذلك بأننا اعتدنا أن نُغفل الكلامَ فى سيرة من عاصرناهم ، ورأيناهم ولابسناهم ، إلاَّ أن يكون القولُ من جنس هذه المراثى التى تُضفَى فيها حللُ الثناء ، ويُكال فيها المديحُ فى العادة بغير حساب . ولقد يكون هذا الثناء حقاً أو قريباً من الحق ، بحيث لا يؤذِى التاريخَ فى كثير ولا قليل ، ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبَلة شيئاً من حقيقة الرجل ، لأن الكاتبين فى هذه الحالة لا يُعنَون ببسط حياة الرجل ، وظواهر خلاله ، والعوامل البارزة فى تكوينه ، ومطبوع عاداته ، ولو ما يتّصل منها بالأسباب العامة . وذلك من أيسر الأمور لأنهم عرفوه بالمشاهدة ، واستيقنوه بالملابسة وطول الاختبار . وهذا ولاشك مما يهيىء للقادمين دراستَه وتحليلَه دراسةً إن لم تنتهِ إلى أصدق النتائج ، فهى أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال

وليس يذهب عن القارىء أن إهمال المعاصرين ، على هذا النحو ، لابدَّ مفضٍ إلى إحدى حالين : إما إلى إدراج كثيرين من رجال الآداب والفنون فى مطاوِى النسيان ، أو التحيّف من أقدارهم بقدر كثير أو قليل ؛ وإما إلى تجليتهم ، إذا تراخى الزمان فى غير صورهم ، وتَحَلُّهم صفاتٍ وخلالاً لم تكن لهم ، بحكم العنعنةَ فى رواية الأخبار ، والاتكاء فى تحليل نفس الرجل على ما صدر عنه من الآثار .

* نشرت بمجلة الرسالة فى عدد ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٤ والعددين اللذين ولياه



الـكاتب العظيم المرحوم محمد بك المويلحي

وكثيراً ما يَضلّ الباحث المستنتج فى هذا أبعدَ الضلال . هذا إلى مافى معاناة مثل تلك البحوث من إضاعة للوقت ، ونفقة من الجهد ، وتجشّم للعناء

وأغلبُ الظن فى هذا الإغفال من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفنون والآداب ، يرجع إلى أن الرجلَ العظيمَ قلّ أن يراه معاصروه بالعين التى يراه بها الخالفون ، فهو فى الغالب إذا استحَق منهم ترديد ذكره ، والهُتاف باسمه ، وتدوين سيرته ، فقلّ أن يُعنى أحدٌ بتقصى عاداته ، والتسلل إلى مداخله ، وعرض ما يلابس الأسبابَ العامّة من سائر أموره ، أو لأنهم لا يُعنَون بهذا لأنه حاضر لمعاصريه قريب منهم . فهو فى حكم المبذول الذى يَنال منه من شاء أن يَنال . ولا شك أن فى هذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيغيب على الزمن ، وأن المبذول سينقبض ، وأن ما فى متناوَل اليد اليومَ ستتقطّع من دونه غداً علائقُ الآمال !

ولقد يسكت النقدَةُ عن تقصّى ذلك عمداً ، والتلبّث بتحليل الرجل ، وردّ العوامل فى تكوينه إلى مناجمها حتى ينطوى الزمن عليه وعلى أهله ، وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه ، حتى يتهيَّأ الجوُّ للبحث والتحقيق ، لا رغبة ولا رهبة فيه ، فيكون البحث أنْور وأصفى ، وتخرج النتائج أدقّ وأوفى

وهذا مذهب فى الرأى له أثره وله خطره ، بالرغم من أنه يفوّت على المؤرخ المدقق من عناصر الحكم ما قد يسىء فى بعض الأحيان إلى حكمه ، فإذا هو طلبها تصحيحاً لبحثه ، فلن ينالها إذا نالها صادقة إلا بعد أن يتجشم فى سبيلها عَرَق القربة كما يقولون :

على أننى فى هذا لا أذهب إلى القول بنشر المعايب ، واستظهار المكاره ، حتى لا يثير المدوّنُ ثائرةَ الأهل والصّحاب والأنصار ، إنما أريد أن يجلو المعاصرُ ،

من غير ذلك ، كلّ ماله خطرٌ فى تكوين الرجل ، فإذا كانت هناك مغامز لا ينبغى إغفالُها فى تجليته وتحليله ، فليسجّلها على أن يكتمها حتى يجلّيها لوقتها ، أو يجلّيها مَن بعدَه من الأعقاب

وعلى أىّ حال فإن إغفال هــذه الأمور التى نحسبها فى غالب الأحيان من التوافه ، كثيراً ما يخلّ بحق التاريخ ، ويُفضى إلى الجهل بالجمّ من حقائق الأشياء ، ولست أجد فى هذا الباب مثلاً أيسرَ ولا أدنى إلى الحسّ من أننا ، لولا مَهبِط البعثة العلمية التى صَحبت الحملةَ الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ، ما اهتدينا بسهولة أو ما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وسَمْتهم من قرن وثلث قرن من الزمان ، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد فى مذهب التاريخ ؟

ولو قد عُنىَ أهل كل عصر بأن يحفظوا لخلفهم نماذج من ثيابهم ، وآلاتهم فى سائر حوائجهم ، وفعل هؤلاء مثــلَ فعلهم ، لظلّت سلسلةُ الأزياء واضحةً على وجه الزمان

ولعل من الخير أن أنبّه فى هذا المقام إلى أن محاولة كشف الرجل من آثاره المحفوظة لا تُجدى كثيراً فى الإبانة عن خلاله ومداخل عيشه ، حتى مظاهرها . بل إنها لكثيراً ما تكون من وسائل الضَلّة فى إثبات التاريخ . ولست أسوق لهــذا أكثر من مثلين اثنين : ذلك بأنك لو اتكأت فى طلب خلال الجاحظ على مجرّد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهدَ الناس فى المــال ، وأنه لو سَقط ليــده لكان أجودَ به من الريح المرسَلة . فإن أحداً لم ينع الشحّ ولم يذم الأشحّاء كما نعى الجاحظُ وكما ذمّ : و إن أحداً لم يؤلف كتاباً فى (البخلاء) أبلغ فيهم إيجاعا ، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعا ، كما صَنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسُه من أشد المبخّلين الذين أوفَوا على الغاية من الجشع ، والحمل على المروءة أحياناً فى طلب المــال

وإنك لو التمست مثلَ هذا فى أبى الفرج لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سمتاً ، وأنظفهم بدناً وثوباً ، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك فى طعامه وشرابه ، وغير ذلك من أسبابه . ولكن الواقع أنه كان من أشدّ الناس شرهاً ، وأقبحهم مؤاكلةً ، وأقذرهم خَلْقاً وثوباً ، حتى ليصح فى بعض خَلَّته قولُ الشاعر :

وسِخُ الثوب والعِمامة والبرْ ذَونِ والوجهِ والقَفا والغُلام !

ولولا أن معاصرى هذا وهذا أثبتوا لكلٍّ منهما ما أثبتوا لزلّت فيهما الأقلام ، وضلّت الأوهام !

* * *

بعد هذا آخذ فى حديث أستاذى ورئيسى وصديقى العالم ، الفيلسوف ، الأديب ، الكاتب ، الناقد ، السيد محمد بك المويلحى رحمة الله عليه

من أكثر من ثلاثين سنة خلَت ولمّا أزَل بعدُ فى أيام الفتوّة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرَت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) فى أربع صفحات دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يَضرب إلى الحُمرة . ويقوم بتحريرها ابراهيم بك المويلحى وابنه السيد محمد المويلحى . وكانت عامةُ الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفُسُولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود

مصباح الشرق :

لقد كان هذا « مصباحُ الشرق » شيئاً طريفاً حقاً ، لقد كان أبلغَ من طريف فإنه لأعجوبةٌ حقاً ، لقد كان هذا « مصباحُ الشرق » أبلغَ من أعجوبة ، إنه لشىء يكاد يتصل بحكم الخوارق فى تلك الأيام !

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخيَّر ، وديباجة مُشرِقة ، وصيَغ مونقة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه السهلَ الممتنع

أدب بارع ، علم وفلسفة ، و بحوث رائعة فى سياسة الأمم ، وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكَر المنشَأ ، ومنها المترجَم من مختلف اللُّغى ، فى عبارة عربية بليغة سلسة ناصحة واضحة لا تَستروِح منها أى ريح للاستعجام . وهل رأيت قط ترجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف فى النقد ، نقد الأشخاص ، لا عهد للأدب العربى به من قديم الزمان ؛ بل لعله لا عهدَ له به من أول الزمان !

لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقةُ الجِرم مرتين أو ثلاثاً حتى أصبحت من بعض شُغل الخاصة فى هذه البلاد !

لا يدخل الأصيلُ فى يوم الخميس من كل أُسبوع إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرَّشت جِبَاه ، وتقلَّصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، ووجَفت قلوب . هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ . كذلك كان يترقَّب الخاصةُ مشرق « المصباح » وسَرعان ما تخطَفه اليد الراجفة فتشقه ، وسَرعان ما يشيع البصر كلُّه فى مساحة النقد كلها ، لا يَستقرّ على موضوع خاصّ ، ولا يتحيز فى حديث معين . بل إنه لَينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل ردّ الطرف أشَكَّ المويلحىُّ اسمَ صاحبه فيمن شكَّ أم أرسله فى جملة الطُّلَقاء ؟ ! حتى إذا اطمأن الرجلُ إلى أنه قد كُتبت له السلامةُ لجُمعته ، ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نَفَسه ، و يبسُط من خَلقه ما تقبّض ، ويُفرخ من روعه ما تحبّس

و إذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيَّين ، فاحكم أنت ، عصمنا الله و إياك ، كيف كانت حال من تَنال منهم هذه الأقلام ؟

على أنه مما ينبغى أن يُذكر هنا ، أن «المصباح» لم يكن يَعرِض قطّ لأعراض من يَتولاَّهم بالنقد ، ولا يتدسَّس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم ، بل لا يتناول من أمورهم إلاَّ ما كانوا يَعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يَدُلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم ؛ فلقد كان «المصباحُ» أجلَّ من ذاك موضعاً ، وآنَفَ كرامة

وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهدَ به للأمم العربية جمعاء . وهذا النوع من النقد يقوم ، فى الجملة ، على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل ، فيَعرضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافى لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يَحضُره من فنون الاستشهاد والتمثيل ولا يبرح يمطّ الموضوعَ فى هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة ، والملابسات الدانية ، تَسندها النكتة البارعة ، ويُسعفها التندّر البديع ، حتى ينتهى إلى مالا ينتهى إليه أحدٌ من الناقدين !

ولقد كان هذا من «مصباح الشرق» الأصلَ الثابتَ لهذا اللون من النقد ، أعنى النقد (الكاريكاتورى) فى مصر . كما كانت صحيفة المويليحيَّين (أبو زيد) أولَ ماعُرِف ، فيما أعرف أنا ، من التصوير (الكاريكاتورى) فى هذه البلاد . ولعلى أُلمع إلى هذه الصحيفة فى بعض هذا الكلام

لم ينته خَطب «مصباح الشرق» إلى هذا الموضع فحسب ؛ بل لقد كان ، على أنه صحيفةٌ لا تَظهر فى جميع الأسبوع إلا مرةً واحدة ، يَروِى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة مالا تبلغه الصحفُ اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذكاء عيونها الكثيرة فى طلبه وتقصّيه ، فكانت أمهاتُ الصحف اليومية لا تتحرّج فى كثير من الأحيان من نشر مهامّ الأخبار نقلا عن صحيفة

« مصباح الشرق » الأسبوعية مضافة إليها معزوّة لها . وفضل « المصباح » فى هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل ابراهيم بك المويلحى عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا مالا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار !

ولا أحبّ أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « المصباح » أولُ من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقرية ابن الرومى ، بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان ؛ وأولُ من عالج النقد الأدبىّ لما تَنتضِح به قرائحُ الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى ، الذى جمع بين أساليب النقد فى أزكى عصور العربية ، وبين طرائقه التى اختطّها نقَدة الغربيين فى هذا الزمان

وعلى الجملة ، فلقد فتح « المصباحُ » فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى « مصباحا » حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القولَ أو اجتمعوا لنظم الكلام . وبهذا وهذا أصبح « مصباحُ الشرق » أخرَ مدرسة لطاب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد . ومما ينبغى أن يُذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاظمتهم سَطوة « المصباح » فى باب النقد فحسبوا له كل حساب ، ويا ويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين مالا يبلغه الجهدُ كلُّه من التدقيق والتجويد والإحسان

وإنى لأكتفى اليوم من حديث السيد محمد المويلحى بهذا القدر على نية العودة إليه فى القريب إن شاء الله

٢ — محمد بك المويلحى

لست أغلو إذا زعمتُ أننى فى مطلع نشأتى الأدبية كان « مصباح الشرق » عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى . وبهذا كنتُ شديدَ الإكباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيَغه وطرائف عباراته ، حتى لقد كنت أشعر أننى أترشّفها ترشّفاً لتدور فى أعراقى وتخالط دمى ، وتطبع ملكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولكن (ما كل ما يَتمنَّى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتًى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح : (أحاديث عيسى بن هشام) زادنى وزاد لِداتى به فتوناً

كيف تمثل لى محمد المويلحى ؟ :

لم تكن عينى إلى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحى ، ولا خيارَ للمرء فى تمثُّل صورة من لم يرَ من الأناسىّ ، وما لم يشهد من البقاع . فكانت الصورة التى جلاها علىّ الخيال لهذا الرجل ، صورة شابّ معتدل القدّ ، وضىء الطَّلْعة ، وسيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيان الجوهرى ليجلو علىّ من الرجل غيرَ ذلك . على أننى كنت أرى أباه ابراهيم بك الحينَ بعد الحين فى زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفى زيارات والدنا له (بعمارة البابلى) يوم كنت أصحبه . وكان هذا المويلحى تحفة من تحف العصر التى قلّ أن يجود بمثلها الزمان : قوة لسَن ، واشتعال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعته وتوفيقه فى إيراد الشاهد من عِبَر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يتعلق بغباره فيه أحد . فكان مجلسه متاعا من أعظم المتاع

على أننى لم أوفَّق إلى رؤية المويلحى الابن مرةً واحدة !

وتتابعت السنون ، وخلص تحرير « المصباح » إلى محمد ، ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطَّيَّش من أبناء (النوات) فى إحدى القهوات ، وانتهى الخبر إلى المرحوم الشيخ على يوسف ، وكان فى صدره موجدة شديدة على محمد وعلى أبيه لما كان بينه وبينهما من كيد وصراع ، فانتهز الفرصة ، ورَوى الحادثة فى صورة مهولة ، واستدرج الكتابَ والشعراءَ للقول فيها ، وفسح لهذا فى المؤيد مكاناً عريضاً . ومن ذا الذى لم يكن موتوراً من المويلحى ؟ ومن ذا الذى لم يقدر الوتر منه فى مستقبل الأيام ؟ وإذا كان الرجل عاجزاً عن أن يخرج للمويلحى وحده ، فهذه جموع الأدباء والشعراء والعلماء أيضاً قد تداكّت لقتاله بكل ما فى أيديها من سلاح ! ألاَ فليتقَدّم لطعن المويلحى من شاء أن يتقدّم ، فليس على أحدٍ فى قتاله اليومَ من بأس !

وتثور العاصفة ، ويشتدّ البأس ، وتحمرّ الحدق ، وأذّن النفير العام ، فوثب القاعد ، وتحرك الساكن ، وانبعث الجاثم ، وهبّ النائم ، وأهاب القَعَديون بالمتخلف ، واستحمسوا المتخاذل ، وشد الجميع على قلب رجل واحد . وهل كان من المستطاع أن يصمد لهذا الجيش اللجب رجلٌ واحد ؟ لم يستطع المويلحى أن يثبت فى الميدان ، فأطفأ « المصباح » ، وانسلّ إلى داره وقد ألقى يد السلام ، واحتجب ولكن فى انتظار الثأر وريّ الغلة بالانتقام !

ولقد تم للمويلحى من هذا بعض ما أراد أو كل ما أراد ، فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ على يوسف أيام حادث الزوجية المشهور ، وفتح له فى جريدة (الظاهر) باباً مثل ذلك الباب ، واستدرج له أقلامَ الشعراء والكتاب . وواحدة لواحدةٍ كِفاء

متى رأيت المويلحى وكيف اتصلت به ؟ :

بين سنتى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، لا أذكر على التحديد ، سألت صديقاً حديث العهد بصداقتى ، ولكن ودّه للمويلحى قديم — سألته وتمنيت عليه أن يجمع بينى وبينه ، وما كان أبلغ دهشى واغتباطى حين قال لى : إن المويلحى قد طالعه بأنه يحب أن يرانى ؛ ولعله عرف بى من أيام كنت أرسل القول فى الشيخ فى فتنة الزوجية شعراً ونثراً . (وأسأل الله أن يغفر لى هذا) . وتواعدنا أن نذهب إليه فى الأصيل

وكان ، رحمه الله ، قد اتخذ مسكنه داراً من دور سعيد باشا نصر ، تقع فى أطراف العباسية يومئذ . وهذه الدار لا يعطى العينَ ظاهرُها أكثر من منظر (حوش) فى قرافة الإمام ، فإذا جزت مداخلها انفرجت للعين حديقةٌ واسعة قد عبِّدت طرقُها تعبيداً ، ونُضدت أشجارها تنضيداً ، وتأنقت يد البستانى فى تسويتها وتنميقها ، كما تأنقت يد الطبيعة فى تشجيرها وتزويقها . فهذا الفلّ الوضىء الآلق ، وهذا الورد المشرق الضاحك ، وهذا النرجس تنبعث من عيونه الأسحار[1] ، وهذا الياسَمين لقد استحال تنفساً فى ساع الأسحار

ولقد أفرد زاوية من زوايا الحديقة للغزلان والطواويس وجماعات الطير من كل غَرِدٍ صدّاح

ويستقبلنى ، رحمة الله عليه ، بالبشر والتأهيل والترحيب ، وإذا بى إزاء رجل حِنطى اللون ، بين الطويل والقصير ، والسمين والهزيل ، مستطيل الوجه ، عريض الجبهة ، حادّ العينين ، مستوى الأنف ، له فم قريب إلى الفَوَهِ فى غير قبح ولا استكراه . إذا تمثل واقفاً لمحت فى ساقيه تقوّساً خفيفاً لعله دخل عليه من أنه عالج المشى قبل أن تصلُب عظامه . وله إذا تحدث صوت لا أقول خشن بل أقول

(١) الأسحار هنا : جمع سحر بكسر فسكون

جَزْل . فإذا أقبل على القراءة زرّ عينه اليسرى فبان التكرش الشـديد فى معقد ما بين أعلى العارض وأسفل الجبين ، وهذا التكرّش لاشك كان من أثر السنين ، وإن كان يخفيها فى المويلحىّ شدة عنايته بصحته ، وتكلفه ألواناً من علاج البدن بمأثور الوصفات ، والتزام الحمية فى كثير من الأوقات ، وأخذ النفس بالراحة التامة ما تستثيره أزمة من الأزمات ، ولا يستدرجه مجلس لهو ولا تقنصهُ داعيةُ لذة من اللذات ؛ وبهذا تهيأ له أن يحيا فى مثل نضرة الشباب إلى الممات

وقد تلقّانى فى غرفة الاستقبال ، وهى غرفة أنيقة حقا ، لقـد أثثت بأفخر الأثاث وأغلاه ، وأفخرُ من كل شيء فيها الأناقةُ فى تصفيف الفراش والذوق التام . وقد زُينت أجبُنُها (١) بصور كبيرة له ولأبيه ، وللأميرة نازلى فاضـل ، وللسيد جمال الدين الأفغانى ، وبألواح خطية جميلة جرت بروائع الحِكم ، وأكثرها من شعر المعرى

وخُضنا فى أحاديث من أحاديث الأدب ، ولوّنا الكلام تلويناً حتى تجاوزنا نصف الليل ، وتفارقنا وكأن حبل المودة بيننا ممدود من عشرين سنة . وتواعدنا اللقاء ما تهيأ لنا . وكذلك استمكن الإلف واستوثقت حبال الود ، فما نتفارق إلا على موعدٍ من لقاء قريب . ولقد أعيش معه اليومين والثلاثة نقرأ عامة نهارنا وصدراً من ليلنا كتباً ، أو نتذاكر أدباً

وكان ممن يختلفون إلى داره مغربَ الشمس عادةً بعضُ أقطاب العلم وأصحاب الرأى والبيان والبداءه المواتية ؛ وأذكر منهم المرحومين : عمه السيد عبد السلام باشا المويلحى (سر تجار مصر) ، والسيد محمد توفيق البكرى ، والشيخ على يوسف ، بعد إذ تصافت القلوب مما كان علق بها من الأضغان ، والسيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، وحافظ بك ابراهيم ، وعبد الرحيم بك أحمد ، وحافظ بك عوض ،

(١) الأجبُن جمع جبين

والسيد عبد الحميد البنان . أحياهما الله أطيب الحياة ؛ وخذ ما شئت فى أثناء هذه المجالس من أدب رائع ، ومن نادرة طريفة ، ومن حاضر نكتة قل أن تسخو بمثلها الأذهان

ولقد كنا نقضى معاً عامّة الصيف فى مدينة الإسكندرية . ولعل من أسعد هذه الأصياف ذلك الذى قضيناه معاً فى فندق فى ضاحية المكس خالصَين للرياضة ومراجعة الكتب فى مختلف الآداب ، لا ننحدر إلى صلب المدينة إلا لقضاء سهرة مونِقة مع آثَر الصحاب ، كما عشنا معاً فى شتاء سنة ١٩١١ ، ١٩١٢ بضعة أشهر فى دار استأجرناها فى حلوان

وفى سنة ١٩١٠ قُلد فى ديوان (عموم) الأوقاف منصِب رئيس قسم الإدارة والسكرتارية . وفى يناير من سنة ١٩١١ عينتُ فى (قلم السكرتارية) . وللمويلحى فى هذا التعيين سعىٌ غير منكور . وبهذا أصبح لى رئيساً ، كما كان لى أستاذاً وصديقاً

ولقد ظل الودّ بيننا موصولاً حتى قُبض إلى رحمة الله

نشأته ودراسته :

هو السيد محمد المويلحى بن ابراهيم بك بن السيد عبد الخالق المويلحى . أصلهم من مرفأ المويلح ببلاد العرب . هبط جدودهم مصر من زمن غير قصير ، وكانوا يتجرون فى صناعة الحرير ؛ وهم أهل نعمة وثراء . ولقد أتلف أبوه ابراهيم كل ما كان فى يده من الأموال ، فلم ينزلق عنه لبنيه إلا نِطافٌ من الاستحقاق فى بعض الأوقاف

وما أحسب محمداً تجاوز فى الدراسة المنظَّمة التعليم الابتدائى ، ثم جعل يتعلم على أبيه ، ويُكبُّ على قراءة الكتب فى العلوم والآداب . ثم اتصل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب ، من أمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ،

والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وغيرهم من أعلام عصره ، لحذَق العربية وبرع فيها ، وجوَّد البيان أيما تجويد ، وهيأ له جده واضطرابه فى أسفاره بين الشرق والغرب تجويد اللغات الفرنسية ، والتركية ، والايطالية ؛ كما أصاب حظا من الانجليزية واللاتينية . وكان كثير القراءة إلى غاية المات ، فلا تكاد تقتحم عليه إلا رأيته يعالج بالتنسيق حديقته ، أو يقرأ فى كتاب عربىّ ، أو فى كتاب يجرى فى إحدى هذه اللغات

ولقد سألته ذات يوم عن أحسن الفرص التى هيأت له أعظم حظ من العلم . فقال : كنت فى الآستانة فى ضيافة رجل فاضل يدعى سليمان أفندى ، وكانت عنده خزانة كتب تعد من أفخر خزائن الكتب الأهلية . فلبست ثيابى ذات عشية تأهباً للخروج كعادتى لأسهر فى بعض ملاهى المدينة ؛ وتفقَّدت كيسى فإذا هو صفر من الدرهم والدينار ، فنضوت ثيابى ثانية وقلت باسم الله ، ولبثت عاكفاً على قراءة الكتب لا أبرح هذه المكتبة إلا للنوم أو لغيره من حاجات الحياة . وظللت على هذه الحال ستة أشهر وبعض الشهر حتى أذن الله بالفرج ، وجاءنى من المال ما هيأ لى استئناف الحياة مع الناس !

ومن يعرف صبر المويلحى ، وشدة حَمله على نفسه ، لا يستطيع أن ينكر منه هذا المقال ؛ وسألمّ إن شاء الله بهذه الخلة العجيبة فيه عند الكلام فى عاداته وأخلاقه . وحسبى هذا الآن ، فقد أطلت الحديث ؛ وإلى الملتقى القريب

٣ — محمد بك المويلحى

نبذة فى نشأته ودراسته :

لقد عرفتَ مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصامياً بما حصّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه

فأكبَّ على الكتب دائرها ومجفوِّها . ولعل أكثر نظره إنما كان فى كتب التاريخ والسيَر ، ولو قد وقع لك صدرٌ من آثار أبيه وآثاره لرأيت لها فى مواطن الاستشهاد فطنةً عجيبة الى دقائق دقيقة ، مما يَعلَق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قل أن يفطن لها أكثر القارئين ، وقلّ أن يحفل بها أو يعلّقها من يفطن إليها من الدارسين . على أنها قد يكون لها فى دواعى الكلام مقام عظيم ، وكثيراً ما ترفعه درجاتٍ على درجات

كذلك اعتمد محمد فى تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخل رجالَ الحكم وأصحابَ السياسة فى مصر وفى الآستانة ، فعرف أساليبهم ، وأدرك مذاهبهم . ولم ينكسر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحَبَ كذلك أهل الظرف وأصحاب البدائه ، وشاركهم فى أسمارهم ، ودخل معهم فى مناقلاتهم ومنادراتهم

وعالج البيانَ من صدر شبابه ، يصقل له أبوه القول ، ويقرّب له مصطفى اللفظ ، ويأخذه بتجويد النسج ، ويهديه إلى مضارب القَلم . وسرعان ما نضج وأدرك ، وجرى قلمه بالبيان حلواً متيناً نيّراً ، ووقع من فنون المعانى على أجلّها وأكرمها . ونهج لنفسه أسلوباً خاصاً به ، إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقين من أعلام الكتاب ، فكان منه بذلك كلّه الأديبُ التامّ

واحترف صنعة القلم ، واشترك فى تحرير جريدة المقطم بضعَ سنين على ما أظن . ولا أحسبه قد شارك أباه فى تحرير الصحف التى أخرجها فى عهد المرحوم الخديو « اسماعيل » ، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده ، فهو أبعد ، فى أرجح الظن ، من حملهِ القلم ، والله أعلم !

وكان أبوه رحمة الله عليهما ، كثيرَ الاختلاف إلى الآستانة مَثوَى الخلافة يومئذ ، فكان يصحبه فى بعض الرحلات ، وقُلّد ابراهيم بك فى زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بضع سنين ، لعلها تسع إن صدَقتْنى ذاكرتى ؛ فقضى محمد فى الآستانة هذه السنين

ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارةَ مصر ، وآثر المقام فى إيطاليا دعا بابراهيم بك ليؤنسه ويسامره ، ويخدمه فى بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولده وأقاما فى نابولى فى قصر اسماعيل بضعَ سنين . ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغة التليان

ولقد طاف محمد كثيراً ببلاد أوربا ، إما موفداً من أبيه فى بعض مساعيه ، وإما متفرجاً متنزهاً . وله فى وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقال بارع بديع ، كان ينشر مُنجَّماً فى مصباح الشرق[1] وطاف كذلك بالبلاد السورية ، وزار المدينة المنورة ، ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ، ونشره فى جريدة المؤيد[2]

واستقرّ المويلحيان أخيراً فى مصر ما يبرحانها إلا للنزهة والرياضة . وأصدرا صحيفة « مصباح الشرق » . وقد مرت بك صفتها فى أول مقال . ثم طواها كما ذكرت لك ، واعتكف فى داره لا يَلى عملاً عامًّا ، حتى عين فى سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الإدارة والسكرتارية فى ديوان (عموم) الأوقاف ، وأزيل عن هذا المنصِب بعد إذ قامت الحرب العظمى ، وتبدّلت الحال ، لأسباب لا يحتمل ذكرَها هذا المقال . فعاد إلى اعتكافه لا يتدلّى إلى البلد إلا فى قضاء حاجة ، أو مساهرة من يستطيب مجالستَهم من الصحاب ، وظل كذلك إلى الشكاة التى مات فيها عليه رحمة الله ، وكانت وفاته فى يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠

(١) ألحق هذا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) فى آخر طبعاته

(٢) وكان قد دعى إلى هذه الزيارة الكريمة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالا بافتتاح سكة الحديد الحجازية

أخلاق المويلحي وعاداته :

قبل أن أطرقَ هذا البابَ من سيرة الرجل يحسن بي أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يعتريه في بعض الحديث ما يشبه الحُبسة ؛ بل لقد تتعثر الكلمةُ في حلقه فلا يستطيع أن يلفظَها إلا بمطّ عنقه ، كأنما يُمرّئ لها مجرى الصوت

ومن أهم ما يَلفت النظرَ في خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمر المرء من متعارَف الناس ومصطلحهم في عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ؛ بل لقد كان له نظرُه الخاصّ في الأشياء ، وكان له حكمه الخاص عليها ، وهو إنما يأخذ نَفْسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالي أحداً ؛ ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجيّ ، ولو كان مما انعقد عليه إجماعُ الناس . وإذا كنتُ قد نعتُّه (بالفيلسوف) فإنما أعني هذه الصِّفة فيه . فإنني لم أكد أرى رجلاً لاءم كل الملاءمة بين رأيه في أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لي من خَلّة هذا الرجل بحكم ملابستي له السنين الطوال

ولقد كانت له آراء في كثير من الأشياء لقد تبدو غريبةً ، حتى يُظن أن في طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف . وما أُحِيلُ هذا إلاّ على أنه لا يخفّ لمطاوعة الناس في كل ما يستوى من الإدراك للناس !

ثم لقد كان رجلاً يرجح عقلُه ذكاءه . وإنه ليحتاج في تفهُّم دقائق المعاني إلى شيء من المطاولة والتدبير ؛ على أنها بعد هذا تتّسق لذهنه مدرِكة ناضجة ، لا كما تخطر لحِداد الذكاء (خطرةَ البرق بدا ثم اضمحلّ) !

كذلك كان مما يلفت النظرَ في شأن المويلحي أنه شديد الاستيحاش من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألف . ولقد يكون

فى مجلس يجمع الصفوةَ من خلانه ، ومعهم رجل لا يعرفه ، فإذا هو يفتُر و ينقبض حتى يكاد (يوحش فى المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخولَ فى زحمة الناس ، والترائى للجماهير ، وما إلى هذا من مقتضَيات الظهور

ومن أجلّ صفات هذا الرجل حدّة العزم ، وقوة الصبر ، وشدة الحَمل على النفس . فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهراً للبَرم بالحياة مهما كرّثه تصرف الحياة . ولقد يكثر المالُ فى يده فيبسطها ، إلى ما يقرب من السرَف فى النفقة فى حاجاته ، و إصابة ما يحلو له من المُتَع واللذائذ . ولقد يرقّ المال فى يده ، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يبرحها أبداً ، متجملا فى عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة ، لا يسأل أحداً عوناً ، ولا يطالع الصديقَ بحاجة

كذلك كان من أجلّ صفاته الصدقُ فى القول ، ولقد عاشرته ما عاشرته ، فما أذكر والذى نفسى بيده ، أننى أحصيت عليه كذبة واحدة قطّ ، ولا من ذلك النوع الذى يتورّط فيه المرء فى مصانعة الناس ومجاملتهم ، فإن ألحت التقاليد عليه فى شىء من هذا سكت أو ورّى . ولقد أذكر أنه قابل ولىّ الأمر الأسبق فى يوم من أيام رمضان . فسأله : أصائم أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره (والله ما أكذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك ملء شدقيه من هذا الجواب

* * *

ثم لقد كان ، رحمه الله ، شديدَ العناية بالنظافة فى جميع ملابساته ، متأنقاً عظيم التأنق فى كل شىء ، يحب الزهر ويكلَف به ، ويحسن تأليفَه وتصنيفَه ، ولا يمسّ إلا أزكى العطر وأغلاه

وكان شديدَ الاحتفال للطعام ، مبالغاً فى التأنق فيه . ولربما طالع طاهيَه المرات العديدة فى مطبخه ، يتقدم إليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع

بتلك الصحفة كيت وكيت ، وهو بهذا حق خبير . فإذا قُرِّب إليه طعامه اجتمع له اجتماعَ شهوانٍ يلتذّ به أيما التذاذ . على أنه مع هذا كان حسن الأكل ، يلتزم فى تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب

وكان رجلاً طَبًّا ، كأن طول تمرينه فى النقد الكتابى قد طبعه على النقد فى كل شىء ، وأنضج ملكتَه فيه ، فلا تراه يتخذ شيئاً فى أى سبب من أسبابه إلا إذا فحص ونَقَد وتخيّر ، فما يكاد يُخدع على أمر أبداً !

وهو ، بعدُ ، يحبّ النكتةَ البارعةَ ويحتفل لها . على أنه إذا وصل المجلسُ بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال المرحومين السيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن فى الغالب هو المنشئ للنكتة والمبتكر لها . ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاّها بالتخريج والمطّ والتوليد والتلوين ، فما ينتهى أحد فى ذاك منتهاه

ومهما يكن من شىء فإن هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فإذا تحدّث فى هذا الباب فحديث المتمكن الخبير

ومما ينبغى أن يذكر له ، ويختم به هذا الحديث ، أنه رجل لم يجد الإلحاد ولا الزيغ إلى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمناً شديد الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فإن رأيت منه شيئاً من الانحراف فى تخريج مسألة جزئية من مسائل الدين ، فأحِل الأمرَ على مجرد الخطأ فى الاجتهاد والتأويل

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ، وأحسن جزاءه فى دار الجزاء

فهرس الكتاب

الباب الثانى

فى الوصف

الباب الثالث

فى التراجم

تم الجزء الأول من هذا « المختار »

ويليه الجزء الثانى وأوله : « الباب الرابع — فى الفن والفنانين »

عبد العزيز البشري



الجزء الثاني

يطلب من
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

تقديم الكتاب

بقلم عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين بك

رغِبتُ إلى الأستاذ الصديق عبد العزيز البشرى فى أن أقدِّم الجزء الثانى من كتابه المختار . فتأبَّى علىَّ وأظهر امتناعاً ثم التواء . ولم أظفَر منه بما أردت إلاَّ بعد جهد وإلحاح . وما رغبتُ إليه فى ذلك حرصاً على كتابة فصل من الفصول ، أو إيثاراً لإملاء مقال طويل أو قصير . فالله يشهد لقد أَضِيق بالكتابة حتى أكره أن أسمع لفظها . وأتبرَّم بالإملاء حتى لا أسمح لصاحبى أن يتحدث إلىَّ بذكر القلم والورق .

وما رغِبتُ إليه فى ذلك لأعرِّفه إلى الناس ، وقد عَرَفه الناس قبل أن يعرفونى . ولا لأقدِّم كتابَه إلى القراء ، فليست آثارُ البشرى من الآثار التى تحتاج إلى أن تقدَّم بين أيديها المقدِّمات . وإنما رغِبت إليه فى ذلك لأنى أرى له دَيناً فى عنق وفى عنق كثير من المثقَّفين فى هذا الجيل ، الذين يُحِبُّون الفنَّ الرفيعَ من الأدب ، ويحرصون على الاستمتاع به ، ويُخلِصون له نفوسَهم وعقولَهم وقلوبَهم وضمائرَهم . فكلٌّ هؤلاء المثقَّفين قد وَجدوا عند البشرى منذ أوائل هذا القرن ما يُرضى حاجتهم إلى الأدب العالى والفنّ الممتاز . وكلُّهم مَدينٌ له بساعات حُلوة قضاها مستمتعاً بلذة موسيقية رائعة ، كان يشترك فيها سمعه وقلبه وعقله . وأيسر ما يجب للبشرى عند هؤلاء أن يعترفوا له بالفضل ، ويُسجِّلوا له على أنفسهم هذا الجميل ، ويُشهدوا الأيام على أنهم ليسوا من الجحود والعقوق بحيث يقصِّرون فى ذات كاتب عظيم كهذا الكاتب العظيم .

وما أُحبّ أن يَظُن بي البشرى مجاملةً أو ملاطفةً ، أو مبالغة فى القول ، أو تَزيُّداً فى الثناء . فأنا أبرأ إلى الله وإليه من هذا كله فى هذا الفصل الذى أُمليه الآن . إنما هو ثناء صادق يَصدُر عن ضمير مقتنع اقتناعًا صادقًا بأن هذا الكاتب الأديب قد فَرَض على هذا الجيل لنفسه حقًا ما أحسب أنه قادرٌ على أن يؤديَه أو ينهضَ به . وما أراه يبلغ من ذلك إلاَّ أن يقدِّم إلى عبد العزيز البشرى تحية مهما تكن فهى رمزٌ متواضعٌ يسيرٌ لما يَشِيع فى النفوس ، ويتغلغل فى القلوب من شكر له ، وإعجاب به ، وإكبار لفنه الجميل .

لست أدرى أيرى الناسُ كلُّهم رأيى فى فنّ عبد العزيز ؛ ولكن الذين تحدثت إليهم فى ذلك قد شاركونى فيما رأيت ، ووافقونى على الصورة التى كوَّنتُها لنفسى من هذا الفنّ . وأَخَصّ ما يمتاز به أدب عبد العزيز أنه حُلو سمح خفيف الروح . لا يجد قارئُه مشقةً فى قراءته ، ولا جهداً فى فهمه ، ولا عَناء فى تذوُّقه وتمثُّله . ومن الفنون الأدبية الرائعة ما يكون شاقًّا عسيراً ، وغامضًا ملتويًا . وما تكون اللذة التى يُؤتيها نتيجةً لمشقته وعُسره ، وأثراً لغموضه والتوائه . فهو فنٌّ مقصورٌ على الخاصَّة ، أو على جماعة ضيِّقة من الخاصَّة . ومن الفنون الأدبية ما يكون سهلاً يسيراً ، وقريبًا دانى المنال ، لا يلتوى على أحد ولا يَشقّ على طالب ؛ ولكن إمتاعه لقرائه يسيرٌ مثلُه ، ليس عميقًا ولا بعيد المدى . لا يكاد يُذاق حتى يُنسَى ، ولا يكاد يُستَمتَع به حتى يَنقضى العجبُ منه والرضى عنه والرغبةُ فيه . فهو إلى أن يكون فنًا لتمتيع العامة وإرضائها أدنى منه إلى أىّ شىء آخر . وليس أدبُ عبد العزيز من هذا ولا ذاك . وإنما هو أدبٌ لا تتقطَّع أسبابه بينه وبين أوساط المثقَّفين . ولعل الأسباب أن تتصل بينه وبين عامَّة الناس . ولعلهم أن يجدوا فيه اللذة القوية إذا قرأوه أو سمعوا له ؛ ولكنه مع ذلك بل من أجل ذلك يرتفع ويرتفع حتى يُرضى خاصَّة الناس ، ويَبلغ إعجابَهم ، ويَنزل من قلوبهم أحسن

منزل ، ويَقع من عقولهم وشعورهم أجمل موقع وألطفه . فهو فنٌّ مُيسَّر مُمهَّد موطَّأ الأكناف ، فيه دَمَاثةُ الرجل الذى حَسُنت أخلاقه ، ورقَّت شمائله ، وظَرُفت نفسه ، واعتدل مِزاجه . فهو محبَّب إلى الناس جميعاً ، مقرَّب إلى الناس جميعاً ؛ يَرغب الناسُ جميعاً فى صحبته ، ويَكلَف الناس جميعاً بعشرته ، ويتحرَّق الناس جميعاً إلى لقائه ، ويعجِز الناس جميعاً عن فراقه وبُعد العهد به .

وما عليك إلاَّ أن تسأل من شئت من أىّ طبقة من طبقات الناس الذين يقرأون الأَدب العربى الحديث عن رأيهم فى أدب عبد العزيز البشرى ، فستَلقى منهم جميعاً رضًى وحباً وإعجاباً واستعذاباً ، وسيختلفون فى تعليل ذلك وتأويله . يَلتمسون هذا التأويل وذلك التعليل فى أمزجتهم الخاصّة ، وفى حظوظهم المختلفة من الثقافة ، وفيما يكوِّنون لأنفسهم من رأى فى الأدب ، ومن مَثَل أعلى فى الفنّ . ولكنهم سيتفقون على أنه أدب محبَّب إلى الأسماع والنفوس جميعاً .

وقد حاولت غير مرة ، فيما بينى وبين نفسى وفيما بينى وبين أصدقائى ، أن أتعرَّف مَصدر هذه الخَصلة التى يمتاز بها أدبُ عبد العزيز ، والتى تحبِّب أدبَه إلى الناس ، على ما يكون بينهم من اختلاف الطبقة وتفاوت المنزلة . وأحسبنى وُفِّقتُ إلى هذا المصدر ووضعتُ يدى عليه ، وما أدرى أيُقرُّنى عبد العزيز على ما أرى ، أم يخالفنى فيه . وما الذى يَعنينى أن يَرضى عبد العزيز من هذا أو يغضب ، فأنا لا أكتب لأُرضيه ولا لأسوءه ؛ وإنما أكتب لأَقضى دَيناً وأؤدى حقاً . ولعلى أن أُرضِى التاريخَ الأدبىَّ بعض الرِّضى .

وأول ما يَبدو لى من مَصدر هذه المزِّية التى يَمتاز بها أدبُ عبد العزيز ، أنه جمع خِصالاً ثلاثاً ، فلائم بينها أحسن ملائمة ، وكوَّن منها مِزاجاً معتدلاً رائعَ الاعتدال . فهو مصرىّ قاهرىّ كأشد ما يمكن أن يكون الانسانُ مصرياً قاهرياً ، يُحِسّ

كما يُحِس أبناء الأحياء الوطنية ، ويَشعر كما يَشعرون ، ويَحكم كما يحكمون ؛ لولا أن ثقافته ترتفع به إلى هذه الطبقة الممتازة التى تُحسن الحكم على الأشياء . وهو على كل حال قاهِرىُّ الحسّ ، قاهِرىُّ الشُّعور ، قاهِرىُّ الذَّوق . وما أراه يجد مشقةً يسيرة فى أن يتحدَّث إلى أشد الطبقات فى الأحياء الوطنية تواضعاً . وما أراه يحتاج إلى أن يَبذُل جهداً ضئيلاً فى أن يَبلُغ من الحديث إلى هذه الطبقات رِضَى نفسه ورِضَى محدِّثيه . فهذه خَصلة . والخَصلةُ الثانيةُ أنه بَغدادىّ الأدب كأشد ما يمكن أن يكون الأديب بَغداديا ، قد عاشر أبا الفرج الأصبهانى وأصحابه فأطال عشرتهم ، وتأثَّر بهم ، وانطبعت نفسه وعقله ولسانه بطابعهم . فهو إذا تحدَّث إلى المثقَّفين ، تحدَّث بلغة الأغانى ، لا يكاد يَصرفه عن هذه اللغة صارف ، إلا أن يأتى من قرارة نفسه المصرية القاهرية . فاذا هو يُلقى النكتة المصرية بارعة رائعة لاذعة ، ولكن لذعاً يُؤلم ولا يُؤذى ، إن أمكن مثلُ هذا التَّعبير . فهذه خَصلة ثانية .

والخَصلة الثالثة أنه قد ألمّ بحظٍّ من حياة المُترَفين الذين عرَفوا الحضارة الغربية وذاقوها وتَمَثَّلوها ، واستمع لأحاديثهم وشاركهم فى هذه الأحاديث . فأخذ من هذه الحضارة الأوربية شيئاً يسيراً خفيف الظِّلّ قوىّ التأثير فى الوقت نفسه ، يَستطيع أن يلائم مصريتَه الموروثة وبغداديتَه المكتسَبة . فتكوَّن له من هذه الخِصال الثلاث مِزاج غريب اشتركت فى إنشائه بغداد والقاهرة وباريس .

اشتركت فى تكوين هذا المِزاج ووُفِّقت فى هذا التكوين إلى أبعد مدًى ، إلى مدًى لم توفَّق إلى مثله فى تكوين كاتب من كتابنا المعاصرين . فأنت واجدٌ عند الكتاب المعاصرين الظاهرين هذه العناصرَ الثلاثةَ كلها ، ولكنك ترى العربيةَ تَغلِب على هذا ، والمصريةَ تغلِب على ذاك ، والانجليزيةَ أو الفرنسية تغلِب على ثالث . فأما أن تتوازن هذه العناصر وتأتلِف ، ويُحبّ بعضُها بعضاً ، ويطمئنّ

بعضها إلى بعض ، ويجتهد كلٌّ منها فى أن يُعين صاحبيه ، فذلك شىء لا تَظفَر به إلاّ عند عبد العزيز .

ومن هنا كان أدبُ عبد العزيز مُرضياً مُعجباً لطبقات المثقَّفين جميعاً . إذا قرأه الأزهريون أُعجِبوا به لأن فيه شيئاً من الأَزهر . وإذا قرأه أبناء المدارس المدنيَّة أُعجِبوا به لأن فيه روحاً منأوربا . وإذا قرأه أوساط الناس الذين ليسوا من أُولئك ولا هؤلاء ، أُعجبوا به لأن فيه رُوحاً من مصر . وإذا قرأه أهل الشَّام والعراق أُعجبوا به لأن فيه الرُّوح العربىّ الخالص القوىّ . والغريبُ أَن التآم هذه العناصر قد أَتاح لعبد العزيز ما لم يُتح لكاتب آخرَ من المعاصرين . فهو أكثر الكتاب المحدَثين اصطناعاً للنكتة البلدية . يَصطنعها بلغتها العامّية فى غير تكلّف ولا تحفّظ ولا احتياط . يأخذها من حىّ السيدة أو من حىّ باب الشعرية ، فيضعها فى وسط الكلام الرائع الرصين الذى يمكن أن يقاس إلى أروع ما كتب أهل القرن الرابع والثالث للهجرة . فاذا نكتته البلديّة العامّية مستقرّة فى مكانها ، مطمئنة فى موضعها ، لا تُحسّ قلقاً ولا نُبوًّا ، ولا يُحسّ قائلها قلقاً ولا نبوًّا ، ولكنها تَفجَؤه فتعجبه وتملأ نفسه رِضًى . ثم هو يُحِسّ أن الكلام ما كان ليستقيم لولا أن هذه النكتة قد جاءت فى هذا الموضع واستقرَّت فى هذا المكان .

وهذا الذى يَصنَعه بالنكتة البلدية فى يُسر ولباقة لا يَعرِف سرَّهما أحدٌ غيره . ولعله هو لا يَعرف سرَّهما . ولعله لا يَتعمَّد ذلك ولا يَصطنعه ، وإنما هو وحى الطبع وإملاء الفطرة . هذا الذى يصنعه بالنكتة البلدية فى يُسر ولباقة يَصنعه بالكلمة الأوربية أو الجملة الأوربية . فأنت تقرأ الفصل من فصوله فما تشك فى أنك تقرأ لبديع الزمان ، وإنك لفى ذلك وإذا كلمة فرنسية تفجؤك فلا تزيد على أن تذكرك بأنك تقرأ لعبد العزيز البشرى ليس غير .

وأغرب من هذا أنه يجمع بين الكلمتين الأوربية والبلدية فى جملة واحدة من سياق عربى رصين ، فاذا هذا كله يأتلف وينسجم كأحسن ما يكون الائتلاف والانسجام . ألم يجمع فى جملة واحدة هذه الكلمة الفرنسية « موريه » وهذه الكلمة البلدية « الألاج » . فاقرأ الجملة العربية الرصينة التى اجتمت فيها هاتان الكلمتان ، فلن ترى فيها نبوًا ولا قلقاً ولا اضطراباً . هذا على أن أحدنا قد يحتاج إلى أن يُورد الكلمة البلدية أو الأوربية فى سياق الكلام الهين الذى لا يتكلف فيه رَصانة ولا جَزَالة ، فيدور حول هذه الكلمة ويدور ، ولا يأمن مع ذلك أن يتورَّط فى الثِّقَل والاستكراه !

وأخرى تُعيننا على تعرُّف المصدر لما يمتاز به فنّ عبد العزيز ، وهى أنه قوى الحسّ إلى درجة نادرة حقاً . لا يكاد يمرّ به شىء إلاَّ التقطه التقاطاً ، ورسمه فى نفسه رسماً . يخالطها مخالطة حتى يصبح كأنه جزء منها . ثم هو لا يكتفى بالتأثر والتقاء ما يَعرِض لنفسه من الأشياء والخواطر ؛ ولكنه سريع التأثر سريع التأثير . فهو إذا أحسّ لا يُكنّ ما يُحسّه ؛ ولكنه يُعلنه ويُظهره . فهو يتلقى الأشياء مُسرعاً ، ويَعكسها مُسرعاً . وتَعمَل نفسُه الخفية أو ضميرُه المكنون فيما بين ذلك عملَها الغريب الذي يُظهر خواطره وأحكامه وتصويره للأشياء كأروع ما تكون الخواطر والأحكام والتصوير !

من أجل هذا كلِّه كان عبد العزيز مدرسةً وحدَه فى هذا الجيل ، لا تستطيع أن تُلحِقه بهذه البيئة أو تلك من بيئاتنا الأدبية ، ولا تستطيع أن تَصِله بهذه المدرسة أو تلك من مدارسنا المنتجة فى الشعر والنثر . وكنت أظن فى أول الأمر أنه بقية لمدرسة قد مَضَى أكثرُ أعضائها . بقية لتلك البيئة التى كان يَضطرب فيها المويلحى وحافظ والبابلى رحمهم الله . ولكنى رأيتُه يَعرِض لأشياء ما كان أحدٌ من

هؤلاء يستطيع أن يَعرض لها ويلج موالج ما كان أحد من هؤلاء يستطيع أن يفكر فيها ، ثم يمرق منها كما يمرق السهم من الرمِيَّة . وقد ظفِر بكل ما أراد وبأكثر مما أراد . وما أشك فى أن تلك البِيئة الطريفة اللبقة الموفَّقة ، لو اجتمعت كلها لكتابة فصل عن الطيارة كالذى كتبه عبد العزيز ، أو فصل عن أحمد ندا ، أو فصل عن حسن غَندَر ، لما ظفِرت من ذلك ببعض ما ظفِر به . إنما كانت الإجادة تتاح لأعضاء تلك البِيئة سهلة ميسَّرة ، ولكنها عادية مألوفة لا تبلغ الروعة إلا نادراً . فأما صاحبنا فانه يستطيع أن يبدأ الفصل رائعًا ويَمضى فيه رائعًا . ونحن نستطيع أن نعدّ له فصوله العاديَّة . فأما فصوله الممتازة فهى أكثر ما كتب . ماذا أقول ؟ : تستطيع أن تَسمع له وهو يتحدَّث جادًّا أو هازلاً ، راضيًا أو ساخِطًا ، فان استطعت أن تَملِك نفسَك وتردّها عن الإعجاب به فأنا مخطئ ، ولكنك لن تستطيع ! .

ومن أجل هــذا أيضًا لم يكن عبد العزيز مدرسةً وحدَه فحسب ؛ بل كان مدرسةً لا تلاميذ لها . فكما أنك لا تستطيع أن تُلحِقه بهذه البِيئة الأدبيّة أو تلك ، فأنت لا تستطيع أن تُلحق به هذا الكاتب أو ذاك . فنُّه على سُهولته ويسره وقُربه من الناس جميعًا ، أرفعُ وأَعسرُ وأَشدُّ استعصاءً من أن يَتعلَّق به المتأثِّرون والمقلِّدون . ولذلك لم يتعلَّق به أَحد ولم يحاول تقلِيده أحد . وظلّ عبد العزيز واحداً فى فنِّه ، وسيظل واحداً فى فنه ، يستمتع بآثاره الناس جميعًا ، ولا يستطيع أحدٌ من هؤلاء الناس أن يَلحَق به أو أن يحاكيه ، أو أن يَزعُم لنفسه القدرةَ على أن ينقل فنَّه إلى الأجيال المقبلة .

سيبقى فنّ عبد العزيز لأنه فوق التقليد الذى يبتذل آثار الأدباء . ولأن شخصية صاحبه فذَّة ليست شائعة ولا يمكن أن تكون شائعة .

أفترانى بعد هذا قد استطعت أن أُعلِّل هذه المزيَّة التى يمتاز بها هذا الكاتب الفذّ ، أما أنا فلا أدرى ولكنى أعتقد أنى قد اهتديت من ذلك إلى شىء ، ولعل هناك أشياء ليس الاهتداء إليها يسيراً .

أفترانى بعد هذا محتاجاً أن أطوف بك كما فعل صديقنا مطران فى هذا المتحف الذى يقع بين دفتى هذا الجزء . أما أنا فلا أرى ذلك ولا أميل إليه، ولا أريد أن أكون دليلك بعد هذه الفصول الرائعة، لأنى لا أريد أن أعرض نفسى لما يتعرض له الأولاد ، ولا أحبّ أن تقول لى ما أنت وذاك ؟ أرحنى من صوتك الغليظ ، ومن لهجتك العنيفة الفظة وخلّ بينى و بين هذا الفن الرائع والأدب الرفيع .

لك علىّ ذلك يا سيدى فخذ فى قراءة هذه الفصول وأنا زعيم بأنك لن تتركها حتى تفرغ منها . ولعلك لا تفرغ منها إلا لتستأنف النظر فيها فإنى قد جرَّبت ذلك من قبلك .

طه حسين

الباب الرابع

﴿ فى الفن والمفتنين ﴾

فى الفن وحده*

يُريدُنى صديقى الأستاذ العالم الأديبُ محرر « الهلال » على أن أقولَ مقالاً فى موضوع الفنّ والجمال ؛ على أننى من جانبى قد قدّرتُ ، بادئَ الرأى ، أن المدَى المقسومَ لا يتّسع لهـذين معاً ، فلنكسِر حديثَ اليوم على (الفنّ) ، ولنُرجئ القولَ فى الجمال ، فله إن شاء اللهُ إذا امتدَّ العمرُ مجال .

ما الفن ؟

ولقد كان أول ما انبعث فيه ذهنى هو التماسُ أُفقِ هذا الفنِّ وتَرَسُّم حدودِه ، وماذا يراد به اليوم فى مُتَعارَف الناس ؟

فى الحق أننى لم أُصِبْ فى كلّ ما وقع لى من كلام المتقدّمين والمتأخّرين من أصحاب العربية إلى زمن قريب تخصيصاً لهذه الكلمة بذلك المعنى الذى يُتَناول اليومَ بكلمة (Art) . فلم أر بداً من مراجعة مُعجَمات اللغة العربية تحقيقاً لأصل الوضع اللغوى لكلمة (فنّ) ، ووجوه تصرُّفها فى مختلف المعانى بالاشتقاق والتجوُّز وغير ذلك من أسباب الدّلالات . وقد اعتمدت فى طلب هذه الغاية من متون المعجَمات لسانَ العرب ، وصِحاحَ الجوهرىِّ ، والقاموسَ المحيط ، وأساسَ البلاغة ، فخرج لى من كل أولئك ما أنا مُورِده عليك فى إيجاز ولكن فيه الغَناء .

---

* نشرت فى مجلة الهلال فى يوم أول نوفبر سنة ١٩٣٥

الفن في اللغة

الفنّ واحد الفنون، وهي الأنواع . والفنّ الحال . والفنّ الضَّرب من الشئ .
والجمع أَفنان وفنون، يقال : رعينا فنونَ النَّبات . وأصبنا فنونَ الأموال .
والرجل يَفتَنُّ الكلام : أى يَشْتقُّ فى فنّ بعدَ فنّ . والتَّفنُّن فِعلك .
ورجل مِفَنٌّ (بكسر ففتح) : يأتى بالعجائب . وذو فنون من الكلام .
وافْتَنَّ الرجلُ فى حديثه : إذا جاء بالأفانين . افتَنَّ الرجل فى كلامِه وخصومتِه :
إذا تَوَسَّع وتصرَّف . وافتنّ أخذ فى فنون من القول .
والفَنَّان (بتشديد النون الأولى) : الحِمار الوَحشىّ .
وتُطْلقُ هذه الكلمةُ أيضًا فى بعض تصرُّفاتها على معانٍ أُخَرَ لا مَحَلَّ للإشارةِ
إليها فى هذا المقام لأنها لا تَتصل بما نحن فيه من قريب .

*
* *

وبعد . فأنت تَرى أن كلمةَ « فنّ » إنما تدلّ بالوضع اللُّغوى على النَّوع ،
والحال . ويدلّ الفعلُ منها « فَنَّن » الكلامَ على الاشتقاق فى فنّ بعد فنّ ،
أى التصرُّف فيه نوعًا بعد نوع .

ومهما يكن من شىء ، فان دلالةَ هذه المادة ، فى هذا المعني ، تكاد تكون
مقصورةً على التصرُّف فى فُنون الكلام . وللعرب فى هذا عذرُهُم إذ كان جُلُّ
همِّهم إلى « فنّ » الكلام . على أنها قد امتدَّت مع الزمن حتى تناولَت كذلك
بعضَ معانٍ أُخَر ، وسيأتى فى ذلك الكلام .

ثم لقد رأيتَ أن العرب لم يُطْلِقوا كلمةَ « الفَنَّان » إلاَّ على الِحمار الوحشىّ[١] .
على أن إطلاقَها على المعنى الذى يُطْلِقها بعضُهُم عليه اليوم (Artiste) ليس مما

(١) فى القاموس المحيط فنان كشداد : الحمار الوحشى له فنون من العَدْو

يُعْيِي على وَسَائِل العربية . لولا أنَّ استعارة اسم الحمار للانسان مطلقاً ، فضلا عن الانسان الحاذق الصَّنَع ، قبيح !

ولقد سَلَف عليك أنه يقال رجل « مِفَنّ » (بكسر ففتح) : يأتى بالعجائب . ولا شك فى أن هذا أصحُّ تعبير وأدقُّه للمعنى المراد ، لولا أن اللَّفظةَ جِدُّ قريبةٍ من لفظة تَنفِر الآذانُ منها أشدَّ النُّفور . إذن لم تَبقَ حيلةٌ إلاَّ أن نَصِيرَ فى أداء هذا المعنَى إلى اتِّخاذِ كلمةِ « مُفْتَنّ » أو « مُتَفَنِّن » ، وهما صحيحتان على كل حال .

كيف تطورت كلمة الفن والى ماذا صارت اليوم ؟

قلت لك إن كلمةَ « الفنّ » قد تصرَّفت فى بعض معانٍ أُخَر غيرِ تلك المعانى التِى أُطلقت عليها بأَصل الوضعِ اللُّغوىِّ ؛ ذلك بأنه لم تَكد الدولةُ العربية تَنبعثُ فى الحضارةِ حتى أرسَلَت كلمةَ « الفنّ » للتعبير عما يقابل كلمة « العِلم » ، فما كان قِوامُه إرسالَ القضايا الكليــةِ التى يُتعرَّف بها أحكام ما يَندرِج تحتَها من الجزئيات ، فذلك علم . وما كان قِوامُه العملَ الجارى طوعًا للأصولِ والأحكامِ المقسومةِ ، فذلك فنّ . فيقال عِلم الأصول ، وعلم الفقه ، وعلم النَّحو ، وعلم الصَّرف ، ولا يقال فى شىء من ذلك فنّ . ويقال للخَطابة ، وقَرْض الشعر ، والموسيقى فنّ ولا يقال علم .

فقد بَانَ لك أن العلم مادَّتُه الفِكر والنَّظَر ، وأن الفنّ مادتُه العمل والأثر .

ولقد يَتَبهَّم الفرقُ الدقيقُ بين العلم والفنّ على بعض الناس حين يجدون بين أَهل اللسان مَن يُعبِّر عن الموسيقى مثلاً بعلم الموسيقى مرة ، وبفنّ الموسيقى مرَّة أخرى ، وعن البلاغة بعلوم البلاغة تارةً ، وبفنّ البلاغة تارةً أخرى ، وهكذا :

والواقعُ أن الموضوع الواحد قد يكون علماً وفناً معاً . ولكنه إنما يكون هكذا من ناحية ، ويكون كذلك مِن ناحية أخرى . فنحن إذا طلبنا الموسيقى مثلاً من جهة القَضَايا العامّةِ من نحو تقسيم النَّغَم إلى أصلية وفرعية ، وأن هذه النغمة لا يُفضَى منها إلى تلك إلاّ بطريق كذا ، وأن هذه لا تَقع فى جواب تلك إلاَّ بشرط كذا الخ ، فلا شك أن « الموسيقى » على هذا علمٌ لا فنّ . فإذا غنَّانا المغنِّى بالفعل فتصرَّف فى فنون النغم طوعاً لتلك الأحكام ، فلا ريب فى أن « الموسيقى » على هذا فنٌّ لا عِلم .

وكذلك قُلْ فى علومِ البلاغة ، فما قَرَّرت من أحكام الفَصل والوَصل ، والإيجازِ والإطنابِ والمساواة ، والاستعارةِ والتَّشبيه ، والجِناس والتَّورِيةِ والتقسيم الخ ، فتلك علومُ البلاغة ، حتى إذا أَرسلت القلم بالكلام البليغ ، فذلك فنّ البلاغة .

لَتَفَنَّنتَ فى الكتابةِ حتى   عَطَّلَ الناسُ فَنَّ عبدِ الحميدِ[1]

وكذلك القولُ فى الهندسة ، وفى كل ما تجرِى عليه أحكامُ القضايا النظرَّية ، بحيث يمكن أن يكون له أَثَرٌ محسوسٌ فى خارج الأعيانِ كما يقولون .

على أن العامَّة فى مصر ، بوجهٍ خاصّ ، قد تَبسَّطوا بعد ذلك فى هذا الباب حتى دَعَوا كلَّ مِهنةٍ فَنّاً ، وحتى أصبحوا يَكْنُون أصحابَ (الكيُوف) بأولاد الفنّ . ولعلَّ الوجهَ فى هـذه النُّـكتةِ أن ما كان يَتَناوله الصُّناع إلى الجيل الماضى من (فنون) المخدِّرات ، كان يُعينُهم ، ولو إلى حين ، على طول الصَّبر فى سبيل التَّأَنُّق والتَّجْويدِ والإتقان !

وكيفما كانت الحال ، فان اللغةَ فى اطِّرادِها وتَوسُّعها لم تكن تَأبَى إدراجَ هذه

---

(١) البيت للبحترى . و (عبد الحميد) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور

الحِرَفِ فى جريدة (الفُنُون) ، لأنها وإن لم تُقعَّد لها القواعدُ وتُعقد لها القضايا فى الكتب ، إلاَّ أن أصحابها قد تَغَنَّوا عن ذلك بطول العلاج والتمرين ، وما كَشفت لهم التَّجَاريبُ على طولِ السنين .

وقد جَرَّدَ المتأدِّبون المصريون من أبناء هذا الجيلِ كلمةَ (الفُنون) للفنونِ الجميلةِ خاصَّة ، فجعلوها بذلك ترجمةً لكلمة (Beaux Arts) فى لغة الفرنسيين ، وعلى ذلك أصبحت كلمة (الفنَّان) ، استغفر الله بل (المُفتنّ) أو (المتفنِّن) ترجمةً لكلمة (Artiste) ، ويَعنُون بها صاحبَ الفنِّ الجميل .

ولا يذهب عنك ، فى الغاية ، أن وصفَ بعض الفنون (بالجميل) لا ينافى ، بل إنه ليقتضِى ، أن هناك فنوناً أُخَر ، وإن كان لايوصف شىء منها (بالجميل) . وكذلك بَقِىَ اصطلاحُ الجمهرَة على المراد من (الفنّ) قائماً فى الجملة ، وإن كان بعضُ المتأدِّبين اليومَ يأبى إلاّ أن يَقصِرها ، كما أسلفنا ، على (الفنّ) الجميل .

استمرار الفنون وتطورها :

وبعد إذ فرغنا من تاريخ هذه الكلمة من أولِ مَنْجَمِها فى مُتواضَعِ العرب الأولين ، وتصرّفها فى وجوهِ المعانى حتى مَصِيرِها اليوم — بعد هذا يحسُن بنا أن نُلِمَّ إلمـامةً يسيرةً بنشأة الفنون وتطوّرها واضطرابها بين مختلف الأوضاع والأشكال .

لا شكّ فى أن مَنشأ الفنون على وجه عامّ إنما هو الغريزة . فالحاجةُ هى التى تَدفع الانسانَ إلى أن يَبتكِر الفنّ ابتكاراً ، أو أن يَنقلَه نقلا ويقلِّدَ فيه تقليداً ، سواء أكان ذلك عن الحيوان أم عن الطبيعةِ نفسِها ، بحيث يكون هذا النقلُ والتقليدُ على الوجه الذى يُوائمه ويُواتى أسبابَه .

وأريد « بالحاجة » ما يَعمُّ الضروريات والكماليات جميعاً . فحاجةُ الانسان الى الثَّواء فى المأمن هى التى هَدته إلى بناء الدور ، وحاجته إلى عبور الأنهار هى التى هَدته إلى إقامة الجسُور . ومن ثم نَجم فنُّ الهندسة . وقل مثلَ هذا فى سائرِ الفنون التى تدعو إليها ضرورات الحياةِ . كما أن استراحتهُ إلى تنغيم الطيورِ وتسجيعِها ، وتغريدها وترجيعِها ، وما يجد لذلك من طرب ويملكه من أريحية ، قد بعَثه هو الآخر على التنغيم والترنيم . وكذلك نشأ فن الموسيقى . وقُل مثلَ هذا فى كل فن جميل .

وبعد ، فأنت خبيرٌ بأن الفنونَ كلَّها وإن نشأَتْ بسيطةً غايةً فى البساطة ، ضئيلةً غاية فى الضآلة ، بحيث لا تُواتى إلا أدنَى الحاجة ، فانها على الزمن لا تفتأ تَتَّسع وتتركَّب ، وتتشكَّل وتتلوَّن ، طوْعاً لسُنَّةِ الاطِّراد فى تفقُّد سائر مطالب الحاجةِ أولاً ، ثم التدرُّج فى التماس الأحسن ثانياً ، ثم التأنُّق فى ابتغاء الكمال ثالثاً . ولا يزال الانسان يجِدّ فى السعى لبلوغ هذا الكمال ؛ ولكنه غيرُ بالغه مهما تراخى الزمان بحال !

ولقد تعلم أن الفنون فى تطوُّرها وتلوُّنها وتهذُّبها وارتقائها ، والأساليب التى يجرى فيها كلُّ أولئك ، خاضعةٌ للزمان والمكان ، والجوّ ومألوف العادات ، ومأثور التقاليد ، وحظّ القوم من التعليم والتّثقيف . ذلك شأن الفنون كلِّها ، ضروريُّها وكماليُّها فيه بمنزلةٍ سواء .

* * *

هذا ما هدانى إليه الفكر فى أمر (الفنّ) . فاذا كان القلم قد زَلّ فى بعض الرأى ، فأرجو أن يَدلّنى العالِمون على وجه الصّواب .

فى الفن*

لا أحاولُ أن أُعالج فى هذا الباب بحثًا علميًّا يقوم على نَظْم الأدلّة ومدافعة الشُّبَه . إنما أريد أن أعرِض ما سَنَح لى فيه من الخواطِر وما تنظَّر[1] من الأفكار .

إنك لَترَى المرأةَ التامّةَ أو الفتاةَ الكَعاب فيتداخلك العُجْب بها فتروح تَهتِف بجمالها . وإنك لَتَرى طاقةَ الزَّهر قد ائتلفَت وتناسقَت أنوارُها[2] فتروح تَهتِف بجمالها . وإنك لَتَسمع الصوت فيَلَذّ لك جوهرُه ، ويُطربك إيقاعه ، وتحلو لنفسك نَبرته ولطف تنغيمه ، فتروح تَهتِف بجماله . وإنك لَترَى البيتَ يَروقك مَنظَره ، ويُعجبك حسنُ نظامه ، فتروح تَهتِف بجماله . وكذلك القولُ فى كل ما يَخلُبك ويروعك مما يَقَع لِحسّك . ولاشكّ فى أن ما يَعتريك عند هذا كلّه من الانفعالِ إنما هو من أثر الجمالِ فى نفسِك . ولو قد أقبلْتَ على نفسِك تيك تسائلها : ما الجمال ؟ ما استرحت منها إلى جواب !

أما الجمالُ فموجودٌ حقًا . وإن محاولة التَّدليلِ على وجوده لَضَرْبٌ من العبَث . وهو مُدرَكٌ حقًا ، لأننا نُحسُّه ونشعر به كلّما تجلى علينا فى معنًى من معانيه .

نعم ، نحن نُحسّ الجمالَ فى الأنسان ، ونُحسّه فى الحيوان ، وفى النجوم الآلِقة ، وفى الآجام الباسقة ، وفى اللُّجّ القامس[3] ، وفى الجبل الشامس[4] . وفى الغدير الناعس . وفى الزَّهرة تَطلَّعتْ من كِمّها ، وعاذت بغُصنِها عِياذَ الطِّفلة بثَدى أُمِّها . كما نُحِسّ الجمالَ من حَلْق المغنِّى ، ويد العازف ، وريشة المصوِّر ، وشِعر الشاعرِ ، ورسم المهندس . وغير أولئك من كل حاذقٍ صَنَّاع .

---

* « نشرت فى (البلاغ الأسبوعى) فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٧ »

(١) تنظر له : تراءى (٢) الأنوار هنا جمع نَـور بفتح النون : الزهر أو الأبيض منه
(٣) الماء البعيد الغور (٤) النافر

نُحسّ الجمال ونشعر به . وكثرةُ الناس ، على الأقلّ ، ترتّبه فى كلّ مظهر من مظاهره على درجات ، فيقولون : هذه الخريدةُ أجملُ من تلك الخريدة . وهذه الطاقةُ أبهَى من تلك الطاقة . وهذا الأناء أظرفُ من ذلك الأناء . وهذا الصوتُ أحلَى من ذلك الصوت . وهذا المصوِّرُ أبرعُ من ذلك المصوِّر . وهـذا الشاعرُ أروعُ من ذلك الشاعر الخ .

ولو قد سألتَهم القاعدةَ التى رسَمت لهم حدودَ الجمال ، وعرّفتهم جميعَ منازله ، حتى فضَّلوا بعض مظاهره على بعضٍ لأَعياهم الجواب . ذلك بأنهم لا يرجعون فى حُـكمِهم ولا فى تقديرِهم إلى قواعدَ محدودةٍ معيَّنة ، كما يَرجعون بجزئيَّات النَّحو والمنطقِ مثلاً إلى قواعدَ محدودةٍ معيَّنة ، فيقولون هذا التعبيرُ يَصحّ على لغة التَّميميين دون الحجازيين ، أو أنه إنما يَجرى على لُغَيَّة ، أو أنه شاذّ ، أو أنه لَحنٌ صريح . وأن هذه القضية منقوضة ، أو أن هذا القياس مُختَلّ لأن صُغرَى مقدّماته لا تَندرِج فى كُبراها — بل إنهم إنما يرجعون فى قضيةِ الجمال وترتيبِه فى كلّ سببٍ من أسبابِهِ ، و إيثارِ بعض مظاهِره على بعض ، إلى ما يروقهم و يَخلبهم و يَتمشَّى فى نفوسِهم من الطَّرب والإعجاب .

وهنا لا نجد بُدًّا من أن نعودَ فنقولَ ما الجمال ؟ . لا أحسب أحداً من الناسِ وُفِّق إلى إدراك كُنه الجمال فحدَّه بذاتيَّاته حداً ، على تعبير المناطِقة ، و إن كانوا عرّفوه بآثاره . ولعل أدنَى تعريفاتِ الجمالِ إلى الصواب : أنه كلُّ ما يَستريح إليه الذَّوق و يُثير الاعجابَ فى النَّفْس .

ولقد حاول الصُّدُورُ الأوّلون أن يَضبطوا حُدودَ الذَّوق ، و يَدلُّوا على ما يُرضيه وما يَنشُز عليه ، فوضعوا فيما وضعوا فى هذا الباب فنَّ الموسيقى ، وعلوم البلاغة[1] .

---

(١) كانت كثرة العلماء إلى زمن قريب يخرجون البلاغة عن الفنون الجميلة . على أن الكثيرين أصبحوا يعدونها منها .

وهنا ينبغى أن يفهم النشءُ حقَّ الفهم أن استمداد مثلِ هذه الفنون ليس من الأمورِ الواقعة، ولا هو من أحكامِ العَقل، كاستمدادِ علوم الكيمياء والطبيعة، والحساب والمنطق مثلاً. إنما مادّتُها الذّوق السليم، وتعرُّف ما يرضيه، وتَقَصِّي ما يُطربه. وعلى هذا أجرَوا قواعدهم، وفى حدوده أطلقوا أمثلتَهم وشواهدَهم.

وأحبُّ، بعد هذا، أن تعرف فرقًا جليلاً بين شأن العلومِ وشأن الفنون. فانك بمدارسة العلوم والتمرين فيها، تستطيع أن تكون، بقدر مَّا، منتِجاً، أى تكون كيميائيًّا أو طبيعيًا أو حاسبًا. أما فى الفنون فانك، فى الأكثر، تستطيع أن تكون بصيراً بالفنّ ومميِّزاً بين جيّدِ الصَّنعةِ ورديئها، كما تستطيع أن تَرفع جيّدَها فى التقديرِ دَرَجاتٍ على دَرَجات، وتَحُطّ رديئَها دَرَجاتٍ دُونَ دَرَجات. أما أن فنَّ الموسيقى يؤهلك لأن تكون مغنِّيًا بارعًا أو عازفًا رائعًا، وأن علوم البلاغة تستطيع أن تُخرِج منك كاتبًا لَبِقًا أو شاعراً فَحلا، فذلك ما تَتَحسَّر دونه تلك الفُنون!

ذلك أن البراعة فى هذه الفنون الجميلة إنما ترجع أولاً إلى الاستعداد والطبيعة وتهيُّؤ المَلَكة. على أن التعليم والتهذيب إنما يصقِلان الطبيعةَ صَقلاً ولا يخلُقانها خلقًا. وإنك وإن غيرك ممن جرَوا من أُصولِ الصنعةِ على عِرْق. لَتقضون بالتفوّق والتَّبريز لهذا المغنّى على ذلك المغنّى إذ أنتم كلكم جازمون بأن هذا المسبوقَ أَبلغُ خبرةً وأَغزرُ علمًا، كما قد تَحكمُون بأن هذا الشَّاعر أَبلغُ من هذا الشاعر وأَحلى كلامًا، وأَبرعُ مَنزَعًا، وأَروعُ مَقطَعًا، إذ أَنتم كلكم قاطعون بأن هذا المبروعَ أَوسعُ باللغة علمًا، وأكثرُ لعلوم البلاغة تحصيلاً وأَصدقُ فهمًا!

والوجهُ فى هذا أَن العلوم التى تستند قضاياها إلى العقل أَو إلى الواقع كالحساب والمنطق والطبيعة، إنما يكون التبريز فيها، فى العادة، على قدر ما حَصَّل المرء من قواعدها، وتفهَّم من قضاياها ومسائلها. أَما الفنون التى تستند قضاياها إلى الذَّوق،

فالبراعةُ فيها إنما تَجرِى على بَراعة الذّوق نفسه ، لا على العلم بالقضايا الاصطلاحيّة التى تَحرّى بها علماء الفنّ ضبطَ ما يُرضى هذا الذّوق وما يَنشُز عليه . و إنك لا تجد فى الدنيا رجلاً واحداً دَرَس فنَّ الطبقة وضروب النَّغم ، وضبط حدودها ، وعرف ما يستقيم على الصَّبا وما يتَّسق من التناغيم للعراق . ثم أقبل يَمُطّ حلقَه متأثِّراً هذه القواعدَ الفنيّة ، فانتظَم مغنياً حاذقاً يُشيع الطَّربَ و يبعث الأَريَحية فى النّاس !

وكذلك قُل فى سائر هذه الفنون . و إنك لَتَجد آلافاً من الناس أعلمَ من مثل شوقى بمَتن اللغة و بأوزان الشِّعر وما يَلحقَه من زحاف وعِلل ، وأفقه فى علوم البلاغة وسائر أسباب الكلام ، و إذا شوقى يَسْجَع بأعلى الشِّعر ، و إذا أولئك لا يَبعثون إلاّ الفسلَ المليخَ[1] من المقال .

و إنك لَتَجد كثيرين من الضرّاب أعلمَ من محمد العقاد بالموسيقى ، وأحفظَ لأُصولها ، وأضبطَ لقواعدها ، فاذا أَطلقوا فى (القانون) أيديَهم لم يُحرِّكوا منك ساكناً . حتى إذا أَرسل العقادُ فيه بَنانَهُ ، أَخذ منك العجَب ، وتَمشَّى فيك الطَّرب . ولربما ارتفع بنفسك وأدخل عليك من الأَريحيَّة ما يخيِّل إليك أنك أصبحت على المؤمنين أميراً !

والواقع أن العبقرية فى الفنّ لم تُعرَف علَّتُها ولا سببُها للناسِ ولا للعبقريين أنفسهم . ولقد تسأل العامّةَ وأشباهَ العامّة عن فلان المغنى أو القارىء : بماذا كان أبرعَ أهل فنّه حتى ذهب له ما لم يذهب لهم من صيتٍ وذِكْر ، وليس بأنداهم صوتاً ولا بأعرقهم فناً ؟ فيجيبونك من فورهم « فتوح من الله ! » . ولقد تسألهم عن العقاد بماذا تفرّد (بالقانون) دَهراً طويلاً لم يتعلّق بغُباره أحد ؟ فيجيبونك (حلاوة إصبع) يا سيدى !

---

(١) الفَسل بفتح فسكون : الضعيف . والمليخ : الفاسد الزنخ

ولقد تسأل الخاصَّةَ عن الشاعر فلان أو الكاتب فلان ، وبماذا بَرَعا وبَذَّا ؟ فيُجيبونك : « إنها الموهبة ! » . ولا أرى بين مذهب العامَّةِ ومذهب الخاصَّةِ فى هذا فَرقًا كبيراً ولا صغيراً ، فكلاهما يَدلّ على تمامِ العَجز عن إدراكِ ذلك الشىء الذى تَتهيَّأ به العبقريةُ للمرء فى فنٍّ من الفُنون !

والآن يمكننا أن نحدّد الفرقَ بين البَراعة فى الفنّ والبَراعة فى العلم : فالتبريزُ فى العلم أساسُه تحصيلُ قضاياه وحُسن تفهُّمِها . والاستعدادُ والذَّوقُ شرطانِ فيه . أما التبريز فى الفنّ ، فأساسُه الذَّوقُ والاستعداد ، وتحصيلُ قضاياه وحسنُ تفهُّمِها شرطٌ فيه .

ومما يجلو لك هذا المعنى ويُنير سبيلهُ بين يديك ، أنك لا تستطيع أن تَحكُم بصحَّة القضيَّة الرياضيَّة ، أو المنطقية ، أو بفساد النظرية الطبيعية ، إلاَّ إذا كان لك إلمامٌ بالعلم وبصيرةٌ فيه . على أنك تقرأ شعرَ الشاعرِ فيروعك ويُعجبُك ، وتَسمَع غِناء المغنِّى فيهزّك ويُطربُك ، وتَرى صورةَ المصوّر فتروقُك وتخلبُك ، فى حينِ أنك لم تُحصِّل من قضايا تلك الفُنون كثيراً ولا قليلاً ! ذلك بأن مَرجع الحكم فيها ، كما قلنا ، إلى الذَّوق أولاً . والذَّوقُ غريزةٌ لا يخلقُها الدَّرسُ ولا التعليم . فاذا كان للتعليم فى هذا الباب فضل ، فهو مجرَّد التهذيب والصَّقل ، على ما سلَفَ عليك من الكلام .

ولا يفوتك أن الفنّ لا يَدُلّ على موضع الجمال ، اللهم إلاّ الغافلين ومن تقاصرَت أذواقُهم إلى حدٍّ بعيدٍ ، ولكنه يُسمِّى مظاهرَه بأسمائِها التى وقَعَ بها الاصطلاح ، كما يَدلُّ على مذاهب المفتَنّ فى ألوانِ تصرُّفِهِ . ولقد يكون بهذا أقدرَ من غيره على إدراكِ مبلغ الحِذقِ فى كيفيّة التَّصرُّفِ وطريقةِ الأداء . على أنك مع هذا لو جئتَ برجُلين ذَيِّقَين ، أحدُهما خبيرٌ بفنِّ الموسيقى والآخرُ غير خبير ،

فانهما كليهما ليَطرَبان لجيِّد التوقيع ، و إن عرَف أولهما أن اللَّحْنَ جارٍ فى نغمة الرمَّل مثلاً ، وجهل ثانيهما إلى ماذا يُنسَب اللحن من مذاهب الأنغام ! لأن إدراك الجمال والانفعالَ به لا يحتاجان ، كما قلنا ، إلى تعليم ولا تلقين .

وهنا شيء يتَّصل بهذا الباب ما ينبغى لنا أن نتجاوزه وألاّ ندلَّ عليه . ذلك أن كلَّ ما تُخرجه عبقريَّةُ العالم من طريفِ القضايا ومستحدَثِ النظريَّات فى العلوم ، لا يعدُو أن يكون مجرَّدَ استكشافٍ لأمرٍ موجودٍ فى ذاته ، وكلُّ الخَطبِ فيه أنه كان مجهولاً حتى تَهدَّتْ عبقريَّةُ العالمِ إليه ، ودلَّهُ ذهنُهُ أو تجاربُهُ عليه .

أما ما تَنتَضِح به عَبقريَّةُ المفتَنّ من ذاك ، فانشاء وخلقٌ من عَدَم ، ومن هنا نُدرِك لماذا كانت الفُنونُ أَشدَّ تطوراً من العلوم ، وأبلغَ منها قَبولاً للتَّغيير والتَّحوير ؟ ذلك لأَن مَرَدَّها ، كما علمتَ ، إلى الذَّوق ، والذَّوقُ أسرَع تكيُّفاً بحكم الزَّمان والمكان والعادات والأَحداث .

*
* *

وبعد . ففى نفسى أن أتحدَّث عما صَنَع العالَمُ قَديمهُ وجديدُه للفَنِّ تعرُّفاً للجمال ، وضبطاً لمذاهبه ، وتربيةً لملَكاته . ولكن لقد طال الكلامُ اليوم ، فلندعْ هذا إلى فُرصةٍ أخرى إن شاء الله تعالى .

فى علوم البلاغـة

سيداتى ، سادتى* :

طَوَينا فى الأزهر بضعَ سنين ، مقصوراً جهدُنا كلُّه على درس الفقهِ والنَّحو . ثم استَشرفْنا ، على العادة ، لدرسِ شىء من علومِ البلاغةِ فى أبسطِ كتبها المعروفةِ يومئذٍ لأهل الأزهر . ولم يرُعنى فى تلك الأيام إلا أن هَجَم على نفسى سؤالٌ شَغلَنى وأهمَّنى ، حتى كان فى بعض الحين يملِك علىّ مذاهبَ تفكيرى ! وإنى لَأَخشى أن أُبادىَ به أشياخى أو لِداتى فى الطاب ، لئلا أُرمَى بالجهل المطبَق بما يَعلم الناس جميعًا ، بدليل أن أحداً لم يراجِـع فيه من بين الطلاب جميعاً !

هذا السؤال هو أنه ما دامت للبلاغةِ علومٌ مقرّرة ، ومعارفُ واضحة ، وقواعدُ مفصَّلةٌ مقسومة ، وقضايا محدودةٌ مرسومة ، فقد أصبح من السهل اليسير على كل من يُجيد علمها ، ويَحذِقُ فهمها ، أن يجىء بالبليغ من القول إذا نظم أو نثر ، بل لَتهيَّـأ له أن يجىء بأبلغ الكلام ، بل بما ينتهى منه إلى حدود الإعجاز ! وما له لا يصنع ، وقواعدُ البلاغةِ تشيرُ بأوضحِ الإشارة إليه ، وتدلّ بأفصحِ العبارةِ عليه ؟

ماذا على المرء إذا أَرسل الكلامَ أن يُخرجهُ مُطابقًا لمقتَضَى الحال ، ويُجريَه على أحكامِ الفصل والوصل ، ولا ينحرف به عن مقتَضياتِ الإيجازِ والإطنابِ والمساواة ؟ وهذه أحوالُ التشبيهِ بينَ يديه ، فما يَمنعه أن يصوغَ الكلام على غِرارِها ، ويترسَّمَ فيه أجلى آثارِها ؟ وهكذا . . .

---

* ألقيت هذه المحاضرة فى الجامعة الأميركية بالقاهرة . ونشرتها مجلة الهـلال فى يناير سنة ١٩٣٦ ، وجعلت عنوانها : (ثورة على علوم البلاغة)

ولكن الواقع . . . الواقع القاسي يَأبَى مع الأسفِ إلا أن يُزْعجني عن الاستراحةِ إلى هذا الفِكر القويم ، والمنطق السليم ! فهؤلاء متقدمو الطُّلاب الذين دَرَسوا علومَ البلاغةِ في أخلِ كتبِها المَقسومة وأعلاها مكانًا ، لا حظَّ لأكثرِهم الكثيرِ في فصاحة ولا في بيان ! بل هؤلاء أشياخهم الذين استَهلكوا الدهرَ الأطولَ في درسِ هذه الكتبِ وتحقيق قضاياها ومسائِلِها ، حتى فَرَوا أبوابها فَرْيا ، وبَرَوا فصولَها بَرْيا . هؤلاء كثيرٌ منهم لا غَنَاءَ لهم في فَصَاحةِ لسان ، ولا في نَصَاحةِ بيان !

هذا طالبٌ كبيرٌ يجاورني في خِزَانةِ حوائجي في الأزهر . وهو يتلقى علمَ الأُصول في كتابِ « جمع الجوامع » ، أي أنه فرَغَ من درسِ كتابِ « السّعد » ، أي أنه خَتَم علومَ البلاغة ، ولم تبقَ له بشيء منها أيّةُ حاجة . لقد جمعنا هذا الطالبُ المنتهِي ليُسمعَنا قصيدةً رائعةً مِن نَظمه ، يَهجو بها أهلَ بلدةِ (كوم زمران) المجاورة لبلده . فأسرعنا إلى الاستواءِ بينَ يديه وقد أرهفْنا الآذان ، وحَدَدنا الأذهان ، وعَلَّقنا الانفاس ، حِرصاً على المتاع بما لا يَظفَر بمثلِهِ عامّةُ الناس !

ولست أَروِي لكم ، أيّها السادة ، من هذه القصيدةِ الرائعةِ حقًا ، والجديرةِ بمن أَتمَّ دروس (السّعد) وحواشيه حقًا ، إلا هذه الستةَ الأبيات .

أما مطلع القصيدة فهو بمشيئة الله تعالى :

دَعْ كوم زمران كي تَنجو من العِلَلِ ... وتَستريحَ أَخي من كثرةِ الزَّللِ

ومنهـا :

إن جاءهم ضيفهُم قَبـلَ العشاءِ إذن ... تراهمُ يا فَتَى في غايةِ المَلَـلِ

فالبُخلُ يُشتقُّ منهم ما على أحدٍ ... منهم ثيابٌ سِوى البـالى من الحُللِ

ما فيهمُ عاقلٌ يا ابنَ الـكرام فقـد ... جُنُّوا جميعًا وقاكَ اللهُ من خَبلِ

ومنهـا :

لا يَحضرُون دروسَ الفقهِ إنهـمُ ... واللهِ لو تَدْرِينْ في غايةِ الـكَسل

أما تمامُ التمام ، ومِسكُ الختام . فهو :

سِتُّون بيتَ قريضٍ لا تزيد سِوَى بيتٍ به قد سألتُ العفوَ عن زَللى

*
* *

سيداتى . سادتى :

إذا لم يكن لهذه القصيدةِ من نظمِ ذلك الشيخِ كلُّ الفَضل ، فلا شك فى أن لها أبلغَ الفضلِ فى أن نبَّهتنى إلى أن درسَ علو مِ البلاغة — على هـذه الصورة على الأقلّ — ليس من شأنِهِ أن يعلِّم البلاغةَ أو يَطبَع على ناصح البيان . ولعلّ لها بعدَ ذلك شأنًا آخَر !

البلاغة

من البيّن الذى لا يحتاج إلى أىّ جلاء أن مقاويلَ العرب إنما كانت تجود ببليغ القولِ فِطَرهم ، وتَنتضِح ببارع الكلامِ سلائقهم . لا يَصدُرون فى شىء من هذا عن علم تعلَّموه ، ولا عن درس تَفهَّموه ، ولا قواعدَ يَتحرَّون أحكامَهَا ، ولا أقيسةٍ يتقرَّون حدودَها وأعلامَها . إنما مردُّهم فى كل ذلك إلى الفِطْنة الفَطِنَة والذَّوق المُرهَف السليم . حتى موسيقى الأشكال والهيا كل ، وأعنى أوزانَ الشِّعر ومقاطِعَه — لقد كانت هى الأُخرى موصولةً بطباعهم ، فلم يكونوا فى أىّ حاجةٍ إلى قانون يَهديهم موقعَ النَّبْرة من السِّلك المنظوم[1] .

وما يُقال فى الخطيب والشاعر ، يُقال فى سائرِ النَّقَدَة وهم كثرة العرَب الغامِرة ، إن لم يكونوا كلهم متذوِّقين ناقدين .

---

(١) وهذا ولا شك شأن كل من يجرى من أسباب البلاغة على عرق إلى الآن وإلى غاية الزمان .

وبهذا المقياسِ الفِطْرى كانت تُقدَر أقدارُ الشُّعراء والخطباء ، فيُنْزَلُ كلٌّ مَنزلَتَهُ فى غيرِ صِراعٍ ولا حِرَاب(١)، من الصدور أو المتون أو الأعقاب .

هذه الفِطنَة النافذة ، وهذا الحِسُّ المرْهَف ، وهذا الذَّوق التامّ ، لقد أغنت جَمهَرَة العرب عن المطالعة بفنونِ نَقْد الـكلام ، والتنبيه إلى ما فى مطاويه من المحاسن والعيوب ، حتى لـكأَنَّ هذه الخِلالَ الشائعةَ فيهم كانت عنـدهم من أفصحِ أساليبِ الخِطاب ! .

ولستُ أزعم أن العرب كانوا كلُّهم أصحابَ بيان ، وأن شعراءهم إنما كانوا يُرسِلون الشِّعرَ من عَفو الخاطر . لا ! بل إن من أعلامهم لَمَن كان يَجتمع للقريض ويتكلَّف تجويدَ النظم . ولقد يُجهَد بعضِهم كثيراً فى تحريرِ الـكلامِ وضبطه ، والـكرِّ عليه بالجَندَرة والصَّقل والتهذيب .

ولقد ظَلَّ شأنُ البلاغةِ العربيَّـةِ كذلك إلى غاية العصر الأُموى . فاذا كان قد نَجمَ فى هـذا الباب جديد ، فان بعض البُصراءِ بفُنون الـكلام قد انبعثوا لِنَقدِ بعضِ ما يُجلى عليهم من الشِّعر ، وجَعَلوا يَدُلُّون بوجه عامّ على ما لعله يُخفِى من عيوب . ولقد يقارنون بينه وبين شيء من جنسه من أشعار السابقين ، ويفطِّنون إلى ما يُضمر من دِقَّة معنًى وإحسان أَداء . ومهما يكن من شيء فان ذلك الضَرب من النَّقد لم يكن جاريًا على أى نَهجٍ علمى — إذا صح هذا التعبير — إنما هو الذَّوقُ والفِطنةُ والحِسُّ العامّ .

وبالرغم من أَن بعض العلماء تقدموا فى أعقاب هذا العصر ، وفى صدر العصر العباسى الذى وَلِيَه ، لجمع الحديث واستخراج الأحكام الفقهية ، وعَقدِ القواعدِ للنَّحوِ والصَّرف . بل لقد تَعمَّد الخليلُ ابنُ أحمد المتوفَّى سنة (١٧٠) ضروبَ

---

(١) الحراب هنا : الحرب

الشّعر وتقصَّى أوزانَهُ ومقاييسَه ، فوضع علمَ العَروض — بالرغم من هـذا كلّهِ فان أحداً من العلماء لم يتكلَّف وضعَ قاعدةٍ علميةٍ واضحةِ المعارفِ بيّنةِ الحُدُودِ لشيء من فُنُون البلاغة ، يُرَدُّ إلى حُكمِها ما يَندرِج تحتَها من الجزئيّات .

كيف عقدت للبلاغة قواعد وجردت لها علوم ؟

سيداتى . سادتى :

إذن فكيف ومتى ضُبِطَت للبلاغةِ قواعدُ وجُرِّدَت لها علوم ؟

يقول ابن خلدون : « إن السببَ فى إطلاق (البيان) على الأصنافِ الثلاثةِ أنه أولُ ما تكلَّم فيه الأَقدمون ، ثم تلاحقت مسائلُ الفنّ واحدةً بعد أُخرى . وكتب فيها جَعفرُ بنُ يَحيَى ، والجاحظ ، وقُدَامةُ وأمثالهم إملاءاتٍ غيرَ وافيةٍ فيها . ثم لم تزل مسائلُ الفنّ تَكملُ شيئاً فشيئاً إلى أن مَحَّص السكّاكى زُبدَته وهذَّب مسائله » الخ . وهذا الكلامُ يَحتاج إلى قَدْرٍ كبيرٍ من الإيضاحِ والتَّفصيل .

أَمَّا أنّ البيانَ كان أَسبَقَ الفنونِ الثلاثةِ إلى التَّدوين ، فذلك أن الإمام اللغوىَّ الجليلَ القَدْر أبا عبيدة المتوَفَّى سنة (٢٠٩) قد وضع رسالةً فى البحث عن (المجاز فى غريب القرآن) . ولا شك فى أن غرضَه إنما كان دينياً محضاً ، فان تبَيُّن الحقيقةِ من المجاز مما تتأثّر به بالضرورةِ أحكامُ الشرعِ الكريم . فاذا صح أن تَقَصِّى هذه المجازات تَقَصِّياً جزئياً دونَ العنايةِ بنظمها فى قواعدَ كلّيةٍ تُستخرَج منها الأَحكامُ العامّة — إذا صح أن يُدعَى هذا تدويناً فى علمِ البيان ، فلا نزاعَ فى أن رسالة أبى عبيدةَ هذه هى أولُ ما دوِّن لا فى علم البيان فحسب ، بل فى علومِ البلاغةِ على الإطلاق .

بعد هذا نعودُ إلى جَعفرِ بنِ يَحيى والجاحظ . أَمَّا جعفر فلم يَسقُط إلينا مما كتَبَ فى هـذا البابِ كثيرٌ ولا قليل . وأَمَّا الجاحظُ المتوفى سنة (٢٥٥) فلقد

جرَى قلمهُ فى كتابهِ (البيان والتَّبيين) أكثر ما جرَى بأسباب بَتْراء، وإرشادات عامةٍ لمن يَتصدَّون لنسجِ الكلام، ونُقُولٍ فى تعاريفِ البلاغةِ عن الأقوام الآخَرين. على أنه قد يقع اجتهادهُ فى بعض مَا يَكتب على أمور يَعتبرها العلماء المدوِّنون بعد ذلك — إمَّا بنصِّها أو بعدَ تهذيبِها وتسويتِها — من قواعدِ علومِ البلاغة التى لا يَطوفُ بها ريبٌ ولا يلحَقها نِزاع.

يقول الجاحظ مثلاً: «... ومن ألفاظِ العَرَب ألفاظٌ تَتَنافر، وإن كانت مجموعةً فى بيتِ شِعرٍ لم يَستطع المنشدُ إنشادَها إلاّ ببعضِ استكراه، فمن ذلك قول الشاعر:

وقَـبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قفر ... وليس قُرْبَ قبرِ حَربٍ قَبر

ولا شك أنه بهذا يُعدُّ واضعَ شرطٍ من شروط الفصاحة، وهو السَّلامةُ من تنافر الكلمات. وقد استَشهَد مُدوِّنو البلاغةِ على هـذا الضرب من التنافر بالبيتِ نفسِه.

ويقول فى مقامٍ آخر: «... عن الحسَن يرفعه، أن المهاجرين قالوا يا رسولَ الله: إن الأَنصار فَضَلُونا بأنهم آوَوا ونَصَروا وفعَلوا وفَعَلوا. قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أتعرفون ذاكَ لهم؟» قالوا: نعم. قال: «فإنّ ذاكَ». يريد أن ذاكَ شكرٌ ومكافأة

وهذا أيضًا من بلاغة الإيجاز بالحذف.

وهنالك أمثلةٌ يسيرةٌ أُخرَى مما نَضَح به قلمُ الجاحظِ صادراً فيها عن اجتهاده أو ناقلاً عن غيره. وكل ذلك لا غَنَاءَ فيه إذا نحن تحدَّثنا في شأن علومِ البلاغة عن التَّدوين والتَّصنيف.

* * *

بعد هذا جَعَل أميرُ المؤمنين عبدُ اللهِ بنُ المعتزّ المتوفَّى سـنة (٢٩٦) يَتفقَّد

ألوانَ البديعِ التى أصابَها فى الكتابِ العزيز ، وفى كلامِ من سبَقَهُ ومن عاشره من أعلامِ البيان ، فأَحصَى منها بضعةَ عشرَ نوعاً ضَمَّنها رسالةً لطيفة ، نشرَها مطبوعةً من عهد قريبٍ أحدُ كِبارِ المستَشرِقين .

قدامة بن جعفر

ثم يجىء أبو الفرج قُدَامةُ بنُ جَعفرَ المتوفَّى سنة (٣٣٧) على أرجحِ الأقوال ، فيُصنِّف فيما يصنف كتابيه « نقد الشِّعر » و « نقد النَّثر »

ولقد يُغنينى عن الإطالةِ فى الإبانةِ عن أثرِ هذا الرجلِ فى وضع الأُسُسِ الأُولَى لقواعدِ علومِ البلاغةِ . ومحاولةِ إجراء هذه الأُسس على نَهْجٍ علمىّ — إذا صح هذا التعبير — لقد يغنينى عن هذا تلك الرسالةُ البديعةُ التى وضعها فى الفرنسية صديقى الدكتور طه حسين ، وأداها فى العربية صديقى الأستاذ عبد الحميد العبَّادى ، وصَدَّر بها كتابَ « نقد النثر »

وقد صرَّح الدكتور طه فى رسالته هذه بأن قدامةَ إنما وضع ما وضع من أُسُسِ علومِ البلاغةِ العربيّةِ متهدِّيًا بكُتب أرسطاطاليس . وهذا حق لا شُبهةَ فيه ، ولا يتخالج الشكَّ فيـه من يقرأ كتابَ « نقد النثر » ، بل إن المؤلفَ نفسَه لَيصرِّح فى بعضِ المواطنِ من كتابه بأن أرسطاطاليس قال فى هذا الموضع كذا ونصّ على كَيْت

على أن مِن أظهرِ ما يَخرُج به متصفِّحُ هذا الكتاب ، أن الرجلَ فى تدوينهِ لعلوم البلاغة ، أو على الصحيح فى محاولتِهِ تدوينَ هذه العلوم ، إنما كان ، برغم ما بين يديه من قضايا أرسطو ، كالسارى فى بَيْداء مَجْهَل . فهو لا يفتأ يلتمس الأعلام ويَتحرَّى المسالكَ والدُّروب . أو هو كالطائر المهاجر يَسقُط حيث يلوح له الحبُّ ، أو تترقرق لعينه صَفحةُ الماء . فما إن تَسنَح له الجزئية يَحسبُها مما يتَّصل بما

هو بسبيله إلا تراه قد هَجَم عليها ، ومثَّل لها بآية من آي القرآنِ الحكيم . وتارةً يَتمثَّل بالبيتِ أو بالبيتين من الشِّعر ، مترفقًا شديدَ الترفُّق في وجوهِ التعليلِ والتأويل

وهو إنما يتصيَّد أسبابَ البلاغةِ نِثاراً حتى إنه لم يَفْصِل بين فنونها الثلاثة ، فلقد يأتي بالمسألة من مسائل البديع في إثر القضية من قضايا المعاني أو البيان .

ثم لقد يَميل في بعض الطريق إلى بحثٍ فلسفي . أو يأخذ في شيء من المنطقِ أو الأُصولِ أو النّحوِ أو الصَّرف . أو يَعدِل بالحديث إلى قوانين الجَدَل ، وهي التي دُعيَت بعدُ بآدابِ البحثِ والمناظرة . وللرجُلِ حَقُّ العذر في هذا فانه لم يَعْدُ سُنةَ من نَشَأُوا العلوم ، وخاصةً منها ما كان مَرَدُّه إلى الأذواق . وهذا ما نُعبِّر عنه اليومَ بالفنّ الجميل

وكيفما كانت الحال ، فان هذا قُدَامةَ حتى في القليل من المعاني التي وقع عليها من فُنون البيان ، لم يَضَع لشيء منها قاعدةً كليَّة . إنما جُهدُه كلُّهُ كما أسلفنا أن يَلتمِس لما يتمثَّلُ له من الجزئيات وجوهَ العِلَل التي تَشرُف بها رُتبةُ الكلام

عبد القاهر الجرجاني

ومن العَجَب أن يَثِبَ ابنُ خلدون في تسجيل نشأةِ علومِ البلاغةِ من قُدَامةَ إلى السكّاكي ، ولا يَقف وقفةً — ولو قصيرةً — برجلٍ له أثرُه وله خطرُه . بل لقد عَقد له بعضُهم فيما نحن بسبيله أبلغَ الآثار وأعظم الأخطار . وذلكم الرجلُ هو الإمام الجليلُ عبد القاهر الجرجاني المتوفَّى سنة (٤٧١)

أَلَّف الجرجانيُّ في علومِ البلاغةِ كتابين ، هما (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) . ولقد جَعَل أَجلَّ هَمّه في الكتاب الأول إلى (البيان) ، فتكلَّم في التشبيه وأطال ، وتكثَّر من إيرادِ الشواهدِ والأمثال . وقَسّم المجازَ إلى لُغَويّ وغيرِ لُغَويّ ، وأَسبَغ القولَ في فُنون الاستعارات . وأَصابَ في أثناء ذلك ألوانًا

يسيرةً من (البديع) كالسجع ، والتجنيس ، وحسن التعليل . أما ما أصابَ من مسائلِ المعـانى فان جميعَه إنما كان من حَظِّ كتابه الآخر (دلائل الاعجاز) ، اللهم إلاَّ سَنَحات قد تَلوح أحيانًا فى آفاقِ الكلام .

وعبدُ القاهرِ يَعمِد إلى المسألةِ من مسائِل العِلم فيُضفِى بين يديهـا المقدّماتِ ، ويُسبغ المقالَ فى التعليلِ لها أيّمًا إسباغ . ولا يزال يَتيامنُ بالقول ويَتَياسر، ويَضرب فى مجازات الكلام جيئةً وذُهوبا، ولايبرح يفصِّل المعانىَ تفصيلاً . ويُلوِّن الحججَ تلوينًا، حتى إذا ظَن أنه أوفَى من ذلك على الغاية ووقع بقارئه على الصَّميم ، راح يُورد الشاهدَ فى إثرِ الشاهد ، جاهداً فى شَحْذ فطنتِك وإرهافِ ذَوقك، لِيتهيَّأَ له أن يتدسَّس بِك إلى أَطواءِ الكلام ، فتجُسَّ ما أَجَنَّت من الدقائقِ جَسًّا ، وتَستَشعِر ما أَضمَرَت من المحاسن ذَوقاً مُحَسًّا . وكل أولئك يَصنعَه فى عبارةٍ جَزْلةٍ فَخْمة ، ويجلوه فى دِيباجـةٍ مُشرِقة اللَّفظ ، متلاحمةِ النَّسج . ولا شكَّ أن عبدَ القاهر بعبارتهِ هذه إنما كان أدنَى إلى تعليمِ البلاغة منه بآثار ما يَخرُج له من بحثه وتحقيقه . لولا أنه يتكلَّف السجع ويجتمع له فى كثيرٍ مما يُجرِى من البيان .

وكيفما كان الأمر ، فانه كقُدامةَ لم يُعنَ بضبطِ ما اتَّسق له من نتائج البحوث فى قواعدَ كليةٍ تَنتَظم ما تحتَها من الجزئياتِ على الأُسلوب المعروف . نعم إنه لقد مَهَّد لهذا ويَسّره لمن دَوَّن بعدَه من العلماءِ فى هذه الفُنون .

ومما تَحسُنُ الإشارةُ إليه فى هذا المعنى أن التأليفَ فى علوم البلاغة ، إلى هذه الغاية ، لم يَعدُ فى الجملة أَلوانًا من أَساليب النَّقد ، طلبًا لشَحذِ الأَذواقِ وإرهافِ الأَحساس ، والاجتهادِ فى التَّفطين إلى ما دَقَّ وخَفِىَ من وُجوه المحاسنِ والعيوبِ فى الكلام . وليته لم يتجاوز هذا القَدْر . إذن لكان لهذه العلومِ من الحظّ ومن الأَثر غيرُ ما لَهَا الآن !

السكاكى والقزوينى

سيداتى . سادتى :

بعد هذا جاء العلامةُ المحقِّقُ أبو يعقوبَ يوسفُ السَّكَّاكِىّ المتوفَّى سنة (٦٢٦) ، فاستَخلَص جملةَ أَحكامِ البلاغةِ التى تَهَدَّى إليها مَن تقدَّمه من الباحثين ، وضَمَّ كلَّ جِنسٍ إلى جِنسه ، وجَمَع كلَّ شَكلٍ إلى شَكْلِه . وجعل يَنظِم ما تهيَّأَ له من ذلك فى قواعدَ واضحةِ الرُّسوم ، مضبوطةِ الحُدود ، حتى تكونَ جامعةً مانعةً ، على اصطلاحِ جَمهَرة العلماء . وساق لكل قاعدةٍ ما اجتَمَع له من الأَمثلةِ والشَّواهد . ووصل كلَّ ذلك بكتابهِ (مِفتاح العلوم) .

ولاَ ينبغِى أن نظن أن السَّكَّاكِىّ فى مجهوده هذا إنما كان صائغًا فَحَسب ؛ بل إنه كثيراً ما يكون لاجتهادِه فى توجيـهِ الأَحكامِ وفى جَوهرِ المادَّةِ العلميةِ الأَثرُ البعيد

إذن لقد استطاع السَّكَّاكِىُّ أن يُحيلَ أَحاديثَ البلاغةِ من مادَّة أَدبٍ ونقدٍ واحتفالٍ لتفطينِ الأَفهامِ وشَحذِ الأَذواق ، حتى تستطيع النفوذَ إلى دقائق البلاغات — لقد استطاع السَّكَّاكِى أن يُحيلَ أَحاديثَ البلاغةِ علوماً إنما تخاطب الأَفهام ، لتدُلَّها على مُبرَمِ الأَحكام !

ثم جاء العلاَّمةُ الخطيبُ القَزْوينى محمدُ بنُ عبدِ الرَّحمن المتوفَّى سنة (٧٣٩) ، فَضَغط ما استَخرَج السَّكَّاكِى ضغطًا شديداً ، وعَصَره عَصْراً (بليغًا) ، حتى أَصبح ما يطالعُك من قواعدِ كتابهِ أَشبهَ بالأَحكام العَسكريَّةِ فى شِدَّةِ السَّطوةِ والجفَاء !

وعلى كل حال فانه على قدرِ ما تمَّ لعلوم البلاغة — بمختصَر الخطيب القزوينى — من التَّحرير والضَّبط والدِّقَّةِ فى تجليَةِ الأَحكامِ والقواعد ، وشِدَّةِ التَّحرى فى

إيراد الأَمثلة والشَّواهد ، فلقد ذهب من الجهة التعليمية رُواؤُها ، وجَفَّ ماؤها ، واقتَصَر خِطابُها على العقل والحافظة، وكانت من قَبلُ تخاطب الأَحساسَ والأَذواق !

وإذا كانت علومُ البلاغةِ (الرسمية) قد خُتِمت بمُخْتَصر الخطيبِ القَزْويني ، فتكون قد استَهلَكَت من أول تَنْشيئها إلى غاية نُضْجها وإدراكها أربعةَ قرون سَوِيًا

ولا شكَّ أن من الكتب التى استغرَقَت جَليلاً من همِّ الدَّارسين والباحثين والشارحين والمعلِّقين هو هذا الكتاب ، فلقد شَرَحه وعلَّق عليه من لا يُحصَون من العلماءِ كَثرة . وأهمُّ شروحه وأعظمُها كان استدراجًا لعنايةِ أَصحابِ التَّحقيق ، هو المختَصَر لسَعدِ الدِّين مَسعودِ بن عُمرَ التَّفتازانى المتوفَّى سنة (٧٩٢) ، والمطوَّل له كذلك . وأشهرُ الحواشى على هذا المطوَّل وأشيَعها بين أهل العِلمِ تداولاً ، حاشيةُ السيدِ الشريفِ علىّ بن محمدٍ الجُرجانى المتوفَّى سنة (٨١٦) . وشرحا السعدِ وحاشية الجُرجانى لقد كانت من عهدٍ بعيدٍ هى المادة العظمى لتَروِية علومِ البلاغةِ لمتقدِّمى الطلاَّب فى الأَزهر الشريف

فوقَ التَّعقيدِ الشديدِ فى عباراتِ هـذه الكتب ، أيها السادة ، والمبالغةِ فى إبهامها وإغماضِها ، فان مِلاكَ البحث فيها إنما هو الجَدَل اللَّفظى ، والاعتِسافُ فى بحوثٍ فلسفيَّة لا غَناءَ لها فى صَنْعةِ البيان . بل إننى لَأَزعم أنه لو كان هناك من يريد التخلُّصَ من فَصَاحةِ اللسان ونَصَاحةِ البيان ، فليس عليـه أكثرُ من أن يَدرسَ هذه الكتبَ حَقَّ درسِها ، ويديمَ النظرَ فيها ، ويقلِّبَ فى عباراتها لسانَهُ وفكرَه ، ليكون له كلُّ ما يحبّ إن شاء الله !

لتكن هذه الكتبُ مما يَفسَح فى الملَكاتِ العامّة ، ويَطبَع الطالبَ على الصَّبر على البحثِ والتَّحقيق ، ويُعوِّده ألاَّ يُسيغ قضيةً من القضايا إلاَّ بعد أن يُحكِمَها

بألوانِ الاختبار والامتحان — ليكن لها كلُّ هذا ، وليكن لها غيرُ هذا أيضًا — ولكنها لا يمكن أن تُلقِّن علومَ البلاغةِ على أيّ حال ، فضلاً عن أن تُذِيق الطالبَ البلاغةَ نفسَها ، أَو تريحه ريحَها ، اللهم إلا أَن تكون بلاغةً من طِراز :

دَع كومَ زِمران كى تنجو من العِلَلِ   وتستريحَ أَخى من كثرةِ الزَّلَلِ !

البلاغة فن

سيداتى . سادتى :

لقد حدثتكم فى صَدرِ هذا الخطابِ عن عقليَّة فتًى ناشئٍ لم يَتهيَّأْ له بعدُ أن يُدرِكَ الفرقَ بين العلومِ والفنون . ولم يكن يَعرِف أن الفنَّ ابنُ الطَّبع والغريزةِ والملَكَة . وإنما تدعو إلى إنشائِه ومعالجتِه الحاجةُ تَبعثها ضرورةٌ أو تبعث إليها مجرَّد الرغبةِ فى التَّرفيه والتَّلذيذ . أما العلمُ فمهمّةُ بعد ذلك الملاحظةُ والتقييدُ والتسجيل .

فالبلاغةُ باعتبارِها فنًّا هى أَثرُ الملَكَة ومَظهَر قدرتِها من نظم شعرٍ رائعٍ أو إرسالِ نَثر بديع . أَمَّا البلاغةُ باعتبارها عِلمًا فهى عُصارةُ ما خَرَج بالاستقراءِ للإِحْسَاس والأَذواق من دواعى الحُسنِ والقُبحِ فى فُنونِ الكلام . وما يقال فى البلاغةِ من هذه الناحيةِ لا شك يَجرِى حكمُه على سائرِ الفُنون والعلوم . والعالِم بالفنّ غيرُ المُفتَنِّ على كل حال . وإنما بينهما العُموم والخُصُوص الوَجهى على تعبيرِ أَصحابِ المنطق ، فيجوز أن يكون المرء بليغًا وهو غيرُ عالم بقواعدِ البلاغة ، ويجوز العكس . كما يجوز أن يَجمَع بين الخَلَّتين معًا . وهذه الشواهد ماثلة فى الكثيرين ممن عاصرنا ومن لم نعاصر من العلماء والكتّاب والشّعراء .

إذن ليس العِلمُ ، أيها السادة ، هو الذى يَخلُق الفنَّ ويَطبَع مَلَكَةَ المرءِ عليه . إنما الفنون كما زَعَمنا ، وخاصَّةً هذه الفنون الجميلة ، وفن البلاغة منها — وإن نازع

بعضهم فى هذا — إنما هى من أثرِ تَهيُّؤِ الفِطرة ، أو ما اصطلحوا على تسميته بالموهِبة فى هذه الأَيام . فاذا كان للعلم من هذه الناحية أثر ، ففى توضيحِ المناهجِ وهدايةِ السُّبل ، وتبصير من يعالج الفن بما استجادت جَمهرةُ أَصحابِ الأَفهام والأَذواق ، أَو ما أَنكرت من آثار جماعات المفتنّين ، سواء من السابقين أو من المعاصرين .

ومما يَنبغى أن يلاحَظَ فى هذا المقامِ أن أفحلَ من عاصرنا من الشّعراء لم يكن أكثرهم من العلم بقواعدِ البلاغةِ على حظٍّ جليلٍ ولا ضئيل . إنما هو الطّبع والتهيُّؤ ، وكثرة الحِفظ ، وترديدُ النظر فى آثار البلَغاء المجلّين !

الفن يتطور

سيداتى . سادتى :

إذا كان الفنُّ التقليدىُّ إنما يجرِى فى حُدودِ العِلم ، أى أنه يَنبغى أن يُطابقَ ما اجتمع عليه رأىُ أصحابِ الأَفهام والأَذواقِ فى الفنونِ الجميلةِ بوجهٍ خاصّ ، فلا يَنبغى أن يفوتنا أن العلم لا يَستحدِثُ فى الفنّ جديداً ، ولا يَعدِل به من نَهجٍ إلى نَهج . ولكن الفنّ هو الذى يُغيّر العلمَ ويَدخل على قضاياه بالتّشكيلِ والتّلوين ، ما دام يَشرَع ويتطوَّر ويَستحدِث ، إذ كلُّ همّ العِلم هو كما أسلفنا إلى الملاحظةِ والتّسجيلِ والتّدوين .

ولا شكّ أن أظهرَ ما يظهر فيه التطوُّر بالاتّساعِ والدِقة هو الفنُّ الجميل ، لأن مَرَدَّه فى الغايةِ إلى الأَذواق ، والأَذواقُ كما تعلمون شديدةُ التأثُّر بالكثيرِ من أسبابِ الحياة . ومن أفعلِها مبلغُ حظِّ الجماعاتِ من الحَضارة والتّثقيف ، ولون تلكم الحضارةِ وهذا التّثقيف .

نعم ، إن للفُنونِ الجميلةِ عند كلّ أمةٍ تقاليدَ تكاد تتّصل جُذورُها بالطِّباعِ والفِطَر . ولكن ذلك لا يمنع من أن يَتَناول الزمانُ كثيراً من مَظاهرها وصُورها بالتَّشكيلِ والتَّلوين .

* * *

أرجو أن تَدعَونى بعد هذا أزعم أن البلاغةَ العربيَّةَ باعتبارِها فنّاً أولاً ، وباعتبارِها فنّاً جميلاً ثانياً ، مما يجوز عليه التغيير والتَّلوين ، ومما يَتقبَّل النموّ وشدّة النُّفوذ ، بحكم اطِّراد التقدُّمِ فى أسباب الحضارة ، واتساع الأَفهام ، ورَهافة الأَذواق باتساعِ آفاقِ العُلوم والفُنون .

وإذا كان مَشْقُ البلاغةِ العربيَّةِ هو بلا شكٍّ ما أُثِرَ إلينا عن عَرَبِ الجاهليةِ والصُّدورِ الأُولى فى الإسلام ، فان مما لا مِراءَ فيه أنه قد استُحدِثَت بعد ذلك ولا تزال تُستَحدث بلاغاتٌ لم تَشْكُلْها علومُ البلاغةِ المأثورةُ بالتَّقييد والتَّدوين ، ولم تَعقِد لها قاعدةً بين قواعدِ البيانِ والتبيين .

بل إن هناك صوراً مما استجاد متقدمو النَّقَدَةِ وواضعو علومِ البلاغة ، وساقوها شواهدَ على بَراعة الكلام . هذه الصُّوَر مهما كان من استراحة أذواق السابقين إليها ، فانها مما يَنفِر منه ذوقُ العَصر الحديث ، ويأباه الحِسُّ القائم كلَّ الإباء !

ومن هذا الباب ما مَثَّلوا لحسْن التعليل بقول الشاعر :

لَوْ لم تَكنْ نِيَّةُ الجوْزَاءِ خِدمَتَه   لما رَأَيتَ عليها عِقْدَ مُنتَطِقِ

وقول الشاعر :

لم تَحْكِ نائِلَكَ السَّحابُ وإنَّما   حُمَّت بهِ فَصَبِيبُها الرُّحَضَاء

أو قول الشاعر :

ما بِهِ قَتلُ أَعاديهِ ولكِنْ   يَتَّقِي إخلافَ ما ترجُو الذِّئابُ

فمن ادَّعَى أنه يُسيغ مثلَ هذا الكلامِ اليوم، وأن ذَوقَه يستريح به ، فانى إلى غيره أوجّهِ الحديث .

هنالك شىء آخَر له خَطَرُه الشَّديد، وله أَثَرُه البعيد : ذلكم أن تقدُّم الحضارةِ واتِّساع آفاقِ العلوم ، قد فطَّن النَّقَدَةَ ومتذوِّقى الأَدبِ إلى ألوانٍ من البلاغة فى مأثورِ العربيّة، لا أجرُؤ على أن أقول إنه لم يفطُن لها، وإنما أقول إنه لم يَحتفِل لها متقدّمو نقَدة الكلامِ أىَّ احتفال . ومن أظهر ما أغفلوا الحديثَ عنه فى هذا البابِ بلاغةُ الصُّورة، وبلاغة القَصَص وما يتضمن من بارع الجدَل ورائع الحِوار.

انظروا، أيها السادة، كيف يَجلُو اللهُ تعالى علينا بعض خَلْقِهِ فى كتابهِ الحكيم :

« إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاواتِ وَالأَرضِ، واخْتلافِ اللَّيلِ والنَّهار، والفُـلْكِ التى تَجْرِى فِى البَحْرِ بِما ينفعُ النَّاسَ، وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوْتِها وبَثَّ فِيها مِنْ كلِّ دَابّةٍ، وتَصْرِيفِ الرِّياحِ، والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ والأَرضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقلون »

انظروا، أيها السادة، كيف يُصوّر لنا القرآنُ أهلَ الكهفِ فى مَنَامهم الطَّويل :

« وتَرَى الشَّمسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ . وإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَالِ ، وهُمْ فِى فَجْوةٍ منه ، ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ . مَنْ يَهدِ اللهُ فَهوَ المُهْتَدِ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجدَ لهُ وَلِيًّا مُرْشداً . وتَحسَبُهمْ أَيقَاظًا وهُمْ رُقُودٌ، ونُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ وكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِراعَيْه بالوَصِيدِ . لَو اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيْت منهم فِراراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعبًا »

الله الله ! ما شاء الله ! ولا قوةَ إلا بالله !

حدّثونى بعيشكم : أىّ مصوّر مهما فَحُلت عبقريّته واستمكَنَت سطْوةُ فنّه ، يستطيع أن يَجلُوَ مثلَ هذه الصُّورةِ للعُيون ؛ فكيف وقد جلاّها عليها القرآنُ عن طريقِ الآذان !

حدثونى بعيشكم : إلى أيّةِ قاعدةٍ من قواعدِ البلاغةِ (الرسمية) نَرُدُّ هذه (اللوحةَ) الفنيّةَ الرائعةَ لِنُدرك بها عللَ كلّ هذا الاحسانِ والابداع ؛ أترى هذه الصورة قد انتهت كلَّ هذا المنتهَى لأن فيها ألوانًا من الطّباق فى اليمين والشمال ، وفى طلوعِ الشمْسِ وغُروبها ، ويَقظة الجماعةِ ورُقودهم ؟ لا لا يا سادة ! اللّهم إن الخَطْبَ لأجلُّ من هذا بكثيرٍ وفوقَ الكثير !

وبعد ، فلو قد ذَهَبَ ذاهبٌ فى سَردِ أمثال هذه الشواهدِ من كتاب الله تعالى وحديث الرّسولِ صلى الله عليه وسلم ، وما أُثِرَ عن فُحُولِ البلاغةِ من الخطباء والكتابِ والشعراء ، لاسْتَهلك فى ذلك الزمنَ الطَّويل .

وهنا شىء لا أُحِبُّ أن أتجاوزَ هذا المقامَ دونَ أن أُشيرَ إليه : ذلكم أن من عِلَلِ الحسْنِ فى الفُنون الجميلةِ ما يَدِقّ حتى تُعيِي التَّرجَمةُ عنه على اللّسانِ والقلم جميعًا ، وان تَعلّقَتْ به الفِطَن وأصابَتْهُ الأذواق .

ومما يتَّصل بهذا الباب ما رُوِىَ من أن بعضَ الخلفاء العبَّاسيّين قال لإسحاقَ الموصلىّ ذاتَ يَوم : « صِفْ لى جَيّدَ الغِناء » فقال : « يا أميرَ المؤمنينَ إن من الأشياء أشياء تُصيبُها المعرِفة ، وتَعجزُ عن أدائِها الصِّفَة ! »[1]

ولست استدِلّ على هذا بأبينَ من صنيع عبدِ القاهِر الجُرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » ، فانا كثيراً ما نراه يُحاول بكلّ ما أوتى من بَسْطَةِ علم ، ونُفوذ

(١) الصفة هنا : الوصف

فِكر ، وسَطْوةِ قلم ، أن يقع على إحدَى دقائِق الحُسنِ فى الآيةِ من الكتاب ، فلا يُصيب الصَّميمَ وإن أجهدته كَثْرةُ اللفِّ والدَّوَرَانِ . على أنه إذا عَجزَ عن جَلْوِ الحقيقةِ بالنَّص ، فانه مُحَصّلُها كاملةً فى نفسِ قارئِه ، وواصلُها بذَوقه ، إذا كان ممَّن يَجرُون من الصِناعة على عِرْق ، وذلك بالبراعةِ فى التَّنبيه والتَّفطين

سيداتى . سادتى :

لعلّ من أظهر ما نُحسُّه من ضعفِ النَّقدِ الأَدبى - أو بعبارةٍ أَبْيَن ، من قصُورِ علومِ البلاغةِ العربيَّةِ فى هذا العصر — أن سَلَفَنا وجَّهوا كلَّ عنايتهم إلى النَّقد الجُزئى . أعنى نَقدَ الكلمةِ فى الجملة ، أو نَقدَ الجملةِ فى العِبارة . فاذا كان الكلامُ نَظماً جَرَى النَّقد للبيتِ مستقلاً ، وأحياناً للبيت من حيثُ اتصاله بما قَبلَه أو بما بَعدَه ، أى النّقد (بالقطَّاعى) على تعبيرِ التُّجَّار . أما نَقدُ الكلامِ مجتمِعَ الشَّمل ، وتناولُه من حيثُ استواءِ الصُّورة ، واتِّصالُ المعانى ، واتِّساقُ الأقطار ، وتَلاَحُمُ الأجزاء ، فذلك ما لم يكن له من نَقَدَةِ البلاغةِ حظٌّ جليل !

وليس يغيب عنا فى هذا المقام أن هذه الحضارة القائمة قد جَلَت علينا من صُوَرِ البلاغةِ صورتين لم تَلبثَا أن ساهمتا فى أدبنا العربىِّ بنصيبٍ جليل . وأعنى بهما فنَّ القَصص ، والتَّصويرَ البيانى ، على حين أننا لا نرَى لهما مكاناً واضحاً من عنايةِ علومِ البلاغةِ المأثورة ومضارِبِ النَّقدِ القديم !

* * *

سيداتى . سادتى :

لست ثائراً فأدعوَ إلى إلغاء علوم البلاغة العربية بَتاتاً ، كما ألغتها أممٌ فى الغرب بَتاتاً ، ولكننى أدعو إلى تليينها وتمرينها ، حتى تصبح أشبهَ بالأُسلوبِ النّقدىِّ

القائم على التفطين والتذويق ، بحيث تتطور مع تطورِ الأفهامِ والأذواق . وعلى أن يوصَل تعليمُها فى المدارسِ والمعاهدِ بدرس الأدبِ نفسه . فالواقعُ أنه ما نَضِجَت مَوهِبةُ شاعرٍ ولا كاتبٍ قط بدَرس علومِ البلاغة ؛ ولكن بطولِ ترديدِ النظرَ وتقليبِ الذّهن فىالمأثورِ من روائع الآداب ، إلى الارتياضِ بكثرة العلاج والتمرين . فإذا انفسَحَت مع هذا ملكةُ الكاتبِ أو الشّاعر ، ورَهُفَت فِطنتُهُ بترسُّم مذاهبِ النّقد الفَنى ، فقد تمَّت نعمةُ الله عليه ! . هذا رأيى فى الجملة ، وأقول « فى الجملة » لأن هناك أسباباً من القولِ يضيق عن شرحِها هذا المَقام . وبعد فإذا أبينا إلاّ الحِرصَ على بقاء هذه العلوم على تلكم الصورةِ التى دَفَعها إلينا السابقون ، فلا شكَّ فى أن لها فى دارِ الآثارِ العربيةِ المكانَ الفسيح ! !

فى الفنّ والمفتنّين*

لا شك فى أن الفنَّ لا يَستوِى للمرء بمجرّد التحصيل والتعليم والتمرين ، ولكنه إنما يَستوى بهذه إذا كانت للمرء طبيعة ، وكانت له مَوهِبة . وعلى قَدر هذه الموهبة يكون حظُّه من الفنّ . ولقد تصل به ، ولو كان فى شباب السنّ ، إلى النبوغ والعبقرية . وذلك أن الفن ، على ما يظهر لى ، قائم فى النفس . وانما أعنى نفسَ المفتنّ . وما التعليمُ والتحصيلُ إلا وسيلة إلى نفضه إلى عالم الأعيان الخارجية (على حد تعبير أصحاب المنطق) ، ولاختصارِ الطريق إليه بالاستفادة بتجاريب السابقين ، وطول ما فكَّروا وتدبَّروا ، وتَهدَّت إليه على الزمان أذواقُهم ، فانتضحت به قرائحُهم . وما التَّدريب إلا لتوثيق الصلة بين ما تَعتلج به النفس ، و بين الفكر أو اليد أو اللسان .

وهؤلاء النابغون فى الفنون ، لو حققتَ النظر ، ليسوا من جنسٍ واحد ؛ بل إنهم لَيرُدُّون إلى جنسين مختلفين ، أو على الأصحّ إلى ثلاثة أجناس : فأحدها مبتكِرٌ مخترع ، يَخلُق الفكرةَ خلقاً ، ويَبتدِعها ابتداعاً ، ويُخرجها للناس على غير سابق مثال . أما الثانى فلا يَبتدِع ولا يَبتكِر ؛ ولكنه صائغٌ ماهرٌ يقَع على فكرة غيره ، ويسطو ببدع سواه ، فيخرجه أحسن مُخرَج ، ويصوره أبدع تصوير . وأما الثالث فالذى اجتمعت له الخلَّتان جميعاً . وهؤلاء فى أصحاب الفنّ هم الأندرون.

ولعلك تظن مع هذا أن المبتكِرين أفضلُ وأجدى على الفنّ دائماً من الصَّاغة الناظمين ! . والذى لا ريب عندى فيه أنهما كليهما يتساهمان فى الجدوَى على الفنّ. أما إذا لم يكن بدٌّ من فاضل فيهما ومفضول ، فان أرجح الكِفَّتين قد يكون لهؤلاء الصَّاغة الماهرين ، وإليك البيان :

* نشرت بجريدة المساء فى يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠

اعلم ، وفّقنى الله ووفّقك إلى السّداد ، أن ذلك العبقرىَّ المبتكِرَ من العَدم ، والمبدعَ على غير مثال ، قد لا يكون لتفكيره شىء مما يَصنع ، ولا لعقله دَخْلٌ فى شىء مما يُبدِع . إنما هو الطبع والغريزة يَنضَحان بهذا . ولقد يفعلانه فى سرٍّ من عقله ، وفى غفلةٍ من تقديره . فشأنه فى هذا شأن القُمْرىّ يشدو أبدعَ الشدو ، ويُرجِّع أحلى الترجيع ، ما يُريغُ لحنًا ، ولا يعتمد تنغيماً . وكالوردة ينفرج عنها كُمُها ، ما بها أن يملأ أنفَك طيبُ شذاها ، ولا أن يَبهرَ عينيك جمالُ مَرآها !

وإنى لأزْعمُ لك ، أبلغ من هذا ، أن كثيراً من هؤلاء المبتدِعين قلَّ أن يَشعُروا بما صَنَعوا ، وقلَّ أن يَقدِروا حق ما أَبدعوا . إنما هم قناةٌ بين ما استودع اللهُ تعالى من سرٍّ خَلقه نفوسَهم ، و بين ألسِنتهم أو أيديهم .

نعم ، إنهم إنما يَنتَضِحون بما يُخرِجون بمحضِ الإلهام ، أو بتلك الحاسّة السادسة التى لم يَكشفها العلمُ إلى اليوم . تلك الحاسةُ التى تهتدِى وحدها ، وفى سرٍّ من حركةِ العقل ، إلى كثيرٍ من حقائق العلم ، و إلى كثير من دقائق الفنّ ! . هذه الحاسّةُ التى تهدى طبيباً واحداً بين عشرة أطباء يختلفون فى تشخيصِ مرضٍ واحدٍ اشتَبهت أعراضُه بأعراض عشرة أدواء . فيقَع هو على حقيقةِ العلة دونَهم جميعاً ، إذ هو نفسُه لا يَدرى كيف اهتدَى ولا كيف أصاب !

أما الصائغُ الماهر ، فلستُ أعني به بالضرورة ذلك الذى يسطو بفكرة غيره فيصوغها فى لفظٍ آخَر ، أو يُجلّيها بنفسها فى صورةٍ أخرى ، واقعةً من الفنّ حيثُ وقعت ، فهذا لصٌّ لا فضلَ له أبلغ من سُرَّاق الليل وعيَّارى النَّهار .

وفى هذا المقام يَحضُرنى كلامٌ قرأتُه من زمان بعيد فى شرح الشَّرِيشى على مقامات الحريرى فى السرقات الشّعرية . وانى لأذكر أنه قسمها أو لعله نقل تقسيمها عن غيره ، إلى عشرين : عشرٍ محمودةٍ مُستجادَة . وعشرٍ مذمومةٍ

مُستقبَحة . وإنى لأذكر أنه مثَّل لبعض الأولى بقول الشاعر :

مَن راقَبَ الناسَ ماتَ غمًّا وفازَ باللذَّة الجسُورُ

يَسرِق هذا من قول الآخر :

مَن راقَبَ الناسَ لم يَظفَر بحاجته وفازَ بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

أو ما فى معنى ذلك ، فلعلِّى نَسِيتُ بعض ألفاظ البيت ، ولعله كما أوردتُه .

على أننى لا أَعنِى ببراعةِ الصِّياغةِ هذا القدْر ؛ فإن الصَّائغ مهما يُجوِّد الصَّنعةَ ويُحكم النَّسج ، فإنما ينادى على نفسه بالسرقة ، ويُشهد على اختلاس ما ليس له . إذ المعنَى ثابتٌ للمبتدِع مهما أسفَّ فى نَظمه ، وضعُف فى صياغته . بل لا أعني كذلك منزلةً فَوْقَ هذه ، وهى التى لا يَنقُل الصاغَةُ الفِكرةَ فيها نقلاً ، وإنما يَلحَظونها من بعضِ جوانبها أثناء صياغتهم لمعنًى آخرَ . وهذا ما يعبِّر عنه نَقَدة الشِّعر بقولهم : إن الشاعر فى هذا قد لَمَحَ قولَ فلان . فان المفتنَّ مهما كان له فى هذه الحال من الفضل فى جَودة النظم وقوة السَّبك ، واستخدام فكرة غيره فى أداءِ غرَضٍ آخَر — لا يزال عِيالاً ، ولو بقدر مّا ، على صاحبه المبتدِع . فى حين لا يزال هذا النَّبعَ المستَقَى ، والمِثالَ المحتَذَى .

وإنما أَعنِى بالبراعةِ فى الصِّياغةِ ما هو أعلى وأدقُّ من هذين الصَّنيعَين . فالمفتنُّ الصَّنَعُ ، حتى الذى لم يُؤتَ مَلَكةَ الابتكار ، ولم يُرْزَق القوَّةَ على الإنشاء ، ترى له من شدة الفِطنةِ ودقةِ الحسِّ ما يتلقَّط به المعنى الغريب ، ويُصيب به النَّبْرَةَ الدَّقيقة ، ويَشكُّ به الفكرةَ الطريفةَ ، فى شعرٍ أو نثر ، أو موسيقى ، أو تصويرٍ أو نحت ، أو غير أولئك من ألوان الفنون — إنه ليتلقَّطها بذهنِه الدقيق إذ قد لَمَحَ فيها سانحًا من طريفٍ بديع ، لعلَّهُ لم يَعهَده من قبلُ ولم يَعهَده الناس . وإن كان شخصُه لم يَتبيَّن بعدُ كلَّ التبيُّن ، وصورتُه لم تستوِ حقَّ الاستواء ،

فلا يَزال به يُحككه بحسّه المرهف ، ويَمخُضُه فى ذَوقِهِ الرّحب مَخضاً . وكلّما فعلَ ازدادَ فى نفسِه تبيُّناً ووضوحاً ، وهكذا حتى يَتمَثَّلَ لها خَلقاً سويّاً . فسَرْعانَ ما يَجلوه على الناسِ كما جلته عليه نَفسُه ، ما يَصِل بينَه وبينَ أصلِه عندَهم نَسَب ، ولا يَرتبطُه بمَنجَمه الذى خَرَج منه أىُّ سَبَب . فلا يَحسَبونه ، مهما جُهد بهم من حَدِّ الذِّهنِ وتَرديد النَّظَرِ إلاَّ خلقاً جَديداً ، أنشأته من القدَمِ قدرةُ هذا المفتَنِّ الصَّناع ! .

وكثيراً ما يعمِد هذا الحاذِقُ الصَّنِعُ فيما يَفطُن إليه من هذه الدَّقائِقِ الكامنة إلى مَطلِها والبَسط فى خَلقِها بالتَّوليد والاشتقاق ، وبتداعى المعانى ، حتى يبلغَ بها فى ذلك غايةَ المَدَى ، وأنتَ تحسَبُهُ كذلك مبتكراً مُنشئاً ، وتظنُّهُ مستحدِثاً مُبدِعاً ، إذ هو يعلَم كيفَ فُتح عليه فى كلّ هذا ، ومَن الذى ألهَمه إيّاه ! .

وبعد ، فاذا كان قد تعاظَمَك ، باديءَ الرأى ، ما زعمتُ فى صَدرِ هذا الحديثِ من أن أرجَحَ الكِفَّتين قد تكون لهؤلاء الصَّاغَةِ الماهرين ، فلعلّك الآنَ قد تطامَنْتَ واستراحَ إيمانُك إلى هذا الكلامِ بعد إذ بان لك فضلُ هؤلاء أولاً فى الوقوع على تلك الدقائقِ المستورةِ المغمورة ، ما يكاد يَفطُن إليها أحد ، ولا يكاد يقدِرها حتى هؤلاء الذين نَبغَت بها فى بعض الأحيان سلائقُهُم عفواً بلا قصدٍ ولا سابِقِ تدبير . وثانياً فى تجليتِها على الناسِ فى صورةٍ واضِحةِ الخَلق ، تُرهفُ شعورَهم ، وتُمتع أذواقَهم ، وتلذّذ أحساسَهم ، وتبعث فيهم ما شاء الله من أريحيَّةٍ ومَرَاح ! .

☆☆☆

ولقد كان المرحوم محمد افندى عثمان المغنّى مبدِعاً بارعاً ، وكان المرحوم عبده افندى الحمولى صائغاً رائعاً . فكان أولهما يُنشئُ الصوت (الدور) انشاء[1] ،

(١) قرأت فى كتاب (الأغانى) : يقال فى هذا الصوت دَور كثير أى صنعة . ولعل كلمة (الدور) أطلقت من هذه الناحية على هذا الضرب المعروف من ضروب الغناء الآن

ويُلحِّنه على غير مِثال ، فيخرج قويًا بديعاً ، لأن عثمان صائغٌ كما هو مبتكر . ثم يَتلقَّفه عبده فما يزال يُهلهله ، ويُسَوِّي من صورتهِ ، ويُمِرّه على ذوقهِ الدَّقيق ، فيعدِّل من أطرافه ، ويُشيع فيه نفسه ، ويُولِّد فيه من النَّغم فنوناً حتى يخرج أقوَى وأبدعَ وأفتن . ثم يقال هذا الصوتُ لعثمانَ فيه لحن ، ولعبده فيه لحنٌ آخر !

ولشدّما كان ذلك يُحفِظ عثمانَ على صاحبه ، ويَغيظه أشدَّ الغيظ ، فيروح يُغلظ له القول ، ويباديه بما هو أقسى من العَتْب ، ويتّهمه بالسّطو بصنعته ، وعبده يُطامِن من هِياجه ، ويُلطِّف من حدِّه . ولا يزال به يدلِّله ويرفِّه عنه بالكلم الطيِّب حتى يَسكن ويرضى . وكان الحامولى ، رحمه الله ، من دُهاة الرجال !

وليس معنى هذا أن عبده لم يكن مبتكراً ألبتة ؛ فإن له لابتكاراتٍ عجيبة ؛ ولكنه كان صوَّغاً أكثر مما كان منشئاً .

وإذا كان فنُّ التنغيم بآى القرآن الكريم قد بلغ اليومَ أوْجه ، فلا شك فى أن نهضته الحاضرة مدينة للمرحوم الشيخ حنفى برعى . فهو الذى استنّ هذه الطريقةَ الحديثة ، فكانت جَمهرةُ القارئين له فيها تبعاً .

ولقد نشأ الشيخ أحمد ندا ، أشهر القارئين اليوم ، يُلحِّن على أسلوب المرحوم الشيخ حنفى برعى ، ويسلك نفسَ طريقته ، ويقلِّده فى إيقاعه ، ويحاكيه فى ترتيله ، فان الشيخ حنفى كان أعلى سناً وأقدم فنّاً . ثم ما زال الشيخ ندا يزيد بالتَّلوين والصِّياغة وقوّة الافتنان ، إلى أن استوت له شخصيةٌ خاصة ، إن هو استقل بها عن شخصية أستاذه ، فما برحت عليها مَسحة منها إلى اليوم .

على أن واجب الإنصاف يقضى علينا ، فى هذا المقام ، أن نقرر أنه إذا كان أسلوبُ الترتيل الحديث من ابتكار الشيخ برعى ، فان الشيخ ندا بما ولد وما افتنّ قد زاد ثروةَ هذا الفن أضعافاً . ولا أحسب أن تاريخ أهل التنغيم « مغنِّين

ومنشدين وقارئين » أَحصى لأحد ما أحصى لأحمد ندا من سَلْخ أكثر من خمسين عاماً مرتِّلاً قوى الصوت ، رائع الايقاع ، تلوح له (الحركة) فى عَنَان السماء ، فلا يَنخذِل عنها ، ولا يَتزايل عزمُه من دونها ، بل إنه ليَجمع نفْسَه ، ويُحلِّق إليها بصوته القوىّ المَرِنّ ، فلا يزال بها حتى يَصيدَها ، ويُفرغها على السمع فى لباقةٍ وقوة إبداع !

ولقد فاتنى أن أذكر لك أن الشيخ برعى كثيراً ما كان يُرى واقفاً برَجل من هؤلاء الذين يسألون فى الطرق بقراءة القرآن . ذلك أنه تُعجبه منه نغمة ، أو تهزُه نبرة ، وسَرعان ما يتلقفها ، فيهذبها و يصقلها ، و يُطلِقها فى سهرته سويةً بديعةً تُضاف إلى فنه الكريم !

ولقد أخذ المرحوم الشيخ أبو العلا نفسَه بفنّ عبده الحامولى . وكان يَتغنى أغانيه ، ويُقلِّده فى جميع تناغيمه ، حتى لم يكد يرِث صنعةَ عبده سواه . على أن أبا العلا كان لبقاً بارعاً ، واسعَ العلم بالفنّ ، محيطاً به من جميع أقطاره ، بقدر ما يتهيأ لمصرىّ من فهم أصول الغناء العربىّ . وكان إلى هذا على حظّ من الذَّوق عظيم . ولكنه لم يُرزَق من حلاوةِ الصوت وكرم جوهرِه ما يُواتى كلَّ تلك المواهب ، فلم يَبرع ، وان جاد فى غِنائه ؛ ولكنه برع البراعةَ كلَّها فى تلحينه .

وإذا لاحظْت أن الذَّوق المصرى لا يستريح إلا إذا انتهت النغمةُ بتكريش الصَّوت ، والزَّرّ على الحَلِق ، أو ما يدعوه أصحاب الغناء (بالعفق) ، قدرت براعة أبى العلا وجراءته فى الإقدام على تلحين هذه القوافى الصخرية من نحو :

وحقِّكَ أنت المنَى والطلَب   وأنت المرادُ وأنت الأَرَب
وَلِى فيكَ يا هاجرى صَبوةٌ   تحيَّرَ فى وصْفها كلُّ صبّ

ونحـــو :

واللهِ لا أستطيعُ صَدَّك ولا أُطيقُ الحيـاةَ بَعدَك

ولا شك فى أن الآنسة أم كلثوم تعدّ اليوم من أفخر المغنيات والمغنين ، لا بجمال الصَّوت وحده ؛ بل بسلامة الذَّوق وجَودة الصنعة أيضاً . ولا أدرى لو لم تقع فى أول نشأتها فى طريق أستاذها أبى العلا ، أو لم يقع هو فى طريقها ، كيف كان يكون شأنُها فى الغناء ؟

فأبو العلا ، رحمه الله ، هو باعثُ فنّ عبده بتلحينه هذه القصائدَ والمقطوعاتِ التى تُصلصِل بها الآن حلوقُ أكثرِ المغنّين . إلى أنه خدم فنَّى الأدب والغناء جميعاً بما لَحَّن كثيراً من متخيَّرِ الشعرِ القديم والجديد ، على حين لم يُلحِّن أستاذُه عبده فى هذا الباب غيرَ قصيدة أبى فِراس (أرَاكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شِيمتُكَ الصَّبْرُ) ، فإن كان له سواها فما أحسَبه بالشيء الكثير .

ولقد مَضى صنيعُ الشيخ أبى العلا سُنَّةً دَرَج عليها الأستاذ المفتنُّ المبتدع محمد عبد الوهاب فى بدائع أمير الشعراء . وسيدْرُج عليها غيرُه فى نهضة الأدب الحديثة إن شاء الله !

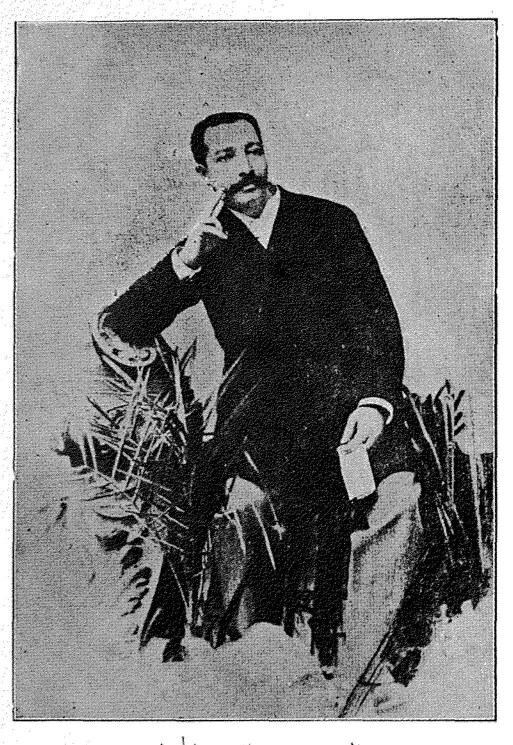
تذييـــل

عبده الحمولى

فى ٢٣ ابريل سـنة ١٩٣٤ نشرت مجلة (الرسالة) للكاتب مقالاً طويلاً ختمه بمحادث شهدَه بنفسه من عبده الحمولى . ولقد رأينا إثباته فى هذا المقام :

لم يكن يَتهيأ لفتًى حَدَثٍ مثلى أن يَسمع عبده الحمولى فى سُهولة ويُسر . فلقد كان ، فى العادة ، لا يُغنّى إلاّ فى بُيوت الطبقة (الأرستقراطية) ، ودونَ أبوابها لؤمُ الحجّاب ، وعِصِىُّ الأَحراس . فما من سبيل إلاّ فى الغَفلة من أعينهم ، أو الرِّشوة فى أيديهم ، أو فى التَّسَلل أعجازَ الليل بعد مُنصرَف السادة المدعوِّين . وعلى بعض هذا أَذِن الله أَن أسمعَ مَلكَ المغنينَ بضعَ عشرةَ مرّة .

وبعد فعبدُه ، وتاريخُ عبده ، وفنُّ عبده ، وصنعةُ عبده ، وبدعُ عبده . كل أولئك غنىٌّ عن التعريف والتبيين . ولكننى أُبادر فأقرر أن صوت هذا الرجل على جَلالتِهِ وحَلاوتِهِ ، ووفائِهِ بكلِّ مطالب النَّغم فى جميع الطبقات ، لم يكن بالموضع الذى يَتمثَّل لأوهام من لم يَسمعوه من أهل هذا الجيل . بل إن من القائمين مَن لعلَّه يَجهَره فى هذا المعنى من الجمال . ولكن لا يذهب عنك أن من وراءِ هذا الحسَّ المرهَفَ ، والذَّوقَ الدَّقيقَ ، والفنَّ الواسعَ ، والكفايةَ الكافية ، والقدرةَ القادرةَ على التَّصرُّف فى فنون النَّغم ، فى يُسرٍ ولباقةٍ وقوةِ ابتكار ، ورعايةٍ لوجوه المقامات المختلفة . والتوفيق إلى كل ما يَغمِز على الكبد . ألاَ لقد جمعَ الله أحسنَ هذا كلّه لعبده الحمولى ، فلم ينتهِ أحَدٌ فيه ممن سمعنا منتهاه ، إذا استثنيتَ صاحبَه المرحوم محمد عثمان ، على اختلافٍ بين فنَّى الرجلين غيرِ قليل .



المرحوم عبده افندى الحمولى

(مستعارة من الاستاذ قسطندى رزق)

وإنى لأذكر أننى سمعته مرةً عند مطالع الفجر، وكان ذلك فى دار المرحوم السبكى بك فى شارع الطرقة الشرقى. ولعله كان قد مسَّه طائفٌ من الشَّجا، فكاد يُحيلُ العُرسَ مَنَاحةً من كُثْر ما تَبَادرَ لنغمه الشجىِّ من دموع الناس!

أما الحادثةُ التى أوثرها بالرواية، فلقد كانت فى دار رجُلٍ من خُؤولتنا أولَمَ لتزويج ابنه. ودارُه تقع فى حىّ الناصرية. وكان صديقاً حميماً للمرحومَين عبده افندى الحمولى، والشيخ يوسف المنيلاوى، وكان أثيراً عندهما كريمَ المحلِّ منهما. وقد دعاهما كليهما ليغنِّيا معاً فى عُرس ابنه، فلبَّيا الدعوةَ خفيفَين.

وأنت بعدُ خبيرٌ بأن (أفراح) أولاد البَلد لا يُحجَب عنها الناس، ولا يدفعهم من دونها شُرَطٌ ولا أحراس. وكذلك اكتظ السُّرادِق بالمئات، إن لم أقل بالآلاف من أصنافِ خَلْق الله.

ويستوى عبده إلى (التخت)، ويتدلَّى فى الميْدان يحمى ظهرَه الشيخ يوسف وأحمد حسنين، ونصر الحصَّاوى، عليهم رحمة الله، وشيخُ المغنِّين الآنَ الأستاذ محمد افندى السبع، نعَّمهُ الله بأطيب الحياة، ومعهم السيد أحمد الليثى بعوده (أو الجركشى لا أذكر)، وأمين افندى بُزَرى بنايه، وإبراهيم افندى سهلون بكمانه، ومحمد افندى العقَّاد بقانونه. فغنَّوا وعزَفوا ما شاء الله أن يُغنُّوا ويَعزِفوا، حتى أتَوا على ما يُدعى (بالوصلة) الأولى. ولست أذكر ما تَغنَّوا فيه من الأصوات (الأدوار). ثم استراحوا برهةً من الزمن عادوا بَعدها إلى شأنهم. وما بَرِح عبده، رحمةُ الله عليه، يَضطرب بين (الليل والعين)، ثم ينقلب إلى المواليا فيرجِّع فواصله ترجيعاً. حتى إذا فعل فى هذا كلِّه الأفاعيل، وصنع ما لا ترتقى إلى صِفَته الأقاويل، أقبل يغنِّى، والجماعةُ معه، (الدور) المشهور وهو من نغمة العراق[1]:

(١) ينسب نظم هذا الدور إلى المرحوم اسماعيل باشا صبرى. ولكل من عبده وعثمان فيه لحن

« لسان الدَّمع أَفصَح من بيانى   وانتَ فى الفؤاد لا ُبد تعـلم »
« َهوِيتك والهوى لَجْلكْ هوانى   ولكنْ كل ده ما كانش يلزم »

إلى آخر ما ُيدعَى فى ُعرف أصحاب الغناء (بالمذهَب) . ثم أمسكَ القومُ لحظةً خرَج بعدها عبده منفرداً ، وقفّى العقّادُ على أثره بقانونه . وقال الجبّار : « أدينى صابر على نارى » !!!

لست بمستطيع يا معشر القرّاء أن أقول لكم كيف قالها الرّجل ولا كيف صنَع ؟ لأنني أنا نفسى لا أدرى ، ولا أحسب أحداً من الخلق درَى ، كيف قال الرّجل ولا كيف صنَع ؟ ! ولكننى أستطيع أن أقول لكم إن طائفاً عنيفاً جداً من الكهرُبا َسرَى فى هــذا الحشدِ كلِّه لم يَسلَم عليه أَحَد : َجمَد الناسُ جميعًا ، وتعلَّقت أنفاسُهم ، وشَلَّ كلُّ مناطٍ للحركةِ فيهم ، فما تُحِسّ منهم إلا أَبصاراً شاخصة ، وأفواهًا مفغورة . لو اطلعتَ عليهم لِخلتَكَ فى مُتحَف بجمع دُمًى منحوتةً لا أَناسىَّ يَترقرق فيها ماء الحياة ! حتى القائمون بالخِدمة ، لقد َمسَّهم هذا الطائفُ فجَمَدوا وثَبتوا ! وحتى رِدافُ[1] عبده ، لقد جرى عليهم من هذا ما جرى على سائر الناس ! ! !

ولقد ظلَّت هــذه الحالُ زُهاء عشرين ثانية ، أَعنى قَرَابةَ ُثلثِ الدَّقيقة . وينفجِر البركانُ الأعظم يتطايرُ عنه الحمَم ، وترى الخلق يموج بعضُهم فى بعض ، لا يدرى والله أحدٌ أين مَذْهَبه . ولا تسلْ كيف قُدَّت الحناجرُ من الشهيق ، ولا كيف ُبرِيَت الأَكُفُّ بالتصفيق . وخرج الأمرُ ساعةً عن عُرسٍ مقام إلى ُمستشفَى مجانين ، رُفِعَت فيه الحوائلُ وفُتِّحَت الأبواب ، ونُحِّىَ عنه أحراسه من الشُّرَط والحُجّاب !!!

---

(١) رداف جمع رديف : المراد بهم معارفوه .

تطوّر الموسيقى المصرية

فى العَصر الحاضر[*]

سيداتى . سادتى :

لستُ أثقل عليكم الليلةَ بنحوِ سيبويهِ ولا بلُغةِ أبى عُبَيدة ، لأننى لا أُحدّثكم هذه المرّةَ بلسانِ أعرابىٍّ بشَمْلة . بل لقد أتدلّى بالحديثِ إلى العاميّةِ الخالصة ما اقتَضاها المَقام . وللعاميّةِ أيضًا بلاغتُها ودِقّةُ تصويرِها ، وخاصّةً فى مثل بعضِ المقامات التى سأعرضُ لها بالحديثِ اليوم .

سأتكلّم فى هذه الأغانى الشائعةِ الآن . ولا يظنّنّ أحدٌ أننى بهذا أنحرف عن الحديثِ فى الأدب ، فالقولُ فى الاغانى إنما هو قولٌ فى صَميم الأدب . ولا تَنسَوا أن أغزرَ كتابٍ وأجمعَهُ وأكفاه صُنِّف فى الأدبِ العربىّ ، فأتَى على عُصارتهِ وعُيونِ روائعهِ من أولِ العلم ببلاغاتِ الجاهليةِ إلى غايةِ ثلاثةِ قُرُونٍ فى الإسلام ، إنما كان موضوعه الأغانى ، بل اسمه الأغانى ! .

وقبلَ أن أُمعِنَ فى موضوعى أُخيِّرُ من عندهم منكم فَتياتٌ إحدى اثنتين : إما أن يَقفو (الرديو) بَتاتًا حتى يَنقضى الزّمنُ المقسومُ لحديثى ، وإما أن يَصرفوا عنه فَتياتِهم . على أنكم تستطيعون أن تَطمئنوا من هذه الناحيةِ إلى ما قُبيلَ مُختتَم الحديث . وعلى أننى أستطيع أن أؤكّد لكم جميعًا أن فَتياتِكم جميعًا قد سمِعنَ هذا الذى سأتمثّل به ، وسمِعنَ ما هو أنكَرُ منه وأكرَه . ولقد سمِعنَهُ مُحسَّنًا مبهَّجًا لآذانهنَّ الكريمةِ بالتوقيع والتَّطريب ؛ بَينما أنا لا أعرِض منه ما أعرض إلاّ فى مَقام التّقبيح والتّهجين . فأنتم الآن بالخيار ، وقد أعذَرت ، فاللهم اشهَد وأنت خيرُ الشّاهدين !

[*] محاضرة ألقيت من محطة الأذاعة الحكومية فى مساء ١٦ يونية سنة ١٩٣٤ ، ثم نشرت فى جريدة (الجهاد) بعد ذلك :

وبعد ، فأرجو ألاّ يتهاوَن أحدٌ منكم شأنَ الأغانى ، على اختلاف ضروبها وألوانها . فالأغانى كما هى عَرَضٌ من أعراض الأمّة ، وتَرجُمانٌ صادقُ الأداء عن حالهــا وعقليتها ، ومَبعَث مواجعها وآلامها ، ومُتناجَى آمالها فى الحياة وأحلامها ، فان لها كذلك لأثراً بعيداً فى بناء النَّشْ وتربيتهم ، وفى تَسويةِ الأذواقِ العامَّة . بل إن لها وَراء ذلك لَأَثراً أبعدَ مَدًى يومَ تكون الجُلىَّ ، ويومَ تُستنفَر الجَمهرَةُ للعظائم !

على أن أثر الأغانى ، فى هذا الباب ، لا يحتاجُ منى إلى بيان . فلقد طالمــا قال فيه أفاضلُ الأدباء وبيَّنوا ، وأفاضوا فأجملوا وأحسنوا . وصَدَق المتقدِّمون حين قالوا : إن توضيحَ الواضحات من بعضِ المُشكلات . ولله أبو الطيِّب المتنبى حين يقول :

وليسَ يَصِحُّ فى الأذهانِ شىءٌ إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ !

*
* *

سيداتى ، سادتى :

لعلَّ من الخَير أن نَستعرِضَ حالَ الغِناء وما اعتراهُ من ألوانِ التطوُّرِ من قَبلِ ثلاثينَ سنةً خَلَتْ إلى الآن . وكيفما كانت الحال ، فان الغِناء المصرىَّ قد صَرَف جُلَّ همّه ، إن لم يكن صَرَف همَّهُ كلَّه إلى ترديدِ أحاديثِ الصَّبابةِ والهوَى ، وشِدَّةِ البَين وطولِ النَّوَى ، وألمِ الفِراقِ وحُرقةِ الجَوَى . والهُتافِ بالمحبوبِ فى حالَىْ إقبالهِ وإعراضِه ، وجماحِه وارتياضِه . وإظهارِ الفَرَح بجميل لقائهِ ، والشكوَى من صَدّه وطولِ جَفائهِ . ونحوِ هذا من فُنونِ المعانى التى ما بَرِحَ الغِناء المصرىُّ يَتصرَّفُ فيهــا إلى الآن . أما العِنايةُ باصابةِ المعانى الساميةِ التى تَتَّصل بتربيةِ

الأخلاق ، أو بتزكيةِ الأذواق ، أو بوصفِ الحالاتِ الاجتماعيَّة ، أو الإشادةِ بالوطنيَّاتِ جملة ، فهذه لقد ألقاها الغناء المصريُّ دبْرَ الآذان ، إذا استثنينا أنشودةً وطنيّةً ضئيلةً كان يترنَّم بها صغارُ التلاميذ عند منصرَفهم آخرَ النّهارِ من مدارِسهم ، والتي مطلعُها :

مِصرُ النَّعيمُ هيَ الوَطَنْ وهى الحِمى وهى السَّكَن
وهيَ الفَريدَةُ فى الزَّمَن فجميعُ ما فيهـا حَسَن

ولست أدرِى إن كانت أقلامُ الشُّعراءِ أو المتشاعرين أرسلَت فى ذلكم العَصرِ غيرَ هـذه الانشودةِ أم لم ترسل ؟ وعلى كل حالٍ فما فى شىءٍ من مثل هذا جليلُ غَناء !

والآن نَمضى إلى استعراضِ حال الغِناء فى مصرَ من قَبلِ ثلاثين سَنةً خَلَت ، وما دخل عليه من التطوُّرات إلى هذه الغاية ، على أن يكون هذا فى إيجاز بيان :

لقد كان من عادةِ جماعاتِ المغنِّين ، قلَّ من يَنحرِف منهم عن هذا ، أن يستفتِحوا (وَصلاتِهم) بالموَشَّحَة ، ثم ينفرِد رئيسُهم بمناداةِ الليلِ والعَين . ثم يَتَناول بعضَ المَوَالِى فيروح يُرجِّعه . ويَطوف به على فُنونٍ من النَّغَم . ثم يُردُّه على عَقِبِهِ ويُفضِى منه إلى (الدور) ، يَشترِكُ الجماعةُ معه فى (مَذهبه) ، وينفرد هو بالتَّغَنِّى فى (غُصنه) ، إلاَّ أن يحتاج منهم إلى المعونةِ فى الترجيعِ والتَّرديد .

ولقد يُنشِد القصيدةَ فى أعقاب الليل ، ولقد يتغنَّى ، وكان هذا نادراً جداً ، فى المقطوعةِ التى يتكرّر على جميعِ وحَدَاتِها نفسُ اللَّحن ، وهى المعروفة الآن (بالطقطوقة) . ولا يزال المغنونَ التّقليديُّون يَصنَعون هذا كلَّه إلى اليوم .

وإنه ليعزّ علىَّ أن أنعِى ، أو إنِى أكاد أنعى إليكم فنّاً جليلاً من فُنونِ الغِناء ، ألاَ وهو الموشَّحة . ولولا بقيةٌ لا تَزال تستفتِح بالقديمِ المأثور منها أبوابَ الغِناء ،

لادرجَت فى مَطَاوى التاريخ . ذلكم النوع الذى يحتاج فى تلحينه إلى أبرعِ البراعةِ ، وأحكَمِ الفنّ ، وأقوَى الصَّنعة . وأين منّا ما لحّن عثمان[1] وأضرابهُ من نحو :

كَلّلى يا سُحبُ تيجَا ـنَ الرُّبَى بالحُلِى
واجْعلِى سِـــوَارَكِ مُنعَطَفَ الجَـــدولِ

أتَانى زَمانِى بما أرتضى فَباللهِ يا دهرُ لا تنقضِ

مَلاَ الكاسَات وسَقَانى نَحيل الخَصْرِ والقَــدّ

وغير ذلك كثير .

ولا والله ما أَرمى ملحِّنى العصر بالقُصورِ عن مُعالجةِ مثلِ هذا ، بل لقد تهيأ لى أن أسمع موَشَّحاتٍ قيمةً من تلحين بعض المعاصرين . ولكن ما كان الأمرُ إلى ملحِّن يقدِر أولا يقدِر ، إن مَرَدَّ الأمرِ كلّه إلى هوى الجمهُور . وإن شِئنا تعبيراً أدق ، قلنا إن ذلك إنما يرجع إلى هذا التَّطور الذى يَتناول أسبابَ الحياة جَميعًا .

سيداتى ، سادتى :

أما نَصيبُ (الدّور) من هذا التطوّر ، فهو على أنه ما زال يَنظمهُ الناظمون ، ويُلحّنه الملحّنون ، ويُغنّى فى قديمه وحديثِه المغنُّون — إننى أراه ، على هذا كلّه ، قد أنشأ يَتقلّص وَيذْوِى غُصنهُ ، ويهونُ خَطبُهُ ، ويُدبِر حظُّه . ولقد جَعل (المونولوج) يُدافعه شيئًا فشيئا . ويَحتَلّ مكانه رُوَيداً رويدا . ولا أحسبُ أن الزمن سيطول حتى يُصبح شأنُ (الدّور) كشأن الموَشَّحة ، إن دَخلا فى الغِناء والتَّطريب ، فعلى أنهما فنّانِ تقليديّان فحسب ، صُنعَ من يَبنى فى هذا العصر

(١) هو المرحوم محمد افندى عثمان المغنى . وهو أقدر الملحنين وأبرعهم كافة فى العصر الحديث وأكثر ما يردده المغنون الى اليوم من القديم ، انما هو من تلحينه .

دارَه أو بعضَ دارِه على طِرازٍ عربىّ أو فِرعَونىّ مثلا . وأكبرُ الحظ فى مثل هذا إنما هو التمليحُ والأغراب !

وهذا (المونولوج) ضَربٌ من النّظْم لا أحسبُه كان معروفاً فى الغِناء القديم ، أو على الأقل إنه لم يكن شائعاً فيه . و يلحق بهذا (المونولوج) (الديالوج) وهو ما يَتطارح الغناء فيه اثنان ، و (التِّريالوج) وهو ما يتعاورُ الغناء فيه ثلاثة. وواضح أن هذا الأُسلوبَ الغِنائىَّ مما نضَح به علينا الغَربُ فى هذا العَصر الحديث .

*
* *

سيداتى . سادتى :

هنالك ضروبٌ أخرَى من التطوُّر فى أسبابِ الغِناء المصرىّ أُلخِّص أهمَّها تلخيصاً رفيقاً :

١ — لقد كانت (الأدوار) والموالى ، فى الجملة ، أقوَى عبارة ، وأدقَّ صياغَة ، وأَحكَمَ نَسجاً . وما لها لا تكون ، والذى يَتولَّى نَظمَها هم السابقون الأوالى من أمثال الشيخ على الليثى ، و إسماعيل باشا صبرى ، والشيخ الدرويش ، ومصطفى بك نجيب ، ومحمود أفندى واصف ، ولِداتُهم من أئمة الأدب وأعيان البيان ؟ .

ولست بهذا أذهب ، لا سَمَحَ الله ، إلى القول بأن أُدباءَنا اليومَ قاصرون عن الإِتيانِ بمثل هذا أو بما هو خَيرٌ منه . بل الواقعُ أن هذه الفنون أصبحت فى تَقلُّصِها و إدبارِها ، فلم يَبقَ لهـا من جَلالةِ الشأنِ ما يَستدرجُ أعيانَ البيان لمعاناتِها وعلاجِها ! .

٢ — شُيوع المَرارةِ والألم فى أناظِيم الغِناء الحديثة ، حتى لا نكاد نسمع منها إلاَّ الأنين والزفير ، والصُّراخَ والعويل . ولا تكاد ترى فيها ، لو تمثَّلتْ لك

خلقاً يُرى ، إلاّ الدمعَ السائل ، واللَّوْنَ الحائل ، ولَدْمَ الصُّدور ، وشَدَّ الشعور ، والتَّقوُّضَ على الأَعتاب ، وتمريغَ الخُدودِ فى التُّراب ، وغير أولئك من ألوانِ الذِّلةِ والهوَانِ والعذاب ؟

نعم ، إن حديثَ العِشقِ والصَّبابةِ لا يَنبغى أن يخلوَ من هذا ، فهو جارٍ فى طبيعةِ العُشَّاق . ولكن موالاةَ الحُزن ومتابعةَ الأَسى الدَّهرَ الأَطولَ مما يتجاوز مَدَى الاحتمال !

على أنه قد كان إلى جانب (الأدوار) الشاكيةِ الباكية ، ولكن فى رِفقٍ وحُسنِ تأميل مثل : لسان الدَّمع أفصح من بيانى — فى البُعد يا ما كنت أنوح — كادنى الهوى وصبحت عليل — أقول لقد كان إلى جانب هذه الأَدوار أدوارٌ يَشيع فيها الفرَح وتَقطُر منها البهجة من نحو : اليوم صفا داعِى الطرب — متّع حياتك بالأحباب ، أنسك ظَهر — يا وصْل شرّف يا جَفا رُح عَنـا ، خَلى الحبايب بالحياة تتهنّا — أفراح وصالك تدعى الناس ، للائتناس ، والخير على قدوم الواردين — يا طالع السَّعد افرح لى ، دا الحِبّ رَحْ يوفى بوصله . وغير ذلك كثير .

ولقد يكون مَرجعُ هذا إلى ما يَطوف بالعالم هذه السّنين من طوائفِ الهمّ والكَرب والضيق . ولكن ذلك لا يُغنى الناظمين على أى حال . فهم إن تَرْجموا بهذا عن الحال العامَّة ، فعليهم إلى جانب ذلك أن يُرفِّهوا عن الناس بعضَ الشئْ ، ويَترَاءوا لهم ولو بصُباباتٍ من المُنى ، فالناسُ فى جَهدهم هذا أحوجُ ما يكونون إلى التَّرْفيهِ والتأميل ! .

٣ — وهو الأَدخَلُ فى الموسيقى والأَوصَلُ بها ، ألاَ وهو التطوُّر الشديد فى التَلحين . ولستُ أدَّعى العلمَ بالموسيقى ، بالقَدْرِ الذى يأذن لى بأن أُفيض القولَ

فى هذا البابِ منها ، فذلك من شأن من تَحرَّروا لهذا وحَذَقوه . ولكن لا أظن أننى أفتئِتُ على الفنّ إذا زعمتُ أن الغِناء المصرىّ إنما كان يتصرَّف فى قَدرٍ محدودٍ من فنون النَغم ؛ على أنه كان يتصرَّف فيها فى براعةٍ وقوةٍ وسَلامةٍ تكاد تُشعِر المصرىّ أن هذا الغِناء الذى يرِد على سمعه ، إنما هو صَدَى ما يَجرى فى طبعه ، وأنه لو كان خُلِىَ إلى نفسه لقال هذا الذى سمِع . وهذا الذى يَدعونه السهلَ الممتنع .

أما فى العهد الأخير فقد أغارت الموسيقى المصريةُ على الموسيقات الأُخرى ، فسَبَتْ كثيراً من أنغامِها ، فاتسعت بذلك رُقعتُها ، وكثُرتْ دروبُها ، وتشعَّبتْ طروقُها . وإذا كانت الآذانُ أو بعضُ الآذانِ لم تسترح إليها إلى الآن ، فلعلّ ذلك لأنها ما برحت فى طَورِ الترويض والتذليل . ولا أفسَح فى جوانب القول ، فاننى أكره أن أذكىَ الفتنةَ بين أنصارِ القديم وأصحاب الجديد !

وهنالك بعضُ التطوُّرات الأُخرى أرجئُ الكلامَ فيه إلى الشّقّ الأخير . وهو المقصودُ فى الواقع من كل هذا الحديث .

سيداتى ، سادتى :

بقِى الحديثُ فى تلكم المقطوعاتِ التى شاعت فى هذا العصرِ شُيوعاً هائلاً ، وأمست تُردَّد بكثرةٍ عظيمةٍ حتى على ألسنةِ كبارِ المغنّينَ والمغنّيات ما مُهِّدَت لهم مجالسُ الغِناء . ولا شكَّ فى أنكم عرفتم أننى أعنى بها ما يُدعَى فى العُرف العامّ (بالطقاطيق) .

واسمحوا لى أن أقول لكم إننى ، من الجِهة القومية ، أصبحتُ أحتفِل للكلامِ فى (الطقاطيق) أكثر من احتفالى لأىِّ ضربٍ آخرَ من ضُروبِ الغِناء !

نعم ، لقد أصبحتْ منى بهـذا الموضـع لأنها فى الواقع الأُغْنِيَّةُ الشَّعبيَّةُ التى تُردِّدُها حُلوقُ الجميعِ فى هذه الأيّام : يردِّدُها الرجالُ فى مجالسِهم ، كما تردِّدُها السيداتُ فى خدورِهنّ ، ويردِّدها الشبّانُ والشابّات ، والفِتيانُ والفَتَيات ، والأطفالُ والطّفلات ، كلُّهم يردِّدُها على اختلافِ المنازلِ وتفاوُتِ الثقافات ! فاللهم إذا كان لشىء من فُنونِ الغناء أثرٌ شَديدٌ أو ضعيف ، قريبٌ أو بعيد فى تكوين الأخلاق ، وتربيةِ الأذواق ، والدلالة على ثقافةِ أُمةٍ واتجاهِ مُيُولها ، فهو ولا شك لهذه (الطقطوقة) أكثر من أىّ شىء آخر .

وإننى أَرجوكم أولاً أن تَقلّبوا النظرَ فى هذه (الطقاطيق) التى تُمطَرون بها كلَّ بَكرَةٍ وكلَّ عَشِىّ . إذن فلستم واجدين فى أكثرِها الكثيرِ إلاّ كلَّ رذلٍ وسمِجٍ وسخيفٍ وباردٍ من الكلام !

حدثونى بعَيشِكم : أىُّ غَرَضٍ من مِثل هذا الذى تسمعون كلَّ يومٍ وكلَّ ساعة . وأىُّ مَعنًى فيه ، وأىُّ مَغزًى له ؟

وهنا أرفع شارة (الخَطَر) ، ليأخذَ من شاء الحذَر :

اللهم إن كان يُطلَب بهذا الهُراءِ من القولِ معنًى أو يُسْتشرَف به إلى مَغزًى ، فهو تصويرُ عقليةِ هذه الأُمةِ الكريمةِ أقبحَ الصُّوَر وأنكرها . بل إن من بين هذه الأُغنيَّاتِ لما يَسَعى جاهِداً إلى إشاعةِ الفاحشةِ فيها !

لقد كانت (الطقاطيق) تُغَنَّى فى القديم .وكان أكثر من يَصطنِعها ويُردِّدها جماعات (العوالِم) فى أعراس الطبقة الوُسطَى وما دونَهـا . على أنها كانت ظريفةً خفيفةً على السمع ، عَفّةً بريئةً من فُحشِ القول . فان هى شذَّت فى القليلِ النادرِ جداً . فشذوذُها لا يصل بها إلى هذا الذى يدعونه الأدبَ المكشوفَ على أىّ حال ! على أن أَعلامَ المغنِّينَ كانوا يُردِّدون فى قليلٍ من الأحيانِ

المقطوعاتِ التى تَتّسِق فى ألفاظها ومعانيها لأخطارِهم وجلالةِ محلّهم . وإذا كان قد غَنّى فى بعضِ تلك (الطقاطيق) النسائية ، فان ذلك منه إنما كان على جهة التّظرُّفِ والتّمليح !

* * *

سيداتى ، سادتى :

اسمحوا لى بأن أبيّن الفرقَ بين أغانى الرجالِ جملة ، وأغانى النساء جملة . وهذا الفرقُ وإن دَقّ وصغُر فان له أثرَه البعيد : فأغانى هؤلاء يُغتفَر فيها من الطّراوة والرّخاوة ما لا يُغتفَر فى أغانى الرجال، سواء أكانت تلك الطّراوةُ والرّخاوةُ فى اللفظ أم كانت فى طريقة الأداء . ولهذا ساغ للسيدات أن يغنّين جميع أغانى الرجال ، فى حين لا يسوغ لهؤلاء أن يَتغنَّوا بكلّ ما يتغنّى به السيدات . لأنه إذا جاز للمرأة أن تشتدّ وتَعنُف ، ولقد يكون ذلك جميلاً منها فى بعضِ الأحيان - فقبيحٌ كلُّ قبيحٍ بالرجُل أن يَسترخى ويتكسّر ويتفكّك ويتزايل ، والعياذ بالله تعالى ! .

وإن أَعجَبْ لشىء فى هذا البلد ، فعجبى لأن الكثرةَ الكثيرة من مُغنّياتِ الطبقةِ الأولى يغنين غِناء قوياً مستمسكاً لا أثرَ فى نبراته لتميّع ولا لاسترخاء . وتأبَى حلوقُهنّ إلاّ أن تُرسلَ الخالصَ الجوهرىَّ من حُرّ الكلام ، فى حين نسمَع رجالاً ، رجالاً عِدّةً مجتمعين ، أعنى فِرقةً بأسرها . مَن لم يُشعِل الشيبُ منهم رأسَه ، فلا أقلّ من أن له أولاداً مميّزين ، لعل فيهم من ارتقى إلى المدارس الثانويةِ بَلْهَ العالية — هؤلاء الرجالُ لا يتأثّمون من أن يُغنُّوا على أملاء الناس : (لابسة الدّواق ليلة الزّفة ، فرحانة بالدخلة ... وخايفة الخ ...) . يا للفضيحة ... ويا لانخذال الطباع ! ...

و بعد ، فهل هذا كلامٌ يليق بالرجال ؟ لا والله ولا يليق بالنساء !

ولا يكفى هذا ، بل يُؤبَى إلاَّ أن يُطبَع فى (اسطوانات) تَذيع فى الشرق والغرب ، ويَصيح بها (الراديو) فى كل مكان !

لقد أَفهم ، يا سيداتى وسادتى ، أن تُغنِّى سيدةٌ فى السيدات : (مبروك عليك عريسك الخِفّه ، يا عروسه يا زاينه الزفة) مثلاً . لكنني لا أتصوّر ، ولا أُطيق أن أتصوّر ، أن يَتمثّل للمِذياع سبعةٌ أو ثمانيةٌ من شبابنا الناهض ، فيتغنَّون فى تكسُّر صوت واسترخاء نَبرة ، مبالغةً فى المحاكاة والتقليـد : (مبروك عليك عريسك الجِيلة .... تهنوا وتمتعوا الليله ....) يا ساتر ! يا ساتر ! يا دافعَ البلاء ! اللهم ارفع مقتَك وغَضبك عنا ! . ثم لا يتحرَّج الفحلُ منهم أن يزغرد كما تزغرد مساعداتُ المغنّية . وذلك منهم كذَلك لإحكام المحاكاة والتقليد !!! .

*
* *

سيداتى ، سادتى :

ليس والله أَفتكَ بالأخلاق ولا أعصفَ بالآدابِ من شُيوع مثلِ تلكم الأغانى الخبيثة المائعة ، وخاصةً على ألسنة الرجال . وإنها لحقيقةٌ بأن تُشيع فى فِتيانكم انخذالَ النفْس ، وتزايُلَ الخُلق ، واسترخاء الطَّبع ، وتدُكَّ مكان الرجولة فيهم دكاً . وإننى بإيراد هذه المترادفات إنما أُحاول أن أؤدى ما تؤديه اللفظةُ المقسومةُ لهذا المعنى ؛ ولكننى أرفَق بأسماعكم ، وأشدُّ إجلالاً لكم من أن أُحمِّلها جناحَ الأثير ، فتسلُكَ جميعَ الدُّور ، وتقتحمَ الخُدورَ على ربَّات الخُدور ! .

وليست الجنايةُ فى ترجيع مثل هذه الأغانى مقصورةً على فِتيانِكم رجال الغَد ، بل إنها لواقعةٌ أيضاً على فَتياتِكم أمّهاتِ المستقبَل . فتياتكم اللائى يَفرِض عليهن

الوطن ، إذا ما شَبَبْن وأصبحنَ ربّاتِ بيُوت ، أن يُنَشّئْن الطِّفل ، أعني وديعتَه بين أيديهنّ ، على الفضيلة ، وأن لا يَتعاظَمهنّ جُهدٌ فى إعدادِه ليكون ، إذا شَبّ وكَبِر ، رَجلاً تامّ الرجولة .

*
* *

سيداتى ، سادتى :

إن لبلادكم آمالاً عِراضاً فى جميع نواحى الحياة . وهيهاتَ أن تَنالَ أيسرَها مطلباً إلاّ على أيدى رجالٍ صِحاحِ البُنَى ، مِتانِ الأخلاق ، شِدادِ النفوس صِلابِ الطِّباع .

والأمرُ الآن إليكَ أيها الشعب ، فقل كلمتَك ، وامضِ فى شأنِك حكمَك . واللهُ موفقُك وهاديك سواء السبيل .

فى الأغانى المصرية*

لقد شاعت فى هذه السنينَ مقاطيعُ الغناء المعروفة (بالطقاطيق) ، وهى من فاترِ القول وساقطِ الكلام . لا يَرِنّ فى أُذنك فيها لفظ ، ولا يَتشرَّف على نفسك منها معنى . فأمّا ما يجرى منها على ألسنة الفِتيان ، فكلُّه خَوَر وتكسُّر وٱستخذاء هيهاتَ أن يَنتَهِضَ معها للفتى عزم ، أو يشتدّ له طبع . وأمّا ما يتصاصَل منها فى حُلوق البنات ، فكلُّه خَنًى وعُهر ، وكلُّه استرسالٌ فى الفتنةِ إلى آخر المَدَى ، وكلُّه تدريبٌ على عِصيانِ الآباءِ فى طاعة الهوى ! (أنا لما استلطَف ما يهمّنى بابا) ! وكلُّه لا يَرفع الأمَّ عن مكان القيادة ، بما يَقتضيها أن تَفسَح فى جوانبِ الحِيَل لتجمَع بنتها بهواها ، وتبلغها أَخسَّ مناها : (هاتى لى حِبّى يا نينه الليله) !

وهنالك ما هو أَوصَلُ من هذا بالتعهّر وأعرق فى أبواب الفحش ، مما إن صُنتُ عينَك عن قراءته ، فلا سبيل إلى أن أصون أُذنَك عن استماعه فى الملاهى ، وفى الشوارع ، وفى أجواف المقاهى ، وفى أكسارِ الدور ، ترجِّعه بنتُ الشريف على نبرات (البيانو) ، وتوقّعه بنتُ الوضيع على نقرات الدَّفّ .

وهذا ، لَعمرُ الله ، شرٌّ كثير . وأىُّ شرّ أبلغُ من أن يُطبَع الأبناء على ضَعفِ الهمّة ، وخِذلانِ النفْس ، وخَنَث الطَّبع . وأن تُطالَع أنفسُ البناتِ ، فى شباب السِّنّ ، بهذه المعانى الخسيسة ، وتُستدرَجَ أحلامُهنّ إلى تلك الأغراضِ الوضيعة . إلى ما يَجرى على ألسنتهنّ من تهاوُنٍ لأقدارِ الآباء ، وعَبثٍ بوقارِ الأمهات ! .

ولقد كانت دورُ (السينما) تَعرِض من حِيَل اللُّصوصِ والقَتَلةِ ، وأسباب غدرهم وفتكهم ما بَعَث الحكومةَ على مراقبةِ ألواحِها ضنًّا بأحلام الفِتيان ، وعِصمةَ

* نشرت فى جريدة « السياسة » تحت عنوان « ليالى رمضان » سنة ١٩٢٦

لاخلاقهم من أن يَشيع فيها الفسادُ بحكم المحاكاةِ والتقليد . وهى على كلّ حال دورٌ مقصورةٌ لا يَغشاها إلاَّ القليلُ بالقِياسِ إلى سائر الناس . إلى أنها لا تقوم إلاَّ فى المدنِ وحواضِرِ البلاد — فكيف بهذه الأغانى وهى تَطير إلى الناس من كل جانب ، وتملِك عليهم أقطارَهم من جميعِ المذاهب ، وتسلُك الأكواخَ وتقتحِم القصور ، ولا يَسلَم على أذاها حتى المكفوفاتُ فى الخدور . فأنَّى دارت الآذان ، سَمعتْ صَلصلتَها من كل حلق وجَلجلتَها على كل لسان ! .

وإن شَطَطاً تكليفُ الحكومةِ أن تنشر فى الشوارع والدورِ شرَطَها وعَسَسها ليقبِضوا على أصحاب هذه التلاحين ، كما يَقبِضون على المتّجرين فى الكوكايين . ويُصادِروا كلَّ ما فى الأفواهِ من هذه (الطقاطيق) ، كما يصادرون ما فى الجيوب من تلك المساحيق — فذلك مما لا يَتّسع له الذَّرع . والمَخلَصُ أن يَنهَض جماعةٌ من أئمة الأدب وأعلامِ الموسيقى ، فيدافعوا هذا الوباء ، ويُداووا بالتى كانت هى الدّاء ، فينظم أولئك ما يخفّ على السمعِ من معانٍ شريفة ، فى ألفاظٍ حُلوةٍ لطيفة ، تَبعثُ الهمم ، وترفع الأُنوفَ إلى موضعِ الشَّم . ويُخرجها هؤلاء فى تلاحينَ تثير الطربَ وتهزُّ الأريحيةَ هزًّا !

* * *

وبعد ، فتا لله ، لو كان لى بعضُ ثروة (فلان) باشا لأَجريتُ على هذه الجماعة من مالى ما يُغنيها ويَتضمَّن لها طولَ الحياة . فاذا شَقَّ هذا على النفْس ، فحسبُهُ أن يَفتح الباب ، ويبدأ قائمةَ الاكتتاب . فاذا شَقَّ هذا على النفْس أيضاً ، فانى أرجوه أن يدعوَ إليه كلاًّ من رُصفَائِه (فلان) باشا ، و (فلان) بك ، والسيد (فلان) ، فيقرأوا (العِدّيّة) ، على هذه النيّة . فما برِحت المشروعاتُ القوميّةُ تقومُ ببركةِ أسمائهم ، وتَنجحُ بحسنِ توسُّلِهم ودعائهم . اللهم آمين ! ! ! .

التجديد والمجددون*

سيداتى ، سادتى :

أتحدَّث إليكم الليلةَ فى التَّجديد والمجدِّدين ، فاننا الآن فى شِبه ثَورة ، بل فى ثَورة بالقديم من الآدابِ والفُنون : فهناكَ ثَورةٌ فى البيان ، مَنظومِه ومَنثورِه ، وهناكَ ثَورةٌ فى الموسيقى ، وهناكَ ثَوراتٌ فى غيرهما من الفُنون . وكلُّ أولئك إنما يُعبَّر عنه بالتَّجديد ، ويُعبَّر عن المُضْطلِعين به بالمجدِّدين . وإنى لَأخشَى فى التعبير بكلمة (الثَّورة) أن أكون من المتجوِّزين ! وقبل أن أخوض فى لُجَّةِ الموضوع ، أرجو أن تَأذنوا لى فى أن أعرِضَ عليكم نَمُوذجًا مما سَلَفَ لى من الرأى فى هذا الباب ، وأرجو أن يكون كافيًا فى استراحة إيمانِكم إلى أننى لستُ من الجامدين المتشبِّثين بلزوم القديم . بل إننى لَأطمعُ فى أن يُقنعكم بأننى من أشدّ أنصار التَّجديد والمجدِّدين ، ولكن على صورةٍ أُحبّ أن يَتفطَّن إليها بعضُ هؤلاء المجدِّدين !

قلتُ من رسالةٍ فى الذكرَى الثانية لوفاةِ أميرِ الشعراءِ المرحوم أحمد شوقى بك :

« إذا كان من آياتِ الحياةِ فى الكائناتِ تطوُّرُها ونُموُّها وتجدُّدُها ، فالأدب . ولا شك ، من هذه الكائنات التى لا تُكتَب لها الحياةُ إلا على التطوُّرِ والنُّموّ والتَّجديد ، وإلا كان ميتًا ، أو أشلّ على أيسر الحالين !

« ولكننى أُحبّ أن ألفتَ النظرَ فى هذا المقام إلى مسألة قد تَدِقّ على أفهام الكثيرِ أو القليل . وتلك أن هناكَ فرقًا بينَ التربيـةِ والتجديد ، وبينَ المسخ والتَّغيير . ولستُ أجد مثلاً أسوقُه فى هذا البابِ خيرًا من حياةِ الطِّفل وحياةِ النَّبات : كلاهما يَنمُو ويربو ، وكلاهما يَطول ويَزكُو ، حتى يبلغ الحدَّ المقسومَ لكماله.

* محاضرة ألقيت من محطة الاذاعة المصرية فى مساء السبت ١٥ من فبراير سنة ١٩٣٦ ونشرت فى مجلة الهلال فى عدد مارس من السنة نفسها

وقد تتغيّر بعضُ معارفه ، وقد تحُول بعضُ أعراضه ، ولكنه فى الغاية هو هو لا شىء آخر ، فحسَن الوليد ، هو حسَن الطِّفل ، وهو حسن الفَتَى ، وحسن الشابّ ، وهو حسن الكَهل وحسن الشيخ . وتلك الفسِيلةُ الصغيرة ، هى النَّخلة الباسقة . كلٌّ نمَا وربَا بما دخل عليه من الغِذَاء ، وما اختلف عليه من الشّمسِ والهواء .

« لقد أصابَ كلٌّ منهما ما أصابَ من أسبابِ التّزكيةِ والإرْباء ، فاحتَجَز منها ما واءَمَه وما تعلَّقت به حاجته ، ونَفَى عنه ما لا خيرَ له فيه ، ولا حاجةَ به إليه ، ثم أساغ ما أمسكَ وهَضَمه . فاستحال فى جسمِ الفتى مثلاً دمًا يجرى فى عِرْقهِ ، ولحمًا وعظمًا يزيدانِ فى خَلْقهِ » .

« ولا شك فى أن لأدبنا العربىِّ عناصِرَ وله مُقوِّمات ، وله شخصية بارزة مُعيَّنة ، فمن شاء فيه تجديداً — وحَتْمٌ الحَتْمُ على القادرينَ أن يُجدِّدوا — فليتقدَّم ، ولكن من هذه السبيل » .

*
* *

سيداتى ، سادتى :

لَعلى أطلتُ عليكم فى دفاعى عن نفسى و إثباتِ براءتى من الجُمود والجامدين ، ولكن مما يَشفَع لى عندكم فى ذلك أن هـذا الدفاع قد صَرَّح لكم فى الوقتِ نفسِه عن رَأيِى فى التجديدِ والمجدِّدين . وهذا ، ولا شك ، وثيقُ الصِّلة بالموضوع الذى عَقَدنا له هذا الحديث .

عرَفتم إذن أننى لستُ ، والحمد لله ، من الجامدين العاضِّين بالنَّاجذِ على كل ما هو قديمٌ لأنه قديم ، وعرَفتم كذلك أننى أرَى وجوبَ التجديدِ لأن طبيعةَ الحياةِ تقتضيه . بل إن التطوُّرَ والتجدُّدَ من علامات الحياة ، على ألاّ يكون هذا التَّطويرُ والتَّجديدُ ضربًا من المَسخِ والتَّشويه !

وبعــد ، فالمقام ما بَرِح مُحتاجاً إلى شيء من البَسْط والتَّفصيل . فَلنَمْضِ ، على اسمِ الله ، فى مُعالجةِ هذا البيان بقدرِ ما يَتَّسِع له الوقتُ المقسُوم .

تعلمون ، أيهــا السادة ، أن العلومَ ، على وجه عامّ ، إنما تَسْتَمِدّ قضاياها من العقلِ والتَّجارِب. أمَّا الفنونُ الجميلةُ على وجهٍ خاصّ ، فان استِمدادَها فى الجملة من الذَّوْق ، فهى من الذَّوقِ تَنشأ وإلى الذَّوق تَعود والذوق شىء ليس فى الكتب .

وإذا كانت العقولُ الصحيحةُ قَلَّ أن تختلِف بإزاء الحقائقِ الواقعة باختلاف الأشخاصِ أو البيئآتِ والعُصُور ، فان الاثنين مثلاً ضِعْفُ الواحِد ، وزوايا المثلث تُساوى قائمتين . وهذا فى كل زمانٍ وفى كل مكان . إذا كان هذا هكذا ، فان الفنون التى مَرَدُّها إلى الذَّوْق ، أعنى الفنونَ الجميلة ، تَفترق افتراقاً قد يكون يَسيراً وقد يكون شَديداً . طَوعاً لاختلافِ الأشخاص والعُصُور والبِيئات . فما يُعجِب قوماً ويُلذِّذهم ويُشِيع الطَّربَ فيهم ، لقد يَنشُز على أذواقِ آخرين ويُدخِل الضَّجَرَ عليهم ، بل لقد يزعجهم ويُغثِى نفوسَهم .

ذلكم بأن حاجةَ الأذواق ليست من آثار مَنطِق العقل ، ولا هى وليدة الحقائقِ الواقعةِ حتى تَشترِكَ الخلائقُ على اختلاف أصنافهم وأعصُرِهم فى تَقبُّلها والتسليم بها . بل إنها لَوَليدةُ البِيئةِ والتاريخ ومَأثورِ العادةِ والإلْفِ الطويل . ولا شكَّ فى أن من عناصرها المهمةِ كذلك حظَّ الأمــةِ من العلم والثَّقافة ، ولونَ هذه الثقافة ، ومَبْلغَ الأمة كذلك من دِقَّة الحِسِّ ورَهافةِ الشُّعور .

من هُنا كان لكل أُمةٍ أدبُها ، وكان لكل أمةٍ موسيقاها ، وكان لها غيرُ هذين من ألوانِ الزُّخرُفِ والتَّصوير ، وغيرِ الزُّخرف والتصوير ، من كل ما يَدخُل فى معنى الفنِّ الجميل . فليس من حقِّ جماعةٍ أن تقول لأُخرى : إن هذا الأدبَ الذى تَصطنعين لا يُتَرجِم حقَّ التَّرجمةِ عن شُعورِك ، ولا يُواتى مَنازِعَ عواطِفِك،

أو إن هذا اللونَ الذى تَتَّخذين من الموسيقى لا يُوائم ذَوْقَك . ولا يُلِذُّ ذلك ويُدخِل الطَّرَب عليك . ذلكم بأن مَظاهرَ هذه الفنون إنما هى أُمورٌ نِسْبِيَّة ، لا تكاد تتَّصلُ بأحكام العقل أو الواقع، خِلافاً لقضايا العلوم، وقد تَقدَّم فى ذلك الكلامُ .

*
* *

لكُم بعد هذا أن تَسألونى عن كيفيَّة التجديد إذن وعن مَدَى آثار المُجدِّدين ؟

والواقعُ أنه حين يَعرِضُ هـذا السؤالُ تَعرِضُ للنَّفس مسألةٌ أُخرى : تُرَى الأذْواقُ هى التى تؤثِّر فى الفُنون ؟ أم الفنونُ هى التى تؤثِّر فى الأذواق ؟

لقد سبَق القولُ فى أن مَنْشأ الفنونِ الجميلةِ إنما هو الذَّوْقُ أولا ، وهى إنما تُصطَنَع لتنعيم الذَّوقِ وتَلذيذهِ آخراً . فهى منه تَبدأ وإليه تعود . ولكن ليس معنى هذا أن الفنونَ لا أثر لها ألبتةَ فى تكييف الأذواق . بل إنى لَأزعُم أنه قد يكون لها فى بعض الأحيانِ الأثرُ البعيد . إذن فهناك تَفاعُلٌ من الجانبين ، أعنى بين الأذواقِ والفنون . ونحن إذا عَبَّرنا فى هذا المقام بكلمة « الفنون » فمن الواضح أننا إنما نريد أثرَ المفتنِّين . أو على الصحيح أثرَ العَبقريين من جماعات المفتنِّين .

ومن الجلىِّ أن العبقرىَّ هو الذى يرتفع على مَجموع قومه ، وأحياناً على أهل عصره فى صِفَةٍ أو فى أكثرَ من صفة ، بحيث يَتهيأ له أن يُدرِكَ فى بعض الأمر ما لا يُدرِكون . ويَشعر بما لا يَتعلَّق لهم به حِسٌّ ولا شعور . ولنَقصِر الحديثَ على عباقرة المفتنِّين ، ما دام الحديثُ فى الفن والمتفننين .

المفتنُّ الموهوبُ إنسانٌ أُوتِى كمالَ الذَّوق . ودِقةَ الشُّعور ، ورَهافةَ الحِسِّ ، وحِدَّةَ العاطفة ، والقدرةَ القادرة على الأداء والتَّصوير . وليس يُشترَط فيه أن يكون واسعَ العِلم غَزيرَ المادَّة ، بل بِحسبِه أن يُحصِّل من قضايا فنه صَدْراً لا يَزِلُّ معه ولا يَضِلّ .

ولقد قلنا إنه يَسبِق بتلك المواهب جَمهرَةَ قومهِ . ولقد يَسبق أهلَ عصره . إذ تَهديه فِطنتهُ إلى أَشياء لم يَفطَنُوا لها ، وتُذيقه رَهافةُ حِسّهِ أَلوانًا من الشعور لم يَتذوّقوها . فينفُضُها بما رُزِق من براعة الأداء كما أحسَّها . ويحاول أن يُذوِّقها غيرَه كما تذَوّقها . وكذلك تَزيد ثروةُ الفنون وتُشحَذ الفِطَن ، وتُرهَف الأحاسيس على اطِّراد الأيام .

نعم ، لقد ينصب بعض هؤلاء العباقرة للعدول بالفنِّ عن مذهبه ، وقد يَقْلِبه رأسًا على عَقِب . وتِلكم هى الثورةُ بعينها . والثوراتُ كما تعلمون حالاتٌ شاذَّةٌ لا يَنبغى أن تَجْرى على مظاهرِها الأَحكام العامَّة .

وكيفما كان الأمر ، فان ما تجئُ به الثوراتُ إما أن يَختفىَ ويزولَ جملةً بعد الدَّعة والاستقرار ، وإما أن يَتخلّف منه صَدرٌ تَرى الطبيعةُ أنه صالحٌ للبقاء . وهذا القَدْر ، بالنسبة إلى الفنون ، مهما يكن فى مبتدأ الأمر نابيًا عن بعضِ الأَذواق ، فان مما لا شكَّ فيه أنه مع طولِ الزَّمن وكثرة تقليبه على الذّهنِ أو السَّمعِ أو البصر ، وانعقادِ الإلف ، تَتكيَّف به الأَذواق وتَتلوَّن . ولقد يكون تَكيُّفها به وتلوُّنها إلى حدٍّ بَعيد .

بقَيَتْ مسألةٌ دقيقةٌ أُحبّ أن يُجيلَ الرأىَ فيها سادتُنا المتصدُّون للتجديد شعراء كانوا أم كتابًا أم موسيقيين أم مصوّرين . وهذه المسألة أن المرء مهما يكن على حَظٍّ من المواهب ، وخاصَّةً فيما يتعلّق بالأَذواقِ والعواطف ، فانه ولا بد مُتأثرٌ ، بقدر غير يسير ، بالبيئَة التى دَرَج فيها ، وبعادات قومه ، ومنازع عواطفهم وما أَلِفوا بطولِ الزَّمن ، وغير أولئكم مما انحَدَر إليهم من التَّاريخ البعيد . هو متأثرٌ بكل هذا حتى لَيكاد يتصل بطبعه وغريزته . فالأصلُ فيه أن يُحسَّ الأشياء كما يُحسُّها قومه ، وأن يَذوقَ ألوانَ المعانى كما يتذوَّقها مَعشَره . وذلكم بحكم ضرورةِ

الاشتراك ، فى الجملة ، فى عناصرِ تكوينِ الذَّوق العام . فهو على هذا إذا ابتَدَع طريفاً ، واستَحدَث فى الفنّ جديداً ، ففنُّ قومه القائمُ هو ولاشك أساسُ ابتداعِه ، ومِلاكُ ابتكارِه واختراعِه .

وهذا إلى أنه إنما يَسعَى فى هذه السبيلِ سَعيَه لِيرَفِّهعن قومه أولاً ، ولينَعِّمهم ويُدخِل الطربَ والسرورَ عليهم . فينبغى له بالضرورة ألاَّ يُسقط من حسابِه فى تجديده ألوانَ عواطفهم ، وما تستريح إليه من صُوَرِ الجمالِ أذواقُهم .

نعم ، لقد تَفتُر الأذواقُ فى مبتدأ الأمرِ عن الجديد . ولكنها سَرعان ما تَألَفه وتَتذوَّقه وتَلتذُّه ، ما دام يَمُتُّ إلى فنّ القوم بسبب ، ويُدْلِى إليه بِنَسب . ولا حرج على المفتنِّ ، بل إن من واجبه أنه إذا حرَّك عواطفَه ، وهزَّ مشاعرَه شىءٌ من آثارِ فنون الأُمم الأُخرى – أن يبادرَ إلى اقتناصه ، ويُسرعَ إلى معالجته بالتَّسويةِ والتَّثقيف ، حتى يَتَّسِق لفنّ قومه ، ويُطبَع بطابَعهم ويسوغ فى مَذَاقهم ، حتى لَيترجم عن بعض ما يَعتلج من العواطِفِ فى نفوسهم .

أما أن يَهجُم على القطعة من فنّ غيره فينتزعَها انتزاعاً ، ويَمتلخَها امتلاخاً ، على حينِ لا يَتذوَّقُها هو نفسُه ولا يُسيغها ، ولا هى مما يُمكن أن يُسيغه قومُه أو يَتذوّقوه ، ومع هذا يأبى إلاَّ أن يَستكرِهَه استكراهاً على فنِّهم باسم التَّجديد ، فذلكم لَعمرى هو المَسخُ والتشويه !

سيداتى ، سادتى :

ليس فى هذا اللَّون من (التجديد) إساءةٌ إلى الفنون ، وإساءةٌ إلى الناس بما يُفوِّت عليهم من الاستمتاع بالفنونِ الجميلةِ فحسب . بل إن من شأنه أن يُبلبِل أذواقَ الجمهرة ويشتِّتها تشتيتاً !

اللهم إن براعةَ المفتنِّ هى فى أن يَطبَع ما يَسنَح له بطابَع فنّه، وينظمَه فى سِمْطِه، فلا يَشُوه به الفنُّ ولا يَتنكَّر، بل يَظَلّ هو هو. على ما زِيدَ فى ثروته، ووُسِّع فى آفاقه، ومُدَّ له فى تلطيفِ العواطفِ وإرهاف الأحاسيس. وحسبكم ما صنع المرحوم عبده الحمولى بالموسيقى المصرية، وما كان له فى التَّجديد البارع حقاً من أثَر بعيد.

وبعد، فاذا كان عندنا، بفضلِ الله، نوابغُ أكفاء للتجديد الصَّحيح فى الآدابِ والفُنون، فان فينا، مع الأسف العظيم، من يَعبَثون أشدَّ العَبَث بالآدابِ والفنون، ليظفَروا هم الآخرون بلقب «الأبطال المجدّدين». وما أَرْخصَ الأَلقاب، إذا كانت لا تُنال إلاَّ بمثل هذا الإغْراب!

إن بعضَ هذا الذى تقَع عليه أسماعُنا وأبصارُنا فى الفنونِ والآدابِ ليس تجديداً، ولكنه مَسخٌ وتشويه. وما ظنُّكم بمَن كلُّ جُهده هو محَضُ الإغراب، والإتيان بكلِّ نابٍ عن الطِّباع ناشزٍ على الأذواق. وكيف لمن لا يُحسُّ شيئاً بأن يشعِره غيرَه. وقد قال الأقدمون: إن فاقد الشيء لا يُعطيه؟!

هؤلاء رأَوا أن فلاناً ذهب له صِيتٌ وذِكْرٌ لأنه أَتَى فى الفنّ بما لم يكن يَعهدُ الناس، فما لهم هم أيضاً لا يُغرِبون، واقعاً هذا الإغرابُ حيث وَقَع، ليَذهبَ لهم كذلك فى الفن ذِكْرٌ وصِيت؟

*
* *

لقد عَبَّرتُ فى صَدر حديثى بكلمة (الثَّورة)، وخَشِيتُ أن أكونَ فى هذا التَّعبير من المتجوّزين. فالثورة، كما تعلمون، إنما هى الانفجار من أثر فكرة تَغلِى فى الصَّدر، غَلَيانَ الماءِ فى القِدْر. ثم إنها إنما تَضطرِم وتَحتدِم فى سبيلِ تحقيقِ

غايةٍ معيَّنة . فهل بعضُ هذا الذى نَرَى ونَسمع فى الأدبِ والفنِّ كذلك ؟ أى أن الفكرة قد مَلَكَت على هؤلاء جميعَ مذاهبهم ، وغَلَت فى صدورهم فثاروا بالقديم ، وراحوا يُقيمون فُنونًا جديدةً واضحةَ المعارف بيِّنةَ الرُّسوم ! أم أن الأمرَ كلَّه لا يَعدُو التَّلفيقَ من هنا ومن هنا تلفيقًا كلُّه تَعسُّفٌ واستكراه ، حتى تبدَّت للفنِّ صورةٌ مُتناكِرةُ الأعضاء ، مُتنافِرةُ الأجزاء . وذلك فى سبيل الإغراب طلبًا للظَّفَرِ كما قلنا بِلقَبِ « البطولة فى التجديد » ؟

إذا كان الأَمر كذلك، فليس ما نحن فيه بثورة ، ولا هو من الثَّورةِ فى كثيرٍ ولا قليل . إنما هو الفَوضَى بأجمعِ معانى الكلمة . فحَذَارِ أَيُّها الإِخوانُ حَذَار ، وإلَّا لَحِقَ الفنونَ البَوَار ، وحقَّت عليها (بتجديدكم) كَلمةُ الدَّمار !!!

ديمقراطيَّة الفنـــون !

تُرى أمِن الحقِّ الواقِع أن الانسان ، وأَعنِى من الأَناسىِّ من يعالجون فن البيان ، قد يُعيِى عليه الفكرُ ويَسْتصعِب عليه الرأىُ فى بعض الأَحيان ، فلا يَرَى بدًّا من أن يَعوذ بالقلم يستهْديه ويستنديه ، ويترسَّم آثارَه ، حتى يَقَع على الرأى ، ويبلغ ، ولو فى تقديره هو ، مَناط الصواب ؟

اللهم إنه لَيخيَّل إلىَّ أن الأمر هكذا . فلو كان هذا حقًّا لبلغ بادئَ الرأى من كلِّ من يُطالَع به مبلغَ العَجَب ، إذ المقدَّر أن ذهن الكاتب هو الذى يُصرِّف القلم ، لا أن القلم هو الذى يُصرِّفه . وأن الذهنَ هو الذى يوحى إليه ، ويُملى ما يشاء عليه . إذ كلُّ سَداد هــذه القصبَة إنما هو فى الرَّسم والرَّقم لا أكثرُ ولا أقلّ .

والآنَ أترقَّى بالدَّعوى فأزعم أن الواقع ، فى بعض الأَحيان ، هو كذلك . وهو إذا لم يَجر فى طباع جميع الكاتبين ، فإنه يَجرى في طباع بعض الكاتبين .

على أن من الخلال التى لا يَنشُز عليها أحد ، ولا أظن أن يُمارى فيها أحد ، أن الكاتب مهما يُحِط بموضوعه ، ويتكشَّف له من قضاياه ، ويَتمكَّن من ناصية الرأى فيه ، ويظنّ أن ذهنه قد استوفاه ، وتَقرَّى جميع أقسامه ومسائله ، حتى يَتمثَّل له فى صورةٍ سويَّة متَّسقة الأَعضاء ، متلاحمة الأجزاء ، ليس بينَه وبين أن يجلوها على الطِّرس كذلك إلاَّ أن يَتفصَّد بها عليه اليراع فى غير جهدٍ ولا عناء - أقول إن الكاتب مهما يُخيَّل إليهِ ذلك ، فإنهُ لا يكاد يَجرى بتدوين ما يحضُره من الفكر يراعُهُ ، حتى يَرى هذا الفكر يزيد ويَنقُص ، ويتلوَّن ويَتشكَّل ، وقد يتحرَّف ويَتحوَّل ، وقد يتغيَّر ويتبدَّل ، وقد يَميل عن سياقه المقسوم ،

ويَعدِل ألبتةَ عن مَذهبه المرسوم . فيخرج فى النهاية خَلقًا غيرَ الذى هيأ الكاتبُ وقدَّر ، فى صورةٍ غيرِ التى سوَّى فى ذهنهِ وصوَّر !

هذا هو الواقع ، وما أحسب الأمر فيه حبسًا على الكاتبين وحدَهم ، بل لعلَّهُ متناوِلٌ سائرَ من يعانون مختلفَ الفنون .

وهنا أَرجو أن يُفهم من كلامى أننى إنما أريد النَّظمَ ، والأسلوب ، والسياق ، وألوانًا من التفصيل ، ونحو ذلك مما تَتجلَّى به صُورُ الكلام .

وتعليلُ ذلك ليس بالأمر العسير ، فإن المفتنَّ مهما يظنّ أن موضوعه قد أصبح بعد جَوَلان الفكر ، وطول التدبّر ، تامَّ الخلق ، مكتملَ الصورة ، بحيث لا يحتاج فى نفضِها على القرطاس إلى زيادةٍ أو إلى تهذِيب ، فالواقعُ أن هذه الصورة مهما يبلغ حظها من النَّصاحة والوضوح ، لا تَعدو أن تكون إجماليَّةً يُعوِزها كثيرٌ أو قليلٌ من دِقاق التفاصيل . حتى إذا اجتَمع لنقلها إلى عالَم الحقائق الخارجيّة ، على تعبير أصحاب المنطق ، جَعلت تَسنَح له الفِكَر واحدةً بعد أخرى فى صُوَر جزئيات ، وأحيانًا فى صُوَر قضايا كلية . وهذه وهذه لقد يَبعثُها بين يدى القلم وصلُ فِكرةٍ بفكرة ، أو التحوُّلُ من غَرَضٍ إلى غَرض ، أو الشعورُ بحاجة الكلام إلى البَسط والتَّبيين ، أو الاستطرادُ ، بحكم تداعى المعانى ، بما لم يقع للكاتب من قبلُ فى الحسبان . أو غير أولئك مما تتغير به صُوَر المقال ، ويَجلوه على غيرِ ما تَمثَّل الذِّهنُ له من المِثال .

* * *

هذه عادةُ الكاتبين ما أحسب أنهُ يُستثنَى عليها منهم أحد . وإذا كان هذا غيرَ ما زعمتُ فى صَدر هذا الحديث ، وإذا كان لا يَنتهض دليلاً على صحته كلِّه ، فلا رَيبَ فى أنه قد يَهدى إلى تعليله وجهَ السبيل : ذلك بأن ما يَصحَب جولةَ

القلم من اتّساع آفاق الفكر ، والنفوذ إلى بعض الدقائق ، وسلوك كثير من الجزئيات ، والوقوع على ما لم تَتبَسَّط له الفِطنةُ من قبل . وأثر هذا فى طبع الكلام ، ونزوع سياقه إلى غير منزعه ، وتجليته فى غير الصورة المقدَّرة له – أقول إن ما يكون من هذا فى صُحبة القلم ، أَعنِى ساعةَ تشمير الكاتب للصياغة وإجراء البيان ، من شأنه ، مع الزمن وكثرة المعاودة ، أن يُدخِل فى وَهمه أن القـلم مما يَرفِد ويُمِدُّ ويُعين !

وفى هذا المقام يَحسُن بى أن أذكر أننى أُملِى المقالَ فى بعض الحين . وإنى لَأقوم على هذا ما دام الكلام هيْناً ليْناً . حتى إذا تَعذَّر علىَّ القولُ وتعصَّى الكلام ، أو إذا قدَّرتُ أن المقام يَحتاج إلى حدّ الكلام وسطوة البيان ، أو إلى تزيين اللفظ وتَبهيجه ، والتأنُّق فى صياغته ونظمه ، أسرعتُ إلى اختطاف القلم ، فاستشعرتُ القوةَ وأحسستُ المـدد ، وسَرعان ما يواتينى مما أَبغِى من هذا ما لا يواتينى به الجهد فى الإملاء ! .

هذا إلى أن الذِّهن ، كما أسلفت ، قد يَعيا بالإحاطة ، ويضيق عن انتظام جميع جزئيات الموضوع جملة . وربما تواثب عليه من طوارق الفكر ما يَشغَله ويفرِّق شَمله ، ويكفّهُ عن موالاة التصفّح والاسترسال ، وخاصةً فى ساعات القلَق واختلاج النفْس ، وقلة استراحتها إلى الاطمئنان والقرار . أما إذا اجتمع الكاتبُ للبيان ، كان مضطراً إلى أن يَجمع شَمله ويعتنِق نفْسَهُ ، ويُرهف ذهنَه ويُذكى حسَّه ، ويَصل كلَّ الوصلِ ما بينـه وبين فكره ، ويقطع كلَّ القَطع ما بينه وبين غيره . وتراه كلما اطَّرد فى البيان جُليَت عليه الصُّور ، وتتابعت المعانى وتلاحقت الفِكرَ ، فتيسَّر له ، وهى مُتمثّـلةٌ بين يديه أن يَمدّ الذهن لتفقُّدها ، وتقرِّى ما عسى أن يعزُب من وجوه الرأى عنها ، وتبيُّن ما يأتلف منها وما

يَتنا كر ، وما يتوافق وما يَتنافر . فهيَّأ له ذلك التَّسوية ما شاء من خَلق الفكرة ، وتجليَتها فى صورتها الكاملة ، بقدر ما يَدخل فى طوقه ويَتَّسع له ذرعُه .

لعله قد بان لك ، بعد هذا ، الوجهُ فيا زعمتُ من أن الكاتب قد يُعيِى عليه الفكرُ ويَستصعِب عليه الرأى ، فلا يَرى بدًّا من أن يَعوذ بالقلم يَسترشده ويَستهديه مواقعَ الصواب !

وإذا كنتُ قد أطلتُ فى هذه المقدمة ، فاعلم أن هذا شأنى اليومَ فى علاج هذا المقال .

*
* *

سؤال يتطلع الى جواب :

وبعد ، فان سؤالاً يَترجرج منذُ أيام فى نفسى . وكلَّما هممت بالارتصاد للنظر فى موضوعه ، وإشاعة الذهن فى أقطاره ، والتماس جواب له تَستريح إليه النفس ، ويَطمئن به صحيحُ المنطق ، تطايَرت عنه شُعَب هـذا الذهن بما يَهجُم عليه من طوارق الفِكْر ، أو يَغمِز من أوجاع المرض ، أو بما يَزحَم المرء من همٍّ يِعزّ عليه ، فى بعض الأحوال ، أن يَجد له مَفيضاً ومُتنفَّسا . وإنى لَأصرف هذا السؤالَ عنى صَرفًا وأدعّه دعًّا ، فلا يَنِى عن مطالعتى من أىِّ أقطار الفكر لانَ له مَدخله . وما برِح كذلك يَعتادنى لا سلطان لى عليه ، ولا طاقة لى بكفِّه والخلاص من طنينه . ولا أنا ، وقد عرفتَ شأنى ، بقادر على الاستراحة إليه والاسترسال معه حتى أبلغ به ولو بعضَ ما يُريد !

إذن لم يَبق بدٌّ من جمع الشَّمل ، وحَدِّ الذِّهن ، وكفِّ الطوارق عن النفس ، واستكراه الفكر على التجرُّد فى هذا المطلب أو يبدو فيه وجهُ الرأى . ولا يكون

هذا ، إذا قُدِّر أن يكون ، إلاَّ بانتضاء القلم والتَّشمير للبيان . فعلى هذا نَمضى مُجتدِين القلم ، وأكبرُ الظنّ أنه لن يجود بجليل !

أما السؤالُ المذكورُ بكلّ هذا فهو : تُرى هل من الخير أن تُشاع الفنونُ فى الناس وتُرسَل بين أيديهم كافَّة ، يَتناولها منهم من شاء ، ويَنقبض عنها من شاء ؟ أو أن الخير فى أن تكون حبساً على طائفةٍ خاصَّة ، لا يجوز أن يَقتحم عليهم شأنَهم فيَفرى فيها فرِيَّهم إلاَّ لمن دلَّت الدلائلُ على كفايته وتهيُّئه للتجويد والاحسان . أو على التعبير العصرى : هل الأفضلُ أن تجرى الفنونُ على سنَّة (الديمقراطية) ، أو أن تكون (أرستقراطية) لا يَليها إلاَّ طبقةٌ معيَّنةٌ من الناس ؟

لقد يَتعاظم بعضَ القارئين أن يَنبعث مثلُ هــذا السؤال فى هذا الزمن الذى تنتشر فيه (الديمقراطيةُ) وتَتبسَّط بكل قواها حتى تكاد تَضغط آفاق العالم جميعًا ، لا يَسلَم عليها ما أقامت الأَحقابُ الطِوالُ من الحدود ، ولا ما رفعت التقاليدُ العاتية من الحواجز والسّدود ! .

واللهم إن ما يَتعاظمنى من شأن هؤلاء لَأَعظم . فما كنتُ لأُشير على الطبيعة برأى ، أو أتقدَّم إليها بأمر ، أو أسأل خَلقاً من الناس أن يكفُّوها عن غايتها ، أو يَعدِلوا بها عن مَذهبها . وأين أنا والناسُ جميعاً من ذاك ؟ ! إنما وجهُ السؤال إلى المفاضلة بين أن تَصنَع الطبيعة كَيت ، أو أن تعدِل من نفسِها إلى كَيت . فالأمرُ لا يخرج عن أُفق التمنِّى على كل حال .

على أن الانسان مهما يكن ضعيفاً بأزاء عُتوِّ الطبيعة وشدَّة سَطوتهــا ، فانه لا يُعوِزه لطفُ الاحتيال على التخفُّف من بعض أذاها ، واستخراج الخير من أثناء شرورها ، وتوجيهها فى بعض مذاهبها إلى ما يُجديه ويُرفِّه عنه بقَدر غير يسير . فاذا كان موضوعُ اليوم قد عُقد للمفاضلة بين (ديمقراطية) الفنون و (أرستقراطيتها) ، فما كانت النيَّةُ فى علاجه متجاوزةً هذا المقدار .

احتكار الغناء :

وبعد ، فما حرَّك هذا السؤالَ فى نفسى ولا أثاره كلَّ هذه الثورة بى إلاَّ ما يروعنى هذه السنينَ من الكثرة الهائلة فى عديد من يَتكلَّفون الشعر ، والشعر الغِنائىَّ على وجه خاصّ . والكثرة الهائلة فى عديد من يتكلَّفون الغِناء للجمهرة ، ومن يَصطنِعون تلحين الأَصوات !

وأكبرُ الظنِّ أن أبناء هذا الجيل لا يَستكثِرون من ذلك ما أستكثِر ، ولا يروعهم منه ما يروعنى . فلقد شهدنا جيلاً قَبل هذا كان نَظمُ المقطوعات الغنائية فيه مقصوراً على نفَرٍ من أعيان البيان أمثال إسماعيل باشا صبرى ، ومصطفى بك نجيب ، ومحمود افندى واصف ، والشيخ الدرويش . وقليل غير هؤلاء . كما كان تَلحينُ الأصوات يكاد يكون كذلك حُكرةً لعنُق من النَّاس ، فلم يكن يُعالجه إلاَّ الشيخُ المسلوب ، ومحمد افندى عثمان ، وعبده افندى الحمولى ، وإبراهيم افندى القبأنى ، وداوود افندي حسنى[1] ، فاذا كان وراء هؤلاء من يُكابدون التَّلحين ، فهم ولا ريبَ أقلُّ من القليل .

ولقد عاش المرحومون الشيخ يوسف المنيلاوى ، والشيخ محمد الشنتورى ، ومحمد افندى سالم ، وعبد الحىّ افندى حلمى ما عاشوا ، لم يُؤثَر عن واحدٍ منهم أنه لحَّن طَوالَ حياته صوتًا (دوراً) واحداً ، إذ كلُّهم من الأَعلام المبرِّزين بين أصحاب الغِناء !

وتعليلُ هذا ليس مما يَحتاج إلى كَدِّ الأَذهان ، فان هذا الجيل الذى شهدنا أَطرافَه إنما قام فى أَعقاب عصرٍ كانت المِهَن جميعاً ، وخاصةً فى أُمهات المدن ، تقوم

(١) المراد بالتلحين هنا تلحين الغناء المعروف بهـذا الاسم ، على أن هناك تلاحين أخرى للمولد النبوى ، وأناشيد الذكر ، والمسرح ، وغيرها . وهذه كان لهـا ملحنوها من غير أولئك المذكورين .

فيه على ضَربٍ من ضروب الاحتكار ، إذ كان لكلِّ أصحاب مهنةٍ عريفٌ يدعونه « شيخ الطائفة » ، فلا يدخل ، فى العادة ، أحدٌ فيها يُعالج منها ما يُعالج أهلُها إلاَّ باقرار هذا « شيخ الطائفة » وإجازته !

ولقد حدثنى المرحوم محمد افندى سالم ، وكان من المعمَّرين ، أنه أدرَكَ أياماً لم يكن يُؤذَن فيها لامرئ باعتلاء منصَّة (تخت) الغِناء رئيساً إلاَّ إذا اجتمعت مشيخةُ أَصحاب الفنّ فى حَفل جامع ، حتى إذا استمعوا لغِنائه ، وقدَّروا فيه الكفايةَ للمهنة ، قاموا إليه فحزَّموه ، وقرَّبوا إليه ضِغثاً من البقدونَس فأصاب منه ما شاء ! . وكان ذلك منهم إجازةً له باحتراف المهنة ، وأذاناً بِكفايته لغِناء الجماهير !

*
* *

لا أشك فى أن هذا الكلام سيأخذ نظرَ القارئ لأول وَهلة ، فيبعث فيه الدهَش ، وقد يُثير سَخطَه واشمئزازه جميعاً . فليت شعرى ، كيف يُزَمُّ تصرفُ الناس فى أفشى المباحات ، ويُؤخَذ بمخانقهم فى أشيع ألوان الحريَّات بأقسى من هذا وأنكر وأشنع ! . حتى الغِناء ! . والغِناء ، لو عرفت ، إنما هو أفصح تعبير وأحلاه ، عن أدقِّ ما يَعتلج فى النفس وأخفاه . ولعمرى ما كان هذا من شيمة الانسان وحدَه . فلقد سبقه إليه الحيوان ، وإليه سبقتهما الطبيعة جميعاً : هذا القُمريُّ يَشدو ، وهذا الكروان يغرّد ، وهذا الحمامُ يَسجَع ، وهذا العُصفور يُسقسِق . بل هذه الطبيعةُ التى نُخليها من الحسّ والارادة ، وإن لها هى الأخرى لترجمةً عن شأنها أى ترجمة ، وتعبيراً من الغناء والتصويت أى تعبير . فهذه الرياح تَعزِف ، وهذه الرعود تزمزم وتَقصِف ، وهذه الأمواج تُجرجر ، وهذا النبات ألا يُطربك رفيفُه ، كلما حركه النسيمُ فَخَفَّ حفيفُه ؟

أكلُّ أولئك له أن يغنى كيفما شاء ، ويترجم عن ذات نفسه بالترجيع والجلجلة كلما أراد ، اللهم إلاَّ الانسان ، فما كان ليؤذَن له فيه إلاَّ بإجازة وترخيص ؟

هذا من جهة الحق والنظر ، أما من جهة الفعل والأثر ، فلا شك فى أن حصر الغناء للجَمهرة فى طائفة قليلة العَدد ، يَقتضى حصرَ الاستماع إليه ، والطرب عليه فى طائفة قليلة العَدد كذلك بالقياس إلى المجموع . وفى ذلك حرمانُ السَّواد لذةً من أمتع اللَّذات المشروعة ، وحيلولةٌ بينه وبين تهذيب ذَوقِهِ ، وإرهاف حسِّه ، طوعًا لانقطاعه عن الاستماع إلى الغناء ألبتة ، أو ترويَة أذنه بغِناء لا يجرى على أيِّ عِرق من هذا الفن الجميل !

ثم إن فى قَصر الخاصَّة وأشباه الخاصة على الاستماع إلى نفر معدود من جماعات المغنّين ، يدورون بأصواتهم فى تلاحينَ قليلةٍ بالضرورة ، ما من شأنه إدخال الضجر عليهم ، وبعثُ الملل فيهم .

ثم لا تنس أن فى هذا الصنيع خنقًا للمواهب فى مُهودها بما يقام من العواثير دونَ مباشرة الناجمين من أصحابها للمهنة ، واستصعابهم لتكاليفها ، وما يتداخلهم من الخوف والرهبة إذا تقدموا لمزاولتها .

ثم إن فى إجازة الغناء من جماعة معيَّنة ، لها بالضرورة فن خاصّ ، وذَوق يَجرى فى دائرة مشتركة ، ما من شأنه كذلك أن يَسدّ الطريقَ على كل مستحدَث طريف . وبذلك يظَل الفنُّ محصوراً فى دائرة ضيقة ، لا يكاد يتَّسع أو يَرقى على الزمان !

فاذا أدهشك هذا الصنيعُ وفظُع بك ، فأنت لعمرى فى مقام النظر ، وتقليب الفكْر ، ونَظم قضايا المنطق وترسّم أقيسته حقٌّ معذور .

٭
٭ ٭

فاذا نحن تحوَّلنا من دائرة الفِكْر والنَّظر إلى أُفق الواقع الذى يلامس الحسّ ويلابس الذَّوق ، فليت شعرى ماذا نجد ؟

ألاَ إنى لمحدِّثٌ بلسان رجل أدرك العهدَين ، وتذوَّق الغِنائَين . فاذا أخطأتنى

الترجمةُ عن الواقع ، فانني صادقُ الترجمة عما أُحسُّ وما أجد ، وما يُحسّ معى وما يجد كثيرون .

قديم وجديد ! :

ذلك الغِناء الذى كنا نسمع من الحولى وعثمان وأضرابهما ، وما برح يُردِّده بعضُ المغنين ، هذا الغِناء علىأنه يدور فى أنغامٍ محدودة ، وتلاحينَ قليلةِ العدد ، لقد كان يواتِى أذواقَنا ، ويُشيع الطربَ فينا ، ويَفحص عن مطاوى نفوسنا ، ويَبعث فينا من الأَريحيَّة ما يَستخِفّ أرسخنا نفساً وأثبتنا توقُّراً !

لقد كنا نجد فى هذا الغِناء صورةً بيِّنةً مما فى نفوسنا ، حتى لكان يُخيَّل إلينا أنه صادرٌ عنها لا واردٌ عليها . وكأننا نحن الذين لحَّنوه وصاغوه ، فاذا لم يبلغ بنا الشعورُ هــذا الموضع ، خِلنا أنه لو كان أُفضِى إلينا بتلحينه وصياغته لما أخرجناه وصوَّرناه إلاَّ هكذا . بل إن حُسن السَّبك وقوة الصِّياغة لَتذهبُ بنا إلى الشعور بأن هذا الذى نَسمع إنما هو شئ من صياغة الطبيعة لا أثرَ فيه لصَنعة الانسان ، فهو كذلك خُلق وكذلك كان ، وما كان لامرئ بتغيير فِطرة الطبيعة يَدان !

يَتحوَّل الملحِّن بك من نغمة إلى نغمة ، ويَعدِل بك من فنٍّ إلى فنٍّ ، ما تُصيب أذنَك عثرة ، ولا تُحسّ نَبوة . بل إنك لتجد هذا التنقُّل مما تَقضى به الطبيعةُ أيضاً . وكثيراً ما تَستشرِف له نفسُك قبل أن يَبلغه حَلق المغنِّى ! . لقد كان هذا الغِناء ، فى الجملة ، أشبهَ ما يكون بالجدول المتعطِّف المتأوِّد ، لا يُعكر تأوُّده من صفائه ، ولا يكفُّ تعطفهُ من اطِّراد مائه . كان غِناء تحسبه بسيطاً ليُسرِه وسلاستِه ، ومواتاتهِ لطبيعة المصرى . وفى هذا اليُسرِ والسلاسةِ المقدِرةُ كلُّها والفنُّ أجمعهُ لو كان يَدرى السامعون !

أما الغناء الغالبُ فى العَصر ، وأعنى به الجديد ، فلستُ أ كتمك أنه أ كثرُ شُعو بًا ، وأرحبُ طُرقاً وأوسع درو بًا . تنوعت أعلامهُ ، وتعدَّدت أنغامهُ ، إلاَّ أنه مطبوعٌ بالطابعَ الغربىّ ، لقد تروقني ، أنا المصرىّ ، منه النّبرة ، ولقد تهزّنى فيه النّغمة . على أنه سَرعانَ ما يَثب بأُذنى الوَثبة الشَّديدة ، و يَطفِر بحسّى الطّفرةَ الهائلة ، فيمتلخ الطربَ فى نفسى من أصله امتلاخًا ، و يُطيِّر ذَوقى كلَّ مُطيَّر ، و يُبعثره كلَّ مُبعثَر ، حتى لَأراه يحتاج منى إلى جهد عنيف فى الجمع والتلفيق ! ! !

وقد يقال : إن نُبوَّ هذا الضّرب من التّصويت على الآذان إنما يَرجع إلى جِدَّته وطرافته . فاذا هو دار على الزمان وتَردَّد على الأسماع ، أَلِفته الأذواق ، واستراحت إليه النفوسُ وطرِبت عليه ، شأنَ كل جديد مستحدَث ، وخاصةً فى هذه الفنون .

وأقول : إن جِدَّته وغرابته على الأسماع قد يكون لهما ، من هذه الناحية ، بعضُ الأثر . ولكن لا يكون لهما وحدَهما كلُّ الأثر . وهذا عبده أفندى الحمولى ، رحمةُ الله عليه ، لقد استحدَث فى الموسيقى المصرية جديداً ، وأدخل عليها ما لا عَهدَ للأذن المصرية به من قَبل ، ومع هذا فلم يَنبُ جديدُه على سمع ، ولا نشز طريفُه على طبع . بل لقد تقبلته الناس ، خاصتُهم وعامتُهم بأحسن القَبول ، وهشَّت له نفوسُهم أيَّما هَشاشة ، وطرِبت به أيَّما طرب !

وقد يُستدرَك على هذا بأن ما جاء به الحمولى ليس غريباً على الموسيقى المصرية ولا هو عنها ببعيد . فانه لم يعدُ ، فيما استعار ، موسيقى جيرتنا ومن كانت تَسلكنا معهم أوثقُ العلائق من السوريّين ، والحلبيّين ، والأتراك !

و إذا نحن ترخَّصنا فى إساغة مثــل هذا الكلام ، كَرَرنا بالاعتراض بما صنع المرحوم الشيخ سيد درويش ، فلقد تبسَّط فى تلاحينه بالموسيقى المصرية إلى حدٍّ بعيد ، فاستعار لها ما شاء الله من موسيقى السوريّين ، والعراقيّين ، والحلبيّين ،

والأتراك ، وأَدخَل عليها صَدراً جليلاً من موسيقى الغربيّين ، فما نَبَتْ بصنيعِه أذن ولا التوى على طبع . بل لقد أرضى وأعجب ، ولذَّذ وأطرب ، و بعث فى النفوس من الأَرْيحيَّة ما لا يكاد يَتعلَّق به وصفُ الواصفين !

وفى الحق ان جديد سيد درويش إذا كان لقىَ أولَ مُنحدَره إلى السمع شيأً ، فالذى يَلقى كلُّ جديد ممـا يُشبه القلقَ بحكم العجب والاستغراب . على أنه ما لبِث أن استراحت له الآذان ، ورضِيَته الأذواق ، وهفَت إليه النفوس ، وتداخلها الطربُ عليه من جميع الأقطار . فى حين أن هذا الذى نسمع اليومَ من جديد الغِناء ، إذا صحّ هذا التعبير ، لا يزداد على التّرديد إلاّ نشوزًا على الأذواق ، وتعاصياً على الطِّباع !

كلمة الحق :

فاذا طلبتَ كلمةَ الحق قلت لك : إن سيداً كان رجلاً مفتناً حَقَّ مُفتَنّ . رَحبَ الطبع ، دقيقَ الذَّوق ، مرهَفَ الحسّ ، نيّر النفس ، تسنَح له النَّبرةُ من الموسيقى الأجنبية ، شرقية أو غربية ، فيُدركُ أنها مما يمكن أن يوائم طبعَ المصرىّ ، ويَتّسق لذوقه ، وسَرعانَ ما يُعالج بعضَ خَلقها بالتّسوية والتّهذيب ، ثم يُدمجها فى تلاحينه ما تُحِسّ هى ولا تُحَسّ لها وَحشةٌ فى الغِناء المصرىّ ولا استغراب !

أما الغالبُ فى هذا الذى نسمع الآنَ من ذلك (الجديد) ، فليس أكثرَ من تلفيق وترقيع لا يقوم على أساسٍ من الفنّ ، ولا يَجرى على عِرْق من الذوق ، ولا يجلّى على النفس أيّةَ صورةٍ من صُوَر الجمال !

اللهم إن جُهد الملحّن من هؤلاء أن يتصيَّد النغمةَ الأجنبية ، فيحشرَها فى موسيقانا حشراً ، و يستكرهَها عليها استكراهاً ، واقعة ما وقعَت من النَّظْم الغِنائى .

بل إنى لستُ متزّيداً ولا غاليًا إذا زعمتُ أن بعض هؤلاء إذا استَصعَب عليه الصيدُ من النغم الأجنبيّ ، اعتَمَد حَلقَه فلا يزال يُلوِّيه ويُعثِّره حتى يُخرج له شيئًا نافراً نابيًا ، يصكّ الأسماعَ صكاً ، ويمخُض النفوسَ مخضًا ، لأنه لا يَفهم من (التجديد) إلاّ أنه الأتيان بالغريب (والسلام) !

والعجيبُ أن أكثرَ هذه التلاحين إنما يبتدئ ويَنتهى بصياح مزعج ، هل سمعت ، حفظك الله ، نُواحَ النائحات المصريات فى أعقاب الجنائز ؟ ! هذه أطرافُ الغناء ، أما أثناؤه فتكسُّر وتخاذل وتزايل ، وأنين وحشرجَة كحشرجة المحتضَر . دع التخنيثَ فى الألفاظ والتّطرية فى الأناظيم ، فلذلك حديثٌ آخر إن شاء الله !

ديمقراطية الفنون :

قلتُ لك فى بعض هذا الحديث إن فنّ التلحين وصنعَة الغِناء للجَمهَرة إنما كانا محصورين فى طائفة قليلة العدد ، سواء من هؤلاء أو من هؤلاء . وقد وصفتُ لك ، بقَدر ما طاوع القلم ، براعتَهم وقوةَ تلاحينهم . وهل أدل على براعتها وقوتها من ثباتها وترديدها فى هذا العصر عصر (التّجديد) ، ما يَخلُق لها على التّرداد قديم ، ولا يَبلَى لها على التّكرار أديم !

فهل لنا ، بعد هذا ، أن نُضيف إسفافَ أكثر هذه التلاحين (العصرية) وفُسولتَها وغثاثَتها ، وعدمَ صلاحيتها للقيام ، والبقاء على الأيام ، إلى استباحة فنّ التّلحين ، حتى أصبح يُعالجه من شاء ، ويَنتحله من الناس من أراد ؟ . وبحسبك أن تَسكُن إلى (الرديو) بضعةَ أيام لتتعاظَمك الكثرةُ الهائلةُ فى عديد الملحّنين فى هذا الزمان . فانك لا تكاد تسمع أُغنيَّةً من فتًى ناشئ أو من فتاةٍ حدَثة إلاّ أذّن المُذيع أنها من تلحينها أو من تلحينه ، أو من تلحين فلان أو فلان أو

فلان ، من أسماء لا عهدَ لك بها من قبل ، ولعلّه لا يكون لك عهدٌ بها بعد الآن ، حتى لقد تخيّل إليك هذه الكثرةُ أن أهل مصر جميعًا ، رجالهم ونساءهم ، سيصيرون عما قليل ملحّنين !!!

أرستقراطية الفنون :

وإذا صح أن العلّة فى كل هذه البليَّة التى تَجنى على الأذواق ، وتكاد تَحرِمها الاستمتاعَ بالفنّ الرفيع ، إنما هى فى إطلاق فنَّى التلحين والغِناء يَرِدهما ويُعالجهما مَن هَبَّ ومَن دَرَج من الناس ! — أفترانا نذهب إلى القول بوجوب تقييدهما ، بحيث يُقصَر علاجُهما على الأَكْفاء القادرين ؟

وبعد ، فلقد تعلم أن هذا القصرَ والتقييدَ قبيحٌ لما تقدم لك من الأسباب . على أنه لا حيلة فيه ، ولا سبيل إليه فى عُرف هذا الزمان .

ولكننى أرجو ألاَّ يذهب عنك أن الفنَّ نفسَه أرستقراطىّ ، لكن بالطَّبع لا بالجَعل : ذلك بأن الفنّ ، كما تعلم ، ابنُ الموهبة ، والمواهبُ ليست من الحق المشاع لجميع الناس . إنما هى حبسٌ على أولئك الذين يَصطفيهم اللهُ لها من الأفذاذ الأَندرين من الناس . وهى وحدَها التى تُنادِى على صاحبها وتدعو إليه ، وتُعلن فى الأَملاء عن كِفايته وسداده ووجوب استشاره . وتنفُض عن صحيح الفنّ الزُّيوف ، وتدعُّ عن بابه الواغِل[1] والدَّخيل . فالفنُّ بطبعه حبس على أوليائه مهما كثُر مُدَّعوه . وعظُم مُنتحِلوه . ومهما بَرعَت وسائلُهم فى التَّزييف والتدليس على الغافلين ! . وكذلك سُلِّم بالكِفايات الحقِّ لأصحابها على طول الزمان .

وإذا كان يَهولنا اليومَ كثرةُ مُنتحِلى فنّ التلحين وصنعة الغِناء مما لا وزن لهم ولا كِفاية ، مع كثرة من يُصغى إليهم ويُطربهم ، ويَخلَع كلَّ فَخْم من الألقاب

(١) الواغل : الداخل فى شراب القوم وليس منهم

عليهم ، فليس ذلك من أثر (الديمقراطية) الفنيّة كما يُظَن عند ابتداء النَّظر . بل إن ذلك واقعٌ لأننا نعيش الآن عَيشًا غير طبيعى ، و بعبارة أصرح ، لأننا فى ثورة اجتماعية تناولَت أسبابَنا جميعًا . فما نرى من هذا إنما هو من الفوضى لا من الديمقراطية . والفوضى ، كما تعلم ، هى استثناء وشذوذٌ ما له فى الحياة الطبيعية قرار .

ولقد قلتُ فى أثناء هذا الحديث إن الإنسان لا يدَ له بتغيير ظواهر الطبيعة . ولكنه بلُطف الحيلة يستطيع أن يُخفِّف من أذاها ، ويَستخرج الخير من خلال شرورها . وكذلك يستطيع النَّقَدة ، بالسنتهم وأقلامهم ، أن يَدلُّوا سوادَ الناس على مكان الحسَن ومكان القبيح من هذا الذى نحن فيه ، رِفقًا بأذواقهم ورحمةً بهذا الفنّ الجميل !

المفتنّ أبو نواس*

تُرى هل بلغ أبو نُواسٍ ما بلغ فى شعراء العربية ، وذَهب له ما ذهب من ذِكر وصيت لأنه قال فى مدح الرشيد :

وأَخفتَ أهلَ الشّرك حتى إنه لَتخافُك النطفُ التى لم تُخلق ؟

أو تراه أصاب هذا الحظَّ كلَّه لأنه قال فى مدح ابنه الأمين :

وإذا المطىُّ بنـا بلغنَ محمداً فظهورُهنَّ على الرجال حَرامُ ؟

أو تراه حقاً (ابن قوله)[1] فى مدحته للعباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور :

لا تُسـدِينَّ إلىَّ عارفـةً حتى أقومَ بشكر ما سَلفا ؟

أو لعله قد دوَّى باسمه السَّهلُ والجبل لأنه قال كيت وكيت ، فأتى فى المديح والهجاء والرثاء ، ووصف الجياد والنَّجاء ، بألوان من المبالغات كثيراً ما كانت سبيلَ السَّيرورة ، ومَبعثَ النَّباهة وسُطوع الصيت ؟

اللهم لا ! . وإذا ظُن أن من متقدّمى الشعراء من رَفع بعضُ النَّقَدَة بمثل هذا أقياسَهم وأقدارَهم ، فثبت به ذكرُهم على الأيام ، فان أبا نُواس لم يَخلُد به ، ولا كان قطُّ مَدِيناً له ، وإن كان قد جاء منه بما لم يَنته فيه كثيرٌ من أعلام البيان مُنتهـاه ! .

الواقع أن أبا نواس كان من أولئك الأفذاذ الذين يشُح الزمان بهم فلا يَنتضِح بأمثالهم إلاَّ نِطافاً فى أثناء الحِقَب الطوال . ولعل كلمة (فلان نسيج وَحدِه) التى ينفُضها أبناء العرب على المرء إذا عزَّ أكفاؤه ، لا تبلغ موضعَها الحقَّ من الجِدِّ

* نشرت فى مجلة (الهلال) فى عدد أصدرته خاصاً بأبى نواس فى أول أغسطس سنة ١٩٣٦

(١) يقول نقدة الشعر (ابن قوله كذا) ، أى أنه اشتهر به ، وسار فى الشعر ذكره .

والصِّدق والإشراق قَدرَ ما تبلغ إذا أُضيفت إلى هذا الرجل العظيم ! .

أبو نواس شاعر فحل، يرفعه نقَدَةُ البيان إلى الذِّروة ، ويَسلكونه فى نظامِ جميعِ مع أشعر شعراء عصره ، وقد يُؤثِرونه على بعضهم ، ويرفعون منزلتَه عليهم . ما فى هذا شك ولا كان يوماً فى مَطرَح الحِوار بين أهل البَصَر بمنازع الكلام .

إذن فأبو نواس شاعر من أفحل شعراء العصر العبّاسى الأول . وقد أحله عند كثرة الناس هذا المحلَّ أنه مَدح فلم يتخلَّف عن أبلغ المادحين ، ووصَف فكان من أجود الواصفين ، وضَرب فى سائر فنون الشعر فما ونَى فى شىء ولا قصَّر . بل لقد أرسل من سوابق القريض ما لا يُتعلَّق بغباره ، ولا يسُهل ترسُّم آثاره . وما له لا يبلغ هذه المنزلةَ فى الشعراء ، وهذه قصيدته فى مدح محمد الأمين :

(يا دار ما فعلت بك الأيام)

والتى جاء فيها :

ولقد نَهزَتُ مع الغُواة بدَلوهم[1] وأَسمتُ سرحَ اللهو حيث أساموا

وبلغتُ ما بلغ امرؤٌ بشبابه فاذا عُصارةُ كل ذاك أثامُ

* * *

وإذا المطىُّ بنا بلغن محمداً فظُهورُهن على الرجال حرامُ

قرَّبننا من خير من وطئ الحصَى فلها علينــا حُرمةٌ وذِمامُ

رفع الحجاب لنا فلاح لناظرٍ قمــرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ

مَلكٌ إذا علِقَت يداك بحبله لا يَعتريك البؤسُ والإعدامُ

وهذه قصيدته التى يمدح بها العباسَ بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، وأولُها :

أيها المنتاب من عُفُره لست من ليلى ولا سمره

(١) يقال : نهز بالدلو فى البئر : ضرب بها فى الماء لتمتلئ . والمراد أنه جارى الغواة فى لهوم وعبثهم

لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بَلوتُ المرَّ من ثمره

وهذه مدحته فى الخصيب :

أجارةَ بيتَينــا أبوكِ غَيورُ وميسورُ ما يُرجَى لديك عسيرُ

* * *

تقول التى عن بيتها خفَّ مركبى عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ

أما دونَ مصرٍ للغنى متطلَّبٌ بَلَى إن أسبابَ الغنى لكثيرُ

فقلت لها واستعجلَتها بَوادِرٌ جرت فجرى فى جَريِهن عبيرُ

ذرينى أُكثِّر حاسديكِ برِحلةٍ إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ

إذا لم تزُر أرضَ الخصيب ركابُنا فأىَّ فتًى بعد الخصيب تزورُ

فتًى يَشترى حسنَ الثناء بماله ويَعلم أنــ الدائراتِ تدورُ

فما جازه جُودٌ ولا حلَّ دونَهُ ولكن يَصير الجودُ حيث يَصيرُ

فلم تَرَ عينى سُؤدُداً مثلَ سؤدُدٍ يحل أبو نصرٍ به ويسيرُ

وتلك طِواله وقِصاره فى مدح الرشيد ، والأمين ، والعباس بن عبيد الله ، والفضل بن الربيع ، وولديه العباس ومحمد ، والخصيب بن عبد الحميد ، وإبراهيم ابن عبيد الله الحجبى ، والحسين بن عيسى . وغير هؤلاء كثير .

ثم هذه مراثيه للرشيد ، والأمين ، وأستاذه والِبة بن الحُباب وسواهم .

وهذه قصائده ومقطوعاته فى العتاب ، والزهد ، والطَّرَد ، والغزَل ، والوصف ، وغير أولئك مما تَستهلِك الالمامةُ به أضعافَ القَدْر المقسوم لهذا المقال . دع أحاديثَ الخمر والمجون الآن ، فسينعطِف عليها بعدُ الكلام .

وبعد ، فقد انعقد عند جمهرة الناس هذا الحظُّ من الشاعرية لأبى نواس بما يجول فى عامَّة شعره من كرائم المعانى ، وما تتقطَّع دون بعضه علائق القريض من معنى مبتكَر يَجرى فى لفظ شريف ، قد بُهِّج[1] دَبجُه ، وأُحكمت صياغته وأُلحِم نسجُه . وكذلك مضى الحكمُ على شاعريته كما مضى على شاعرية لِداته من متقدِّمى الشعراء فى ذلك العصر .

وفى رأيى أن شاعرية أبى نواس لم تتجلَّ فى حيث يَظنُّ هؤلاء . بل لعله إذا كان قد دخل عليها نقص ، أو تطرَّق إليها شىء من الوهن ، فمن هذه الناحية أصابه ما أصاب ! .

لقد كان أبو نواس رجلاً موهوباً حقًّا وعبقريًا حقًّا . كذلك طبعه الله وعلى هذا طواه ، حتى لو جاهد نفسَه على ألاَّ يكون شاعراً ما استطاع مهما ألحَّ فى الجهاد ، وهيهاتَ أن يكون لامرىء بتغيير خَلق الله يَدان ! .

أبو نواس شاعرٌ كما هو إنسان . وإنك إذا طلبت الرجلَ المفتنَّ الكامل ، قد مَلَكَ الفنُّ عليه كلَّ مذاهبه ، وطالعه من جميع أقطاره ، وجرى فى أعراقه مجرى دمه ، واعتلج مُعتلَج العواطف فى نفسه ، فأمسى وهو لا يكاد يَشعر إلا به ، ولا يتذوَّق الأشياء إلاَّ من حيث يُذيقه — إنك إذا طلبتَ هذا المفتنَّ التامّ ، فأرجو أن تجده فى هذا الشاعر أبى نواس .

أبو نواسٌ شاعر بأبلغ ما تدل عليه هذه الكلمة وأدقّه وأجمعه وأكفاه . هو رجلٌ مُرهَف الحسّ ، نافذ الشعور ، خِصب الذهن ، صافى النفس ، جوهرىّ الطبع . وإن شئت قلت إنه يكاد يكون فى أصل خَلقه مجموعة معان لولا أن تجسَّد بعضُها فاستحال لحماً وعظاماً لَظَلَّ سابحاً بكلّ خلقه فى مسابح الأرواح !

---

(١) بهج الشىء : حسنه

هو رجل يُشعرك مرسل شعره بأن نظره كان يَنفُذ إلى صميم الأشياء ، بل لقد يُشعرك بأن الأشياء كانت تَلطُف له وتَشِفّ ليتناول من صميمها ما يشاء . وسَرعان ما يتنفَّس بهذا الذى أدرك شعراً إذا كفّ عنه القلمَ أو حبس دُونه اللّسان !

فاذا أنت طلبتَ أبا نواس المفتنّ فاياكَ أن تطلبه فى قوله :

وأَخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنه   لتَخَافك النطفُ التى لم تُخلقِ

ولا فى قوله :

وإذا المطىُّ بنا بلغنَ محمداً   فظهورُهن على الرجال حرامُ

ولا فى قوله :

لا تُسدينَّ إلىّ عارفةً   حتى أقومَ بشكر ما سَلَفا

لا تطلبه فى هذا ولا فى نظائره مما يتكثّر به غيرُه من الشعراء . فاننى أقسم لك بشاعرية أبى نواس على أنها ما جَلَت عليه قط مخافةَ نُطَف المشركين للرشيد ! ولا كان صادقَ الحسّ إذ دعا ممدوحه إلى ألاَّ يُسدى إليه العارفة ، فانه ما اجتمع لنظم القصيدة كلها إلا لاستخراج الصّلة ، واصطياد هذه (العارفة) ! ولا حرَّم ظهورَ تلك الأبل التى أبلغته الأمين ، ولا كانت نفسُه لتطيب منها بقَلوص[1] واحد فى غير نفع مادىّ ! اللهم إنه فى كل هذا الكلام لا يَصدُر عن طبع ، ولا يَعتَلج له حسّ ، ولا تَترَقرَق به عاطفة ، إن هو إلاَّ التكلف فى اصطياد المعانى ، والصنعة فى خلق الأخيلة ، مباراةً لشعراء العصر ، واستخراجاً لأموال الممدوحين ، فبهذا كانت تُستخرَج منهم الأموال .

كان أبو نواس فى جميع أسباب حياته شاعراً مفتناً إذ هو إلى ذلك رجلٌ مستهتَر، خلع مثانيه ، وتَحالَّ من كلّ ما يأخذ الناسُ به نفوسَهم فى هذا المجتمع ،

---

(١) القلوص من الابل : الشابة

أو ما ندعوه نحن فى عصرنا هذا (بالتقاليد) . فاذا رأيتَه يصف الخمر ويَغلو فى مدحها أشد الغلوّ ، وإذا رأيتَه يُرسل القريضَ فى ألوان العَبث ، فلا يتحرَّج من قول ولا يتأثَّم من نُكر ، ويبتذل فى هــذا من نفسه للناس بما يَضِن به أدناهم مروءةً على ذات نفسه ، مهما يكن فى سرٍّ من الناس . إذا رأيته كذلك فاعلم أنك فى شعر أبى نواس المفتنّ حقًّا ، والمرسَل النفس حقًّا ، والمنتضِح الطبع حقًّا . أما إذا رأيتَه فى ذلك الذى أغلى أقدارَ غيره من الشعراء من المديح وغير المديح ، فاعلم أن الرجل قد خرج عن طبعه ، واطَّرح شاعريتَه ، وراح يتكلَّف القريضَ تكلفًا ، حتى إذا أصاب به رزقًا ، أقبل على نفسه واعتنَق شاعريتَه الحقَّ ، ولا يزال فى شأنه هذا حتى يَنفَدَ زادُه ، ويَرِقَّ عَتادُه ، فلا يرى بدأً من أن ينقلب إلى معالجة (المهنــة) ، وهكذا .

قال أبو نواس فى إحدى مدائحه يصف الناقة :

ولقــد تجوبُ بِى الفــلاةَ إذا صام النهــارُ وقالت العفرُ[1]

شَدَنيــةٌ رَعَت الحِمَى فأتت مِلْءَ الحبــال كأنَّها قَصرُ[2]

تَثنِى على الحــاذَين ذا خُصَل تَعمالُه الشَّزَرانِ والخَطْرُ[3]

أمَّا إذا رفعتْــه شامِــذَةً فتقول رنَّق فوقَهــا نَسرُ[4]

أما إذا وَضَعته عارِضَةً فتقول أُرخِىَ فوقَها سِترُ

وتُسِفُّ أحيــانًا فتحسِبُها مُترسِّــمًا يَقتــادُه إثرُ

فاذا قَصرتَ لها الزِّمامَ سَمَا فوقَ المَقادِمِ ملْطَمٌ حُرُّ[5]

---

(١) صام النهار : أى قام قائم الظهيرة ، وقال : نام فى القائلة ، العُفْـر : الظباء

(٢) الشدَنِيَّـاتُ من الابل : منسوبة إلى فحل من كرام الابل ، أو إلى موضع باليمن .

(٣) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من الفخذين .

(٤) شمذت الناقة : شالت بذنبها . ورنَّـقَ الطائر : خفق بجناحيه ورفرف .

(٥) المقادم من الوجه : ما استقبلت منه . والملْـطَـمُ : الخد .

وقال يصف النياق التى حملته إلى ممدوحه :

إليك ابنَ مُستنّ البطاح رَمَت بنا ... مقابَلةٌ بين الجديل وشدقمِ
مهارَى إذا أُشرِعْن حَرَّ مَفازةٍ ... كَرَعن جميعًا فى إناء مُقسَّمِ
نَفخنَ اللغامَ الجعدَ ثم ضَربْنه ... على كل خَيْشُوم نبيل المُخطَّمِ
حَدابيرُ ما ينفكُّ من حيث برَّكت ... دمٌ من أظلٍّ أو دمٌ من مُخدَّمِ (١)

وقال غيرَ هذا وهذا فى وصف النياق ، ولكم وقف فى أشعاره بالديار ، و بكى النُّؤَى(١) والأحجار . فنَحَى فى قريضه مَنْحَى العرب السابقين ، وأتى بالجزل من اللفظ ، واستكثر من الغريب ، بحيث لو أُضيف أ كثرُ هـذا إلى بعض شعراء الجاهلية ، ما تفطَّن إلى مواضع الصنعة فيه من النقَدة إلاَّ قليل . ومع هذا كله فلم يكن به الشاعرَ المفتنَّ ، و إن شئت التعبيرَ الأدقَّ قلت إن أبا نواسٍ لم يكن به أبا نواس ، لأنه فيه حاكٍ مترسِّم ، لا يفضِى بذات نفسه ، ولا يُترجم عن شىء من حسِّه . ومالى أجهَد فى مذاهب التدليل ، وهـذا قول أبى نواس نفسه فى تهكمه وزرايته بهذا الضرب من الشعر يُعدّ أصدقَ دليل ، قال :

قل لمن يَبكى على رسْمٍ دَرَس ... واقفًا ما ضرَّ لو كان جَلَس
تَصفُ الرَّبعَ ومن كان به ... مثل سلمى ولبينى وخنَس
اترك الربعَ وسلمى جانبًا ... واصطبح كَرخيَّةً مثلَ القَبَس

وقال :

لا تبك رسمًا بجانب السند ... ولا تجدُ بالدموع للجَرَدِ
ولا تعرّج على معطَّلةٍ ... ولا أثافٍ حلت ولا وتِدِ
ومِل على مجلس إلى شرف ... بالكرخ بينَ الحديق معتمدِ الخ

(١) حفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السير

وقال :

دع الأطلالَ تَسفيها الجنوبُ وتَبكى عهد جِدَّتها الخطوبُ
وخــلِّ لراكب الوَجناء أرضًا تُحَثُّ بهــا النجيبةُ والنجيبُ الخ

وقال :

عَاجَ الشقىُّ على رسمٍ يُسائله وعُجتُ أسألُ عن خمارة البلدِ
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ لا دَرَّ دَرُّكَ قل لى مَن بنو أسدِ
ومَن تميمٌ ومَن قيسٌ ولفُّهما ليس الأعاريبُ عندَ الله من أحدِ
لا جَفَّ دمعُ الذى يبكى على حَجرٍ ولا صَفَا قلبُ من يَصبُو إلى وَتِدِ

* * *

فاذا شئت بعضَ مذهبه فى الحياة خالصًا ، فلعله يُغنيك فى هذا قوله :

تَركُ الصَّبوح علامةُ الإِدبارِ فاجعل قَرارَكَ منزلَ الخَمَّار
لا تُطلِع الشمسُ المنيرةُ ضَوأَها إلاَّ وأنت فضيحةٌ فى الدارِ

* * *

لعله قد خرج لنا من كل ذلك أن أبا نواس إنما كان يجتمع اجتماعًا لنظم تلك القصائد الفَخْمة التى يَرفع بها كثرةُ النَّقدَة شاعريتَه ، وكان يُلهب عصبه ، ويُشِبّ ذهنَه فى صُنع الأَخْيلة واختلاق فنون المعانى ، ويُذكى ذاكرتَه فى التماس ما عسى أن يكون جاز به من غريب اللفظ وَحُوشِيِّه . ليُكتَب له التقدم والتبريز على شعراء عصره ، فمشاكلةُ شعر الجاهلية فى عُرف بعضهم ، إنَّما كان السبيلَ إلى البراعة والتبريز .

ولقد يدلّ هذا منه ومِن غيره على كفاية كافية ، ولقد يدلّ على براعة فى نظم الشعر بارعة . ولكنه لا يدل قطّ على أن مفتناً يُترجم عن حِسّه هو ، أو بعبارة

أخرى ، على أن عبقريةً تُلهِم ومُفتَناً يَستلهِم ، أو على أن عبقريةً تأمر ومفتناً لا سعى له إلا فى التدوين والتسجيل ! .

فاذا تطلَّعتَ إلى شاعرية أبى نواس ، فالتمسها فى مَعَابثه ومَبَاذله ، والتمسها فى كل ما يبعث شعوره من منظر بَهيج ، ومقامٍ يُذكى الحسَّ ويَهيج .

التمس شاعريةَ أبى نواس الحقّ حيث يصف آثار مجلس شراب :

ودارِ ندامَى عطلوها وأدلجوا — بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحبُ من جَرّ الزِّقاق على الثَّرَى — وأضغاثُ رَيحانٍ جَنِىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبى وجدَّدتُ عهدَهم — وإنى على أمثال تلك لَحَابسُ
تدور علينا الراح فى عسجديَّة — حَبتها بأنواع التصاوير فارسُ
قَرارَتها كسرى وفى جَنَباتها — مهًا تدَّريها بالقِسِىِّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرَّت عليه جيوبُهم — وللماء ما دارت عليه القلانسُ

وفى قوله يصف الخمر وساقيها :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلتَه — يُقبِّل فى داجٍ من الليلِ كوكبا
ترى حيثُ ما كانت من البيت مَشرِقاً — وما لم تكن فيه من البيت مَغرِبا
يدور بها ساق أغنُّ ترى له — على مستدار الأُذن صُدغاً معقرَبا
سقاهم ومنَّانى بعينيه مُنيةً — فكانت إلى قلبى ألذَّ وأطيبا

وفى قوله فى مثل ذلك :

نبَّهتُ ندمانىَ الموفِى بذمتِه — من بعد إتعاب كاساتٍ وأقداحِ
فما حسا ثانياً أو بعضَ ثالثةٍ — حتى استدار وردَّ الرَّاحَ بالرَّاحِ

*
* *

وحسبي هذا القدرُ من الاستشهاد ، و إلاَّ هوَيت معه من النكر إلى قرار سحيق ، أسأل الله أن يغفر لى و يغفر له .

ولقد نرى عامّة شعره فى هذا سهلاً ميسَّراً حتى كأنه حديثٌ من الحديث . وهذا الذى تتقطَّع دونَه علائقُ القريض ! على أن أئمة البيان قد عرفوا له هذا ، وأجلُّوا به محله ، ورفعوه إلى الذروة بين نُظَّام الكلام .

و بعد ، فقد طال المقال وما زال فى النفس كلام عن أبى نواس كثير . وما دام الحديثُ عن مثل أبى نواس لا تَستوفيه إلاَّ الأسفارُ الضخام ، فطول المقال وقصره لعمرى فى ذاك بمنزلةٍ سواء . (والغَمرُ فيه تَستوِى الأَعماق) !

رجالٌ ينبغي أن يُذكروا *

ونقتصر اليومَ على ذِكر اثنين من هؤلاء الرجال . وهما المرحومان : الشيخ سلامة حجازى ، ومحمد أفندى العَقاد . ولسنا نَعرض فى هذا المقال للشيخ سلامة حجازى ممُثِّلاً ، على مَعنى أن نَبحث عن درجةِ كفايتهِ من هذه النَّاحية ، ولا أثره فى التَّمثيل العربى ، فلهذا مَقام آخر . وإنما نَعرِض له باعتباره رَجُلا من رجال الموسيقى فى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وقبلَ أن نخوضَ فى حديثِ الشيخ سلامة حجازى نذكر ، مع الأسف العظيم ، أن تاريخ الموسيقى فى مصر فى العهد الذى انتهى بالحملة الفرنسية فولاية محمد على مجهولٌ تماماً . فليس يَدرِى أحد ، فيما نعلم ، كيف كانت الموسيقى عند المصريين فى ذلك الزمن ، وكيف كانوا يؤدونها ، والنغَم التى كانت تَتصرَّف فيها ، ومن هم أشهرُ رجالها . فان ذلك ، فيما نعلم ، ما لم يستقصهِ أحدٌ ولم يتتبَّعه !

ولعل السَّببَ فى ذلك يرجع إلى أن (النوتة) لم تكن فى ذلك العصر معروفةً للمصريين ، فلم يَتهيَّأ لهم أن يُدوِّنوا بها أغانيَهم وترانيمَهم ليتعرَّفها خلَفُهم ، فذهبت كما ذهبت ، مع الأسف ، أغانى العَرَب وأصواتُهم . وضاعت صنعةُ مَعْبَد وابن سُرَيْج ومُخارِق وابن عائشة وإبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحق وغيرهم . ولم يعُدْ يُغنِي فى معرفتها أن هذا الصوت لفلان من خفيفِ الرمَل ، وأن هذا كان لحنُه من ثقيلهِ . ولا نعرف كيف كان ما يَجرى فى مجرَى البِنصر ، ولا ما تتظاهر عليه السبَّابة والوُسطَى ، الخ تلك المصطلَحات التى تَشيع فى كتاب (الأغانى) . وكذلك انقطع عِلمنا تمامَ الانقطاع بأغانى العرب وتلاحينهم .

---

* نشرت بجريدة المساء فى يوم ١٤ يناير سنة ١٩٣١



المرحوم الشيخ سلامة حجازى

وسنظَلُّ كذلك حتى يُعثِرنا اللهُ (بحَجَر رشيد) آخر تُحَل به رموزُ الموسيقى العربية، كما حَل شمبليون (بحَجَر رشيد) الأوَّلِ رموزَ اللغة الهولغريفية !

نعم ، لقد ظلَّت الموسيقَى المصريةُ مجهولةً تماماً من العصر القديم إلى الحملةِ الفَرَنسيةِ فولاية محمد على فى جميع صُوَرِها وأشكالِها وتلاحينها ، برغم ما يُحدِّثك به المقريزى وغيره من أن الخليفة الفاطمى كان يَخرج فى يوم وَفَاء النيل بالطبل الكبير، ويَخرج فى مِهرَجان كذا بالطبل الصغير! إلى أن كان الشيخ شهاب الدين صاحب كتاب (السفينة) . وقد فرغ من تأليفه من نحو تسعين سنة خلَت ، فجَمع فيه طائفةً جليلةً مما كان يُتَغَنَّى فيه عصرَه وقُبيلَ عصره من الموشَّحات والموالى وغيرها . وكشَف عن تلاحينها ، وضَبَط أصواتَها ، ومذاهبَ النَّغَم التى كانت تَجرِى فيها . على أنه وإن لم يَضبط شيأً منها (بالنوتة)، لأنه لم يكن يعرفها ؛ إلاَّ أن أ كثرها معروفٌ اليومَ بالسَّماع والتلقِّى لقُرب العهد . ولا زالت المصطَلَحاتُ الفنيَّةُ التى أوردها فى سفينته معروفةً عند كل مَن يَجرى من صنعةِ الغناء على عِرْق .

ومما لا ينبغى أن تفوت الإشارةُ إليه فى هذا المقام أن بعض من هَبَطوا مصر حوالَىْ ذلك العهد من علماء الافرنج قد عُنُوا بضبط بعض ما سمعوه من الأغانى المصرية (بالنوتة) ، ومنه الأذان .

ومهما يكن من شىء فانه لا الشيخ شهاب الدين ولا هؤلاء الباحثون من الافرنج دل أحدٌ منهم على مبدإ تلك الأغانى ، ولا كَشَف عن أول عهد مصر بتلك التَّلاحين التى هى أصلُ ما نتغنَّى فيه اليوم .

على أن مما لا يتقبَّل الشك أن الموسيقى التى انتهت إلى هذا العصرِ الذى نعيشُ فيه هى مَزْجٌ من موسيقى أهل العراقِ والشَّام والترك . وإذا قلتَ الموسيقى العراقية أدخلتَ أثراً من الفارسية . وإذا قلتَ الموسيقى التركية ، فقد ألمْتَ

بالروميّة والفارسيّة أيضاً. بل لقد تأثرت الموسيقى المصريةُ، فى هذه الأيام، بالموسيقى الغربيّة . ولعل أكبر الفضل فى اتّساعِ موسيقانا باستعارتها كثيراً من تناغيم غيرنا فى هــذا العصر الحديث يَرجع إلى رَجُلين : أولهما المرحوم عبده افندى الحمولى ، فقد أَدخل عليها كثيراً من تلاحين أهل الشّام ، وأهل حَلَب، على الخصوص ، كما أَدخل عليها كثيراً من نَغَم الأتراك .

أما ثانى الرجلين فهو المرحوم الشيخ سيد درويش ، فلقد خطَا بالموسيقى المصرية خُطوةً موفَّقةً نحو الموسيقى الغربية . وأقول خطوة موفَّقة لأنهُ كان حاذقاً لبِقاً لم يَصُكَّ جديدُه الأسماع ، ولم يَنشزْ طريفهُ على الطباع ؛ على بُعد ما بين أذواقنا وأذواق القوم ، وشَطْح ما بين ما تستريح إليه آذانُنا وما تستريح به آذانُهم . وذلك على خلاف ما بيننا و بين أهل الشرق القريب من عراقيين وسوريين ، ومن تُرك ففُرس ، فان الفرق بيننا و بينهم فى هذا غير بعيد .

* * *

و بعد هذا أعود بك إلى الشيخ سلامة حجازى، فلقد زعمتُ فى مقالٍ متقدّم[١] أن أول عهد مصر بالتمثيل فى اللغة العربية إنمـا كان على أيدى الفِرَق التى انحدرَت إلينا من بلاد الشام . ولقد كان من بينها واحدةٌ يتولاّها المرحوم الشيخ أحمد أبو خليل القبّانى . وكان رجُلاً جليلَ القَدر ، واسع العلم بأصول فن الغِناء ومذاهبه وطروقه. وكان إلى هذا مُرهَف الذوق ، إذا لحن صوتاً جاد وبرَع وأطرب . ولكنه لم يكن على حظّ من كرَم الصوت ؛ بل لقد كان فى صوته غُنّة . فكان يلحّن للجماعة ويُنشد معهم ، وأحياناً يُناشدهم ، فيُبدع أيَّما إبداع ، ويَفتنُ بجَودة التنغيم و براعة الإيقاع .

---

(١) يعنى الـكاتب بعض ما سلف له من المقال فى جريدة المساء .

ويريد المرحوم إسكندر افندى فرَح من أرباب الفِرَق التمثيلية أن يُباريه . وهو إذا أجادَ التمثيل فإنه لا حظَّ له من الغناء ولا من التلحين . فكيف حيلتُهُ فى هذا ؟ . حيلتُه أن يَعمِد إلى فتًى ذى صوت كريم فيزجّ به فى فرقته ليُبارى به القبّانى ، ويَستدرِج الناسَ إليه . فوُفِّق إلى الشيخ سلامة حجازى . ولعله يومئذ كان يتغنّى بالإنشاد على حَلَق الأذكار . وأشرك معه أولَ الأمر سيدةً حَسَنة الصوت تُدعى لبيبة ، فكانا يُنشِدان معًا . ثم تخلّت لبيبةُ ، وانفرد الشيخ سلامة بانشاد القصائد التى يَنظمها له مؤلفو الروايات أو معربوها متصلةً بوقائع القصة . أو يُنشد مع الجماعة تراتيل تتصل بالقصة أيضًا ، أو تلاحين يُحيِّى بها فى مُفتَتح التمثيل وفى مُختَتمه أولياء الأمر .

وبعد دَهر غيرِ قصير انفصل عن اسكندر فرح ، وأنشأ باسمه فِرقةً خاصةً لَقِيتْ نجاحًا عظيمًا . وظل كذلك حتى أبطل الفالجُ نصفَه فى سوريا ، فانقلب إلى مصر . ولم يكد يُحسّ شيئًا من النّهضة حتى عاود التمثيلَ والغناء . وإن أنسَ لا أنسَ ليلةً كان يُمثِّل فيها ، وهو على هذه الحال ، فى (تياترو) برنتانيا . وجاء الفصلُ الذى يُنشد فيه النَّظّارة ، ويُقْبل من خلَل الستور على المسرح ، ونصفُه ، واحسرتاه ، يُجرجِر نصفَه ، وينازعه على السير إلى أن يَستوى لموقفه . ثم يُغنى ويَجهَد ، والجمهور يصفق ويُلحّ فى الاستعادة ، والرجل يَمتح من رمقه ، ويَعصِر ما أبقى الفالجُ فيه من ذمَاء . ويعود الجمهور إلى التصفيق والاستعادة ، والرجلُ يحب أن يُواتيه بما يُرضيه ، ولو أتى الجهدُ على نَفْسه . فكان من ذلك منظَرٌ مُرعب ، لا أقول تجلّت فيه قسوة الكثرة من هؤلاء النَّظّارة . ولكن أقول تجلّت فيه الأنانيةُ وإيثارُ نقع الغلة من الشوق إلى الطرب والتزوّد من هذا الصوت الموَلِّى للدهر الأطول . ولعل تلك الليلةَ كانت القاضيةَ على حياة ذلك الشيخ المسكين !

ولقد كان الشيخ سلامة حجازى رَبعةً ، قسيمَ الوجه ، حُلو الصوت ناصعه ، وكان صوتُه إلى هذا قويّاً يرتفع ، فى غير كُلفة ، إلى أقصى ما ترتفع إليه الأصوات ، لا يختلّ ولا ينشر ، ولا ينَبو ولا يتسلّخ ، ولا يزداد على هذا إلاّ جَلجلة وحلاوة . ولكنه إذا تدلّى إلى القَرار تقلّص وتردد دون النفوذ إلى غايته . فكرَمُ صوته وقوتُه إنما كانا فى وسطه وأعاليه . أما أدانيه فلم يكن لها من ذاك حظّ كبير .

وعلى كل حال ، فان جوهر الصوت وحدَه وحسن الايقاع ليسا حقيقين بأن يُخلّدا اسمَ رجُل ، لأن أثر ذلك مقصورٌ على لذة الجلسة ومُتعة الساعة . إنما الذى يخلّده ويديم ذِكره ما يَستحدِث فى الفن ويترك فيه من الأثر . ولا شكّ فى أن الشيخ سلامة قد استحدث فى فنون الغناء جديداً . وذلك هو طريقة إنشاده القصائدَ التى كان ينظمها له مؤلفو القِصص التمثيلية ومعرّبوها . وكانت طريقةً خاصةً لا هى تجرى على طريقة الموشحة ، ولا (الدور) ، ولا الموالى ، ولا الإنشاد على حَلَق الذكر ، ولا الأذان ولا ترتيل القرءان . وهى إذا اتصلت ببعض هذه المذاهب التلحينية من بعض أقطارها ، فان لها لَشخصيتَها واستقلالها . وكان منزعُها الغِنائى إلى تصوير الحال التى يقف فيها المنشِد من أَحداث القصة ، ويُعبّر عنها بتصوير النغم بأبلغ مما يُعبّر بنظم الكلام . وهذه عندى ، الكِفايةُ الفنّيةُ التى ينبغى أن تُثبَت فى هذا الباب للشيخ سلامة حجازى .

ولقد كانت تلاحين الشيخ سلامة تُرجّعها حناجرُ الشباب فى كل مكان ، إلى أن قامت الفِرَق التمثيلية الحديثة التى ترسَّمت آثارَ التمثيل الغربى ، فأبطلت الغناء فى المسارح ، إلاأن تكون الرواية من نوع (الأوبرا) . على أن هذا النوعَ لم يُصِب بعدُ فى التمثيل العربى أى حظٍ من النجاح — تقول حين بطل الغناء من التمثيل العربى تقلّصت تلاحين الشيخ سلامة ، وانقبض الناس عن محاكاته شيئاً فشيئاً إلى أن زالت أو أطلّت على الزوال ، لولا أن إنشاده لقد يَعترى الأسماعَ



المرحوم محمد افندى العقاد

حيناً بعد حين على لسان الحاكى (الفونغراف) . وكذلك قُضِى على فنٍّ مع أننا فى حاجة إلى فنون !

* * *

محمد العقاد

أما ثانى الرجلين وهو المرحوم محمد افندى العقــاد فكان ، غير مدافَع ولا مُشارَك ، أقدرَ رجل وأبدعَه ضَرَب على القانون من نحو ستين سنة خلت إلى اليوم الذى قُبِض فيه .

والعقادُ كذلك قَسيمُ الوجه، وسيمُ الطلعة. والعجيب أن تحضُرنى الآن صورتُه، فاذا هو عظيم الشَّبَه بالشيخ سلامة حجازى !

والعقاد نيَّف ولا شك على السبعين ، إذا لم يكن قد أطلّ على الثمانين . فاذا أَسقطتَ من هذه السنّ عشرين أو ما دون العشرين (وهى سنو التعليم) فثق بأنه قضى الباقى المستأثِرَ بالزعامة والتقــديم ، والمنقطعَ النظير بين جميع الضاربين بالقانون .

وقبل أن أعرِض لفنّ العقاد أُقدم لك أن هذا الرجل ، على ما تَستدرج إليه مهنتُه من مقارفة ألوان من المعاصى بحكم السهر المتوالى ، وحاجة مجالس الغناء إلى ما يُذكى الحسّ ، ويَشد المتن ، ويُثير الشجَن ، ويُطير الخيال ، لم يذق الخمرَ قطّ ، ولم ينقطع عن أداء حقوق العبادة قطّ ، ولم يتنفس بالدخَان فى مجلس القرءان قطّ . وهو إلى هذا شديد الأدب ، جمّ التواضع ، عظيم التوافى للناس ، كريم اللسان فيهم . لا ترى أناملَه تجرى على أوتار قانونه إلاَّ وهو ضاحكٌ أو مبتسمٌ مهما كَرَثَهُ من أحداث الزمن ! .

أما العقاد فى فنه فقد رُزق أولاً تلك المَوهبةَ الإلٰهيةَ التى يَختصّ الله بها من يشاء من عباده ما ندرى لها تعليلاً ، ولا نفقهُ لمُتَنَزَّلها تأويلاً . وهى فى جماعة الضُّرَّاب على آلات الطرَب ما يدعونه بحلاوة الأصابع . فلقد كانت أناملُ العقاد بالغةً من ذلك غايةَ الغاية .

وإننى ألفتك فى هذا المقام إلى شئ حقيق بالالتفات ، ذلك أنك ترَى رجلين يوقِّعان لحناً على العود أو القانون ، وكلاهما بمنزلةٍ سواء فى حَذقه وتجويده . بل فى كل نَبرة من نبراته ، وغمزة من غمزاته . ومع هذا تجد لأحدهما من الحلاوة والتطريب والشجا ما لا تجده لصاحبه ! . وتلك هى الموهبة التى حدثتك عنها . والتى ظفِرَت بأعظم الحظوظ منها أناملُ العقاد .

ويقع هذا الرجل ، من أول نشأته ، فى طريق نابغة الغناء فى مصر عبده الحمولى ، فيتَّخذه ، ويهذّبه ، ويطبعه على محاكاته فى توقيعه وتنغيمه . فيُسايره العقاد ويُرضى بالقانون مطمَعه فى مذاهب غنائه ، حتى ما يَستريح عبده إلى الغناء فى الأعراس وفى مجالس الملوك والأمراء إلاّ إذا كان يَسنده العقاد .

ولقد كنتَ تجد لصوت قانون العقاد من القوة والرَّوعة والوضوح والنصاحة والحلاوة ، وبراعة المطلع ، وسلامة المنزع ، وجلالة المقطع ، ما لا يمكن أن تجده لقانون آخر . وإنك أثناء هذا كله لا تشعر ، لولا أنك تمدّ بصرك ، أن هناك أناملَ تصكّ الأوتار صكاً . ولكنك تشعر أن الأوتار تَتنغم من تلقاء نفسها تنغُّماً !

وهنا ينبغى أن تُذكر لهذا الرجل مزيتان لعله لم يَشرَكه فيهما غيره من محترفى التوقيع على القانون : أولاهما أن المغنِّى إذا مدّ صوته بـ (ياليل ، ياعين) أو بمواليه أو بمقطوعاته ، فليس على صاحب القانون ، إذا أمسك المغنِّى ، إلاّ أن يُطلق أنامله

بما يشاء ، ولكن فى حدود النغمة التى فيها المغنِّى ، ليستمرّ مذهبُ الطرب فى آذان السامعين ، ولكيلا يَلتوى على المغنِّى نفسِه ما كان فيه حين يعود إلى وصل الغناء . أما العقادُ فقد انفرد من بينهم جميعاً بأن يحكى كلَّ ما جال به صوتُ المغنِّى حرفاً بحرف ، ونَبرة بنبرة ، وغَمزة بغمزة . مهما أطال ذلك وكثر فيهِ تصرُّفُهُ ، وتردَّد فى أبواب النغم دخولُهُ وخروجُه . فكانت ذاكرةُ العقاد فى هذا عجَباً من العَجب !

أما مزيتُه الثانية ، فليس يخفَى أن أوتار القانون ترتفع على السَّبعين . وهى إلى هذا مُرهَفة الحسّ ، شديدة التأثر بالجوّ ، محتاجة فى كل تصرّف إلى شدّ أو إرخاء . ولهذا كثيراً ما ترى صاحبَ القانون ينقطع عن الجماعة ليُسوِّى بعضَ أوتاره . فاخترعوا لعلاج بعض هذا ما يدعونه (بالعرُب) ، وهى قِطَع معدِنية فى شكل القروش تقوم تحت أوتار القانون ، يحركها الضارب فى تلك الأحوال فتغنيه عن طول الانقطاع للشدّ والاصلاح .

ومع هذا لقد أنِف العقاد أن يُدخل هـذه (العرُب) على قانونه ، واستغنى عنها (بعفق) أنامل يسراه . فلا هو ينقطع و ينحبس للعلاج والاصلاح ، ولا هو يشدّ الأوتارَ بتلك القطع المعدِنية تُدخل على صوت القانون شيئاً تُحسه الآذان السليمة المرهَفة ، و إن غَفلَت عنه آذان سائر الناس .

ثم هذا العقادُ الذى قَضى زهرة الحياة مع سيد المغنين عبده الحمولى ، لقد دعته ضروراتُ العيش بعدَه إلى أن يَعمَل مع غيره ، ومنهم من لا يستطيع أن يغنى إلاّ على حساب قانون العقاد . ومنهم من يستطيع أن يَستقلّ بنفسه لولا أنه يريد زيادَة الإحسان بقانون العقاد ، وارتفاع الصِّيت بأن يُقرَن اسمه إلى اسمه . إلا أنه لوحظ فى مُؤخِرات سِنيه أنه ما انفسح الموضع لتقسيمات العقاد ، وتواثبتْ

حاجات الطرب إلى إطالتها والتبسّط فيها ، إلاّ أقصر وأوجز وختم . وهو يَشهد استشراف الناس منه لكثير !

وعَلِم اللهُ ما كان ليفعل هذا ضناً على الناس ، ولا تَقيّة جهد ونَصَب . إنما كان يفعله مصانَعةً للمغنِّى ، وخيفة أن يُعرِض الناس عنه فى طلب اطِّراد العقاد بقانونه إلى غاية المجلس .

وهذا فِعلُ الحاجة ، وقاتل الله الحاجة ، فلقد طالما جَنَت من مفاخر الحياة ومُتَعها على كثير ! .



المرحوم الشيخ سيد درويش

الشيخ سيد درويش*

سيداتى ، سادتى :

لقد فَرضتُ لنفسى إجازةً أستريحُ فيها من عناء أىِّ عمل ؛ على أن أعودَ إلى شأنى فى خلالِ شهر اكتوبر ، إذا أَذِن اللهُ ومَدّ فى العمرِ وبَسَط فى العافية . ولكننى عوجلتُ بالدعوةِ إلى الحديث فى هذه الليلة . ولقد كان فى المعاذيرِ مَندوحَة ، لولا أن الحديثَ فى صديقى المرحوم الشيخ سيد درويش . وللشيخ سيد درويش عِندى مَقامٌ كريم .

وإذا كنتُ أحدثكم الليلةَ عن هذا الرّجل . فما كان حديثى عن رواية راوٍ أو نقل ناقل ؛ إنما هو من رؤية راء وشهادة شاهد :

رَجُلان اثنان رأيتهما أولَ ما رأيتهما ، فاذا كلٌّ منهما فى مَبدإِ النَّظرِ من أصغرِ الناسِ وأخفّهم فى الميزان . ثم ما بَرِح كلَّ يومٍ يكبُر فى عينى ثم يكبُر حتى يَضيق به مَدَى النَّظر جميعاً ، وحتى أَصبَح وزنُه وتقديرُه مما ينوء بكلّ وزنٍ وكلّ تقدير !

هـذان الرّجُلان الصّغيران الكبيران ، الدّقيقان الجليلان ، هما الشابّ العالم الهندى ضياء الدين أحمد ، والشابّ الموسيقار المصرى سيد درويش . وضياء الدين هذا هو الذى أحرز جائزة إسحق نيوتن ولما يَزل فى السادسة والعشرين !

ولندَعْ ذلكم العالِمَ الهندىَّ الآن ، ولنَمضِ بالحديثِ فى هـذا الذى نحتفل اليوم بذكراه :

فى إحدى سِنِى الحربِ العامّة كنتُ أقضِى شَطراً من الصّيف فى الأسكندرية ،

---

* محاضرة القيت من محطـة الأذاعة الحـكومية فى حفلة لأحياء ذكرى سيد درويش . ونشرت فى جريدة الجهاد فى يوم ١٧ سبتمبر سـنة ١٩٣٤ .

ولى صديقٌ سَرِىٌّ من أهل القاهرة يقضى الصيفَ كذلك هناك . فدعانى ذاتَ عَشيَّةٍ إلى داره ، وأخبرنى أنه سمع بشابٍّ من أهل الأسكندرية يُجيد الغِناء ، وأنه قد وصَفه له فلان ، وأحسن القولَ فيه . فأرسَل فى دعوتِه ليُسمعنا شيئًا . فانقبضتُ ووَجمت . وكان لهذا منى سببٌ قوىٌّ ، فقد رُمينا فى عامنا ذلكم بكثيرٍ ممن يَتكلفون الغِناء ، هواةً ومحترفين . وتقدَّمَتهم ألوانُ المبالغات ، فلم نخرُج منهم إلاّ بصَكِّ الآذان وتعكير الأذواق . وهممتُ أكثرَ من مرّة بالانصراف ، وصديقى يُمسكنى ، ويُعالج تبرُّمى بفنون التّصبير والتّعليل !

شكله وزيه :

ثم أقبلَ علينا فلانٌ هذا ومعه شيخٌ معمَّمٌ ، مستديرُ الوجه ، أسمرُ اللَّون ، مَليحُ العَينين ، فى أنفِه شىءٌ من الفَطَس ، وفى فمه قليلٌ من الفَوَه . وهو إلى الطُّول . غيرُ بادِن الجسم وإن كان مُكتَنِز اللّحم . نظيفُ الثوب ، يتأنّق فى ثيابه برغم ما يبدو عليه من رِقّة الحال . وهو ، فى الجملة ، مقبولُ الخَلق والشَّكل ، لا تَنقبض النفْس دونَه . فاذا داخلتَه بالحديث وباسطتَه فى السَّمر ، تكشَّف لك عن عُذُوبة نفس ، وظَرْف طبع ، وخِفّة رُوح ، وحُضور ذهن ، وإصابةٍ فى القول ، وأدبِ إيماءةٍ وخِطاب ، فسَرعانَ ما تَهفو نفسُك إليه . وتُحسُّها قد تهافتت من فَورها عليه !

هـذه هى الصُّورةُ التى جُليَت علىَّ لسيد درويش فى أولِ مجلسٍ جَمَع بينى وبينَه . ولكن بَقِىَ الغِناء ! . . . وياوَيلى مما سألقَى من هـذا الغِناء ، أو على الصّحيح من هذا العَناء . وصدق من قال : من لَسَعته الحيّة خاف من الحبْلِ !!! .

سيداتى ، سادتى :

من حقِّ هـذا الشُّعور الذى جلوتُه عليكم ، شُعورِ الكراهية ، بظَهرِ الغَيب ، لاستماع غِناءِ هذا الرجل أن يَلفِت الذِّهن إلى أمرين حقيقين بالنظر والتدبير :

١ — أنه إذا ساغ للمرء أن يُصانع فى الضرورات ، بل لقد يجب عليه ذلك فى بعض الأحيان ، فانه لا ينبغى له مُطلقاً أن يُصانع فى الكماليات . فلقد تقضى عليه الضّرورةُ بأن يَتبلّغ بكِسرة الخبز اليابس ليَدفَع ألمَ الجوع ، وقد يَشرب الماء الآسِنَ ليُمسك عليه نفْسَه . أمَّا أن يَطلُب التّرفيهَ والتلذيذ فيقعدَ لسماع صوتٍ ناشزٍ على السَّمع ، فى صَنعةٍ نابيةٍ عن الطَّبع — فذلك ما لا يَسوغ ، لأن تركه خيرٌ من تناوُله .

٢ — أن الانسان متعصبٌ بالطبع ، لقد تَسبِق إلى نفسه كراهةُ الشئ ، لا لِعلّةٍ واضحة ، ولا لحجّةٍ ناصحة ؛ بل لقد يَدخُل عليه هذا لمحض حِدسٍ أو سوء تقدير ، فما يزال كارهاً له نافراً منه ، حتى ما يُطيق أن يَسمع فيه قولاً معروفاً . ولو قد اطَّرح تعصُّبَه ، وأقبَل عليه مخلصاً صادقَ الوَزن نزيهَ الحكم — فلربما تغيّر رأيهُ فيه ، فأحبه وآثره ، وأنزله من هواه أكرمَ المنازل . وأغلبُ الظَّنّ أنه لو أخَذا الناسُ نفوسَهم بهذا فى تناوُل الأشياء وبحثها والحكم عليها ، لخفَّ كثيرٌ من هذه الأحقاد المَذهبيةِ والحزبيةِ المتفشّيةِ فى جميع بلاد العالمَ فى طول الزمان !

☆
☆ ☆

سيداتى ، سادتى :

دُعىَ للشيخ بعُودٍ فجسّه وأصلَحه ، وجعَل يَعزِف عليه وأنا مشغولٌ عن الأصغاء إليه بما مَلكنى من التبرّم والتكرّه لما سنُرجَم به فى ليلتنا من سَمِج الغناء ، متجهٌ بالرّغبة إلى الله تعالَى فى ألاّ يُطيل مدَّتَه ، إذا لم يكتب لى من هذا المجلس الفِرار :

ثم غَنَّى الشيخُ بصوتٍ خَشِن مَطلعهُ ، إن لم يزدنى بادئ الرأى يَقيناً بما قدّرت ، فقد أمسكَ علىَّ بعض هذا اليقين . على أننى من باب المجاملةِ ، التى جرَت بها العادة ، كنت أتكلّف إظهار شئ من أمارات الاستجادة والاستحسان . وشهِد اللهُ ما بقلبى من هذه الاستجادة وذلك الاستحسان كثيرٌ ولا قليل !

ثم لم يَرُعنى إلاّ أن يَبعَثَ انتباهى ما كان يُصيب الرّجلُ فى تصرُّفه من فنون النغم ، وهى على أنها طريقةٌ جديدة ، إلاّ أن طرافتَها وجِدّتَها لا تَنبو بها عن السمع ، ولا تخرج بها عن آفاق الذّوق ! فكنتُ أُحيل الأمرَ على محض المصادفة . وهذا لقد يقع لكثيرٍ ممن لا كفاية لهم فى صناعة الغِناء ولا سَداد .

ثم راح يُرجِّع مقطوعةً فى تلحينٍ يستوقف السمعَ بطَرافته وحُسن سَبكه . فسألتهُ عن ملحِّنها ، فزعم أن ذلك من صنعته ، فأوقَع التعصُّبُ فى نفسى أن الأمرَ لا يَعدو إحدَى اثنتين : فامّا أن الرجلَ يَنتحل ما ليس له . أو أنهـا كانت منه بَيضةَ الدِّيك كما يقولون .

ثم تفرّقنا على موعد . فلما كانت الليلةُ الثانية رُفِع لى من الرّجل قَدْر ، وصَحّ عندى أنه ممن يَحسُن الإقبالُ عليـه والإصغاء إلى غِنائه . ثم كانت ليلةٌ ثالثة ، فرابعةٌ فخامسة ، وهو فى كل ليلةٍ يزداد عندى قَدْراً على قَدْر ، ويَرجَح وزناً على وزن ، حتى لقد استطاع فى بضع ليالٍ أن يَغزُوَ كلَّ تعصُّبى غَزْوا ، ويَقتادَ كلَّ سمعى وكلَّ ذَوقى لِفنِّهِ الجليلِ أسيراً .

*
* *

ولقد كنتُ ممن حسَّنوا للشَّيخ سيّد التّحوُّلَ إلى القاهرة ، ففيها متَّسَع لقَدْرِه ، فهى عاصمةُ البلاد ، وفيها فُحولُ المغنِّين وحُذَّاقُ أهلِ الفنّ . وبعدَ لأيٍ فعل . واتّصل من فورِه بنادى الموسيقى ، وكان حضرة رئيسه قد سمعه من قبلُ فى الأسكندرية ، فقدَّرَه وأُعْجِبَ بكِفايته .

وعلى كل حال ، فاذا كان سيد درويش يوم مَهبطه القاهرة مَقدوراً فيها من خمسةِ نفرٍ أو ستّة ، فلقد كان يومئذٍ مغموراً عند عامّة أصحابِ الغناء وأسبابه بوجهٍ خاصّ ، وعند جَمْهَرَة الناس بوجهٍ عامّ !

ليتَ شِعري : كم سَنةً كان يَنبغي أن يَقضي هذا الفتَى فى نِضالٍ وكِفاح حتى يُدرِكَ حظَّه ، ويَرتفع صيتُه ، ويُسلِّم له مَشْيَخةُ أهلِ الفنّ بمكانِ الأمامة ، ويَعقِدوا له لِواء الزعامة ؟ وأنتم أدرَى بأن خلالَ الغَيرة والحسَد والحِقـد قلّ أن تجد لها مَرعًى أخصبَ من صُدورِ أصحابِ الفنون . ولكن اسمعوا ! اسمعوا !

لم يَمضِ على مَهبط هذا الفتَى بِضعةُ أشهر حتى رأيته يُغنِّى فى (كازينو) البسفور ومِن حوله أحذقُ العازفين وأجلُّهم فى مصر قَدراً ، ووقف بين يدى (تخته) أئمةُ الفنّ من أقطاب نادى الموسيقى ، وهو يغنّى صوتًا (دوراً) من تلحينه ، ولعله كان من نظمه أيضًا : يغنى ويَتصرَّف ، ويعلو ويَهبط ، ويَتيامَن ويَتياسَر ، ويَخرج من فَنّ إلى فنّ ، ويَتعطَّف من نَغَم إلى نَغَم ، ويُلِمّ بالقديم ، ثم يَميل إلى ما أبدع من الحديث . وكل أولئك يَفعله فى خِفَّةٍ ولَباقةٍ وقوة صَنعةٍ ورَوعةِ أداء . وتَرَى القومَ وقد أمسَوا كلُّهم رَهْنَ بيانه ، وطَوعَ بنانِه ، وكأنه فيهم (دكتاتور) قد خَلَص له وجهُ السلطانِ كلِّه ، لا اعتراضَ لقوله ، ولا تعقيب لاشارته . وما شاء الله كان !.

أسلوبه وصنعته :

سيداتى ، سادتى :

لا تَنتظروا منى أن أُحدِّثكم عن نشأة الرجل ، وكيف دَرَس فنَّ النغم ، وعمّن أَخذ ، وكيف تهيأ له أن يجدِّد ويَبتكر ، وبماذا صارَت له هذه العبقريةُ الفَخْمة ، فذلك ما لا أعرِف منه كثيراً ، على أن الوقت المقسومَ لى الليلة ، أَضيقُ من أن يَتَّسع لهذا القليلِ الذى أعرِف . وكيفما كانت الحال ، فالمواهبُ مغروزةٌ فى أصحابها ، والعبقريةُ كامنةٌ فى نُفوسهم ، لا تَحتاج فى ظُهورِها وإيتائِها آثارَها الضِّخام إلاّ إلى قليلٍ من التَّلقينِ والتوجيـهِ والإرشاد ، وما أَحسبهم جاؤا سيّدا

بأقطاب أهل الفنّ من أعلى معاهدِ الموسيقى فى العالم ، حتى تمّت له كلُّ هذه البراعة ، بل لقد أخذ الموسيقى عمّن أخذ عنهم كثيرٌ غيرُه ، فاذا كان هنالك فرقٌ بينَهُ وبينهم ، فأنه كان أقصر منهم مدّةَ تعليم وتمرين ، وقد تقدّم وتأخروا ، وبرَعَ وجَمَدوا ، ونَبُه وخملوا ، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاء ، واللهُ ذو الفضلِ العظيم !.

إذن فلنقصِرا الكلامَ على أُسلوبِ الرجلِ وصنعتِه ، وما أَحدَثَ من الأحداثِ فى الموسيقى المصرية فى هذا العَصرِ الحاضر.

كان سيد درويش ، عليه رحمةُ الله ، متمكِّناً من فنّ الموسيقى أيَّما تمكُّن ، واثقاً من نفسِه أيَّما ثقة ، وأكبرُ آياتِ هـذه الثقة بالنفس أنه تقدَّم إلى هذا التجديد ، وهو لما يزَل مغموراً منكورَ المحلّ. والتجديدُ ابتداعٌ ومطالعةٌ للجماهيرِ بغيرِ المألوف ، وقلَّ أن يعمِد المرءُ إلى هذا قبلَ أن يذهب له فى فنّه صيتٌ وذِكرٌ يتّكئُ عليهما فى جديده ، ويَصُدُّ بهما صولةَ التعصُّب للقديم .

وليس كلُّ خطَرِ الرَّجُل فى أن يكون متمكّناً فى فنّهِ ، عالماً بأصولهِ وفروعهِ . وليس كلُّ خطَرِ الموسيقى ، بنوعٍ خاصّ ، فى أن تهديهُ كفايتُهُ وعُظمُ مَقدِرتهِ إلى أن يَطلُع على الناسِ بجديدٍ فحسب . مهما كان هذا الجديدُ جاريًا على أحكامِ الفنِّ موصولاً بأسبابه . بل إن الكفايةَ كلَّ الكفايةِ ، والبَراعةَ حقَّ البراعة أن لا ينشُزَ جديدُه على الآذان ولا تصطكُّ به الأذواق . وكذلك كان جديدُ سيد درويش ، كما كان جديدُ عبده الحمولى من قبْله ، كلاهما أضاف إلى الموسيقى المصرية جديداً ، وكلاهما تصرَّف فيها تصرُّفاً طريفاً ، فما نبَا سمع ، ولا تعثَّر طبع ، بل لكأنَّ ما جاءا به إنما كان دَسيساً فى الطبع ، كامناً فى قرارَة النفس ، حتى لتحسب أن كلَّ ما لهما فيه من فضل ، إنما هو فى مجرَّد الغَوصِ عليه واستخراجه من مطاوى الطباع ، وتجليتِه على الأسماع !

نعم ، لقد اتّسعت الموسيقى المصريةُ وأثرت ، وأصابت صدراً محموداً من موسيقاتِ الأمم الأخرى شرقيّة وغربيّة ، ولقد تمّ هذا الانقلابُ الخطير ، وإن شئنا قلنا تمّت هذه الثورةُ الكبيرةُ دونَ أن تُراق قطرةُ دمٍ واحدة ، تمّ ذلك كلّه بفضلِ ذلكم الرّجلِ العظيم الذى نحتفِل بذكراه اليوم .

ذلكم بأنه عرَف كيف يتبسَّط بموسيقى قومه ، وكيف يُسلِس لها ما أصاب من موسيقى غيرهم ، فأساغَتْهُ فى يُسر ، حتى أصبح موسوماً بالطابَع المصرىّ ، لا نُشوزَ فيه على سمعِ المصرىّ ولا التِواء !

سيداتى ، سادتى :

وبعد ، فان فنَّ هـذا الرجل ، فوقَ ما لَه من القُدرةِ القادرةِ على الاقتباسِ والابتكار ، يمتاز بخلالٍ أربع : أولاها القوّة ، فلا حظَّ فى تلاحينِهِ للتفكّك ولا للانخذال . وثانيتُها البراعةُ فى التصرُّف ، فهو يَتنقّل بسامعه من فنٍّ إلى فنّ ، ويَتحوَّل به من نَغَم إلى نغَم ، فى اتِّساقٍ وانسجام ، كأنه يتنزّه فى روضةٍ نسَّقت أغصانَها يدُ بُستانىّ صَناع . وثالثُها شُيوعُ الطَّرب فى تلاحينه . فمهما استَحْدَث جديداً يوجِبُ الإعجاب . فانه بالغُ الغاية ، ولو عن طريق الشَّجا . من الإطراب .

أما رابعةُ هذه الخِلال ، والحديثُ الآن متّجهٌ بنوعٍ خاصّ إلى سادتنا الملحّنين والمغنّين ، فهى الذَّوق ، والذَّوقُ البارعُ النَّافذ ، فما إن لحَّن سيد درويش فكان المعنَى شديداً إلاَّ قوّى لحنَه ، ودعَم رُكنَه ، وشَدَّ بالصَّنعةِ متنَه ، فسمعتَ له مثلَ قَعقَعةِ النِّبال ، إذا استَحرَّ القِتال ، أو مثلَ زئير الآسادِ إذا تحفَّزت للصِّيال . وإذا جنَح الكلامُ إلى اللِّين كان لحنُهُ أرقَّ من نَسجِ الطَّيف ، وألطفَ من النَّسمة فى سُحرة الصَّيف . وما كان القولُ فى برِّ الحبيب بوعدِه ، ووفائهِ بعد طولِ جفائه وصَدّه ، إلاَّ طبَع الكلام ، فى أمرَح الأنغام ، حتى ليكاد الغِناء يَتمثّل لك عُصفوراً

يَثب فى الرَّوض بين أَغصانه ، ويَستقِلّ ما شاء من ذُرَى أفنانه ، وقد ينَع بين يديه الثَّمَر ، وضَحِك من حوله الزَّهَر . وما كان الحديثُ فى التوسُّل والاستعطاف ، إلاَّ أَتَى بما يُلين أَقسَى الكُبود ، ويكاد يُقطِّر الماء من الحجر الجُلمود . ولا كان فى وصفِ القطيعةِ وما فعلَت تباريحُ الهوى ، إلاَّ وخَزَ الحشا ، وأشاع الأسَى ، وأذْكَى الشجون ، فتبادرَت الدموعُ من الجُفون . وهكذا ! . . .

وبعد ، فالفَنُّ كلُّهُ ذَوق ، والعلمُ كلُّهُ ذَوق ، والحياةُ كلُّها ذَوق ، فمن أخطأَه الذَّوقُ فقد أخطأَهُ كلُّ خير ! .

(وهنا أورد المحاضر بعضَ الأمثلة على ما يَقَع أحيانًا من قلة الذّوق سواء فى التّلحين أو فى الأداء)

وأخيراً ، فاذا كانت هناك جهودٌ تُبذَل ، صادقةً ماضيةً حينًا ، ومهوّشةً متعثِّرةً أحيانًا ، للترجمة بالموسيقى عما يَعتلجُ فى النفسِ من ألوانِ العواطف ، وما يَتواردَ على الذّهنِ من شتَّى الخواطر — فاننى لم أر أمرءاً فى عصرنا هذا كُتِبَ له من التَّوفيق فى هذا البابِ ما كُتِب لسيد درويش .

لقد كان هـذا الرَّجلُ إلى ما رُزِق من تَمامِ الذَّوقِ وصِدقِ العاطفةِ مُرهَفَ الحِسِّ جدًّا ، حتى تَتمثَّل له دقائقُ المعانى فى صُورٍ سَوِيَّةٍ تكاد تُرىَ وتلمَس ، فاذا هو اجتمع ليُجريها نغماً ، حاول مخلصاً جاهِداً أن يصورَها لك كما تصوَّرها ، فبلغ من ذلك ، فى الغالب ، غايةَ ما يَأذَن به جُهدُ التّلحين والتَّنغيم .

ولست بهذا أزعم أن الموسيقى ، وأعنِى الموسيقى المصريةَ التى أتذوَّقها ، تُترجِم عن ألوان العواطف وفُنون المعانى ترجمةَ البيان أو ما يَدنو من ترجمة البيان ، فان إيمانى ضعيفٌ بهذا كلَّ ضعيف ، وإنما أعنى مجرَّد المشاكلةِ والمجانسةِ بين المعانى وبين ما يُصاغ لها من فنون التّلاحين .

وكيفما كانت الحال ، فان سيد درويش قد نجح نجاحاً لم يبلغ أحدٌ مبلغَه فى تلحين (الروايات) الاستعراضية ، فقد هَيَّأت الفرصةَ لبراعته فى الحكاية عن حال الجماعات والطوائف المختلفة بألوان التناغيم ، بحيث لو أُرسِلَت بها الأصواتُ ساذجَةً باغمةً لا تَدلُّ على معنًى ولا تُشير إلى غرض ، لَنمَّت وحدَها على من تترجِم عنهم ، وتنتحل الغِناء الذى ينبغى أن تلوكه ألسنتُهم وتُمَطَّ به حلوقُهم !

وبعد ، فاننى أقدِّر أنه لو قد فُسِح لهذا الشاب فى الأجل ، لكان أقدرَ أهل العصر على تلحين (الأوبرا) ، العربية ، ولَبلَّغنا من هذا مُنْيةً لقد طالما تَعلَّقت بها الآمال ، واستَشرف لها الخيال !

رحمه الله رحمةً واسعةً ، وعزَّانا عنه العِوَض الصالح الكفء . وما ذلك على الله بعزيز !

ملحق فى سيرة سيد درويش

يجمل بنا أن نورد هنا طَرَفاً مما وقع للكاتب بعد ذلك عن نشأة سيد درويش ومجمل تاريخه ، فأثبته فى محاضرة ألقاها من محطة الأذاعة أيضاً فى السنة التالية :

« نشأ سيدٌ فى مدينة الاسكندرية ، ولما ترعرع مضى به أبوه إلى الكتاب ، على عادة أوساط الناس ، فتعلَّم القراءة والكتابة ، وحفِظ صدراً عظيماً من القرآن الكريم ، إذا لم يكن قد حفظه كلَّهُ ، ثم دُفع إلى مدرسة أهلية ، وأدعوها مدرسةَ على سبيل التجوّز ، فانها من تلك المعاهد التى لا ترتقى إلى المدارس المعتبَرة ، ولا تتدلَّى إلى أُفق الكتاتيب ، وتلك المدرسةُ كانت تُدعَى « شمس المدارس » ، وتقوم فى حارة الشِّمرلى الواقعة فى دائرة قسم الجمرك ، ويتولَّى إدارتَها رجلٌ يُدعى عبد القادر افندى الأيوبى .

وكان أستاذُ الرياضة فى هذه المدرسة رجلاً يُدعى نجيب افندى عريان ، وهو ممن كانوا يُنشدون مع المرحوم الشيخ سلامة حجازى ، فجعل يُلقِّن التلاميذَ أناشيد الشيخ و « سلاماته » ، فكان من أشدّهم إقبالاً عليها ونشاطاً فى الترنيم بها ، وأحرصهم على الدّقة فى أدائها هذا الفتى سيد درويش ، ويصحّ فيه المثل العامى : (الديك الفصيح ، يخرج من البيضة يصيح) !

وفى هذه الأثناء تُوفِّى والدُه فساءت حاله ، وترك المدرسة ، وراح يعالج حرفة النجارة ، على أن العيش لم يَطِب له فيها فلم يلبث فيها طويلاً ، بل انصرف عنها وألّف من فَوره فرقة تعاونه على إنشاد المولد النبوىّ الشريف .

ثم جَعل يُغنى فى بعض المجالس الخاصَّة . وتعلّم ضرب العود على رجل يُدعَى الشيخ حنفى ، ثم أَقبل على الغِناء للجمهور فيما أسميه على سبيل التجوّز « قهوة » ، يعاونه الشيخ حنفى هذا ضرباً على العود .

ثم تحوّل بفرقته إلى « قهوة » ليونانى قريبة من المحطة ، ثم انتقل إلى مقهًى صريح يقع على البحر بالقرب من (شادر) البطيخ ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٦ ، ثم انتقل إلى مقهًى آخر كان يقع على ميدان المنشية الكبرى ، وهو فى كل تلك الأثناء يزيد عنايةً بالفنّ وتجويداً له ، كما يزيد إقبالُ الجمهور عليه وإعجابه به . . . لقد دلّت هذا الفتى موهبتُه الكامنة ، وهداه حسُّه المرهَف الدقيق ، إلى أن هذه الضروب التى تتغاير على سمعه من الغِناء ، والتى تتهاتف بها الحناجر فى محيطه ، لا تُسمن ولا تغنى ، أو بعبارة أخرى إنها دون مطالب الفنّ الرفيع بكثير ، لقد سَمع سيد كما يَسمع سائرُ الناس ألواناً من الموسيقى الغربية والتركية وغيرهما مما تتقلّب فيه الحلوق فى الشرق القريب والبعيد ، ولا بد أن نبراتٍ فى بعض هذا الذى كان يسمع قد لذّت لسمعه ، وأصابت مدخلاً بديعاً إلى أطواء حسّه ، وحرّكت

دفين الطرب فى قَرارة نفسه ، ولا يجد لها أشباهاً فيما يسمع من إخوانه المصريين . وللرجل كما تعلمون أُذنٌ موسيقية ، وله حِسٌّ مُرهَف ، وفيه ذَوق تامّ دقيق .

إذن لقد بان له ، على الجملة ، أن فى الموسيقى المصرية على الحال التى شهِدها قصوراً ، وأنها تتخاذل عن الكثير مما يُنعِّم الذوق ، ويَنفُذ بالحسّ ، ويترجم عن شتى العواطف التى تَعتلج فى الصّدور .

وليت شعرى : كيف له بأن يواتى طلبته ، ويَحذِق هذا الفن كما ينبغى أن يُحذَق ، ومصر أَضيقَ من أن تتّسع لهمّه أو تُدنيه من مطمحه » .

ولقد سافر فى سنة ١١ إلى الشام وأقام دهراً فى حلب ، وهناك أخذ عن أقطاب الموسيقى ما أذكى موهبته ، ووسّع فى أقطار فنّه . وقيل إنه مضى إلى الآستانة فى هذه الرحلة ، وهذا ما لا أقطع به .

« ولقد عاد الشيخ سيد درويش إلى مصر بعد أن تزوّد لشأنه أكرمَ زاد ، وادّرع للمَيدان بأمتن العُدّة وأحسن العَتاد ، وكان من أوالى بِدعه فى جِدّ تلاحينه (دور : ياللى قوامك يعجبنى) وقد صاغه من نغمة (النكريز) ، وأكبر الظنّ أنه لم يكن لموسيقار مصرى عهدٌ بهذه النغمة من قبل . وقد أجاد سيد فى تلحين هذا (الدور) وخَلَب وراع ، فوق أنه طبعه على غير غرارٍ معروف فى مصر ، وصاغه على غير مثالٍ قديم فيها أو جديد !

وظلّ ، رحمه الله ، من ذلكم العهد يَبتكر ويَبتدع ويجدِّد ، ويسلك بالموسيقى المصرية شعوباً ، ويَستحدِث فيها طروقاً ، حتى كان لا تغيب شمس أو تُشرق شمس إلاّ أتَى بجديد ، وطلع على الأَسماع بطريف ، وكلُّهُ من الطراز الفاخر الثمين .

الشيخ احمد ندا *

عزيزٌ عليّ ، وعزيزٌ عَلَى من شهِدوا من أهل مصر هذا الجيل ، ومن شهِدوا فيها أواسطَ الجيل الماضى أو أعقابَهُ . عزيزٌ علينا جميعًا أن يُرسَل علينا نعىُّ المرحوم المغفور له الشيخ أحمد ندا . وأنت دائمًا إذا ذكرتَ الشيخ ندا فى هؤلاء ، تمثّلوا فيه شيئًا جليلاً عظيماً . تمثّلوا فيه عُنصراً كبيراً مما تتسق به الحياةُ فى مصر ، وما تنتظم به ثروتُها الأدبية . كذلك كان أحمد ندا ، وكذلك يتمثّله القائمون من هؤلاء فى الحياة ما داموا فى هذه الحياة :

ومن عَجَب أن يموت أحمد ندا فى نفس اليوم الذى يموت فيه حافظ إبراهيم . فيُضرَب هذا البلد فى يوم واحدٍ ضربتين قاسيتين حتى على أغنى البلاد وأحفلها بعظماء الرجال !

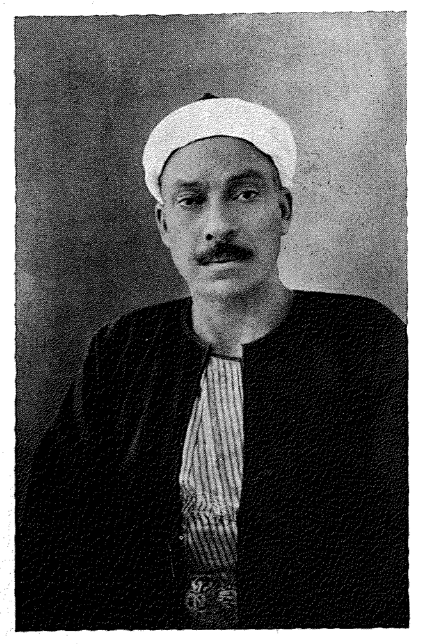
ومن أعجب هذا العجب أن هذين الرجلين ، وإن اختلفت فنونُهما وتفارقت فِى أبواب العظمة وسائلهما ، كانت تجمع بينهما خَلَّة جليلة الخطر ، بعيدة الأثر . وهذه الخلةُ هى شعورُ كل منهما أبلغَ الشعور بالكرامة فى فنّهِ . وأن أحداً منهما لا يُطيق أن يَبرَعه أحدٌ أو يسبِقه إنسان ، إذا استنَّ الأقرانُ فى حَلبة السباق !

نعم ! وليردّدها القارئ عني كما يشاء ! ليست الموهِبةُ وحدَها هى التى ارتفعت بكلا الرجلين إلى هذا المكان ؛ فلقد كان للشعورِ بالكرامة ، ومواتاتِها بغاية ما يتراءى إليه العزمُ والقوة أثرٌ جليلٌ فيما بلغا من المنزلة و بُعد الصيت فى جمهرة النابغين.

ولنكسِر القولَ هذا اليوم على الشيخ ندا ، فلصديقى حافظٌ بعدُ كلامٌ طويل .

كان الشيخ أحمد ندا ، عليه رحمة الله ، رَبعة القوام ، مكتنِز اللحم و إن ترهّل لحمُه فى غاية العمر بتراخى السنين . وكان وجههُ أشبهَ بمربَّع مُتحيَّف من زواياه

* كتبت عقب وفاته ، ونشرت بجريدة الأهرام فى يوم ٥ اغسطس سنة ١٩٣٢



المرحوم الشيخ احمد ندا

الأربع ؛ على أنه كان قَسيما حُلو العينين ، حلو الفم على فَوَهٍ فيه قليل . تَضرب فى بياض لونه صُفرة لا أدرى إن كانت من الخِلقة أو من مرض طارئ دخيل .

وكان إذا تحدّث تفخَّم عليه اللفظ ، فخرجَت تاؤُه بين التاء والطاء ، وخرجت زايُه بين الزاى والظاء ، وسينُه بين السين والصاد . وهو بعدُ حَسن السَّمت ، حَسن الدَّل ، متأنّق الهندام ، يُكوِّر عمامتَه على نَسَق خاص يترسَّمه فيه كثير من المعمَّمين ، وخاصة جماعة القراء .

وكان ، أثابه الله ، كأمثاله العظماء بالحق ، جَمَّ التواضع ، وافرَ الأدب . لا يَذكر الناسَ ، إن هو ذكرهم ، إلاَّ بالخير عظيمَ التوافى لمن يعرفهم ، طلاَّعاً عليهم ما اعتراهم المكروه .

*
* *

كان أبوه ، ويُدعى الشيخ أحمد ندا أيضاً ، مؤذِّناً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . ولم يكن صوتُهُ ، على ما انتهى إلينا من خَبره ، على حظّ من الملاحة ؛ ولكنه كان جهيراً قوياً يبالغ من سمعوه فى قوته وجهارته إلى الحد الذى لا يُسيغ روايتَه الرجلُ المَرِىء . ولقد شهِدنا الشيخ أحمد ابنَه وسمعناه وعَرَفنا ما أُوتى من قوة فى الصوت لعلنا لم نسمع مثلها إلا من الأقلّ من القليل . إذن فقد زلَّت[1] له هذه الخَلة بالميراث عن أبيه .

مات الشيخ أحمد ندا الكبير ، وترك ولديه حامداً وأحمد فتيَين ، فوُصِل حامدٌ وهو أسنهما ، بمنصِب أبيه ، واتكأ أحمد فى عيشه على ترتيل القرآن فى مُهمّ الناس من المناحات والأعراس ونحوها على سُنَّة (الفقهاء) فى هذه البلاد .

ويوم دَرَج أحمد ندا فى هذه السبيل كان المقدَّمون من حُذَّاق القراء الذين طار صيتُهم فى البلاد كل مَطَار ، هم الأشياخ الثلاثة محمود القَيسونى ، وحسين

---

(١) جاءته

الصَّوَّاف ، وحنفى برعى . على أن أولهم لم يكن يُؤجَر على القراءة فى أسباب الناس ، لأنه كان المؤذِّنَ الخاصَّ لولى الأمر . وإن كان يجامل أحياناً بالترتيل فى بيوت من يُؤثرهم من العظماء فى مهمّهم . فلم يكن فى المَيدان ، فى الواقع ، من قرّاء الطبقة الأُولى إلاَّ السيد حسين الصواف والشيخ حنفى برُعى ، وسَرعان ما وُصِل بهما القارئ النابت الشيخ أحمد ندا !

وأنت ترى من هذا أن ندا لم يَنبُه بعد خُمول ، ولم يطاوله الزمن فى المواتاة بارتفاع الصيت . وكان إذا اجتمع ثلاثتُهم للتلاوة تقدّم السيد حسين الصوّاف لعلوّ سنه ، ولحَسَبه ومنزلته فى كرام الناس ، ثم قفّى على أثره الشيخ حنفى ، ثم أحمد ندا لأنه أصغر الثلاثة فى عدد السنين .

على أننا لم ندرك السيد الصواف إلاَّ وهو فى أعقاب العمر ، فلم يتهيأ لنا أن ننعَم بصوته ، أو نتذوّق فنّه ، إما لأن صوته كان قد علاه الشيب ، أو لأننا نحن كنا أحداثاً لا نُدرك فى هذا الباب ما يُدركُ الرجلُ التامّ ؟ فكان الصّراع لأول عهدنا دائمَ الشُّبوب بين الشيخ حنفى برعى و بين الشيخ أحمد ندا .

وكان الشيخ حنفى ، رحمه الله ، رجلاً مكوَّر الوجه ، مكوَّر الجسم ، تحسبه إذا جلس إحدى القُدور الراسيات ، وكان على هذا حُلوَ الصوت دقيقَه ، أشبه ما يكون بصوت العود يتلعَّب بأوتاره الحاذقُ الحُسَان ، وكان إلى هذا على حظ من الفنّ عظيم ، يقرأ على طريقته التى ابتكرها هو ابتكاراً واحتذاها بعدُ كثيرون .

كان الصراعُ كما حدَّثتُك بين الشيخين عنيفاً دائماً ما اجتمعا ، فيكون الغَلَب لهذا مَرة ، ولهذا مَرة ، والسامعون هم الفائزون على كل حال . وكانت لهما مواسم يَطلبها الناسُ من كل مكان، وكان أجلّها وأفخرها فى بيت المرحوم داود بك العيسوى فى مولد الحُسين بن علىّ رضى الله عنهما .

على أن الشيخ أحمد ندا ما زال يَقوى ويَشْتدّ ، ويُبدع ويَفتنّ ، إذ الشيخ برعى ما بَرِح يضعف ويَهزُل حتى أسلم سلاحَه وخرج من الميدان بسلام .

*
* *

نعود بعد هذا إلى صوت الشيخ أحمد ندا وفنّه وطريقة أدائه :

لم يكن صوتُ الشيخ ندا حُلواً بالمعنى الذى يُدرَكُ من أصوات مثل المرحومين الشيخ يوسف المنيلاوى وعبد الحى افندى حلمى ، ولا من مثل صوت الآنسة أم كلثوم وصالح افندى عبد الحى ، ولكنّ له جَمالاً من نوع خاصّ ، فلقد كان قوياً شديد القوّة ، يرتفع إلى ما تتقطّع دونهُ علائق غيره من الأصوات ، وكان مع هذا عريضاً بعيد العَرْض ، حتى إذا جَلجَل وانصقل ، صار أشبهَ فى وضوحه وبُعد عَرْضه بصَفحة الافُق ساعةَ ينصدِع عمودُ الصباح .

وعلى أن مثل هذا الصوت ، إن كانت له مَشابه ، مما يتعذّر معه إحكامُ النَّبرة (العَفق) سواء فى بعض الترنيمة أو فى غايتها ، فانه لم يَكُ يَلحَق ندا فى هذا الباب إلاّ الأقلُّون ممن رُزِقوا رقةَ الأصوات ولينَها . ومن هنا تدرك قَدر الموهبة التى أُوتيها أحمد ندا فى هذا الباب . فان لم يكن الأمرُ فيه إلى الموهبة ، فقدِّر ما كان يَلقاهُ ذلك الرجل فى هذا من عظيم العَناء !

وقبل أن نجاوز هذا الموضعَ من صفات الرجل ، تقرر أن صوته لم يكن له حظٌّ كبير فى قراراته ، أو ما يسميه أهلُ الفن (بالأراضى) ، بل لقد كانت أرضُوه واضحةَ الأقفار ، حيث كانت ثروتهُ كلُّها فى أثنائه (البدنية) ، وفى أعاليه ، فكان لهذا دائمَ الاتكاء عليهما فى ترجيعه عامّةَ ليله ، فلا يتنزّل إلى قراره إلاّ ليُصيب راحةً ضئيلةً يَستَجِمّ فيها ، فى الوقت نفسه ، لوثبة يرتفع فيها إلى عَنَان السماء !

أما فنُّه ، وهنا التفت بالكلام إلى الأستاذ التفتازانى ، وقد كتب عن الشيخ ندا فى (الاهرام) كلاماً طَريفاً ذهب فيه ، إن صدقت ذا كرتى الكليلة ، إلى أنه رحمه الله كان يجرى على عِرْق عظيم من العلم بفنّ الموسيقى ، وهذا لا يُشايع الواقعَ فى كثير ولا قليل .

وقبل أن أخوض فى هـذه المسألة أقرر ، كما قررت من قبل فى مناسبات كثيرة ، أن الفن شىء ، وأن العلم بالفن شىء آخر ، فليس كلُّ مفتنّ عالماً بالفن وأصوله وقواعده ، وليس كل عالم بالفن وأصوله وقواعده من المفتنِّين .

إنما مَلَكةُ الفن ترتكز فى أصلها إلى الموهبـة . أما العلم بالفن فمرجعه إلى الدرس والمذاكرة وطول النظر . وشتَّانَ ما بين هذا وهذا !

بعد هذا أُصارحه غير متحرّج ولا متحرّف عن مكان الحق ، ولا متنقّص لقَدر هذا الرجل الذى أتجرد اليوم لذكره إيثاراً له وهُتافاً بفضله العظيم ، أصارح صديقى الأستاذَ بأن الشيخ أحمد ندا لم يكن على حظ جليل فى علم الموسيقى ، بل لعل علمه به لم يزد على إدراك أَوَّليات النغم بما تلقّف فى صدر نشأته من لِداته : هذا صَبا ، وهذا سيكاه ، وهذا عراق ، وهذا جركاه الخ . أما أنه تلقى هذا العلم وحَذَقه أو عُنِىَ عنايةً جليلةً به ، فهذا لم يَقم عليه أىّ دليل ؛ بل لقد أعلم ويعلم كثيرٌ غيرى ، وليس هذا الحسن الحظ بغاضٍّ من قدر الرجل ولا بمتحيِّف من عظمته العظيمة — لقد أعلم ويعلم كثير غيرى غيرَ ما تقول :

فان شئت الواقع ، فالواقع أن أحمد ندا لم يكن عالماً قطّ بالموسيقى ، وإنما كان فنّانًا حقَّ الفنّان ، وكان حُسانًا كل الحُسان . كان من أولئك الأفذاذ الذين بعث الله فى نفوسهم تلك الموهبةَ النيِّرةَ التى تشقّ وحدَها فى الفن طريقَها

فتُعبِّدُ فيه سُبلاً ، وتمهّدُ له طروقاً ، وتخلُق فيه أحداثاً لم تكن خُلقت من قبل .
وهكذا كان الشيخ أحمد ندا . وهكذا أبدع فى فن ترتيل القرءان بِدَعاً لا عهدَ للناس بها من أول الزمان . ولن يزال يَترسَّمها القارؤون إلى بعيد من الزمان .
فالشيخ ندا من أحد أولئك القلائل الذين لم يُجدِ عليهم العلمُ بالفن ، وإنما أجدَوا هم على الفن بما رُزقوا من سلامة الفِطَر ودقة الأحساس ، وتلك المواهب العظام !

وهؤلاء أشبه بالقُمرىّ إذا سجَع وغرَّد ، وبالجدوَل إذا تعطّف فى الرَّوض وتأوّد . وبالبدر إذا استوى فأشرق نُوره ، وبالوَرد إذا تفتّح فسَطَع عبيره ، اسأل ما شئت من هؤلاء كيف صنع ، وعمّن أَخَذ وعلى يد مَن برَع . وخبرنى بعد هذا الجواب .

*
* *

أما أُسلوبه وطريقة أدائه ، فلقد جَعل من أول نشأته يحاكى الشيخ حنفى برعى ويَستَنُّ سبيله ، ويَنهجُ مَنهَجه . وكذلك كان فى عامّة ترتيله ، اللهم إلاّ ما كان يَستحدثه ذوقُه الخاصّ . وكان هـذا قليلاً بالاضافة إلى سائر شأنه . ولقد أدركناه نحن وهو فى أُسلوب أدائه على هذه الحال . وتأبى عليه كرامتُه الفنية إلاّ أن يُحدث كل يوم حَدثاً فى الصنعة من مبتكَره هو ومن بدع ذَوقه ، يَطرح بأزائه شيئاً مما أَخذ عن أستاذه الشيخ حنفى ، حتى استوت شخصيتُه وأدركت ، وتمّت له صنعةٌ جديدةٌ فاخرةٌ فى فن القراءة والترتيل .

كان الشيخ ندا رجلاً صائداً لا يُخطئ سهمُه ما سنحت له الرميَّة . ولقد كانت تعتريه (الحركة) فى بعض ترتيله عفواً ، ما اجتمع لها ولا أَسلف لها

تقديراً ، إذ هى طريقةٌ لم تجر من قبل على مثال فما يزال يكرّ عليها ويُردّدها فى مختلف الآى حتى يحذِقها ويُضيفها إلى فنه السرىّ الجليل !

ولقد كان يبدأ قراءته ، وخاصة فى نوبتهِ الأولى ، مضعوفاً متخاذلاً حتى ليكادُ يكون ترنيمه ضرباً من الحشرجة ؛ وحتى يُحضرك قولَ الشاعر :

إنّكَ لو تَسمَع ألحانَهُ   تلك اللّواتى ليس يعدوها
لَخِلْتَ من داخل حُلقُومِهِ   موَسوَساً يَخنُق مَعتُوها

وإنه أثناء هذا ليكثر من التسعُّل والتنحنح ، ولا يزال يدور بصوته الأجشِّ المهزوم على فنون النغم لعله يوافق فى إحداها بعضَ الفرج ، فيدركك اليأسُ كلُّهُ من أن الرجلَ فى ليلته تيك مستور . وكلما زاد صوتَه عِلاجاً ومُطاولةً أقبل عليهِ هذا الصوتُ بشىء من المواتاة ، وأحسّ منهُ سامعهُ بشىء من الانتعاش أشبهَ بما يُحسّ العليل أحياناً فى مِرضَته الأخيرة ، وربما عاوده الانتكاسُ فعاود هو المراجعةَ وشدةَ المطاولة ، ولا يزال على هذا حتى يستوى قارئاً عادياً لا فضلَ له ولا امتيازَ على غيره من جَمهرة القراء ، حتى إذا أدَّى قَسمهُ أخلى الميدان لقِرنهِ فجال فيهِ ما شاء الله أن يجول ، وصال على الشيخ ما شاء أن يصول !

فاذا جاءت نوبتُهِ الثانية واستوى فى مجلس الترتيل ، رأيتَ فيهِ فتاء وقوةً لا عهد لك بهما من قبل ، وخرج صوتهُ مرِناً واضحاً ليس عليهِ من الصَّدإ إلاّ قليل . ويقرأ ثم يقرأ ؛ على أنهُ لا يأخذ فى قراءتهِ سَمتاً واحداً ؛ بل ما يبرَح يترجَّح بين فنون النغم ؛ ولكنَّ تحيُّره هذه المرةَ ليس فى التماس النغمة التى تُعيذه وتَعصمه ؛ بل فى التماسِ تلك التى تُضنيه وتُتعبه ، إذ صوتُه فى أثناء ذلك يقوى ويشتدّ ، ويعلو ويصفو ، حتى يَصير أوضَحَ من فِرِند سيفٍ خرج لساعته من الصَّقال .

ويَنطلق فى طلب الصّيد من هاهنا ومن هاهنا ، ولا يُريغ من النغَم إلاَّ الأوابد . فاذا أصاب قَنيصتَه راح يُلوِّن لها الافتراسَ ألوانا ، ويُشكِّل لها الالتهامَ أشكالا ، فما يدَعها إلا (أعْظُماً وجلوداً) ، وهو أثناء ذلك يقيم الناسَ ويُقعدهم ، ويَطويهم ويَنشُرهم ، ويُذيقهم المهوّلَ الرائعَ من الطَّرَب والانبهار . وما شاء الله لا قوةَ إلا بالله !

وهو رجلٌ جرىءٌ جداً فى بابه ، لم أر من يَعدِله فى جَراءته إلا أن يكون الاستاذُ الشيخ على محمود ، وصل اللهُ فى عمره . فلقد كان الشيخ ندا رحمه الله يكون فى أعلا طبقات الصوت إلى الحدّ الذى يُعلِّق له السامعُ النفَس ، ما يظُن أن وراءه لصائح مَدى ، إلاّ أن تتصدّع الحنجرة أو ينفجِر الوريد . ثم تَتنظَّر له من جانب السماء نغمةٌ جديدة ، فسَرعانَ ماينتجمعُ لها ، فما يزال يَمُطّ صوته القويّ الجرىء إليها ، ولقد تراوغه بادئَ الرأى ، فلا يَبرح يَتحرَّف لها متيامناً تارةً ومُتياسِراً أُخرى . حتى إذا شكّها زرَّ حنجرته عليها ، فخرجت له ، على هذا الجُهد كلّه ، نبرةً لينةً حلوة ، لا عُسر فيها ولا كُلفة ، كأنما أصابها وهى تدِفّ[1] على ظهر الأرض لا تحلِّق فى عَنَان السماء ! . ولقد أبت عليه كرامته فى تلك المواقف المهولة أن تَزِلّ به قَدم ، أو ينشزُ عليه ما أراغَ من النغَم ! .

ولو قد هُيىء لك أن تَسمعه فى نوبة ثالثة ، فتلك التى لا يَتعلّق بها وصف واصف ، وسبحانَ الخلاق العظيم !

*
* *

ولقد عاش الشيخ أحمد ندا ، على هذا ، خمسين سنة أو تزيد قليلا أو تنقص قليلا ، قضَى منها سنينَ طِوالاً لا يكاد يَستريح من السهر ليلةً واحدة . ولقد

---

(١) دف الطائر : حرك جناحيه

يَسهر الليلة فى أسيوط ، ويَسهر الليلة التالية فى المحلة الكبرى مثلا ، فيُجلجِل فى الثانية كما يُصلصِل فى الأولى ، ما ترى على صوته أثراً لضعف ولا انخذال ! .

وإذا كان تاريخُ الغِناء العربى قد أحصَى نفراً ممن عُمِّروا فيه مع القوة وسلامة الصوت من أمثال إسحاق الموصلىّ وابن جامع ، فقد امتاز الشيخ ندا عن أولئك جميعًا بأنه أَمضى جميع تنغيمه بذلك الجهد الشنيع . فهو بلا شك رجلٌ فى التاريخ عظيم . ولولا أن الحديث قد طال لذكرتُ كثيراً من مفاخره فى لياليه ؛ وإن من حقه على معاصريه أن يُثبتوها له على وجه الزمان .

وإنى لأختم هذا الكلام بتصحيح واقعة أيضاً رواها السيد التفتازانى عن الفقيد فيما أبَّنه بهِ فى الأهرام . فلقد روَى أن الشيخ أحمد ندا انقطع بضع سنين إلى الغِناء، وترك ترتيل القرءان ! . والواقع ، وأنا فى هذا شاهدُ رؤية ، أن الرجل لم ينقطع قطّ عن ترتيل القرءان والتكسُّب بهِ . ولكن أَتى عليهِ وقتٌ كان إذا ختم تلاوتهُ فى حفلة عُرسٍ أو نحوه ، جاؤوه بعوّاد فاستوَى إليهِ وجَعل يَتغنّى ببعض المقطوعات ، وكثيراً ما كان يُرجِّع أبياتًا من الشعر أذكر أن أولها[1] :

عُمرِى عليكَ تشوُّقًا قضَّيتهُ وعَزيزُ صَبرى

على أنهُ كان يَتغنَّى على طريقتهِ فى القراءة ، فكان غِناؤُه سخيفًا مضحكا . وإن غناء القراء لأشبهُ بشعر الكتَّاب ، كما أن تلاوة المغنّين أشبهُ بنثر الشعراء ! .

---

(١) لقد تفضل أستاذى العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار فاستدرك على فى الأهرام ، فصحح هذا الشعر فى كلام لا أستحقه إلا بمحض عطفه على صديقه ومريده ، فروى حفظه الله أن صحة البيت هى :

عمرى عليك تشوقا قضيته وعزيز صبرى فى هواك أهنته

وبعده :

وجعلت أبذل فيك در مدامعى حتى افتقرت إلى العقيق بذلته

ومهما يكن من شىء فانهُ لم يَلبث فى هذه المحنة طويلا ، فلقد ترك الغِناء بَتاتًا وتوفَّر على تلاوة القرءان الكريم .

* * *

هذه كلمةُ حقٍّ أُرسلُها خالصةً لوجهِ الله تعالى ، وفاءً لحقّ التاريخ أولا ، ولحقّ الصحبة الطويلة والجُوار السعيد ثانيًا .

وإنى أسأل الله تعالى أن يُثيب الفقيد العظيم بقدر حسناتهِ ، وأن يعزِّى هذه البلادَ عنهُ أحسَن العزاء .

غـنى يا . . . !*

وحيًّا الله . . . ، وحيًّا صوتَها العَذْب الرخيم .

أَفغِناء هذا أم سَجْع هَزار ، وإنشادٌ هو أم ترجيعُ كَنار . يتردّد فى حَلْق غانية أم فى قَصَبَةٍ من مزامير داوود ، نَفَخت فيــه القُدرةُ لتُشعِر أهلَ الأرض نعيمَ أهل الخلود ؟ .

غنِّى يا . . . غنِّى ، واشتدِّى فى غِنائك أو لينى ، وابْغَمى[١] فى شَدوكِ أو أبينى . أو حَلِّقى بالصوت صياحاً[٢] ، أو دُفِّى به[٣] وأَسْجِحى إسجاحاً[٤] . ثم صُولى به وتدفَّقى ، أو تزيَّلى فيه وترفَّقى . وتجلى به على الأَسماع مرسلةً أجزاؤه مستويةً أطرافُه ، أو ملتوية أصلابُه متثنيةً أعطافُه .

غنِّى يا . . . فهذى قلوبُ سامعيك طوعَ ترديدِك وترنيمك ، وهذى أحلامُهم رَهن ترجيعِك وتنغيمِك . فقد طالما عَبَثَ صوتُك بالألباب ، وهَتك عن أخفى العواطف كلَّ حجاب ! .

خبريني بعَيشك ، كيف تَصْنعين يا . . . بالناس ؟ .

أَفُتُوَّةٌ هذه ومَرَاح ، أم دَعةٌ هذه وارتياح ؟ وسرورٌ وبهجة ، أم همٌّ يصدع الكبدَ ويَعصر المُهجة ؟ وغضَبٌ هذا أم رضَى ، ونعيم ذاك أم تلك نارُ الغَضَى ؟ وأَنَّةٌ تيك من تَبريح الجوَى ، أم آهَةٌ تَنَفستْ بها ذِكرَى الصَّبابة والهوَى ؟ وسُكْرٌ ما فيــه الناس أم صَحْو ، وفَرَحٌ ما يَجدون أم شَجْو ؟

---

* نشرت بالكشكول المصور فى ١٧ ابريل سنة ١٩٢٥ .

(١) بغمت الظبية : صوتت بأرخم ما يكون من صوتها . وبغم الرجل صاحبه : لم يفصح عما يحدثه به (٢) الصياح : رفع الصوت (٣) دَفَّ الطائر : ضرب بجناحيه على الأرض (٤) الاسجاح : خفض الصوت

وسكونٌ ما ترى وفتور، أم فَوْرةٌ تريك جبل النار كيف يَثور ؟ — كل هذا من عَبَثِك بالألباب يا فتنة .

غنى يا . . . غنى ، فلو تَمَثَّـل صوتُك إنساناً ، لاستوى على عرش القلوب سُلطاناً ! .

أليس عنده الرفعُ والخفض ، والبَسْطُ والقَبض . والسعدُ والنحس ، والوَفْر والبُؤس . واللذَّةُ والألم ، والصحةُ والسَّقم . والأُنسُ والنَّعيم ، والهمُّ المُقعد المقيم ؟

إن صوتَك يا . . . لفِتنة فى الفِتنة ! . أفرأيتِ كيف حَلا للطباع ، وعلمتِ كيف لَذَّ للأسماع ؟ . و والله لو أُدرِكَ بالأُنوف لكان ورداً ويَاسَميناً ، أو أُدرك بالأبصار لتَمَثَّل آساً ونِسرينا[1] . أو لو كان يُحَسُّ بالأفواه لصار فى المذاق جُلاَّباً[2] مُروَّقاً ، أو لو كان يُمسُّ بالأيدى لاستحال ديباجاً[3] منمقاً مزوَّقاً ! .

* * *

غَنى يا . . . واسْجَعى ، واشدِى يا حمامةَ هذا الوادى ورَجِّعى . وإذا لم يكن فى طَوقك أن تُسعدى هـذه الحال ، فحسبُك أن تُسعِدى الذكرى وتنعِّمى الخيال ! .

---

(١) النسرين : ورد أبيض عطرى الرائحة (٢) الجلاب : العسل أو السكر عقد بماء الورد (٣) الديباج : الثوب الذى سَداه ولحمته الحرير

طـــرب* !

قرّائى الأعزاء :

اللهم إن كنتم تريدوننى على أن أحدّثكم الليلة فى العلم والأدب ، أو فى الصبر والجزع ، أو فى تقدم الصناعة وتحرُّك التجارة ، أو فى غير ذلك من هذه الأسباب الدائرة بين الناس ، فإننى أكذِبكم القول . فليس فى نفسى الليلة من ذاك كثير ولا قليل . فإذا أخذَتكم علىّ موجدة فردُّوها على ذلك المغنّى ، وليأخذ كل منكم بحقّهِ من حَلْقه . فقد جلست أسمعه أمس . وما زلت من أمس ، كلما نهضت إلى القلم لأكتب لكم فيما آخذ من فنون القول ، طَنَّ فى أذنى جَرْسه ، وملكنى رنينُه من جميع أقطارى . فأعود لا أرى غير صورته ، ولا أسمع غير صوته ، ولا أفكر فى شىء غيره !

إذَن فلأكسر حديثى الليلة على هذا الطرب إن كنتم تريدون منى ألاَّ أحدثكم إلاَّ بما أجد : غَنَّانًا صالح . ولست أدرى أكان مغنيًا يُرسل الصوتَ فيقع حقًّا فى الآذان ، أم ساحرًا يتلعَّب بألبابنا فيخيل إلينا أنا فى الجنان ، تمايل على النسيم بين الآس والريحان ، ونسمع من شدو القَمَارِى على أيكها أبدعَ الأنغام وأروعَ الألحان .

حدثنى يا فتى ! أى روض جاز بِهِ صوتُك قبل أن يَبلُغنا ؟ وكم نسمةً اختلطت به مِمَّا نَفَث فيه صبٌّ مَشُوق ، وَحمَّل عاشقٌ من زفرات كبده إلى معشوق ، حتى أخذ فينا كل هذا الأخذ ، وفعل بقلوبنا كل هاتيك الأفاعيل ؟

آه : وفى آهٍ لذةٌ وألم ، وفيها بُرءٌ وسَقَم . وفى آهٍ راحةٌ وعَنَاء ، وفيها يأسٌ وفيها رجاء ! .

---

* نشرت بجريدة « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)

أشاكرٌ أنا أم شاكٍ ، وضاحكٌ أنا أم باكٍ . وراضٍ أم غضبان ، وسالٍ أم ولهان . وناعمٌ أم بائس ، وراجٍ أم آيس . ؟ – لقد عزّنى أمرى فسلوا صوتَه ونبئون !

يا ليل ! . . . . وما عساك تبغى من الليل ؟ لقد نام الخَلِيُّون ، هنيئاً لهم ، وأمعنوا فى المنام !

نعم ، إن فيك ياليلُ عيوناً تَسيل بالدم شُئونُها ، وإن فيك ياليلُ جراحاتٍ تَفيض بالدمع عيونُها . وكم فيك يا ليل من فؤاد تَحلَّل نَسما ، وكم فيك يا ليل من أكباد تطايرت حِمَمَا . هذا عانٍ يَشكوكَ بثّه وأساه ، وهذا صبٌّ يبثُّك وجدَه وجواه . وهذا مشدوه لا يَتَّخذ الرفيقَ إلا من بين كواكبِك ونُجومك ، وتلك والهةٌ لا تجد الأُنسَ إلاَّ فى وَحشتِك ووُجُومِك .

إن تحتَ الضلوع عواطفَ تئنُّ من طول احتباسها ، فأَطلِقها (يا ليل) تَمزِج أنفاسَك بأنفاسها . أطلِقها تَملك الجوَّ عليك طرباً وشَدْوا ، وتَملأ هذا الهواء تحناناً وشجْوا . ففى العواطف بلبلٌ وكَنَار ، وفيها يا ليل فاختٌ وهَزَار ! أطلِقها بالله يا ليل ، لِتغُنّى الثريا وتشكو وجدَها لسُهَيل :

أبكى الذين أذاقُونى مَوَدَّتَهم حتى إذا أيقظونى للهوَى رَقَدوا
واستَنهضُونى فلما قمتُ منتهضاً بثِقل ما حمَّلونى فى الهوَى قَعَدوا
لَأخرجنَّ من الدنيا وحبُّهُمُ بينَ الجوانح لم يَشعرُ به أحدُ

يا عين . وقل يا عينُ حقيقةً أردتَها أم مجازاً ، ورجِّعْها صباً غنَّيتها أم حجازاً . فإنه :

هوًى بتِهامة وهَوًى بنَجدٍ قد أعيَتَنى التَّهائمُ والنجودُ

غَنِّ يا فتى غَنِّ . فاللهُ أكرمُ من أن يُثير هذا كلَّه فى صدور الناس ويحرِمَهم غناءك يا صالح !

الباب الخامس

فى المداعبات والأفاكيه

﴿ النكتة المصرية فى العصر الحديث* ﴾

سيداتى ، سادتى :

لقد استهللتُ كلامى معكم فى الأسبوع الماضى بأننى كنت عقدت النية على أن أُحدِّثكم حديثاً فكِهاً قصداً إلى ترفيهكم والتسلية عنكم ، ثم انصرفت عن هذا لأنه غير لائق فى ليلة مولد الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم . وقد كان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وأما نحن فنمزح وقلَّ أن تقول فى مُزاحنا حقاً . نسأل الله السلامة ، من عقبى الحساب فى يوم القيامة .

أُحدِّثكم الليلةَ حديثاً إذا هو بعد بعداً شاسعاً عما سبق لى أن تناولته من الموضوعات فى هذا الموقف ، فهو داخل فى جملته فى تلكم الدائرة المرنة ، التى تتَّسع لما تضيق به أوسع دائرة مَرنة فى العالم . ألا وهى دائرة الأدب . ومن ينكر أن هذا لونٌ من الأدب ، فهو امرؤٌ لا أحسبه يعرف الأدب .

موضوعى الليلةَ هو النكتةُ المصريةُ فى العصر الحديث ، فإذا فرغنا من القول فى ذلك ألممنا بشخصيةٍ من الشخصيّات التى حَذَقت هذا الفن ، و بَرَعت فيه أيّما براعة ، وهى شخصية المرحوم إمام افندى العبد .

وهنا أرجو أن ترخِّصوا لى فى أن أتكلم ، ما دعت الحاجة ، بالعامية الخالصة ، لأن النكتة إذا سُبكَت فى العربية الخالصة فقد يَنضَب ماؤها ، ويَحُول بهاؤها . وإننى لأذكر أننى قرأت للإمام الجاحظ شيئاً فى هذا المعنى . وأين نحن من إمام البيان غيرَ مدافع . وأين بيانُنا من بيانه ، وأين تَجويد أقلامنا من عفو لسانه ؟

* أذيعت فى الرديو فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ ونشرت بالجهاد فى اليوم التالى

سيداتى ، سادتى :

إذا أنا خَصَصت النكتةَ المصريةَ بالذِّكر ، فذلك لأننى لا أعرف أمةً من الأمم العربية الأخرى أَحسنَت هذا النوع أو بَرَعت فيه براعة المصريين[١] . ولست بالضرورة أعني تلك النكتةَ البلديةَ القائمة على التلفيق بين صدر معنى من المعانى ، و بين ألفاظ ثابتة لمعانٍ أُخرَ ، فيخرج من هذا التلفيق صورةٌ مضحكةٌ بحكم المفارقة بين هذين الشقّين . وهذا النوع يدعوه العامة (بالقافية) . ولأضرب لكم مثلاً أو مثلين لتوضيح هـذا الكلام ، فى (قافية) الغِناء مثلاً يقول الرجل لمناظره : إخوانك يشوفوك على المشنقة يزعقوا و يقولوا .

اشمعنى ؟ .

كده العدل ! . وفى (قافية) الجرائد يقول له : أنت مسمِّينك فى البيت .

اشمعنى ؟ .

البُرْص ! وهكذا . فهذا هو التلفيق الذى عَنيتُ .

لا أُريد بالضَّرورة هذا اللونَ من النكتة ، لأنه لا أثر فيه للذكاء ، ولا مجال لسرعة الخاطر ، هذا إلى أن حظه من التصوير غير جليل . و إلى أنه ثابت مدوّن محفوظ ؛ يقال لكل من شارك فيه فى كل مقام .

إنما أريد ذلك النوعَ الذى تُلهِمه دِقّة التفطن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، والقدرة القادرة على لطف التصوير والتخيل . ولقد يكون للنكتة من

---

(١) كتب العالم اللغوى الأديب الشاعر الكاتب المرحوم احمد فارس الشدياق المتوفى ١٣٠٥ هـ يصف أهل مصر عند ما زارها لأول مرة . ومما جاء فى هذا الوصف قوله : « وكلهم فصيح اللهجة ، بين الـكلام ، سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة . وكلهم يميل إلى هذا النوع الذى يسمونه الأنماط . وكأنه المجارزة ، وهى مفاكهة تشبه السباب ، وهو أشبه بالأحاجى . فان من لم يكن قد تدرب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً » اهـ وهذا الذى يشير اليه غير النوع الذى نعرض له فى صلب الـكلام .

هذا اللون مَغزَى بعيد قد تُعيِي إصابتهُ على الرجل الحكيم . وقد يكون لها من قوة الأثر ، ما لا يكون لمقالة الكاتب مهما أطال وأسهب ، ولا لقصيدة الشاعر مهما أضفَى وأسبغ .

سيداتى ، سادتى :

لعلكم عرَفتم من هذا ، أن البراعة فى النكتة ، على هذا ، تحتاج فى المرء إلى خِلال : منها الذكاء اللمَّاح ، وسرعة الخاطر ، وقوة اللسَن ، وأعنى بها هنا القدرة على دقة التصوير والتخييل باللسان ، والعلم بأحوال الزمان والبيئة والأشخاص ، وشىء من الجَراءة ، ولا أحبّ أن أقول : شىء من قلة الحياء . وأخيراً لا بدَّ لها من خفة الروح . فلا خير فى نكتة تجىء على لسان ثقيل .

والرجل الذى أُوتى هذه المواهبَ يَلحظ الانحرافَ ، مهما دَقَّ ، فى خُلُق المرء أو فى خَلْقه ، أو فى بعض عمله أو حديثه ، أو فى أىّ شىء من الأشياء على جهة العموم . فسَرعان ما يُسوِّى له بخَياله صورةً مكبرة ، مهما تبعد ، فى شكلها ، عن الأصل . فهى متصلةٌ به بسبب أو بأسباب . ولقد يَخلُق الحديثَ خلقاً ، ولكنه إنما يُترجم به عن حال من يَتندَّر عليه . ولقد تجىء النكتةُ فى صورة جواب مسكت استناداً إلى حالٍ واقعة ، أو فى شكل ملاحظة لطيفة ، ولقد تجىء بالاشتقاق اللفظىّ ، أو من تحريف اللفظ عن جهته ، كما رُوىَ عن البابلى رحمه الله أنه سمع المغنِّى يقول : (أهل السَّماح الملاح دول فين أراضيهم) ؟ فأجاب من فوره : (فى البنك العقارى) ! . وقد تقع بالمقابلة والطِّبَاق ، فقد اخترع رجل طريقةً سهلةً لترويق الماء . وكان البابلى يَستثقل ظلَّه ، فقال : بقى يا إخواننا ، الراجل ده يروَّق الميَّه ويعكَّر دمنا !

وعندى أن النكتة ، على العموم ، ضرب من التصوير (الكاريكاتورى) ،

أو على الأصحّ ، أن التصوير (الكاريكاتورى) ضربٌ من النكتة ، لان صاحب هذه يملِك ما لا يملِك المصوِّر من الاسترسال فى التصوير والتخييل ، بالاشتقاق والتوليد . فلا يزال يقلِّب الصوَر ويلوِّنها ، ويخرجها واحدة بعد أخرى فى أشكال وأوضاع مختلفة ؟ حتى يأتى على جميع المعانى التى يَحتمِلها المقام .

وهنا يجب أن يُعرَف أن النكتة قد تكون بارعة رائعة ، حتى لَتهزَّ مجلس السمر هزًّا ، بل لقد ترُج البلدَ كلَّه من الإعجاب والضحك رجًّا . ومع هذا إذا تناولها المتناوِل ، بعد عام أو عامين أو أقل من ذلك أو أكثر ، لم يجدها شيئًا . ذلك بأن للظروف ، والأشخاص ، والمناسبات والملابسات ، أثرًا قويًا فى براعة النكتة . فإذا حال شىء من ذلك وتغير ، ضعف بقدرِه أثرُ الكلام . وإذا كان هذا مما يَلحَق الشعر الجيد ، والنثر المصفَّى المتخيَّر ، فإنه فى باب التطرّف والتندّر أظهر وأبين .

ولقد كانت البيئات الراقيــة ، مصريةً ومتمصِّرة ، تحتفِل للنكتة البارعة وتَكلَف بها . فإذا أعوزَها من يتندَّر بين يدي المجلس ، راحت تتناقل ما قال بالأمس فلان وما أعاد فلان .

وإياكم أن تظنُّوا أن من ذَهبَ لهم فى هذا الباب صيتٌ وذكر ، كانوا من جماعات المتبطِّلين أو الجهال ، أو الذين يتعرَّضون بهــذا لمعروف الناس . أستغفر الله ، فلقد كان فيهم الأديبُ الكبير ، والكاتبُ العظيم ، والشاعر الفحل ، والسرىُّ المَلِئ . وفيهم من برَعوا فى أشرف المهن وأعوَدها بالكسب . وحسبكم أن تَعرِفوا أنه كان فى الصدر من هؤلاء المرحومون الدكتور بكير الحكيم ، وحسن بك رضا المحامى ، ورشاد بك القاضى فالمحامى ، ومحمد بك رأفت الطبيب ، والسيد محمد بك البابلى ، وهو إمامُهم غيرَ مدافَع ، والسيد محمد بك المويلحى ،

وحافظ بك ابراهيم ، وساويرس بك ميخائيل المحامى ، ونعمان باشا الأعصر ، وخليل بك خير الدين ، وكلاهما من الأعيان الموسرين .

على أنهم لم يتخذوا هذا ويصطنعوه ، رغبةً فى إضحاك الناس . بل ليتضاحكوا هم به على الناس . والويلُ كلُّ الويل لمن تَزِلُّ به القدم بين أيدى هؤلاء . فانهم يتطارحونه ، مهما جلّ قدرُه ، كما تُتطارح الكرة بصوالج الجبارين من اللُّعَباء . تولاهم الله برحمته ورضوانه ، وشملهم بفضله وإحسانه .

*
* *

امام العبد

سيداتى ، سادتى :

الآن جاء دور الكلام على المرحوم إمام افندى العبد . وهو ولا شكَّ ممن كُتبَت لهم فى هذا الفن البراعة والتبريز .

كان إمام « رحمه الله » زِنجيًا بمعنى الكلمة ، (كما يقولون) لولا فصاحة لسانه ، ولولا أنه وُلد وعاش فى مصر ، ففُطر على أخلاق أهلها ، وأخذ بعاداتهم وسائر أسبابهم ، فلقد كان غليظَ المِشفَرين ، أفطس الأنف ، محمرَّ الحدقتين ، أملد العارضين ، مفَلفَل شعر الرأس ، أما لونُ جلده فأشد من فحمة الدجى سواداً .

وكان بعد هذا ، ربعة إلى الطُّول ، مكتـنِز اللحم ، موفور القوة ، لا أدرى أين نشأ ولا كيف نشأ ، إنما الذى أدريه أنه عالج الأدب ، وأول ما عالج من فنونه نظم الزجل ، فأجاد فيه أيَّما إجادة . ولكن طِماحه دفع به إلى قرض الشعر ، فمدح وهجا ، وتغزَّل وفخر ، وتصرَّف فى كثير من فنون القريض . وما أحسبه بلغ فى هذا جليلاً .

على أنه كان جيِّد الإلقاء ، جهير الصوت ، إذا أنشد الجهرة هزَّ الناس ورجَّهم ، وبَعث بالتصفيق أكفَّهم ، وأطلق بالهُتاف حناجرَهم ، حتى إذا قرأ الناقدُ شعرَه من غده أنكر على نفسه ، ما كان منه فى أمسه . ولعل ذلك الأديب قد أصاب بعض الإصابة حين وصف شعر إمام بأنك تأخذه دراً ، وتُلقيه حَجَراً .

وأذكر أننى كنت جالساً ذات عشية مع صديقى المرحوم حافظ بك ابراهيم فطلع علينا نَفَرٌ من الشبان ، فسألهم صاحبى من أين أقبلوا ؟ قالوا : من حفلة المدرسة التحضيرية حيث سمعنا إماماً يُنشد قصيدة له لم يَنظم الشعراء قط مثلَها بلاغة وسحر بيان . قال فأنشدونى قالوا : وكيف لنا بحفظ شعرٍ نسمعه لأول مرة ؟ قال : فكيف عرفتم مَبلغ القصيدة من البيان ؟ قالوا . لأنه نال من آيات الاستجادة ومن التصفيق ما لم يَنل غيرُه . وكانت فى نفس حافظ ذلك اليوم ، لأمرٍ مّا ، مَوجِدةٌ على إمام . فقال : والله ما صفق الناس لبلاغة إمام ولا لجَودة شعره ، وإنما هو عبد «كان لما يعمرّ اللبة كويّس يقولوا له براڤوا يا إمام !» فكيف بهم إذا رأوه يُنشد شعراً ؟ .

سيداتى . سادتى :

قلت لكم إن إماماً كان يُنشد الشعر . وإنى لأحفظ له بيتين جيِّدين فى حُسن التعليل ، تعليل تَرهُّبه وانصرافه عن الزواج :

يا خليلاً وأنت خيرُ خليلِ لا تَلُم راهباً بغيرِ دَليلِ
أنا ليلٌ وكلُّ حَسناء شمسٌ فاجتماعى بها من المستَحيلِ

وأحسِبه لمح فى هذا قولَ المعرّى ، وإن كان قلَب المعنى وعكس الآية . وذلك من البراعة على كل حال : قال أبو العلاء :

هى قالت لمّا رأتْ شَيبَ رأسى وأرادت تنكُّرًا وازوِرارًا

أنا بدرٌ وقد بدا الصبحُ فى رأ   سك والصبحُ يَطرد الأقمــارَا
لستِ بدراً وإنمــا أنتِ شمسٌ   لا تُرَى فى الدجَى وتَبدو نهارَا

يعتذر إمام من عدم زواجه بأن الشموس ، يُريد النساء الحِسان ، لا يجتمعن والليل ، يُريد سوادَ جِلْده .

قلت لكم إن إماماً كان زجالاً من الطراز الأول . وليت الأستاذ بديع خيرى أو الأستاذ رمزى نظيم ، وكلاهما من كبار الزجالين ، يُعنى أحدهما أو كلاهما بأن يَبعث عيون أزجال إمام وهو منهما بهذا كل حقيق .

*
* *

سيداتى . سادتى :

ليس من موضوعى ، على أى حال ، البحثُ فى شعر إمام ولا فى زجله . وإنما عرضت لهذا ، لأجلو عليكم صورةً واضحةً من كفايات الرجل. أما موضوعى فهو إمام المتندِّر ، أو بالعامية الصحيحة ، إمام (القفَّاشِ)

كان إمام العبد ، رحمه الله ، خفيفَ الروح ، حاضرَ البديهة ، مُرسَلَ النكتة ، لا يكاد يَسكن عنها أو يَفتُر بياضَ نهاره وسوادَ ليله . (يقفش) لكل إنسان ، ولكلِّ شىء . فاذا لم يجد من (يقفش) له من الناس تَحوَّل بهذا إلى نفسه ، وإلى خاصَّة أهله . ولقد كان من ذلك الصنف الولاَّد . يتناول المعنى الواحد ، فلا يزال يجول فيه بالنادرة بعد النادرة ، ويستقصيه بالنكتة بعد النكتة ، فى سرعة ولباقة عجيبتين ، حتى لَيُضحِك الثكلى على حد تعبير الأقدمين ! على أنه لم يكن فى تطرُّفه وتندُّرهِ بَعيدَ المغازى ، شأنَ بعض الذين أوردتُ أسماءهم عليكم . على أنه قد كانت له مِيزة لا أحسَب أن كثيرين قد شاركوه فيها ، ألا وهى خَلْق الأحاديث الفكاهية من العدم . لقد يتندَّر بها على نفسِه ، أو يتطرَّف بها على غيره .

ومن المزايا التى ينبغى أن تُذكَر للرجل ، أنه كان عَفّاً فى مُزاحه لا يَفحُش ولا يُقذِع ، ولا يتدسَّس إلى المكاره . بل لعل أشدَّ الناس كان اغتباطاً وضحكاً من (قفش) إمام ، من كان يتولاه (بالقفش) إمام !

*
* *

سيداتى . سادتى :

الآن أروى لكم طائفة من مجونيات إمام العبد فى نوادره ، لا فى نكاته المختصرة ، سواء مما شاهدته بنفسى ، أو مما رواه لى هو بنفسه . وهنا أرجو أن تأذنوا لى بالتمهيد بين يدى بعض هذه النوادر بذكر بعض الأشخاص أو الملابسات التى اتصلَت بها حتى تأخذ النكتة سمتها ، وتقع من النفوس موقعها .

قالت الجهاد الغراء . « وهنا أورد المحاضر مرتجلاً طائفة مما حضره من نوادر إمام المضحكة التى تدل على قدرته الفائقة على الاختراع والابتكار فى هذا الباب ، ولم ير تدوينها لأنها إن ظرُفت فى الحديث ، فانها قد تَفتُر أشدَّ الفتور فى الكتابة والتدوين » .

اداب العراك فى الجيل الماضى*

سيداتى ، سادتى :

لقد أمسى من حقكم علىَّ، بعد إن واليت الحديثَ فى جدّ القول أسابيعَ طوالاً ، أن أعمِد هذه الليلةَ إلى مفاكهتكم ، والتحدث إليكم بما أحسب أنه لا يُملّكم ولا يُضجِركم ، إلى ما لعل فيه بعضَ الفائدة بتجلية بعض نواحى التاريخ الحديث .

وموضوعُ حديثنا الليلة هو : (أدب العراك فى مصر فى الجيل الماضى) . والعرب كانوا يُطلقون كلمة (أدب) فى بعض إطلاقاتها على معنى القانون . فيريدون بأدب الشيء قواعدَه وتقاليدَه . وعلى هذا دَعَوا قانون الجدل والمحاورة ، بعلم آداب البحث والمناظرة . كذلك أريد بأدب العراك ، فلقد كان للعراك فى مصر قوانينُ محترمة ، وتقاليدُ مرعية ! .

وفنُّ (الحناق) على تعبير أصحاب الشأن ، فى مصر قديم يَكلَف به أولادُ البلد ويتباهون ، إذ كان يُعتبَر ضرباً من الفروسية ، والسعيدُ السعيدُ من يذهب له فى (الحناق) صِيتٌ وذِكرٌ فى البلد . بل ربما شارك فى هذا بعضُ أولاد (الذوات) فيشمرون ليوم النزال ، ويتقلدون (الشوم) للحرب والقتال .

وليس يغيب عمَّن قرأ التاريخَ الحديثَ منكم أن بونابرت حين بلغ بجيوشه إمبابة فى طريقه إلى مصر ، استنجد الأمراء المماليكُ بالأهْلين ، بعد إذ تخاذلت جنودهم ، فخرج له أولاد الحسنية بعصيِّهم ، ونازلوا الجيش الفرنسى فحصدتهم مدافعه ، مع الأسف الشديد ، حصداً ! .

وهؤلاء الأبطالُ يُدعَون (الفُتوّات) جمع فُتوَّة . أو العُصْبجية جمع عُصْبجى . وكان فى كل حىّ من أحياء القاهرة فتواته . فللحسينية فتواتُها ، وللسيدة فُتوّاتُها ،

---

* أذيعت بالرديو فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ونشرت « بالجهاد » بعد ذلك

وللخليفة فتُوّاتُه ، وهكذا . ولفُتُوات كلّ حيّ زعيمهُم ، والمتقدِّم فى البطولة عليهم ، لا يُعصَى أمرُه ، ولا يخالَفُ حُكمه ، وهو الذى يدعوهم إلى الصراع ، ويدبر لهم الخُطَط ، ويقودهم فى المعارك الكبرى ، فاذا كانت المعركة مما لا يَرتفع إلى شأنه ، عقد لواء السرِّية لمن يختاره ممن قبله من الفتوّات ! .

وكان لكل فتوة (مشاديد) ، جمع (مشدود) ، وهم من أنصاف الأبطال الذين يَنتسِبون إليه ويلوذون به ، ويحتَمون باسمه ، والويلُ كلُّ الوَيل لمن يَعتدِى عليهم ، أو يَعتريهم بالمكروه ، فان الاعتداء على أحدٍ منهم يُعتَبر اعتداء على الفتوة نفسه ، لما فى ذلك من الغَضّ من كرامته ، والاستهانة بحمايته . وعلى هذا كان من أشد التحدى للفتوة أن يقال لمشدوده : ينعل . . . على أبو اللى يشدّدلك ! فسَرعانَ ما تَشِب لَظَى الحرب ، ويَتَواثب القِرْنان للطعن والضرب .

وكانت العداوات مستمرة بين بعض الأحياء وبين بعض ، فلا يبيت الموتور منها إلاّ على تهيؤ لشفاء الحقد ، والأخذ بالثار . ولقد يَتحالف الحيَّان على ثالث إذا جمعهما الحقد وضمَّهما الوِتْر ! .

وممن أدركنا عصرهم من أعلام فتوات الحسينيـة والعطوف : المرحومون عتريس ، وحكورة ، وكسَلة . ومن كماة الخليفة : كُمّ العِرى، والملط ، ويوسف بن ستُّهم . ومن أقطاب الكبش وطيلون خاصة: بلحة ، والفولى . أما أبطال السيدة فهم المرحومون : ممبوك ، خليل بطيخة ، الإنّ ، وإءّة . وكان رحمه الله أعمى ، وعلى أبو ضَبّ ، وأظن أن هذا الأخير ما زال حياً ، فقد رأيته من بضع سنين ، وقد صَلُحت حاله ، وهو يُدير قهوة بلدية فى مَيدان زين العابدين .

وسلاح كل فتوة وعُدته للحرب عصا أو عِصىّ من (الشوم) يداور بينها فى الخناقات ، وترى كل واحد منهم شديد التتايه بعصاه ، كثير الذكر لها والإشادة

باسمها . نعم باسمها فلقد كانوا يطلقون عليها الأسماء . فمن العِصىّ الحاجّة فاطمة ، ومنها الحاجّة ببه . وهكذا ، وربما سقوها الزيت بتثبيت قمع مفتوح على طرفها الأعلى وملئه زيتاً ، وتركها على ذلك أياماً حتى يتمشى فى شعوبها ويشيع فيها ، فتزداد قوة وصلابة على الطعان والضراب . وقد يزوّق مقبضها بالحناء .

سيداتى ، سادتى :

لست بحاجة إلى القول بأن مظهر هذه البطولة هو فى جراءة القلب وقوة الساعد ، والمهارة فى الإصابة ، واللباقة فى اتقاء الضربة بالعصا أو بالتحرف عن مَذهَبها . وكل هذا يحتاج إلى كثير من التدريب والتمرين . ولكن الذى يحتاج إلى البيان هو لون خاص من البطولة . وهو الكفاية الهائلة فى احتمال أشد الضرب ، وطول الصبر عليه واقماً حيث وقع من أعضاء الجسد . ولهذا النوع من البطولة قيمته وسداده وغناؤه إذا َحمِىَ الوطيس . فان الفتوات لَيقدمون هؤلاء الأبطال بين أيديهم ليتلقَّوا عنهم بأجسامهم أكبر كمية من الضرب ، حتى يستطيعوا هم أن يصرفوا أجل همهم لإِجالة العصىّ ذات اليمين وذات الشمال .

وكان علم الأعلام فى هذا النوع من البطولة من فتوات السيدة هو خليل بطيخة ، عليه رحمة الله . فقلّ أن كان يخرج إلى (الخناقة) وهو يتقلد عصا ، ولو تقلدها ما أحسن استعمالها . ولعلها كانت (تلخمه) فى ميدان القتال . و إنما سلاحه كله ، سلاحه الماضى هو جسمه القوى الصفيق !

ولقد رأيته بعيني وأنا غلام بعد منصرَف الناس من الصلاة فى جامع عمرو فى يوم الجمعة اليتيمة . وقد اجتمع عليه وحدَه نفر من فتوات الخارطة وأبى السعود ، فى أيديهم عصيُّهم الغليظة ، وما زالوا يتهاوَون بها على جسمه بأشد ما فيهم من قوة و بأس . أما هو فقد دس رأسه فى صدره . وأسرع فتكور على الأرض حتى صار

أشبه بلقبه (بطيخة) ، وجعل يتلوى تلوى الحيّة ، حتى ظن النظارة أنه هالك لا محالة . ثم ما إن أقبل البوليس بعد فترة طويلة ، وفر أولئك الفتوات عند مرآه شرقاً وغرباً ، حتى بسط جسمه ووقف فى أسرع من رد الطرف . وكأنه لم يُكلَم كَلما ، ولم ينله كثير ولا قليل من أسباب الإيجاع والإيلام ! ومضى لشأنه وهو يتحدث عن بطولته ، وعما يعد للأخذ بالثار من أولئك الأعداء ! .

***

وكانت خير الفرص لشبّ (الخناقات) هى فى الأعراس ، حيث يحتفل باقامة (خناقة) فى النهار فى زفة العروس ، وأخرى فى الليل فى زفة (العريس) .

أما معركة النهار فلم يكن خطبها جليلاً ، إذ لا يخرج لها الزعماء ، ولا المقدَّمون ، بل يكتفون فيها بتعبئة أوساط الفتوات ، فيخرجون إليها ومعهم بعض الغلمان . ويتوارون فى زقاق أو منعطَف ، حتى إذا أقبل موكب العروس بعثوا أولاً أولئك الغلمان ، وفى يد كل منهم ما تيسر من عصا رفيعة ، أو (زعزوعة قصب) ، أو قبضة من الحصا . وهؤلاء الغلمة يُدعَون (جرّ الشكل) ، فيقذفون المركبات بالحَصى ، ويَتعرضون بالعصىّ لأحراس الموكب ، حتى إذا صدمهم هؤلاء وضربوهم ، برزت الكتيبة من مكنها وأدارت رَحَى القتال ، بدعوى الثأر لهؤلاء الأطفال .

سيداتى ، سادتى :

إذا حدثتكم عن المعارك الجُلَّى التى تدور إذا كان الليل فى (زفات العرسان) ، فانما أحدثكم عما كان يحدث فى حى السيدة زينب والأحياء المحيطة به . ولعله صورة مما كان يحدث فى سائر الأحياء .

كانت هذه المعارك تدبَّر من قبل ليلة العُرس بأيام ، فيعد لها الخصوم عدتهم من جهة ، ويتأهب لها أولياء (العريس) وصحبه من جهة أخرى . بل لقد كان هؤلاء

فى كثير من الأحيان يَدعون لها ، ويُغرون الخصوم بها ، ويَستدرجونهم إليها . لأن مما يميَّز به أهل العُرس من ذلك الصِّنف من الناس أن تجوز (زفة عريسهم) الشوارع فلا يَتعرض لها أحد بالمكروه ، فذلك دليل على تهاونهم واستحقار شأنهم ، وإخراجهم فى الاعتبار عن أفق الرجال ، فضلاً عن الأبطال !

وكانت (زفة العريس) ، واقعة حيث وقعت داره من آفاق ذلك الحى ، لابد أن تجوز بمسجد السلطان الحنفى والشيخ صالح أبى حديد . وهناك يقع الصدام والطعان ، ويتهاوى (الشوم) على رؤوس الأقران فى هذا الميدان ! .

ولقد زعمت لكم أن أولياء العُرس قد يَدعون ، فى كثير من الأحيان ، إلى العراك ، ويَستدرجون الخصوم إليه ، وأ كبر مظهر لهذه الدعوة هو أن يقدِّموا بين يدى الموكِب ما يَدعونه (بخاتم سليمان) ، وهو عبارة عن قطع خشبية متخالفة أقطارها ، بحيث تَتخذ الشكل الهندسى الذى يطلَق عليه فى العرف (خاتم سليمان) . وكلها ثقوب محفورة على مسافات مضبوطة ، تُثبَت فيها كعوب الشمع المضاء . ويحمل كلَّ واحدة من طرفيها رجلان أو فتيان . وفى حمل هذه الخواتم السليمانية معنى التحدِّى للخصوم ودعوتهم إلى العراك !

وعلى قدر الرغبة فى قوة العراك ، وشبِّ القتال ، يكون عددُ تلك الخواتم ، فمن الناس من يقدم الاثنين ، ومنهم من يقدم الثلاثة ، ومنهم من يضاعف هذا المقدار ، إعلانًا للسطوة وإيذانًا بالرغبة فى استحرار القتال ! أما المستضعَفون من الناس ، فلا يقدمون شيئًا من ذلك إيذانًا بإيثار العافية ، وطلب الدعة والأمان ! .

وكان نظام الموكب ، موكب (زفة العريس) ، يجرى على الوجه الآتى ، الطبل البلدى وبين يديه طائفة من الغلمان والفتيان ، ثم الموسيقى الأهلية ، إذا كان (العريس) على شىء من اليسار ، ثم حملة خواتم سليمان ، تضطرب من فوقها ألسنة

الشموع ، ثم جمهرة الفتوات يُلوِّحون بعصيِّهم فى الهواء . ثم حملة (الشمعدانات) فى صفين متقابلين . ثم (العريس) يحيط به أصدق صحبه ، وفى أيديهم الشموع والأزاهير . وقد تقف القافلة بين حين وآخر لاستماع من يغنِّى القومَ بالأغانى البلدية ، فتراهم يحسنون الإصغاء ، حتى إذا فرغ من نبرته عجوا بأصوات الاستحسان من نفس الطبقة التى يجرى فيها الغناء . وهنا تسمع الصياح من كل جانب من نحو (يا ربِّنا والملايكة) ! و (احنا الصبوات العِتَر) !

فاذا بلغت (الزفة) فى مسراها ذلك الموضع ، أعنى الرقعة الواقعة بين مسجدى الحنفى والشيخ صالح ، إذ الأعداء متربصون هناك ، أذَّن المؤذن بنشوب القتال . وكانت أول عصا تهوى على رؤوس الزمارين المساكين . فاكتسبوا هم الآخرون ، بطول التدريب والتمرين ، مهارة فى اتقاء الضرب ، وفى احتماله ، وفى الفرار ، وتولية الأدبار ! وكان أشدهم فى هذا عناء هم الطبالين لما يُثقلهم من حملهم . وكثيراً ما تتخرق طبولهم بضربة العصا ، أو بقبضة يد من ضارب صَناع ! .

ويزخر الميدان ، ويتلاقى الأقران ، ويَستحرّ القتال والطعان . فلا ترى إلاَّ عِصياً تتهاوى على الأبدان . فتشق الرؤوس شقاً ، وتدق الأصلاب دقاً ، وتَخسِف الأصداغ خسفاً ، وتقصف الأضلاع قصفاً ، والدماء تسيل حتى تجلِّل الثياب ، وتَفيض على الأرض بما يروى من غُلة التراب . وهذه الدماء هى أوسمة الشرف يتحلى بها الكُماة الأبطال ، إذا رجعوا إلى معشرهم من معترك القتال .

ولقد تسمع الكَمِىَّ وقد واجه عدوه وشرع عصاه ، وتهيأ للوثاب وهو يصيح : وارايا . . . وهو كلام قبيح لا يجوز ردّه على الآذان .

سيداتى ، سادتى :

لم يكن البوليس ليجرُؤ ، فى غالب الأحيان ، على اقتحام هذه الملاحم ، أو يستطيع ضبط تلك الوقائع ، بل لقد كان يولِّى عنها فراراً ! وهنا ينبغى أن يُذكر أن أحداً من هؤلاء الفتوات أو أوليائهم لا يمكن ، ولو بجدع الأنف ، أن يتقدم بالشكوى إلى البوليس أو غير البوليس ، ولو كان الضرب قد أتلفه وأرداه ، بل لقد كان فى ذلك العارُ ليس بعده عار ، والشنارُ ليس وراءه شنار ! .

*
* *

هذه كانت بعض مظاهر البطولة عند أولاد البلد فى الجيل الماضى ، وثَمَّ مظهر آخر من مظاهرها ، وأعنى به الحرب الجبلية ، ولا يتسع الوقت لوصفها وعرض حديثها ، ولعلنا نجرِّد لذلك محاضرةً أخرى .

ومهما توصف هذه الحالة بالوحشية ، أو الهمجية ، أو الاحتفال للعُدوان ، والخروج على النظام ، فلقد كانت بطولة لها قيمتها على كل حال ! .

ولسنا الآن بسبيل العوامل التى قضت على هذه البطولة عند أولاد البلد . ولكننا نسجل فقط أنها قُضِى عليها القضاء التام . ولم يبق من آثارها إلاَّ مجرد ادعائها والتظاهر بها ، فيما تسمعه من هؤلاء أولاد البلد أثناء (الشروع فى الخناقات) من ألوان الوعيد والتهديد ، بتهشيم الآناف ، وتحطيم الأكتاف ، وتكسير الرؤوس ، وإزهاق النفوس ، فليس وراء هذا النَّفج (المعر) شىء أبداً .

مشروع معـــركة* !

خرجت مُصبَح اليوم ، على عادتى ، أطلب مَثابة عملى فى الجيزة . وما إن كِدت أبلغ موقف (الباس) ، وهو على بضع عشرات الأمتار من (كبرى) عباس ، حتى رأيت منظَراً جميلاً استدرج همى ، وشَغل كلَّ نفسى . فإننى لَحَقٌ مشوقٍ إليه من زمان طويل !

فَتَيان أو شابان من (أولاد البلد) ، قد تفصَّدت نفساهما بالشر ، واحمرت من فورة الغيظ أحداقهما . وها أنا ذا أراهما يتواثبان للمعركة الحامية ، تُشجّ فيها الرؤوس ، أو تخلع الأكتاف ، أو تُدق الأصلاب وتُقدّ المتون

لقد أوحشنى حقاً هذا الضرب من (الخناق) الوطنى يَتهشم فيه الضارب والمضروب جميعاً . وناهيك بمن لا يتسلحون لمعاركهم ، فى النزال على وجه خاص ، بمسدس ، ولا بسكين ، ولا بعصى ، ولا بحجر ، وحسب الفتى من السلاح يده ورجله ورأسه ، ففى الضرب (بالروسية) غنًى للمقاتلين !

وتالله ما بى أىُّ حب للشر ، ولا أنا ممن يستريحون إلى شهود الأذى ، وإنى لَأتألم أشد الألم إذا رأيت حيواناً يتألم فضلاً عن إنسان . ولكن هذا اللّون من العراك (الخناق) بين أبناء البلد ، كان مظهراً من مظاهر الفتوة والبطولة فى مصر ، فعُفِّىَ أثره من زمان بعيد ، وهذا مع الأسف العظيم .

وقفت إذن مغتبطاً مستبشراً بشبوب المعركة ، وعودة ذلك التقليد المصرى القديم . على أن وُسَطاء الخير أو وسطاء السوء من السابلة ، أسرعوا فحالوا بين القِرْنَين . وأمسك أربعـةٌ منهم بواحد ، وأمسك ثلاثةٌ بالآخر . وجَعل كل

* نشرت فى جريدة «المصرى» فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ تحت عنوان (حديث رمضان)

جماعة يَجذبون صاحبهم ليبعدوه عن خصمه . وهو يقاومهم أشـد المقاومة ، ويحاول الإفلات منهم ليثب إلى صاحبه ، إذ هم يدافعونه عن هذا بكل ما يملكون من القوة .

يتوسل كل منهما إلى جماعته أن يُطلقوه فلا تنفع الوسيلة ، ويَضرَع إليهم فما تُجدى الضراعة . يتوسل أحدهما إلى صحبه أن يُطلِقوه ليدغدغ رأسه . فيرجو الآخرُ صحبَه أن يدعوه ليفقأ عينيه . فيحلف الأول بأنهم لو خلوا بينهما لبقر بطنـه (فتح كرشه) . فيجيب الثانى حالفاً أنهم لو تركوه لدَقَّ صلبه (يكسر وسطه) . وهكذا من نحو : (والله لو سبتونى عليه لأخليه كفته)، و (حياة النبى ، بس سيبونى وأنا أخلى الدبان الأزرق ما يعرفلوش طريق جُرَّة) إلى آخر هذا الوعيد المرعب المهول !

وفى الحق، لقد اشتد غيظى ، وكَظَّ الحَنَقُ صدرى على هؤلاء الوسطاء المتطفلين ، حتى لقد هَمَمت بأن أزجرهم عن تطفلهم ، وتعرضهم لحريات الناس على هذا الوجه المَقِيت . أما الواقع ، إذا شئت الحق ، فإنهم يحولون بصنيعهم بينى و بين مُتعَة تَستشرف لها مُنَى النفس ، كما زعمتُ لك ، من زمان بعيد .

على أنه لم يرُعْنى ، وأنا أتهيأ لهذا الزجر ، إلاّ أن يُجهَد بالجماعتين كلتيهما ، ويبدو الكَلال والإعيـاء على الجميع ، فتُطلِق إحداهمـا صاحبَها ، وتحذو الأخرى حذوَها .

وتزاحف القِرنان فاشتد خفقان قلبى ، وتداركت أنفاسى ، حتى سمعت فيها ما يشبه الزحير . وهرولت إلى أقرب جِدار فاستَعصَمت به ، ودُرت ببصرى ألتمس المهرب إذا دنا منى القِرنان ، أثناء الصِّيال فى الميدان ، والكر لإحكام الضرب والطعان . وجمعت كل ما شرد من نفسى لأشهد المعركة الحامية ،

وأرقب المعمعة الدامية ، وهذه فرصة لا شك فيها ، فما كنت من قبل جُنديًا ، ولن أكون من بعدُ لإحدى الصحف مكاتبًا حربيًا ، حتى يتهيأ لى أن أشهد موقعة ، أو أخوض معمعة !

مَشَى كلٌ من المقاتلَين إلى قِرنه ، والشر تبدو نواجذه الحِداد ، حتى إذا كان كلٌ منهما على متر من صاحبه وقف ، وحلف لئن لاقاه ليصنعن به كيت وكيت ! ثم استدار كل منهما وولّى صاحبَه قفاه ، ومضى لطيته ! مغذاً فى التسيار ، شأنَ الخائف أن يفوته القطار . أو كأنه على موعد من حبيب طال به الانتظار !!

سلمت أمرى لله ، واستقبلت وجه الطريق فى انتظار (الباس) ليبلغ بى مَثابةَ عملى . فلم يرُعْنى إلاّ أن أرى (الكبرى) يتحرك ليفرج مجازاً للسفن هابطة وصاعدة !

الله أكبر ! . إذن لقد كان مشروعُ هـذه المعركةَ الهائلة مجردَ (مناورة) لأسافر إلى مقر عملى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، لا عن طريق قناة السويس ، بعد أن استحكم الياس ، من المرور على (كبرى) عباس !!!

التطفيل والطفيليون*

سيداتى سادتى :

بحسبنا ثلاثُ محاضرات متوالية ، كلهـا فى جِد القول ومُره ، فى زمت هذا الصيف ووَقدة حره . فلنستروح هذه المرة بشىء من التفكيه ، لنجعل الراحة لذلك الجدّ جِماماً . فنحن على هذا فى الجد دائماً . حتى إذا انحرفنا يوماً إلى شىء من العبث أو ما يشبه العبث ، فلنرفِّه به أنفسنا ونسلِّى عنها لنعود لشأننا ممدودى الأنفاس مشدودى المتون . وحديثنا الليلة مع هذا يجرى فى باب من أبواب الأدب العربى . ولا تَعجبوا إذا كان من أحاديث الأدب القولُ فى التطفيل والطفيليين ! . ولست أتجوَّز بهـذا اللفظ فأطلب به المتطفلين فى العلم أو فى الأدب ونحو ذلك . إنما أقع باللفظة على الحقيقة ، وهى تعرُّض المرء لطعام الناس من غير أن يُدعى إليه . أما الداخل فى شرابهم من غير دعوة كذلك ، فيدعى الواغل . ومثلهما الدعىّ ، وهو الداخل فى نسب القوم وليس منهم .

والطفيليون نِسبة إلى رجل يدعى « طفيل العرائس » . وقد زعموا أنه أولهم ، فإليه كانت نسبتهم. ولكننى أحسب أن التطفيل قديم جداً قِدَم الشره فى الانسان ، وهوان نفسه عليه ، وتطلعه إلى ما ليس له ، ولو كان طعاماً . وتهافته عليه مشايعة لشهوة البطن ، مهما ناله فى ذلك من مكروه أدبى أو مادى . وربما كان عقْد لواء الأولية فى هذا الباب لهذا « طفيل العرائس » لأنه أول من احترفه ، فلقد أصبح التطفيل حِرفة مقررة مرسومة إلى وقت قريب . أو لأنه أول من شرع آدابه ، واستفتح بلطف الحيلة أبوابه ، وقعَّد قواعده وأصَّل أصوله ، وفرَّع فروعه وفصَّل فصوله . ومن روائع حكمه ، وجوامع كلمه ، ما قال يوصى به صحبه : « إذا دخل

* أذيعت بالراديو فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٤

أحدكم عُرساً فلا يتلفَّت تلفُّت المريب ويتخير المجالس . وإن كان العُرس كثير الزحام فليمض ولا ينظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ، فان كان البواب غليظاً وَقاحاً ، فيبدأ به ويأمره وينهاه من غير أن يعنُف عليه ، ولكن بين النصيحة والإدلال » .

ولقد قلت لكم أن التطفيل قديم ، ولكن أساليبه وطرائقه تتشكل وتتلون فى كل عصر وفى كل إقليم ، طوعاً لما يجرى من العرف والعادة وغير ذلك من الأسباب .

ولا أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن من أول ما يتصف به الطفيلى ، هو الشره ، والطَّمَع ، وحِدة الوجه ، ولؤم النفس ، وهوانها على صاحبها وعلى الناس . فما يدفع إلى التطفيل إلا هذه الخلال ، أما الصفات الأخرى التى يحتاج إليها الطفيلى ، والتى هى أهم وسائله ، فمنها خفة الروح ، فان أعوزته فالتظرف بالقدر المستطاع . ومنها سَعة الحيلة ولطف المدخل ، ومنها حسن السَّمْت ونظافة الثوب ، ومنها حضور الذهن وتهيؤ البديهة ، وقوة اللسَن ، وبراعة النكتة ، فاذا اجتمع إلى هذا وهذا وهذا ، إلمام بالأدب وبالسيَر ، وإذا ضُمَّت إليهما القدرة على ارتجال الشعر ما دعت مناسبات الطعام ، فذلك والله الطفيلى التامّ .

سيداتى ، سادتى :

انظروا كيف يصنع الأدب ! . اللهم إنه لزعيم بأن يجلو على الناس كل ما فى هذا العالم من جميل وبديع ، مما يتصل بالصوَر والمعانى جميعاً فاذا عَزَّه الجمال فى ظواهر الأشياء ، راح يتدسس إلى بواطنها ، فاحتال على استخراجه وجلاه على النفوس جَلواً . ولربما مال إلى القبيح فى ظاهره وفى باطنه معاً ، فسوّى منه صوَراً لها جمالها ولطفها فى باب التمليح والتفكيه . أليس البخل فى الناس قبيحاً جداً ؟ ومع هذا يأبى الأدبُ إلا أن يجعل من البخل والبخلاء باباً من أوسع أبوابه ، وأبلغها فى

إعجابه وإطرابه ، سواء فيما صَوَّر من نوادر البخلاء وطرائفهم ، أو فيما صوَّرهم به فحولُ البلاغة فى منثورهم ومنظومهم

والتطفيل ، ولا شك ، أقبح من البخل وأكره وأرذل ، ومع هذا لقد كان قَسْمه من الأدب كذلك .

والآن نقص عليكم طائفة من نوادر الطفيليين من المتقدمين ، وما قالوا وما قيل فيهم . فاذا اتسع الوقت قفَّينا على ذلك ببعض نوادر من شهدنا من المحدَثين :

مر طفيلى بالبصرة على قوم وعندهم وليمة ، فاقتحَم عليهم وأخذ مجلسه ممن دُعى . فأنكره القوم وقالوا : لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذَن لك أو يُبعث إليك ؟ فقال: إنما اتُّخذت البيوت ليُدخَل فيها ، ووضعت الموائد ليؤكَل عليها ، وما وجِّهت بهدية فأتوقع الدعوة . والحشمة قطيعة ، وطرحها صلة . وقد جاء فى الأثر : صِل من قطعك ، وأعط من حرمك وأنشد :

كلَّ يوم أدور فى عَرصة الدا ... ر أشَمّ القُتــار شم الذباب

فاذا ما رأيتُ آثار عُرس ... أو دخان أو دعوة الأصحاب

لم أُعرِّج دون التقحُّم لا أر ... هب طعناً أو لَـكزة البواب

مستهيناً بمن دخلت عليهم ... غير مستأذن ولا هَيَّاب

فترانى ألف بالرغم منهــم ... كلَّ ما قدموه لف العُقاب

يقال . لف الرجل فى الأكل : قبح فيه وأكثر منه خالطاً بين صنوفه . ولف العُقاب : أى كما يلف العقاب الصيد ويجعله تحت رجليه .

ومر طفيلى على قوم يأكلون ، فقال ما تأكلون ؟ فقالوا ، من بغضهم له : سمًّا ، فأدخل يده فى الطعام وقال : الحياة بعدكم حرام !

ومر طفيلى بقوم من الكتبة فى مشربة لهم ، فسلم ثم وضع يده يأكل معهم ، قالوا له : أعرفت منا أحداً ؟ قال نعم ، عرفت هذا ، وأشار إلى الطعام !

وأظن أن من لم يقرأ منكم عن أشعب فقد سمع بصدر من نوادره ، فقد كان ، رحمه الله ، من أطبَع الطفيليين وأشرههم ، حتى لقد قيل له ما بلغ من طمعك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يأمران لى بشيء !

ووقف مرة على رجل يعمل طبقاً فقال له : أسألك بالله إلاَّ ما زدت فى سعته طوقاً أو طوقين ! . فقال له : وما معناك فى ذلك ؟ قال : لعل يُهدَى إلىَّ فيه شيء ! .

ومن ظريف بدائهه أنه ساوم رجلاً فى قوس عربية ، فسأله فيها ديناراً . فقال أشعب : والله لو أنها إذا رُمى بها طائرٌ فى جو السماء وقع مشوياً بين رغيفين ما أعطيتك بها ديناراً !

*
* *

وقيل له يوماً ما تقول فى ثردة مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ؟ قال فأُضرَب كم ؟ قيل له : بل تأكلها من غير ضرب ! قال : هذا ما لا يكون ! ولكن كَم الضرب فأتقدم على بصيرة ؟ !

ومن أظرف اعتذارات الطفيليين قولُ شاعرهم :

نحن قومٌ إذا دُعينا أجبنا ومتى تُنس يَدْعنا التطفيل
وثقُل علّنا دُعينا فغبنا وأتانا فلم يجدنا الرسول

وأتى طفيلى طعاماً لم يُدع إليه ، فقيل له من دعاك ؟ فأنشأ :

دعوتُ نفسى حين لم تدعُنى فالحمد لى لا لك فى الدعوة
وكان ذا أحسن من موعد مخلفه يدعو إلى الجفوة

أفرأيتم أصقع وأصفق وجهاً من هذا الذى يؤثر الدخول فى طعام الناس من غير دعوة على أن يُدعَى إليه ، بحجة أنه ربما تخلف عن الإجابة فوقعت الجفوة بينه وبين داعيه !

ودخل طفيلى فى طعام رجل فقال له من أرسل إليك فأنشأ :

أزوركم لا أُكافيكم بجفوتكم إن المحب إذا ما لم يُزَر زارا

ومن أحسن ما قرأته فى وصف طفيلى قول الشاعر :

لو قيــل فى الشام مَطمورةٌ والهند أو أقصى بلاد الثغور
وأنت فى مصر لوافيتهــا يا عالم الغيب بما فى القدور

سيداتى سادتى :

لم تقتصر مهمة الأدب على تقييد نوادر هؤلاء الذين امتُحنوا بهذا الشذوذ الخُلقى ، وقصِّ ما كان منهم من طرائف ونكت ، وما تطرّف به أصحاب البداثة عليهم ، بل لقد حركت هذه الخِلال فيهم ملكات الشعراء والكتاب، فجاءوا فى هذا برائع الوصف و بارع التشبيه، مما زاد البيان ثروة على ثروة . بل لقد بَسطت فى الأخيلة فأعظمت الصغير من النوادر ، وأجلّت الدقيق من الحوادث ، بل ربما اخترعَتها اختراعاً ، واختلقت القول فيها اختلاقاً . وهذه نوادر البخلاء فى كتاب الجاحظ ما أحسب كثيراً منها إلاَّ مُنشَأً مصنوعاً .

ومن أبدع ما قرأتُ فى نوادر الطفيليين، مما لا أظنه إلاَّ حديثاً مصنوعاً، هذه الحكاية التى أترجمها لكم بلغتى الضعيفة ، فلقد مضى على قراءتى لها دهر طويل ، ولما بيتُّ النية على هذا الحديث ، بحثت عنها فيما كنت أقدّر لها من المظانّ فلم أُصِبها مع الأسف الشديد ، وهى فى أصلها مكتوبة بلغة بارعة لا يَتعلق بغبارها هذا البيان . وسأنتهز هذه الفرصة ، حين يعرض ذكر ألوان الطعام ، فأبدل ما لا نعلم من السكباجة والطهباجة ، والمضيرة ، بما نعرف من الصحاف الدائرة فى مصر الآن :

حدَّث رجلٌ من أهل الكوفة أو البصرة (لا أذكر) قال : كنت امرأً واسع النعمة عريض الغنى ، ثم تغير لى الدهر وألحَّت علىَّ السنون ، حتى لم يبق فى يدى ما أتجمَّل به بين أهلى ومعشرى ، فانحدرت إلى بغداد ، إن لم أدرك الغنى فلا يرانى على هذه الحال من كان يرانى فى يُسرى وأُبهتى . وبينا أنا واقف على بعض مداخلها حيرانَ لا أدرى لى فيها مذهباً ، إذ جاز بى رجل حسَن البزَّة ، فما إن رآنى حتى وقف يتأمَّلنى ، ثم تقدم إلىّ فسلم وسلمت ، فقال : لعلك غريب حدرتك السنون إلى هذا البلد فى طلب الرزق ، ما تعرف هنـا خُطةً ولا تعرف أحداً ؟ قلت : بلى ! قال : فهل لك فى أن تأكل أزكى الطعام وتَلَبس أفخر الثياب ، وتأخذ مالاً يعود بما يجتمع منه على شَملك ، إذا رجعت إلى أهلك ، قلت : وأصنع ماذا ، فى كل هـذا ؟ قال : حسبك أن تكون طيِّعاً أميناً . قلت لقد رضيت . ومالى لا أكون كذلك ؟ قال : الشرط أملَك ، فتعال معى ، وتبعته فمازال يخرج بى من طريق إلى طريق ، وينفُذ من درب إلى درب ، حتى أفضينا إلى دار عالية البناء ، رَحْبة الفِناء ، فدخلها وأنا وراءه ، ثم أفضى بى إلى حجرة فسيحة حسنة الرياش ، جلس إلى جانبيها مَشْيخة من الناس ، لهم هيئة حسنة ، وجلس فى الصدر شيخ أعمى عليه مطرف ، وهو أكبرهم عمامة . فتقدمنى صاحبى إليه وأسرَّ فى أذنه كلاماً ، فدعا بى ، فسلمت وسلم القوم ، وقال لى ذلك الشيخ ، وعرفت أنه كبيرهم : هل علمت شرطنا ورضيت به ؟ قلت بلى يرحمك الله ! قال : إذن فاعلم أنك قد تُوجَّه إلى الوليمة فتقتحم على القوم طعامهم بلطف حيلتك وحسن مَدخَلك ، فكلْ ما شاء الله لك أن تأكل ، فاذا أصبت غفلةً من العيون ، فدس فى أطواء ثوبك كل ما يتهيأ لك دسه من اللحم والحلوى . وإذا وصلك رب الصنيع بمال قلَّ أو كثر ، فعليك أن تجىء بالمال وبالطعام ، فيقسم هذا وهذا بين الجماعة لكلٍّ سهم ، وللشيخ « يعنى نفسه » سهمان ، وهـذا شأن إخوانك جميعاً . قلت : أفعل

إن شاء الله ولا فضل لى فيه ، بل الفضل أجمعه إليكم ، وقاسمتهم على هذا ، فجعل الشيخ يعلّمني وينصَح لى بما لم أجد ما أحتاج معه إلى مزيد ، ثم دعا لى بخير

ولما نزلت الشمس للمغيب ، أَفرغوا على كل منا طيلسانًا وعمموه عمامة كبيرة ، وزودوه بما أمسى له به هيأة وسَمْت ، ثم جعل الشيخ يفرقنا فى ولائم الليلة ، وألزمنى رجلاً من الجماعة ليعرِّفنى الطريق ، ويُفرخ عنى ما عسى أن أجد أول الأمر من الهيبة والتحشم ، وليرينى كيف يكون التجمل لهذا الأمر والتلطف فيه

ومضَينا لوجهنا فأصبنا من فاخر الطعـــام ما شاء التطفيل أن نُصيب . ثم عدنا بما دسسنا من الطعام وما أفدنا من الدراهم إلى الجماعة ، حتى إذا عاد سائرهم ونَفَضوا ما حملوا ، تقسَّموه ، وأخذت قَسمى ، وادخرت فضل الطعام لغدى .

وما زلت على هذه الحال حتى عرفت خُطط بغداد ودروبها ، والمتبسطين على الطعام من أجوادها ، وتمت لى البراعة فى هذا الأمر ، وأصبحت لا أحتاج فيه إلى رديف ، فحسُنت حالى ، وكثُر المال فى يدى ، فاكتريت داراً لى أنام فيها ، وفيها أقضى وقت فراغى .

ثم بدا لى أن أبعث فى طلب أهلى وعيالى ، فما مِثلُ هذا العَيش عَيش ، ولا وراءَ ما أنا فيه من النعمة نعمة !

وذات عشيَّة أذَّن الشيخ فى القوم بأن لا ولائم الليلة فى المدينة ، فمن شاء قام إلى بيته . فبدا لى أن أتفرج صدراً من ليلى فى أرجاء بغداد ، وما برحت سائراً يُزلقنى طريق إلى طريق ، ويستدرجنى درب إلى درب ، حتى رأيتُنى فى ظاهر البلد ، وإذا عُرس يرد عليه الناس زرافات وشتَّى ، فاختلطت بهم ودخلت الدار معهم ، وآكلتهم وشاربتهم ، ونفحنى رب الصنيع بدينار ، فوسوس لى الشيطان أن أستأثر به ، وأكتُم صحبى أمرَ هذه الوليمة ، فما جاءتهم عيونهم عنها بخبر .

ومَضَيت إلى الجماعة من غدى ، فما رأونى حتى وقفوا صفاً ، وقد احمرَّت أَحداقهم ، ورجَفت شِفاههم ، وقال قائل منهم : أين كنت ليلة أمس ؟ قلت : طلبت دارى من ساعةِ فارقتكم ولازمتها حتى الساعة . فجذبنى أولهم إليه وشمَّ راحتى ، وقال بل كنت فى وليمة وأكلت (ديكاً رومياً) ، وصفعنى صفعة شديدة ودفعنى إلى الذى يَليه ، فشمَّ راحتى وقال : وأكلت بعده (بامياء مرصوصة) ، وصفعنى صفعة أطارت صوابى ، ودفعنى إلى الذى يليه ، فصنع صُنعه ، وقال : وأكلتَ (كستليته) مشوية ، وصفعنى صفعة كادت والله تسُلّ خَيط نخاعى ، وقال الرابع : وأكلتَ كيت ، وهكذا ما أخطأ ، والذى نفسى بيده ، واحدٌ منهم قط فيما تشمَّم وحزَر . ثم انتهيتُ إلى الشيخ المكفوف ، فشمَّ باطن يدى وقال : وأخذتَ ديناراً ! وصفعنى صفعة لو وُزن بها كل ما نالنى فى ليلتى لرجَحت به . وما زالوا بى صفعاً بالأكفّ ، وركلاً بالأرجل حتى ألقَوا بى فى ظاهر الدار لا أَعِى شيئاً !

سيداتى ، سادتى :

هذه نادرةٌ من نوادر الطفيليين ، إذا لم تكن وقعت كما رويت ، وكانت من تلفيق الخيال ، فهى ولا شك تُعطينا فكرة ، ولو تقريبية ، عن احتراف مهنة التطفيل ذلك العصرَ فى بغداد ، ومهارة أصحابه فيه .

ولولا انقضاء الوقت المقسوم لى لحدثتكم عن بعض من شَهِدنا من الطفيليين فى العصر الحديث ، وأعنى أولئك الذين انقرضوا بانقراض ما يدعوه المصريون (بالأفراح) . ثم أخذنا بالحديث عن المتطفلين فى الوقت الحاضر ، أعنى الطفيليين (المودرن) .

ولعل لنـا إلى هؤلاء وهؤلاء كرّة إن شاء الله .

التَّطفيـلُ والطفيليُّون*

فى الجيل المـاضى

كنتُ قد أذعتُ من محطة الرديو فى شهر أغسطس من سنة ١٩٣٤ حديثًا عن التطفيل وقُدامَى الطفيليين . وأوردتُ فيـه طائفة من مُلَحهم ونوادرهم ، وما قيل فيهم ، وما قالوا هم فى أنفسهم ، ومواتاة بداءتهم فى لُطف احتجاجِهم لاقتحامهم على الناس موائدَهم ، وتهافتهم على طعامهم من غير دعوة إليه . وتعرضهم فى هذا لألوان المكروه من الشَّتم والسَّبّ ، والطَّرد والضَّرب الخ .

ووعدتُ فى غاية الحديث أن أُجرِّد « محاضرة » للطفيليين فى الجيل الماضى . وقد عَنَيتُ الطفيليين المحترفين ، وهؤلاء قد انقرضوا وخَلاَ وجهُ مصر منهم ، بذهاب العادة التى كانت شائعةً فى هذه البلاد إلى زمنٍ قريب . وهى إقامة الأعراس (الأفراح) وما إليها مما كان المصريون يَتنافسون فيه ، ويَتكاثرون به فى المناسبات المختلفة من نحو العَودة من الحجّ ، وخِتان الولد ، وولادة البكر من البنين وغير ذلك .

وكانوا يَدْعُون بالمغنِّين ومشهورى قُرّاء القرءآن العظيم ، ومرتِّلى مولد النبىّ الأكرم ، صلى الله عليه وسلم . كلٌّ على قدر حاله وجُهد ثروته . فمنهم من يَدعون بالمرحوم عبده افندى الحامولى ، أو المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوى ، أو يَدعونهما معًا . وهؤلاء خاصَّةُ الخاصَّة من طبقة (الذوات) . أما المرحوم محمد افندى عثمان فكان من قَسْم أوساط الناس ، حيث لا يُقام على سرادقاتهم حَرسٌ ولا حجَّاب ، ولا شُرَط يدفعون الناس عن الأبواب . وبهذا كان عثمان مُغنِّى الشعب حقًّا . وما تقوله فيه تُجريه على المرحومين : محمد افندي سالم ،

* نشرت فى صحيفة (الدنيا) سنة ١٩٣٧

والشيخ محمد الشنتورى ، وإبراهيم افندى القبأنى . وأحمد افندى فريد ، والسيد احمد صابر . وكانت طبقة (أولاد البلد) القُحّ ، وأعنى بهم طائفةَ المقدَّمين ، ورؤساء الصنَّاع (المعلمين) ، وَمهرتَهم لا يَعدِلون بالسيد أحمد صابر مغنِّياً آخر .

ولقد كان لهذا الرجل فى غِنائه أُسلوبٌ خاصٌّ به ، لا يذهب به مذهب عبده ولا عثمان ، ولا من يقلدون هذا ، ولا من يَتشعَّبون طريق ذاك . هو أُسلوبٌ بلدىٌّ بَحت ، يتفخَّم فيه اللفظ ، حتى تشتبه تاؤُه بطائه ، وتَختلط سينُه بصاده . ويَمتدُّ فيه النَّفَس ويَطول الصوت ، وهو فى طريقه ما يزال يَرِقّ فى زجله وترجيعه ، ويَلين فى ترديده وتسجيعه . ويتخافت حتى تحسبه هُتاف الهاتف يَهمس به جانبُ الوادى البعيدُ فى الليل البهيم . ثم يُجلجِل ويَقصِف كأنه النَّفير أقبل يوقظ النِّيَام ، ويُنذرهم الحادثَ الجُسام !

وكيفما كان الأمر ، فان صابراً كان أقدرَ المغنِّين على مشايعة أحاسيس هؤلاء (أولاد البلد) ، وتحريك الوادع المستلقِى من عواطفهم . وكثرتُهم ، كما تعلم أو لا تعلم ، كانت من أرباب (الكيوف) ! .

وكانت الصحفُ السائرةُ فى البلد قليلاً ، ومطالعتُها تكاد تكون حَبْساً على الخاصَّة . وفوقَ هذا فليس الناسُ كلُّهم يُعلنون فى الصّحف عن أعراسهم ولا عمن يغنِّى مَدعوِّيهم . فكان يقوم بمهمة النَّشر هذه (باعةُ اللبِّ) . ينتشرون من مطلع النهار فى أحياء القاهرة ، فيؤذنون فيمن يعرفونهم من هواة الغِناء والتَّطريب ، أن الشيخ يوسف الليلةَ فى دار فلان بجىء كذا ، ومحمد عثمان فى دار فلان بجىء كذا الخ . وسَرعان ما تَذيع هذه الأخبار ، فلا يدخل الأَصيلُ إلاَّ وقد مَلأَت جميعَ الأَسماع .

وكان الهواةُ إنما يَطلبون هذه (الأفراح) ، كلٌّ على حسبِ هواه وصَفْوه ، بعد العِشاء الآخرة . أى بعد أن تُرفع موائد الطَّعام ويَنتظم مجلس الغِناء . أما قبل ذلك فلا يَغشَى موضعَ الصَّنيع إلاَّ المدعوُّون وإلاَّ الطفيليون

وهؤلاء الطفيليون كانوا معروفين للنَّقَدة سواء من أصحاب الصُّنُع[1] أو من المدعوين . من لم يُعرَف منهم بحِليته ونسبه عُرف بسيماه ودَلّه : أما جماعاتُ الفراشين ، فكانوا يعرفونهم جميعاً ، لكثرة اختلافهم إلى الموائد ، وتردُّدهم على الطعام فى الأَعراس والمواسم . وكثيراً ما يَدلُّون أصحاب الصنيع عليهم ، ويَلفتونهم إلى مواضعهم .

وهنا ينبغى أن أقول لك : إن (أولاد البلد) تَشيع فيهم خَلةُ الجود بالطعام ، فتراهم ، حيثما كانوا ، يَدعون إليه ، ويتبسَّطون عليه . يَدعون إليه (ولو تجملاً) ساقطَ الآفاق ، واللائحَ فى عُرض الطريق . وقد يُلحُّون فى الدعوة وقد يَعزِمون[2] .

إذا عَرَفت هذا وقَرَنت إليه تلك الخَلَّة التى هى مزجٌ من الخجل والضَّعف — أدركتَ أن هؤلاء الطفيليين ، أو (الطَّبَّابين) ، على اصطلاح (أولاد البلد) أنفسهم ، لم يكونوا يجدون مشقةً فى غِشيان صُنُعهم ، والاقتحام على موائدهم على وجه عام . ولكن المشقة كلها عليهم ، والحَرَج أجمعه على أصحاب العُرس ، هو فى أن يتسلَّل هؤلاء (الطبابون) إلى الموائد الخاصَّة التى أُعدَّت لجباه القوم وأعيانهم .

وفاتنى أن أذكر لك أن الطَّعام كان يُقرَّب على أخونة (صوانى) متعددة ، يُرصُّ حولَ كل واحدٍ منها من ثمانية نفر إلى اثنىعشر . وتختلف ألوانُها باختلاف درجات المدعوين . وأفخرُها ما يُصدَّر بالحَمَل (القوزى) ، أو (الديك الرومى) ، ويُسلَك فيه الحمامُ والفراريجُ وأطايبُ اللحم تُطهى على أشكال . وتُقرَّب

---

(١) الصنع بضمتين : جمع صنيع وهو الطعام (٢) يعزمون : يحلفون

(المسَّبكات) من ألوان الخُضر . ويُستكثَر فيه من صنوف الحلوى . ويُخصّ أخيراً بالفاكهة . ودون هذا ما يُصدَّر بالضِّلع ، وهكذا إلى أن تقتصر مطالعُ الموائد على المُزعة من اللحم . لا يَملؤ نصيبُ الآكل منها الكفَّ ولا يَنتفخ به الشدق . وهذه الموائد المعدودة لعامّة الناس .

وهنا يَشجُر الخلافُ بين (الطَّبَّاب) و بين صاحب الصنيع . فهذا (الطَّبَّاب) لا يَنحدِر طرفُه ولا يتقاصر همُّ بطنـه عن أفخر الطعام وأدسمه وأجزله ما عرف موضعَه ، ودنا محله . وعليه يَسيل لُعابه ، وله تَتفتَّح لَهَوتُه . وإليه تَهيج شهوةُ بطنه . فكيف الصبرُ عنه ، وكيف الرِّضا بما دونَه ؟

أما صاحبُ الصَّنيع ، فإنما احتفل للمائدة ما احتَفَل ، و بذل فى التأنُّق فى الطعام ما بَذَل ، إيثاراً لمن (شرَّفوه) من أصحاب الوجاهة والمنزلة فى الناس بالجاه والمنصِب ، ومبالغـةً فى إكرامهم ، واستخراج الإعجاب والثناء منهم ، فهو ، بالضرورة ، يَكره أن يُدسّ بينهم من لا يشاكل أقدارهم ، ولا يُطاول أخطارَهم . فكيف بمن خَلَق ثوبُه ، وشاه سَمتُه . وهان موضعه ، وكيف به ، فوق هذا ، إذا ملكه النهَم ، وغلب عليه القَرَم[1] ، فاطَّرح التحشُّم ، وجَعَل يُقبِّح فى أكله ، ويَعطو بكلتا راحتيه ، ويصول فى باطن الصفحة بجميع يده ، ويزدرد الطعام ازدراداً ، ويَلتقِمه التقاماً ، حتى لا يكاد يَمَسّ فكّه ، أو يصافح ضِرسه ، بل إنه ليمرّ مرَّ البرق على شِدقِه ، فى مَهواه إلى حَلقِه !

ويثور ثائر رب الدار إذا رأى (الطَّبَّاب) دسيساً على خاصَّة المدعوين . سواء أمعنوا في الطعام ، أم كانوا فى انتظار الطعام . فسَرعان ما ينصَبّ عليه ، ويَجذبه بضبعيه . وربما زمَّ عُنقه بكلتا يديه . ثم جعل يجرّه جرًّا . إذ الرجل قد

---

(١) القرم بفتحتين : شدة الشهوة إلى اللحم .

أرسخ رجلَه على الأرض ، أو لفَّ ساقه على رجل دَكة أو نَضَد[١] ، وتشبثت يداه بكرسى ثقيل أو بعِضادة باب . و بطنُه ، أثناء ذلك ، يرتفع مع أيدى الآكلين ويَهبط ، ويَنقبض مع راحِهم ويَنبسِط . حتى إذا جُهد برب الدار استنفر لزحزحته الأهلَ والخدمَ والفراشين . فلا يزالون به دفعاً ولكزاً بالأيدى ، وركلاً بالأرجل ، وهو يقاوم ويجاهد ، حتى إذا خارت قوتُه ، وانخذل متنُه ، ونَفِد جهدُه . حملوه فألقوه فى ظاهر الباب ، أو نفضوه عن ساحة العُرس نفضَ التراب . فلا يلبَث أن يَجمع شملَه ، ويتسلَّل فى لباقة وخِفة . ويَرتصِد للمائدة نفسها ، فاذا أصاب غِرة من أهل الدار ، عاد فانصبَّ عليها ، وإلاَّ عَدَل إلى مائدة أخرى تكافِئها أو تقلّ يسيراً عنها . وربما عاوده أولياء العُرس بالطَّرد والضرب ، فلا يَثنيه ذلك عن المعاودة وهكذا . وكأنه فى شأنه هذا يتمثَّل بقول الشاعر بعد أن وجَّه الكلامَ فيه على البطن بدل النفس :

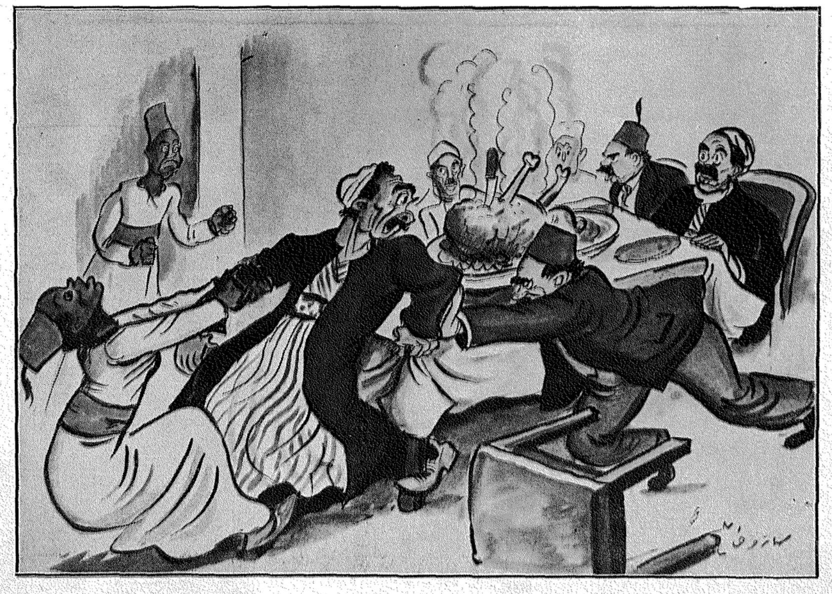
لأبلغَ عُذراً أو أُصيبَ غَنيمةً ومُبلِغ (بَطنٍ) عُذرَه منكَ مُنجحُ !

*
* *

و (الطَّباب) وقاك الله شَرَّ البِطنة ، لا يَقنع بالوَجبة على المائدة . بل إنه ما يكاد يرفع يدَه عن غاية الطعام ، حتى يهرول فى التماس مائدة أخرى فى العُرس نفسه ، أو فى عُرس غيره ، من حيث قدَّر يُسر المَدْخَل ، وغفلة الأعين ، وجودةَ الطعام ، حتى لقد يوالى بين ستٍّ وَجباتٍ أو سبعٍ فى ليلةٍ واحدة ، ما يُثقِله بَشَم[٢] ، ولا تُرهِقه كِظَّة ولا يَضيق له كظَم[٣] . كأن معدته نُحتَت من حجر أو قُدَّت من حديد . وحق فيها : « يومَ نَقولُ لجهنَّم هل امتلأتِ وتقولُ هل من مَزيد » ؟! . .

(١) النضد بفتحتين : المراد به ما يدعى فى العامية (الترابيزة) .

(٢) البشم بفتحتين : التخمة (٣) الكظة بكسر الكاف وتشديد الظاء : ما يعترى الانسان من الضيق عند الامتلاء من الطعام . والكظم بفتحتين : مخرج النفَس .



ألا فى سبيل (البطن) ! ...

ثم إنه لا يكتفى بكل ما يدسّ فى جوفه ، ويَقذِف فى بطنه . بل إنه لدائبٌ جاهدٌ ، ما أصاب الغِرّة وأَمِن الرِّقبة ، فى أن يدُسّ فى جيبه كل ما تيسّر له من اللُّحمان والمحاشى والحلوَى والفاكهة . وقد يراه على هذا بعضُ مؤاكليه فلا يتعرّضون له من رحمة أو من حياء ! .

*
* *

و بعــد ، فهذا كان شأنَ عامة الطفيليّين أو (الطَّبَّأبين) فى الجيل الماضى . على أنه كان لخاصّتهم شأنٌ لعله أكرمُ من هذا الشأن ، فاذا تحرّيت الدِّقّة فى التعبير قلت لعله أقلُّ هوانًا ، وأضعفُ امتهانًا .

وفى (الطَّبَّأبين) أيضًا خاصَّة ، كما فى سائر طبقات النـــاس خاصَّة . وخاصَّةُ (الطَّبابين) هم جباهُهم وعُرفاؤهم وسراتُهم. وناهَيك بالنديم ، الظريف ، المحاضر ، السَّرىّ ، الوجيه ، الجميل السَّمْت والفاخر البزَّة ، المرحوم الشيخ حسن غَندَر . والشيخ حسن غَندَر حقيقٌ بأن يُؤثَر وحدَه بمقالٍ طويل ، فللرجل فى مفاخر التطفيل تاريخٌ حفيل .

الباعة الجوالون
ومساحو الأحذية*

سيداتى ، سادتى :

لعلكم كنتم تتوقعون منى الليلة أن أُتمّ لكم حديث الأسبوع الماضى ، بل لقد استحثّنى على هـذا كثيرٌ ممن لهم فِتيانٌ ما بَرِحوا فى مطلع الشباب . ولكننى ، والحمد لله أكره الأَثَرَةَ لنفسى ، ولا أحبها فى غيرى . وذلك الحديثُ فوقَ ما فيه من جَفاف أو ما يُشبه الجَفاف ، فانه مما يَعنِى مباشرةً طبقةً خاصةً من الناس . و إننى لم أَنسَ وعدى لكم أن أُداول بين فنون الأحاديث ، ففى التلوين والتغيير ، كما قلت ، راحة واستجمام . وأَعِدكم وعداً صادقاً أن أُتمّ ذلك الحديثَ فى نَوبة أُخرى إن شاء الله .

سأُحاضركم الليلةَ فى موضوعٍ لا يمكن أن يَرِد لأحد منكم على خاطر . و إنى لَأتحدّى من شاء منكم أن يحزر ، فان أصاب فله عندى عشرة جنيهات إزاء جنيه واحد إذا أخطأه الحظّ ، وهو مخطئه لا محالة .

سيداتى ، سادتى :

لقد تحدّيتكم جميعاً ، وتعرّضت لمخاطرة من شاء منكم ، فى حين لا أعهد فى نفسى بعضَ هذه الجرأة . وليس من عادتى المخاطرةُ أبداً . والواقع أنه لم يَبعثنى على هذا ويُشجّعنى عليه إلا أننى أتناول موضوعاً لا يمكن أن يخطر ببال أحد ، لأنه من التَّفَه والسخف فى الحضيض الأوهَد . وأنا واثقٌ بأنى حين أُباديكم بعنوان هذا الموضوع سيأخذكم العَجَب ، ويَتملككم الدهَش .

---

* أذيعت بالراديو فى ١٤ يوليه سنة ١٩٣٤ ، ونشرت « بالجهاد » بعد ذلك

أى والله يا سادة ، إنى لمحدثكم الليلة عن الباعين (السريحة) ، وعن (البويجية) وكنت والله أحب أن أقرن بهاتين الطائفتين ثالثةَ الأثافى ، ألا وهى طائفة سادتنا الشحاذين . ولكن الوقت أضيق من أن يحتمل هذا كلَّه ، فللسادة الشحاذين وحدَهم حديثٌ طويل . ولعلنا نُلمّ به فى فرصة أخرى ، إذا أذنوا هم لنا بساعة من النهار أو الليل واحدة ، نتدبَّر فيها أمرَهم ، ونتقصَّى بعضَ سعيهم .

إذن سأحدثكم الليلة عن الباعة المترقّين بأبدانهم، المضطربين فى السبل بيباعاتهم

سيداتى ، سادتى :

أرجو ألاَّ تتابعوا أوهامَكم ، فهى ولا شك ، تَكذِبكم إذا مثُلت لكم هذا الموضوع بهذا المكان من التفه والسخف ، وإنى لأزعم أنها مسألة ذات خطر كبير ، بل لقد أستطيع أن أزعم أنها من مشاكلنا الاجتماعية التى ينبغى أن تَتظاهر الجهودُ على حلها و تَولِّيها بالعلاج . كلُّنا يفكِّر فى غلاء القمح ، وكلُّنا يتدبر فى هبوط أَسعار القطن . وكلُّنا يجزع إذا عَرَض الحديث فى أزمة الديون العَقارية ، وكلُّنا مشغول بكيت وكيت من المشكلات التى تَسْتهلك تفكيرَنا وجهدَنا ، وتَفيض بها الأنهارُ الطِّوال فى صحفنا . مع أن تلك الأزمات مهما بلغ من بعيد أثرها وعظيم ضررها ، فإنها وقتية سيحُلها الزمان إذا لم تحُلها جهود العاملين . أما هذه فالقضاء الحتمُ علينا أبدَ الآبدين ، ودَهرَ الداهرين ، إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها وهو خيرُ الوارثين !

البدارَ البِدار ! النجدةَ النجدة ! يا مفكرى الأمة ، يا جماعة العاملين فيها ، يا معشر المتحدِّثين عليها : هيا هيا أنقذوا البلاد ، وأريحوا العباد . فقد بلغ السيلُ الزُّبى ، وجاوز الحِزام الطُّبْيَين !

اللهم ارفع مقتَك وغضبَك عنا . لقد كُتِب على سكان المدن فى هذه البلاد الحرْمانُ الأبدىُّ السَّرْمدىُّ من الراحة والدَّعة ، والأمن على الأموال والأعصاب .

أَنِّى جلست فأذى ، وأنِّى سعيت فكَيد ، وأَنِّى اضطربت فعَناء ، وأَنِّى توجهت فبلاء فوقَه بلاء وتحتَه بلاء !

تهافُتٌ مستمرّ ، وإلحاح لا ينقطع ، وشُخوص متواردة متتابعة متتالية ، لا يكاد ينفُذ بينها الهواء ، وأصوات منكَرة عالية لا تَسكن ولا تفتُر ، ولا تَرِقّ ولا تهدأ ، وكذب لا تَعتريه مَذْقةٌ من الصدق أبداً ، وأَيْمان كلها غَموس ، لولا حِلم الله وإمهاله لأُعميت العيون ، وصمت الآذان ، وبترت السوق ، وقصمت الظهور ، وجدعت الأنوف ، وعجلت مواقع الحتوف .

ولنتكلم عن الباعة أولاً ، ولنبدأ من حديثهم بخراب الذمة ، والغش وقلة الحياء . أستغفر الله بل انعدام الحياء . أما الغشّ ، والكذب ، والحَلف بالباطل ، فهذه خَلَّة مشترَكةٌ بينهم جميعًا لم أر فى حياتى من سلم منها إلى الآن : يَعرض الواحد منهم عليك السِّلعة ، فتسأله ثمنَها . فيجيبك بأنه ريال مثلاً . فتَعمِد إلى مقابلة الكَيد بالكَيد ، فتَعرض عليه فيها أربعة قروش ، فيُظهر لك الغيظ والسخط على هذا الوَكس ، فتُصرّ فيحلف بالطلاق والعتاق ، وبالعين والعافية ، والولد (ولاَّ يعدمه) ، وينذر الحج إلى بيت الله ماشيًا . أنها (واقفة عليه) فى الجملة بثمانية عشر قرشًا صاغًا . فهو يبيعها لك برأس المال ؛ لأنك (مش غريب) ، وهو (لسَّه ما استفتحش) ! فتصمم، فيَعرض ستة عشر ، ثم يتدلَّى إلى أربعة عشر ، ثم إلى عشرة . ثم يُنذرك الإنذار الأخير بأنه لن يبيعها بما دُونَ الثمانية . فتُشيح عنه بوجهك ، فيوَلِّى مسرعًا حتى يغيب عن نظرك ، ما لم تبادر فتتبعه بندائك . ثم ما يلبث أن يعود فيقول لك : (وبستة ما تخدش) ؟ فتسكت ، فيقول لك : (طيب عاوز كام واحدة) ؟ وهكذا يأبَى كلُّ واحد منهم إلا أن يحقِّق فى كل لحظة قول الشاعر :

وأَكذَبُ ما يكون أبو المثَنَّى ... إذا آلَى يمينًا بالطَّـلاقِ

ثم إنهُ يُغش غشًّا مفضوحًا قذراً . وقد يغُش (زبوناً من زبائنه) الثابتين الذين يعاملونهُ فيُجدُون عليه كل يوم . وقد يكون هذا الغشّ في نوع البضاعة ، كأن يبدل سِلعة بأخرى فى أثناء غدوِّه بالمساومة ورواحه ، أو أن يُصيب الغِرَّة من المشترى فيدسّ له الفاسد العطِب ، أو أن يؤكد له أن صديقه فلاناً اشترى بسعر كذا كذباً وبُهتاناً ، وهو يعلم أنهُ ملاقيه فى غَدِه إن لم يَلقَه فى يومه ، وقد لا يزيد الخطب كلُّه على دراهم قليلة . ثم يكون من أثر هذا الانتفاع الحقير المحرم أن يَخسرك ويَخسر معك كلَّ جلسائك بالاختفاء عن مجلسك الشهورَ الطِّوال ، بل السنينَ ذاتَ العدد .

وأنا مُسمِعكم نَموذَجًا مما جرى لى من هذا القبيل ، وأقول نَموذجًا لأن هذه أشياء لا يدركها عدّ ، ولا يحيط بها حَصر :

(وهنا أورد المحاضر طائفة من النوادر العجيبة التى وقعت له مع هؤلاء الباعة)

*
* *

أما قلّة الذوق فحدث عنها ولا حرج : يراك أحدُهم وأنت تتناول طعامك فى أفخر مطعم ، وبين يديك أشهى الأطعمة ، فيمدّ يديه من الشباك ، (بالبنيكة) التى يحمل عليها بياعتَه ، حتى يحكّ بها ذقنك . ويصيح فى وجهك : (البيض والجبنة والكحك الشامى) ! آمنت بالله ! . وقد تكون فى جماعة من أصدقائك فى مكان محجوز من محل عامّ ، وقد تكونون منهمكين فى أدق الحديث ، وقد حَمِىَ بينكم الجدل واشتدّ . وقد يكون معكم من يغنّيكم بالصوت الكريم الحنَّان ، وقد أرهفتم آذانكم وعلَّقتم أنفاسكم ، وجمعتم كلَّ إحساسكم للسمع . فلا يروعكم إلاَّ عُتُلٌّ يقتحم عليكم المجلس ، ويَظَل يصيح : (الفستق الحموى ، الفستق الطازة !) . فلا يسع المتحدِّثَ إلاّ أن يَسكت ، والشَّادى إلاَّ أن يقطع الغِناء ، ولكنه هو

لا ينقطع عن الصِّياح والنداء . ويرى هذا كله فلا يُمسك ، ولا تُخجله تلك النظرات الشَّزْراء . ولكن ما الحيلة ، والعين بصيرة ، والرجل قصيرة !

وثالث يراك منهمكاً فى طعامك ، والدُّهن يسيل من يديك كلتيهما ، فيمدّ يده بورقة (اليانصيب) حتى تحول بينك وبين طعامك ، وحتى تكاد إصبعه تفقأ العين : (آدى اللى فضلت ، السحب النهارده ، اللى تكسب ميتين جنيه !) يا سيدى أنا عائذ بالنبىّ ! وكيف لى بأن أدسّ يدى فى جَيبى ، وهى على هذه الحال ، لأستخرج الثمن ؟

* * *

وعلى ذكر (اليانصيب) أذكر لكم أننى كلَّ يوم فى مَغداىَ ومَرَاحى أشهد عِملاقاً صَعيدياً ، تكاد مساحتُه تُقاس (بالقصَبة) طولاً وعرضاً . يستطيع وحدَه أن يَشقّ مصرفاً ويُطهّر تُرعة . وقد أوتى قفاً يتحيَّر النظرُ فى ضواحيه . ما رأيتُه مَرَّةً إلا أَحسستُ كفِّى تُنازِعنى إليه ! لو أَلَّف من نفسه فقط (منسراً) لقطع الطريقَ بين القاهرة والأقصر ، وأصبحنا لا نبلغ أُسوان ، إلاَّ عن طريق بورسودان . ولو أن الهر هتلر استولى عليه لكفاه كلَّ من يحذَر من خصوم حكمه ، ووفّر عليه العَناء فى تأليف فِرَقٍ للهجوم وأُخرَى للدفاع ، وأعفاه من المؤونة فى القمصان الزرقاء والحمراء !

أتعرفون بماذا (يسرح) هذا الكونُ العظيمُ عامَّةَ نهاره ؟

إنه يجول كلُّه بثلاث ورقات (يانصيب) : إحداها (إسلام) ، والثانية (رومى) ، والثالثة لا أدرى !

أرأيتم كيداً أشدَّ من هذا الكيد ، وبلاءً يَعدِل كلَّ هذا البلاء ؟

سيداتى ، سادتى :

بحسبنا اليومَ هذا القَدرُ فى جماعات الباعة المضطربين ببياعاتهم فى الطرق . ولنَعدِل الآن إلى طائفة ، ماسحى الأحذية ، وما أدراكم ما ماسِحو الأحذية ؟ ولا جزَى اللهُ خيراً ذلكم الذى اخترع هذه الأحذية الأفرنجية ، حتى أغرتنا بأن نَستبدل بها نعالنا البلدية . أعني (المراكيب) الحُمر .

ورعى الله أيامَ (المراكيب) الحُمر وأيامَ قَصَبة رضوان ، ولو بَقِيت لأغنتنا عن رؤية تلك الوجوه فى هذا الزمان !

(وهنا أورد المحاضر طائفةً مما وقع له من النوادر مع ماسحى الأحذية ، وبها انتهت المحاضرة)

إلحاح ! . . .*

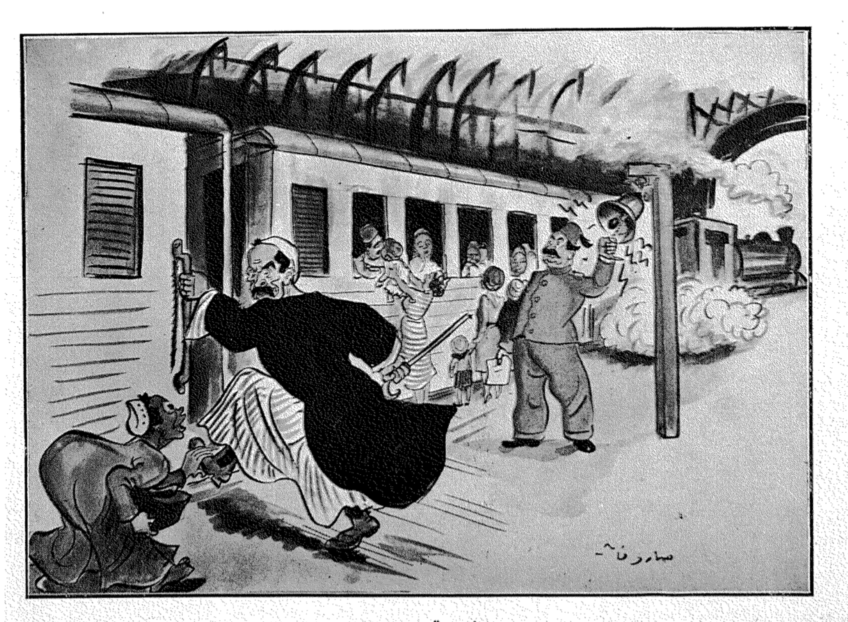
لا أحسب أن الله تعالى بَعث خَلقاً من خَلقه أشدَّ إلحاحاً من حمّالى (شيّالى) محطة منيا القمح . ولا أشدَّ إلحافاً من ماسحى الأحذية فى منيا القمح . تكون فى المحطة صاعداً أو هابطاً . مسافراً أو مودِّعاً أو مرتاضاً . فيتهافت عليك من أولئك الحمالين من لا يُحصَون كثرة : هذا يحمل الخريطة (الشنطة) الكبيرة . وهذا يحمل الخريطة الصغيرة . وهذا ينتزع منك المعطف (البالطو) ، وهذا يسُلّ منك الشمسيَّة . فان لم تكن فالعصا الخ . فان لم يكن معك شىء من ذلك تَحككّوا بك وجسُّوا بأكتافهم صدرك وجانبيك معاً . فَعلةَ خفيَّةٍ (بوليس سرى) يرتاب فى أنك تدُسّ فى مطاوى الثياب (كوكايين) أو هاروين . لعلهم يُصيبون (محفظة جيب) فيحملوها عنك إلى القِطار حملاً . فاذا أَيِسوا من هذه الناحية أيضاً، سألوك أن(يقطعوا لك التذكرة) ، فاذا أسعدك الحظ وكانت معك (تذكرة) ذهاب وإياب ، سبقك اثنان منهم ففتحا لك باب المركبة ووقفا على طريقك فى انتظار (الأجرة) ! .

أما ماسحو الأحذية هناك . فهم أَشْرهُ وأَطبع ، وهم أنكى وأوجع . لقد تضع رجلَك اليمنَى على سُلم القِطار ، والقِطار على جَناح السير . وتتعلَّق يداك بمقابض الباب ، وتتهيأ لِرفع رجلك اليسرى . وفى هذه اللحظة يَلكُز المسّاحُ ساقَك اليمنَى بصُندوقه ، ويهيب بك (بويه) !!!

فاذا جرَى عليك القدَر بالجلوس إلى المقهى القائم بازاء المحطة فى انتظار صديق مواعدك أو مركبة توافيك ، فاللهم اشهد قسوة الإنسان على الإنسان : يَثِب إليك

---

* نشرت فى « السياسة » فى سنة ١٩٢٥ تحت عنوان (ليالى رمضان)



بُويَــة !....

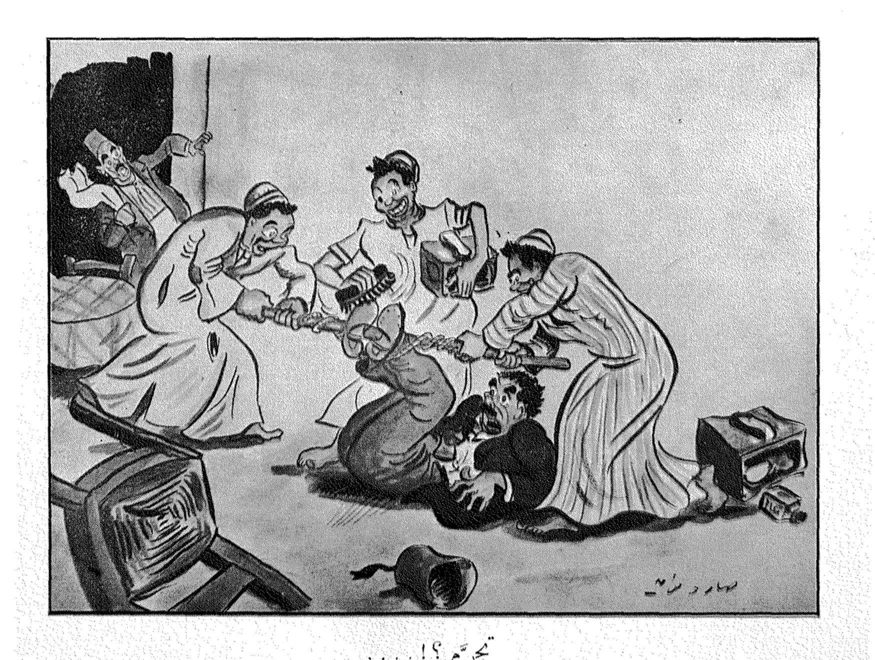
(البويجى) إذ أنت لم تأخذ بعدُ قرارَك ، فيطوّح فى وجهك بصندوقه حتى يَمسّ أحيانًا أرنبةَ أنفك . فتعتذر إليه فلا يُسيغ لك عذراً . وتتشفَّع إليه فلا يَقبل فى نَعلك شفاعة . بل إنه ليجلس على الأرض ويَجذب ، برغمك ، رجلَك . فاذا ركَلْته بها جذب الثانية . فاذا أنت بين اثنتين لا ثالثة لهما : إما الرضا بهذه (المسحة) ، وإما الانتهاء إلى (المركز) فى جناية أو جنحة ! .

وقد اتَّصل بى أخيراً والعُهدةُ على الراوى ، لا علىَّ أنا ، أن مسّاحى الأحذية فى منيا القمح قد ألَّفوا هم الآخرون من بينهم فِرَقًا . كل فرقة ثلاثة : اثنان منهم يَحملان (فَلَقة) ، فاذا وقع للمقهى إنسان ، أسرعا (فمدّاه) ، وأقبل الثالث يمسح له الحذاء . وكان هذا لِزائر منيا القمح نعم الجزاء !

يا لطيف ! *

تعلم أن رمضان يقظانُ الليل نائمُ النهار . يجمُد الناس وتفتر الحركة فى نهاره . ويسهرون ليلَه . ويقضونه فى وجوه السَّمَر . ولهذا تؤخِّر الحكومة مواعيد افتتاح الدواوين والمصالح والمحاكم والمدارس . ولهذا تعطَّل المعاهد الدينية طَوال الشهر المبارك . لأنه إذا كان قُدر على الناس أن يَسهروا عامَّة ليلهم فى رمضان ، فليس من المستطاع أن يَنشَطوا فى الصباح الباكر لقضاء مصالحهم ومعالجة أسبابهم . على أنك ، فوق هذا ، تجد سائر الأعمال جامدةً راكدةً فى نهار رمضان ، بحكم صيام الصائمين ، واختلال أمزجتهم ، وفتور أعضائهم من جهة . وبحكم قضاء الليل فى السهر ، وحاجة الناس إلى التزوُّد من النوم فى النهار من جهة أخرى . إلاَّ أن إخواننا الباعة وسادتنا الشحاذين لم يسلموا إلى الآن بقضاء الله ، ولا بقضاء الطبيعة ، ولا بقضاء العادة ، ولا بقضاء الحكومة ، ولا بقضاء أمزجة الناس . وإنك لتَقضى ليلَك كلَّه فى السهر إلى الساعة الثالثة بعد نصف الليل أو الرابعة أو الخامسة، ويكون من حق الطبيعة، ومن حقِّ بدنك عليك، ومن حقِّ العمل الذى تُعالجه أن تنام ، على الأقلّ ، إلى الساعة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . وإلا انهدَّ جسمُك ، واختلَّت أعصابك ، وفسد عليك شأنُك كلُّه . فتصوَّر يا سيدى أنك نمت خِلَلَ تلك الساعات . فلم يرُعْك إلاَّ النداء القوى المزعج يَبعثك من أحلَى رقداتك فى الساعة السادسة : « ونبيِّض النّحاس . ونبيِّض النّحاس » ! أو : « البدارَى السمان » ! أو غير ذلك مما يَحمله أولئك الباعة المترفِّقون بأبدانهم المضطربون بسِلَعهم . وإنى لَأسمع صرخةَ الرجل منهم فأجزم بأنه لا يَعرِض سلعتَه على أهل الأرض ، ولكنه إنما يعرضها على سكان الملأ الأعلى ، حتى إنك

* نشرت فى جريدة « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)



تحرّم ؟! . . . .

لتكون فى ضجعتك الهانئة بعد قضاء ليلك الأطول ، فاذا بك قد هَبَبت من نومك وأنت تظن أن الحرب قد نَشِبت ، أو أن النار قد أكلت أثاثَ بيتك ، أو أن سقوف الدار قد خرَّت على عيالك . فاذا الخطبُ كلُّه أن بائعًا ينادى « البدارى السمان » أو أن شحاذاً يصيح : « من فطَّر صايم له أجر دايم هنيًّالك يا فاعل الخير » . والناس إنما يشترون صِغار الفراريج ليَطهوها لإفطارهم إذا نزلت الشمس للمغيب . ولا أدرى لماذا يشترونها فى فجر يومهم ، اللهم إلاَّ أن يكون قد دخل فى وهم أولئك الباعة أنها ستكبَر عند (الزباين) وتَسمن ، حتى إذا دخل وقت الغروب استحالت (عتاقى) وأمست (بيجاوى) .

*
* *

أما أَمر الشحاذين فأعجب وأغرب « من فطَّر صايم له أجر دايم الخ » وذلك من منتصف الساعة السادسة صباحًا . أى أنَّ على الأمة أن تَسهر، بحكم طبيعة رمضان ، إلى الساعة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة صباحًا . ولكن عليها فى الوقت نفسه أن تهُبَّ من منتصف الساعة السادسة ، وتشمّر عن سواعدها ، وتَنشَط فى « تقشير البصل » ، و إنضاج « التقلية » ، وخرط « الملوخية » ، و « تقميع البامية » ، و « تحمير البطاطس » ، و « فلفة الأرز » و « دقّ الكفته » و « تسوية الكنافة » ، و « قَلى السمك البربون » ، و « نقع الخشاف » للسادة الشحاذين !

نعم يجب على الأمة كلها أن تنتر أيديها من كل عمل إلاَّ ما يجب عليها من معالجة الطعام وتهيئته لسادتها الشحاذين . حتى إذا حان وقت الأفطار قرَّبت إليهم كلَّ ما ساغ من لحوم طرية ، وأطعمة شهية ، وفواكه جنيّة !

وبعد فإن على الحكومة أن تختار بين أمرين : إما منع الشحاذين وحسم الباعة من أن يصيحوا ويهتفوا فى رمضان قبل الساعة التاسعة ، على الأقل ، حتى تستطيع الأُمة أن تريح بدنها وتَستجمّ لأعمالها . وإما أن تأمر بإلغاء شهر رمضان بتاتاً ، لتوفر الأُمة جهودها على الباعة والشحاذين ، بحيث (تنخمد) من الساعة التاسعة مساء ليتهيأ لها أن تهُبَّ من الفجر (لتشترى البدارى السمان) ، أو (لتبيِّض النحاس) ، ولتهيئ أشهى الطعام وأجنى الفاكهة لسادتها (الشحاذين) . وعلى الحكومة السلام ، وعلى الأُمة هجر المنام وترك الصيام !

الشَّحاذون ... !*

لا أعرف أن الدنيا تجمع طائفةً من الناس أشدَّ أثَرَة ، ولا أورَمَ أنوفاً ، ولا أعظم غروراً ، ولا أبلغ تَتايهاً على صرف الأيام من سادتنا الشحاذين المصريين !.
وأقول سادتنا الشحاذين لا على حكم التأدب ولا على جهة التهكم ، كما يتبادر إلى ذهنك باديءَ الرأى ؛ بل لأنه الحق الذى لا شك فيه . فهم سادتنا حقاً ، ونحن مواليهم حقاً . فان كان ما زال يختلج فى نفسك الرَّيب ، فاسمع هذه القصة :

من يوم نَجَمْت وجَرَت علىَّ تكاليف العيش ، وأنا أُحيي ليالى رمضان بالسهر إلى السحور ؛ وإلى أن يَنجلى عمود الصبح ، أسمع القرءان الكريم فى دار أبى ، وأجلس مع إخوتى وزُوَّارنا للسمر ، ولقد أمْضى إلى مسجد السيدة زينب قُبَيل الفجر لأسمع من الشيخ أحمد ندا سورة طه ، يُرجِّعها صوتهُ الفاخر ترجيعاً ، حتى يخيَّل إليك أن جبريل عليه السلام إنما يتنزَّل بها من جديد . فاذا أذَّن الشيخ بعد هذا بالفجر وقمنا لصَلاته ، جلسنا إلى حَلْقة أستاذنا الشيخ محمد أبى راشد فتلقَّينا علماً طريفاً تنبسط له النفس ، ولا يطاوِل فيه الفهم ، من قصص الأنبياء وكرامات الأولياء ونوادر الصالحين .

وإننى لأرى أننى قد أطلت عليك ، وما بغتى إلاَّ أن أُثبت أن سهر ليالى رمضان أصبح عندى عادة جرت منى الآن مَجرى الطبع .

ولقد كنت قاضياً فى الزقازيق سنة ١٩٢٥ . ودخل علينا رمضان المعظم ونحن فى صميم الشتاء ، وأنا أقطن (وأنف منشورات الحقانية راغم) فى القاهرة ، ويَبعث الله السماء ، فى ليلة عندى فى مُصبَحها مجلسُ قضاء ، ويتجاوز الطينُ والماء الطُّنْبين ،

* نشرت فى « السياسة » الأسبوعية تحت عنوان (يوميات) فى سنة ١٩٢٩

وبخاصَّةٍ فى أحيائنا (الوطنية) ، وأنام تلك الليلةَ وأنا على شَرَف من الساعة الرابعة . وَيبعثنى أهلى عند انتصاف الساعة السادسة . والجيبُ أصفرُ من أن يَفيض بأجرة مركبة أو سيارة إذا رضى سائقها بخوض هــذا الغمر ، فى هذه الساعة ، إلى حىّ (البغَّالة) . فلم تبق هناك وسيلة إلا طلب الترام ، والأمر لله ! .

وأتدلَّى من دارى لم أَترَوَّ من النوم بعد طول السهر إلاَّ ساعةً ونصفَ الساعة ، فأجمع بين يدىّ أطراف ثيابى ، وأَزُمُّهــا مع رِزمة من (دوسيهات) القضايا . وأتحامل ، على هدّ القوى وتَداعى النفس ، فأُعارك الماء ، وأصاول الوحل ، وأتحسس فى الحَلَك للتحرُّف عن البِركة ، واتقاء العثرة فى التَّلعة . والذهنُ فوقَ هذا مذعور بما سألقَى فى اليوم الأطوَل من ركوب الترام إلى المحطة ، ومن ركوب القِطار إلى الزقازيق ، ثم من محطتها إلى المحكمة ، ثم من معالجة القضايا الكثيرة ، ومن مهاترة أصحاب الدعاوى ، ومن كيد بعض إخواننا المحامين ، وطول جدالهم فيما لا يُجدى ، طلباً للخروج من العهدة أمام موكليهم ، ولو على حساب الحق والكرامة وحرمة مجلس القضاء ! .

فى كل هذا العذاب الذى لا يمكن أن يَقدِره إلاَّ من عاناه ، بلغتُ بسلامة الله محطةَ الترام فى ميدان السيدة زينب ، وتمثَّلنا جماعةً كثيرةً فى انتظار قدوم أول قِطار ، وبينا نحن على هذا إذا يدٌ قاسيةٌ تزُمّ كتفى ، وإذا صوت نكير يصُكّ سمعى حتى كادت تتفرّق له نفسى : (فطور العواجز عليك يا رب ! . . . مِن فطَّر صايم ، له أجرٍ دايم ، هنِيًّالك يا فاعل الخير) !!! فاثنيت إلى هــذا الوحش وقلت له : أَفحسِبتَ أيها الرجل أننى أنام الساعة ٤ بعد نصف الليل ، وأَهُبُّ من نومى الساعة ½ ٥ ، وأُصحِر لكل هذا البرد ، وأَشق بهذا الجسم العليل ما شَققتُ من الغَمر ، وأخوض ما خضت من الوحل ، أفحسبت أننى أعانى كلّ هذا لأهيئ لك فطورك ؟ ! .

ثم تعال نتحاسب : إننا الآن على اثنتى عشرةَ ساعة من وقت الإفطار . فبأىّ حقّ تَقتضى (الأمةَ) أن تُهبّ من الساعة السادسة صباحاً ، وفى رمضان ، لتهيىء لك فطورك لا يَحين أذانهُ إلاّ فى الساعة السادسة مَساءاً ! . . . فكان جواب الخنزير : (واشمعنى يعنى الفقرا مالهمش نفس لخرين يفطروا زى الأغنيا ما يفطروا ؟) . فقلت له : يا سيدى ، إن طهاة الأمراء ، والوزراء ، وكبار الحكام ، وأعيان الأغنياء ، لا يأخذون فى عملهم ، فى شهر رمضان ، قبل الساعة الثانية بعد الظهر . أفلا تحب من (الأمة) أن تنتظمك ، على الأقل ، فى سلك الأمراء ، والوزراء ، وكبار الحكام . فتتفضل عليها بطلب طعام الإفطار ابتداء من الساعة الثانية مثلاً ؟ .

وهنا أقبل القِطار لخالفتُه إليه ، فراح يَسُبنى ويشتمنى بكل ما حشى أدبُ مثلِه فَمه ! . وما سألنى أولاً ، ولا سبّنى ثانياً إلاّ لأنه يقرِّر ذلك الحقَّ علىّ ، أو على الصحيح ، يقرره على الجمهور .

أرأيت بعدُ أَثَرَةً أبلغَ من هذه الأَثَرة ، وغروراً أشدَّ من هذا الغرور ؟! .

ومما يذكر فى هذا الباب أن صديقنا المرحوم رفيق بك العظم كانت قد عَلت به السِّن ، وألحَّت عليه العلل ، وهو من يوم نشأته مضعوف هزيل ، مُرهَف الأعصاب . وقد امتُحن فوقَ هذا كله بالأرَق . وكان فى مُؤخِرات أيامه يسكن (عمارة البابلى) من أحياء السيدة زينب . ويدخل فى فراشه فى الساعة التاسعة ، فيظَلّ يتطاول إلى النوم ويَستدرجه بألوان التكلُّف والتصنُّع إلى ما بعد الساعة الثانية صباحاً .

وبينا هو ذات ليلة يَستدرج النوم ، والأرقُ يدافعه حتى دخل فى ذلك البرزخ الممدود بين النوم واليقظة (السِّنَة) ، تلك الرُّقعة التى تتراءى لك فيها الأحلام ، وتعى فى الوقت نفسه ما يدور حولك من الكلام . بيناه على تلك الحال ينتظر

الدخولَ فى النوم التامّ ، إذا هاتف يهتف من جانب الطريق بصوت كأنه قصف الهدّ ، أو زَمزمة الرعد : (رغيف عيش وصحن طبيخ لله !) . وإذا الرجل يَهُبّ من سِنَته على أظافره ، وإذا الحَدَث يُعجله عن اتخاذ حِذائه ، فيجمز حافياً على السُّلم ، حتى إذا خرج إلى الطريق أهاب (بمولانا الشحاذ) : يخرب بيتك ! مِن اللِّى بِيِصْحا دِلْوقت الساعة اتنين بعد نصّ الليل ويسخّن لك الطبيخ ؟ قول إدُّونى رغيف عيش وحِتّة جبنة ، أو شوية زيتون ، أو حتة مربّة، يبقى شىء معقول ! » وتركه وصعد ليتصيّد نومَه من جديد ! .

وإن من يَغشَى حىّ المنيرة والانشاء لَيَرى سائلاً أعمى (لعله من أصل مَغربى) وهو يَنطلق من الصباح الباكر فى رمضان هاتفاً : (ياربّ طالب منّك رغيف عيش نفطر به) . فاذا نزلت الشمس للمغيب وأفطر الصائم ، استحال هُتافه إلى : (يا ربّ طالب منك رغيف عيش نتسحر به) !

ولعل الذى يبعثه فى طلب السحور ، فى اللحظة التى يَرفع فيها يدَه عن طعام الإفطار ، هو حاجته إلى معالجة التخمة ، والخلاص من الكِظَّة، بعد طول الخَضم والقضم ، فليس أعون على هذا من الرياضة بالمَشى والطواف على الدور ، ورفع الصوت بطلب رغيف للسحور !!!

تلك بعض مظاهر الأَثَرة فى سادتنا الشحّاذين . وسأقصّ عليك طَرَفاً منها فى مقام آخر إن شاء الله .

ابن العم . . . ! *

لى صديق مُرهَف الأعصاب حاضر الغضب ، بقدر ما هو طيّب القلب ، خفيف الرُّوح ، فَكِه الحديث . لقِيتُه أمسِ فاذا هو ظاهر الحَنَق حتى لَيكاد يتميَّز من الغيظ . فسألته عمَّا به ، فقال اسمع يا سيدى :

لى قريب ثقيل الظلّ ، غليظ الطبع ، شره النفس . إذا عَرَضت له حاجةٌ كان أشدَّ إلحافاً من ذُباب . صبَّه القَدَر علىّ أمس فقال لى : إن لى إلى فلان (من كبار الموظفين) حاجةً (وسمّاها) . ولا يَشفَع لى عنده غيرك . قم بنا إليه . فأردت مطاولته فقلت : سأَمضى إليه ، إن شاء الله ، فى أول فرصة . فقال : بل الأمر من هذا أَعجَل ، ولا بد من ذهابك اليوم ! فقلت : إذن أَمضى إليه اليوم بعد أن أُعالج بعض العمل . قال : بل تقوم الآن ، لأن المسألة سيُبَتّ فيها غداً . قلت إذن أَمضى الآن . وتهيأت للقيام وأقبلت عليه بتحية الوَداع . فقال : رِجلى مع رِجلك ! . . . فانطلقنا ، والأمر لله ، حتى إذا صرنا إلى باب ذلك الموظف ، دَفعت رُقعة الزيارة إلى حاجبه ، فقال لى صاحبى : أَثبت اسمى مع اسمك حتى أحضُر شفاعتَك ! . قلت أوَ تتخوَّننى ؟ . قال : كلاً ! ولكن ليطمئنَّ قلبى !

وأُذِن لنا كلينا ، وبَسَطتُ حاجةَ قريبى بين يدى ذلك الموظَّف ، وسألته أن يَقضيها إذا كان على حقٍّ كما يقول . فوَعد الرجلُ أن يفعل . وتهيأت للقيام ، فزرّ قريبى على عينه وأومأ إلىَّ أن زِد فى الرجاء . فعاودت صاحبى فكرر الوعد فى دَعة واطمئنان . ولما هممت بالقيام عاد فغمز بعينه فعاودت الإلحاح ، وعاود الرجلُ ترديد الوعد . وما زلنا على هذا حتى ظهر عليه البَرَم . فراح يرفع طَرفه إلى

---

* نشرت فى « السياسة » الأسبوعية سنة ١٩٢٩ تحت عنوان (يوميات)

ساعة الحائط مرة ، ويُشيعه فيما احتشد بين يديه من الأوراق مرة أُخرى (يريد أن يقول لنا حسبكم فانصرفوا مأذونين) . فجمعتُ كلَّ ما فيَّ من عزم ونهضتُ ولم أكَد ، لأن عين قريبي كادت بنظرتها الحادة تُثبِتني فى موضعى أبد الآبدين ودهر الداهرين . وانطلقنا وأنا أجرّه جراً !

وحانت ساعةُ الفراق ليَمضى كل منا إلى وجهه ، فشدَّ على يدى ، وكرَّشَ وجهَه ، وزرَّ على عينيه ، وقال لى ، وهو يكاد يَنشِج بالبكاء : والنبى . . . !

— ماذا تريد أيضاً ؟

— والنبى . . . !

— قل يا أخى : ماذا تريد أن أصنع . . ؟ !

— والنبى . . . !

— قل يا أخى : ماذا تبغى منى بعد ذلك ، فقد كدت تذهب بعقلى . . !

— والنبى . . . !

— آه ! لقد فهمت . تريد أن أعمَل عملاً يُكره الرجلَ إكراهاً على قضاء حاجتك !

— نعم !

— كان بعضُ صِغار الفلاحين وأشباههم إذا وقعت على الرجل منهم مَظلِمة لا يجد النَّصَفَة منها عند صِغار الحكام ، استكتب بشأنها (عرضحالاً) وارتصد لصاحب الشأن الأعلى من كِبار الولاة ، حتى إذا جاز بمركبته ، ألقى بنفسه تحت سنابك الخيل . وبذلك يَلفِت إليه الوالى ، فيَتلقَّى (عرضحاله) ويُصغى إلى مَظلِمته ، وينظر فى شأنه . وليس لدينا يا ابن العم إلاَّ هذه الطريقة ! فقال لى : وكيف ذلك ؟ . قلت : دعنى اليوم أُسوِّى فى مسألتك (عرضحالاً) . وتجيئنى من غَدكَ فى الصباح الباكر ، حيث نَرصُد صاحبَنا قربَ ديوانه ، حتى إذا طامنت

سيارتُه من سرعتها ألقيت بنفسى ، وفى يدى (العريضة) تحت عجلاتها . فلا أُصاب بأكثر من كسر بسيط فى الساق ، أو اختلاف فى بعض الأضلاع يسير ، أو شجٍّ لا خطر له فى الرأس . ولكن الأمر ، على كل حال ، سيَتعاظم الرجلَ ويروعه كل مروِّع فيعجل بقضاء حاجتك !

فقال : بارك الله فيك يا ابن العم ، ولا حرمنا همتَك . وهذا هو الظنّ بك والعشم فيك ! وتواعدنا على أن يجيئنى من غده فى الساعة السابعة صباحاً .

وأقبل علىّ صاحبى وقال : أفتدرى ماذا حدث اليوم ؟ . قلت ماذا ؟ . قال : بينا أنا فى سريرى متدثّراً احتماء من البرد القارس إذ جاءتنى الخادم تقول لى : إن ابن عمك فى انتظارك ، وهو يتعجل نزولك إليه لتمضيا إلى الميعاد الذى اتفقتما عليه أمس !!!

*
* *

أرأيت يا أخى أشره من ذلك الرجل وأطبع ، وأبرد وأصقع . وأسمج وأثقل ، وأصفق وأرذل .

فقلت له : أعانك الله !! .

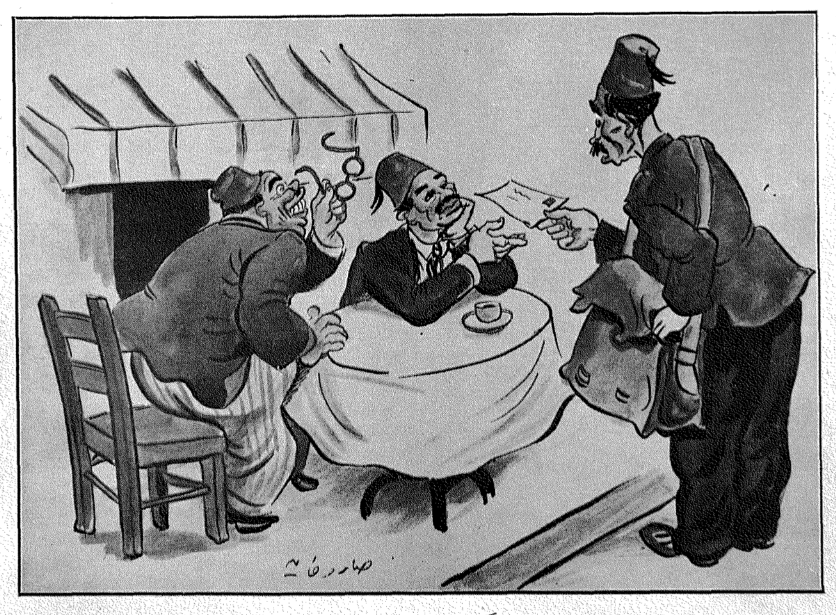
ظَـرف . . . !

فلانٌ المهندس، البدينُ، الغليظُ الوجه، المنتفِخُ الشِّدق ، الأزرقُ الجلد ، الدقيقُ الجبين ، النَّـكيرُ الصوت . لقد جفَّت فيه الأقلام وطُويَت الصحف . وشهِد اللهُ وملائكتهُ والناسُ أجمعون أنه ثقيلُ الظِّلّ ، شديدُ الوطأة على النفس . و إذا طلع عليك أحسست بغَمز على القلب ، ووخْز فى الحشا . وهو على هذا كثيرُ الانصباب على الناس . شديدُ التهافت على مجالسهم . لا يرى جماعة ممن ابتلاهم القدَر بمعرفته إلاّ جاء بكرسيّ وزجّ بنفسه فيهم . لا يجلس بكل ثقله على الأرض ولكن يجلس على أرواحهم . ثم يظل ثابتاً فى المجلس لا يبرح ولا يَتحلحَل ، ولا يقوم لحاجة ، ولا تَصرِفه ضرورة ، ولا يُعجله أى شأن من شئون الدنيا جميعها

ثم هو لا يدع حديثاً لهم إلاّ خاض فيه ، ولا شأناً من شئونهم إلا أمعن فى تفقُّده وتقليبه ، ولا أمراً من أمورهم إلا استخرج خافيه ، ونبش بالسؤال حاضره وماضيه . فاذا انتفض واحدٌ عن المجلس لبعض شأنه أقبل عليه يسائله : لماذا يَمضى وأين يَمضى ؟ وما طريقه وما غايته ؟ وناقشه فيما تعود به هذه الغاية من خير وشرّ ونفع وضرّ . و إذا رأى واحداً يلبس حُلة جديدة (فتح) له محضر تحقيق فى (قماشها) أولاً ، وفى لونها ثانياً ، وفى تفصيلها ثالثاً . وفى ثمنها رابعاً الخ . و إذا رأى اثنين يَتَسارَّان دسّ رأسَه بينهما ودخل معهما فى نجواهما .

ومن أحدث نوادره وأطرفها أنه كان ضاغطاً (كابساً) يوماً على بعض أولئك الصِّحاب المساكين ، فجاء عامل البريد ودفع إلى أحدهم خطاباً . وفيما كان الرجل يعالج شقّ الغلاف عنه ، كان صاحبنا يسرع فى إخراج «نظارته» فيمسحها بمنديله، ثم يضعها على عينيه استعداداً . . . . . لقراءة « الجواب » !!!

أشهد أن لا إلّـه إلا الله ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله !!!



استعداداً لقراءة . . . (الجواب) !

إلى الحكومة

الغوثَ الغوث ! النجدةَ النجدة !

ليست لى ، والحمد لله ، ضِياعٌ فأستفيدَ بتوافر المياه من مشروعات الريّ الكبرى ، ولا باستصلاح الأرضين بمشروعات الصرف الكبرى والصغرى .

ولستُ من صِغار الفلاحين فأطمعَ فى أن يُسهَم لى فى توزيع أرض الحكومة فى الفيوم أو سخا أو فى السنطة .

ولستُ من العمال حتى أبسُط الأملَ فى مسكن يُؤْوينى ويخفف عني من كراء البيت ، فوق أننى ، بفضل الله ، أثوِى إلى منزل أملِكه .

ولستُ أسكن الريفَ حتى أفرح بردم البرك والمستنقعات خلاصاً من أذى البَعوض ، وما يجرُّ الماء الآسِنُ من أمراض وأسقام . وعلى الجملة فإننى ما قلَّبتُ فكرى فى هذه المشروعات ، فرأيت لى بالذات حظاً فى شىء منها كثيراً كان أو قليلاً . على أنني أغتبط ، بالطبع ، كلَّ الاغتباط بكل ما يدخل على أبناء وطني من النعمة ، ويعود عليهم بأسباب الرفاهية ، ولكننى مع هذا إنسان أيضاً ، لا يمكن أن يُنسيَنى النفعُ العام الشعورَ بألم الضرر الخاصّ .

ذلك أنني من يوم شاعت فى البلد سيارات الأجرة (التاكسات) أُوثِرها على مركبات الخيل ، لأسباب لا محل لبسطها فى هذا المقام . وأهمُّها الاقتصادُ فى الوقت ، وأمنُ الشِّجار ، فى غاية (المشوار) الخ . وعلى ذكر هذا فقد تدلَّيت العامَ الماضى من الديوان فى يوم شديد القَيظ ، فلم يصادفنى فى طريقى إلا مركبة . فقلت فى نفسى (نأخذها) والسلام ! واستويت إليها وأنا لقِسُ النفس ، مجهودُ الجسم ؛

مُرهَف الأعصاب . فتدلَّى الُحوذىُّ عن كرسيه ومشى فى رفق ، فانتزع المِخلاةَ من فم أحد الجوادين ، وزرَّها وعاد بها كذلك ، فألقاها فى مداس قدمه من العربة . ثم عاد فألجمَ الجواد وسَوَّى شكيمته ، وعدل إلى الثانى فصنع به ما صنع بالأول . كل هذا فى تُؤَدة وبُطء وعظيم اطمئنان ، إذ أنا ترتفع حرارتى ويتدارك نَفَسى ويُسرع نَبضى . ثم تمكن من كرسيه وتناول سوطَه وأهوى به على الجواد الأيمن فانثنى إلى الأيسر ، وهذا انثنى إلى المركبة . والمركبةُ ثابتة فى موضعها . فأهوَى الحُوذىُّ بالسوط على هذا الأيسر ، فانثنيا كلاهما إلى الجانب الأيمن . ولما ضاق ذَرعى وهممت بالنزول ، وثب الحُوذى إلى الأرض ، وجرَّ الجوادين معًا من خطامهما فانجرَّا . ولا أُطيل عليك أكثر مما أَطَلت : سارت العربة ثم سارت وسارت ، فلم تَكَد تبلغ شيئًا حتى خيل إلىَّ أننى إنما أركب ظلا يتقلَّص ، تحسبه ثابتًا وهو فى الواقع متحرِّك . وحتى خُيل إلىَّ من بُطء المسير ، وطول المدة ، وضِيق النفس ، أننى قادم من الصين لا من شارع الفلكى .

ووصلنا ، بسلامة الله ، إلى مَيدان السيدة زينب ، فحق قول العامة : (طولة العمر تبلغ الأمل) . وإذا (الترام) يجوز وبيننا وبينه نحو أربعة أمتار . فلم يرعني إلاَّ والحوذى يَجذب إليه أعِنَّة الخيل ليوقفها ، فعجبت من فعله وقلت له فى ذلك ، فقال حتى يجوز (الترام) . فأهبت به أن امض أيها الرجل ، فحين نبلغ موضع القِطار يكون قد بلغ هو السبتية إن شاء الله !

أنا حرٌّ فى أن أركب مركبة ، أو سيارة ، أو (ترامًا) أو حمار مُكَار (سكة) ، أو أن أمشى على رجلى . هذا حق ثابت لى لا ينَازعنى عليه أحد . ولكن (عمّ) الأسطى خليل لا يُسلِّم لى بهذا الحق ، ولا يدَع لى هذه الحرية . وإليك الحديث:

الأسطى خليل هذا كان حُوذياً عندنا من أكثر من خمس وعشرين سنة . ولعله لم يلبَث أكثر من ستة أشهر . ثم أراحنا الله منه وابتلى به سوانا . ثم صار أمره إلى مركبة أجرة . فثبت له علىّ بهذه الأشهر الملعونة حقّ ؛ ولكنه حق غريب جداً لم يَدَّعِه أحدٌ على أحد . أتدرى ما هذا الحق ؟ هو أننى لا بد أن أركب مركبته متى شاء هو ، وفى أى وقت شاء . وله فى ذلك وقائع تُخرج المرء عن جِلْده . من ذلك أنه يعلم أنني كنت أجلس فى صِحابي ولِداتى فى مقهًى فى شارع خيرت ، نَقضى شَطراً من الليل فى الحديث والسَّمَر . فاذا كان هو (فاضى) ، أسرع فجاء إلى المقهى ، ووقف بمركبته بازائى ، واتكأ على يمينه ، ومَدّ وجهَه إلىّ ، حتى تكاد لحيتُه الطويلةُ تصل إلى جبينى . وحدّد فىّ نظره . ونطق صنيعُه كلُّه بفصيح العبارة : أن قم فاركب . وقد لا أكون استويت إلى مجلسى إلاّ من بضع دقائق. فلا أرى لى حيلةَ إلاّ أن أقوم فأتحولَ إلى أحد مجالس المقهى على الشارع الثانى . فيَبعث خيلَه ويتحول هو الآخرُ حتى يقف بازائى ، ما يَرِيم ولا يتحَلحَل . فلا يُنقذنى منه إلاّ أن أُسلِّم لله أمرى ، فأركب معه ليعود بى إلى الدار . لأننى إن مضَيت إلى مكان آخر، تبعنى بمركبته وظل ثابتاً بازاء مجلسى حتى أركب أيضاً . وإما أن أَمضى فى مجلسى وأنا من الغيظ والحنق على حال لا يعلمها إلاّ الله تعالى !

وهكذا ما لقِيَنى فى طريق إلاّ اعترضنى ، وسألنى أن أركب معه . ولا رآنى فى انتظار (الترام) إلاّ وقف بإزائى . ومن أحدث نوادره معى أننى فى صباح يوم صفَا أديمُه ، واعتلّ نسيمه ، رأيت أن أشخص إلى الديوان سعياً على قدمىّ . وفعلت مغتبطاً مبتهجَ النفس ، حتى إذا كنت بإزاء وزارة الحربية ، إذا بالأسطى خليل يطلع علىّ (بخَيله ورَجْله) ، ويناديني : « آجى أوصلك للديوان ؟ » . فهاجنى الرجل وحرّك حفيظتى وخَبَّث نفسى ، وكدّر صفوى ، وأفسد علىّ يومى . وقلت

له وأنا أكاد أتميّز من الغيظ : أجئتُ أيها الرجل من بيتى فى أقصى شارع زين العابدين إلى هنا فى التماس عربة تبلغنى هذه الستين متراً ؟ أتظن أننى طول هذا المَدَى لم أُصِب مركبةً واحدة ؟ حقاً انك بارد . ومضيت لطيتى . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله !

***

فاذا لم يُمكن إدخال هذا الحُوذىّ المؤذى فى مشروعات الردم[1]، فلنتوجه بالعياذ إلى قلم المرور ، و إلاَّ فقد طابت الهجرةُ حتى يقضى فيه القضاء ، ويُريحنى اللهُ من كلِّ هذا البلاء ! .

(١) يريد ردم البرك . وكانت الحكومة جادّة فى ردمها أيام كتابة هذا المقال

عَشـــاء !

قهوة اللواء . وإن شئت فبار اللواء . وإلاَّ فمطعم اللواء . هو نادٍ أو شِبه نادٍ لا يكاد يَتغشَّاه فى النهار إلاَّ جماعاتٌ من أرباب الأعمال . فاذا كان الليلُ فجماعة من أهل الفضل والأدب ، يجتمعون للأَسمار وتبادل ألوان المفاكهات . ويتَّصل بهذه القهوة مطعم كامل الآلة . وقد حدثنى صديق يختلف إلى هذا الموضع قال : كنا ليلةَ أمس جلوساً مع الصَّحب نأخذ فى حديثنا وسَمَرنا . فاذا رجلٌ من هؤلاء الذين يَصُبُّهم القَدَر على رُوَّاد القهوات : منتفخ الشدق ، حاد الوجه ، يتأبط أداته فى الحياة . وما أداتُه إلا رِزمة من الجرائد الجديدة والمجلات القديمة ، يدَّعى بحملها العلمَ والأدب والفلسفة والسياسة (وكل شىء) ! وسَلِّمْ فى تظرُّف مكروه وأدب مُبتذَل . وجرّ له كرسياً وحشر نفسه فى الزمرة حشراً . ومن باب ما يدعونه « باللياقة » صفَّق أحدُنا فجاء الغلام . فأومأنا إلى (الأفندى) ، وسألناه عما يطلب (سادة ، أو بسكر شوية) . وقد جرَت العادة بأن يَعتذر ضيف القهوة أولاً . فاذا ألحَّ المَزُور فقهوة أو شاى مثلاً . فاذا كانت الأُلفة متمكنة ، (فكازوزة) ، أو ما يَقرُب ثمَنُه من ثمن الكازوزة ، مما لا يَعدُو الثلاثة القروش أو الأربعة ، على أضيق تقدير . بعد هذا أتعرف ماذا طلب صاحبُنا الذى لا نعرفه ؟ لقد طلب واحد . . . . (dinner) عَشاء !!!

قرحة البطن !

بادَيتُك فى مستهلٍّ هذه (اليوميات) بأننى لا أُترجِم فى يومى إلاَّ عن الخاطر الذى يَشغَلنى فيه ، والإِحساس الذى يَملكنى ، ولو خرج كلاماً فارغاً . وعلى هذا أُثبت لك اليومَ كلاماً فارغاً كما أثبتُّه من قبلُ فى كثير من هذه « اليوميات »

على أننى هذه المرةَ لم أكن أكثرَ من ناموس (سكرتير) يدوِّن حديثَ غيره . وإليك الحديث :

لى صديقٌ من القضاة خفيفُ الرُّوح ، حسَنُ المحاضرة ، حاضرُ النكتة . جلس إلىَّ أمسِ وجعلنا نسمرُ على العادة . وفى بعض المجلس أطرق إطراقة طويلة ، ثم أنغض رأسه فُجاءةً وقال لى : اسمع يا فلان . يقول العامَّة إن (قرحة) البطن تَظَلّ عند العاقل أربعينَ سنة ، فكيف بالمجنون ؟ : فقلت له : وما الذى يُحضِرك هذا الآن ؟ . قال :

نُقلت من عشر سنوات إلى محكمة (وسمى حاضرة أحد المراكز) . ولى فى هذا المركز صديقٌ عزيز من كِبار الأعيان . وله حُرَّاقة (ذهبية) لا يسكنها أحد ، وهى راسية فى ظاهر المدينة ، وتقع من سُرَّتها على أكثر من ميل ، فدعانى ، شكر الله له ، إلى أن آوى إليهـا حتى أُصيب لى مثوى . وكان للحُرَّاقة خادم كسلان العقل ، كسلان الجسم . وفى ذات عشيةٍ رمانى البابُ بقريبٍ لصاحب الحُرَّاقة طويل جداً ، عريض جداً ، لا تكاد تَتمثَّله إذا أشعْت عينيك فى هَيولاهُ جملةً واحدة ! إنما لك أن تتمثَّله بالمُفرَّق (القطاعى) ، فإذا دنا منك سمعت له زحيراً من كثرة اكتناز الشحم !. وما أُحصِى أنه جلس إلىَّ قط إلاَّ رأيتهُ وقد شرَّد



يا مغيث !...

عينيه ، وأقبل يَتدفّق بألوان الأسئلة يصبُّهـــا على سمعى صبّاً ، حتى أرانى وكأنما فُتِحَت علىّ خليَّةُ نحل لا أنحرف عن واحدة حتى تثور بى ثمانون . فهو يَلهَث بالأسئلة ، وأنا أَلهَث وراءه بالأجوبة . ولكنه يجرى أمامى بسرعة (رولزريس) وأنا وراءه فى سرعة (عربة كارو) ، حتى ليكون فى السؤال الثامن والستين بعد المائة ، وأنا (ملخوم) فى جواب السؤال الرابع عشر ! (إزَّىّ صحتك ؟ — بتفصّل هدومك عند مين ؟ — أبوك مجوِّز كام ؟ — تحب ألمانيا أكتر والاَّ أمريكا أكتر ؟ رياض باشا ترك كام فدان ؟ — إلاَّ ليه البنّ اليمنى الأيام دى وحش ؟ — النهارده حرّ والاَّ برد ؟ — إلاَّ الانجليز وِشُّهم أحمر ليه ؟ — الشيخ أحمد ندا أحسن و إلاَّ المزيكه الميرى ؟ — ما بيرقُّوكش ليه ؟ — الحاجّة السويسية ماتت و إلا لسّه عايشة ؟ — الحكومة بتشترى الورق بتاعها منين ؟ — أُمَّك لما تموت ، ناوى تعمل الميّتم ثلاث أيّام ؟ — قريت المقطم النهارده ؟ — إذا ربنا غناك تشترى أوتومبيل والاَّ لأ ؟ — إيه رأيك فى الحرب ؟ — ناوى تجوِّز ابنك لما يكبر ؟ — كوبرى الزمالك بيفتحوه إمته ؟ — إلاَّ لو واحد اتعدَّى عليك فى الجلسة تعمل له إيه ؟ — الساعه كام ؟ — أم سيدى أبو السعود كان اسمها إيه ؟ ؟ !!) الخ الخ .

⁂

قلت لك إن الباب رمانى به فى أحد الأَمسية فقال لى : أتأذن لى فى المبيت فى الحُرَّاقة الليلة ؟ فقلت له تفضل ، ففى غرفها متسع لنا كلينا . وقضينا السهرة فى الأسئلة اللازمة وما تيَسَّر من الأجوبة . وقمنا لنومنا ، حتى إذا أصبحنا ، استدعيت الخادم ليجيئنا بفطورنا ، وفى هذا الخادم كما قلتُ لك بلادة ، حتى لَيَقضى فى المجىء بالفطور من السوق أكثرَ من الساعة ونصف الساعة . فسألتُ صاحبنا عما يشتهى.

فاعتذر بأنه ليس من عادته أن يُفطر ، فراجعته فأبَى . فعزمتُ عليه إلاَّ أفطَر معى . فجدَّد العزيمة على الإباء شاكراً مثنياً . لقد غلبنى إذ ذاك على أمرى فلم يبق لى بد من أن أطلب إلى الخادم أن يجيئنى بالقَدْر الذى يكفينى ويكفيه فضلُه . فمضى وغاب ما شاء الله أن يَغيب . ثم أذِن اللهُ أن يعود بالطعام ، ويقوم على إنضاجه . وكنت قمت لبعض شأنى ، ثم عدت وإذا صاحبنا فى حُلّته الكاملة فى طريقه إلى الشاطىء . حتى إذا لقيَنى أقبل علىَّ يودعنى . فدعوته (من باب التكريم) ليفطر معى ، فشكر واعتذر بأن له مهماً يُعجله عن اللُّبث ، ومضى عنى مهرولاً . ولم يرُعْنى ، وقد أطلَلْت على بهو الحُرَّاقة ، إلاَّ أن أرى الصِّحافَ قد لُعِقت لعقاً فلم يبق فيها فَضْلةٌ للغسل . وإذا فتَاتٌ من الخبز لا تكبر على ما يعلَق بسنّ الخِلال ! فدعوت الخادم وسألته عن الطعام فأجاب : لقد أتى عليه صاحبك ! فقلت له : ألم يُبق لى ولك شيئاً ؟ قال : كلاَّ . لم يُبق لك ولا لى شيئاً !!!

وكان وقت الجلسة قد أفِد . فمضيت أقضى على الطَّوَى بين الناس . ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله !

ثم أقبل علىّ صاحبى وقال : تعرف يا فلان أننى لست من أهل البِطنة ، ولا أنا ممن يَحتفِلون للطعام أو ممن يَهُمهم التأنُّق فيه . وتعرف أننى لا أُصيب منه إلاَّ بالقدر الذى يُمسك النفس ويدفع إلحاح الجوع . وتعرف فوق هذا أننى مَضعوف مَمعود . أتجنب من الطعام غليظه ما استطعت ، ولا أتكثَّر من الدَّسَم ، خوفَ الكِظَّة والبَشَم . تعرف هذا كلَّه . ومع هذا فاننى أُقسم لك أننى ما ذكرتُ هذه الواقعةَ إلاَّ ثارت نفسى ، واضطرمت أعصابى ، وغلا الحِقد فى صدرى ، حتى لكأن تلك الحادثة وقعت لساعتها ، وقد مضى عليها الآن عشر سنين . وإنك

لَتستطيع أن تصدّق قول الشاعر : « لا بد للمحزون أن يَسلَى » ، وأن تصدّق قول كُثَيِّر :

فقلتُ لها يا عَزُّ كلُّ مُصيبةٍ إذا وُطِّنَت يوماً لها النّفسُ ذَلّتِ

تستطيع أن تصدقهما فى دعوى التسلّى بالزمان عن كل بليّة ، والعزاء بكرّ السنين عن كل رزية ، إلاّ عن مثل هذه الفَعْلة ، فهى أعصى على الزمان ، وأصلب من أن يُبليَها الجديدان !!! اهـ

*
* *

فاللهم يا من وصل شهوةَ الطعام ببعض الناس هذا الوَصل ، وأكدها هذا التأكيد . ارحم كل شَهْوان بَطين ، من ضيافة مثل هذا الحبر السمين !

تنمُّر . . . !

لاحظتُ ظاهرةً غريبة ، لا أدرى إذا كان الأطباء والباحثون فى أحوال النفس قد فَطَنوا لها أو لم يَفطُنوا . ولا أدرى إذا كان قد تقصَّاها منهم أحد ، وترسَّم عللَها وأسبابها ، وكيف تُؤثِّر تلك الأسبابُ فى خَلْق بعض الناس هذا التأثير ، وتصوُّره هذا التَّصوير . وتنكُّره هذا التنكير ، ثم إننى لا أدرى إذا كان أحد هؤلاء الباحثين المتقصِّين قد نشر فى هذا بحثًا فى العربية أو فى أيَّة لغة من لغات العالم ؟ . . . اللهم إننى لا أدرى شيئًا من هذا ألبتة . على أننى أنتظر من أصحاب المعرفة رأيًا أتهدَّى به إلى الصواب :

شهدتُ فى طول حياتى ثلاثةً من الناس لم أشهَد غيرَهم على الحال التى سأذكرها لك . والعجبُ أن ثلاثتهم يشتركون فى دَعة النفس ، وطيبة القلب ، وارتياح الأعصاب . ما يزال هذا شأنَ كلٍّ منهم وطبعَه وجِبلَّته حتى يَستوِى للطعام . وما إن يأخذ فيه حتى تراه وقد تبدَّل خَلقًا غيرَ خَلْقه ، واتَّخذ صورةً غير صورته . فاذا وجههُ قد احتقن احتقانًا شديداً . وإذا أوداجهُ قد انتَفَخت انتفاخًا عظيماً ، وإذا أجفانهُ قد انفرجَت إلى حدِّ التقلُّص . وإذا حدقتاه قد اتَّسعنا فى مَحجِريهما حتى كادتا تستَهلكان بياضَ العينين جميعًا . وقد لمعت عيناه لمعانًا يُخيف ويَروع . ودلَّت ملامحهُ على أقسى ضروب الشراسة ومحاولة الفَتْك والافتراس . وجعل يزخُر زحيراً عاليًا أشبه بهمهمة الفهود ، وبزئير الأُسود ، حتى ما تشكُّ فى أنك إنما تؤاكل نَمِراً لا إنسانًا . بل لقد يوسوِس لك هذا المنظَر المُرعِب بأنك فى النهاية مأكولٌ لا آكل !

وقد تُوفِّى واحدٌ من هؤلاء الثلاثة ، وبقِىَ اثنان ، بَسَط اللهُ لهما فى صدور الأعوام ، ولقَّاهما أجزلَ الطعام ، بما يواتى غريزةَ الافتراس والالتهام ، وكتب لمؤاكليهما الأمنَ والسلام . آمين ! . . .

غـــرام . . . !

صديق (فلان) تعشّق فى شباب سنة إحدى بنات جيرانه . وقد غَلَبت عليه وذهبت بقلبه كلَّ مَذهب . ولما برَّحت به آلامُه ، وفضحته فى الهوى أسقامهُ ، أدركتها رِقّةٌ له ورحمة به استحالتا من بعدُ حبّاً. وهو رجل يتذوّق الأدب، ويحفظ من مصطفى الشعر صدراً . فكان إذا ذكرها وهو فينا أقبل يروى لنا أحسن ما قال قيسٌ المجنونُ فى ليلى ، وأرقَ ما أرسل قيس بن ذُرَيح من الغزل فى لُبنَى ، وأحلى ما قال جميلٌ فى بُثَينة ، وأبدعَ ما شبّب كُثَيِّر فى عزة . وكلما لحِقه الولَه عليها بكى واشتدَّ نشيجه، فيواسيه صُدقانه من جميل القول بما يُطامن لَوعته ، ويكفكف دَمعته.

وقد بانت لهذا العاشق الولهان خصوصيةٌ عجيبةٌ جداً : ذلك أنه لوحظ عليه أنه كلما حدث تهاجُرٌ بينه وبين (معشوقته)، راح يلتمس السُّلوَّ كلَّه فى الطعام، فيُلحِق الأكلةَ بالأكلة . ويُتبِـع الوَجبةَ الوجبة ، إلى أن تعود إلى صِلَته فيعود إلى الاقلال والتخفيف ! . وعلى قدر شدة الصَّرْم والإلحاح فى الهجر يكون الدَّسَم . وعلى قدر فتوره وضعفه يكون اختيار الأرفق من الألوان !

ولقد جُزتُ يوماً بشارع خيرت فى طريقى إلى الدار ، وكان ذلك بعد انتصاف الليل . فاذا صاحبُنا مستوٍ على مِنضدة فى دكان الحاج عبد الرحمن (الحاتى) ، وبين يديه صَحْفة تحمل ستة أرطال أو خمسة ، على الأقل ، من اللحم السمين ، وهو يفترسها افتراساً ، والدمع مُنهلٌ على خديه . فأدركت لساعتى أن قد تمت القطيعة ولم يبق إلى اللقاء سبيل ! . فأقبلتُ عليه أُعزيه وأُصبّره ، وهو ينزِف من الدمع من عينه ، بقدر ما ينزف من اللحم فى شِدقه . فعذرت الرجل وانصرفت عنه وأنا أدعو الله تعالى أن يرأفَ بحاله ، ويُلقِّيَه حسن العزاء !

ويُسرف المسكين على نفسه فى هذا حتى كاد يَكسِر عيشَه على القَضْم والخَضْم، إلى أن بَدُن واسترخت كَرِشُه ، ودعا بالطبيب وأظهرَه على داخل شأنه . ولما استَصعب عليه علاجُه ، سأل أهلَه أن يَنأَوا به عن القاهرة (مَثوى الحبيبة) ويُعَزُّوه ، ويختلفوا عليه بألوان السلوى ، لعله ينسَى فتصلحَ حالُه ، وتعود إليه نحافتهُ وهُزالُه !!! .

من خَلْق الله ! . . .

يظهر أن عند بعض الناس كثيراً أو قليلاً من الشكّ فى أنهم موجودون . أو على الأقلّ إنهم يَشكُّون فى أنهم من ضمن الناس . فهم دائبون جاهدون كلّ يوم ، بل كلّ ساعة ، فى جمع الأدلة على إثبات وجودهم ، أو على إثبات أنهم ناسٌ من الناس . ومن هؤلاء المساكين شاب حَدَرت له الظروفُ مالاً جليلاً يُهيِّئ له العيشَ فى أخفض العيش ، والتقلُّبَ فيما شاء من النعم ، إذ كان الإنسان إنما يَطلب إكرام نفسه وتنعيمها لإيتاء لذائذها ، لا ليثبت بمظاهر الترف وجودَه ، أو إنسانيته عند الناس !

هذا شاب غير بائن الطول ، ولا مُفرط البدانة ، وإن كان مُكتنِز اللحم متوافر الشحم . رُكِّب على جسده وجهٌ شاحبٌ غليظ ، لا تَرى فيه ضاحيةً يستريح فيها النظر . وقد ميزته الطبيعة بعينين حادّتين واسعتين تملؤهما أحداقهما . على أنك تراهما ثابتتين فى محاجرهما ، لا تنحرفان إلى اليمين ، ولا تَعدِلان إلى الشِّمال ، حتى لكأنهما فى صورة منقوشة لا فى وجه إنسان . وإلى هنا لا أجد على الرجل بأساً ، فانه وإننى وإن صديقيَّ الأستاذ توفيق فرغلى ، ومحمد بك رشدى غير مسئولين عن أننا خرجنا كذلك للحياة ! . . أما الباقى فصاحبُنا عنه جِدُّ مسئول .

لقد أرسَل سالفيه حتى حاذتا سُفلَى شفتيه . ورفع طرَفى شاربيه حتى شارفا أعلى وجنتيه . وبالغ فى تزيين هذا الشارب وتنسيقه ، حتى ما ترى فيه شعرة تميل عن صفّ ا ، أو تنحرف عن موقفها ، كأنما هو (قره قول شرف) يفتشه قائد عظيم ! وقد نَصَب على رأسه (طربوشاً) طويلاً استهلَكَ أصلُه جبينَه الدّقيق . أما (زرّه)

فقد تأنق فى ترجيله و إرسال خيوطه بنِسب معيَّنة تزداد كلما تدلّت انفراجاً . وقد رَكّب على عينه اليسرى (مونوكل) مؤطّراً بالذهب . ودسَّ فى فمه (سيجاراً) طويلاً غليظاً . ولستَ تراه إلاَّ ثانيا معطَفه على ذراعه اليسرى ولو نزلت درجة الحرارة عن ٥ تحت الصفر . و إن مما يُطير نومى أحياناً أننى لم أهتد بعدُ إلى الوقت الذى يَتَّخذ فيه هذا المِعطَف كما يَتَّخذه سائرُ الناس ! . . فاذا التفتَ رأيتَه يلتفت جميعاً ، كأن ما بين رأسه وكتفيه كتلة من الخشب لا تلين ولا تنثنى . وذلك كلُّه خِيفةَ احتلال (القيافة) باختلال شعر الشارب ، أو اضطراب خيوط (الزّر) !

و إنى أؤكد لك أننى حين رأيته لأول مرة حسبتهُ فارًّا من لوح (سينما) !

وقد جمعنى و إياه يوماً شيطانٌ من شياطين الإنس . وما انتظَمَنا المجلس حتى قال لى : « أقدم لك صديقى الفيلسوف الكبير فلان بك ، أفلا تعرفه أو لم تسمع به ؟ فقلت تشرفنا ، فقال حسبه فخراً أنه صاحب نظرية (الانعكاسات اللّافطريه) » فأدركت أن الخبيث يُريد أن يعبث ! فقلت : وهل يجرُؤ أحد على أن يقول فى هذا بعد الذى قال أوجست كنت ؟ على أنه لم يُخرج له من هذه القضية كثيرٌ ولا قليل . فقال صاحبى . بل اهتدى إلى ما لم يهتد إليه أوجست كنت ؛ بل لقد وَفّق بين رأى القائلين (بالأبداع التناسبى) ، و بين رأى الذاهبين إلى حماية التجارة . فقلت له إذن لقد خالف رأىَ لامارتين . فأجاب بل لقد كسَّره تكسيراً . وأفَضنا فى هذا ، وجُلنا فى الفلسفة والعلم والآداب استظهاراً لتلك النظرية . وهو يوافقنا بالإيماء ، ويَسرُد معنا أسماء لا أدرى من أين حِفظها . ثم جعل يتقبل منا الإعجاب بتلك العبقرية الفخمة .

ثم قام فى رِفق وانجلى لوجهه ! . . وقد ذهب عنى أن أقول لك إنه طَوَالَ المجلس ، لا يستقرّ دقيقةً واحدةً حتى يقوم لبعض شأنه ثم يعود مستمهلاً .

ولقد تفقّدتُه فإذا هو يمضى إلى المرآة لإصلاح ما عسى أن تكون الكلمةُ قد ثنت من شَعر شاربه ، وما عسى أن تكون الإيماءةُ قد خلخلت من رِباط رقبته ! أو حرّفت من (زرّ) طربوشه !

ولقد عرفته بعد ذلك واستقصيت أخباره ، وتقرّيت آثاره ، فاجتمع لى منها أنه رجل شغف بأن يكون فى أولاد (الذوات) فهو يأخذ إخذهم ، ويَتشبّه بهم فى شَكلهم ودَلّهم ، وفى مشيتهم ، وطعامهم ، وشرابهم ، ولهوهم ، وعبثهم ، وسائر أطوارهم . فهو يسمع أن ابن فلان باشا (يفصّل) الثياب عند ديليا ، فيطلب ديليا و يسأله أن (يفصّل) له (بدلة) كالتى فصلها أخيراً لفلان . ثم يسمع أن الأمير فلانًا (يفصّل) عند سيفاد ، فيَمضى من فوره إلى سيفاد ، ويسأله ما سأل ديليا أمس . ثم يرى فى إصبع فلان بك خاتمَاً من الزمرد ، فلا يزال يتحرّى ويَستخبر حتى يَهتدى إلى الجوهرىّ الذى باعه فيشترى مثله . ويرى فلاناً بك يدخن السيجار ، فيدور يبحث ويَستقصى حتى يهتدى إلى أغلى السيجار ، فلا يفارق بعدَها فمَه أبداً . وما هو (بخرمان) ، ولا هو ممن يتذوّقون الدخان !

*
* *

ثم هو رجل (شيك) فتراه يطلب جروبى القديم الساعة ١٠ من صباح كل يوم ، فلا يزال هناك حتى الساعة الواحدة . ثم يركب سيارته إلى (سان جمس) فيتغدّى . ولكن ماذا يَتغدّى ؟ ما دلّته تحرّياته على أن فلانًا طلبه أمس . ثم فى تمام الساعة الخامسة يكون فى جروبى الجديد . وهناك شبابٌ من أبناء (الذوات) متعلمون يخوضون أحيانًا فى العلم والأدب والفلسفة ، فهو يأخذ معهم فيأخذون معه أيضًا على النحو الذى رأيت . فإذا كانت الساعةُ الحادية عشرة ، استوى فى (الكازينو ديبارى) ، فدار يبحث عن أىّ الغانيات راقت الليلة

الماضية فلاناً بك ، أو التى تحدث عنها فلان بك . فأسرع فدعا بها وطلب لها أغلى الشراب ؛ وقرّب إليها أفخر الألطاف .

ومن أظرف ما سمعته فى هذا الباب ما حدثنى به شاب ممن يَغشَون هذه الأماكن قال : دخلت المكانَ الفلانىّ فرأيت منظَراً عجباً . رأيت أبرع الفتيات هناك جمالاً ، مستوية على منضدة ، و بين يديها أفخر الشراب وأنضر الزهر وأبدع التحف . وفلان (يعنى صاحبنا) جالسٌ بجوارها وقد ولاّها ظهرَه ، أما وجههُ كلُّه فإلى الباب . فوقفتُ وقفةً طويلة لعلى أراه ينثنى ناحيتَها فلم يفعل . فدرت حتى وقفت بازائها ، وسألتها هامساً بالتليانية عن شأنها مع هــذا الرجل . فأجابت ضاحكة ساخرة : إننا على هذه الحال من ساعة ونصف !

*
* *

و بعد ففى الناس كثيرٌ إذا لم يَبلغوا مبلغ هذا الرجل كلِّه . فهم على كل حال لا يعيشون لأنفسهم ولكنهم يعيشون للناس . لأنهم شاكُّون فى وجودهم أو فى إنسانيتهم . فهم جاهدون دائماً فى أن يُثبتوا وجودَهم أو يُثبتوا أنهم من الناس

*
* *

بعد كتابة هذا الكلام وجمع حروفه (على رأى المقطم الأغر) ، انتهى إلىَّ أن الرجل ، مع الأسف ، قد لحقه الفقر ، وحلَّت به الفاقة ، وركبته الديون ، فباع السيارة وكل ما أحرز من كرائم الجواهر ونفيس الآثار ، من صنع (كريچر) فى باريس وميل فى لندن . وسكن فى الخارطة الجديدة بعد الزمالك . ولم يحتفظ من آثار (العزّ) إلا بسيجار واحد (يركِّبه) فى فمه ليخوض به فى دير الطين ، بعد التخطّر فى شارع المناخ وشارع عماد الدين !

ما شاء الله !. . .

أرى شابًا لا أعرِف له عملاً إلاَّ الطَّواف بمتون القهوات ، والوقوف على من يَعرِف من الناس ، والتحدث إليهم فى الأسباب الدائرة فى البلد . فاذا حدثُ حَدَثٌ في الهندسة ، وكان لاسماعيل سرى باشا رأىٌ فيه ، وقف بك وطرح عليك الأمر ، وكَرَّش وجهَه ومطَّ بوزه . وقال لك فى استخفاف واستهزاء : « لم يبق علينا إلاَّ أن يتكلم إسماعيل سرى فى الهندسة ! » . فاذا كان الحديثُ فى الطب ، وأُثِر عن على بك ابراهيم عملٌ جراحى له خطر . قال لك فى تلك الصورة : « لقد هزلت حتى إن على إبراهيم يتعرض لاجراء عملية جراحية ! » . فاذا كان الأمرُ فى القانون . وكان لبدوى باشا رأى مأثور قال لك : « ما شاء الله ! . حتى عبد الحميد بدوى هو الآخر يتكلم فى القانون ! » . وإذا كان الحديثُ فى الأدب وكان للدكتور طه حسين فيه مقال قال لك : « لقد طابت الهجرة من هذا البلد . لم يَبق علينا إلا أن طه حسين يتكلم فى الأدب » ؟! ثم يهز كتفه ويزليك قفاه . ولعله أكرم على الله وعلى الناس من وجهه . ويَنطلق عنك المسكين وهو يظن أنه قد قَضَى حقَّ العلم أولاً ، وحق الوطن ثانيًا ، وحقَّ التعالى على هؤلاء الذين يَسلكهم إجماع الناس فى نوابع الدنيا . وتدسَّى بعد ذلك فى فراشه ، ولا يكاد يَتَّسع ما بين الأرض والسماء لعَبقْريته الهائلة !

لست أجد أيَّة غضاضةٍ على العالَم فى أن يَفسَح لمثل هذا المسكين فى سعادته تيك ، ما دام أذاه لا يتجاوز ذلك التصوّر . وخيرٌ أن يَبقى فى « القسم الخارجى » من أن يُجشِّم الحكومةَ نفقاتِ طعامه وكسوته وملاحظته فى احدى (السرايات) القائمة فى أقصى العباسية ! ! !

غــــرور ... !*

إذا لم تكن رأيتَ عبد الحميد بدوى ، أو على إبراهيم ، أو أحمد أمين ، أو أحمد شوقى ، أو غيرهم من هؤلاء الذين يُدَوّى بعبقرياتهم السّهلُ والجبَل ، لتَمثَّلوا لك على صُوَر غير صوَر سائر الناس . وحسِبت لهم حديثاً غير أحاديث سائر الناس . وأنهم يأخذون فى أسبابهم فى غير ما يأخذ سائر الناس . وأن فيهم من الزَّهو ، والذهاب بالنفس ، والتتايه على الخلق ما يَملكهم عن مجالس الناس ، إلا أن يتشرَّفوا عليها تشرُّفاً . فاذا أنت رأيتهم ، وهُيِّئ، لك أن تعرفهم وتجلس إليهم ، رأيتهم مِثلَنا فى كل شىء ، لا يمتازون إلا بالتواضع ، وطيب الخُلق ، وضبط اللسان عما لا يَعنى من شئُون الناس !

وإنك مع هذا لقد ترى شاباً أَخذ نفسَه من الأناقة بأعظم مأخذ ، وقد وضع على يسرى عينيه (المونكل) ، ورشق بين شفتيه طرف (سيجار) كجذع النخلة ، وثَنَى معطفه على ذراعه اليسرى . وجعل يتخطّر فى الطريق ، تكاد تتمزق من حوله الدنيا بما يَضغطها من صَلف ومَخِيلة . فاذا جاز بك لا يراك كفؤا لأن يُرسل عليك نظرَه كلَّه ، أو نصفه أو ربعه ؛ إنما هى اللمحةُ الخاطفة يَتفضل بها عليك لتعود على معارف وجهه بآثار التتايهُ والعُجْب من أن الطبيعة ترسل مثلك إلى الأرض . حتى ليخيل إليك أنه موفَد من قبل المرّيخ (ليفتّش) على عالم الأرض ، ثم يعود فيقدم تقريره بما ينبغى لهذا العالَم المسكين من ضروب الإصلاح ! .

وتعود إليه نفسِه فلا تقع منه إلا على فتى غِرّ جاهل مفتون ، سائل الخُلُق ، متزايل الشمائل ، لا أثر له فى الدنيا إلا أنه مُستهلك لا فضل له ألبتة فى إنتاج فى أية ناحية من نواحى الحياة ! .

---

* نشرت فى السياسة الأسبوعية تحت عنوان « يوميات » سنة ١٩٢٩

رجل غريب ! *

أعرف رجلاً من أولاد الأعيان أزلَّ له الإرثُ ثروةً جليلة، فما بَرِحت يدُه تجول فيها بالسفه حتى كادت تأتى على آخرها ! ولعله بعد قليل ينقل اسمه من (جدول) سادتنا الأغنياء ، إلى (جدول) إخواننا الأدباء !

وأنى لأُخاطر على أن ذهنك يَدور الآنَ فى التماس كلِّ أسباب السَّرَف فى الدنيا ، لعله يحرز أيّها الذى يَستهلك ثروةَ صاحبنا ، ويَقُمّ ماله ، فى هذه السرعة، قمًّا .

وإنى لَأخاطر ثانياً على أنك لن تقع على السبب الصحيح حتى ينحدر نظرك إلى صميم هذا المقال .

ولا تحسبن الرجل من أهل المكارم يتفقّد العافين ، ومن تغيّرلهم الدهر فيُجرى عليهم الأرزاق ، ويَصِلهم بكريم الصِّلات .

ولا تحسبن الرجل متبذِّخاً فى عيشه يَلبَس الحرير والديباج ، ويركب الجياد الفارهة والسيارات الفخمة ، ويسكن القصور يفتحها لصُدقانه . والوافدين عليه ، فيتبسَّطون على طعامه ، ويُقلّبون أعطافهم فى نِعَمه . فما رأيتُه قط إلاّ فى ثوب خلَق . ولا شهدته قط إلاّ راجلاً أو (مترمًا) على رأى الأستاذ الخضرى ، ولو كره الأستاذ السكندرى . ولا أعلم أنه سكن فى غير بير المشِّ ! أو كفر الزُّغارى ! أو درب الوطاويط ! ثم هو لا يستريح من الناس إلى صاحب ، ولا يأنس بخليل .

ولا تحسبنَّه مقامِراً ، ولا مضارِباً ، ولا مستهتَراً بشراب ، ولا ممن يَتخذون الخليلات فيَسخُون بكرائم الأموال فى حُليّهن وأسباب زينتهن ، ولو أتى هذا على كل ما مَلكت أيمانُهم من جليل الأموال .

---

* نشرت فى « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)

وأخيراً فلا تحسبنَّهُ معتوهاً يتغفَّله الشُّطَّار، فيستخرجون ماله بوجوه (النصْب) وأسباب الحيَل. لا تحسبنَّه شيئاً من ذلك، ولا تظننَّ أن ثروته تُبتذَل فى مثل هذه الوجوه المأثورة عن تُعَساء الوارثين . . . !

كلُّ خَطب الرجل أنه يُحب القضايا ويَكلَف بها كلَفاً شديداً. ولست أُبالغ إذا قلت لك إن غرامه بالقضايا و بالتقاضى يَرجَح على غرام المجنون بليلَى، وابن ذُرَيح بلُبنَى. وروميو بجوليت!

هو مغرم بالقضايا غراماً يُسيل الكبد، ويمزّق شَغاف القلب تمزيقاً. يحب القضاء ويحب التقاضى، ويحب الحاكم ويحب المحامين، ويحب المنـازعات ويحب الخصوم أيضاً. و يا ويل الأرض منه والسماء إذا لم يجد مَدخَلاً لخصومة، ولم يُصِب مَدرَجاً إلى محكمة، ولم يُلفِ وسيلة يشاغب بها الناسَ أو يشاغبه بها الناس! فإذا طلع عليه نهارٌ وليس له فيه قضية فواحرَّ قلباه! فما الصبُّ كشَحه كاشح فى هواه، ولا (المجنون) وقد ملك عنه العاذل لَيلاه، بأشد منه حُرقةً ولا أفدح وجداً.

وهو رجل لا يَصبِر على الأذى، ولا ينزل على الضيم، ولا يسلم نفسه لطوارق الأيام. ففَتَق له العقلُ أن يتخذ ذخيرة من القضايا (Stock) يُكفَى بها الإعواز ويَتَّقِي بها — وقاك الله — شرَّ الحاجة. فجدَّ واجتهد حتى أَجدَّ ثمانمائة قضية دفعة واحدة، فرّقها على ألوان المحاكم: أهليـة وشرعية ومختلطة. جزئية وكلية واستئنافاً أعلى. وفرض كذلك نصيباً لمحاكم الأخطاط، والمحاكم القنصلية، ولم ينس المجالس الملية، بحيث يَستمتِـع كلَّ يوم بـ ١٠ — ١٥ قضية إذا حسبت حساب (التأجيلات). وبحيث انه — لا سمح الله — كلما انتهت قضية، صنع بدلها قضية، حتى تظل الثمانمائة وافرةً لا تُكلَم على الأيام!

وإنك لَتراه خارجاً من محكمة الأزبكية ، مسرعاً يَطلب محكمة مصر الكلية ، ثم ينكفىء منها إلى المحكمة الشرعية . فاذا كانت الساعة الحادية عشرة ، (استقلّ) قِطار (بور سعيد) إلى محكمة بنها ، فاذا يسَّر الله ونظرت قضيته أو قضاياه سريعاً ، أدرك القطار المفتخر ليحضر قضاياه فى طنطا ، (والبركة) فى المحامين فى حضور باقى المحاكم لتولّى سائر قضايا اليوم . هذا رزقه فى (الماتينيه) . أما فى (السواريه) فهو من الساعة الثالثة بعد الظهر مُغِذٌّ فى طلب مَكاتب المحامين : أهليين وشرعيين ومختلطين ، فيظل يحاورهم ويناقشهم فى قضايا الغد حتى يفرغ منهم أو يفرغوا منه بانقضاء المواعيد . ثم يَمضى ومن خلفه غلاماه يحملان خريطتين مشحونتين بالأوراق ، فيطلب أحد المقاهى الهادئة ، فيستوى فى ركن منه إلى منضدة ، ويُقبِل على أوراقه يهيىء دفعاً فرعياً فى هذه القضية ، وقضية استرداد لهذا الحجز ، وطلب ردٍّ لهذا القاضى ، وإشكالاً فى هذا الحكم ، ودفعاً بعدم اختصاص تلك المحكمة الخ الخ الخ

وأنت فى هذا كلِّه لا تراه إلاّ طرِباً طرَب العقّاد حين يَسيل فى (تقاسيمه) فيستثير المرَح والإعجاب !

*
* *

ولقد لقيتهُ مرة فى فترة العُطلة القضائية ، فرأيته متخاذلاً لَقِسَ النَّفْس: فقلت له كيف حالك يا فلان ؟ فقال (زىّ الزفت) ! قلت له ولماذا ؟ فقال : (الحالة نايمة ولا فيش شغل) !

وصادفته فى القِطار يوماً فى طريقى إلى (بورسعيد) ، فلما جزنا محطة منيا القمح ، وقعت عينه على محكمتها (الجميلة) الواقعة على بحر مويس ، فسألنى عن ذلك البناء ،

فقلت له : إنه المحكمة الأهلية . فتغزَّل فى موقعها قليلاً ثم قال : (والله الواحد حقه يشترى له هنا قدّ فدان و إلاَّ نصف فدان) . فقلت له : وما حاجتُك إلى هذا ولك فى بلدك مئاتُ الفدادين ؟ فقال : (علشان الواحد يبقى ييجى يتسلَّى بكام قضية هنا !!!)

*
* *

هذا رجل ، وهذا غرام ، وتلك ثروة ، فسبحان من قسم العقول . وسبحان من قسم الحظوظ !

ناظر وقف جدّه ... !

أُقسمُ لكم ، يا معشرَ القُرَّاء ، بالله العظيم ، و بنبيِّه الكريم ، وبحقّ زَمزَمَ والحَطيم ، أن هذا الذى أرويه لكم حقٌّ يقين ، لم تَشُبْه مبالغة ، ولا تَداخَله تندُّر ، ولا عوج من التخييل ، بكثير ولا قليل !

وقعَت لى أمسِ رُقعةُ زيارة (كارت ڤيزيت) ، وقد طُبع عليها :

فلان الفلانى

ناظر وقف جده

وليس لدىَّ على هذا ، بحمد الله ، أىُّ تعليق !!!

إقناع معـدة . . . !

أعرِف شاباً من ذوى البيوتات ذكيًا غنيًا ، يضطرب دَخله بين الثمانية الآلاف والاثنى عشر ألف جنيه فى كل عام (عدا وظيفته التى يُجريها عليه المنصب فى كل شهر) . وهو فوق هذا ظريف حاضر النكتة ، وانه لَيعرف كيف يَصوغها بالقلم كما يَحذِق إطلاقَها باللسان .

وإذا أنت لابَسته واطَّلعت على دخيلة شأنه حيَّر رأيك فيه ، فما تدرى أهو أكرم الناس أم أبخل الناس ؟

والواقع أن مما يَغلِط فيه سوادُ الناس ، ظنهم أن البخيل من لا يجود بالمال ، ومن تغلِب عليه عادة الشُّحِّ به ، وشدة الحرص عليه ، وأن السفيه من لا يعتدُّ بالمال ، ومن يبادر الى إتلافه ما وقع إلى يده ، وقد دلّت المشاهدة على أن هذا على إطلاقه غيرُ صحيح ، فانك لتجد فى الناس من يحرص على الدانق ، ويضِنّ حتى فى موضع المرُوءة بالسُّحتوت . وتجده نفسه لا يكترث بالآلاف ، ويعمِد ، فى غير حاجة ، إلى السَّرَف والإتلاف . وذلك شأنُ صاحبنا الذى أومأنا اليه فى مستهلّ هذا الكلام : ولقد يعلم أن من عماله على ضِياعه من يَفتلذ من غَلاَّتها الآلاف ، فلا يَكرُثه الأمرُ ولا يَعنيه . ولقد يُولم لأصحابه ، بل لمن لا ترتبِطه بهم الصداقة القوية ، فيقرِّب إليهم أشهى الطعام ، وأفخر الشراب ، ويُسمعهم أحذق المغنِّين . وقد يدعو لهم بفاخر الطُّرَف وغالى الألطاف ، ثم تراه من غَده يشح بالدرهم ، ولو سُئِلَه لتغيَّر وجهُه وتقلَّصت شفتاه ، وظهر عليه من الكزازة والكَيَص ما لا يرضى به لنفسه أحدٌ فى الدنيا . ولقد يكون فى المجلس المونق ، يَغمرُه لطف الحديث أو حلو الغِناء ، فينتفض عنه فُجاءة زاعماً أنه قائم لبعض شأنه (وما به من حاجة) ، ولكنه

إنما يطلب مرافقَ الدار أو المقهَى ليُشعل سيجارة ، خِيفةَ أن يفتح فى المجلس علبة سجايره ، فيتورَّط فى الميل بها على من إلى يمينه أو من إلى يساره !

ومن عجيب شأنه فِي حسابه أنه قدَّر لنفقته اليومية الخاصَّة قَدْراً لا يَعدوه أبداً . فجعل لسجايره عشرةَ قروش مثلاً ، ولنُزهته عشرين ، ولعَشائه خمسة عشر. الخ . فإذا اختلَّ حسابُه بالزيادة فى أحد هذه الأبواب ، التمس القصدَ فى غيره والتعويضَ من سواه . وراح يُجرى ألوانَ التعديل فى أبواب (الميزانيـة) ، حتى لا يَزيد الخارج فى النهاية دِرهماً واحداً . فإذا زادت نفقةُ الطعام قرشين مثلاً عوَّضها من باب (البنزين) ، فردَّ السيارة من مطلع شارع الهرم . وإذا زادت نفقةُ السجاير قرشاً مثلاً ، أسرع إلى (التليفون) فأمر الخدم أن يُطفئوا نور الدار ، ولا يُطلِقوا إلاَّ مصباحًا واحداً . وإذا تورَّط فى عشرين قرشاً لم تدخُل فى حسابه، اعتلَّ على أحد الخدم فطرده ثلاثة أيام أو أربعة ثم أعاده . وهكذا . .

ومن أظرف نوادره فى هذا الباب أنه اعتاد العَشاء فى أحد المطاعم ، وكان فيها (حاتـِ) ، وكانت وَجْبتُه فى كل ليلة رِطلاً من الكباب . فلوحظ عليه ذات عَشيَّة أنه دَعا بنصف رِطل فقط . وتبين بعد ذلك أنه تورَّط فى عشرة قروش لم تكن فى حسابه ، فأراد أن يُعوضها (خصماً) على (بند) العَشَاء ، فأتى على نصف الرطل . ولكن المسكين لم يَشْبَع ، لأن معدته لا تزال تتطلَّع إلى مزيد !

وهنا تستطيع أن تَتمثَّل أبدع حِوار جَرَى بين إنسانٍ و بين مَعدته : هو يحاول إقناعَها ، بالحجة الكلامية ، بأنها قد شبِعت . وهى تردُّ عليه ، بالحجة الفعلية أنها ما برِحت جَوْعَى . فيكرُّ عليها بالدليل العقلى أنها قد أخذت قِسْطَها ، واستوفت من الطَّعام حقَّها . ويَستشهِد على دعواه بفلان وفلان ممن لهم فى نصف الرطل أو فى ربعه مَقنَع ! فتَدمُغه بتهييج الشَّهوة ، وتفتيح اللَّهوة ، وسَيلان اللُّعاب ،

على ما يَضْطرب به الخَـدَم من صِحاف (الكُفتة) والكباب . فيناديها بأنها ما دامت قد انحرَفت عن سبيل القَناعة ، وتمرَّدت على رأى الجماعة ، فإنهُ مضطَرٌّ إلى أن يردَّها إلى حدود الطاعة ، بإنزالها على المَخمَصة وتعذيبها بطول المجاعة ! فتجيبه فى عزَّةٍ واستكبار ، وعزم لا يُطاوله وعيدٌ ولا إنذار : إذن أهُدَّ حَيلَك ، وأؤرِّقَ لَيلَك ، وآخذَكَ عن نَفْسك ، فما تدرى أفى يقظَة أنت أم فى منام ، وحقيقةً ما يَتنظَّر لك من ألوان الطعام ، أم هى أضغاث أحلام !

*
* *

ولما أعْنَتَه بطول نشوزها على رأيه ، وشدَّة تمرُّدها على حكمه . جمع كلَّ عزمه ، وشدَّ مجامعَ أَعصابه . وتنحنح وتَسَعَّل ، ثم استمكن من كرسيِّه ، وأعلن فى صراحة وحَزم ، أنه قد شَبِع والحمد لله ! .

ولكى يَضَع مَعِدته أمامَ الأمر الواقع ، كما يقولون ، دعا بفنجان قهوة (سادة) ، وشربه ولعق ما ترسَّب فى قراره ! وجعل يَتشاغل بالحديث عن المقيم المقعد من أمر تلك المعدة ، عليها خيبةُ الله !

ثم أَطرق إطراقةً طويلةً لم يَدْرِ حاضروه ما عِلَّتها . ثم بان أنهُ يُحاول المِعدة ويُصاولها ، ويُصابرها ويُطاولها . وما زالت حجتُها عليه تقوَى وتشتدّ ، وسَطوتُها به تقسو وتَحتدّ . وما زال عزمُه أمامَها يَضْعُف ويتخاذل ، ويَسترخى ويَتزايل . ويَظَل على هذا قَرابةَ عشر دقائق . ثم إذا هو يَهُبّ فُجاءةً ويصفّق ، حتى إذا أقبل الخادم ، عاجله بطلب . . . . . (واحد رزّ) ! !

ويحسن أن أقول لك : إن ثمن صفحة الرزّ فى ذلك المطعم هو قرش صاغ واحد . ولله فى خَلقِهِ شئون !

ملحـــق . . .

ومما يَتّصل بهذا الباب ، ويُضَمُّ إلى هذا الجنس ، حديثُ (فلان بك) رحمه الله . وكان معروفاً بسَعة العلم ، وشدّة العقل ، وكان شديدَ البخل ، قاسياً فى الضَّنّ على النَّفْس ، وقد أُلحِق فى شَباب سنّه بخدمة الحكومة ويده لاصقة بالتراب من شدة الفقر ، فكان يدّخر وظيفتَه الشهريةَ كلَّهــا إلاَّ ما يكفى لشراء رغيف (وطعميتين) كلَّ يوم . وأما الثِّياب فلا يكفى لتغييرها أن تَحُول ، أو يَلحَقَها النُّصول ، أو أن تَبلَى خيوطها ، أو أن تتخرّق عُروضها ، فهو لا يتركها بل هى التى تتركه حين يُدركها الفَناء . فتَطايرُ عنه تطايُرَ الهَباء . وعاش كذلك يجمع الدرهم إلى الدرهم ، ويضم المِلّيم إلى المِلّيم ، حتى اجتمع له فى غاية عمره نحو أربعمائة فدان من أجود أطيان الدنيا ، وحَوالَىْ عشرة آلاف الجنيه ، أرضخها للوارث نقداً وعداً .

وليس شىء من كل هذا بعجيب ، إنما العجيب ما استُكشِف من خلاله فى مُؤخِرات سِنى حياته . ذلك أنه ظهر ، بحكم إحدى المصادفات ، وللمصادفاتِ أبلغ الفضل فيما يَجرى فى هذا العالَم من وجوه المستكشَفات — أقول ظهر أن الرجل لم يكن يُحب المال ولا يَحفِل به ، ولا يَعنيه أن يجتمع له منه كثيرٌ ولا قليل ، ذلك أن كلَّ همِّ الرجل وكلَّ خلته أنه لا يحب المتاع ، ولا يُطيق التقلُّب فى النعمة ، فاذا أكل أصاب أيسر ما يُمسك الحَوْباء ، وإذا لبِس ففى سَتر الجسم بالخَلَق غَناء . وإذا استَصبح تَغَنَّى بالزيت ، وإذا أوَى استغنى بالكوخ عن البيت . فهو إذا جمع بعد ذلك المال ، فليس يجمعه لحب فيه أو شهوة إليه . وإنما يجمعه لأنه لا يجد له مفيضاً عن الكَفاف وهو غايةُ مناه !

قلت لك إن هذه الخَلة قد استُكشِفَت فى أخريات سِنيه . وذلك أن بعض من يَحمِلهم لاحظوا ، بعد طول ما اعترُوا به من ضِيق الحياة وشَظَف العيش فى كَنَفه ، أنه لا يَضنُّ عليهم بشىء ممَّا يطلبون من الأموال ، بالغة ما بلغت ، على شرط أن يَستأثِروا بالمتاع بها وحدَهم . فلا يُشرِكوه فى طعامهم ، ولا فى شرابهم ، ولا يُفرِغوا عليه مثل أرديتهم ، ولا يُرقِدوه على مثل فَرشهم ، ولا يُدخلوا عليه شيئًا من رفاهيتهم ولين عَيشهم !

٭
٭ ٭

بَقيتْ هنالك مشكلة . وهى أنهم يحبون أن يَستصبحوا بالكهربا ، وهو لا يُطيق أن يُطلق النظرَ على ضوئها ، فكيف الحيلةُ فى هذا الأشكال ؟ لقد ظَلَّت المشادَّةُ دَهراً بين الطَّرَفين ، حتى عَرَض هوحلاً معقولاً : ذلك أن يَستأجِر لهم داراً فى حىّ المنيرة ذات غرف وأبْهاء ، ليزيِّنوها بما شاءوا من ثُرَيَّات الكهرباء . على أن يدَعوه فى مثواه ببير المشّ ، يَستصبح بالزيت ويفترش القَشّ !

٭
٭ ٭

فى الحق أن المؤلفين فى علم الأخلاق فى حاجة إلى مراجعة كتبهم لاستقصاء مثل هذه الأحوال ، وضبط الكلام فيما تدل عليه من الغرائز والخِلال .

اقتصاد سياسى ! . . .

(فلان بك) ، عليه رحمة الله . قَضَى ولم يَتشرَّف بعدُ على الخمسين . وكان يعيش فى هذه الدنيا فرداً . فلا أم ، ولا أب ، ولا زوج ، ولا ولد ، ولا خادم . وكان واسعَ الغنى وافرَ المال . على أنه قد حَبَس ما فى يديه من النقْدين على إقراض المحتاجين ، ولا يُقرض منهم إلاّ موظَّفى الحكومة . فيُخرِج الجنيهَ بريال يستحقّ فى أول يوم من الشهر القابل ، سواء أأقرضه فى أول يوم من الحاضر أم فى ١٥ أم فى ٢٧ منه . ثم هو لا يَعقِد السُّلفةَ إلاّ إذا أخذ توكيلاً من الموظف المقترِض بقَبض راتبه عنه . فاذا فضَل منه بعد استيفاء القِرضة شيء ردَّه إلى صاحبه . وكان فى ذلك ، والحق يقال ، أميناً شريفاً .

وأعرِف موظَّفاً مستهتَراً كان فى وزارة (. . .) وألحَّت عليه الحاجة إلى العبَث فى يوم ٢٢ من الشهر . وسأل صاحبَنا قَرضاً بخمسة جنيهات يُؤدَّى ، على العادة ، فى أول الشهر التالى ستة . فتثاقل عليه . وكلما ألحَّ صاحبُ الحاجة ازداد صاحبُنا تعلُّلاً . وأخيراً ، وبعد طول مفاوضات ومساومات ، عُقِد القرضُ بالشروط الآتية :

(بند ١) مبلغ القرض خمسة جنيهات مصرية تُدفع ستة فى أول يوم من الشهر التالى من ماهية الطرف الأول بمقتضى توكيل منه للطرف الثانى

(بند ٢) يَشترِكُ الطرفان فى إنفاق هـذا المبلغ فى اللَّهو والعَبَث فى الأماكن التى يُعيِّنها الطرف الثانى بدون معارضة من الطرف الأول

(بند ٣) للطرف الثـانى الحريةُ المطلقةُ فى إنفاق المبلغ كله فى ليلة واحدة أو أكثر

(بند ٤) أمانة الصندوق من حق الطرف الثانى

ونُفِّذ العقد بجميع شروطه من المتعاقدَين معاً .

*
* *

ولهذا (البك)، رحمة الله عليه، رُقْعة واسعة فى أحد أطراف مدينة القاهرة، ولا أعيّنها لكيلا أعيّنه . ويقع فى وسطها تلٌّ مرتفعٌ يُصعَد إليه بدروب من جميع أقطاره . وقد بنى عليه مئات من البُيَيْتات ، اتّخذ سكناها رعيلٌ من النساء اللائى جرى عليهن القدَر باتخاذ أتعس المِهَن . وقد أطّر هذه الرُّقعةَ الواسعةَ من جانبيها اللذين يقعان على شارعين حافلين بما لا يُحصَى من الدكاكين . وأرصد كلَّ واحدة منها لصاحب مِهنة خاصّة .

فالدكاكين رقم كذا ورقم كذا لا يؤجرها إلاّ لمزيّنين . والدكان رقم كذا لكوّاء . ورقم كذا لقصاب (جزّار) . ورقم كذا لخضرى . وأخرى لبقّال . وغيرها لبدّال . وغيرها لحاتٍ . وسواها لطبّاخ . وغيرها لفوّال . ولسمكرى . ولحدّاد . ولخيّاط . وهكذا مما يَسْتوفى مطالبَ الناس فى أسباب معايشهم . ولو قد خَلَت دكان من هذه الدكاكين ، فجاء صاحب حرفة أخرى ما أمكنه منها ، ولو أضعف له كراءها ثلاثة أضعاف .

فإذا كان الصباحُ انطلق إلى دكان اللّبان أو الفوال ، ووقف بصاحبها وناداه : يا حَجّ أحمد . أو يا عم مصطفى : هاتِ الأجرة (وفى لسانه لثغة تُخرِج الراء بين الراء والطاء) . فيجيبه الرجل : « يا فتّاح يا عليم . رايح أجيب لك الأجرة دلوقت منين ؟ إحنا لِسّه استفتحنا يا سعادة البيه ؟ » . فيحتدّ (البك) ويَصيح فى وجهه : إذن تَحوّل (يالله عزّل) . فلا يزال الرجل يستعطفه ويترضّاه ، حتى يَسْتدرجه إلى منضدة ، ويقدّم له اللبن الحليب وطبق القشطة . أو الفول المدمس مُعالَجًا بالزُّبد . وما يَبرَح يبالغ فى إلطافه وإيناسه حتى ينطلق راضياً بتأجيل كراء

الدكان أياماً أُخَر . ثم يَميل إلى صاحب المقهَى فيَصْنع معه ما صَنَع بالأول ، وتنتهي المسألة بتأجيل الأجرة بعد تقديم (كنكة) قهوة (بسكّر شويّة) ، ونَرْجيلة . حتى إذا بلغ من ذلك حظَّه ، قام فعدَل إلى الحلاَّق فطالبه بالأجرة . وانتهى المشكل بحلق رأسه أو إحفاء لحيته ، وتطييبه وتعطيره !

فإذا انحرفَت الشمسُ عن كبد السماء ، انخرط إلى (الحاتى) فطالبه بكراء الدكان ، فيعتذر بضيق ذات اليد (ووقوف السوق) فيكرر عليه ، فى حدَّة وحزم ، طلبَ الأجرة أو التحوُّل (العِزال) من غَدِه . والرجل يُطامنه ويَستعتبه حتى يَرضى بالاستواء إلى إحدى المناضد ، فما هو إلاَّ أن يَجدَ بينَ يديه رِطلاً من الكَباب وآخر من (النيفة)، وألواناً من الكوامخ والمشهّيات . فإذا أصاب من ذلك كفايته ، مضى إلى الحلوانى ، فانتهى الأمرُ بقطعتين من الفطير وثلاث من (الهريسة) . ثم قام إلى الفاكهانى ، فأصاب ببركة تأجيل دفع الأجرة ، ما شاء من تُفَّاح وموز وعنب .

فإذا كان المَساء أعاد الكَرَّة ، ولكن على غير من اعترامهم فى نهاره . وللكوَّاء يومٌ فى غسل الثياب وكَيِّها . وإذا انصدعت أنابيب المياه فى البيت أو فسدت صَنابيرُها ، فهناك السَّبَّاك . وهناك الزَّجَّاج لما يتكسر من زجاج الشَّبابيك . والنجار لإصلاح ما يَتصدَّع من الأبواب . وهكذا !...

فاذا أراد الشرابَ فى إحدى لياليه طلبَ حانةَ أنستى أو بَندلى . وهما من سكَّانه أيضاً . وصنع مع الأروام ما يصنع بأبناء البلد .

ولعله إذا كانت ليالى الجُمَع صَعِد إلى أعلى التَّـلّ فاقتضَى سكانَه المساكينَ الأجرة أو . . . . (العزال) . . !

رحمه الله رحمةً واسعة ؛ وعزَّى (الاقتصاد السياسى) فيه أحسنَ العزاء !

فى البخل ! . . .

قرأت كتابَ « البخلاء » للإمام الجاحظ أكثرَ من مرَّة . ومما وقع لى فيه أنه ما من رَجل مُبَخَّل ، إلاَّ يَحتجّ للشحّ والتوفّر على الجمع ، بالضَّنّ بالولد على الفقر، وترك ما يَدفع عنهم الحاجةَ والابتدالَ فى طلب القوت .

ولقد دَمَغ الجاحظُ احتجاجَهم هذا بحجَّة رائعة . وتلك أن الخِصيان (الأغوات) جميعًا يَشيع فيهم الشُّحّ ، وتغلِب عليهم شهوةُ الجمع والادّخار ، والضَّنّ على النفس بالدانق والسُّحتوت . وليس لأحدٍ منهم ولد ، ولا يُمكن أن يكون له ولد ! . فلمَن يَكنِز الأموال ؟ ولمن يُضيّق على نفسه فى حياته . ليوسّع عليهم و يرفّه عنهم بعد مماته ؟

الواقع أن شهوةَ الحرص وجمع المال ، هى فى نفسها عند البخيل لذَّة لا يَكاد يَعدِلها شىء من لذائذ الدنيـا . هى فى نفسها لذّةٌ غيرُ موصولة بعلّة ، ولا ممدودة بسبب . لأن الإنسان إنما يُحبّ ولدَه لأنه يُحبّ نفسَه ، وولدُه بعضُ نفسه . ولا يُعقَل أن يؤثر الفرع على الأصل ، أو يرجّح البعض على الكلّ !

والبخيل يُقتّر على نفسه وعلى ولده معاً . وقد يكون عنده من جليل الأموال ما إن وسَّع منها على نفسه وعلى عياله معاً ، لبقِيَ منها ، بعد موته ، ما يتضمَّن لهم العَيشَ فى السَّعة ، والتقلُّبَ فى النعمة . ومع ذلك فانه لا يَفعل . بل تراه يتعمَّد الحِرمان لنفسه ولأولاده ، و يَثبُت لِحقدهم عليه ، وتعجُّلهم لأَجَله ، ليستمتِعوا بالنعمة إذا هو اندسَّ فى التراب ، وأضحى أكيلَ الدوابّ !

على أننى وقعتُ على لونٍ من البخل ، لعلك كنت تراه غريباً ، وأحسبُك الآن تراه غيرَ غريب : فلقد جَرت سُنّةُ البخلاء على أن يقتروا على أنفسهم وعلى

عِيالهم معاً . فاذا كان لولدِ أحدهم شيء من السَّطوة عليه ، استَخرَج منه الأموال ، فأخرجَها له مُرغَمًا مغلوبًا ، لا إيثاراً للولد . وبَقِيَ هو فى شحَّه على نفسه ، ارتكاباً لأخفّ الضررين (التوسيع على النفس وعلى الولد معاً) !

أما النوعُ الذى وقعتُ عليه من البخل ، وتحسبه غيرَ مألوف ، فلقد كان لى صاحبٌ عَلَت به السِّنّ ، ورُزق الضدَّين (الغنى والعَيلة) . فقد اجتمع له ، من زوجاته الثلاث ، ما لا يقلّ عن اثني عشر ولداً . ولا بدّ له ، رضى أو كره ، من أن يَحمِلهم . وكان ، رحمه الله ، رجلاً شديدَ الحِرص عظيم الطمع . يَجمع الدانق على الدانق ، ويرصّ الملّيم على الملّيم . ولا يكاد كيسُه يتَفصَّد إلاَّ فى بناء دار أو شراء ضَيعة . ولكنه كان يخالف سُنَّة البخلاء فى خَلَّة واحدة : ذلك بأنهم ، كما تعرف ، يقترون على أولادهم وعلى أنفسهم معاً . ولكن هذا إنما كان تقتيرُه موجَّهاً على عياله وحدَهم . أمّا نفسه ، فكان لا يَحقِن فيها شهوة ، وبخاصَّة شهوة الطعام . بل لقد كان يبلغها من هذا غايةَ مناها ! .

وكان ، رحمه الله ، إذا سافر رَكِب من القِطار فى الدرجة الأُولى . أما أولاده فيشحنهم فى (الترسو) أو ما دون (الترسو) لو كان له دون ! . وإذا لَبِس فمن (تفصيل) ديليًّا أو فستا . أما بنوه ، فعليه أرخص القماش ، وعلى أمهاتهم (التفصيل) ! وإذا نام افترش الحرير ، وتوسَّد ريشَ النَّعام ، أما البنون ، ففى (الكليم) متَّسَع للجميع !

أما الطعام ، وما أدراك ما الطعام ! فالخبزُ أولاً يُصنَع فى البيت كلَّ أسبوع ، على ألاَّ يُنفَى من الطَّحين إلاّ النُّخالة ، وسائره للعجين ! . وأما الإِدامُ فهيهاتَ للحم أن يزور دارَه (العامرة) ، فلقد أخذ بنيه فى هذا الموضع بالوَرَع ، وجَلاَ عليهم الحكمةَ فى الحديث الشريف : (نعم الإِدامُ الخَلّ) . فللغَداء

الكوامخ (السَّلطات) أشكالاً وألواناً ، و (لأمّ الفلافل) وأخواتها من الخوان المقامُ الكريم !

وأما العَشاء ، فله فيه صُنعٌ بديع ! :

يَدخل وقتُ العشاء ، فإذا صاحبُنا قد سَلَف وأعدَّ بعدد الأولاد ملاليم . فإذا اجتمعوا إليه مستشرفين لعَشائهم ، قال لهم : (اللّى ياخد مليم ما يتعشَّاش ، واللّى يتعشَّى ما ياخُدش مليم ! . مين اللى ياخد مليم ؟) . ويدفع أحَدهم فيقول (أنا !) ، وعلى حكم غريزة التقليد فى الغِلمان ، يُسرعون فيتصايحون : (أنا ! أنا ! أنا !) . فيدفع إلى كلٍّ منهم مليّمه ، وكفاه الله مؤونة العَشاء ! أعني عَشاء الأطفال !

وبعد ، فللفطور قِصَّةٌ أخرى : ذلك بأنه زعم للزَّيات القائم على رأس الشارع ، أن لديه حَمَلاً يربّيه ويحبّ أن يُسمنه ، ويُجزل لحمَه وشحمه . وليس يَعقِد له ذلك ويُسرع فيه أفضل من خُلاصة[1] (تصافى) قِدر الفول يَطعَمها فى الصَّباح . فيحتفظ له الرَّجل (بخُلاصة) قِدر العصر ، ويبعث إليه بها فى الصَّباح الباكر ، والأولادُ بعدُ نيام . فيفرغها فى صَحفة كبيرة ، ويعالجها بقَدر من الخَلّ ، ويُصَفِّف حولها كسَر الخُبز التى أفضلَها الأولادُ فى غَداء أمسِهم . حتى إذا هَبُّوا من النوم ، وأحشاؤهم تَتنزَّى من شِدَّة الجوع ، فتواثبوا إلى الطعام ، صاح فيهم : (اللّى عاوز يفطر يجيب المليم !) ، فلا يسَع كلا منهم إلا أن يَطرحه إليه ، مواتاةً لألحاح البطن ، وإيثاراً للعافية . فسَرعان ما تعود تلك الملاليمُ إلى عُشّها ، وتَعتصم بوكرها !

***

أما هو نفسُه ، فإنه يخرج فى الصباح من داره على الطَّوَى . فيَميل فى طريقه إلى الديوان على دكان لبَّان ، فيُصيب فيه ما شاء اللهُ أن يُصيب من الحليب ،

(١) الخلاصة : ما بقى فى البُرمة من ثُفل أرز لبن أوغيره .

أو اللبن الخاثر (الزَّبادى) ، أو (القشطة) . وقد يَميل إلى (حلوانى) ، فيُصيب عنده ما شاء اللهُ أن يُصيب من لبَن وشاى ، وفطائر مَدحُوَّة ، وأخرى بالفُسْتق والزبيب محشُوَّة . الخ الخ . فإذا فرغ من عمله فى الديوان ، عَرَّج ، فى مَقفله إلى الدَّار ، على الحاتى أو على غيره من المطاعم الفاخرة ، فأَوْصى وتخيَّر ، وتبسَّط على الطعام ، حتى إذا سدّ شَهوته ، وكظَّ لَهوتَه ، انكفأ إلى البيت راضياً هانئاً .

أما العَشاء ، فإنه يُصيبه فى البيت قبلَ أن يتدلَّى إلى السَّهرة . وذلك أن يَبعث الخادمَ ، فى سِرٍّ من بَنيه ، فيأتيه بقَدر كفايته من خفيف الطعام وفاخره . ولا يَنسى أن يأتى معه بنصف أُقَّة عنب ، أو بزَوْعة (شقة) بطيخ ، أو ثلاث كُمَّثرَيات ، أو غير ذلك من فاكهة الأوان . حتى إذا دسَّها له فى غرفته الخاصَّة ، قام إلى الباب فأَحكم رِتاجَه ، وجلس مطمئناً إلى العَشاء !

ومن أظرف ما يُذكر هنا أن الأولاد ، وبخاصَّةٍ صِغارهم ، كانوا يَرتصِدون لهذه الساعة ، حتى إذا اجتمعَ أبوهم للعَشاء ، تواثبوا إلى الباب (ليتفرَّجوا عليه) من الثَّقب . فترى هذا يتوسَّل إلى أخيه أن يُخلى بينه وبين الثُّقب ، وهذا تراه يثب وثباً ، ويدفع صاحبَ النَّوبة دفعًا . وهكذا . وكانت تكون جَلبةٌ وصياحٌ وعويل . والأبُ مُمعِنٌ فى طعامه ، لا يُعنَى بأن يَسأل عما وراء الباب !

*
* *

وفى يوم موته ، رحمه الله ، لم ينتظر هؤلاء الأولادُ حتى يقسِّموا التركة ، ويهتدوا إلى اسم المصرِف الذى يكنز فيه (المرحوم) مالَه . بل لقد كنتَ ترى أحدهم يُهروِل فى الطريق وعلى رأسه (شُبَّاك) . والثانى وعلى كتفه مِصراعُ باب . وثالثاً يحمل بين يديه طَستاً . ورابعاً يحمل مِقطفاً مُلئ بالصنابير (الحنفيات) . وهكذا ! . . .

فهل هذا أيضاً كان يَجمع للولد ليَعصِمَهم من الفقر ، ويَكُفَّ عنهم عادِيَةَ الدَّهر ؟ !

خير البرّ عاجله ! . . .

أصحاب اللُّقَط والتعويض !

تلقيت أمس الكتاب الآتى :

حضرة محرر اليوميات :

أرجو إن سَمَحت ، أن تنشُر خطابى هذا وتتفضَّل بالإجابة عما عزَب عن علمى ، وتحيَّر فى تعليله فهمى ، ولك الأجرُ والثواب ، من الكريم الوهاب :

رَوَى لنا التاريخُ أن السُّلطان سليماً ، كافأه الله بما يستحقّ ، لما تمّ له فتحُ مصر واعتزم القفول إلى بلاده ، جَمع فيما جمع أمهرَ الصناع وأحذقَهم ، ممن لا تزال آثارُهم فى المساجد ، والأسبِلة ، والرِّباطات «التَّـكايا» ، وماحوت المتاحف ، ناطقةً بما بلغت مصر من علوّ الكعب ، والبراعة البارعة فى مختلف الفنون والصناعات : وبلغت عدَّةُ هؤلاء المفتنّين والصناع فى رواية بعض المؤرخين عشرةَ آلاف ، وزاد بعضُهم عليها ، ونقَص بعضُهم منها ، وأشدُّ المؤرخين قَصداً من قدَّرهم بألف . وعلى كل حال فقد انحطت الصناعة على أثر ذلك فى مصر واضمحلّ منها كثير .

على أننا ، لأول عهدنا بالحياة ، شاهدنا كثيراً من الصناعات البَلدية تعالج كلاً منها طوائفُ من الناس ، ويتَّخذ كلٌّ أرباب حرفة ، وبخاصة فى القاهرة ، رُقعةً معيَّنة ، فصُنَّاع القِرَب مثلاً فى القِرَبية . وصُنَّاع الأحذية البلدية (المراكيب) فى السُّروجية . وصنــاع الشمع فى السُّكَّرية ، وخراطو الخشب تحت الرَّبع ، والقرَّادون (القرداتية) فى حوش بَردَق . (والأدباتية) والحواة فى (عشش الترجمان) . والشحاذون فى عرب اليسار الخ الخ .

وما بَرِحت هذه الحِرَف تَنقبض وتضمحلُّ رويداً رويداً ، بما يَهجُم عليها من مصنوعات الغَرب وأسبابه . فحلَّت (السَّيارةُ) محلّ البغل ، ومياهُ الصنابير (الحنفيات) محل قِرْبة السَّقَّاء ، و (السينما) محل خيال الظِّلّ ، وموسيقى

الأروام ، التى يطوفون بها المقاهى ، محل جوقة (ألاَ يا بدر لم أنظر مثالك) . واللاعبون من أولئك بالكمان محل (رَمز) الخ الخ .

ولم يبق ثابتاً قوياً يزداد على الأيام إلاّ طائفة الشحاذين (والبركة فيهم) !

وكل هذا ، لسوء الحظ ، معقولٌ مقبول ، ما دامت سُنَّة الكون واحدة لا تتبدَّل ولا تتحوَّل ؛ وهى بقاء الأنسَب ، وعدمُ ثَبات الضَّعيف أمام القوىّ .

ولكن الذى لا يُعرَف سببُه ، ولا تُفهَم علّتُه ، زوالُ مِهنتين قويَّتين كانت تحتكر كلاً منهما أُسرةٌ واحـدة ! والاسرتان كلتاهما كانتا تسكنان حارةَ اليهود .

وفاتني أن أذكر لك أن هاتين المِهنتين كانتا تَدرَّان الرزق على أصحابهما ، فكانوا يَعيشون فى أوسع عيش ، ويَتقلّبون فى أنضر نعمة ، ألاَ وهما طائفةُ (الملاقياتيَّة) ، وطائفةُ (التعويضجيَّة) ، وكذلك يُدعَون فى عُرف العارفين .

وأفرادُ الطائفة الأولى ، كانوا يَخرجون بُعيَد انصداع الفجر ، فيَتقسَّمون بينهم مناطقَ حىِّ الأزبكية : هذا يَطلب مَيدان ابراهيم باشا ، وهذا يَطلب شارع (وجه البركة) ، وهذا شارع (كلوت بك) الخ . فإذا بلغ الواحدُ منهم أولَ المنطِقة مشى وَئيداً ، وهو متَكَئٌ يحدِّد نظره فى الأرض ، ويَتفقَّد كلَّ دقيق على ظهرها . حتى إذا انتهى إلى آخر المنطِقة ، عاد فى خطٍّ موازٍ للخطِّ الذى قدِم منه . ولا يزال كذلك رائحًا غاديًا فى خطوط متساوية ، فِعلَ الحرَّاث فى الأرض . وكلما أصاب لُقطةً من كيس ، أو دينار ، أو درهم ، أو حِلية ، أسرع فالتقطها ودسَّها فى جيبه . ثم عاد إلى داره يَعيش أخفضَ العيش ، بفضل هذا الغُنْم الذى لم يُجشّمه إلاّ ما رأيت !

أما (التعويضجيّة) وكفاكَ اللهُ السوء ، وعَصَمك من المكروه ، فهم أكثرُ من إخوانهم مالاً ، وأوسعُ نعمة . وربما رأيت فيهم من يَلبس الحرير ، ويَتختّم باليواقيت، ومن يحوز السيارة ، ويَقتني خيلَ السباق، ذلك أن مهنتهم الاستهدافُ، بقدرٍ مّا ، للأخطار ، والتعرّض لألوان من الأذى ، ليقتضِي المكلوم على ما حلّ به ، التعْويضات . فتراه يَقِف على سُلّم الترام مثلا . حتى اذا أغذّ السيرَ قفز منه الى الجهة المعارضة فشدِخ رأسُه ، أو رُضّ كتفُه . وإذا أبصر بسيارة مقبلة تغفّل سائقَها فسَنَح (لرفرفها) فخمش ساقه . وإذا أصاب جماعةً يلعبون (بالبليارد) جلس خلفَ أيسرهم حالا ، وحرّر عينَه لكعب العصَى (الأستيكة) وهى مرتدّة عن مَضربِها . وهكذا . وإما الصُّلح بعد هذا ، وإلا فالقضاء لطلب التعويض !!!

فما عِلّة انقراض هاتين المِهنتين ؟ إنني فى انتظار الجواب .

وتفضل . . . (م)

(اليوميات) أؤكد لك ياسيدى أنني لا علم لى بشىء مما ذكَرت على أننى سأبحث الأمر . وأُجيبك بكل ما أُحصّل من العلم فيما سألتَ . على أننى من الآن ألفت نظرَ جمعية تنشيط الصناعات الوطنية إلى هاتين المهنتين . فلعلّ فيهما مُرتزَقاً لهؤلاء الذين ضاق بهم العيش فركنوا الى التبطل ، أو نَشِطوا إلى الاتّجار فى السُّموم الكاوية من الكوكايين والهارويِن . وموعدنا إن شاء الله بالبيان قريب .

رزق... !*

وكان صلَّى الله عليه وسلم يمزَح ولا يقول إلاّ حقًّا. وسأمزَح أيضًا ولا أقول إن شاء الله إلاَّ حقًّا. وكيف أتفرَّج من هَمِّى بمثل هذا ؟ ولا أحسب القراء إلا أطلبَ منى لمثل هذا الفرَج !

على أننى لا أكون مصوِّراً فى هذه المرة . إنما أنا ناقل فقط ، فليس لى فضلٌ إذا راقتك هذه الصورة ، وليست علىّ تَبِعة إذا هى عَدَلت منك عن موضع الأعجاب : من عشرين سنة مضت كان فى مصر رجلٌ صاحبُ نجوم ، وعلم بالكفّ ، وزجر الطير ، والسحر ، والعيافة ، وتسخير ، الجن ، واستخراج كنوز الأرض . وكانت له جريدة جليلة تضرب فى هذه المباحث . وتشقّ الطرق بين يدى طلاب الغنَى ، وأصحاب المنَى ، فما تترك مرضًا إلاَّ تصف له علاجًا ، ولا تذكر من أغراض الدنيا غرضًا إلاَّ تدل فيه على أحسن حِيلة ، وتَهدى إليه بأنجع وسيلة ، ولكن العلم أمانة !

ولعلوم الغَيب أسرارٌ لا يَضطلع بها إلاَّ الراسخون من أصحاب الأقدام ، فكيف تريدون ابتذالَهَا للدَّهماء من سواد القراء ؟ الحق أن الخَطب فى هذه المسألة سهل . فاذا وصلنا إلى مواطن السرّ أغنَى الرمزُ والإشارة ، عن التصريح بالعبارة . فاذا وَصفَت الجريدة علاج الصَّرع وإخراج (إخواننا) ، ذكرتْ لك عَقّاراً أو بضعة عقاقير معروفة تشتريها من العطّار بنصف قرش . على أنها لا تَنجَع فى العلاج إلاَّ إذا أُضيف إليها نصف أوقية من (السرواق) ، وعليك أنت أن تطلبه ولو فى جزائر واق الواق !

وإذا هى علَّمتك استحضارَ الجنّ وصَرفَها ، جلَت عليك آية مبيّنة ، ودعاء واضحًا (وقَسَماً مفهومًا) . ولكن هيهات أن تُقبل عليك الجنّ . وإذا هى أقبلت

* نشرت فى « السياسة » سنة ١٩٣٥ تحت عنوان (ليالى رمضان)

فهيهات أن تَنصرف عنك إلاَّ إذا تلوت (القَسَم) الأعظم ، وهو سرٌ تُقَدّ دونَهُ الغَلاصم وتُقطع البلاعيم !

أما فتح مغاليق الأرض، واستخراج ما فيها من معاليق الجوهر والدُّرّ والمرَجان . والجونة التى تحتوى خاتم سليمان ، فعليك أولا أن تتوضأ بِنخْيٍ من اللَّبن ، ثم تصلّى لغير القِبلة ، وتهمهم بكيت وكيت. ثم تحرق الجاوى بعد أن تبلّه بماء الورد البلدىّ . ثم لن ينصدع بطن الأرض عن كنزك الموعود حتى ٥٧ — ٣٤ — ٨٢٥ — يانا . . . ف . . . ك . . . ياطانورش . . . يا شمهورش . . . يا عولص . . . يا ابن بولص . . — ١١ . . . ٣٤٥ . . . . . . وفى الناس الصَّرعى وفيهم الزَّمْنَى . وفيهم من رِكبته العفاريت الُحمر . وفيهم من أعياه طلب الغنى . وفيهم من ألحَّت على قلبه الصبابةُ والهوى . وهل لمثل هؤلاء صبرٌ على مطاولة الدهر فى حلّ هذه الرُموز ، لتَسقُّط ما حَجبت السماء من غيب وما أجنَّت الأرض من كنوز ؟

لا والله ودارُ الشيخ أقرب ، وأجرُه أسهل وألين

وكان فى مصر فتى يعالج ما كان يعالجه بعض أصحاب الصحف الأسبوعية فى ذلك الحين . وطوّعت له نفسه أن يَشخَص إلى الآستانة ، لعله يُفيد ببعض العبث السياسى مالاً . وما كاد يهمُّ هناك بشأنه حتى تناوله المرعب الذِّكْر فهيم باشا (السرخفيّة) ، وزجّ به فى الطابق، فلبث فى السجن بضع سنين لا يرى الشمس ، ولا يحسُّ النسيم ، ثم تهيأت له فرصة للفِرار ، ففرّ على باخرة كان علاجُه للخدمة فيها أجرَ سفره عليها . ودخل مصر بسلامة الله آمناً . وعاد إلى مهنته القديمة ، فأخرج جريدة أسبوعيةً ، لم تكد تُجدِى عليه كثيراً من الرّزق ولا قليلاً . وجعل يتحدث فيها عن (دار السعادة) ، وجيش (دار السعادة) ، وأُسطول (دار السعادة) ، والمناصب التى تقلّب فيها ، وماله عند رجالها من جاه وصَوت الخ الخ . .

كما جعل يَتصيَّد ضِعاف الأحلام من طلاب رتب (دار السعادة) ، ويُدخل في نفوسهم أن له فيها من الوسائل والأسباب ، ما يواتيه بكلّ ما شاء من الأوسمة والألقاب ، وأنه كان وسيلة فلان إلى رتبة (الروملي بيكلر بك) ، وفلان إلى رتبة (البالا) ، وفلان إلى (العثماني المرصع) . ويَستخرج منهم كلّ ما قَدَر على استخراجه على هذا الحساب .

وأخيراً اجتمع مع صاحبنا المنجِّم ، وعقدا محالفةً دفاعية هجومية كانت آية في اللُّطف والإبداع . فقد اتفقا على أن يَتظاهرا بالخصومة ، ويَتباديا بالعداوة ، وأن يلوّن كلٌّ واحد منهما لصاحبه الشتم والسب والإقذاع . ولكن على الطريقة الآتية :

تَخرج صحيفةُ المنجِّم فإذا فيها : (أن فلاناً يدَّعي أنه كان أقربَ المقرَّبين في دار السعادة ، وأن له فيها جاهاً لا يتسع له جاه ، وسلطاناً لا يَعلو عليه سلطان ، وأنه تقلَّد أرفعَ مناصب الدولة وتولى أعلى مراكزها ! . . ووالله ما عرفنا له جاهاً يداني جاهَ صاحب الدولة عزت باشا العابد ، ولا سمعنا بأن له كلمةً نافذةً إلاَّ عند الصدر الأعظم ، والسيد أبي الهدى الصَّيَّادي ، وتحسين باشا باشكاتب المابين ، وأمثال هؤلاء . ولا علمنا أنه تقلَّد من مناصب الدولة إلاَّ أنه كان رئيساً لمحكمة التمييز ، فمستشاراً لوزارة المعارف ، فعضواً في مجلس شُورى الدولة ، فسفيراً للدولة في برلين . وأي شيء هذا كله ؟ فاذا لم يَرْعو هذا الدعيُّ عن تبجُّحه ، فسيكون لنا معه شأنٌ يُخزيه ، إذ يَندَم ولات حين مندم » !!!

وتخرج بعد يومين جريدة صاحبنا (السياسيّ) فاذا فيها حملة شعواء على صاحبه المنجِّم من الطِّراز الآتي : « إن جريدتنا تترفَّع عن مجاراة رجل منجِّم فلكيّ في بَذاءته وقلة حيائه . ولنفرض أننا لم نتقلَّد من مناصب الدولة إلاَّ ما ذكر ، فما الذي تقلَّده هو من المناصب ؟ نظن أنه تقلَّد علمَ الفلك ، وصفة دوران السيارات ، ومجال

الكواكب ، واستخراج الغيوب ، وقراءة الكُفوف ، ومداواة الأمراض المستعصية بالطرق الشائنة . ونحن نمسك القلم الآن ، ونُنذره عدمَ العودة إلى هذه الوقاحات ، وإلاَّ فنحن غير مسئولين عن كشف مخبآته ، وإظهار سَوءاته ، ومن أنذر فقد أعذر . والسلام » !!!

وتخرج صحيفة (المنجِّم) على رأس الأُسبوع فإذا فيهـا : « يهدِّدنا صاحب جريدة . . . بكشف مخبآتنا ، فليكشفها فنحن لا نخشى أمثاله . ولكن ليقل لنا هو عما يَخدع به الأَغرارَ والمفتونين ؟ يدّعى هذا الدعىُّ أنه يأتى للناس برُتَب الدولة وأوسمتها ، ما شاء الله !! فهل يستطيع أن يأتى بأكثر من رتبة (بالا) ، أو (روملى بيكلر بيك) ، أو المجيدى الأول ، أو العثمانى الثانى . وأىُّ شىء كل هذا ؟ وفى استطاعة مثل ناظم باشا أو عزت العابد باشا ، أو باشكاتب المابين ، أو حتى السيد أبى الهدى أن يأتى بمثله . فإن كان يدَّعى فى دار السعادة جاهاً حقاً ، فليَجِىء لأىِّ كان برتبة الوزارة أو بنيشان الامتياز المرصَّع . ونحن ننصح لكل من يستهويهم هذا الرجلُ من طلاب هذين الإنعامين ألاَّ يصدقوه . وقد أديتُ حق النصيحة . « إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإِصْلاَحَ ما اسْتَطَعْتُ ، وما تَوْفِيقِى إلاَّ بالله » !!!

وتخرج صحيفة صاحبنا (السياسىّ) بعد يومين ، فإذا هو لم يُبقِ لصاحبه من فنون الشتم ولم يَذَر : « مكانَكَ أيها الرجل ، وإلاَّ بلغنا عنك النيابة . فما زلت تَغُشّ المساكين وتَخدعهم : تدعى أنك تُبرِئُ من العمَى . فهل لك أن تدلنا على حادثة واحدة أبرأت فيها أكمهَ واحداً[1] ؟ وتقول إنك تُخرج العفاريت . سلمنا ! فهل تستطيع أن تسخِّر الجنّ أيضاً ؟ وإذا سخَّرتهم ، فهل تَقدِر على التصرُّف فى سلطان الجنّ الأزرق ؟ فان أجبت بالإيجاب ، فأنت غاشٌّ كذَّاب ! ثم تدعى أنك تَستخرج الكنوز . فخبِّرنا كم كَنزاً فتحته فى هذا الشهر ؟ إن زعمت

(١) الأكمه : من ولد أعمى

أنها أكثرُ من أربعة، فأنت والله مزوِّر نصاب. ثم هل تَجرُؤ أن تصرح بأنك فتحت كَنزاً لأحد قبل أن تُبهِظه بنفقات البخور ، وأجور من تستخدمهم من أعوانك فى سهر الليالى للقراءة والسِّحر، وفى مراقبة النجوم، لمعرفة الوقت المعلوم. وقد يَقتضِى ذلك الخمسين والستين جنيهاً. تَنحِتونها من الرجل نَحْتاً، وتأكلونها حراماً وسُحتاً؟؟

ثم لا تستحى من أن تعالج أهل الصبابة والهوى ، وتُبرد ما فى صدورهم من نيران الحب والجوَى ، ولا تَستخذِى من أن تَكتب الرُّقَى لمهجورهم ، فما هى إلاَّ لمحة حتى يذِلَّ بين يديه من أرهقه بطول الصدِّ والدَّلال، فان لم يُسعِده سِحرُك بشخصه أسعده بطيف الخيال!

أين الشرف؟ أين المرُوءة؟ أين الدِّين يا حماةَ الدِّين؟ وكيف تسكتون عن هذا الخَناس الوَسواس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجِنَّة والناس؟

فهنيئاً لك وحدَك يا رجل ما أنت فيه من ذِلة وهوان ، ولن تكون عاقبةُ فتنتك للعالَمين إلا الهلاكُ والخسران »! اه

وهنيئاً بعدُ هذا للرجلين كليهما بمن يَحتَشِد إليهما من طلاب الغنى والجاه والعافية من السَّقَم، والتقلّب عفواً فى جميع وجوه النعم!

وهل تستطيع أن تقطع عن الأرض أسبابَ (النَّصْب) والاحتيال ، إلاَّ إذا أخليت وجهها من المشعوَذين وسَواد الأغفال؟؟

ولن يستطيع العالمَ أن يبلغ هذا ولو بعد حين ، وسيبقى أبداً (رزق الهبل على المجانين) !!!

ولع ! . . .

لبعض الناس ولعٌ غريب بهُتاف الصحف بهم وترديدها لأسمائهم ، فهم دائبو الجهد فى اختلاق المناسبات مهما تَفُهت ، ليَحملوا عليها أسماءهم إلى الجرائد . وإنى لأعرف رجلاً أتلف ثروة ضخمة فى سبيل بسط الثناء عليه ، وترديد اسمه على متون الصحف ، كما أعرف موظَّفينَ لا شأن لمناصبهم فى الحكومة ولا خَطَر ، لقد يسافر أحدهم ، فى غير حاجة ، لتنشر له الصحفُ خبر عودته (بالسلامة) ، وأنه : « ذهب توًّا إلى مكتبه بوزارة (كذا) أو بمصلحة (كذا) . » تشبهًا بما يُكتب عن كبار الحكام ! . . والله يعلم أنه ما ذهب (توًّا) إلاَّ إلى إدارات الجرائد لتزفَّ إلى جمهرة القراء بشرى عودته الميمونة ! .

وأغرب ما رأيت فى هذا الباب أننى مضيت فى إحدى الليالى لزيارة صديق لى يتولى رياسة التحرير فى جريدة كبيرة ، فلم أجده ، فاستوَيت إلى مكتبه لأثبت له رُقعة بحضورى لزيارته ، وبثّ الأشواق التى جرت العادة بينها ، والله يعلَم إن كانت مما يَطوى القلب أو مما يَنشر اللسان ! وإذا رجل فى حدود الأربعين يلبس قَباء أرسل عليه معطفًا استرسل إلى كعبه ، وعلى رأسه طربوش متواضع جداً . وكان جاء لينشر فى الجريدة إعلانًا يتعلق (بدائرة) مولاه . فلما فرَغ من شأنه التمس غُرفة رئيس التحرير فدلُّوه عليها . فأقبل علىّ فى خشوع وشدة تظرُّفٍ ، وجرى بيننا ، بحضرة بعض المحرِّرين ، هذا الحديث :

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وأزكى تحياته ! .

— محسوبك فلان ناظر زراعة سعادة فلان باشا .

— تشرَّفنا !

— بَسّ من فضلك . . .

— من فضلى ماذا ؟

— من فضلك يَعنى . . .

— من فضلك أنت ، ماذا تريد من فضلى ؟

— بسّ تسمح (تنشرنى) فى الجرنال !

— أنشرك بأى مناسبة ؟

— يعنى تقول فلان !

— أقول فلان ماله ؟

— يعنى تكتب فلان !

— يا سيدى ، فلان هذا مبتدَأ ، وكل مبتدَإ لا بدَّ له من خبر . فنحن إذ نذكر فلاناً ، لا بد أن تقول شيئاً جرى له أو جرى عليه . فكيف تحبّ أن تقول ؟

— تقول : فلان جاء عندنا فى الإدارة .

— كل يوم يختلف إلى الإدارة خمسمائة رجل ، فلا ينشر عن واحد منهم فى الجريدة كلمة واحدة !

— أُمَّال إيه الطريقة علشان أنكتِب ؟

— ذِكر الناس فى الصحف إنما يكون لمناسبة كوقوع حادث ، أو القيام بعمل عامّ أو خاصّ له بعض الشأن ، كإقامة حفلة عُرس ، أو مأتم ، لا سمح الله . ونحو ذلك . فهل عزمت على الزواج ؟

— أنا متزوج .

— ألَك ولدٌ أقدمت على تزويجه فننشر لك نبأ عُرسه أو خِطبته ؟

— ولدى ما يزال صغيراً .

— إذن فاختِنه واحتفل بخِتانه .

— سبق أن ختنته من مدة طويلة !

— لم يبق يا صاحبى إلاَّ أن تمرَض وتنشر خبر مرضك و إبلالك !

— وحياة النبى يا بيه إن (أشْبِتِى عيّانه) !

— فما شَـكاتُك ؟

— يعنى ما فيش مُرُوَّة زىّ زمان !

— إنما أريد المرضَ الذى يُلزم الفراش، ويَستدعِى الطبيب ، ويَبعث القلَق فى الأهل والأصدقاء !

— طيّب وأعمل ازّاى فى الحكاية دى . . . ؟ (وقد أطلقها فى قلق وحيرة وانكسار) !

— قلتَ لى كيف تصنع؟ وإنى لأدلّك على السبيل: ما عليك إلاَّ أن تَمضى من هنا قُدُمًا إلى البلد ، فتتقدم إلى أهلك بأن يُحمُوا لك الفرن ، فتظل قاعداً بأزائه حتى تتفصّد عَرقاً ، ثم تستحمّ من فورك بماء بارد . ونحن ولله الحمد فى صميم الشتاء ، فتأخذك الحُمَّى يومين أو ثلاثة ، وتبرأ بعدها فنسوق للقراء خبر مرضك ، ونزف إليهم البشرى بشفائك !

فبسَط الرجل كلتا يديه ، وأدار وجهه إلى السماء ، وأقبل يدعو جاهداً : (الله يخليك ! الله يعمر بيتك) !

وانطلق إلى حيث يخرب بيته هو ! .

شفاه الله إن كان حياً ، ورحمه الله إن كان فى الأموات ، وغفر لى فى الحالين .

والولعُ بالذّكر فى الصحف فنون . . . ! .

عبقـــرية !

جلستُ اليومَ إلى جماعة من أصحابى ومعهم (فلان) من رجال التربية والتعليم . وجرى الحديثُ فى أَمثَل الطرُق لتربية الأولاد وإعدادهم للحياة . وراح كلٌّ منهم يُدْلى برأيه وتجاربه فى هـذا الباب ، وما أَخذ به بنيه الكِبار ، وما أضمره لطِفْله الصِّغار . فقلت ، بنوبتى : لقد ذقتُ الأمرَّين فى تعليم الأولاد ، حتى عزمتُ ، إذا وصَل الله فى أَجَلى وأَجَل محمد أصغر أولادى ، حتى يَبلغ السادسةَ ، أن أُسلِكه فى كلية (فـكتوريا) برمل الإسكندرية . فلقد نَصَح لى بذلك من لا أشك فى صدق تجاربهم . فابتدرنى هذا المربِّى الفاضلُ بنصيحة غالية حقًّا ، نافعة حقًّا . وهى أن أُلحِق طفلى فى تلك الكلية بالقِسم الداخلىّ ! . .

ولقد صكّت هـذه (النصيحة) جهازَ عصبى ؛ على أننى كتمت عَجبى ، وتظاهرت بالتطامن ، وتسريح الفكر الوادع ، وقلت له : لقد أشرتَ يا سيدى بالرأى ، فإننى إذا لم أفعل وجد الغلامُ بعضَ المشَقة فى الشخوص إلى الإسكندرية سُحرةَ كل يوم ، والعودة منها قَرابة منتصف الليل ! . . فأقبلَ علىَّ فى ابتسامة الذاهب بجَودة رأيه ، الشاعر بتقدير الناس له وقال : (مش كده والاّ إيه ؟) !!!

فرحت أزُفّ إليه أبلغ الهناء ، على تسعُّر هذا الذكاء . فتفضل بقبول الشكر ، فى شىء من التواضع . . . ولا فخر ! !

مفتش عموم . . . !

اعترضنى اليومَ فى مَقفلى من الديوان شابٌ أنيق المَلبس ، لعله طالبٌ فى إحدى المدارس العالية ، أو فى السنين الأخيرة من التعليم الثانوى . وقال لى : (يا عمّ) كم الساعةُ الآن ؟ فطالعت ساعتى وقلت له : الساعة ٢ وسبع دقائق . فحَسر كُمَّه الأيسر ، فانكشف عن ساعة يد ذهبية ، ونظر فيها وقال : لا ! لا ! ساعتك مؤخّرة أربع دقائق ! ثم خَلَّى بينى وبين الطريق ، وانطلق لطيته !

*
* *

وبعد أن أجلْت ظنى فى شأنه ، أدركت أنه ربما كان . . . . « مفتش عموم الساعات » !

الغـــرام المجانى !

هناك فى ميادين العتبة الخضراء ، والخازندار ، والسيّدة زينب ، و باب الخلق ، وغيرها من المواطن التى يَكثُر فيها الصاعدون إلى مركبات الترام ، والهابطون منها . فى هذه المواطن ترى طائفةً من الشّبان ماثلين دائماً ، وقد رَجَّل كلٌّ منهم شَعرَه ، وأمال طربوشه ، وحمرَّ شفتيه ، وصَقَل عارضيه وحِذاءه ، وتأنَّق فى سائر ثيابه ، ودلَّى طَرَف مِنديل حريرىّ على نَهده الأيسر . وراح يَتمشَّى على الطُّوار (الرصيف) فى لين وتكسُّر ، حتى ما تَدرى حقيقةَ شأنه : أهو فتى متأنِّث ، أم آنسة مُتفتّية ؟ ! ولا يزال ذلك شأنه حتى يُقبل القِطار ، فإذا انحدرَت منه سيدة أو فتاة عذراء عليها مَسْحة من جمال ، أسرع فترَاءى لها وهو يصُفّ خيوط « زرّه » ، ويُسوِّى شعرَ حاجبيه ! ويضبط ربطةَ عنقه . وتأخذ السيدةُ أو الفتاةُ سَمْتَها ، فيَمشى وراءها ، فإذا تَيامنَتْ تَيامَن ، وإذا تَياسَرَتْ تياسر خلفَها ، حتى لتحسبه من بعض ظلِّها . وهو يتمتم بكلام غير واضح ولا مفهوم ، حتى إذا أمِنَ غفلةَ العيون ، أسرع حتى حاذاها وعرض عليها نُزهةً فى الجزيرة ، أو حدائق القبة مثلاً ، فلا يكون شأنُ الحرائر دائماً مع هؤلاء العشّاق إلا السكوت المطلق ، أو سوء الردّ بالسبّ والشّتم . ومع ذلك فهيهات أن يَنثنى (صاحبنا) أو يَتَداخله شىء من الحياء أو القنوط . بل ما يزال على ذلك حتى يُبلغها الدارَ التى تَطلبها ، ولا يرجع إلا أن تَصُكّ مصراعَ الباب فى وجهه صَكّة يُسمَع لها دوىٌّ كهدَّة الهدم . ويعود إلى (الموقف) الذى اختاره لهواه ، وتَعاهَدَه لغَزَله ، وقَصْد صبابته ، وهكذا مايزال هذا شأنه وديدنه من الساعة الثامنة صباحاً إلى ما بعد الساعة التاسعة مَساء !

ولعله ، لكيلا يُضيع ساعةَ الهجير فى الانقلاب إلى البيت للغَداء ، إن كان لمثل هذا بيت ، يَدُسّ من الصَّباح الباكر غَداءه فى جيبه ، فيجرّد (للهوى) عامّةَ نهاره وليله !

* * *

وإنك لو فَتّشتَ نفوسَ هؤلاء وامتحنتَ عقليَّاتهم ، لخرج لك من بحثِك شىء عجيب : ذلك أنك تَحسب أنهم يؤمنون إيماناً وثيقاً ، ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أن جميعَ نساء القطر المصرى وساكناته مباحاتٌ مبذولاتٌ الأعراض لهم ، اللهم إلا البَغَايا فقط ، فهؤلياء وحدَهن العفيفاتُ الشريفاتُ المصونات ، اللائى ينبغى إذا طَلَعن عليهم أن يُطأطِئوا رؤوسَهم ، ويَغضُّوا أبصارَهم ، ويَعقِدوا ألسنتَهم !

وذلك الظنُّ يَخرج لك من أنك تراهم لا يتبعون إلا مُحتشِمةً فى طريقها ، متوقّرة لا تَتثنّى ولا تَتخلّع ، ولا تُرسل على النّاس نظراً حاداً . أما المائعةُ المترجِّحةُ فى مِشيتها ، المفتَنّةُ فى إبداء زينتها ، الدائمةُ التلفُّت إلى يمينها ويسارها ، المثبتةُ نظرَها فى كلّ من لقيَها ، فهذه يولونها ظهورَهم ، لأنها لا مَطمعَ لهم فيها ولا أمل ! !

والواقع أنك يا سيدى فيما استنتجتَ من شأن هؤلاء جِدُّ مخطىء ، ولو أردتَ أن تَقع من أمرهم على الصَّواب ، فاعمِد إلى أىّ واحدٍ منهم ، وفتِّش بأيّة وسيلة جيوبَه ، فلن تظفَر فيها إلا بثلاثة قروش (تعريفة) على الأكثر ، وصورة فتاة رائعة الجمال استلّها من علبة دخان ، وكتاب خَطّه بيده لنفسه ، على لسان فتاة تكاشفه بهواها ، وتصِف ما لحقها عليه من الولَه ، (وكان الله بالسر عليما ! !) . وهذا الخطاب وتلك الصورة هما كلُّ أداته وعُدَّته فى مُهِمّه ، وهما كلُّ وسيلته فى الإعلان عن نفسه ، وأنه ملتقَى الأنظار ، وقِبلة القلوب الولْهَى عندَ أصحابه المغفلين ! !

لهذا لا تراه يتقدّم إلى بَغيّ ، أو نصف بَغيّ ، لأنها ستجيبه إلى طلبه ، وهو يعلم أنه صِفْر الكفّ خالى الوِفاض ! . ولو قد تشجّعت سيدةٌ ممن يَتبعهن ، ويضايق أنفاسَهن ، فسألتْه أن يَجيء بمركبة أو بسيارة (تكس) ، ليخرُجا للنزهة التى يدعو إليها ويُلِحّ فيها ، لرأيته قد دار على كعبه وطار على جناحىْ نعَامة !

*
* *

ولهؤلاء الغِلمان صَفاقةٌ عجيبةٌ ، وفتنة بالنفس مدهشة . وهذا شىءٌ تَشهَده كلّ يوم فى شوارع القاهرة وميادينها . فإن الرجل المحترم لَيَسكون فى مركبته أو سيارته مع زوجته أو أخته أو بنته ، وتقف بهما فى بعض الطريق لأىّ عارض ، فلا يستحى الغلامُ من هؤلاء أن يقف فى مقابلة السيدة ، ويحدّ فيها عيناً ما يَختلِج لها جَفن إلاّ بالغمَزات ، وإظهار التّصابى ، وترى دعوتَه واضحةً صريحة ، بحركاته الكثيرة المضحكه ، إلى أن تَستأذن السيّدةُ أو الفتاةُ زوجَها أو أخاها أو أباها ، فى النزول إلى « حضرته » لتروِى غلّتها من غرامها بهذا العاشق (السَّرّيح) ! !

ولقد شَهِدت بنفسى فى هذا الباب حادثاً ظريفاً : ذلك أننى ركبتُ الترامَ يوماً من المحطة التى أمام المدرسة السَّنية ، وصَعِدتْ سيدةٌ جميلةٌ واضحةُ النُّبْل والغنى والحِشمة ، وأخذَت مجلسها فى المكان المحرَّر للسيدات . وما إن رآها (الكمسارى) حتى لجأ إلى الوقوف بباب (الحريم) ، وجعل يَفتل شاربَه ، وتارةً يُميل طربوشَه ، وأخرى يُسوِّى رداءه الأصفر (الرسمى) ، وحيناً يثبِّت (النمرة) النحاسية فى موضعها من عنقه . إذ عيناه وحاجباه أثناء ذلك لا تَفتُر عن التّلعُّب وشدة التحرُّك والاختلاج !

ولا يترك هذا الموقفَ ولا يَتحوَّل عنه إلاّ إذا وقف القِطار . وما هو إلا أن ينفخ فى زمَّارته حتى يَثِب إلى موقفه ، فيُصلح من ثيابه ما كَرَّشَت منها حركةُ

النزول والصعود ، ثم يعود إلى شأنه مع تلك السيدة . وظَلّ على هذا لا (يَصرف لراكب تذكرة) ، ولا يبالى من هَبَط ومن صَعِد ، حتى بلغ القِطار مَيدانَ الأزهار .
فثار لهذه الحال ثائر بعض الركاب ، وإن سُرَّ آخرون بما وفر عليهم من قروشهم .
فوثب إليه من بين الركب رجلٌ غيورٌ من الظرفاء ، وصكّه على صُدغه بجمع يده ، وقال له : يا ابن ا . . . هَبْ هذه السيدةَ وقعت فى شَرَكِ غرامك ، وسألتك النزولَ معها لنزهة تَقضيان فيها حقوقَ الغرام ! فلمن تدفع الآن هذا الخُرْج المعلّق فى رقبتك بحمائله ؟ وأىُّ فَم يقوم مقام فمك لهذه الزّمّارة التى فى يدك ؟ ! فكان اغتباطٌ وكان ضَحِك !

*
* *

فإذا بحثتَ بعد ذلك عما يَبعث هؤلاء الفتيانَ على كل هذا ، مع ما فيه من كدّ لا فائدةَ فيه ، وعَناء لا رجاء وراءه ، إلى ما فيه من الهوان وشدّة الابتذال ، والتعرُّض للأذَى بالشّتم ، أو الضَّرب ، أو السِّجن ، فلا ترى الأمرَ كلّه يَعدو أن يكون هوايةَ (غيّه) حمقاء لا أكثر ولا أقلّ . أو كما قال المثل العامى : (اليد البطّالة نجسة) .

وصدق من قال : (أصحاب العقول فى راحة) ! !

بطـــولة ! . . .*

— ١ —

وإنها عندى، لَبُطولة حقٌّ لا تقل قَدراً ولا خطراً عن أيَّة بطولة فى أى سبيل آخر . وإن صاحبها (البطل) لحَقيقٌ ، من نفسه ، بالزَّهو والتَّايه ، وإنه لحقيقٌ من الناس بأجلِّ الاعظام وأبعد الإِعجاب !

قلت لك إنها بطولة (عندى) لأنها كذلك فى الواقع . ولك أنت أن تُخرجها عن دائرة البطولة . ولك أن تضعَها من الخِلال حيث شئت . ولك أن تُجرى عليها ما تشاء من الأَحكام . ولكن الذى ليس لك ، والذى لا آذنُ لك به أن تَدخل بينى و بين رأيى ومعتَقَدى ، فتُضيف إلىَّ ما تشاء ، وتَنفى عنى ما تشاء . وأظن أن هـذا أقسَى ما عرَفت طبائعُ الاسـتبداد من العَصْف بحرِّية الآراء !

لك أن تقول إن مذهبى فى هذا فاسد ، وإن رأيى فيـه قبيح ، وإن سوء التفكير أزلقنى فى الأمر إلى الضَّلالة . أما أن تَزعُم أن ذلك ليس من رأيى ، وأننى أُسِرّ الخلافَ له فى أطواء نفسى ، فذلك ما لا أحسبه مما كان فى الزمان ، ولا أحسبه مما يكون . فليس يعلم ما تُسِرّ القلوبُ إلاّ علامُ الغيوب !

وهؤلاء (الأبطالُ) أُحبّهم وأُجلّهم ، وتكاد تَتعلّق نفسى من شدّة الإِعجاب بهم كلّما رأيتُهم ، وسمح لى الزمان بالجلوس إليهم ، وإن الزمان بمثل هؤلاء لجِدُّ بخيل !

---

* نشرت فى جريدة « المصور » فى يناير سنة ١٩٣٥

هؤلاء هم أبطال (الحديث) . وللحديث ، لو عرفتَ ، أبطال ، كما للحروب أبطالٌ ، وللسياسة أبطال ، وللآراء فى العلم والأدب والاجتماع أبطال .

على أن هؤلاء (الأبطال) وإن اشتَعَبوا مذاهبَ البطولة ، وتفرّقَت عبقرياتهم فى مناحيها ، فإنهُ تجمعهم طائفةٌ من الخِلال الكريمة ، ما تكاد ترى لأحد منهم فضلاً فيها على أحد . ومن هذه الخِلال فرطُ الأدب ، وشدّةُ التواضع ، ولينُ الجانب ومنها حسنُ التوافى للناس ، والإقبالُ على مجالستهم حيث كانوا ومؤانستهم ، والتسلية بفاخر الحديث عنهم ، ولو لم تجْرِ الصداقة بينهم وبينهم على أىّ عِرْق ، فبِحسْبهم من كل هذا الكرم (المعرفةُ) المجرّدةُ والسلام !

ومن هذه الخِلال الظَّرف ، فإن أعوَزَ ففى التظرُّف المتَسَع . ولقد يكون من هذا التظرُّف لفتُ الغافل عن (الحديث) ، وتنبيهُ المشغول عنه بشأن آخر . ولقد يكون هذا اللَّفت والتنبيه بالكلام اللَّيْن من نحو : (واخد بالك يا سيدى !) و (خليك معنا من فضلك !) . ولقد يكون باللَّكزة الرَّفيقة فى الخاصرة أو فى ثنايا الضلوع ! . وكثيراً ما يمتدّ هذا الكرم إلى جَهد النفس فى إنشاط المتثاقل ، وإضحاك العابس ، وإدخال العَجَب على المتغافل !

وإن مدينةً فى مصر ، وإن حاضرةً من حواضرها ، بل إن قريةً من صميم ريفها ، لا تخلو من بطل من هؤلاء أو من أبطال . وأنت خبيرٌ بأن البُطولة من المقُولات بالتشكيك ، على تعبير أصحاب المنطق . فهى على ذلك مما يَتفاوت فى الناس كثرةً وقلة ، وقوةً وضعفاً . فلو قدرت النهاية العظمى بمائة درجة مثلاً ، فانك واجدٌ من غير شك من قد أحرَزها وأصابها ، كما تجد من تقاصر حظه إلى الثمانين ، ومن تَدلَّى إلى الستين ، ومن استرخَى وهو دونَ العشرين . على أنك لا تستطيع بأى حال ، إلا أن تَسلُكه فى جماعة الأبطال !

ومهما يكن من شيء ، فانك تستطيع أن تقسم ، على العموم ، هؤلاء (الأبطال) إلى قسمين إخصائيِّين ومُطلقين . أما الإخصائيون فقد توفَّر كلٌّ منهم على فنّ من فنون هذه البطولة . وترى من بين هؤلاء الإخصائيين من برَعوا فى بطولة الفروسة وقِراع الأهوال ، فى البحار والجبال والأدغال ، وصِراع كل صائل من السباع والجوارح والأغوال !

ومنهم الإخصائىُّ فى فنّ الغرام ، واصطياد كل شاردة من الآرام . وما يمنعه ؟ وله من جفنيه أشراك ، هيهات ما لابدة منها فَكاك . وإن له من لحظه لما يَستنزِل إليه الأراوِى العُصْم ، من صَياصى الجبال الشمّ . فاذا جاءك أن غادة فى الأرض قد تَعذَّرَت عليه فى خِدْر ، أو اعتصمَت دونَه وراء سِتر ، فانك عنده حقيقٌ بالرحمة والرِّثاء ، لما تجهل من حقائق أحوال النساء .

وما له يجهَد فى طلبهن ويَسعَى ، وما له يَكِدّ فى استدراجهن ويَشقَى ، وها هن أولياء يَعترضنه كلَّ يوم مواكب ، ويَتهاوَين بينَ يديه كواكب ؟ ولو كُتب لك يوماً أن تَشهَد مَورِد بريده فى الصباح وفى المساء ، لَتعاظَمَك ما ترى من أحمال ثقال ، وقد اجتمعت من الكتب الخِفاف . وكلها موشّى الحوافى منَمنَم الأطراف . وإنْ منها إلاّ ما يَضُوع شَذاه ، حتى لَيكاد يُسكِر بطيب رَيّاه : هذه تخطب وُدَّه ، وهذه تشكو قِلاه وصدّه . وتلك تَحكِى ما صَنَع الهوَى ، وأخرى تصف ما برَّحت بها بُرَح الجوَى . وخامسة لها عند الغرام مظلمة ، فهى لا تَسأل إلا العدلَ والمرحمة . وسادسة قد عَزّ عليها الوصال ، وشَفَّها طولُ التجنِّى والدَّلال ، فأضحت لا تطمع فى أكثر من نظرة إلى ذلك الجمال !!!

فاذا ما راجعتَ هــذا الجبَّار العاتى ، وسألتَه شيئاً من الرقة لهؤلياء الوالهات المتدلِّهات ، والعَطف عليهنّ، ولو من قبيل (جبر الخواطر !) ، وفيهن أغلى الدرر ،

من بنات أعظم الأُسَر ، ومن لم يُقلّبن الأعطاف إلاّ فى النعيم ، ولم يلابسن فى أسباب العيش إلا كلّ جميل وثمين وكريم . وكلهن ، بحمد الله ، أحلَى من البدر ، وأشهَى إلى النفس من ليلة القدْر :

لقد تراجعه فى هذا فسَرعان ما تثور ثوائرُه ، وتقسو عليك بوادرُه . فيلقاك فى هِياجه ، بأشد حِدَّته وأحدِّ احتجاجه . فيقول لك مثلا : حقاً لقد قست القلوب وتحجرت ، حتى أصبحَت الرحمة لا تجد إليها سبيلاً ! . وهل جاءك يا سيدى أننى من بعض الحجارة أو من بعض الحديد ؟ . وإن الحجارة لَتتفتَّت وإن الحديد لَيذوب ! وكيف حيلتى فى كل هذه الجيوش التى لا يَلحَقها عدد ، ولا ينقطع لها على الدهر مَدَد ؟ وهل قلتُ لهن أحببن وتولّهْن ، واعشقن وتدلّهْن ؟ . وتُرَى هل خَلاَ وجه الأرض من الرجال ، فلم يبق غير «أخيك» هدَفاً لصَبابة رَبّات الحِجَال ؟

وهنا أردتَ ، يا سيدى ، أم لم ترد ، تحس عاطفةً قويةً نحو هذا (البطل) ، هى عاطفة الرحمة والإشفاق . حتى إنك لَتفكر ، إن كنت من أهل السلطان أو من المتصلين بأصحاب السلطان ، فى السَّعى لدى وزارة الأشغال لتُدخل فى مشروعات الرى والصرف الجديدة ، إنشاء قَدْر كبير من التُّرَع والمصارف ، ليتحوّل إليها جانبٌ من هذا الغرام الطاغى ، وإلاّ ساءت الحال ، وحق على البلاد الوبال !

ولقد تُبادِى صاحبَك بالاستراحة إلى عُذره ، فسَرعان ما يَسْجُو طَرفُه ، وتَشِيع حمرةُ الخجل فى وجهه ، ويجيبك فى لهجة تحسُّها مَزْجاً من الفرح والشعور بالانتصار : (مش كده والاّ إيه ؟) . كان الله فى عون هذا (البطل) المسكين ، وأمدَّه من حوله وطوله بما يستطيع معه النهوضَ بأعبائه الجسام ! !

ومن هؤلاء (الأبطال) الإخصائيون أيضاً فى الجِياد ، وفى حذق فنّ الجياد ، وفى اقتناء كرائم الجياد ، مما يفوق فى صفته ما خلا من أخبار عاد . وما لم يَركب

مثلَه عنترةُ بن شدَّاد ، وما لم تَعهد مثلَه العرب والأعجام ، وما لم يَتعلَّق بوصفه شِعرُ البحتريّ ولا أبو تمام ! . وإن عنده من كرائم الجياد لما يَلحَق البرق إذا برق ، ويسبِق السِّلك إذا خَفق ! !

*
* *

ومنهم كذلك أبطال الطعام . ولهؤلاء من الخبرة بالطعام ، وقوة تذوُّقه ، وعظم تجويده ، والتأنُّق فيه ، وحسن تخيُّره ، وانتقاء أطايبه ، ما لا يَنفُذ إلى مكنون سرّه ، ولا يُحيط بظاهر أمره ، إلاّ من رُزِق الموهبة . فلفنّ الطعام ، لو تعلمون ، مواهب لقد ترفع أصحابَها إلى جبابرة الأبطال !

ولربما أقبل عليك (البطل) من هؤلاء يسألك ويمتحنك ، ويدلّك على قدرك فى هذا ، أو على الصحيح ليبعَث فيك الحسرة على ما فاتك من أسعد حظوظ الحياة . وراح يُلقِي عليك درساً سابغاً فيما يَحسُن أن يزيد بَقْله ، وما يَجمُل أن يَكثُر زيته ويَقلّ خلّه ، وما يُصهَر فى الشمس قبل قَلْيه ، وما يُطمَر فى (الدّمس) قبل شيّه ، وما يُترَك للندَى بعد غَلْيه ، وما يُحشَى زبيباً ولوزاً ، وما ترصَّع حواشيه صنوبراً وجوزاً . وما يُسكَّخ سكرُه فى بصلة ، وما يُخلَط عسلُه بخردله . الخ . ثم جعل يقصّ عليك ما أصاب فى غَدَائه ، فتلا عليك ، بظهر الغيب ، قائمةً طويلةً لو كُتبَت لعَانَى النظرُ فيها سَفَراً طويلاً . ولو تهيأ الجرّاح أن يَبقُر بطنَه لساعته ، لكشف المِبضَع عن أفخر مَعرِضٍ لأفخر الأطعمة فى العالم !

*
* *

وهناك بطولات وبطولات فى غير هاتيك الفنون .

ولقد طال هذا الحديث ، فحسبنا هذا القدرُ اليوم ، على أن نُتم الحديث فى (الأبطال) المطلَقين . وفى إيراد صَدْر من نوادر هؤلاء جميعاً ، وذلك فى العدد القادم إذا أحيانى الله ! .

بطـولة ! . . .*

— ٢ —

رأيتَ فى العدد الماضى من (المصوّر) بعضَ صِفَة سادتنا الإخصائيين من هؤلاء (الأبطال) . وعرَفتَ كذلك بعضَ الفروع التى تَخصَّص فيها كلٌّ منهم . والآنَ نحدثك عن (الأبطال) المطلَقين أو (العموميين) . وهؤلاء الذين لا تَتوفّر بطولتُهم على فنّ ، ولا تَقتصِر على فرع ، ولا تَنتهِى من أسباب الدنيا عند حدّ . فهى تَتناول كلَّ شىء ، ولا يَنشزُ عنها فى جميع مظاهر الحياة شىء !

ولعلك رأيتَ أو سمعتَ بمحل (سلفريدج) مثلا فى لندرة . ففيه مكتبٌ للسِّياحة ، وفيه مكان لبَيع جميع صحف العالم . وفيه مطعم فاخر ، وبَهو (صالة) لتناول الشاى ، ومكان للمطالعة ، وآخر لبيع جميع المأكولات . ومخزن كبير لبيع الأثاث القديم ، و (صالونات) فاخرة للحلاقة ، للرجال والسيدات . وغير ذلك كثير . فاذا أعوزَكَ شىء مما ليس عنده ، وافاكِ به عَجلاً ولو كان فى أقصى أطراف المعمور . ومِثل هذا المحل فى بلاد الغرب كثير !

أما أنا فلم أَشخَص طَوَال حياتى إلى أوربا ، ولا إلى أمريكا ، ولا أُستراليا ، ولم أشهَد حتى بيت المقدس ، ولا الصخرة المقدسة ، ولا المبكَى الشريف الذى تدور حوله كل هذه المعارك بين المسلمين و بين من صَبَّهم وَعدُ بلفور عليهم من الصهيونيين !

ولكن أرجوك ، يا سيدى القارىء ، أن تصدِّقنى إذا زعمتُ لك أننى سافرت إلى بنها ، وأعنى بنها العسل ، وكان هذا السفرُ من نحو ثلاثين سنةً خَلَت . وكُتِب

* نشرت فى « المصور » فى فبراير سنة ١٩٣٥

لى يومئذ أن أشهَد فيها متْجَر المرحوم ابراهيم باشا عبده (سرّ) تجارها يومئذ . فاذا هو أشبهُ بسوق عظيمة رُفِعَت من بين خاناتها ودكاكينها الحدودُ والحوائل . ومن هذا المتجر تشترى الحرير ، و «الباتستا» ، والبياض . ومنه تشترى الفحم ، والجير ، والأسمنت . ومنه تشترى المصوغات الذهبيّة والفِضيّة ، كما تشترى الحديد والخشب والطوب الأحمر !

ثم إنك لواجدٌ فيه حاجتَك من الجوارب و (الفانلات) ، والقُفّازات ، كما أنت واجدٌ فيه مَطالبك من النظارات ، وساعات الجيوب ، وساعات الحائط أيضاً ! . ولا تنس السُّرُر وأصناف الأثاث « المو بليا » و أُصُص « قصارى » الزهور !

ثم هناك تجد آنية النُّحاس على اختلاف أشكالها وأحجامها ، كما تجد أصناف العطارة من أولهـا إلى آخرها . وهناك السَّمنُ والعسل ، وهناك الزَّيتُ والخلُّ والبَصل ، وهناك كلُّ ما شئت من أدوات المائدة ، وفراجين (فرش) الحلاقة ، والحَلوَى ، و (الشربات) ، و (الكازوزة) والطرابيش ، والأحذية ، وحُلَل (بدل) السيدات والرجال والأولاد ! وهناك الورق والأقلام والمحابر والمفكرات والكراسات والدفاتر

هناك كلُّ شيء . ولا شيء إلا وهو هناك !

وتسألنى : أ كان هذا الضَّرب من المتاجر فى بلادنا مصر ؟

وأجيبك : نعم ! وكان فى بنها ! وكان ، كما زَعمتُ لك ، من نحو الثلاثين من الأعوام .

وموضعُ الشَّاهد فى هذا أن صاحبنا « البطل » المطلَق أو العمومى ، لا يقلّ عن مثل هذا المتجر الضَّخْم العظيم كِفايةً ولا غنًى ولا مُواتاة ، ولا إسعافاً (للزبائن) بما يريدون من جميع الطلبات !

تُذكَرُ أمامَه الفُروسيَّة فى الحرب ، فيَذكر لك ما أبلَى فيهـا من كرٍّ وفرٍّ ، وكيف سدادُه فى البِراز والنِّزال ، وكيف يَحمِل وحدَه على الجمع الكثيف من الأبطال . ولا تسل كيف يَصنَع فى هذه الحملة ، من قَطِّ الرُّءوس وبَرْى الرِّقاب (بالجملة) !

فاذا كان الحديثُ فى النساء وغرام النساء ، أسرع لحِمد الله تعـالى على أن المرحوم « ڤالنتينو » قد مات وأكله الدود ، وإلاَّ لكان الآنَ فى التماس النظرة على رصيف سيدى أبى السعود !

وقُلْ مثلَ هـذا وأبلغَ منه إذا كان الحديثُ فى جِياد الخيل أو فى الطَّعام والشَّراب ، أو فى الأثاث والثِّياب ، أو فى الصَّيد والقَنَص ، أو فى الحِجْل والرَّقْص . أو فى الموسيقى وفنون النَّغَم ، أو فى تنسيق الحدائق وتربية الطَّير والنَّعَم . وادخل فيما شئت أن تَدخل فيه ، فانه (بيطولته) ولاشك موافيه . حتى لو عَرضتَ لكنس الدار وغسل (الحِلَل) ، لجلَى عليك من نفسه فى هذا بطلاً أىَّ بطل !

*
* *

وبعد ، فانى أتشرف الآن بأن أقُصّ عليك طائفةً يسيرةً من أحداث بطولات هؤلاء (الأبطال) ، سواء أكانوا من الإخصائيين ، أم من الشائعة بطولتُهم الجبَّارةُ فى جميع شُعَب الحياة .

ولعلك لم تنس أنه قد سبق لى أن وصفتُهم بكرم الخُلُق ، والتَّواضع ، وشدة التَّوافى للناس ، حتى لمن لا تَربطهم بهم إلاَّ (المعرفة) البسيطة فى أضيق الحدود . والآن فاسمع أعانى وأعانك الله : لقد تكون جالسًا فى مقهًى عامّ كالنيوبار ، أو الإسبلنددبار ، أو بار اللواء ، أو فى جروبى قديمه وجديده ، أو ليمونيا الحلوانى فى القاهرة ، أو فى فرعه فى مصر الجديدة ، فلا يروعك إلا أن يطلُع على مَدخَل

المقهى (بطل) من هؤلاء الأبطال . ثم تراه قد ثَبَت فى موقفه لا يتقدّم ولا يتأخّر . ولا يَتزحزَح ذاتَ اليمين ولا ذاتَ الشمال ، ولا يتحرّك منه إلاّ عنقٌ كالقُلَّب ، يتجه إلى هنا ثم يتجه إلى هنا ، صُنعَ مروحة الكهربا المتحركة . وقد أرسل (البطل) نظراً حديداً يدور ، بالضرورة ، مع رأسه حيثما دار . فلا يزال يَنقُد الجالسين نَقداً ، ويَفحَصهم فرداً فرداً . فاذا أصاب فيهم بعد طول التفقُّد والاختبار صديقاً أو شِبهَ صديق ، ولو كان جالساً فيمن لا يَعرفهم ، أعنى البطل ، ولم يرهم من قبل ، أسرع فأهوَى إليهم (كجُلمُود صخرٍ حَطّه السَّيلُ من عَلِ !) ، وبادر فسلَّم على صديقه أو (بُجيث) صديقه فى شوق ولهفة . ثم استدار فسلَّم على أصحابه فى تأدُّب وتظرُّف ، قد تَزينهما بعضُ الضحكات الناعمات !

فان لم يُصِب صديقاً ولا شِبهَ صديق ، (فالمعارف) بفضل الله كثير ! ومهما يكن من أمر ، فان أدبه وتواضعه لَيأبَيان عليه إلاّ أن يمدّ يده فيمهّد له بين الجماعة كرسيّاً . ولو غَفَلوا هم عن دعوته ، أو تجافَى بهم سوء الأدب عن أن يبادروا فيَفسَحوا له فى مجلسهم موضعاً . وكذلك تكونُ مكارمُ الأخلاق !

ويَهبِط (الجرسون) ليسأل (البيك) حاجتَه . فيُسرِع (البطل) إلى الحلِف بأنه لايستطيع أن يَتناول القهوة لأنها تُسهّد ليلَه ، وتُطير نومه . أما (الجاتو) ، وأما (الكريم بالفواكه) ، وأما ما يُؤكل على وجه العموم فلاحظٌّ له فيه ، فقد أفرط فى غدائه حتى أدركه البَشَم ، ووقاك الله غائلَةَ التُّخَم . فان كان ولا بدَّ من شىء ، والأمرُ لله ، فانه يفضِّل (الكازوزه) لعلها تُسلِك من مجرى النفَس ، ما انسدَّ بكثرة الطعام وما احتَبَس

*
* *

ولعل القوم كانوا فى حديث يَهُمّهم ويَشغَلهم فقطعه صاحبُنا عليهم . والآنَ لا بأس عليهم من معاودته ، بعد إذ قَرّت الجنوب ، وجاء (الجرسون)

بالمشروب . على أن صاحبنا أرفقُ بهم وأكرمُ من أن يَدَعهم حَيارَى فى إيثاره (الكازوزة) على سائر ما يُطلَب ، مما يُؤكل وما يُشرَب . فَيصيح فيهم ، وقد يَهزّ صاحبَ النَّوبة فى الحديث . وهذا ليَلفتهم إليه ، ويعطف أسماعهم عليه :

تسألوننى السرَّ فى إيثارى (الكازوزة) على سائر ما يُقدَّم هنا . ولكم كلُّ الحقّ . وإذا عُرِف السبب ، بَطَل العَجَب ! وكلُّ ما فى الأمر أن الله حَبَانى بطاهٍ لم يُسمَع فى الزَّمان بمثلِه . وأين منه محمود القَرَه وغير محمود القره[1] . وحين زار مصرَ جلالةُ ملك إيطاليا وتَغدَّى عندى سرًّا ، رَجانى فى أن يُرسِل إلىَّ رئيسَ طهاته فى رومةَ ليتمرَّن على يَدَى هـذا (الولَد) فى طَهْى بعض الأطعمة التى أعجبت جلالتَه . وصدِّقونى إذا قلتُ لكم إنه كان من بينها (الأسباجتّى) !

ويَصيح الجميعُ فى نَفَس واحد : (الأسباجتّى) ؟ !

فيُجيب (البطل) : نعم يا سادتى ، وهذا موضعُ العجب . وذلك سرٌّ لا يعلمه إلاّ الكُنت دى بليانو[2] ، وسعيد باشا ذو الفقار ، و (أخوكم) بالضرورة .

ولا أحبّ أن أُطيل عليكم . فقد جلسنا للغَداء فاذا حَمَل (قوزى) محمر لم تَقرَبهُ النار ، بل لقد طَمَره اللئيم فى الرَّمل حتى نَضِج وتورَّد بحرارة الشمس . ووالله ! وما لكم علىَّ يَمِين ! إن شرائح لحمه ما تكاد تقترب منها الأناملُ حتى تَزحَف هى إليها زَحفاً . فاذا انحدر اللحمُ إلى الحلق تَحلل فيه وسال من نفسه ، ما أعوَزه قَضْم ولا هَرس ، ولا جهدت فى علاجه سِنٌّ ولا ضِرس !

ويأذن الله أن تُرفَع أنقاضُ هذا الحمَل ، فاذا ديك رومى قد حُشِى بالسمان المحشوّ بالبُرغُل . أما فرشُه فالرزّ الأحمر ، فيه البُندُق والجوز والزبيب والصَّنَوْبر .

(١) الأسطى محمود القره كان أشهر الطهاة فى مصر من خمسين سنة مضت

(٢) الكنت دى بليانو كان وزير إيطاليا المفوض فى مصر أيام هذه الزيارة

وهنا ترى (البطل) المسكين وقد جَحَظت عيناه ، واتَّسعت حَدَقتاه ، واحتقن وجهه ، وانتفَخت أوداجه ، وسال لعابه ، وأصبح شِدقه كالطَّبل المشدود . وترى له إلى هذا اختلاجاً عصبياً . هل رأيت النَّمِر وقد تهيأ للافتراس ، وكشَفَ عن الأنياب والأضراس ؟ !

ثم يدخل بك (البطل) فى باب السَّمَك ، حتى إذا خاض بك لُجج البحار ، وأراك القَروص وموسى والمرجان والبُورى والوَقار ، عطف بك على قِسم الخُضْر حتى أتى على جميع أسواق الخضار ! . فاذا شاء الرحمنُ وبلغ الركبُ غاية السَّفَر فى هذه الرحلة ، فوصل سالماً إلى صفحة الخبِّيزة أو الرِّجلة ، انعطف بالجماعة إلى مَعرِض الحلوَى ، فعنده للحلوَى مَعرِضٌ لا يتَّسع لمساحته التصوُّر ولا يرتقى إلى حلاوته الخيال

ثم يتحوَّل بك إلى قسم الفاكهة ، وهنا يَتجلّى تواضُعهُ فلا يَعرِض عليك إلاّ عشرة ألوان أو اثنى عشر لوناً مما صُفَّ على مائدته فى غَدائه . ولقد تسأل عن هذا الزُّهد والأقلال ، فيكون الجواب الحاضر : « بقى كلام فى سرّك ! أخوك مالوش نُقل على الفاكهة ! »

*
* *

ولقد يَعُدّ لك خمسين أو ستين صَحفةً من صِحاف اللحم ، والطير ، والسمك ، والخضر ، والحلوى . وهى جملة ما تَغدَّى به فى يومه . ومع هذا لا يفوته أن يقف على رأس كل صَحْفة ، فيصف لك كيف طُبِخَت وكيف طُهِيَت ، وكيف قُلِيَت وكيف شُوِيَت ، وبماذا تُبِّلَت وبماذا حُشِيَت . وماذا عولجت به من فنون الصُّنْع ، حتى تم لها كلُّ هذا البِدْع !!!

— هذا أيها الاخوان ، هو السرّ فى إيثارى (الكازوزة) ، ألست معذوراً ؟

فيُجيبه الجميع :

— معذور ، والله ألف معذور !

ولعل خبيثاً ممن لا يُحبّون الصدق ، ولا يَستريحون إلى كلمة الحق ، يقول له :

— والله يا أخى لو شَرِبت مع هذا الخواجه (اسباتس) كلَّه لكنت معذوراً !

فيكون الردّ :

— (مش كده وإلاّ إيه ؟ ليلتكم سعيدة لأن عندى ميعاداً مهماً) !

*
* *

ويَنصرف (البطل) لعله يَلقَى بعضَ الأقوام ، فيفتح لهَواتهم بالحديث فيما أصاب فى غَدائه من ألوان الطعام !!! . . .

بطـولة ! . . .*

— ٣ —

واليوم يَأذَن اللهُ بالحديث فى (الأبطال) المطلَقين أو (الأبطال) العموميين . وهؤلاء ، كما عرفتَ ، الذين ليس لهم فى (البطولة) اختصاصٌ معيَّن . والذين تَشِيع عبقرياتُهم الجبَّارةُ فى كل أسباب الحياة والموت معًا ، فهى تَتناول كلَّ شىء ، ولا يَتَعاصَى عليها فى الدنيا شىء !

ولقد أوردنا عليك فى حديث الأُسبوع الماضى بعضَ نماذج (عيِّنات) من المحلات التجارية فى أوربا وفى مصر ، تكاد تُسعِف الإنسانَ بجميع حاجاته فى مطالب الحياة ، إن لم يكن مما عندَها فانها تَستَدركه من غيرها . أما هؤلاء (الأبطال) فأَبلغُ استعداداً ، وأوفرُ عُدَّة وعَتاداً . فانك ما يكاد يَجرى على بالك خاطر ، أو تَسنَح لذهنك شاردةٌ حتى من خيال ووهم ، إلا كان من حاضر جِراب العبقرية لها أصلٌ وفصل ، واسمٌ ولقب ، وحِليَة ونَسَب ، وحديث يلذّ ويَشوق ، وسَمَر يَصفو ويَروق !

خُضْ فيما شئتَ من المعانى ، واعرِض لما تريد أن تَعرِض له من الحديث فى القديم والجَديد ، والطَّريف والتَّليد ، وما رَوَى القُصَّاصُ من غرائب الأخبار ، وما يزعم الرحَّالون من عجائب البحار ، فان (البطل) لَمُعجِلك عن إتمام حديثك بما وقع له هو بذاته فى هذا الشأن ، مما قد يَشيب لهوله الولدان . ومما لم يكن يصدَّق أن مثلَه مما يقع فى الزمان . فلا شىء فى مفاخر الدنيا أخطأ سُبلَه ، ولا شىء من عجائب الأرض والسماء إلاَّ وقع له !

---

* نشرت فى « المصور » فى فبراير سنة ١٩٢٥

ولقد يَعرِض الكلامُ فى العلم والعلماء ، فيبادر بمطالعتك بما كان منه فى مؤتمر (استكهلم) الذى ألقت إليه أمُ الأرض جمعاء ، بمن فيها من أفذاذ العلماء . وقد أجمعوا فى غاية الأمر على الرأى فى قضية (نظرية) علميــة طريفة . وما كادوا يَفرُغون من هذا ، ويَنعَمون بالاستراحة إلى نتيجة المسعَى ، حتى نهض هو ففنّد هذا الرأى تفنيداً ، وبدّد تلك (النظرية) تبديداً ، بعد ما أشبَــع أشياعها تهكماً وتنديداً . ولا تَسلْ عمّا لقىَ (البطل) من تصفيق يصمّ الآذان ، وهُتاف تجاوبت صداه الآفاقُ من كل مكان . ولا تَسلْ عمّا عُقِد له ، بعد هذا ، من أكاليل الفخر ، وكيف حمله العلماء ليجوزوا به تحتَ أقواس النصر !

ولقد يَلتفت المجلسُ إلى الحديث فى الموسيقى ، فسَرعان ما يَستدير له (كاللّولب) ، ويهزّ المسكين رأسَه فى أناة ، وقد أرسل جفنيه ، وأشمرَك حالَه بما يزحم ذهنَه من خواطر عنيفة . ثم يُرسل آهةً شديدة ، يُخيَّل إليك أن كبده تَسيل فيها على حلقه ، ثم يُقبِل عليك يحدثك بما عانى فى بعض المؤتمرات الموسيقية العالمَية فى مسألة (الأوزان) ، وما كافح أقطاب الموسيقى فى قضية ضبط الأوزان ، وكيف تجادل الجماعة فى نظريته وتَحاوروا ، وكيف تألّبوا عليه وتآمروا . ثم كيف نصره الله فرداً عليهم فأطاعوا فى النهاية وسَمِعوا ، وذَلّوا لحــكمه وخَضَعوا !

*
* *

ولقد يجيء الكلامُ فى الخَيل ، واقتناء كرائم الخيل ، فسَرعان ما يحدّثك عن زَوج من الجياد أتى به من بلاد المجر بعد طول تفقد واختيار ، وبعد امتحان واستخبار . ولم يُجشّمه فى ثمنه ونفقاته إلى الإسكندرية أكثر من ١٩٧٨ جنيهاً مصرياً ! فقط (يا بلاش) فراضه على جرّ (الفيتون) الكبير . ولقد حدَث أنه كان يسوقه بنفسه ذاتَ يوم ، فاعترضته فى بعض الطريق سكةَ حديد حلوان ، وكانت بوابة (المزلقان) مقفلةً لمرور القِطار ، فلم يَرعْه إلاّ أن يرى نفسَه وخيله

و (فيتونه) فى العُدوة الأُخرى من شريط سكة الحديد ! فلقد عزَّ على الجياد الانتظار ، والأمرُ أيسرُ ما يكون بوثبة واحدة لا جهد فيها ولا إقلاق ولا إزعاج .

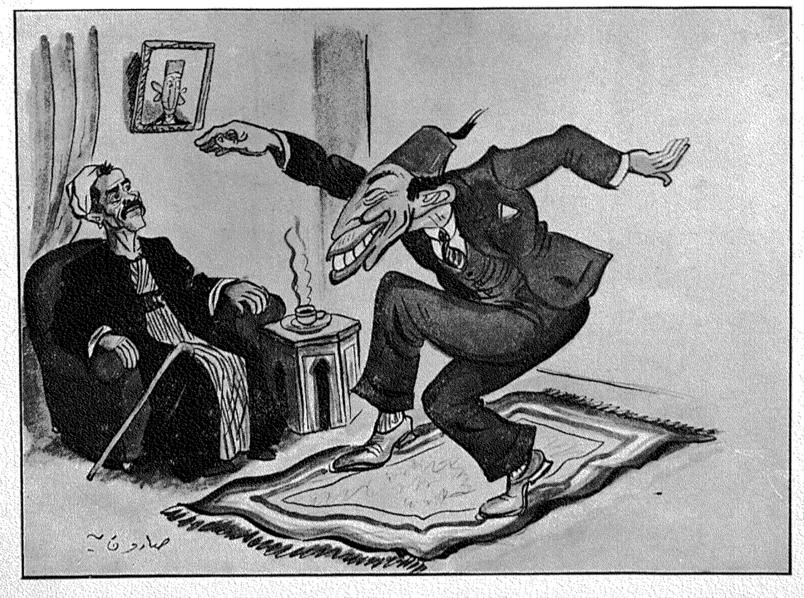
ولقد بدا له يوماً أن يَجول به فى ساحة عابدين ، فلم يرُعه إلاَّ أن يَسمَع من التصفيق ما يُشْبه الهَمْس ، ورفَع رأسَه إلى القصر، فاذا ولىُّ الأمر الأسبق واقفٌ على الطُّنُف يصفِّق ويومىء بالتحية ، ويظهر أعظمَ دلائل الإعجاب ! !

وبعد أن يَقصّ على (البطل) هذه القصة البديعة يأبى ، حفظه الله ، إلاَّ أن يَجلو علىَّ صورةً طريفة يمثِّل لى بها (تُرتّ) جياده ، إذا هو شدّ على لُجُمها كى تَمشى الهُوَينا ولا تطير بين الأرض والسماء . و (التُرتّ) هذا بضم التاء الأولى والراء ، يليهما تاء مشددة ، هو فى عُرف هواة الخيل وساستها . الحركةَ المنظَّمة التى يَرفع بها الجواد رجلَه ، ثم يعود فيَضرِب بحافره وجهَ الأرض .

وهنا أشعر أن وجه صاحبى قد استطال حتى أشبه وجوه الجياد ، وأرى أُذنيه قد تَدلَّتا حتى كادت تُصيب أطرافُهما مَعقِد الفكّين . وأرى وجهه قد تَربَّد ، وعينيه قد احمرَّت أحداقهما ، كأنه مقبل ، والعياذ بالله ، على شرّ كبير . وإنى لأحسّ فكّيه تُضَقِضان قَضقَضةَ المَقْرور . ثم ما هو إلاَّ أن يَثِب فى الغرفة فيتخطَّر جيئةً وذهاباً ، وهو يَثنِى ساقَه كلما رفعها عن الأرض حتى يضرب بكعب رجله أعلى فَخِذه . حتى إذا أتى على (شَوطه) ارتدَّ إنساناً ، ورأيتُ عليه من دلائل الفَخَار ، ما هو جَدير بأن يخلَّد له على وجه الأدهار ، ما عاقبَ الليلُ النهار ! !

*
* *

ولقد يَدخل المجلسُ بالحديث فى الصَّيد والطَّرد ، ومعاناة الأهوال ، فى مقارعة الفِيَلة والأَوْعال ، فيُسرع (البطل) أيضاً ، وأعنى بهِ هذا الذى كان منهُ كلُّ ما مرَّ بك من الكلام ، فيقول : بينا نحن فى الصَّيد والقَنص فى إحدى الغابات



الرجل الجواد ! . . .

المهولة . وهنا أرى واجباً عليَّ أن أنبهك ، يا سيدى القارئ ، إلى أنهُ ليس من اللّياقة ، ولا من الذَّوْق ، ولا من أدب الإصغاء إلى الحديث . أن تَعترِضهُ بالسؤال عن موضع هذه الغابة . وهل يكون فى الهند ، أو فى أواسط افريقيا ، أو فى جنوب أمريكا ، أو فى بلاد المجر ، أو فى حديقة الأزبكيــة الخ . فإنهُ ليس لك عليهِ إلاّ أنها غابةٌ مأهولةٌ بسباع الوحش والطَّير ، من أُسودٍ ونُمور ، ووُعول وفِيَلة ، وأيائِلَ وقِرَدة ، وبواشقَ وصُقور ، وبوارٍ ونُسُور ! . . ليس لك إلاّ أن تعلم أنها غابةٌ حافلةٌ بكل أولئك . ولتقع هــذه الغابةُ بعد ذلك من أرض الله حيث تشاء !

ويُتمّ (البطل) الحديث ، فإذا بهِ قد انفرد ذات يوم عن الرُّفقة من الصَّادة ، وإذا أَسدٌ ضارٍ يخرج عليــه يَمشى نحوه (مترفِّقاً من تِيهه) . ويتفقَّد صاحبُنا (المسدَّسَ) فإذا رَصاصاته قد نَفِدت كلها ما بقيت منها واحدة ، فكيف العمل ، والأمرُ خطير والخطبُ جَلَل ؟

لَخيرٌ أن يبادر الأَسدَ بالوَثبة ، ويعاجله بالهجمة . فيتناول بيسراه أسفلَ صُدغه ، أى صدغ الأسد ، عند مَعقِد الفكَّين ، ويَضغطهما ضَغطةً شديدة يَنفغِر بها فمه ، ولا يستطيع له بعد ذلك تحريكاً ، ثم يُسرِع فيدسّ يمناه فى جَوفه حتى تصل إلى قرارته ، ثم يَجذِبه من أسفله جَذبةً عنيفةً حتى يُخرج ذيلَه من فمه . أفرأيت كيف يُقلَب الجوربُ بأيسر جُهدِ اليد ؟ وكذلك أَضحَى الأسد ظاهره باطنه ، وباطنه ظاهره ، كما أضحَى رأسه فى مكان ذيله ، وذيله فى موضع رأسه ؟!

ثم لقد يَتلطَّف فيسأل الجماعة أن يزوروه فى داره يوماً ليُطلِعهم على هذا المنظَر العجَب ! ! !

*
* *

وبعد ، فلو عَرَض الحديثُ لكنس الدار ، أو لغسل (الحِلل) ، أو لجلاء (عساكر السّرير) ، أو لتمزيق الوَرَق ، أو لكيفية تجفيف العرَق . لما عَزَّه أن يَجلوَ عليك (بطولة) له فيها ، يَعضُدُها بمختلف الشواهد ، ويَنظِم لها ألوانَ الغرائب عقوداً وقلائد !! .

*
* *

أما الغرامُ وأحاديثُ الغرام . فذلك ما سارت به الأخبار ، وروته عن صحفها الرُّهبانُ فى الأديار . ولستُ أُطيل الحديثَ عليك ، يا سيدى القارئ ، فلو قد ذهب ذاهبٌ إلى استقصاء ما وَقع فى هذا الباب (لبطل) واحد من هؤلاء (الأبطال) ، لما وسِعته الأسفارُ الضِّخام ، ولَاستهلكَ تدوينُه الشهورَ والأعوام . وعلى ذلك فقد عزمتُ على ألاّ أروى لك إلاّ نادرةَ واحدةً من تلك النوادر ، ولك أن تَقيس عليها آلافَ الآلاف ، مما يقع لهم فى كلّ ليل وكلّ نهار ، على توالى الأزمان وتعاقب الأدهار :

كنت جالساً ذاتَ عشيَّة على حاشية أحد المقاهى ، فصَبّ علىّ القَدرُ (بطلاً) من جبابرة هؤلاء (الأبطال) ، وما كاد يَستوى إلى مجلسه من المِنضَدة ويسترجع نَفَسه من جُهد السير ، حتى قال لى : لقد حدث لى ليلةَ أمس يا فلان شىءٌ عجيب !

قلت : وكيف كان ذلك جُعِلتُ فداك ؟

قال : بينا أنا جالس هنا وقد انحرَف عَقربُ الساعة عن العاشرة ، إذ جاء غلامٌ من ماسحى الأحذية ، وأَسرَّ إلىّ أن هناك مَن ينتظرنى فى منعطَف الحارة ، ثم تركنى ومضى مُهرولاً فتبعْتُهُ ، فإذا سيارةٌ من طراز (اسبانيوسويس) ، وبابُها مفتوح ، وقد قَبض على (أكرته) الفِضـية (جروم) فتى كأنما صيغ من

خالص الجوهر ، وإذا صوتٌ كأنهُ صوت كَرَوَان تحمِله نَسَمة من نَسمات السَّحَر .
وسمعت كلمة « ادخل » ! فرفعت بصرى فإذا جوفُ السَّيارة يُضيءُ ولكن من غير سِراج . فأدرتُ بصريَ الحائر ، فإذا مَبعَث الضوء وجهٌ يَتألّق تألُّق البدر ، ليلةَ انتصاف الشهر !

— ادخل ! ادخل سريعًا !

— لعل فى الأمر خطأً يا سيدتى ؟

— ليس هناك خطأ ، ألستَ فلانًا !

— نعم يا سيدتى !

— إذن فأنت طَلِبَتى . ولست أنا ممن يُخدَع على هواه ! . .

وما كدت أُظهر التَّثاقل والتمنُّع حتى جذبتني من يدى ، وجعل (الجروم) والسائق يَتَظاهران كلاهما على دفعى من خَلفى ، وسرعان ما أُغلق الباب ، وأخذ كلٌّ من السائق و (الجروم) مجلسَه فى أسرع من ردِّ الطَّرْف . وطارت بنا السَّيارة كلَّ مَطار ، حتى صارت بنا إلى غاية شارع الهرم ، ثم انحرفت بنا فى طريق الصَّحراء . وتدلَّى السَّائقُ وصاحبُه ، فعصَبا عينيَّ بمنديل حريريّ موشَّى الحواشى بالذَّهب ، فارتعتُ وأخذ منى الذعرُ كلَّ مَأخَذ . فأفرَخَت رَوعى ، وحلفت لى بكل مُحرِجة من الأيمان أنهُ لا يُراد بى مكروهٌ أبداً . وما زالت بى تلاطفنى وتؤانسنى حتى تطامَنْت وثابت لى نفسى .

وسرنا على هذا ساعة . ثم أحسستُ السَّيارةَ قد وقفت . وسمعتُ صرير بوابة تُفتح . فنجوزها ثم تُغلَق . وبعد دقائق جزنا ، على هذا ، ببوّابة أخرى . ثم بعد دقائق جزنا بثالثة . وأنا أشعر أثناء ذلك كله أننا نخوض حدائق غَنَّاء ، تَتضوَّع أزهارُها ، وتتغنَّى أطيارُها . وأسمع لخُلجانها آذيًّا وهديراً ، ولجَداولها

مَضمَضةً وخَريراً . ثم وقفت السَّيارة وتدلَّى عنها الرَّكب ، وقادتنى السيدةُ بيدها الناعمة فصَعِدنا أولاً بِضعَ سلاليم ، ثم سارت بى قليلاً وتقدَّمتْ إلى الخدم فرفَعوا العِصابة عن عينى ، فإذا بى فى بَهو لا يَتصوَّر العقلُ سَعة جنباته .

ثم جعل يَصِف لى ما حُلِّى به من دُمًى وتماثيـل ، وصور وتهاويل . ومنها ما نُحِت من المرمر ، ومنها ما رُصِّعَت أطرافُه بالدرّ والجوهر . مما لم يَرِد مثلُه عن الإيوان . أو عن قَصر غُمْدان .

ثم مضت به إلى الطابَق العُلوى . ولا تنس أن الخِصيان والجوارى (البيض طبعًا) وقوفٌ صفين على طول الطريق ، فى أيديهم الشُّموع والمَجَامر تَضوع بفَتِيت العَنبر . وبالمسك الأَذْفر . حتى يأذَنَ الله وينتهى المسير بإيوان . وإذا فيه أربعمائة فتاة كلهن أحلَى من البدر . وأنضرُ من الزَّهر . وأبدع من الدَّهر إذا أَقبل الدَّهر . وإذا هُتافٌ يصمّ الآذان ، وتصفيق يَرجّ الإيوان ، وإذا صاحبتى تَصيح صياح مؤذِّنٍ جاهدٍ فى الأَذان :

— لقد كَسَبتُ الرِّهان . فقد جئتكن بفلان ! !

وتَعزِف الموسيقى وكلُّ العازفات من الكواعب الأتراب . ولا تسل عن تهافت الفتيات عليه وتباريهن فيه إذا كان الرقص ، وكان هَصرُ القدود ، أو كان عَصرُ الخدُود ! ! !

*
* *

فاذا أنـكرتَ علىَّ ، يا سيدى القارىء ، إيمانى بهذه (البطولة) ، وإعجابى بهؤلاء (الأبطال) . فأنت امرؤٌ لا حظَّ لك فى تذوُّق الشعر ولا فى تقدير قَدر الخَيَال !

غـــــواة !

فإذا أباها علينا صديقنا الأستاذ صادق عنبر قلنا هواة ، وأمرنا لله ! .

الواقع أن بعض إخواننا الموظفين هُواة ، أو على الصحيح عند العامّة غُواة ، شديدو الكلَف (بالغيَّة) ، وليس يقع هواهم على شيء مما يَتكلّفه الناس فى هذا الباب ، من حذق تصوير ، أو حفر ، أو تجويد ضرب على عود أو قانون ، أو تربية الأزهار وتوليدها وتلوينها ، أو الملاعبة بالحمام ، والاشتغال بنطاح الكباش ، ومهارشة الديكة . أو . أو . الخ، فان هَواهُم أو (غيَّتهم) إلى شيء آخر ، أفتدرى ما هذا الشيء ؟ هو الكلام فى (الحركة) . فإذا كانوا من سلك القضاء ، كان الكلام فى (الحركة) القضائية ، وإذا كانوا من رجال الإدارة ، فالكلام فى (الحركة) الإدارية ، وإنه لَهوًى يَملِك عليهم عواطفَهم ، ويَستهلِك أوقاتِهم ، فيطغى على لذائذهم جميعًا .

وإنهم ليتعاهدون مكانًا من فُندُق ، أو موضعًا فى مقهى ، أو منظرة فى دار . إذا كانوا فى الريف . فإذا فرغوا من أعمالهم ، انتظم مجلسهم ، وبدأ الكلام فى (الحركه) ، وميعاد صدور (الحركة) . وراح كلٌّ يروى ما اتّصل به من ذلك : فمن قائل إنها ستصدر بعد ثلاثة أيام ، ويُسند هذا إلى خبر ثقة فى وزارة الحقانية ، فيتدره ثانٍ بأنها لا تكون إلاّ بعد شهر على الأقلّ ، ويحتجُّ لهذا ثالث بأن هناك إشكالاً فيمن يُختار للمنصِب الفلانى . . .

ويدور الجدل والحِوار فى هذا ساعةً أو ساعتين . . . فإذا فرغوا منه أقبلوا يتفقّدون مَن (عليهم الدّور) فى الحركة المقبلة . ومَن هم الذين سيقع لهم الحظّ فيها ، فيجرى الكلام فى الترشيح للمناصب الخالية . وفيمن يَخلُف كلٌّ من يُفارق

منصِبه إلى أعلى منه ، وفيمن عليهم الدَّور للدرجة الأولى فى القضاء ! ثم مَن عليهم الدور للدرجة الأولى فى النيــابة . ثم فيمن عليهم الدور للنقل إلى محكمة مصر . ومن ذا الذى سيُنقَل إلى قنا . ومن ذا الذى سيُندَب للجنة المراقبة . ولا يزال يدافَع الرَّجم والتخمين بالرَّجم والتخمين ، وتَرتفع الأصوات بالتمــاس العلل ، والاحتجاج للرأى ، حتى يَنتصف الليل أو يكاد ، ويَنفضّ المجلس ويَنطلق كلٌّ إلى مثواه . فاذا كان أصيلُ اليوم الثانى ، عادوا إلى مجالسهم ، واستأنفوا شأنَهم ، وأعادوا ما بدأوه فى أمسهم ، لا يخوضون لحظة واحدة فى غير حديثهم . فاذا كان يومُ عطلة ، عقدوا فيه جلسة (ماتينيه) للكلام فى الحركة أيضاً . وإنك لا تسمع أحداً منهم طول حياته يَلُوكُ بيتاً من الشعر ، أو يُقلِّب لسانَه فى سبب من أسباب الحياة ، أو يُجرى عليه نادرةً ظريفة ، أو طُرفة تَنتعش بها النفس ، أو مُلحة تملأ الشدق بالضحك !! ولا تراه يوماً يَغشَى مجلسَ غِناء . أو تمثيل ، أو نحو هذا مما يطلبه الناس للرياضة والتفرُّج من كدّ العمل ! . . إنما لذةُ العيش ، وقرةُ العين ، ومُتعةُ الحياة وأنسُها وبهجتُها — كل أُولئك فى الكلام على (الحركة) وحدَها . حتى إذا غَشِى واحدٌ من هؤلاء الهواة مجلسَ آخرين من إخوانهم ، ممن لا يَكرِثُهم أمرُ (الحركة) ، ولا يقتاون وقتَهم فى الحديث عنها ، لأنهم لا يَشغَلون وقتَ فراغهم إلاّ بما يَشغَله به سائرُ المتعلمين ، من حِوار فى مسألة علمية ، أو حديث فى الأدب ، أو جِدال فى المسائل العامّة ، أو رواية حادثة غريبة ، أو إرسال نكتة بارعة — أقول إذا غَشِى واحــدٌ من أولئك مجلسَ جماعةٍ من هؤلاء رأيته غريباً بينهم ، منقبضاً عن شأنهم ، غافلاً عن حديثهم ، حتى لَتحسبنّه لا يعرف لغتَهم ! وإنه لَيُهمُّ المرَّة بعد المرَّة بتوجيه مجلسهم إلى الكلام فى (الحركة) ، فاذا لم يَسترسلوا معه فيه تسلَّل عن المجلس بسلام !

وإن أنسَ لا أنسَ أننى وصديقاً لى ، دخلنا (كازينو) الشاطبى أصيلَ يوم

من أيام الصَّيف . فإذا الناسُ فيه منتشرِّفون على الشاطئ ، يستقبلون الهواء ، ويمتعون الأنظار بجمال البحر هناك ، وإذا (فلان) جالسٌ وحدَه وقد وَلى البحرَ ظهرَه ، فمال عليَّ صاحبي (وهو من القضاة أيضاً) ، وقال لى : أتعرف لماذا يجلس (فلان) هكذا ؟ قلت لا ! . قال : إنه يَرتصِد لأىّ قاض ليتكلم معه فى (الحركة) المقبلة ! فاعدِل بنا عن طريقه ، لا أمتعه الله بهذا الكلام !

والعجب العــاجب أنك قد تسأل جمَعهم عمّن يرقُب نصيبَه منهم فى تلك (الحركة) ، فيجيبونك كلُّهم (لِسَّه ماجاش علينا الدور) ! ولقد سألت واحداً من هذا الضرب مرة : متى ترقى يا فلان ؟ فدسَّ يده فى جيبه واستخرج كشفاً طويلاً فنظر فيه وقال : (فاضل قدامى ٧٣ واحد) !!!

وإنك لتُصيب هـذا الضرب من الموظفين فى كل وزارة ، وفى كل مصلحة تقريباً ، وبِحسبك أن تطوف بالأماكن العامّة وقتَ الغروب لترى للمتحدثين فى (الحركة) من موظّفى كلٍّ منها مجلساً معقوداً .

ولعل لإخواننا هؤلاء بعضَ العذر أو كلَّه ، فإنهم إنمــا يتقرَّون مستقبلَهم ، ويَتعجّلون الأيامَ لينتهوا منها إلى عُليا المناصب . ولكن ما عذر هؤلاء الذين أُفضِى إليك بحديثهم ؟

من جيراننا كان المرحوم أحمد ثابت بك ، (والد صديقنا الأستاذ الدكتور محجوب ثابت) . وكان أوْجَه من فى تلك الرُّقعة من رجال الإدارة المحالين إلى المعاش ، فكانت دارُه مَثابةَ إخوانه المحالين على المعاش ، تَنتظمهم (المنظرة) فى الشتاء ، وتنعقد حَلقتهم على باب الدار فى الصيف . وفيهم من قوّسَت السنون ظهرَه ، وفيهم من كُفَّ بصرُه ، وفيهم من أَبطل الفالجُ نصفَه . وإنهم ليَعقِدون مجلسهم من الساعة التاسعة صباحاً حتى يقوموا لغَدائهم . ثم يستأنفوا شأنه إذا جاء

العصر . فلا يَبرحون إلا إذا تنصَّف الليل . وعلى صاحب الدار الإكرامُ لهم بالقهوة (السادة) ! والقهوة (بسكَّرشوية) ، أو السوبياء والليموناده فى الصيف ، أو القرفة أو الخُلُنجان إذا كان الشتاء . أما حديثهم كله فى مُصْبَحهم ومُمساهم ، وفى غدوهم وآصالهم ، فمن لون واحد . هو الكلام فى الحركة الإدارية . ودارُ ثابت بك على مذهبى فى غُدوِّى ورَواحى . وما جُزتُ بهم مرةً من يوم نشأتُ إلاّ سمعت قائلهم: وعبد الغنى شاكر ؟ فيبادره آخر : فى ميت غمر — وخليل نايل ؟ — فى قنا — وحدَّاية ؟ فى طنطا — وقطرى ؟ فى آسيوط — وعبد العزيز يحيى ؟ فى بلبيس — وإبراهيم نبيه ؟ الخ . الخ حتى لقد حفِظت ، فى صَدر سِنِّى ، وعلى الرغم منى ، أسماء جميع المديرين ، ووكلاء المديريات ، والمحافظين ، والحكمدارين ، ومأمورى المراكز ، ومواضعهم وما كان وما يكون من تردُّد كلٍّ منهم بين مختلف المناصب فى مختلف المواطن !

ولولا أن ألوى الرَّدى بالمرحوم ثابت بك لكان الهُتاف الآن بأسماء صادق يونس ، وعبد السلام الشاذلى ، وأحمد فهمى حسين ، وأحمد زكى مصطفى الخ وسبحان مَن أودع كلَّ قلب ما شَغله !

فن الوظيفة !

تدور فى هذه الأيام كلمةُ (الفنّ) ، تُنفَض نفضاً على كلّ من له عِرْق فى تصوير أو نحت أو غِناء أو تمثيل . إذ هناك (فنٌّ) أدقُّ وأبرع ، وأجدَى على (الفنّان) وأنفع . ومع هذا لم يَعرِض له النَّقَدة ، ولا هَتفوا به فى مقاولاتهم . و إن شئت أن تعرِفه ، فهو « فنّ الوظيفة » .

و « فنّ الوظيفة » هذا شرح الله صدرَك ، وأطال عمرَك ، ورفع فى المناصب قدرَك ، فنٌّ واسعُ الأَطراف ، رحبُ الأكناف . مؤصَّلُ الأُصول ، مفصَّلُ الفُصول . مُقعَّدُ القواعد ، مبسَّطُ الأَمثلة والشواهد . لا يَحذِقه الفتى إلاَّ بعد الجهد وشدَّة المطاولة ، وسهر الليالى فى التفكير والتدبير . وتمرين الأعضاء فى كيفية القعود والقيام ، والسكوت والكلام . والدخول والخروج ، والهبوط والعروج . والتشييع والاستقبال ، والخنوع والاستبسال . والإِنقباض والتبسُّط ، والرضا والتسخُّط . و إرْهاف الأنف حتى يَشَمّ الريحَ على أميال ، ويُدرك مَدَى تحوُّل الجوّ من حال إلى حال .

وهذا (الفنّ) الجليل لا يكفى فى تحصيله والتبريز فيه كلُّ هذا ؛ بل لا بد من التهيؤ والاستعداد ، وأن يكون للمرء طبيعة وموهبة ، شأنَ سائر الفنون الجميلة !

ومن أُولى مزايا هذا (الفنّ) الجليل تخليد (الوظيفة) للفنَّان على الزَّمان ، ولو عَصَفت أحداثُ السياسة بِلداته جميعاً ! . ومنها الوثب فى الدَّرجات مثنى وثُلاث ورُباع ، وخُماس وسُداس وسُباع .

وإنى لأعرِف طائفةً من هؤلاء (الفنّانين) مَهّدَ لهم (الفنّ) الدَّرج كله ، فتناولوه وِثابًا فى كل وزارات : عدلى ، وثروت ، ونسيم ، ويحيى ، وسعد ، وزيور ، وعدلي ، وثروت ، والنحاس ، ومحمد محمود ، حتى بلغوا القُنَّة بدقة الفن وحدَه . ناعمين بثقة الجميع ، ولا إيمان لهم بواحد من الجميع ! .

ألاَ حيَّا اللهُ هذه الهِمَم ، وحيَّا معها تلك الذِّمم ! ! .

امتحان ! . . . *

أنكدُ أيامى فى القضاء الشرعىّ، هى تلك الأيامُ التى قضيتُها فى محكمة (كذا) الجزئية التابعة لمحكمة (كذا) الكلية . ولهذه المحكمة رئيسٌ وافرُ الذكاء شديدُ المكر . وفيها نائبٌ وقاضٍ لا أصفهما لك إلاَّ بما جرى بيني و بينهما فى هذا الحديث .

فى يوم ٍ أيْوَمَ تلقيتُ كتاباً من (الرياسة) بندبى إلى (الكلية) لتكمِلَة (الهيئة) لجلسة امتحان المأذونين . وفى اليوم (الموعود) مضيتُ كارهاً . ورأيتُ ألاَّ أُضيع الوقتَ سُدَى . فأنشأتُ وأنا فى الطريق أضَع الأسئلة التى تطلبها لائحة المأذونين . سواء فى الفقه الحنفى ، أو فى الأحكام النظامية للزواج والطلاق ، أو فى الحساب ، أو الاملاء ، أو الخطّ . وسَوَّيت كلَّ سؤال على صورة حادثة مما يَعرِض للمأذونين فى مهنتهم كلما دُعُوا إلى زواج أو إلى طلاق .

و بلغتُ المحكمةَ فاذا حجرتُها الكبرى تموج بحضرات المتقدمين للامتحان ، وقد كُبُّوا على الأرض كَبًّا . وأَعنى الأرضَ نفسَها لأنها متجردة ليس عليها بساط ولا حصير . وهم بين متربع ، و بين مُقْع ، و بين معتمِد على كعبيه وقد تَعَلَّق سائرُه ، و بين جالس على إحدى ركبتيه . وفى يمين كل منهم قلم . وفى يساره كاغد و بين يديه دواة من فَخَّار . وفى صدر الحجرة دَكَّةٌ انحطَّ عليها صاحبا الفضيلة النائب والقاضى ، والجميع جاثمون فى انتظارى ، فاتخذت لى بين الشيخين مجلساً . وأومأت إليهما فتجمَّعَت رؤوسنا نحن الثلاثة . وقلت لها هامساً : لقد هيأت أسئلةَ الامتحان ، فاذا راقت لكما ألقيتها على المشايخ . و بذلك يتهيأ لى أن أعود الى محكمتى فى الحال ، ففيها عملٌ كثيرٌ يحتاج إلى طول علاج . فقالا : هات ما أعدَدْت !

* نشرت فى جريدة « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)

فتلوته عليهما ، فهبَّا فى نفَس واحد : لا . لا ! . وهتف النائب عن يمينى : نحن لا نوافق . فرجَّع القاضى عن شمالى : أبداً أبداً ! وهمس النائب : (إحنا ما نُخرجوش عن اللائحة) . فردَّد القاضى ، بعد أن رفع كلتا يديه حتى حاذتا فَوْدَيه ، وأهوَى بهما على فخذيه : (لا لا . ما تقدرشى نخرج عن اللائحة) . فخقنت غيظى وقلت لهما فى رِفق : فما حُكم اللائحة فى ذاك ؟ فدعا النائبُ باللائحة فجاء بها الحاجب ودفعها إليه ، فَفرَّها حتى وقع منها على الفصل الذى تجرى فيه أحكامُ الامتحان . وتلا ما معناه : يؤدِّى طالب المأذونية امتحاناً فى أحكام الزواج والطلاق وما يتعلق بهما شرعاً ونظاماً . وفى الأملاء والحساب والخطّ . ثم أقبل علىَّ وقال : أَرِح نفسَك ، فقد وضعنا أسئلة تنطبق على أحكام اللائحة تمام الانطباق . قلت : فهاتِها. فتلا علىَّ ما يأتى :

السؤال الأول : ما هو الفقه على مذهب أبى حنيفة ؟

السؤال الثانى : ما هى الأحكام النظامية للزواج والطلاق ؟

السؤال الثالث : ما هو الحساب ؟

السؤال الرابع : ما هو الأملاء ؟

السؤال الخامس : ما هو الخطّ ؟

وهنا لم تَعُـد جدران صدرى تقوى على حَقن الغيظ ، فانفجر انفجاراً ، وصحت فيهما :

ما الخط ؟ أجيا أنتما على هذا السؤال ! . فأجابا فى نَفَس واحد . لا نَخرج عن اللائحة . لا نَخرج عن اللائحة ! فقلت لهما (وإنى لأول مرة أُفشِى سرَّ مداولة) إننى غير موافق ! فصاحا : ولكن الأمر تم بالأغلبية . فقلت لهما : إذن فامضغا هذه الأغلبية . وتركتهما ونهضت من فورى أطلب وزير الحقانية لأتغدَّاهما قبل أن

يَتعشَّانى . وكان صاحبَ الدولة المغفور له عبد الخالق ثروت باشا ، وقصَصتُ عليه القصة ، فضحك رحمه الله حتى انكشف ناجذه . ولم يُصارحنى برأى . على أننى قد اطمأننت إلى أننى لن يمسَّنى سوءٌ من أثر فَعلتى . وأحمد الله تعالى أن أحد هذين الشيخين قد خرج بالسن ، ولا أدرى ماذا صنع الله بالآخر . وأمثالهما ، لا أكثر الله من أمثالهما ، فى القضاء غيرُ كثير

وهنا مسألةٌ يجب أن تُثار وأن يُبَتّ فيها بالرأى : إذا مالت أغلبية القضاة إلى حكم واضح الشذوذ أو ظاهر السخف ، فهل يحق للقِلّة أن تنسحب ضنًا بكرامتها على الابتذال ، أم يجب عليها الخضوع لحكم الكَثرة طوعًا لظاهر نص القوانين ؟ اللهم إن كان الثانى فياويل الأقليات من الأكثريات !

ولعل لى عودة إلى بعض ما عانيتُ من هؤلاء فى محنة القضاء !

يا خســـارة ! . . .

لى صديقٌ شابٌ أحرز إحدَى الشهادات العليا من بضع سنين ، وظل يَسعى إلى « وظيفة » حتى اهتدى من نحو شهر إلى « وظيفة » لا يُدركها إلاّ إذا جاز إليها « امتحان مسابقة » ، فأَكبَّ المسكين على الكتب ، وما بقى عنده من « مذكرات » أساتذته ، وراح يُجهد نفسه فى مراجعة ما تلقّاه من فنون العلم . ودام على هذا قَرابةَ شهر . وكلّما قابلته وسألته فى شأنه أدخل الطمأنينة على نفسى بما راجع من مسائل العِلم وما استذكر وما حصّل ، حتى أضحى أملُه فى السَّبق إلى « الوظيفة » معقوداً والحمد لله !

ولقد لقينى أمس فإذا هو مَغيظٌ مُحنَق ، يشكو الزَّمان و يلوم صَرف الدهر ! . لمـاذا ؟ لأنهُ قد وفق إلى « وظيفة » أخرى سيعيَّن فيها بغير امتحان . ففيم كان جهده وتعبه فى مراجعة الكتب ، واستظهار ما عُمِّى عليهِ من مسائل العِلم ، وراح يلعن الدهر الذى لم يَسُق إليهِ هذه « الوظيفة » الجديدة قبل أن يَصنَع ما صنع !

فأجبته من فورى « يا خسارة ! » ، فأومأ برأسه يُؤمِّن على توجُّعى لحاله فى لوعة وحسرة ! ! وانطلق مشيِّعاً بضراعتى إلى الله تعالى أن يعوِّض عليهِ ولو بجهل ما عِلم ، ونسيان ما استذكر ! . واللهُ على كلِّ شىء قدير !!!

بين القاضى والمأمور

(كان قد وقع خلاف فى الرأى فى مجلس بيا الحسبى بين القاضى الشرعى ومأمور المركز أثناء نظر إحدى القضايا . ثم استحال الجدَل إلى مهاترة ، فمشاتمة ، فاشتباك بالأيدى . وقد كان الضربُ الذى كاله المأمورُ لصاحبه قاسياً مؤلماً . ولولا لطف الله ، ودخول الحاضرين بينهما ، لكانت فيها نَفسُ القاضى المسكين .

وقد كتب المؤلفُ هذه الكلمة عقب الحادث ، ونشرها فى (الأهرام) فى يونيه سنة ١٩١٦) .

سبَقَت « الأهرامُ » إلى ذكر تلك الحادثة الجُلَّى التى وقعت فى مجلس بيا الحِسبى بين فضيلة القاضى الشرعى وحضرة مأمور المركز .

ونحن لا نَجزَع من تهاتر اثنين ولا من تضاربهما ، فان جرائد البوليس وجداول المحاكم ، تَحتفِل كلَّ يوم بما لا يُحصَى عديدُه من حوادث السبّ والقذف ، والطعن والقتل ؛ ولكن جزعنا أن قاضياً تأدَّب بأدب الشرع ، وقرأ المنطق ، ودَرَس آداب البحث والمناظرة ؛ ومأموراً أخذَ القانون ، وولَّته الحكومةُ القيامَ على الأمن ، وتنفيذ الأحكام ، وصيانة الآداب — يجمع بينهما مجلسُ الحكم والولاية ، و يتفرغان للنظر فى شُئون الأيتام ، ومصالح العاجزين عن تدبير أموالهم ، ليقضيا فيها بحكم الله — فاذا اختلفا على رأى ، وافترقا فى النَّظر إلى مصلحة ، حَصِرا عن إيراد الحُجة ، وعَيِيا عن تأييد الرأى بقوة الدليل ، ولم يَطلُبا من وسائل الفَلْج وأساليب الأقناع إلاَّ التلاحىَ بالألسُن ، والتَّصافعَ بالأكفّ ، والتضاربَ بالعِصىّ ، والتَّرامحَ بالأَرجُل . ونعوذ بالله .

يَقعُد المأمورُ فى صدر المجلس الحِسبى ، والقاضى عن يمينه ، والأعضاء الأعيانُ عن يَساره ، والجند والحجاب ، آخذون مذاهبَ الأبواب . ولا أقلّ من ثلاثة نفرٍ

أو أربعة من عمد البلاد ووجوهها، وفَدوا لبعض شأنِهم فى المركز — ولو لمحض بثّ الشَّوق إلى (البك) المأمور —

ولو أجلْت طَرْفَك قليلاً لوقع فى زاوية الغرفة على جناب مفتش البنك الزراعى، وهو مُقبلٌ بالحديث على حضرة المعاون حتى يأذن الله بالفراغ من تلك الجلسة. أمَّا الصَّرَّاف فمشغول بالتَّسلُّل بين الكراسى والمكاتب، وطلب الطريق إلى (سعادة) المأمور، ولو من فوق رؤوس الأطفال، أو من دون آباط الرِّجال، فلا يكاد ينفلِت من مأْزِق إلاَّ إلى مأْزِق.

وفى بُهْرَة القاعة (أمْ القُصَّر)، وقد تعلق الثلاثةُ الأَيتامُ بذَيلها. وإلى جانبها حماتُها أمّ الفقيد وأخواه، وأمامَهم شيخُ البلد والشاهدان. ومن خَلفهم أهلُ القَرَابة غير الوارثين. ووراء الجميع جمعٌ من الحُجَّاب، يَدفعون أصحابَ القضيَّة الثانية بالأيدى والمناكب إلى ما بين يَدى الباب، حتى إذا فرَغ المجلسُ مما بين يديه أَخَذ ينظر فى شأنهم، (فلا يُرسِل السَّاقَ إلاَّ مُمسكاً ساقاً).

وفى بَهْو (المركز) من الأيَامَى والأَيتام، والأَوصيَاء والقُوَّام، وذوى القُربَى ومَشيَخة البلاد وغيرهم من المعدِّلين، والمزَكِّين، والشُّرَط والعَسَس، والأَصحاب والأَتراب، عددُ الرَّمل والحصَى والتُّراب.

فى هذا المَشهَد الجليل، والموقف العظيم الحَفِيل، اختلف الشيخ والمأمور، فتحاورا وتناظرا، فدَلَّ الشيخُ بشرف المنصِب وتاه بجَلالة الموضِع، واعتَزَّ بحُرمة الشرع الكريم، واستطال المأمور بأُبَّهة الرياسة، وباهَى ببَسطة النُّفوذ، وكاثَرَ بمن حوله من الحرس والجُند. حتى إذا نَفِد ما أعدَّاه من المكاثَرَة والمفاخَرَة، وما فُتِح عليهما فى فنون المجادلة والمُهاتَرَة، وثارت الحمية فى النفوس، وتوثَّبَت الحفِيظةُ فى الصُّدور، عُقِدت الأَلسُنُ عن السَّب والشَّتم، وتحركت الأَيدى

بالضرب واللَّطم . وجَعَلت العِصيُّ تَتهاوَى على الرؤوس والمناكب ، كما تَتهاوَى في اللّيل البَهيم الكواكب ، والناسُ في أمر مُختلِط : فمن جُنديٍّ يتهيَّأ للقِتال ، ويتحفّز للنّزال ، ومن خُودٍ يَطلبن الأبواب ، وفِتْيان ينظرون لمن يكون الظفَر والغِلاب ، ومن شيخ يَضِجّ ، وعجوز تَعِجّ ، وطفل مذعور ، وغلام يُصفِّق من الطَّرب والسرور .

أما حاجبُ المحكمة ، فقد « اختَفَى من الأَثَاثِ في البُرم » . وانتهت المعركة ببطش المأمور بفضيلة القاضي الذي خَرَّ صريعاً ، بعد أن صُدِعَت ساقُه ، وخُمِشَت أَشداقُه ، وكُسِرت ذِراعُه ، واختَلفَت أَضلاعُه . وكذلك ظهرت القوَّةُ على جلال الفضل ، وعُقِد لها لِواء النَّصر في المعركة الأولى . ولا يَدرِي إلاَّ اللهُ لمن يكون الغَلَب في المعركة الثانية ، بين يدَى النيابة إن شاء الله !

تفرَّق الجميع ، ونَفَر الناسُ إلى بلادهم قانعين بسلامة الإِياب !

أَمَّا حديثُ الموقِعَة ، فتسمعه مفخَّماً مجسَّماً من شهود الرُّؤية ، سواء في مجامع الشيوخ على المصطبة ، أو الشُّبَّان في الحَقل (الغيط) ، أو الفِتيان في البَيْدَر (الجرن) ، أو النساء على المَوْرِد (الموردة) ، أو الأطفال على سِيف التُّرعة . ويا له من حديث ، حديث تضارب الحكام ، في مجلس الولاية والأحكام .

* * *

وبعد فإِنهُ لا غَناء للقاضي الشَّرْعي عن حضور المجلس الحِسبيّ كلَّ أسبوع مرةً لأنهُ عُضوٌ فيه ، بل لأنه الذي يقيم - بحكم موضعه - من يجتمع الرَّأيُ على إقامته من الأَوصِياء والقُوَّام ؛ فما عسى أن يَصْنع القضاةُ بعد الآن ، وقد سَنَّ مجلسُ بيا الحِسبي سنةً جديدةً في تبادل الآراء وتداول الأَفكار ، وهم كما يَعلم الناسُ قاطبةً قومٌ نِحافُ الأجسام ، رِقاقُ العِظام ، لا حيلةَ لهم

عند الخِصام ، ولا سداد لهم فى مَوقِف المقـارعة والصِّدام . أما المأمورون فهم جُنـدٌ أو أشباهُ جُند ، صَلابة عُود ، وقوة ساعد ، وشدة مُنَّـة . وقد ازدادوا بطول الرِّياضة والتمرين بأساً عند مقارعة الأقران ، وصَولةً فى يوم الكريهة والطِّعان !

الرَّأىُ عندي أنهُ ما دامت الحـكومةُ مُبقِيَةً على القضاة ، وما دام يجتمع فى المجلس الحِسبيّ مثلُ قاضى بيا ومأمورها ، فلا مَندُوحةَ لهـا عن اختيار واحدة من ثلاث :

فإمَّا أن تَختار القضاةَ الشرعيين من خِرِّيجى المدرسة الحربية ، حتى تَتَـكافأَ القوَّتان ، فى فنون الضَّرب والطِّعان ! .

وإمَّا أن تأمر بألاّ يُعقَد المجلسُ الحِسبيُّ إلاّ إذا استوثَق الأعضاء من كِتاف المأمور ، فلا يَصِل شرُّه إليهم ، ولا تضرّ صولتُه عليهم !

والثالثة أن تُخرِج للقضاة الشرعيين ، بدَل الأَوسمة التى تطبعها لهم ، دُروعاً تقيهم بأس المأمور وأذاه ، وتَعصِمهم من كَفِّه وعَصاه ؛ وإلاَّ فالتخلُّفُ عن الحضُور ، أخفُّ من كَفِّ المأمور . والدخولُ فى مجلس التأديب ، أهونُ من الدُّخول فى هذا المُعترَك ، والوُقوع فى هذا الشرَك !!!

يوم ويوم ! . . .

جازت بى أَصيلَ اليوم زَفّة لجهاز عروس ، تتقدمها الموسيقى العاديّة ، فالمؤنس (موسيقى القِرب) . يليهما عنُقٌ من الشبان والفِتيان : هذا باسطٌ على راحتيه ديباجةً مزركشة ، وهذا حامل غِطاء مُرقَّشاً . وثالث (صينية) نحاس مكفَّتة بالفِضة، ورابعٌ آنية زجاج مموَّهة بالذهب . وخامسٌ علبة من الجلد انتَظَمت ثلاثةَ أكواب مفضَّضة الكعوب . وسادسٌ شاهرٌ حِذاء حريريًا . . . . وتاسعٌ طاسَ حمَّام صيغ من الفضة الخالصة . . الخ . . الخ . .

ثم يلي هؤلاء قِطار من عربات (الكارُّو) لا يكاد يُدرك الطَّرفُ آخرَه : هذه تحمل حَشِيّة (مرتبة) وغطاء سرير . وهذه تحمل طُنفُسةً وكرسيّ خَيزُران . وثالثة بُسط عليهــا لِحاف مزخرف وثلاث وسائد مدبَّجة الأطراف . ورابعة عليها « دولاب » يتوجَّه بثلاثة أبواب من البللور . وخامسة تَظْهَرها « كنبة » و (فوتيان) منجَّدَةً ثلاثتهــا بحرير أرجوانى . وسادسة تحمل سائر (الطقم) من كراسى و (كنصول) ومناضد . وهكذا حتى يأذن الله ويجىء دور آنية النُّحاس من أباريق ، وطسوت غسل الثياب ، وطسوت الحمّام ، ومن حِلل ومغارف ومصافى . . . الخ . . . الخ . . . !!!

*
* *

وهذا ما يكون من أمر يوم الجهاز عند هذا الضَّرب من الناس . أما ما يكون من أمر يوم (العزال) فلا أكثر من عربة واحدة لحمل هذا كلِّه ، مَزيداً عليه ما لا يَدخل فى جهاز العروس من (الماجور) و (الشالية) والزير وحمّالته ، وطاحونة البنّ ، وأقفاص الفراريج والحمام وغير ذلك . يُركَم ذلك كلُّه بعضُه فوق بعض ، حتى ليخيَّل إليك ، من عظم ارتفاعه ، ان سَراته تَحُكّ قَرن الشمس !!!

اعوذ بالله ! . . .

على طريقى إلى الدار (حانوت) والعياذُ بالله تعالى ، نُضِّدت فيه خُشُب الموتى ، ودَكك الغسل تنضيداً بديعاً . وسُجِّيت على بعضها نماذجُ الأكفان الزاهية الألوان من (شاهى) للرجال ، و (كريب چورچيت) لموتى العرائس . ولم يَعدْ يَنقص هذا (الحانوت) الطريفَ إلاَّ أن تقام على بابه (ڤترينة) تُزيِّن بأسباب الموت وحوائجه.

ويجلس على بابه كلَّ يوم من الصباح الباكر عماله الكرام ، من (غاسلين ، وحمالين ، ومنشدين) ، وهم يتوسَّمون وجهَ كل غادٍ ورائح . لعل القدَر يُسعدهم برزوء فى أحد بنيه ، أو فى أمّه أو فى أبيه .

وجُزتُ بهم مُصبَح يوم وعيناى تَنتضِحان بالدمع من أثر رمَد ، فأتلعوا إلىَّ أعناقهم ، ورأيت البِشر يَشيع فى وجوههم . وسَرعان ما تحركوا جَذِلين للقائى . وهم يدعون الله فى أنفسهم أن يجعل (استفتاحى لبن !) ، فصحت فيهم : استريحوا يا أولاد الـ . . . فمابي والله بكاء ، ولكنه الرَّمد . وكلنا ، والحمد لله ، بخير وعافية . وقطع الله أرزاقكم ولا أدخل النعمة عليكم أبداً . . . !

(أوكَّازيون) !

تلقيت من بعض معارفى هذا الكتاب :

حضرة . . .

قرأت ما كتبتَه عن (الحانوت) الواقع على طريق دارك . وغيظك من نشاط هذه (الطائفة) ، واجتهادها فى عملها ، وإعلانها عن بضاعتها بعرض حوائج الموت مرتبةً منظَّمةً مزيَّنة الخ . .

وإنى مصارحك يا سيدى بأن المصريين مهما افتنُّوا فى هذا الباب ، فما كانوا ببالغين فيه شَأْوَ الإفرنج . فلقد وقعت ليدى فى ربيع العام الماضى جريدةٌ إفرنجيةٌ تَصدُر فى القاهرة ، وفيها الإعلانُ الآتيةُ ترجمتُه صادراً من محل (حانوتى) مشهور :

إعلان

« نتشرف بأن نعلن حضرات زبائننا الكرام بأنه نظراً لقرب حلول موسم الصيف ، وبَدء ظهور الأوبئة وانتشار الحُمَّيَات ، قد أجرينا تخفيضاً هائلاً فى الأسعار ، فضلاً عن أننا قد استحضرنا من أوربا عربات فَخْمة من جميع الأحجام للرجال والسيدات والأولاد . وصناديق مذَهَّبة ومنضَّضة ، ومحلاة بأدقّ النقوش وأبدعها . كما استحضرنا كميات وافرة من (الكورونات) وغيرها . ومن يشرّف يرَ ما يسره » !

فما قولك فى هذا الاعلان ؟ ! المخلص (ن)

(حاشية) نسخة الجريدة ما زالت تحت يدى ، وإنى على استعداد لإرسالها اليكم إذا شئتم وتقبلوا . . . (ن)

(اليوميات) أما نسخة الجريدة فلا حاجة بى إليها يا سيدى (ن) . لأننى لم أعتزم الموت إلى الآن . على أنه إذا جرى القَدر على نفسى أو ، لا أذن الله ، على أحد ممن أَحْمِلهم ، فاننا لن نعامِل فى هذا إلاَّ إخوانَنا المصريين . ومهما يكن من شىء ، فالمهم فى الموضوع أن نعرف أثر هذا الاعلان اللطيف المشوّق فى إقبال الجمهور على ذلك الحانوت الشهير ! . . . ولعله يُتِمّ صنيعه فى موسم العام القادم ، إن شاء الله ، فيُخرج لعملائه الكرام (لوتريَّة) تُعطِى من يُسعده الحظّ منهم بالنمرة الرابحة ، الحقَّ فى التجهيز والدَّفن مجانًا !!! .

فى الخدمة ! . . .

لقِيَنى اليومَ فى الترام لحَّادٌ (تربى) مشهورٌ أعرفه . فسلّم وسلّمت ، وأقبلتُ عليه أُحييه ، بما جرت به عادة الناس ، وأسأله عن شأنه ، فقال لى يردّ التحية فى لهجة تَشفّ عن الصدق والإخلاص : (إحنا فى الخِدمة !) . فقلت له : الله يحفظك ! فأجاب من فَوره كذلك فى إخلاص ولهَفة : (ربنا لا يحرمنا منك !)

* * *

وبعد ، فما أحسب أن دعوةً فى هذه الدنيا محققة الأجابة قدر هذه الدعوة ، (فانَّا لله وإنَّا إليه راجعون) !!!

شعراؤنا والندابات ! [١]

الحمد لله . لقد أصبح عندنا « طقم » شُعَراء لا يقل استعداداً ولا سرعةَ إجابة فى المهمات عن «موسيقى حسب الله» ، تَمشى فى «الزِّفف» كما تمشى فى «الجنائز» ، وتعزف دائماً — على حسب الأحوال — بالمُطرِب والمُحزِن من الألحان !

أَمسَى « طقم » الشُّعراء من ضرورات الحياة عندنا ، يَخِفّ للدَّعوة ويَنشَط للشعر هناءً لكل مُعْرِس ، وترحيباً بكلّ قادم ، وتكريماً لكلّ مُولَع بالظهور ، ورثاءً لكلّ ميت . ولا يبعد أن تتّسع غداً هذه المهنة فيحل شعراؤنا محلّ جماعة « شوبش » فى « صبحية » العُرْس . و « صَلُّوا عليه سعيد » بين يدى موكِب « المطاهر » !

ولعل شعراءنا المجيدين يتَّخذون لهم محلاً مختـاراً حتى يكونوا تحت طلب (الزبون) فى كل وقت ، فلا يُتعبوا أصحابَ (الأفراح) ولا أهل الموتى فى التماسهم ، وطول البحث عنهم . وهم مخيَّرون بين أن يَتَّخذوا لهذا الغرض قهوة (الآلاتيَّة) بشارع محمد على ، أو حانوت السيد مصطفى على بالسيدة زينب ، ما داموا مطلوبين دائماً للأعراس كما هم مطلوبون للمآتم . على أنه سيأتى ، وقد يكون قريباً جداً ، ذلك الوقتُ الذى يكلِّف صاحبُ « المهمّ » الفراشَ بإحضار « طقم » شعراء ، كما يَستحضِر عادةً « طقم » الموسيقى ، و « طقم » المولوية ، وحملة المباخر والقماقم الخ .

---

(١) نرجو أن يوسع شعراؤنا صدورهم لهذه الداعبة التى لا نبغى بها حطاً من أقدارهم ، ولا أن نغمط ما لأكثرهم من الفضل على الأدب . ولا نريد بالبداهة كل شعراء مصر فان فيهم من هم أجلّ من أن يلحقهم مثل هذا النقد . على أن من تقصدهم أعلم بأنفسهم وأدرى بما يصنعون مما فيه مهانة للشعر وزراية على الأدب ، نرجو أن يتنزه عنهما كل من يحبون أن يسمّوا شعراء

لقد مات كثيرٌ ممن لا شأنَ لهم ولا جَليلَ خطَر فى هذه الحياة . بل لقد كان بعضُهم ممن تعفّ عنهم كلُّ فضيلة ، وتَـكبُر عليهم أحقرُ المزايا ، ولم تَتعلّق مُنَى أهليهم ولا أصدقائهم بأن يَعقِدوا لهم يوماً للرثاء . ومع ذلك بادر « طقم » الشعراء أنفسهم فأعلنوا بلسانهم الدعوةَ إلى يوم الأربعين لاستماع مراثى فلان وفلان ، وفى بعض الأحيان اضطلع هؤلاء « الشعراء » بما تقتضيه «الحفلةُ» من النفقات ، حتى يُسمِعوا الناسَ أشعارَهم ، ويَتبارَوا فى إعلان بلاغاتهم !

والعَجَب العاجب — ولا يَتعاظمنَّك الأمر أيها القارئ — أن بعضَ إخواننا الشعراء غلبوا جماعة « الموالدية » أمثال الشيخ الحَمزاوى ، والشيخ سُطوحى ، والشيخ الزِّرْبى ، إذ أصبحوا يُؤجرون عَدداً من المرتزقة ليَرفعوا الأصواتَ بالهُتاف لهم كلما أنشدوا ، ويَبرُوا أيديَهم من التَّصفيق كلما انحطُّوا إلى موضع قافية ، ولو كانت الحفلةُ حفلةَ رثاء لميت وتفجُّع على راحل !!

لقد أصبح وجهُ الشَّبه شديداً جداً بين طائفة من شعرائنا وطائفة « الندَّابات » فى مصر . وهل جاءك أيها القارئ العزيز نبأ السيدات : حَطَبة ، وحَنطوره[1] ، وأمّ إمام ، وبِنْبِتْ ، ودِجْدِجَة ؟ . .

إنهن لا يَنقُصن عن شعرائنا بديهةً ولا حضورَ قول ، وأكثرهن ، كذلك ، تشتغل نائحة فى المآتم و (عالمة) فى (الأفراح) ، يُشِعْن الطربَ فى هذه ، بقدر ما يبعثن الشَّجَن والأسى ، ويُثرن الدمعَ مِدراراً فى تلك . إنهن فى عامة الشَّعب قد يَكنَّ أبلغَ تأثيراً وأعلى مكانةً من بعض شعرائنا فى أشباه خاصَّته !

لقد دُعِين إلى مَناحة المرحومين : مَنْبُوك ، وكَسَلَة ، وبَلَحة ، وإأّه ، وخليل بَطِّيخه ، وغيرهم وغيرهم من (عِتَر) البلد و (صَبْواتها) . ويا طالما هيَّجْن من زَفَرات ،

---

(١) حطبة وحنطورة من تلميذات الفنانة الشهيرة المرحومة الأستاذة (كوهيَّة) رئيسة (الندابات) فى مصر .

وأَجرَين من عَبَرات ، وبَعَثن الأَكُفَّ تُشبع الخدود لَطْماً ، واستَنفَرن الأظافير تَفرِى الصدور لَدْماً ، وكم دَقَقنَ الرؤوسَ دقّاً ، وشَقَقن الجيوبَ شقّاً .

وإذا كان شعراؤنا لا يَعدُون فى وصف كلّ ميت بأنه أجملُ من القمر ، وأعلمُ من الجاحظ ، وأشعرُ من زُهَير ، وأكتبُ من ابن المقفّع ، وأبلغ فلسفةً من ابن سينا ، حتى لا نكاد نميز ميتاً عن ميت — فان فى (النَّدابات) قصداً فى القول ، وتَحرِّياً فى « النَّدب » لما هو أشكلُ بكلّ ميت !

ولقد تُوفّى فى صدر هذا الأُسبوع المغفورُ له المعلم دُقدُق الجزّار ، فكان مما قلن فيــه :

« اسم الله عليك يا خُويَه يا خَطْرة الباشَه »
« يا مَحلَى أورطك — يا عينى — فى حَبْكَة اللّاسَه »
« اسم الله عليك يا خويَه يا خَطْرة اليمَنى »
« يا مَحلَى دِراعك — يا شَلَبى — فى الشَّاهى اللّبَنى »

والشىء بالشىء يُذكر ، فلقد اتّصل بنا ممن لا يُشكّ فى روايته ، أن المحلات التّجارية الكبرَى ، رأت أن تَتخذ من (الندابات) أحسن رِكلام عند من يَغْشَين المنَاحات من السيدات . لذلك تراهن ينتهزن الفرصةَ فى موت إحدَى العذَارَى فيقلْن فيما يَندُبْن مثلاً :

« يا لّى ما لِحقتيش تِتهَنّى يا حلوه ! يا لّى ما لِحقتيش تِتمتّى يا عروسه ! يا لّى ملحقش أبوك يفْرَح بِك يا شَبَّه ، ولا يجهِّزك من محل فلان . يا لّى ما وعيتيش لما يشترى لك الطقم اللّاكيه اللّى على الشّمال والواحد داخل يا حلوة . يا لّى ما ستَنّيتيش لمّا يجيب لك من « الكريب دى شين » الموضه اللّى جه الجمعة دى بس يا ختى . يا لّى خطفك الخَطّاف قبل « الكازيون » اللّى فيه الحاجة هناك بتراب الفلوس يا عروسة !!! »

يا لِّلى . . . يا لِّلى . . . حتى تستوفى « الكتالوج » ، وتَستقصِى أسعارَ (الاكّازيون) عن آخره !

وما يُدرينا ، فلعلَّ تجارنا واصلون غداً إلى أن يَأجُروا بعض شُعرائنا ليصنَعوا لهم (رِكلاماً) عن بضائعهم و « مُودَاتهم » فى حفلات الأربعين ، فيُنشدوا مثلاً فيما يُنشدون من أبيات الرثاء والتأبين :

كم زُرتُ قَصرَكَ والإعجابُ يَدفعُنى ۞ لِوَصفِ كل طَريفٍ فيه مَجلُوبِ
« رأيتُ فيه بِساطاً جَلَّ ناسِجُه » ۞ من خَيرِ ما يَحتوِى دكانُ شَلْهُوب[1]
دكانُ شَلْهوبَ يَستهوِى النفوسَ بما ۞ يَضُمُّ من تُحَفٍ فى حُسْنِ تَرْتِيبِ

*
* *

رأيتُه فى قَميصِ الخَزِّ مُزْدَهِيًا ۞ مما يُقَدِّمُ (بِرْنَارُ[2]) لأَمْجَادِ
وفَوقَهُ (بَدلَةٌ) من خَيرِ ما صَنَعَت ۞ أيدِى المُجيدِينَ من صُنّاع « سِيفَادِ[3] »
عنـد العَقارِىِّ ذا تَلْقَـاه مُنبَسِطاً ۞ وذَاكَ فى الطَّابقِ العُلْوِى بِمِرْصَاد

*
* *

ولقـد تخرّمك المنيـةُ قَبلَمَـا ۞ تَهْنا بمـا جَلَبوا إليكَ وأطْنَبُـوا
لجهـازِ عُرْسِـك كلَّ غالٍ قَيِّمٍ ۞ جادُوا به فَمُفَضَّضٌ ومُـذَهَّبُ
من عنـدِ سَمعانَ الشهيرِ وبَعضُه ۞ مِن شِيكُرِيلَ أعزّ ما يُتطَلّبُ

وبهذا يخدم شعراؤنا الأوطان ، بما يَسبِقون فيه الأمريكان ، من التفنُّن فى وسائل الإعلان !

---

(١) تاجر (موبليات) (٢) تاجر قمصان (٣) خياط كان محله بازاء البنك العقارى

الشيخ حَسن غَنـْدَر

(كان من حق هذا المقال أن يوصَل بحديث التطفيل والطفيليين ؛ ولكنه كتب بعد طبع ما تقدم من الكتاب)

وما أدراكَ ما الشيخ حسن غَندَر ؟ . لقد كان الشيخ غَندَر من مباهج مصر ، وآيةً يَتيه بها ذلك العصرُ على كلِّ عصر . نعم ، لقد كان المفرَد العَلَم فى (فنّ) التطفيل ، وهيهات فى الزَّمان بمثله (فإن الزَّمان بمثله لَبخيل) !

كان ، رحمه الله ، طويل القامة ، ليس بالبـدين ولا بالهزيل . مستطيل الوجه ، شديد حمرته ، لو نَضا عنه عِمامَته لخِلته من أبناء التاميز . تدور حوله لحيةٌ دقيقةٌ بيضاء ، لا أثر فى شَعَراتها لسواد . أزرق العينين ، رقيق الحاجبين ، مقوَّس الأنف . ولعلك فى غير حاجة إلى من يَزعُم لك أنهُ لم يكن دقيق الفم . وكيف يُتصوَّر له هذا ، وفمُه هو سبيلُه إلى ذهاب صيته ، وشُيوع ذِكره ، وخلود اسمه ؟ !

وكان ضَخْم الصَّوْت ، إذا تحـدَّث أحسستَ أن صوته إنما يَجئُ من أقصَى حَلقه !

ثم لقد كان حسَن السَّمت ، نظيف الثَّوْب ، فاخر البِزَّة . لا يَلبَس القَباء إلاّ من صُنع الحمّصَانى . ولا يفصِّل الثيابَ إلاَّ عنـد أشهر الخيَّاطين . فإذا كان الصَّيفُ وضع عليهِ الجُبَّة من الحرير المتموِّج (موريه) المعروف عند أولاد البلد (بالألاج) .

وترى فى إصبَعه خاتَماً كبيراً من الماس النقىّ . فإذا اقتحم به مِهرَجان العُرس وتساقطت عليهِ أضواء الثُّريَّات ، تموَّجت من حوله ألوانُ الطيف ، وبرَقت من أقطاره أشعةٌ تكاد تَخطَف الأبصار !

وبعد ، فلقد كان ، إلى هذا التأنق والتجمُّل ، عذب الرُّوح ، فِكه الحديث ، حسَن المحاضرة ، حُلو المنادمة ، حاضر النكتة ، عالمًا بأخبار النـاس ، محيطاً

بصفاتهم وأسبابهم وشمائلهم . يحدّثك عن أجوادهم وبخلائهم ، ومن يهشّ للأضياف منهم ، ويتبسّط على طعامه معهم . ومن يُغلِق دونَ الضَّيف بابَه ، ويُقيم عليهِ إذا حضر الغَداءُ أحراسَه وحجَّابه . ومن يُخفِت نَشيش[1] اللحم حتى لا يسمعهُ الجار ، ويكتُم ريح القُتار[2] فلا تَشَمّه القِطَّة ، ويُضلّ بلطف حيلته النَّملَ عن موضع السكَّر فى البيت .

وإنهُ ليحدّث عن عادة كلّ عين من أَعيان البلد فى طعامه وشرابه ، ويَعرف ما يُؤثِر من ألوان الطَّعام وما يَكره . وكم يقرَّب إليه من الصِّحاف فى غَدائه وفى عَشائه ، ووظيفة مطبخه من اللحم والطير فى كلّ يوم . وكيف يَطهِى له طاهيه ، وأَىّ الأَلوان يَحذِقه ويجود فيهِ . وما الذى يعالجه بالسَّمن ، والذى يعالجه بالزيت أَو الخلّ . وماذا يُشوَى منهُ وما يُقلَى ، وما تُذكَى له النارُ وما تُخبَى . وما يُكمخ منهُ ويُتبل[3] ، وما يُعجَل بالطَّهى وما يُنظر حتى يَذبَل الخ . حتى ليُخيَّل إليك أن بصيرة هذا الرَّجل تَقتحِم كلّ بيت ، وتَنفُذ إلى كلّ مطبخ . وأن عينه تَسلُك كلّ قِدر ، وأنفه يَجول فى كل بُرمة ! .

وهو إذ يُحدّثك فى هذا ترى شِدقَه دائمَ الاختلاج ، وشفتيهِ لا تَفتُران عن التحلُّب ، شأنَ من ألحّ عليهِ الجوع ، وهو يرى أَشهَى الطَّعام بين يديه ، ولكن لا سبيلَ له ألبتة إليهِ !

ولقد يَجول الشيخ غَندَر فى غير حديث الطَّعام ، فيُبدع فى حديثه ، ويُلوّن فى سَمره ، ويَفتنّ فى إيراد النكتة كلما دعت مناسَباتُ الكلام . وبهذه الخِلال فيهِ كان أثيراً عند كثرة الخاصَّة ، محبَّباً إلى نفوسهم ، يشتهون مجالستَه بقدر

(١) النشيش : صوت اللحم وهو يطبخ أو يُقلى (٢) القتار : رائحة الشواء

(٣) المراد ما يشهِّى به الطعام من المخللات و (البهارات) ونحوها

ما يَشْتهى هو مؤاكلتَهم والإِستواء إلى موائدهم . حتى إذا انتظمهم الخوانُ فى عُرس أو نحوه ، لم يتبرَّموا بتدسُّسه ، فى سِرّ من ربّ الدار ، بينهم . بل ربما فَسَحوا له وكفُّوا سَطوةَ ربّ الدَّار عنه . وأنت خبيرٌ بأن هؤلاء ، فى العادة ، إنما يُجيبون دعوةَ الدَّاعى لأرضائه ، وإظهار الإِحتفال لشأنه ، لا ليُصيبوا عنده دَسَماً ، ولا ليُشبِعوا من طعامه نَهَماً . فلا بأسَ عليهم بأن يَحتاز هذا الطفيلىُّ الظَّريفُ الطَّعامَ دونهم ، ويَمِلكه كلَّه عنهم . بل إن تقبيحَه فى طعامه ، وشهودَهم لافتراسهِ والتقامه ، لممَّا يُعجبهم ويُدخل السُّرورَ عليهم !

وكيفما كان الأمر ، فإِن هذا الرَّجل ما يزال إنساناً وديعاً أنيسَ المَحضَر ، ظريفَ المجلس ، حتى يحضُر الطعام . فإِذا حضَر جُنَّ جُنونهُ ، وثار ثائرُه ، وخِيفَت بَوادره ، وتغير خَلقُهُ ، وتنكَّرت صورتُه ، وأمسى مَنظَره مفزعاً مرعباً . ولو قد رأيتَه وهو يَفرِى الفَرِىّ ، ويَلتهم اليابسَ والطَّرِىّ ، لخِلت أن كل شئ فيهِ قد استحال فماً : فهو يأكل بفمهِ ، ويأكل بعينـه ، ويأكل بأنفه ، لا تراه يَلوكُ لُقمةً أو يحرّكُ للمضغ ضرساً . بل إنهُ لَيكوّرها ثم يقذف بها فى حلقه ، فتكاد تسمَع رنينها فى قَرارة بَطنه . فإِذا فرغ من شأنه ، وما بيده أن يفرِغ ، لبث يتلمَّظ ساعة . ثم ارتدَّ إنساناً وادِعاً ظريفاً يلوِّن السَّمرَ ، ويُفنِّن الحديثَ تفنيناً ! .

* * *

وبعد ، فسترَى من هذا الرجل فى أسباب تطفيله العَجَب العاجب : لقد كانت له ضَيعةٌ فى ضواحى القاهرة لا تقلّ عن مائة وسبعين فداناً . وكانت له بَنِيَّات (منازل ودكاكين) فى قلب المدينة يَجبِى رَيعها . وقد أتلف هذه الثروةَ الضخْمة . وأتى عليها تمزيقاً وتبديداً ، حتى خرج فى مُؤخِرات أيامه عنها كلها ، كما خرج بالموت عن الدنيا كلها !

لم يكن الشيخ غندر مقامراً ولا مضارباً . ولم يكن سِكّيراً ولا طِلْب نساء . ولم يدخل فى (مقاولة) أو يجازف فى تجارة . ولم يداخل طَوالَ حياته سبباً من الأسباب التى تأتى ، فى العادة ، على رؤوس أموال الناس ! إذن فاحزُر . وما أراكَ بعدُ بقادر !

لقد أَتلف الرجلُ ثروتَه كلها ، وأَتى عليها جميعها فى سبيل التطفيل وحدَه لا فى أىّ سبيل آخر !

أليس من أعجبِ العَجَب أن يُتلف امرؤٌ جلائلَ الأموال فى سبيل الإِصابة من طعام الناس بالمجَّان ؟ وأىُّ شىء يكون التطفيلُ غيرَ الارتصاد لأصابة جيِّد الطعام بالمجَّان ؟

إذن فإليك السبب ، و إذا عُرف السبب ، بطل كما يقولون العَجَب ! :

لقد استَمكنَت شهوةُ التَّطفيل من الرجل ، حتى استحالت فيه طبيعةً وغريزةً وجِبِلة . فأمسى يَطلبها لذاتها متجرّدة من أى اعتبار آخر . إنه شَهْوان إلى طعام الناس ، يَسقط عليه ، ويَقتحِم له مهما يُصِبه فى سبيله من المشَقَّة حتى فى إتلاف الأموال !

ولقد كان فى مصر طوائفُ من أولاد (الذوات) المسرفين المستَهتَرين بألوان المنكرات . ولقد تُصفِر أيديهم فى بعض الأحيان ، بِضنّ الوالدين ، أو بتعجيل الإِتلاف لوظيفة الشهر أو لذخيرة العام . أو بغير ذلك من أسباب العُسر . فكيف لهم بالمـــال ؟

لقد عَرَفوا الشيخ غَندراً ، وأدركوا مَدَى همّ البطن فيه ، وهداهم الرأىُ إلى استغلاله من هذه الناحية . فاذا أَعوَزوا واحتاجوا إلى المال . بَعثوا فى طلب حَمَل (قوزى) أو ديك رومى ، ودفعوه إلى طاهى أحدهم ، وأَوصَوه بأن يُحسن إنضاجَه ، وبأن يَطهى ألواناً أخرى من شهىّ الطعام وفاخر الحلوى . ثم دسُّوا على الشيخ حسن من يُخبره الخبر . ويَستوصيه بألاَّ يُفشى للجماعة سرَّه . فيُهروِل من فَوره

إليهم . حتى إذا طلع عليهم تنكَّروا له ، وربما ردُّوه بالقول الغليظ ، وهو يَستعطفهم ويَتوسَّل إليهم ، وربما تركهم فى إصرارهم وانسلّ إلى المطبخ ، حتى إذا رأى ما رأى وشمَّ ما شمّ ، اقلب إليهم وقد زاغ بصرُه ، وتقلَّصت شفتُه ، وجعلت أسنانُه تُضقِض قَضقَضةَ المقرور . ثم عاد يَتوسَّل ويَتذلَّل . فيُباديه بعضُ القوم بأنه حلَف بكل مؤثمَّةٍ من الأيمان ألاَّ يَقرب الطعامَ إلاَّ إذا أَقرَضه عشرين جنيهاً أو ثلاثين لغاية الشهر ، فيُسرع إلى داره ، إذا لم تكن حاضرةً فى جيبه ، ويجىء بها ما تَنقُص قرشاً واحداً . وهو الذى يَحتمِل أجر المركبة إذا كانت المسافة مما يَستدعِى اتخاذ المركبات . وربما ورَّطوه فى ضمانة أو نحوها من وجوه الالتزامات ، ففعل ، نزولاً على حكم البطن العاتى الجبار . وهكذا . . . !

ولقد تَرامَى هذا إلى غيرهم من (أولاد البلد) فحذَوا فى استخراج الأموال منه حَذوَهم . حتى أَفلَس الرَّجلُ وأَمحَل ولصِقت يدُه بالتراب !

*
* *

هذا ما كان من أمر الشيخ حسن غَندَر فى طعامه . أما ما كان من أمر شَرابه . فلقد كان لبطنه فيه كذلك عَبقريةٌ وجَبَروت .

وإنى أبادر فأوكد لك أننى لا أَعنِى بالشراب الخمر ، فان الرجل لم يكن يذوقها قط ، فلقد كان ، رحمه الله ، شديدَ التأثُّم . حريصاً على دينه من هذه الناحية . إنما أَعنِى بالشراب ما آحلولَى طعمُه ، وساغ فى الشرع حُكمُه . وإن كان لا يرى حرجاً من منادمة جماعات الشاربين .

وإنى أكتفى ، فى هذا الباب ، بذكر نادرة واحدة من نوادره ، نُتمّ بها الكلام ، لتكون (مِسك الختام) :

فى ذات عشيَّة سقَط الشيخ غندر على (فلان بك) ، وكان ، غفر الله له ، من أبناء (الذوات) الموسرين ، المستَهتَرين بالشَّراب . وهو كذلك من أولاد

النكتة أصحاب البدائه ، وكان الشيخ غندر أثيراً عنده ، يستمتع بلطف حديثه ، كما يستمتع برؤيته فى ثورة نَهَمه .

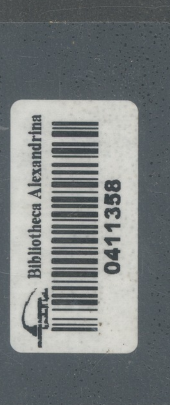
وقبل أن يَمضى إلى مَباءات سُكره وعَبَثه . استصحب الشيخَ إلى بعض المطاعم المشهورة ، وحكَّمه فيما يَشتهى ، حتى إذا بلغ كفاياته من الطعام ومن الحلوى والفاكهة أيضاً . وناهيك بكفايات الشيخ غنــدر ، انكفأ به إلى بعض الحانات الكبيرة . ودعا لنفسه بخمر مما يُشرب فى الكؤوس الدِّقاق ، ودعا للشيخ بكوب من (الشربات) ، فجاء الغلامُ بكأس الخمر ، وجاء معه بكوب كبير جداً من (الشربات) . وما كاد صاحبنا يُفرغ الخمرَ فى حَلقه فى جرعة ، حتى رأى الشيخ يَصبّ كوبَه الضخم فى بعض جرعة . ثم دعا بالغلام وسأله كاساً له أُخرى . وهنا تقدّم الشيخ حسن وقال للغلام : أريد يا بنيّ أن تأتينى هذه المرَّةَ بشراب الورد ، فانه طيب الرائحة لذيذ الطعم . ثم طلب صاحبُنا الثالثة ، فأسرع الشيخ وقال للغلام : أمَّا هذه المرَّة فعليّ بشراب اللوز (الصومادة) ، فانه يُصلح المعدة و يبرد من حرارة القلب . ثم دعا صاحبُنا بكأس رابعة . فقال الشيخ للغلام : عليّ هذه المرَّة يا بُنيّ بشراب البنفسج (الفيوليت) ، فانه بديع النَّـكهة ساحر المذاق !

ثم رأى صاحبُنا ، على عادة المستَهتَرين من أصحاب الشَّراب ، أن يَتحوَّل إلى حان آخر ، فدعا لنفسه بخمر ، ودعا الشيخُ لنفسه كذلك (بشربات) . وظلاَّ يتحوَّلان معاً من حان إلى حان ، يَشرب صاحبُنا خمراً ، و يَشرب الشيخُ بإزائه (شربات) حتى كاد يَنصدع عمودُ الصبح . ثم انقلبا إلى الدُّور . فاذا هذا قد أصاب اثنين وعشرين كأساً من الخمر ، وإذا الشيخُ غندرٌ قد والَى بإزائه بين اثنين وعشرين كوباً من . . . . (الشربات) !!!

فهرس الكتاب

الباب الخامس

فى المداعبات والأفاكيه


Bibliotheca Alexandrina
0411358